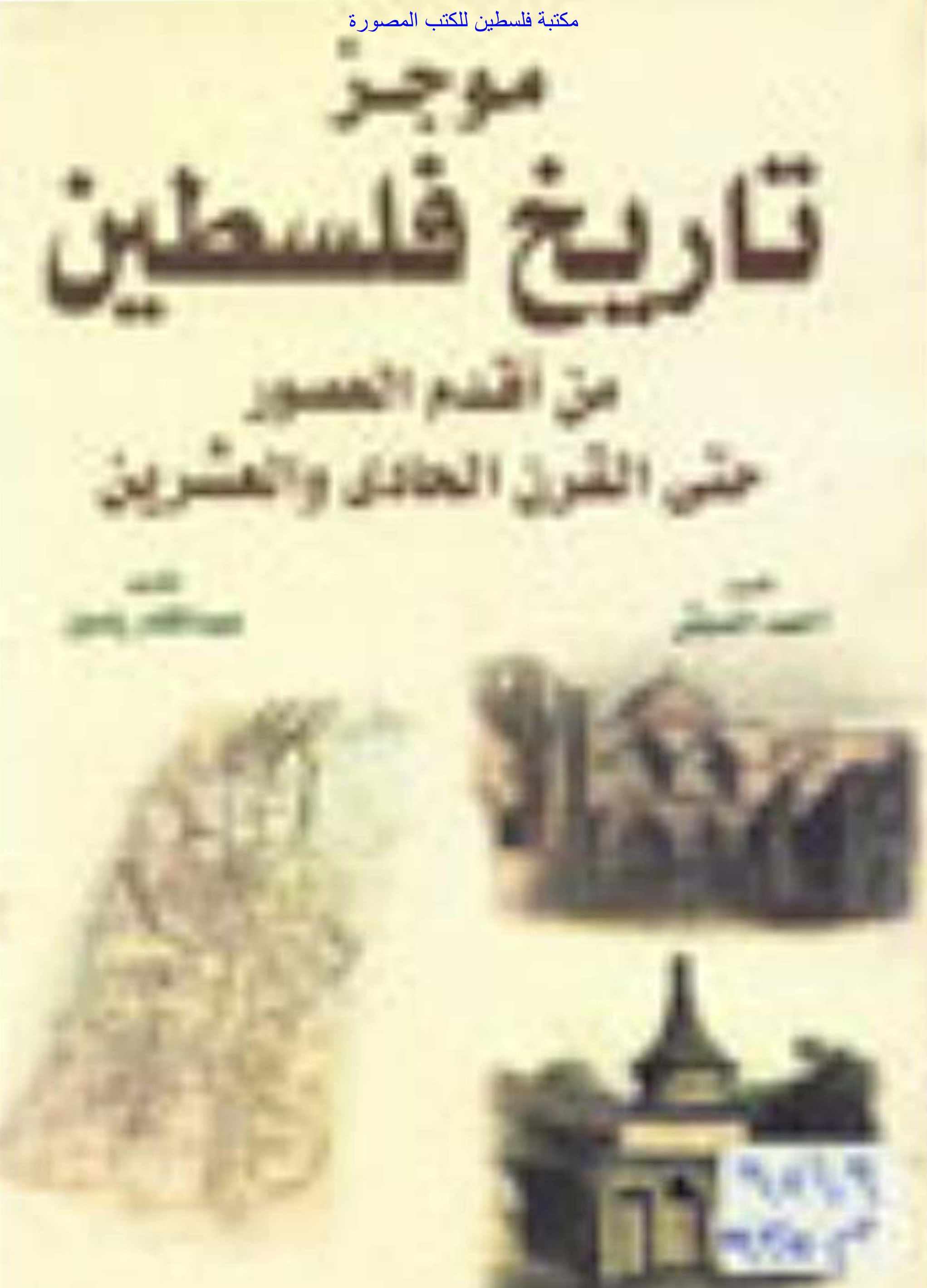

موجز
تاريخ فلسطين
من أقدم العصور
حتى القرن الحادي والعشرين

موجز تاريخ فلسطين

من أقدم العصور
حتى مشارف القرن الحادي والعشرين

أحمد الدبش
(تحرير)

عبد القادر ياسين
(تقديم)

فيصل الخيري   أسمهان شريح   رشا حسني   آمال الخزامي
راندا أبو الذهب   رضوى عبد القادر   رباب يحيى   منى عزت
د. نهال خضر البرعي   ريدا خضر البرعي   نظيمة سعد الدين   انتصار الشنطي

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب:	موجز تاريخ فلسطين من أقدم العصور حتى مشارف القرن الحادي والعشرين
الطبعة:	طبعة أولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م
الناشر:	مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة / ميدان حليم
خلف بنك فيصل شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٢/٩٩٦١٦٣٥
٠١٠/٠١٠٤١١٥ - ٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦

تقدیم

تقديـم

نحن لا نقتبس من التاريخ إلا جمراته المتَّقدة، تاركين رماده الخامد، حتى نستدفئ بتلك الجمرات، ونستضيء بها في مسيرتنا.

إن " التاريخ مدوَّنة إنسانية، تهدف إلى الاتصال، والاقتداء "، على ما أكده لنا الأقدمون، فنحن لا نطل على تاريخنا، بهدف التسلية، أو تزجية الفراغ، أو لنهرب متغنين بأمجادنا التليدة من حاضرنا البائس، بل نطل في سبيل إنعاش ذاكرتنا الوطنية، وشحذ حسنا التاريخي، فضلاً عن تعميق ارتباطنا بجذورنا، بما يعزز هوِّيتنا الوطنية، وانتماءنا القومي، ناهيك عن استيعابنا الدروس المستفادة، المضمَّنة في تلافيف تاريخنا الوطني.

إذ كيف لمن يناضل من أجل مستقبل زاهر لوطنه وشعبه، ألا يلم بماضيه الغابر، ويستوعب مفردات حاضره الراهن؟ محصَّنًا من محاولات تحريف أحداث ذلك الماضي، أو تزييفها.

يضيء هذا الكتاب فلسطين في بعدها التاريخي، في محطاته الرئيسية، مكتفيًا، بالخطوط العريضة، والمفاصل فحسب، بهدف تثبيت تلك الخطوط والمفاصل لدى أبناء الوطن، قبل أن يكسونها بالتفاصيل، من بطون الكتب، التي خطت شتى مراحل التاريخ الفلسطيني.

مع الوعي بمدى الارتباط الحميم لتاريخنا الوطني بتاريخ وطننا العربي عمومًا، وتاريخ بلاد الشام على وجه الخصوص.

نخلص من هذا كله بأن التاريخ مدرسة سياسية، بامتياز، فضلاً عن أنه أداة بالغة الأهمية في سبيل بلورة الهوية والانتماء.

* * *

عما نتحدث؟ عن فلسطين، إذن، يجب أن نلم بموقعها، وتضاريسها، أي بالمشهد الجغرافي الفلسطيني العام، وقد كان هذا هو موضوع المدخل الأول، الذي غطاه عبد القادر ياسين، قبل أن تنتقل أسمهان شريح إلى المدخل الثاني، باستعراض " الاتجاهات الجديدة لكتابة تاريخ فلسطين "، ويلتقط منها أحمد الدبش الشعلة، ملقيًا حزمة من الأضواء على " جذور الهوَّية الفلسطينية ".

بعد أن اكتملت المداخل الثلاثة، اقتحم بنا فيصل الخيري متن الموضوع، بالحديث عن " أقدم من سكن فلسطين "، ليزيد عليه أحمد الدبش بالقول إن " فلسطين أصل الحضارة "، مفسحًا في المجال لأسمهان شريح، حتى تتحدث عن " كنعان والكنعانيون "، لكن أحمد الدبش يدخل في جدل مع أسمهان شريح: " فينيقيون أم كنعانيون؟! "، وليردف بفصل آخر: " الفلسطينيون في الأصل والفصل "، وتتلقف مجدولين أبو الرب الموضوع متحدثة عن " الحضارة الكنعانية: ملامحها، سماتها، مظاهرها ".

يبدأ أحمد الدبش الفصل السابع من الكتاب بالعصر الحديدي، والبحث عن إسرائيل القديمة، وتأخذنا رشا حسني إلى " فلسطين والفراعنة "، وينتقل أحمد الدبش لمعرفة حقيقة السبي البابلي والعودة الفارسية، لتأخذ راندا أبو الدهب فلسطين تحت الاحتلال الهيلينستي، فيما ترصد نظيمة سعد الدين فلسطين تحت الاحتلال الروماني، قبل أن تنتقل " في عهدة الإسلام "، الأمر الذي غطاه عبد القادر ياسين حتى نهاية الخلفاء الراشدين، وحين تنتقل فلسطين إلى الحكم الأموي، تتعهدها ريدا خضر البرعي بالرعاية والاهتمام، في الفصل الثالث عشر، وحين يخلي الأمويون موقعهم، بالقوة للعباسيين، تغطي رباب يحيى الحقبة العباسية في فلسطين، قبل أن تتقاذف البلاد بين الإخشيديين، والفاطميين، والقرامطة، والسلاجقة، فيلاحقهم عبد القادر ياسين، بالرصد والتسجيل، بذا تهيأت البلاد للوقوع في براثن الفرنجة، الأمر الذي رصدته د. نهال خضر البرعي، قبل أن تُلاحق راندا أبو الدهب المماليك في فلسطين، وتتتبع أسماء الغرباوي الحكم العثماني في فلسطين، الذي امتد زهاء أربعة قرون متصلة في تقطع، ثلاث مرات، أولاها حين حاول والي عكا، ظاهر العمر، الاستقلال بولايته، الأمر الذي تتبعته رضوى عبد القادر، وبونابرت حين غزا فلسطين، بعد مصر، وقد تصدت له آمال الخزامي، قبل حملة إبراهيم باشا المصرية التي أنفذها والي مصر، محمد على باشا إلى فلسطين، وقد تعهدها عبد القادر ياسين، ثم نأتي إلى السلطان عبد الحميد الثاني، المثير للجدل، والتي اعتبرته انتصار الشنطي سلطانًا ثائرًا، بسبب وقوفه في وجه الأطماع الصهيونية في فلسطين،

التي أوقعتها الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) في براثن الاحتلال البريطاني، الذي انتدبته " عصبة الأمم " على فلسطين، فلم يغادرها إلا بعد أن سلمها للعصابات الصهيونية (١٩٤٨)، وقد غطى عبد القادر ياسين، حقبة الانتداب تلك، لكن المؤرخين تغافلوا عن السنوات الست عشرة التي تلت نكبة ١٩٤٨ الفلسطينية، فعمد رشا حسني إلى تغطية تلك " الحقبة المنسية "، التي جرت فيها محاولات عدة لإحياء الكيان الفلسطيني، رصدتها منى عزت، وبقي في فلسطين المحتلة زهاء ١٥٠ ألفًا - هم اليوم نحو مليون ونصف مليون عربي فلسطيني - التقط عبد القادر ياسين مشهدهم، ومعهم تحدث عن ملابسات عودة الكيان الفلسطيني، في شكل " منظمة التحرير الفلسطينية "، والفصائل الفدائية الفلسطينية، إلى أن كان خروج المقاومة من بيروت، صيف ١٩٨٢، حيث تخصَّبت الأرض لانتفاضة الحجارة (أواخر ١٩٨٧)، وانخراط الإسلام الحركي في المقاومة الفلسطينية، ثم تجسدت خيبة الأمل في عقد القيادة الفلسطينية المتنفذة " اتفاق أسلو " سيء الصيت، لينتظر الشعب الفلسطيني سبع سنوات، قبل أن يفجِّر انتفاضته الثانية (الأقصى والاستقلال)، وقد تعهد عبد القادر ياسين تلك الوقائع بالعناية، دون أن يلاحق تداعيات تلك الانتفاضة، التي ما كان لها أن تنتصر، بكل البعثرة الوطنية والارتجال، فمثل ذاك الانتصار مشروط بجبهة متحدة للفصائل، على برنامج إجماع وطني، ومستندة إلى عمق استراتيجي عربي، طال افتقاده، لكن لهذا كله كتاب آخر، برصد النكبة الجديدة.

القاهرة في ٢٠٠٩/١٢/٢٣

عبد القادر ياسين

* * *

إهداء

إلى أرواح كل الذين قضوا في سبيل استقلال وطنهم، ورفعة شأنه، وحريات أبنائه، ونيلهم حقهم في الثروة، والسلطة، والمعرفة.

* * *

المُقدِّمــة

المُقدِّمة

كانت أسفار " العهد القديم "، حتى وقت قريب جداً، تتمتع بمركز الصدارة في أي بحث، أو دراسة في تاريخ الشرق الأدنى القديم عموماً، والتاريخ الفلسطيني خصوصاً. وأصبح العالم أمام نظريات اعتبرت مسلمات حول تاريخ فلسطين، ومنطقة الشرق العربي، فاختُلق تاريخ جديد لإسرائيل، وللمنطقة بأسرها. وقد سار في هذا الطريق غالبية الباحثين، والمؤرخين الأوروبيين، وتبعهم في ذلك مؤرخون عرب، من أصحاب وحراس الفكر الآسن، في جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا.

بذلك، ما فتئت إسرائيل تفتش عن شرعيتها في التاريخ القديم، مبررة وجودها على أساس من الحق التاريخي والديني في فلسطين. ولتأكيد هذه الحقوق التاريخية والدينية، قام الأثريون والباحثون بالتنقيب في كل مكان ورد اسمه في التوراة و " التوراة في يد، والمجرفة في يد "، فظهرت إلى الوجود مدارس فكرية واضحة المعالم، اختصت بدراسات آثار العهد القديم، وانطلقت من الافتراض بصحة العهد القديم، ومن ثم الاعتماد عليه مصدراً تاريخياً لتاريخ الأرض المقدسة (فلسطين)، وتاريخ وجود دولة إسرائيلية في تلك الأرض.

في السنوات العشرون الماضية، أو ما يقاربها، ألقيت ظلال من الشك

العميق على إمكانية كتابة تاريخ لإسرائيل استناداً إلى روايات التوراة، ووصل بعض المؤرخين، إلى حد التشكيك، من حيث المبدأ، بإمكانية كتابة تاريخ من هذا النوع. فالبحث عن تاريخ إسرائيل لا يزال غامضاً، كما كان دوماً. وأي محاولة للتوفيق بين البِّينات التوراتية، وغير التوراتية، إثباتاً لتاريخانية إسرائيل، سرعان ما دخلت مرحلة الانهيار، التي لا تزال متواصلة، حتى اليوم.

منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين، ومطلع ثمانينياته، بدأ جيل جديد من علماء الآثار باستخدام وتطوير أسلوب مستحدث في التنقيب، هو أسلوب المسح الميداني الكامل لمناطق جغرافية معيِّنة (Regional Survey)، بدلاً من الحفر في مواقع متباعدة ومنعزلة عن بعضها. وقد قامت جامعة تل أبيب بتجهيز فرق تنقيب متنوعة، مزوِّدة بعلماء من شتي الاختصاصات لمساعدة علم الآثار، قام أفرادها سيرا على الأقدام، بمسح كل متر من مناطق الهضاب الفلسطينية، وعملت، خلال العشرين سنة الماضية، على جمع معلومات غزيرة، أحدثت ثورة في علم آثار فلسطين. وكلما كانت المعلومات الأركيولوجية تتراكم، ويتم الربط بينها، وتحليلها، تبين للمؤرخين والآثاريين صعوبة ملاءمة هذه المعلومات مع الرواية التوراتية، عن أصول إسرائيل في كنعان / فلسطين، وعن نشوء ما يدعى بالمملكة الموحدة ومملكتي السامرة ويهوذا. وهذا ما دفع واحداً من ألمع علماء الآثار في إسرائيل وهو " إ. فنكلشتاين " (Israel Finkelstien) إلى الدعوة لتحرير علم الآثار الإسرائيلي من سطوة النص التوراتي. ففي ندوة، عقدتها جامعة بن غوريون، عام ١٩٩٨ م، وموضوعها أصول

إسرائيل؛ قال " فنكلشتاين " بأن المصدر التوراتي، الذي تحكّم بماضي البحث في أصول إسرائيل، قد تراجعت أهميته، في الوقت الحاضر، ولم يعد من المصادر الرئيسية المباشرة. فأسفار التوراة، التي دونت بعد وقت طويل من الأحداث التي تتصدى لرواياتها، تحمل طابعاً لاهوتياً، جعلها منحازة، الأمر الذي يجعل من البحث عن بذور تاريخية في المرويات التوراتية، عملية بالغة الصعوبة، هذا إذا كانت ممكنة، من حيث الأصل. من هنا يرى " فنكلشتاين " ضرورة استقراء الوقائع الأركيولوجية استقراءً موضوعيًا وحرًا، بمعزل عن الرواية التوراتية[١].

لعل من أبرز رواد هذا الاتجاه البروفيسور طمسن - أستاذ علم الآثار في جامعة ماركويت في ميلووكي بالولايات المتحدة الأمريكية -، الذي حورب، بسبب آرائه المعارضة للتوراتيين التقليديين، فقد طرد من منصبه، في العام ١٩٩٢، لأنه دعا، في كتابه الذي صدر في العام نفسه، وعنوانه

« التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي»، إلى " نقض تاريخية التوراة "، أي عدم الاعتماد على التوراة كتاباً لتاريخ المنطقة والحضارات، وإلى اعتماد الحفريات الأركيولوجية (الأثرية) وثروة الآثار الكتابية القديمة، كمصادر لإعادة كتابة تاريخ المنطق، قائلاً: " إن أي محاولة لكتابة تاريخ فلسطين، في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد، أو بدايات الألف الأولى قبل الميلاد، على الضوء التام لمصادر الكتاب المقدس، لتبدو، على الفور، محاولة فاشلة، وميئوس منها، بل يمكن اعتبارها محاولة هزلية بالكامل، وتبعث على الضحك والفكاهة. إن قصص العهد القديم ما هي إلا مأثورات

وحكايات كتبت أثناء القرن الثاني قبل الميلاد. وإنه مضيعة للوقت، أن يحاول أي إنسان أن يثبت مثل هذه الأحداث التوراتية، من خلال علم الآثار القديمة، فالعهد القديم ليس له أي قيمة كمصدر تاريخي " (٢).

لقد قام العلامة كيث وايتلام، أستاذ العلوم الكتابية في قسم الدراسات اللاهوتية بجامعة سترلنغ بالمملكة المتحدة، بمراجعة المؤلفات التي تعاملت مع تاريخ فلسطين القديم، وأدرك، في حينه، مدى توغل الخطاب الاستشراقي في الكتابات عن تاريخ فلسطين. وأشار إلى أن هناك عملية طمس، متعمد، ومبرمج، من قبل الحركة الصهيونية لكثير من الدلالات التاريخية للمكتشفات الأثرية في فلسطين، ومحاولة تفسيرها بطريقة مغلوطة، في أغلب الأحيان. فتوصل في كتابه « تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني»، إلى " أن صورة ماضي إسرائيل، كما وردت في معظم فصول الكتاب العبري، ليست إلا قصة خيالية، أي تلفيق للتاريخ " (٣).

إلا أن الصفعة القاسية، والضربة القاصمة التي تلقاها الباحثون عن إسرائيل القديمة في فلسطين، هي تلك التي رماهم به عالم الآثار الإسرائيلي، أستاذ قسم الآثار وحضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب، البروفيسور زئيف هرتسوغ، في تقريره الموسوم بـ «التوراة: لا إثباتات على الأرض»، الذي نشرته جريدة هاآرتس الإسرائيلية، بتاريخ ١٩٩٩/١١/١٨، ورغم أننا لا نتفق مع كل المنطلقات النظرية للعالم الإسرائيلي المذكور، أو مع بعض استنتاجاته، التي وصل إليها بخصوص بعض جوانب التاريخ الفلسطيني القديم، فإن ذلك لا يمنعنا من إدراك

أهمية بحثه، فيذكر هرتسوغ أنه " بعد سبعين عاماً من الحفريات المكثّفة في أرض فلسطين، توصل علماء الآثار إلى نتيجة مخيفة، لم يكن هناك شيء، على الإطلاق، حكايات الآباء مجرد أساطير، لم نهبط مصر، ولم نصعد من هناك، لم نحتل فلسطين، ولا ذكر لإمبراطورية داود وسليمان ". ويستطرد هرتسوغ قائلاً: " من المعتقد أن سكان العالم كله، ولا مواطني إسرائيل وأبناء الشعب اليهودي، وحدهم، سيذهلون لسماع الحقائق التي باتت معروفة لعلماء الآثار الذين يتولون الحفريات في أرض إسرائيل [فلسطين]، منذ مدة من الزمن. في العشرين سنة الأخيرة، يحدث انقلاب حقيقي في نظر علماء الآثار الإسرائيليين إلى التوراة، باعتبارها مصدراً تاريخياً، وإنَّ أغلبية المنشغلين في النقاشات العلمية في مجال توراة أثار وتاريخ شعب إسرائيل الذين كانوا، حتى الآن، يبحثون في الأرض عن البراهين، والدلائل للحكايات الواردة في العهد القديم، يتفقون، الآن، على أنَّ مراحل تكون شعب إسرائيل كانت مغايرة، تماماً، لما يوصف في التوراة.

من الصعب قبول ذلك، ولكن من الواضح للعلماء والباحثين، اليوم، أن شعب إسرائيل لم يُقم في مصر، ولم يَتُه في الصحراء، ولم يحتل الأرض، من خلال حملة عسكرية، ولم يستوطنها، من خلال أسباطه الاثني عشر.

والأصعب من ذلك، أيضاً هو هضم الحقيقة التي تتضح رويداً رويداً، بأنَّ مملكة داود وسليمان الموحدة، التي وصفتها التوراة على أنها دولة عظمى إقليمية، كانت، في أقصى الأحوال، مملكة قبلية صغيرة، إضافة

إلى ذلك يتوقع عدم ارتياح كل من سيضطر إلى العيش مع المعلومة القائلة إن يهوه، إله إسرائيل، كان متزوجاً وإن الدين الإسرائيلي القديم تبنى التوحيد فحسب، في أواخر عهد المملكة، وليس على جبل سيناء " [٤].

لقد كان الباحث غاربيني على حق، عندما تساءل: " أين النقوش العبرية من عصر الحديد؟ إن أياً من الملوك الأربعين، الذين تسلسلوا منذ شاول إلى صدقيا، لم يترك لنا أثراً يذكر فيه اسمه! أين وثائق العصر الفارسي؟ إن المدوَّنات الكتابية والبقايا الأثرية بقيت في الحد الأدنى، وصولاً إلى زمان لا بأس به من العصر الهيلينستي " [٥].

لقد تم إخضاع المكتشفات الآثارية في المشرق العربي، وبالتالي تاريخ بلادنا فلسطين، لمصلحة الخطابين، السياسي والكتابي، وهدفهما، بعدما ثبت لنا بأن " أصول التنقيبات الآثارية الحديثة، منذ دخول نابليون إلى مصر، على أنها مكيدة دولية، استخدمت القوى الغربية، من خلالها، الماضي الكتابي، والكنوز الأثرية التي في المنطقة، من أجل سعيها لتحقيق المكاسب السياسية، ولإضفاء الشرعية على مصالحها الإمبريالية " [٦].

هكذا كان إنتاج تواريخ بني إسرائيل جزءاً مهماً من الدعاوى الإمبريالية في المنطقة، منذ القرن التاسع عشر، وصاعداً، ويوفر تسويغًا عقائديًا لجملة القيم الغربية.

لقد أصبح تطوير علم الآثار في فلسطين تعبيراً ذا أهمية عن المطامع

الإقليمية للقوى الأوروبية. فاستكشاف المنطقة، ورسم خرائطها، وتسجيل أوابدها القديمة، ووصف سكانها، وممارساتهم، لم تكن أعمالاً بحثية، نزيهة، ومبرأة من الأغراض الخاصة، مع تشكيلها مساهمات مهمة على صعيد المعرفة العلمية. وموقف التفوق المتعالي، الذي طبع أسلوب كتابة التقارير، يتجلى في العديد من تقارير مشاهير الرحالة الكثيرين. فاهتمام هؤلاء بفلسطين لم يكن صادراً عن اهتمام بالمنطقة، نتيجة لأهميتها الخاصة، بمقدار ما كان منصباً على حقيقة أنها كانت موقع الأحداث الكتابية. هنا بالذات كانوا يأملون في الاهتداء إلى جذورهم. ومن حيث الجوهر، كثيرًا ما جرى إفراغ فلسطين، والتاريخ الفلسطيني من أي معنى حقيقي، حيث جرى " تجريدها " [فلسطين] من " الصفة التاريخية " كما يقول " ملمن "، أو " طمسها " [إسكاتها] كما أقول أنا [وايتلام] [٧].

القاهرة في ٢٠٠٩/١٢/٢٣

المحرر

* * *

مراجع المُقدِّمة

(١) تـومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي، **القدس أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ**، ترجمة: د. فراس السواح، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، ص (١٦٩ - ١٦٨). [فراس السواح، أورشليم في عصر مملكة يهوذا].
(٢) تـومس طمسن، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢٧٧ وما بعدها. ينتقد الباحث الجاد د. زياد مني، ترجمة عنوان الكتاب، ويرى وجوب ترجمته على نحو: التاريخ القديم لبني إسرائيل اعتماداً على المصادر المكتوبة والآثارية.
(٣) كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٢، ص ٤٩.
(٤) زئيف هرتسوغ، التوراة: لا إثباتات على الأرض، **هاآرتس**، إسرائيل، ١٩٩٩/١١/١٨.
(٥) **تـومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٥. (إنغريد هيلم، قتال الأخوة: النزعة الإثنية لدي اليهود والسامريين في التاريخ والروايات التوراتية).
(٦) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧.
(٧) تومس طمسن وآخرون، **الجديد في تاريخ فلسطين**، ترجمة: عدنان حسن وزياد مني، ط ١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٢٣. (كيث وايتلام، إعادة اكتشاف فلسطين).

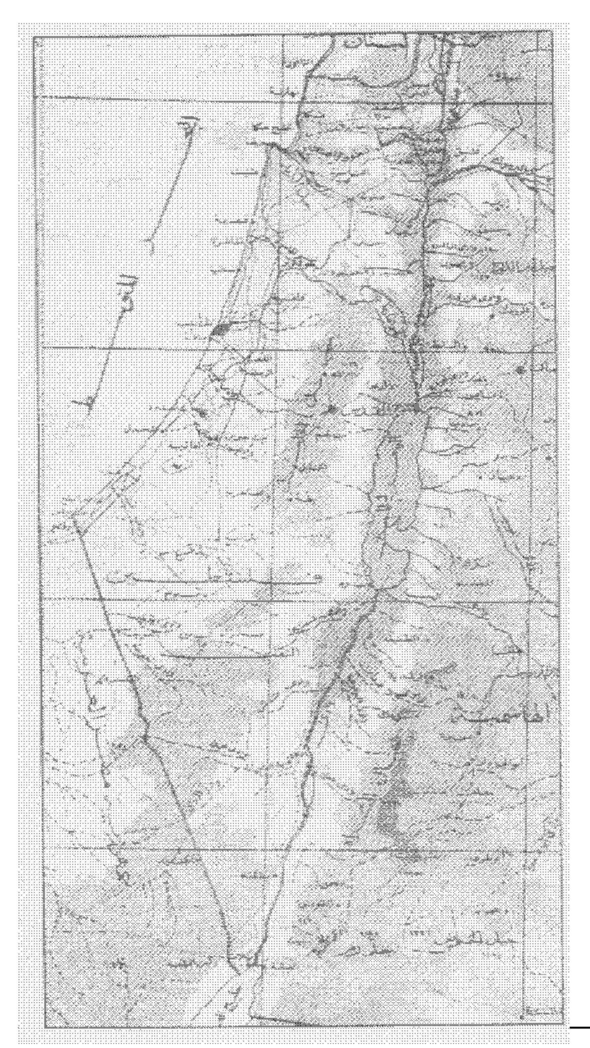
* * *

المدخل الأول :

المشهد الجغرافي الفلسطيني العام

المدخل الأول:
المشهد الجغرافي الفلسطيني العام

عبد القادر ياسين



ألحق الموقع الاستراتيجي المتميز بفلسطين أضرارًا بالغة. فهي - ضمن بلاد الشام - تتوسط قارات العالم القديم الثلاث: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، حتى غدت - منذ أقدم العصور - الجسر بين هذه القارات، ما جعلها محط أطماع الغزاة، على مدى التاريخ.

اقتطع الاحتلال البريطاني فلسطين من

الجسم السوري، حتى قبل ١٩٢٢. وشملت الأراضي المقتطعة تلك الواقعة بين خطي عرض ٣٠ ٢٩ و ١٥ ٣٣، وخطي طول ١٥ ٣٤ و ٤٠ ٣٥. يحدها من الشمال لبنان (على امتداد ٧٩ كم)، وفي الشمال الشرقي سوريا (بحدود طولها ٧٠كم)، وفي الشرق جاءت شرقي الأردن (٣٦٠كم)، وفي الجنوب مصر (٢٤٠كم)، فيما حد البحر الأبيض المتوسط فلسطين من الغرب، على امتداد ٢٢٤كم، وغدت فلسطين تشغل ٢٧٠٠٩كم٢ (١٠١٢٩ ميلاً مربعًا)، بما في ذلك مساحة المسطحات المائية (بحيرتي طبريا، والحولة، ونصف مساحة البحر الميت).

تتخذ فلسطين شكل مستطيل، يمتد ضلعاه الطويلان شمالاً وجنوبًا. ويبلغ طول البلاد من شمال بحيرة الحولة وحتى العقبة، ٤٣٠كم. فيما يتغير عرضًا، حيث يتراوح ما بين ٥٠ و ٧٠ كم. في أقصى الشمال، ليصل إلى ٨٢كم، عند القدس، في الوسط، وإلى ١١٧كم عند رفح وخان يونس، في أقصى جنوب السهل الساحلي، ليبدأ في التناقص، من جديد، في الاتجاه نحو خليج العقبة، في أقصى الجنوب الشرقي، لذا فإن طول فلسطين يمثل ستة أضعاف عرضها، تقريبًا.

باحتلال بريطانيا لفلسطين، تم قطع المشرق العربي عن مغربه، ولاحقًا، غدا الكيان الصهيوني حائلاً جغرافيًا في طريق وحدة الوطن العربي، وتنميته، ونهضته.

الطبوغرافيا:

إلى ذلك فلسطين أرض المفارقة الطبوغرافية: فبرغم صغر حجمها، نراها تتوزع ما بين صخب البحر، وموات البادية. ومن انبساط السهل،

إلى وعورة الجبل، وارتفاعه، وفي حد هذا الجبل ثمة الغور - في أقصى شرق فلسطين - أوطى مناطق العالم. وإلى الغرب منه هضبة، وسلسلة جبال، في موازاة البحر الميت، حيث تمتد من أُم الرشراش (العقبة)، جنوبًا، حتى تتصل بجبال لبنان الغربية، شمالاً مرورًا بجبال النقب، والخليل، والقدس ونابلس، والجليل، وفي النهاية الشمالية لهذه السلسلة يقع بجبل الكرمل. فيما تغطي صحراء النقب الجزء الجنوبي من فلسطين، لتحتل ما يقارب نصف مساحة البلاد، على شكل مثلث، رأسه الجنوبي خليج العقبة، والشمالي مدينة الخليل، وفي الغرب مدينة غزة، وتتصل النقب، في الجنوب، بصحراء سيناء في مصر.

المطمورات:

في مجال الموارد المعدنية، لم يكتشف النحاس في فلسطين، إلا مع نهايات ثلاثينيات القرن العشرين، وإن تأجل استخراجه، إلى ما بعد قيام الكيان الصهيوني (١٩٤٨)، وقد رافق المنجنيز النحاس، وإن بكميات قليلة، فيما انبث اليورانيوم في صخر الفوسفات، مرافقًا لمعدن الأباتيت.

أما المعادن اللافلزية، فثمة الفوسفات، في صخور رأس زويرة، شمالي النقب، كما وجد الكبريت في غير موقع من فلسطين، فضلاً عن الملح، وحجارة البناء، ورمل الزجاج، والحصباء، والزفزف، والصلصال. حدِّث ولا حرج عن أملاح البحر الميت، التي لا تنضب، مثل: البوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والبروم، واليود، والمغنسيوم، والليثيوم، والماء الثقيل، وغيرها.

إلى ذلك ثمة المصادر المعدنية للطاقة، مثل الخُث (نوعيات متدنية من الفحم الحجري)، عدا الأسفلت، والبيتومين، والرمال القطرانية،

والصخور الزيتية. ناهيك عن احتمال وجود النفط، والغاز الطبيعي.

المناخ:

غني عن القول بأن فلسطين تتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط، بشتائه الدافئ، وصيفه الجاف، عدا الاعتداليين (الربيع، والخريف)، حيث تتراوح الحرارة ما بين ١٥ و ٢٧. وتدور كمية الأمطار التي تهطل، سنويًا، في فلسطين ما بين ٤٠٠ و ٩٠٠ ملم، بما يقترب كثيرًا من ستة مليارات متر.

الأنهار:

فضلاً عن قرابة ٤ مليارات متر من الأنهار، والسيول، والعيون، على أن مجموع ما ينتفع به من هذه المليارات العشر يهبط إلى مجرد الخمس، بسبب البخر، والهدر في البحر، أساسًا.

تتبدل غزارة مياه أنهار فلسطين، كما تتسم مياهها بسرعة جريانها، على أننا نسميها أنهارًا، من باب الاستثناء، فهي أقرب إلى الجداول المائية، وتصب المجموعة الأولى من هذه الأنهار في البحر الأبيض المتوسط، وهي من الشمال إلى الجنوب: القرن، المفشوخ، النعامين، المقطع، الزرقاء، الخصيرة (المفجِّر). الاسكندورنة، الفالق، والعوجا. أما المجموعة الثانية، فأقل عددًا، وتصب في نهر الأردن، حيث تعتبر سوريا وفلسطين، والأردن دولاً متشاطئة في هذا النهر، واسمه سامي - كنعاني، يعني " المتدهور "؛ لسرعة جريانه، بسبب انحداره من ملتقى روافده، شمالي الحولة، إلى مصبه في البحر الميت نحو ٤٦٢ مترًا، ويصل عرضه، أحيانًا إلى ٣٠ مترًا، لا يصلح للملاحة، لكثرة تياراته،

وتعرجاته، وضحل مياهه، وكثرة الشلالات الصغيرة في مجراه (٢٧ شلالاً).

من المصادر الأخرى للمياه في فلسطين: السيول والآبار، والعيون، والمياه الجوفية، إلى ذلك ثمة البحيرات، التي إذا استبعدنا منها بحيرة الحولة بمستنقعاتها، والبحر الميت (١٠٥٠ كم٢) ذا المياه عالية الملوحة، فإنه لا يبقى أمامنا إلا بحيرة طبريا، أكبر خزان للمياه العذبة في فلسطين، وتقع في الجزء الشمالي من الغور، وتأخذ شكل الكمثرى، بطول ٢١.٥كم، وعرض أقصى ١٢.٣ كم، بما جعل مساحتها ١٦٨كم٢. وهي دون مستوى البحر بما يزيد قليلاً على المئتي متر. وتتغذى عن طريق نهر الأردن، القادم من الشمال.

وبعد، فلعل أهم ما في جغرافية فلسطين موقعها، الذي جعلها محط أطماع الاستعماريين، ومخلبهم الصهيوني، فليس كفلسطين في الوطن العربي مكاناً يمكنه فصل الجزء الآسيوي من هذا الوطن عن جزئه الإفريقي، والأهم أنه أصلح المواقع لوحة للقفز على بقية مشروع " إسرائيل الكبرى "، بل يصلح حتى لـ " إسرائيل العظمى "، التي انفتحت شهيت الحركة الصهيونية على إقامتها، من المحيط إلى الخليج، بعد كل هذا التراجع الرسمي العربي.

* لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى(*):

* * *

(*) - قسطنطين خمَّار، **موسوعة فلسطين الجغرافية**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٩.

- محمد الشاعر، **جغرافية فلسطين العسكرية**، القاهرة معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠.
- **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (أنظر د. عبد القادر عباد، **فلسطين الموضع والموقع**، ص ٥٧ - ٧٣، ٩٠ - ١٠٠ - ١٠٤؛ د. عادل عبد السلام، **المياه في فلسطين**، ص ١٦٣ - ٢٤٠).
- يوسف مجلي، **فلسطين والمظهر الجغرافي لمشكلتها**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٤٧.

المدخل الثانى

الاتجاهات الجديدة لكتابة تاريخ فلسطين القديــم

المدخل الثاني:

الاتجاهات الجديدة لكتابة تاريخ فلسطين القديم

أسمهان شريح

" إن الصيغة العلمية!. للأركيولوجيا الفلسطينية أضعفتها المفاهيم الدينية المسبقة للباحثين الذين حفروا! في الأرض المقدسة، حقًا أن بعض الأركيولوجيين قدموا إلى فلسطين بدافع اهتمامهم بالكتاب المقدس: وإن بعضهم تلقى تدريبًا سابقًا باعتبارهم باحثين توراتيين ".

البرو فيسور "و. ألبرايت"

" إن على كل من يلج بوابة كنعان، أن يتسلح بالعلم والصبر، وأن يخوض معركة " فك ارتباط " جد قاسية، من أجل تحرير هذا التاريخ العربي، من كل ما ألصق به عمداً، وجهلاً من كل المخلوقات الطفيلية، ثم ترك مرميا خلف البوابات المهجورة الرطبة ".

" أحمد داود "

" إن التناقضات الواضحة، التي كشف عنها التنقيب الأثري في أريحا وغيرها من المواقع، التي تحدث عنها سفر يشوع، تدل على أننا نسير في طريق مسدود؛ في محاولة للعثور على شواهد اثرية لاثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الإسرائيلية ".

" جيمس بريتشارد "

" أخذ هذا الكتاب (تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني) صيغته الحالية من محاولة تقديم تاريخ لفلسطين، إلى أستكشاف حجم ممانعة مشروع كهذا من خلال التأثيرات السياسية والاجتماعية والدينية ."

" كيث وايتلام "

مقدمة:

ظهر في الربع الأخير من القرن الماضي، وتحديداً في الثمانينيات منه، منحى جديد، أو تجديدي في الدراسات الكتابية (أي تلك التي تتناول الكتاب المقدس، وبشكل خاص الجزء الأول منه؛ وهو التوراة). وذلك بسبب أن التنقيبات الأثرية في فلسطين، لم تؤد إلى العثور على أي أثر لبني إسرائيل فيها؛ كما أن التنقيبات التي جرت شرقي فلسطين بعيد احتلالها عام 1967 ، أسفرت عن نتائج تتناقض مع الفهم التقليدي لبعض المقاطع التوراتية. ما دفع بجماعة من العلماء الكتابيين المرموقين والجديين - حسب تعبير د. زياد منى - مثل فيليب دفس؛ وكيث وايتلام؛ ولستر غرب؛ وتوماس طمسن؛ إلى المطالبة بإعادة النظر في التاريخ، وهو ما قاموا به ولا يزالون بالفعل. وهؤلاء يقولون بأن التاريخ ملفق... ولم توجد مملكة موحدة على سبيل المثال. وقد وجدوا تأييدا لذلك من عالمة هولندية متخصصة بآثار مدينة القدس اسمها مارغريت شتاينر [١].

أما أطروحة د. كمال الصليبي، التي تناولها في كتابه الشهير " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، فقد أثارت جدلاً واسعاً وتبنى، أو

بصورة أدق قارب، العديد من الكتاب والدارسين في المنطقة، وفي الغرب، هذه الأطروحة، التي ستتناولها هذه الدراسة، مستعرضين هذه الأطروحة بشكل موجز ومن ثم تداعياتها، ردود الفعل عليها سواء منها المؤيدة أو المعارضة، وبالتالي الوصول إلى استنتاجات عامة. وتأتي أهمية هذه الدراسة، نظرا إلى أن " الإسرائيليين "؛ ورغم بحثهم الدؤوب عن الآثار في فلسطين؛ لم يتمكنوا حتى اللحظة من إيجاد أي أثر يدل على تاريخ لهم في فلسطين، وذلك باعتراف أكاديمييهم؛ وعلماء التاريخ لديهم.

أطروحة كمال الصليبي:

الدكتور كمال الصليبي؛ مؤلف كتاب " التوراة جاءت من جزيرة العرب "؛ هو أستاذ في قسم التاريخ والآثار في الجامعة الأمريكية (بيروت). وتتلخص أطروحة هذا الكتاب؛ بأن وقائع تاريخ بني إسرائيل كما رددته في التوراة؛ كان ميدانها أرض شبه الجزيرة العربية؛ وتحديداً في منطقة بطول يصل إلى حوالي ٦٠٠ كيلو متر، وبعرض يبلغ حوالي 200 كيلومتر، تشمل ما هو اليوم عسير، و الجزء الجنوبي من الحجاز.

و يذكر الكاتب أدن الآمر عبارة عن اكتشافه تم بالصدفة؛ عندها كان يبحث عن أسماء، الأمكنة ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، ففوجيء بوجود أرض التوراة كلها هناك. وكان أول ما تنبه اليه الكاتب - كما يذكر - أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة، تشبه أسماء الآمكنة المذكورة في التوراة. وسرعان ما تبين للكاتب أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهنه، أو جلبها؛ ما زال موجودًا

فيها. كما تبين للكاتب، أيضًا، أن الخريطة المستخلصة من نصوص التوراة في أصلها العبري، سواء لجهة أسماء الأمكنة، أو لجهة القرائن، أو الإحداثيات؛ تتطابق تمامًا مع خريطة هذه الأرض. وهذه - كما يعتبرها الكاتب - حقيقة أولية، نظرًا لأنه لم يثبت بعد إطلاقاً، تطابق الخريطة الموصوفة في التوراة مع خريطة الأرض بين " النيل والفرات "، التي اعتبرت حتى اليوم؛ أنها بلاد التوراة [٢]. وهذا ما يؤكده العالم الألماني وينكلر حيت يقول: أن أرض كوش تقابل مصري، التي هي في القسم الشمالي لي من شبه جزيرة العرب. وعلى هذا، فان ماذكر عن كوش ومصر في التوراة، لا يقصد به الحبشة ووادي النيل، بل يقصد به مكانان في شبه جزيرة العرب [٣].

ويتابع د. الصليبي: " أكثر من ذلك، فاني لم أستطع العثور على مثل هذا التجمع لأسماء الامكنة التوراتية، وفي صيغتها الأصلية عادة، في أي جزء آخر من الشرق الأدنى. وهنا قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه: فاليهودية لم تولد في فلسطين، بل في غرب شبه الجزيرة العربية، ومسار تاريخ بني إسرئيل؛ كان هناك في غرب شبه الجزيرة العربية، وليس في أي مكان آخر " [٤].

ويرجع د. الصليبي الصعوبات، التي واجهها ومازال يواجهها دارسو التاريخ التوراتي، وأدت بالكثير منهم إلى التشكيك في صحة ذلك التاريخ، سببها قبولهم بالفكرة التقليدية القائلة بأن جذور تاريخ بني إسرائيل تعود إلى العراق ومصر، وآن بؤرته كانت في فلسطين.

ووفقا لهذه الأطروحة؛ فان أرض كنعان التي تمكن بنو إسرائيل من

إقامة كيان لهم فيها؛ ليست فلسطين، وإنما المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر منطقة رجال ألمع، وحتى منطقة جيزان في الجنوب. كما أن أرض الفلستيين، ليست هي الساحل الفلسطيني، وإنما ساحل تهامة من جوار الليث في الشمال إلى جوار جيزان الجنوب. وأن هردن ليست نهر الأردن؛ وإنما هي لفظة تعني " جرف "، أو " قمة "، أو " مرتفع ". وقد استعملت للإشارة إلى مثل هذه المظاهر الطبوغرافية في عسير، وجنوبي الحجاز. ونجد في عسير وليس في مصر والعراق؛ نهري مصرايم وفرات، الأول في وادي ليه؛ والآخر هو وادي أضم. أما مصرايم فهي قرية المصرمة أو المصرامة بين أبها وخميس مشيط. ويرى المؤلف أن كتابات المنطقتين اللتين يطلق عليها اليوم العراق ومصر، وممالك الأجزاء الشمالية من بلاد الشام في الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد، التي تناولت بيئة تاريخ بني إسرائيل تشير إلى غربي شبه الجزيرة العربية(٥).

يشرح د. الصليبي كيف سادت وترسخت فكرة أن فلسطين هي أرض التوراة، مبيناً أن هذا لا ينفي وجود اليهود خارج شبه جزيرة العرب، سواء في فلسطين أو غيرها من البلدان العربية في أيام التوراة (أيام التوراة بدأت بعد 700 سنة من وفاة ألنبي موسى، زمن السبي البابلي). وقد بدأ الوجود اليهودي في فلسطين منذ زمن داود وسليمان (القرن العاشر قبل الميلاد). وكان الدافع تجارياً في البداية، ثم اتخذ انتقال اليهود إلى فلسطين شكل هجرات واسعة؛ نتيجة للحروب التي نشبت بين مملكتي: إسرائيل ويهوذا إثر انفصالهما بعد وفاة سليمان، وكما يحدث

عادة مع المهاجرين من مواطنهم، أخذ اليهود بإطلاق تسميات مواقعهم في غرب شبه الجزيرة العربية، على مواقعهم الجديدة في فلسطين. وبذلك فإننا نجد منذ ذلك الحين (القرن العاشر قبل الميلاد)؛ أن أسماء أماكن واردة في التوراة؛ قد وجدت مثيلاتها في فلسطين مثل: يهودا؛ يروشليم؛ بيت لحم؛ حبرون؛ شمرون؛ جرزيم؛ عيبال؛ كرمل؛ جليل وهيردن.

ويؤكد د. الصليبي أن اليهود، لم يكونوا أول من استوطن فلسطين؛ قادماً من غرب شبه الجزيرة العربية، بل هناك الفلستيون أيضا، الذين وصلوا فلسطين قادمين من غرب شبه الجزيرة العربية قبل اليهود، فصارت المنطقة تعرف باسمهم، وهناك، أيضا، الكنعانيين، الذين وصلوا قبلهم، وأعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعن) على امتداد الساحل الشمالي شمال فلسطين. كذلك أعطى كل من الفلستيين، والكنعانيين أسماء يعرفونها في عسير لمواقع في بلاد الشام بما فيها فلسطين. لذلك وجدت أسماء فلسطينة مثل غزة؛ وأشكلون؛ وبيت دجن منذ ما قبل بني إسرائيل. وأسماء كنعانية مثل صور، صيدون، جبيل، أرواد ولبنان منذ وقت مبكر.

ويتابع د. الصليبي، فيخبرنا أنه باحتلال بنوخذ نصر البابلي ليروشليم سنة 658 ق. م: تحطم كيان بني إسرائيل السياسي في أرض عسير، وبذلك تركز التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين، وبمرور وقت غير طويل، كانت أصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية، قد دخلت في غياهب النسيان. وساهم في ذلك موت اللغة العبرية مع نهاية القرن السادس قبل الميلاد، وشيوع اللغة الأرامية كلغة رسمية زمن الإمبراطورية الأخمينية.

وبموت اللغة العبرية انقطعت صلة يهود فلسطين بكتبهم المقدسة، وبيهود غربي شبه الجزيرة العربية، الذين تشتتوا بين الكيانات المحلية الجديدة، وأهمها دولة معين، التي قامت في منطقة مملكة بني إسرائيل السابقة نفسها. في حين تمكن يهود فلسطين من إقامة مملكة لهم سميت بمملكة الحشمونيين سنة ١٦٧ ق. م، مستفيدين من الصرع بين البطالمة (حكام مصر)، والسلوقيين (حكام سوريا الكبرى). واعتبر الحشمونيون أنفسهم الورثة الشرعيين لإسرائيل القديمة؛ كما تم اعتبار فلسطين الموطن الأصلي لشعب بني اسرائيل البائد، وتوراته العبرية.

يستند الصليبي لاثبات اطروحته إلى ركيزتين؛ الأولى: هي أن النص العبري التوراتي يمثل لغة ميتة، وبالتالي، فعند التعامل معه، يصبح من الضروري تعريته من جميع حركاته. والركيزة الثانية أن النقيب الأثري في فلسطين، منذ أكثر من مائة عام؛ لم يستطع حتى اليوم؛ تقديم أي دليل على ارتباط التوراة بفلسطين [٦].

هذا باختصار فحوى اطروحة د. كمال الصليبي، التي أثارت جدلاً واسعًا في الآوساط السياسية والأكاديمية. ومن تداعيات هذه الأطروحة؛ استناد قلة من العاملين في مجال البحث التاريخي اليها في ابحاثهم نذكر منهم؛ الدكتور احمد داود، والدكتور زياد منى.

تداعيات أطروحة كمال الصليبي:

لعل أولى وأهم تداعيات اطروحة الصليبي أن اورشليم التوراتية؛ تقع

في المنطقة من شبه الجزيرة العربية التي جرت فيها احداث التوراة؛ أي الموطن الأول لبني إسرائيل، ومن ثم اليهود. وعلى هذا فأن هذه المنطقة أيضا هي مهد المسيحية الآو لى؛ الأمر الذي بينه الصليبي في كتابه " البحث عن يسوع ". وفي العرض الذي قدمه د. زياد منى لهذا الكتاب؛ في العدد الأخير (حزيران / يونيو ١٩٩٥) من مجلة " الناقد "؛ اعتبر د. منى موضوعة هذا الكتاب " استئناف خلاق ومبدع " للفتح العلمي، الذي بدأه كمال الصليبي في مؤلفه الأول - المشار إليه أعلاه - الا أنه - حسب زياد منى - " يسير خطوة إضافية في المسيرة العلمية نفسها؛ ليوضح، بالاضافة إلى العديد من الأمور المهمة؛ الاسباب الحقيقية لمحاربة أهل الاختصاص الأوربيين للمسألة، وفرارهم من حوار علمي هادئ حولها. والمهم في هذا العمل أنه مثل سابقه، يستخدم النصوص الآصلية، وليس المترجة. وهذا شرط أساسي لنجاح أي عمل؛ يستحق أن يدعي أي قدر من الجدية. ويعتبر الأستاذ زياد منى أن هذا العمل يكتسب أهمية استثنائية من ناحية أنه يبحث في التاريخ وفي الجغرافية المرتبطة بيسوع، مستخدمًا المنهجية العلمية المرتكزة على أسس البحث اللغوي، والنقد النصي، والجغرافية. والأمر المهم الآخر في رأي الدكتور منى أن الكتاب الجديد، وعلى عكس الاتجاه التقليدي في " علم نقد العهد القديم " يتجنب البحث في الجذور الروحية للمسيحية، وإنما في تاريخيتها، يصل إلى تناتج قد تكون مذهلة للبعض، لكنها منسجمة ومنطقية تماماً. والهدف هو الإجابة عن الأسئلة: من كان يسوع؟ ومن آين جاء؟ وماذا كان مراده؟ لماذا صار له أتباع؟ وما هي هويتهم؟ لماذا قتل. لكن السؤال الأهم لماذا

لا تنقل الأسفار أي معلومات تفصيلية عن حياته؟ [٧].

استند د. أحمد داود إلى اطروحة كمال الصليبي، وتوصل نتيجة بحثه المطول في نصوص العهد القديم والنصوص الآخرى التي تبحث في الفترة التاريخية نفسها، وذلك باعتماده منهجية تتلخص بدراسة النصوص التاريخية دراسة تاريخية؛ وجغرافية؛ ولغوية؛ وسكانية؛ ومنطقية؛ مستعينًا بجميع العلوم المساعدة الأخرى، فتوصل إلى الاستنتاجات التالية، التي تضمنها كتابه " العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود ":

١ - أن " السامية " بدعة يهودية حديثة، و " الساميون " فرع من فروع العروبة. وقد ولدت هذه التسمية لأول مرة على يد اللاهوتي اليهودي النمساوي " شلو تزر " في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. لأن سام هو ابن نوح، وهو عربي من جوف شبه الجزيرة العربية، ولما كان من غير الجائز، أو المنطقي نسبة الآباء إلى الأحفاد، فان سام بن نوح عربي؛ نسبة إلى أبيه [٨].

٢ - أن " العبرانية " هذه التسمية التوراتية، ليست ظاهرة نسبية أو شعبوية ن أو لغوية أو قبلية، انها كانت تطلق على كل من يعبر من جانب إلى الجانب الآخر من الرعاة العرب في منطقة جد ضيقة في أعالي وادي الثرات شرق غامد في شبه جزيرة العرب. وبالتالي، فان ما يسمى اللغة العبرية ما هو الا اختزع صهيوني، حيت كلفت الحركة الصهيونية " المدعو اليعازر بن يهوه باخترع ذلك الشيء الذي دعته بـ " اللغة العبرية " من العربية القديمة ليكون لغة رسمية لليهود الذين سوف يتم تهجيرهم

إلى " الأرض الموعودة " [٩].

٣ - إن بني إسرائيل هم بنو يعقوب (الذي لقب بإسرائيل) الاثنا عشر. وهم جميعا عرب آراميون موحدون، وان تسمية بني إسرائيل ليس لها أي مضمون ديني في التاريخ العربي القديم، بل هي تسمية نسبية؛ كان يقصد بها أبناء يعقوب؛ وهم الأسباط الاثنا عشر، وهم الذين أثنى عليهم القرآن كموحدين، وميز بينهم وبين اليهود الذين اعتنقوا اليهودية بعد ظهورها في القرن الثالث قبل الميلاد على أيدي مجموعة من الكهنة، واعتبرهم أشد عداوة للمؤمنين [١٠].

٤ - أن مدينة القدس الحالية لاعلاقة لها بأورشليم التوراتية، التي توجد في شبه الجزيرة العربية. فالوصف الجغرافي التوراتي لمدينة أورشليم لا يتطابق مع جغرافية مدينة القدس، وسنقتصرما توصل إليه د. داود بشأن مدينة القدس على الدراسة اللغوية؛ حيث يقول: أن أول نص ذكر فيه " اسم أورشليم " هو النص السبعيني للتوراة، الذي وضع لأول مرة باليونانية في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد. والاسم مؤلف من كلمتين " حورا " وتعني المغارة، و " شليم " وتعني المعزولين؛ المنعزلين؛ المتوحدين؛ المتعبدين، وهي جمع " شيلو ". أما " حورا " فهي في القاموس الكلداني: كهف؛ مغارة؛ حفرة عميقة؛ ثقب؛ نقب؛ ومنها " حرا " أو " حراء " وهو الغار، أو الكهف العميق، ومنه كانت تسمية " غار حراء " لتميزه.

أما " أورى شليم "، فعند نقل التوراة من السبعينية اليونانية إلى السريانية، انتقل الاسم كما هو دون إرجاعه إلى أصله العربي، وصار

يكتب " أورشليم "، و " شيلوه " في التوراة هي المغارة التي كانت محلة؛ يجتمع فيها بنو إسرائيل لمناسباتهم المقدسة زمن " القضاة ". وقد نقلت الكلمة من اليونانية إلى باقي اللغات دون ترجمة. وبذلك فان أورشليم التوراتية تعني كهف المتعبدين(١١).

ويرى د. أحمد داود أن التاريخ العربي؛ تعرض للكثير من التشويه والتزوير، بل والمسخ، حيث عمدت الدول الاستعمارية إلى إحداث مؤسسات استشراقية، كان هدفها منذ البداية خلق الظروف والذرائع من أجل تمرير المخططات الاستعمارية، وتبرير الوجود الاستعماري في المنطقة. ومن الفارقات المؤلمة أن على العربي إن يذهب إلى جامعات ومعاهد تلك الدول، التي عممت ورسحت التزوير، فيجري تلقينه تلك الصورة الشوهاء المقزمة لتاريخ شعبه، ثم يتحول في وطنه إلى مجرد وسيط ينحصر دوره في نقل تلك الصورة، وترسيخها في اذهان الأجيال العربية المتعاقبة.

وضمن هذا المخطط وحده - يضيف د. داود -، ودون تدخل من أجهزة الدولة في البلدان العربية مجتمعة؛ أو كلا على حدة، أخذت تتم عملية اعداد ودفع الكوادر، التي من شأنها أن تمسك بمقاليد أمور الثقافة والآثار، بحيث لا تخرج عن الخط المرسوم. أن بلدا عربيا واحدا لم يأخذ على عاتقه، حتى اليوم، إنشاء معاهد مركزية قومية حقيقية لتدريس اللغة العربية القديمة بكافة لهجاتها، وكتاباتها وبتسميتها الصحيحة، فيتولى خريجوها من بعد؛ الاضطلاع بهذه المهمة القومية العظمى... لقد بقيت هذه المهمة حتى اليوم منوطة بالأجانب وحدهم، بمن فيهم اليهود

الصهاينة. أن دور مديريات الآثار لا يتعدى في معظمه تسلم بعض ما يجود به الدارسون الأجانب؛ لنوزعها دونما أي بحث، أو مناقشة أو دراية؛ على معاهد التعليم ومؤسسات الإعلام والثقافة والسياحة، وكثيرا ما يستبق القائمون على الآثار نتائج الاستكشاف، ليقرروا تنائج، وأحكاما ومقولات، هي في صميمها صهيونية، أو مغرضة [١٢].

وتذكر مؤسسة الابحاث العربية التي نشرت الترجمة العربية لكتاب د. الصليبي " التوراة جاءت من جزيرة العرب "؛ أن المؤلف ناقش مضمون كتابه مع عدد من المختصين العرب في عدد من المؤسسات العلمية العربية؛ قبل أن يضعه بصيغته النهائية. وبعد انجاز الكتاب باللغة الانجليزية، عرضه المؤلف على عدد من دور النشر الأجنبية، فرفضت أكثرها نشره بشكل فظ، وأهمل البعض الآخر الإجابة على عرض المؤلف للنشر. أما مؤسسة " دير شبيغل " الألمانية؛ فأنها بادرت إلى طلب حقوق النشر من المؤلف، واشترطت عرض الكتاب على مجموعة من العلماء، واساتذة التاريخ؛ لتقويمه من الناحية العلمية قبل اقرار نشره، وأن تتولى اصداره وتوزيعه على بلدان العالم اذا كان التقويم ايجابيا. وبعد موافقة المؤلف؛ جاءت توصية علماء اللغات السامية إيجابية؛ في حين وقف علماء التوراة موقفًا عدائيًا [١٣]. وسنأتي الآن على ردود الفعل على اطروحة د. الصليبي بشيء من التفصيل.

ردود الفعل:

يقول د. الصليبي في مقدمة كتابه المشار اليه: أن كتابه يبحث في الجغرافيا التاريخية للتوراة؛ وليس في أي أمر آخر؛ بما فيه قضية

الصهيونية. والغرض منه توضيح غوامض التاريخ التوراتي عن طريق إعادة النظر في خريطة التوراة. ويضيف: قد يستنتج القارى من الكتاب أن يهود العالم اليوم لا حقوق تاريخية لهم في أرض فلسطين؛ لأن الحقوق التاريخية للشعوب تزول بزوالها. والجماعات اليهودية الموجودة في العالم اليوم؛ لا يشكلون استمرارًا تاريخيًا لبني إسرائيل حتى يكون لهم شيء يسمى حقوق بني إسرائيل، وذلك سواء أكانت أرض بني إسرائيل في فلسطين أو غير فلسطين. ويرى المؤلف ضرورة هذا التوضيح وان كان بديها، وذلك حتى لا يساء فهم القصد من مقولة هذا الكتاب، وهو قصد علمي بحت لا يمت إلى واقع العصر الحاضر بصلة؛ إلا بقدر ما في المقولة بطبيعة حالها من دحض للمفهوم الصهيوني المغلوط للتوراة (١٤). وهو مفهوم تتبناه الجماعات اليهودية في العالم حتى العلمانية منها. ومن المعروف أن مؤسسي الصهيونية الأوائل كانوا علمانيين؛ الا انهم أدركوا أن لا سبيل إلى تحقيق مشروعهم بتجميع الجماعات اليهودية المنتشرة في العالم، التي تشكل مادة المشروع الصهيوني، إلا بالاتكاء على الدين.

قبل خروج كتاب الصليبي المشار اليه؛ بدأت حملة اعلامية واسعة ضد الكتاب ومؤلفه في أجهزة الاعلام والدوائر الاكاديمية الغربية والصهيونية في فلسطين المحتلة وخارجها على حد سواء. والمستغرب وقوف بعض الأوساط العربية موقفًا سلبيًا من الكتاب حتى قبل الاطلاع على مضمونه. وكانت نتيجة ذلك أن مؤسسة " دير شبيغل " الألمانية، التي، وافقت على نشر الكتاب؛ كانت قد تعاقدت مع عدد كبير من

مؤسسات النشر الأجنبية ليصدر الكتاب باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية والهولندية والدانمركية؛ اضافة إلى اللغة العربية، على أن تدرسه قبل التعاقد. الا أن شدة الحملة على الكتاب اجبرت مؤسسة نشر عالمية عن التراجع عن عقدها مع " دير شبيغل ".

هنا يبرز سؤال تلقائي مفاده ما هو سبب هذه الحملة عل الكتاب؟. وتجيب الجهة الناشرة للكتاب باللغة العربية " أن المؤلف يطرح نظرية جديدة تقوم على وجوب اعادة النظر في " الجغرافيا التاريخية للتوراة "؛ حيث يثبت أن أحداث " العهد القديم " (التوراة)؛ لم تكن ساحتها فلسطين؛ بل وقعت في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية؛ مستندا في ذلك إلى أدلة اكتشفها في ميداني اللغة والاثار، ومقارنتها بالمألوف والسائد من " الجغرافية التاريخية للتوراة " [١٥].

ويذكر د. الصليبي في حوار مع د. زياد منى؛ انه كان ثمة نوع من العنصرية في ردة الفعل على عمله من قبل علماء التوراة في الغرب، وكأن لسان حالهم يقول: نحن العرب ليس لنا دخل في ذلك الامر، ونحن نتطفل على شيء يخصهم... فثمة شخص يدعى لورتس - كان يعمل في جامعة منستر الألمانية الغربية؛ عندما كانت دار النشر الألمانية تبحث فيما اذا كانت تستطيع نشر الكتاب - قال ما دخل هذا الشخص العربي بالموضوع، فليذهب ويهتم بالجمال.

والحقيقة أن ثمة دلائل تشير إلى أن اطروحة د. الصليبي تمتلك أساسا علميًا ومنطقيًا، وفي هذا الصدد يؤكد الدكتور عفيف بهنسي، الذي شغل منصب المدير العام للاثار في سوريا " أن جميع الجهود الاثرية

المبذولة في بلاد الشام؛ لم تقدم دليلا تاريخي يؤكد الأحداث التوراتية " (١٦)

ويقول الباحث الفرنسي الشهير بيير روسي حول النقطة نفسها: " أن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع للعبرانيين خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق، فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين والدساتير؛ تكشف آثرا قليلا للعبرانيين، فعلى آلاف النصوص المسمارية، أو المصرية، التي تؤلف المكتبة المصرية' أو مكتبة رأس شمرة أو نينوى... في ذلك كله لا تذكر كلمة " عبرية "، وأشهر ملوك التوراة؛ وهما داود وسليمان؛ لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية. وليس هناك أبدا ذكر للملحمة والوقائع الحربية المعزوة لعبور العبرانيين، وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٩٠ - ١٩٢٥. فالعدم كامل مثلما هو قطعي جازم... لقد نشر في عام ١٩٧٣ برعاية السلطات الإسرائيلية طبعة من كتاب فلافيوس يوسف، ولقد زينه المؤلف برسوم منسوخة؛ بابلية وسومرية ومصرية وحثية، أي عربية، إننا لا نجد فيها " عبرية " ولا حتى في النص الذي، كما هو معروف، ترجمة إغريقية " (١٧).

هذا يؤكد ما يطرحه د. الصليبي. أن البحث عن تاريخ بني إسرائيل واليهود يتم في المكان الخطأ.

سنذكر وجهتي نظر حول أطروحة د. الصليبي؛ الأولى عربية والأخرى أجنبية. في عرضه لكتاب " التوراة جاءت من جزيرة العرب

"، المنشور في فصلية " دراسات تاريخية " الصادرة عن جامعة دمشق؛ عدد خريف وشتاء ١٩٨٧؛ قال د. محمود أبو طالب الأستاذ في الجامعة الأردنية: " لا مجال بالطبع لقبول مطابقاته (مطابقات د. الصليبي) اللغوية المتعلقة برسائل تل العمارنة، ونصوص سرجون الآشوري إذ لم يثبت لنا بعد أن أرض التوراة هي عسير، أما مناقشاته للكتابات، التي وجدت في فلسطين فيمكن اعتبارها مثلا لما يجب أن لا تكون عليه المناقشة العلمية " (١٨).

وجهة النظر الثانية نشرتها الفصلية المشار إليها مترجة عن مجلة " دير شبيغل " الألمانية، ونشرت اسم المترجم، لكنها أسقطت اسم الكاتب، ومما جاء في هذه المقالة: "... فلماذا لا نحاول توجيه الاقطار إلى عسير، لاسيما وقد تعذر حتى الآن إيجاد الدليل المادي في فلسطين على الأحداث الثورانية، التي جرت من أيام ابراهيم حتى السبي البابلي... واذا نقلنا الشبكة البلدانية التوراتية من فلسطين، إلى عسير؛ نجد أن التوافق لا يقتصر على أسماء البدان و المواقع، بل ويشمل الطبيعة، وخصائص الأرض، والمعادن والمياه والنبات والحيوان كما ورد وصفها في التوراة " (١٩).

بعد ذلك يورد الكاتب العديد من الأدلة المادية المؤيدة لأطروحة الصليبي؛ منها أنه سبق للمستعرب والمؤرخ الهولندي رايهات دوزي أن جمع أدلة كثيرة على الماضي اليهودي للحجاز وعسير في كتابه الذي صدر قبل ١٧٣ عاما بعنوان " الإسرائيليون في مكة من أيام داود حتى القرن الخامس بعد الميلاد " ويستخلص من هذا الكتاب أن اليهود سكنوا

الحجاز وعسير على الأقل منذ داود. كما عثر على معلومات مفادها أن دولة عربية قامت بين مكة واليمن بين ١١٥ق. م والقرن السادس الميلادي، وكانت تدين باليهودية، وهي دولة حمير، التي مقرها اليمن. والمعروف أن أخر ملكين من ملوك حميركانا يدينان باليهودية، كما أن ثمة أدلة مادية على أنه لا يوجد إجماع لدى اليهود بأن فلسطين هي الوطن الأول لليهود. بالإضافة إلى أن اليهود الفلاشا الذين هاجرو من شبه الجزيرة العربية إلى الحبشة في الألف الأول قبل الميلاد، ويعتبرون انفسهم يهودا؛ لم يعترف الحاخام الأكبر في القدس بيهوديتهم إلا عندما هربو من مجاعة إفريقيا إلى إسرائيل، ويشير الكاتب إلى أن التفاصيل في الحياة الإسلامية في الحجاز؛ تبدو وكأنها تشير إلى ماض يهودي، فأهالي الحجاز اليوم ينعتون أهالي عسير بكلمة (يهودنا). وثمة عدد من القبائل الحجازية ما تزال تعتقد حتى الآن أن أجدادهم في الأزمنة البعيدة كانو يهودًا. كما أنهم ما زالو على قناعة تامة بأن أرض الأنبياء التوراتيين موجودة في الحجاز. وفي الإحساء بالسعودية؛ ما زال البدو هناك يزورون كهوفا مغارات معينة على أساس أنها منازل إبراهيم الخليل [٢٠].

هذا إذًا بإيجاز ما كان من أمر أطروحة د. كمال الصليبي حول علاقة بني إسرائيل بفلسطين، وما أثارته من جدل، وما نجم عنها من تداعيات. ومما تقدم يمكن الوصول إلى النتائج والاستخلاصات التالية:

١ - أن المصادر التاريخية، التي تحدثت عن تاريخ فلسطين اقتصرت على الغرب المعروف بميوله، وأهوائه وأغراضه المعادية لنا.

٢ - أن الباحثين والمستكشفين الآثاريين قدموا إلى منطقتنا، وهم مشبعين بالفكر التوراتي، لذلك فانهم كانوا يربطون أي استكشاف أثري ببني إسرائيل واليهود.

٣ - أن تحلي بعض الباحثين الأركيولوجيين بالروح العلمية؛ أوصلهم إلى حالة من الشك في التاريخ المكتوب في التوراة؛ ما دفعهم إلى محاولة لتقصي تاريخ المنطقة بنوع من الموضوعية.

٤ - أن محاولة تقصي تاريخ المنطقة بعيدا عما يدعى في الغرب " الدراسات الكتابية ". أي التاريخ المكتوب في " الكتاب المقدس "؛ أفرزت مجموعة من الباحثين، الذين رأو أن تاريخ فلسطين قد طمس لصالح تاريخ إسرائيل؛ أي أنه من أجل تبرير قيام إسرائيل الحالية، تم خلق علاقة بين إسرائيل القديمة والجماعات اليهودية المنتشرة في العالم، حاليًا، وبالمقابل تم طمس التاريخ الفلسطيني.

٥ - أن الاهتمام بالكتاب المقدس، وأصول إسرائيل القديمة ويهودا؛ أدى - حسب تومس طمسن - إلى خضوع تاريخ فلسطين في الكتابات الغربية؛ حتى عصر ما قبل البرونز (٣٠٠٠ - ١٢٠٠ ق. م) للكتابة من زاوية بدايات العبريين، وكتمهيد لبني إسرائيل. " لكن التبلور الواضح للهوية القومية الفلسطينية؛ منذ عام ١٩٦٧ بشكل خاص، في اعقاب الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية وقطاع غزة، أدى إلى ظهور استقلالية أكبر في الكتابات التاريخية والأركيولوجية؛ عن الدراسات التوراتية ومسألة الأصول اليهودية " [٢١].

إن ازدياد حدة وكثافة السجال حول طبيعة تاريخ فلسطين القديم؛ حتى وصلت إلى درجة تمس الأصول، خاصة حول موضوعات الاستمرارية الدينية والاثنية. وفي هذا السياق ألقيت ظلال من الشك العميق على إمكانية كتابة تاريخ لإسرائيل استنادًا إلى روايات التوراة، ووصل بعض المؤرخين ال حد التشكيك من حيث المبدأ؛ بإمكانية كتابة تاريخ من هذا النوع[٢٢].

٦ - في هذا السياق تأتي أطروحة د. كمال الصليبي، القائلة بأن مسرح الأحداث التوراتية؛ هو الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب. هذه الأطروحة التي يعززها عدم عثور الاسرائيليين - رغم الجهد المضني الذي بذلوه في التنقيب على الآثار في فلسطين - على أي أثر يدلل على وجود بني إسرائيل، أو اليهود.

٧ - إلا أن ذلك لا يعني بأي حال أن لليهود اليوم أي حق في شبه الجزيرة العربية، لانهم لا يمتون لبني إسرائيل أو اليهود الذين عاشو في المنطقة بأية صلة على الاطلاق، فيهود العالم أعراق مختلفة انتشرت الديانة اليهودية بينهم كما انتشرت باقي الديانات الاخرى في العالم.

٨ - أن الهجوم الغربي على الصليبي واطروحته، مرده العنصرية، فهم يعتقدون أن البحث الكتابي؛ يجب أن يقتصر على الغرب.

٩ - أما الهجوم العربي، فمرده الجهل بالتاريخ، واقحام السياسة في الموضوع.

أخيرا ثمة تحفظ على ما يطرح بشأن تاريخ فلسطين القديم، وعلاقته ببني إسرائيل، مفاده أن الطريقة التي يبحث فيها هذا التاريخ وكأن فلسطين جزيرة معزولة غير مرتبطة بمحيطها. ومن غير المنطقي توفر امكانية لكتابة تاريخ فلسطين على هذا النحو. ولذلك من المهم التنبه إلى هذا الأمر.

* * *

مراجع المدخل الثاني

(١) د. زياد منى، **كمال الصليبي في حوار مع زياد منى عن مقولاته في نصوص التوراة والانجيل**، دار قدامس، دمشق، الطبعة الاولى، ٢٠٠١، ص ٧٥.
(٢) كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية الاولى، ١٩٨٥، ص ٢٧.
(٣) **المصدر نفسه**، والصفحة نفسها.
(٤) أسمهان شريح، القدس واورورشليم بين الحقيقة والخيال، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٠٩، صيف ١٩٩٧، ص ٥٨٢، عن جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب والاسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، الجزء الثاني، ١٩٧٦، ص ٢٩١.
(٥) الصليبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧ - ٢٨.
(٦) د. محمود ابو طالب، هل جاءت التوراة من جزيرة العرب؟ **دراسات تاريخية** (جامعة دمشق)، العددان ٢٨، ٢٨، ايلول / سبتمبر - كانون الاول / ديسمبر ١٩٨٧، ص ١٣١.
(٧) **المصدر نفسه**، ص ١٣٤.
(٨) د. أحمد داوود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩١، ص ٦٥.
(٩) **المصدر نفسه**، ص ٦٦.
(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٣٣٠.
(١١) **المصدر نفسه**، ص٢١٦ - ٢١٨.
(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٨ - ٩.
(١٣) الصليبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧.
(١٤) **المصدر نفسه**، ص ١٣.
(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٧ - ٨.
(١٦) د. أحمد داود. **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٢، عن د. عفيف بهنسي، انعكاسات على اكتشاف وثائق ابيلا، **الفكر العربي**، بيروت، العدد ٥٢ اب / اغسطس، ص٩٤.
(١٧) بيير روسي، مدينة، **يزيس التاريخ الحقيقي للعرب**، ترجمة فريد جحا، وزارة التعليم العالي، دمشق، الطبعة الاولى ١٩٨٠، ص ١٩ - ٢٠.
(١٨) أبو طالب، **مصدر سبق ذكره**. ص ١٣٥.
(١٩)؟، هل التوراة على حق؟ المؤرخ اللبناني كمال الصليبي يبدل اماكن المدن المقدسة، ترجمة قاسم طوير، **دراسات تاريخية**. **مصدر سبق ذكره**، ص١٤٥ عن دير شبيغل

بون)، ٤٠، ١٩٨٥/٩/٣٠.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ١٤٧ - ١٤٥.

(٢١) توماس طمسن، هل نستطيع كتابة تاريخ فلسطين القديم؟ **الكرمل** (رام الله) العدد ٦٩.

(٢٢) **المصدر نفسه**.

* * *

المدخل الثالث

جذور الهوية الفلسطينية

المدخل الثالث:

جذور الهوية الفلسطينية

أحمد الدبش

جردت الدراسات التوراتية لفظ " فلسطين " من أي معنى كامن فيه، ولم يعد من الممكن فهمه إلا إذا أعيد تعريفه من خلال لفظ ديني أو لاهوتي آخر، كاللفظ المستعمل للدلالة على " الأرض المقدسة " أو " أرض إسرائيل " ولكن ما يلفت النظر أكثر من ذلك، أنه في حين أن لفظ " فلسطين " قد يكون مستعملا بشكل واسع، على الرغم من تجريده من أي معنى لذاته، فإن لفظ " فلسطينيون " باعتبارهم سكان هذه الأرض، هو استعمال نادر للغاية في الدراسات التوراتية، فإن كانت هناك أرض تدعى فلسطين فلماذا لا يمكن تسمية مواطنيها بالفلسطينيين؟! وبذلك تشبه الأوضاع في العصور القديمة، كما صورتها الدراسات التوراتية، إلى حد بعيد، الأوضاع الحالية التي أدت إلى إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، إذ يبدو أن هذا العالم قد عكس المفاهيم الصهيونية الخاصة بفلسطين، والتي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر، والذي رفع شعار: " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض "، إن ما تصوره الدراسات التوراتية، منذ بدايتها حتى اليوم هو تصوير " فلسطين " من دون سكان أو على أكثر تقدير كسكان

مـؤقتين، سـريعي الـزوال، ينتظـرون قـدوم ذلـك الشـعب الـذي لا يملـك الأرض ونتيجــة ذلــك كــان إنكــار أيــة اســتمرارية أو شــرعية للتــاريخ الفلسطيني، فإذا لم يكن هناك فلسطينيون في العصور القديمة فلا يمكن أن يكون هناك تاريخ فلسطيني.

البدايات:

لم تكن عراقة فلسطين بمسألة طارئـة عليها، وإنمـا ارتبطـت بأصـل تكوينهـا فالحفريـات تشير إلـى أن " الإنسـان وجـد فـي فلسـطين منـذ أقـدم العصور وأنه عاصر أقدم النماذج البشرية " (١).

وبالرغم من ذلك فإننا لم نعثر في بلادنا فلسطين، حتى الآن على آثار لإنسـان الهوموهابيـل، ولحضـارة الحصـى المعروفـة مـن شـرق أفريقيـة، والمؤرخة على عصر البليستوسن الأدنى ويري الباحث زيدان كفافي، أن دلائل وجود الإنسـان فـي بـلاد الشـام عامـة، وفلسـطين خاصـة، تعـود إلـى حوالي المليون ونصف المليون عام(٢).

أما الدكتور سلطان محيسن: فيذهب إلى أن أقدم آثار الإنسان في بلاد الشام - وبالطبع فلسطين - تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى، الـذي بدأ هنا منذ حـوالي مليون سنة، واستمر حتـى حوالي (١٠٠.٠٠٠) سنة خلت وهذا العصر يرادف ما يسمى في أوروبة بالحضارة الآشولية، ذات الانتشار العالمي الواسع والتي اشتهرت بتصنيع الفؤوس اليدوية بخاصة، لقد سكنت منذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية، ولبنان، وفلسطين، مـن قبـل إنسـان " الهومواركتـوس " الـذي وصـل بـلاد الشـام قادمًـا مـن الجنـوب مـن القـارة الأفريقيـة، ويسـتطرد د. محيسـن قـائلا: أن انتشـار

المواقع وتتابعها الزمني يدل على أن " الهوموواركتوس "، سلك في طريقه إلى بلاد الشام خطين اثنين، يشكلان ممرات طبيعية بين أفريقية وآسيا، الأول ساحلي، أي على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط، والخط الثاني داخلي على طول الإنهدام السوري الأفريقي أو الأخدود الأفريقي العظيم الممتد من جنوب وشرق أفريقيا مرورًا بالبحر الأحمر فوادي الليطاني، وحتى نهر العاصي في سورية شمالا [٣].

فقد كشفت دورثي غارود عن وجود مصنوعات حجرية ترقى إلى الزمان المطير الأول الذي يعود إلى مليون سنة ونيف، وذلك في مغارة الطابون (التنور) في جبل الكرمل، وأن الأدوات المكتشفة في هذا الموقع سابقة لأمثالها في أوربة وأفريقية وأن عددها يتجاوز الأربعين ألفا[٤].

ووجدت متحجرات بشرية في تل العبيدية، بالقرب من الساحل الجنوبي لبحيرة طبرية بفلسطين، وكانت عبارة عن قطع لجمجمتين وسنًا واحدًا، وبالرغم من أن الآلات الحجرية التي وجدت مع هذه المتحجرات العظيمة المهشمة بفلسطين، تشبه الآلات البدائية التي وجدت في مواقع القرد البشري الجنوبي في أفريقية، فهناك بعض الشك في معاصرة الهيكل العظمي الذي وجد في تل العبيدية للرواسب التي وجدت فيها[٥].

وفي ذلك يقول العالم الأثري فرنسيس أور، أنه وجد ترسبات معقدة حصلت على دورتين وكل دورة على مرحلتين، حدثت فيها ترسبات مستنقعية وبحيرية، وأسميت (LI,FI,Lu,Fu)، واحتوت بقايا إقامة بشرية طويلة وجدت آثارها على امتداد طبقات مختلفة هذا الموقع بكامله، اعتبر سابقا للانتقال القطبي المغناطيسي (ماتويام/ بونه) مما يعطيه عمرًا

يناهز المليون سنة، وذلك للقسم الأعلى من ترسباته، إن الجديد والأكثر أهمية هو ربما أرضية السكن التي يجب أن تؤرخ إلى حوالي (١.٢٠٠.٠٠٠) سنة[٦]. ويذكر د. سلطان محيسن أن جماعات العبيدية الأولى، قد تغذت من صيد الفيل، والحصان، والوعل، والغزال، وفرس الماء، كما التقطت ثمار الزروع، والعظم، واللوز، وغيره[٧].

أقدم الهياكل العظيمة البشرية:

في مطلع العصر المطير الرابع والأخير، المعاصر للعصر الجليدي الأخير فيرم في أوروبة، دخلت مجتمعات ما قبل التاريخ مرحلة جيدة بين حوالي (٣٥.٠٠٠ - ١٠٠.٠٠٠) سنة خلت، ويطلق عليها اسم العصر الحجري الأوسط أو الباليوليت الأوسط، في هذه المرحلة ظهر نوع جديد من البشر هو " إنسان النياندرتال "، حاملاً معه حضارة جديدة - وهي الحضارة الموستيرية، أو اللفلوازية - الموستيرية كما أطلق عليها البعض في بلاد الشام.

لقد اختفى الموزاييك الحضاري، الذي ساد في العصر السابق وتوارى " الهوموراكتوس " تاركًا المسرح لخلفه " النياندرتال "، وقد جاءت هذه التسمية نسبة إلى وادي نياندر في ألمانيا فقد عثر على هياكل بشرية من نوع نياندرتال في جبل الكرمل ما بين عامي ١٩٢٤ - ١٩٢٩، وذلك في كهفين كهف الطابون وكهف السخول، وكان ذلك تحت إشراف الدكتورة دورثي غارود، وقد درس هذه الهياكل الأستاذان ماك كاون وكيث، عام ١٩٣٩، كما تناولها زوينر من ناحية تقدير عمرها عام ١٩٥٩، ويرى زوينر أن هياكل الطابون ترجع إلى آخر فترة غير

جليدية، بينما هياكل السخول إلى أوائل الفترة الجليدية الأخيرة (فيرم١).

وتبدو جماجم الطابون أقل غلظة من جماجم نياندرتال أوروبة، ولكنها مثلها تفتقر إلى الذقن، وذات حواف عظيمة بارزة فوق العينين، ولو اقتصر الأمر على هذه الجماجم لاكتفى بوضعها في نطاق النياندرتال، إلا أن بعض جماجم السخول أقرب شبهًا إلى الإنسان الحديث فهي ذات جبهة واضحة، وإن كانت عظام الحاجبين فوق العينين لا تزال غليظة، إلا أنها مقسمة في الوسط كما نرى في الإنسان الحديث، فهي إذن لا تختلف كثيرًا عن عظام الحاجبين لدى الأوروبيين الحديثين أو الاستراليين الأصليين، ويضاف إلى هذا أن مؤخرة الجمجمة مستديرة، وليست مدببة، وهي في هذه الصفة شبيهة جدا بجمجمة الإنسان الحديث، كما أن للجمجمة عظمة ذقن لا شك فيها، وعظام الوجه دقيقة وليست غليظة[٨].

والذي يلفت النظر بشكل خاص في بعض هياكل جبل الكرمل أنها تظهر بعض الصفات التشريحية التي للإنسان الحديث، وتشير نتائج الأبحاث الحديثة جدا إلى وجود محتمل للإنسان العاقل في فلسطين منذ حوالي (١٠٠.٠٠٠) سنة خلت، كما دلّت على ذلك هياكله في جبل قفزة نفسه، وإذا علمنا أن هياكل جديدة نياندرتالية من مغارة الكبارا في فلسطين أُرِّحت على حوالي (٦٠.٠٠٠) سنة، لأدركنا أنه يمكن طرح نظرية جديدة تقول بأن الإنسان العاقل وجد في بلادنا فلسطين قبل النيادندرتال بزمن طويل، ولم يكن متطورًا عنه، وأن هذا النياندرتال ربما أتى من أوروبة أو غيرها، ولكن لابد من المعلومات حتى نصبح أقرب

إلى الحقيقة[٩].

طرح بعض الباحثين فرضا آخر، هو أن الإنسان العاقل (الحديث) ومنه جماجم الكرمل، وإنسان نياندرتال، كانا متعاصرين، وربما كان شرقي البحر المتوسط مكانا ملائما لظهور الإنسان العاقل (الحديث)، جنبًا إلى جنب مع إنسان النياندرتال[١٠].

هل الإنسان العاقل أصله فلسطيني:

ولكن ما هو " نوع " الإنسان الذي ننتمي نحن إليه؟ إنه ذلك النموذج الفيزيقي، الذي يطلق عليه في العادة اسم " الإنسان العاقل "، إن كل المعطيات المتوفرة لدينا، حتى الآن، تدل على أن الإنسان العاقل كان النوع الإنساني الرابع والأخير في عصور ما قبل التاريخ، لقد ظهر هذا الإنسان منذ حوالي ٤٠ ألف سنة أي في العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى)، ولكن من أين أتى الإنسان العاقل... ؟ لقد بدأت خيوط اللغز تتجمع الآن.

لقد أدت الاكتشافات المتزايدة، ومنذ مطلع هذا القرن، إلى تباين الآراء حول إنسان النياندرتال، ففي حين يعتقد بعضهم بأنه قد تطور نحو الإنسان العاقل الحالي، يقول آخرون بانقراضه دون خلف، ويعتبرونه فرعًا جانبيًا على هامش العملية التطورية.

يعتمد أنصار تطور النياندرتال على المكتشفات التي أتت من فلسطين، حيث وجدت في الكثير من المغاور - مثل مغارة السخول، والأميرة، والطابون والزطية، في جبل الكرمل، ومغارة جبل قفزة قرب

الناصرة، ومغارة العامود بجوار بحيرة طبرية - عدة هياكل عظيمة بشرية لها صفات فيزيولوجية مشتركة بين الإنسان العاقل، مثل حجم الدماغ الكبير، حوالي (١٥٠٠ سم٣)، والقامة الطويلة (١٧٠ - ١٨٠) سم، بالإضافة إلى الذقن البارزة وهذا كلها صفات متطورة حملها الإنسان العاقل، وقد رافقت تلك الهياكل أدوات حجرية بينها نصال متطورة أيضًا استخدمها الإنسان العاقل بكثافة، فيما بعد.

كل ذلك يشير على أن النياندرتال قد تحول في فلسطين بشكل تدريجي نحو الإنسان العاقل، ومن جهة أخرى، فإن أنصار نظرية انقراض النياندرتال يستندون على معطيات أتت من غرب أوروبة من بعض المواقع في فرنسا (فونتوبشوفاد)، وألمانيا (شتاين هايم)، وإنجلترا (سوانسكومب)، التي وجدت فيها هياكل عظيمة لا تحمل صفات مشتركة بين النياندرتال، والإنسان العاقل؛ مما دفع إلى الاعتقاد بأن النياندرتال لم يكن السلف المباشر للإنسان العاقل، وإن كان هذا الأخير حمل صفاته، وأن هذا السلف كان الهوموواركتوس، بدليل انتقال صفات هذا الإنسان إلى الإنسان العاقل، كما ظهر في عدة مناطق من أوروبة وأفريقية.

هكذا، فإن الإنسان العاقل يكون قد تطور من الهوموواركتوس، دون أن يمر بمرحلة النياندرتال، ويكون كل من النياندرتال، والإنسان العاقل فرعين مستقلين تطورا عن الهوموواركتوس، الفرع الأول - أي أن النياندرتال، انقرض بينما تابع الفرع الثاني، وهو الإنسان العاقل طريقة التطوري، والواقع أننا مازلنا بعيدين عن البت النهائي في هذا الموضوع، لاسيما، وأن المكتشفات قليلة، والتفسيرات النظرية أكثر مما يحتمل واقع

تلك المكتشفات، لأننا إذا قبلنا نظرية انقراض النياندرتال، فليس لدينا دليل قاطع على السبب، هل هو تغير مناخي مدمر، وكوارث طبيعية، أم وباء شامل، أطاح بهذا الإنسان، أم مذابح جماعية نفذها العاقل أدت إلى مسح إنسان النياندرتال المسالم في طبيعته عن الوجود، كما يقول بعضهم؟ ولكن يصعب علينا قبول هذا الافتراض الأخير، لسبب بسيط وهو أننا لم نعثر حتى الآن على آثار مثل تلك المذابح، بل إننا نجد أية هياكل عظيمة نياندرتالية قتل أصحابها بأدوات الإنسان العاقل، في ضوء ذلك كله يمكن أن نفترض أن كلا من إنسان نياندرتال، والإنسان العاقل، كانا وثيقي الصلة ببعضهما، وربما تعايشا معًا، لزمن قصير أو طويل قبل أن يسود النوع الأكثر تكيفًا، والأفضل، وهو الإنسان العاقل، ومهما يكن، فلابد لنا أيضا من قبول الحقيقة الراهنة على الأقل، وهي أن النياندرتال الفلسطيني هو الذي تطور وحده، فيزيولوجيًا وحضاريًا نحو الإنسان العاقل جدُّنا المباشر، وصانع الحضارة الإنسانية بمفهومها الشامل، وأما مصير النياندرتال الأوربي، فكان الانقراض، ولكن للأسف هناك من يرفض قبول هذه الحقيقة، مثل بعض الباحثين الغربيين والألمان بخاصة، ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي، مدفوعًا باعتبارات عنصرية لا تمت إلى جوهر البحث العلمي النزيه بصلة[١١]. وأدل مثال على ذلك عندما قال فرانز فيدنرايخ - في مؤتمر علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية (علم الأجناس البشرية) في كوبنهاجن قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة - أنه يبدو أن الإنسان العاقل قد جاء من فلسطين إلى شمال أوربة، ثار المندوب النازي وخرج من غرفة الاجتماع[١٢].

التاريخ يبدأ في أريحا:

أخذ الإنسان يندرج في الحضارة منذ زمن بعيد، وأخذ ينتقل خطوة بعد أخرى حتى وصل إلى تحقيق كثير من الاختراعات التي ساعدته على توفير الراحة والأمن لنفسه، ومكنته أيضًا من التغلب على كثير من الصعوبات بل الأخطار التي كانت تحدق به في حياته البدائية الأولى.

وليست قصة أصل الحضارة الإنسانية ثم مولدها وتطورها، إلا سلسلة متعاقبة بدأت في بلادنا فلسطين، وليس بين شعوب العالم أجمع من هو أولى من شعبنا بالعناية، وبذل الجهد في سبيل نشر هذا الفرع من المعرفة، لأن القدر أراد لنا أن نولد، ونعيش، في هذه البقعة التي نبتت فيها شجرة المدينة الأولى، وشع في سمائها ذلك النور المتأجج نور المعرفة، والعلم في وقت كان العالم خارج هذه المنطقة ينوء تحت حجب كثيفة من ظلام التوحش، فمن هنا - على ما يبدو - ظهر الإنسان العاقل، منذ ما يربو على الخمسة والثلاثين ألف عام مضت، وقامت كل الثورات الأولى هنا، إن الثورة بدأت بتعلم الإنسان فنون الزراعة، حتى أصبح ينتج قوته بعد أن كان يلتقطه، ويكفينا أن نقول، بأن الزراعة كانت أهم عامل دفع الإنسان نحو الحياة المستقرة؛ فنتج عن ذلك ظهور المجتمعات الصغيرة الأولى ثم تطورت هذه المجتمعات إلى قرى، ثم إلى مدن صغيرة وكبيرة وقد رافق هذا تطور مهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والفنية والسياسية(١٣).

فمن كان أصحاب هذه الحضارة وإلى أي جنس ينتمون؟ أصحاب هذه الثورة الأولى - بالغة الأهمية أنهم، " الناطوفيون " نسبة إلى واد نطوف، شمال غرب القدس، وتدل الهياكل العظيمة التي عثر عليها في مواضع مختلفة، أن أصحاب هذه الثقافة كانوا أقرب إلى قصر القامة، يمتازون بالنحافة، يحملون صفات البحر المتوسط، برأسها الطويل، ووجهها الضيق المسكون - مثل كثير من العرب الحاليين[١٤].

فقد اكتشفت في فلسطين نحو خمسين هيكلا لنموذج عرق البحر المتوسط في مقبرة قديمة، تبعد عشرين ميلا عن القدس[١٥]. وتصف التوراة في سفر التكوين (٦: ٤) سكان فلسطين (إن كان المقصود فلسطين الحالية، لوجود خطأ في إسقاط جغرافية التوراة) في حوالي الألف الرابع ق. م بـ " الطغاة "، ولكن مثل هذا الوصف لا ينير أمامنا الطريق في كثير أو قليل، ولابد أن قبور المغاور الضخمة المنتشرة انتشارًا واسعًا، والتي يبلغ طول بعضها مئات الأقدام بالإضافة إلى الأضرحة الأثرية، المسماة دولمن، المبنية بحجارة كبرى غير مهذبة، على أسس مستديرة متينة، قد كان تأثيرها عظيمًا على كتبة التوراة، مما أدى إلى ظهور مثل هذه الأساطير، المتعلقة بـ " بني عناق من الجبابرة " وبالعمالقة، التي انتقلت إلى الأدب العربي الإسلامي، ولقد أشار كثير من الباحثين إلى ماكان يقوم به بعض المفسرين، من إضافة الأخبار، والأساطير إلى التفسير بعضها منقول عمن أسلموا، من النصارى، واليهود، وبعضها من تزويدهم، واختراع خيالهم.

أما التركيب العرقي للسكان فليس واضحًا، والرأي السائد هو أنهم

كانوا، دون شك، من جنس البحر المتوسط، الذي يعتبر الساميون (الجزريون) فرعًا منه، وبعضهم كان على ما يبدوا من العنصر المعروف بالأمنوري، كما تفيد دراسة بقايا الهياكل العظيمة في الجزر في جنوبي البلاد[١٦].

الهجرات الجزرية:

يلمس المؤرخ في تاريخ فلسطين، منذ العصر الحجري الحديث، بعض الظواهر الحضارية الخاصة، التي تؤكد توافد سلالات بشرية من الصحراء إلى هذه المنطقة، لاشك أنها سامية أو بالأصح جزرية[١٧].

وفي ذلك يقول العلامة تومس طمسن، إن هذا التغير في سوريا - فلسطين، أواخر العصر الحجري الحديث، وأوائل العصر النحاسي يجب ألا يعتبر غزوًا كثيفًا، أو إقتلاعًا للسكان المحليين، إبان العصر الحجري الحديث كان الخليط الإثنى في فلسطين قد أصبح معقدًا، ولا معلومات لدينا عن أية تطورات هامة، خلال فترة الانتقال إلى العصر النحاسي، وأكثر من ذلك فإن وجود مستويات ثقافية، ومادية لدى السكان المحليين، ووجود قرى ومدن ذات حجم كبير، ونظام اجتماعي تفوق أي شيء يمكن توقعه، يجعل من الصعب أن نتصور سوريا - فلسطين عرضة لغزو قام به عدد، لابد أن يكون صغيرًا، من الفلاحين والرعاة الساميين (الجزريين) والأحرى هو أن السكان المحليين استمروا وأن التغير كان لغويًا وتدريجيًا[١٨].

يطلق على تلك العناصر السامية/ الجزرية، التي قطنت فلسطين ولبنان وسوريا، منذ أقدم العصور، كنعان والكنعانيون، كتسمية تقليدية

عامة لمنطقة فلسطين والساحل الفينيقي، دون تحديد دقيق، وهذه التسمية هي أساسًا، تسمية التوراة لتلك المنطقة بالذات، حيث يزعم الكثيرون أن كنعان بن حام بن نوح، تسمى باسمه قسم كبير من سكان لبنان وسورية عصورًا طويلة، وهو مشتق في العبرية من (كنع) بمعنى ركع، وهو لفظ ميت، وفي الكلدانية بمعنى خزي، وفي العربية بمعنى خضع، وفي ذلك يقول القديس أوجستين: " أن السبب في تسمية أرض الميعاد، بأرض كنعان، يؤخذ من معنى هذه الكلمة، فمعناها المنخفض " (١٩).

وفي ذلك يقول المؤرخ اللبناني فيليب حتّى، نقلا عن البرايت، وسميث وغيرهما: " ولسنا ندري تماما أصل الكلمة، فبعضهم يشير إلى أن كلمة (كنعان) تعني الأرض المنخفضة، لاختلافها عن مرتفعات لبنان، ولكن أحدث الآراء يشير إلى أن أصل الكلمة غير سامي، والاشتقاق الجديد يجعله حوري الأصل (Knaggi) بمعنى الصباغ الأرجواني، وهذا أعطى الصيغة الأكادية في نوزي (كناخي - Kinakhi) وفي مسمارية تل العمارنة (كيناخي - Kinakhkhi) والفينيقية (كنغ - Kena) والعبرية كنعان أي بلاد الأرجوان، كذلك يشير اسم فينيقية، المشتق من اليونانية (Phoini) أي أحمر أرجواني إلى الصناعة نفسها - صناعة الأرجوان - وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم، فإن كلمة فينيقي أصبحت حوالي ١٢٠٠ ق. م مرادفة لكنعان " (٢٠).

يبقى إقرار اشتقاق (كنعان) معلقًا، فقد اكتفى شبيزر بالقول: " إن أصل واشتقاق (كنعن) ومشتقاته لا علاقة البتة بالمسألة الحالية "، أي

باشتقاق اسم (الفينيقيين)[٢١]، ولكن الواقع أن تسمية " كنعان " غير دقيقة فالمكتشفات الأثرية من أقصى شمال سورية الطبيعية، إلى أقصى جنوبها، لم تشر على وجود كنعاني فيها، ولم تأت على أي ذكر لـ " كنعان "، وأما ما يزعم البعض من أن الكلمة وردت في الأسطر القليلة المكتشفة، على ما دعي بتمثال إدريمي في الألأخ فهذا زعم باطل، إذ أن الكلمة هي " قنياني " وتعني مقتيناني، ملكي، وليست " كنعان " [٢٢].

وحول تفسير كلمة " كناخي " في رسائل تل العمارنة المصرية، على أنها تعني " كنعان " فإننا نفهم أن تتبدل الخاء إلى كاف، والنون إلى ميم، أما تبديل الخاء والجيم، كما تلفظ (باللهجة المصرية والبدوية والسريانية) إلى عين، فأنها عصية على الهضم في اللهجات.

في ذلك يقول سباتينو موسكاتي، يجب أن نسلم بأن هذه التسمية لا تبعث على الرضا من نواح عدة، فإنه يبدو من تمحيص المصادر أن لفظي " كنعان " و " الكنعانيين " كانا يعنيان، قبل كل شيء " فينيقيا " و " الفينيقيين "، لم يستعملا إلا في عصر متأخر للدلالة على مدلولين أوسع نطاقًا؛ أحدهما جغرافي، والآخر جنسي، هذا إلى أن حدود تلك التسمية ليست محددة تحديدًا يدعو إلى الرضا، فهذه الحدود واضحة بعد مجيء القبائل الآرامية ولكن هذا الحدث متأخر نسبيا وكان لفظا كنعان والكنعانيين يلطلقان قبل ذلك على المنطقة السورية - الفلسطينية بأسرها، وعلى سكانها، ثم أن الكنعانية من حيث هي مجموعة لغوية ليست وحدة حقيقية فلفظ " كنعاني " يطلق، كما لاحظ الأستاذ فريدرش، عن حق على أي عنصر لغوي سوري - فلسطيني لا ينتمي إلى الآرامية[٢٣].

ويذكر العلامة تومس طمسن إلى أن تعبير " كنعاني " أساء استعماله معظم العاملين في الأركيولوجيا ودراسات الشرق الأدنى القديم، اليوم تعبير " كنعاني " كما هو مستعمل في الأركيولوجيا التوراتية، اسم قبلي تعود أصوله إلى مرويات العهد القديم خلال مرحلة ما بعد النفي، الهادفة لمحاربة عبادة بعل فهو القطب المضاد لإسرائيل، وفي العصر الحديدي الأول، لا يبدو مناسبًا أبدًا إطلاق " كنعاني " على ثقافة الدولة المدينة في السهول، والوديان الرئيسية، مثير للاعتراض هذا لأنه ليس تعسفياً في تحديداته فحسب، بل لأنه يفترض وحده إثنية - سياسية ومادية، هي ببساطة لا تتوافق مع أية حقيقة نعرفها، حتى خلال العصر البرونزي، وتعبير " كنعاني " ليس اسما جغرافيا فحسب، ولا يعرف كاسم قبلي في هذا التاريخ المبكر، بل إن إطلاقه على الأراضي المنخفضة في فلسطين كمنطقة يسود فيها نظام الدولة المدينة في العصر الحديدي الأول، مثير للسخرية[٢٤]. إذن التسمية " كنعان " جاءت من التوراة، ثم تعارف عليها العلماء، والباحثون علي تحديد مضمون هذه التسمية. إنه إصطلاح اتفق عليه المستشرقون الاستعماريون، والصهاينة، من أجل أن يحولوا أرض سوريا كلها من الفرات إلي النيل، إلي ما تدعوه التوراة بأرض كنعان التي وعد بها الرب إبراهيم. فصاروا اليوم يدعونها بأرض الميعاد لتكون المسرح الجغرافي الاستعماري الصهيوني الحديث.

وإذا كنا هنا لسنا في مجال إيجاز ما كتبناه من أن مسرح التوراة كان في اليمن ومحيطه [٢٥]، يكفي أن نذكر أن اليونانيين تحدثوا عن الفينيقيين. ولم يذكروا الكنعانيين، بدءأ من هوميروس إلي " هيرودوتس

". والتي تمتد حركاتهم (الفينيقيين) من الناحية الزمنية إلي مراحل ما قبل التاريخ. حيث كان موطنهم الأصلي في جنوب الجزيرة العربية، في منطقة اليمن تحديداً. وللأسباب نفسها التي دفعت بالهجرات العروبية إلي مواقع أخرى. هاجر الفينيقيون إلي منطقة الخليج العربي واستوطنوا في / وقرب جزيرة الديلم " البحرين حالياً ". ويعتقد العالم راكوزين أن الفينيقيين، الذين سكنوا الساحل الشامي، كانوا قد قدموا من البحرين، وقد تفرقوا إلي قبائل، وتوزعوا في أقسام عديدة من سوريا، و أطلق علي أحد فروعهم اسم بنط أو بونا، وداعهم الإغريق بالفينيقيين والبونيون " الفينيقيين " كانوا شعباً تجارياً، وقد هاجروا إلي الأماكن التي تزدهر فيها التجارة كما سكنوا شمال أفريقيا، ومنهم القرطاجيون. علي أن أهم فرع لهم سكن في بلاد اليمن، وحول مضيق باب المندب ثم انتقل إلي السواحل الأفريقية الشرقية، واستوطن بلاد الصومال، وسيطر علي البحرين الهندي، والأحمر، ويعتقد المؤرخون بأن " البونيين " قبيلة من الكنعانيين، استوطنت بلاد سوريا، منذ أقدم الأزمان وما زالوا [٢٦].

ويرى المؤرخ " هيرودوتس " (٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م) في مؤلفه - مكتبة التاريخ - أن موطن الفينيقيين الأصلي هو البحر الاريتيري قائلاً: " والفينيقيون كانوا يسكنون سابقاً سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر). كما يقولون هم أنفسهم، إذ اجتازوا من هناك إلي سواحل سورية فقطنوها. والقسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلي تخوم مصر، يسمى فلسطين " [٢٧]. يزعم مؤرخونا أصحاب، وحراس الفكر الآسن في جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا، أن الشواهد الأثرية من الفترة الإنتقالية في

فلسطين. تشير إلي حصول نقص متسارع في عدد السكان، بلغ حده الأدنى حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م، كما يذهبون إلي ترافق هذا الفراغ السكاني مع دمار المدن الفلسطينية الرئيسية. وإنقطاع في السكن دام أكثر من قرن. وقد استنتج مؤرخونا الأشاوس، علي الفور، بأن آثار هذا الدمار تُعزى إلي جماعات، تطلق علي نفسها اسم " الأموريين " وفدت من شبه جزيرة العرب. ولكن أين هي آثار الأموريين في بلادنا فلسطين؟! أحد الباحثين تنبه علي الفور بأننا لا نعلم الشيء الكثير عن هذا الشعب، ولا نعرف لغة القوم، معرفة يقينية، ولا نعرف الكثير عن حضارتها. حتى أن إسمهم (أمور) أو (أمورو) مبهم " [٢٨].

وقد بدأ بعض المؤرخين الجدد يعتقد بأن المدعين بالأمويين ليسوا جماعات غريبة وفدت فلسطين من الخارج، بل هم أهل المناطق المنكوبة، الذين أجبرهم الجفاف على هجر أراضيهم الزراعية، وحولهم إلى حياة الرعي المتنقل، وقد تنبه لذلك العلامة " تومسون " في كتابه The Bible In History How Writers Create a past, Cape) 1999) قائلا: " حتى أواسط السبعينات من القرن العشرين، كان البحث الأركيولوجي والتاريخي يعالج أحداث الفترة الانتقالية، من خلال نظرية الهجرات البدوية من شبه الجزيرة العربية، كما ربط العديد من الباحثين هذه النظرية، بالنصوص المسمارية التي تحدث عن جماعات الأمور، وبالنصوص الهيروغليفية التي تتحدث عن جماعات العامو، وبذلك تم اختراع تاريخ لهجرة الأموريين، فتحت الاسم عامو جعلوا أحد العناصر الرئيسية وراء الأحداث التي قادت إلى نهاية المملكة القديمة في مصر،

وتحت اسم الآموريين، جعلوا مسئولين عن تدمير ثقافة عصر البرونز المبكر في كل من بلاد الرافدين وبلاد الشام، قبل سيطرتهم المنظمة على الهلال الخصيب، وتشكيل ممالكهم الآمورية، إن الأفكار البالية عن الغزو والاجتياح قد جعلت من السهل على المؤرخين استخدام جحافل البدو، من أجل مسح الحضارات القديمة، واستهلال حضارات جديدة، وبذلك انتقلوا بنا من حضارة البرونز المبكر إلى حضارة البرونز الوسيط، ومن عالم الكنعانيين الفلسطينيين في عصر البرونز الوسيط إلى عالم الإسرائيليين في عصر الحديد، ولكن ألا تبدو لنا هذه الانتقالات مفهومة أكثر إذا تخيلنا عن تفسيرها باجتياحات القبائل السامية الداخلية؟! وألا تبدو لنا الاستمرارية الثقافية، بما تحتويه من تنويعات أكثر وضوحًا، باعتبارها من نواتج التغيرات الداخلية والتحولات الاقتصادية[٢٩].

ألا يؤيد ذلك وجهة نظرنا بأن الأموريين خلقوا في بلاد الشام لتوسيع نطاق وعد الرب لإبراهيم، كما تزعم أسفار التوراة، لقد بينت ذلك في مؤلفي الموسم موسى وفرعون في جزيرة العرب، حين ذكرت، ووفق قناعاتي الشخصية وجوب البحث عن (الأموريين) في جنوب جزيرة العرب، حيث حافظت على اسمها في صيغة (الحميريون) فقد أطلق بطليموس على جزيرة العرب تسمية (ماروي)، وذكر الهمذاني في كتابه - صفة جزيرة العرب - نقلا عن بطليموس، ما يلي: " أفضل البلاد المعمورة من شق الأرض الشمالي إلى الجزيرة الكبرى، وهي الجزيرة التي يسميها بطليموس (ماروي) تقطع على أربعة أقاليم، من عمران الشمال إلى الخامس فجنوبها: اليمين وشماليها: الشام، وغربيها: شرم

أيلة، وما طردته من السواحل إلى القلزم، وفسطاط مصر، وشرقيها: عُمان، والبحرين، وكاظمة والبصرة، ومُوسَطها: الحجاز وأرض نجد، والعروض، وتسمى جزيرة العرب " [٣٠]. لعل من أهم أمثلة التحركات البشرية الفلسطينية تحركات العناصر المسماة، بالهكسوس، وهي تسمية مصرية قديمة " حقاو - خاسوت، ومعناها حاكم الأراضي[٣١]، ويؤكد فلسطينية الهكسوس الباحث ج. ف كينيت (G. G. KNIGHT) قائلا: " الهكسوس هم من الأموريين، (يقصد الفلسطينيين)، وليس من دليل يشير إلى غير ذلك، حتى لو وجد بعض المقاتلين من الحيثيين أو غير الحيثيين أو من الأجناس غير العربية في صفوفهم، فهذا لا يلغي القاعدة الأساس، فالهكسوس من موجات الجنس العربي، فقوتهم المتحركة من عصر كنعاني أو أموري (الأصح فينيقي)، وكان لبعض ملوكهم أسماء كنعانية (فينيقية)، كما أن الآلهة التي جلبوها إلى مصر كانت معظمها كنعانية (فينيقية).

إسرائيليون:

وبالرغم من عدم توافر أدلة على وجود إسرائيلي، في بلادنا فلسطين، بعد مرور أكثر من قرن ونيف، على التنقيب الأثري، الذي لم يترك شبرًا، أو حجرًا من أرض فلسطين، دون قلبها: لم يعثر على أثر واحد يربط العهد القديم بها[٣٢]. بدأ بعض المعنيين من الإسرائيليين، والتوراتيين، وسائدهم في ذلك السادة حراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، في البحث في النقوش القديمة، التي تعود إلى ممالك الشرق القديم، والتي تشير إلى مجموعات من الناس عُرفت بأسماء مختلفة، مثل

(س ء ج ء ز)، (خفيرو)، (عفرم) (عفر. و)، (عابيرو) في النصوص المسمارية في (نوزي، وتل حريري - ماري - وتل العطشانة - الالاخ -، ورأس شمرا - أوغاريت - تل العمارنة وغيرها)، واعتقدوا أنهم اكتشفوا فيهم " العبريين ".

فيذهب الباحث التوراتي إدوارد كامبل إلى كلمة " عابيرو " تطابق كلمة " العبريين " فيخرج بالنتيجة المتسرعة والفجة إلى أن " العابيرو " هم " العبريون " [٣٣]. فـ " العابيرو " لم يكونوا طائفة عرقية، بل طبقة من طبقات المجتمع الكنعاني، كانوا شعبا تحول إلى طائفة منبوذة في المجتمع الكنعاني، وطرد من المدن - الدول، لأسباب اقتصادية وسياسية وقد أصبحوا - أحيانا - لصوصًا وقطاع طرق، وأحيانا أخرى جنودًا مرتزقة. [٣٤] فمراجعة

م. ليفيراتي الحديثة لتفسير رسائل تل العمارنة أكدت أن " العابيرو " طبقة دنيا ناقمة ولاجئون، هربوا من القمع الإمبريالي المصري على المناطق الجبلية، ليعيشوا لصوصًا، وقطاع طرق ضد رواد التجارة البرية، ويظهر أنهم استقروا أخيرًا في المناطق الجبلية بعد حقبة تل العمارنة[٣٥].

إذا كان أصحاب الفكر الآسن من مؤرخينا، لم يشككوا لحظة في ما تلقنوه، بل رددوه كببغاوات في صالون المتحف، فإن أحد المفكرين الغربيين بير روسي لم يسعه السكوت على الكذب التاريخي، فيخصص الفصل الأول من كتابه الرائع - مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب - لدحض هذه الفرية، مقدمًا إيضاحًا موجزًا حول قضية العبرية، التي

ليست إلا وهمًا معقدًا، ومستمرًا لشعوذة اشتقاقية لغوية، قد استطاع أن يجر كثيرًا من الناس ليروا (العبرانيين) في (ثقافتهم) الأجداد الساميين لتاريخ الشرق، ولتاريخنا نحن (في أوروبا) أيضًا، أن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع (للعبرانيين) خارج النصوص التوراتية، هو الصمت الكلي المطبق، فلا العمارة، ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين، والدساتير تكشف أثرا قليلا (للعبرانيين)، فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية، التي تؤلف المكتبة المصرية، أو مكتبة رأس شمرا، أو نينوي، وحتى في الروايات الآرامية في ذلك كله لا تذكر كلمة (عبرية)، وأشهر ملوك التوراة - داود وسليمان - لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هناك، أبدًا ذكر للملحمة المعزوة لعبور (العبرانيين)، وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام ١٨٨٠ - ١٩٢٥، فالعدم كامل، مثلما هو قطعي وجازم[٣٦]، فـ " العابيرو " ليسوا، إذن عناصر أجنبية أتوا من الخارج - كما يرى البعض - بل هم من نبات الأرض والصحراء، إن ظاهرة " العابيرو " تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة بلاد الشام، ونتيجة الاضطهاد والقهر الواقع على عاتق الناس من جهة واحتقار الحكام الذين نصبهم الفرعون للعامة من جهة ثانية، أدت إلى حالات تمرد كبيرة، وهذه الحالات رسمها الحكام، الذين ظلوا على ولائهم للفرعون من خلال نصوص رسائل تل العمارنة[٣٧].

الفلسطينيون:

أهمل مؤرخوا الغرب المتخصصون في تاريخ الشرق الأدنى القديم

وحضارته، دراسة التاريخ الفسطيني، ولم يخصصوا في دراساتهم الخاصة بشعوب الشرق الأدنى القديم، أي ذكر خاص بتاريخ الفلسطينيين في شكل عمل مستقل، أو حتى في شكل فصل مستقل من فصول الدراسة، وقد اتبع المؤرخون اليهود، ومن يساندهم من حراس، وأصحاب الفكر الآسن العربي، في جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا، سياسة التعتيم على أخبار الفلسطينيين في التاريخ القديم، وإحاطة هذه الأخبار بالغموض الشديد، من أجل طمس الحقائق التاريخية، وإسقاط الفلسطينيين كواحد من الشعوب الرئيسية في منطقة فلسطين.

" الفلسطينيون " مصطلح يطلق على القبائل التي استوطنت شاطئ فلسطين " كنعان " الجنوبي الغربي من غزة جنوبًا إلى يافا شمالا، ومنهم جاءت تسمية فلسطين، التي مازالت مستعلمة حتى يومنا هذا للدلالة على أرض فلسطين الحالية، وأهم المدن التي استوطنوها (غزة، وعسقلان، وأشدود، وعقرون، وجت)، وكانت من الفلسطينيين هذه على الساحل، عدا مدينة " جت "، التي كانت تمتد قليلا إلى الداخل ولم يؤسس الفلسطينيون مستعمرات ما عدا مدينتي " اللد " و " صقلغ " في أقصى جنوبي مدينة يهوذا.

وأقدم ذكر للفلسطينيين، ورد في النصوص المصرية الآشورية، فقد سميت بلادهم " بالاستو " فلسطين Palastu، أو بيلسيتو Pilistu، وهو نفس الاصطلاح اليوناني فلستيا Philidtia، الذي أصبح باليستينا (فلسطين) وقد كثر ذكرهم في التوراة فقد سمتهم التوراة كفتورين، وذكرت أن وطنهم في جزيرة كفتور المناظرة لكفيتو في المصادر

المصرية، والتي يقولون إنها جزيرة كريت[٣٨]، وفي التعريف بـ " فلسطين " و " الفلسطينيون " في المصادر اليهودية نجد تعتيما شديدًا، وإيهامًا بأن الفلسطينيين شعب غريب، ليست له أصول في المنطقة، ففي دوائر المعارف اليهودية، يرد الحديث عن فلسطين والفلسطينيين، في شكل مقتضب، وغامض يوحي للقارئ، بعدم أهمية المكان وسكانه، ويؤكد على عدم أصالته وعلى كونه شعبًا غريبًا.

الفلسطينيون من شعوب البحر الأبيض المتوسط، وتعود أصولهم إلى مواقع في آسيا الصغرى، واليونان، وقد جاءوا إلى فلسطين، في موجات متعاقبة، وقد أتت إحدى هذه الموجات قبل عصر الآباء، واستقرت جنوب بئر سبع حيث دخلوا في صراع مع إبراهيم وإسحاق، وأتت موجة أخرى من كريت، بعد طردها من مصر على يد رمسيس الثالث في ١١٩٤ ق. م، فاحتلت المنطقة الساحلية من جنوب فلسطين، حيث أنشأوا خمس مدن، هي غزة وعسقلان وجت وأشدود وعقرون، ولأنهم شعب محارب بالفطرة، فقد تسيدوا أجزاء أخرى من يهوذا زمن القضاء، وهزموا شاؤول لكن دواد هزمهم، ووضع نهاية لسيادتهم، وبعد سقوط المملكة الإسرائيلية استعاد الفلسطينيون استقلالهم، ولكنهم لم يصبحوا أبدًا، عاملاً رئيسيًا في المنطقة، وفي العصرين الفارسي، واليوناني، تغلب مستوطنون أجانب من جزر البحر المتوسط على المدن الفلسطينية، وأطلق اليونان، منذ هيرودوت، اسم فلسطين على هذه المنطقة، نسبة إلى الفلسطينيين (فلسطين السورية)، وفي عصر هارديان أطلق الرومان هذا الاسم رسميًا على إقليم يهوذا[٣٩].

وقد تطور معنى كلمة فلستي Philistine، عبر التاريخ " وطرأ عليه تغيرات مهمة فهي تعني بالنسبة للإنسان الغربي، اليوم، الفلسطيني القديم، وتجدر الإشارة إلى وصف Philistine يستعمل لوصف الشخص المادي النزعة، والفج المعادي للثقافة وهو إنسان محدود الأفق، وبعيد عن الثقافة الرفيعة، كما يعرفه قاموس اكسفورد، وهو تعريف ينم عن تأثير التفسير التوراتي للتاريخ لمصلحة اليهود، وقد بلغ التشويه إلى حد أن الدعاية الصهيونية، روجت للقصة التوراتية عن جليات وداود، حيث تصور انتصار داود الصغير المقلاع على جليات، وكان من جبابرة الفلستين، إذ بلغ طوله أكثر من تسعة أقدام، وكانت أدواته الحربية مناسبة لطوله وقوته، ويرى المتخصص في الدراسات الصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري في - موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - أن الدعاية الصهيونية نجحت في ترسيخ صورة داود رمزًا لـ (إسرائيل)، الذي يستخدم ذكاءه، ومهارته في هزيمة عدوه، مقابل صورة جليات، رمزًا للعربي الذي يتسم بضخامة الحجم، وكثرة السلاح، ولكنه لا يستخدم عقله، فيمنى بالهزيمة(٤٠).

نحن - إذن - أمام خطأ شائع يتمثل في أن أسلاف عرب فلسطين، كانوا يمثلون البربرية بكل مظاهرها، وبذلك تم تغييب الحضارة الفلسطينية، وهذا ما حدا بروبنسون إلى الانتفاض والتقريع؛ تقريع من كتب الكذب في جامعات أوروبا، ومن صدق ذلك في جامعاتنا، فيقول: " لقد كان الفلسطينيون يملكون ثقافة متقدمة وعريقة "، ويضيف قائلا: "

إنها سخرية عجيبة من سخريات القدر أن كتب على لفظة فلسطيني أن تكون مرادفة لكلمة بربري وقد نشأ هذا الاستخدام الفظي لأن تاريخ ايامهم وصل إلينا عن طريق (الإسرائيليين) الذي لم يكن في ضميرهم إنصاف لأعدائهم " [٤١].

ويشير طومسون إلى أن كلمة فلسطين، لا تستعمل لوصف مهاجرين من بحر إيجه وكليكا، كما أنها لا تستعمل لوصف العناصر المشاغبة في الإمراطورية المصرية الأخيرة، فقد استعملت في وقت متأخر جدا، كاسم لشعب السهل الساحلي الجنوبي، وجماعة تنتسب إلى سكان الدول المدنية في فلستيا، سكان السهول الساحلية الفلسطينية الذين كانوا من أصول مختلة، ومعظمها من الساميين الغربيين الجزريين الأهليين في فلسطين، من حيث ثقافتهم المادية، ولغتهم وديانتهم، تعبير " فلسطين " يشير مبدئيا، إلى حقيقة جغرافية، وفي القصص التوراتية يكتسب سمة إثنية محدودة خيالية، كمناهض رئيس لظهور شعب " إسرائيل "، كما في قصص القضاة وصموئيل (٢ - ١)، الفلسطينيون لم يوجدوا كشعب إلا في المنظور العرقي التوراتي اللاحق، إشارات النصوص الآشورية إلى (بي - ليس - تي) مثل الإشارات إلى (آ - يو - دي) جغرافية تناقض الإشارات الإثنية[٤٢].

الكلام ما زال للباحث نفسه، والقول إن الفلسطينيين يمثلون شعبًا غريبًا، متطفلاً على فلسطين، يجب إنكاره، التأثير الوارد من بحر إيجه جزئي، وعلى أساس البينات المعروفة كان هامشيًا، وسطحيًا في اللغة،

والديانة والأشياء المادية، حتى أقدم أشكال الفخاريات المدعوة فلسطينية - كانت ثقافة المنطقة الساحلية وطنية تمامًا، يمكن القول إنها متأثرة بحضارة بحر إيجة ولكنها سامية (جزرية) تمامًا، وذات طابع حضاري فلسطيني[٤٣]، والحقيقة أن المخلفات الحضارية الفلسطينية في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد - بما في ذلك الساحل الفلسطيني - تعتبر استمرارً لحضارة العصر البرونزي الأخير، ومن أهم المكتشفات التي تنسب عادة للفلسطينيين فخار ملون، بأشكال هندسية، وطيور، وتظهر أيضا أشكال حلزونية، ومجموعات من أنصاف دوائر متشابكة، إنما أشكال الأواني نفسها، فمشابهة للأواني التي عثر عليها في جزيرتي رودس، وقبرص، ولكنها غير مطابقة لها، ومن الصعب اعتبارها مستوردة، بل على العكس فإن طينة الفخار محلية، وصانعوها، أيضا، رغم تأثرهم بصناعة الفخار المعروفة في الجزر الإيجية، وظهرت التأثيرات الكنعانية المحلية على مخلفات الفلسطينيين من خلال أسماء آلهتهم أمثال داجون وعشتروت، كما أن العمارة من مبان عامة، ومنازل، مستمدة من التقليد المعماري للعصرين البرونزي الوسيط، والأخير، والحياة الدينية عند سكان الساحل الفلسطيني كنعانية الأصل، وكذلك المباني الدينية وأهمها، سلسة المعابد المتعاقبة في تل القصيلة، التي أنشئت على غرار المعابد الكنعانية، مع ما يظهر عليها من تأثيرات مصرية وإيجية.

بذلك يصعب على الباحث التفريق بين ما يمكن نسبته إلى المجموعات البشرية التي سكنت فلسطين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، فوجود هذا الصنف من الفخار، أو ذلك في منطقة معينة، لا يدل

بالضرورة على سكنى هذه المنطقة من مجموعة إثنية مختلفة ولكنها غالبا ما تعني أن هذه المنطقة وقعت تحت تأثيرات خارجية(٤٤).

ونتساءل هاهنا ما الذي يجبرنا، على أن نجعل من الفلسطينيين شعوبًا مختلفة من الوجهة القومية، عن شعوب المنطقة، فهل هم حقا غرباء إلى هذا الحد؟ وهل هناك فرق صوتي بين " فينيقيين " و " فلسطينيين "؟ ألسنا هنا، أيضا، الضحايا الراضين بأفكارنا المسبقة التوراتية؟

بالإضافة لضعف أدلة، ومنطق علماء التوراة، والآثار، فإن النقطة الأساسية التي ترغمنا على إهمال الرأي بأن الفلسطينيين يمثلون شعبا غريبا، تكمن في تجاهل أهل الاختصاص لمسألة جوهرية تعلق بتاريخ المنطقة، ألا وهي أن ما من شعب ينتمي لخارج بوتقة الإقليم الحضارية، تمكن من فرض اسمه على منطقة، أو إقليم، فالإغريق، والرومان، قاموا بتغيير أسماء بعض المدن، والأقاليم في المشرق العربي، ومنها مدينة عمّان التي أضحت فلادلفيا، في عهد الرومان، لكن هذه المناطق سرعان ما استعادت أسماءها الأصلية بعد رحيل الغزاة، برأيي أن الحال نفسه ينطبق على فلسطين، حيث أستبعد أن الاسم فلسطين يعود لشعب مجهول الهوية، والأصول، لم يترك لنا أي أثر عن نفسه أو ثقافته، حتى عبر طرف ثان.

هذا يتناقض مع ما ذهب إليه الباحثون الغربيون، ومن يساندهم من أصحاب الفكر الآسن العربي، من أن الفلسطينيين يمثلون شعبا غريبا متطفلاً على المنطقة.

انطلاقا من كل هذا وتخريجا عليه، من المحتمل أن تكون كريت، أو غيرها من المدن قد استعمرت يوما بواسطة الكنعانيين/ الفينيقيين ضمن الهجرات العربية القديمة، فيما قبل التاريخ التي " امتدت على افريقية الشمالية، والبلقان، وإيطالية، وأسبانية، وعرفت بأسماء موجات أقوام البحر المتوسط "، كما صرحت به المراجع الأثرية الحديثة، والمحتمل جدا أن بعضهم بعد أن اتصلوا طويلا بالقبائل اليونانية، رجعوا ثانية شرقا إلى موطنهم الأصلي فلسطين فبغض النظر عن أسماء بلدانهم، فإننا نرى عددا من أسماء أشخاصهم سامية/ جزرية ومنهم ابيمالك، دليله، عبيد أيدوم - وربما أيضا أشبي، صاف، جوليات، رفح، ويظهر أن ديانتهم تطبيق الأساليب السامية نفسها في تقديس معبودين اثنين ذكر وأنثى، فلداجون آلهة من الأسماك بجانبيه، والأسماء داجون وبلعزبوب آلهة كنعانية /فينيقية أصلا، ولا ينفي هذا كون الفلسطينيين لا يمارسون عمليات الختان، فربما أبطلوا إجراءها عندما هاجروا إلى كريت.

يؤكد الباحث الأثري الفرنسي " هيلير دو بارانتون " (Hilaire de Baranton) في كتابه - الايتروسكيون في غربنا وفي أصولنا الفرنسية - (Les Etrusques en Notre Occident et Origines Francaises) ما انتهينا إليه قائلا: أن " الاتيروسكيين " هم فرع من الفينيقيين السوريين، وأن " الفلسطينيين " هو أحد أسمائهم، وأن معنى " الايتروسك " في اللغة المصرية القديمة، هو " بحارة النيل "، وأن معنى الفلسطينيين "، هو الجنود المحاربون، وزاد الباحث على ذلك، فقال

عن هؤلاء الفينيقيين السوريين، أنهم يحملون أسماء كثيرة مختلفة، وذلك تبعا لمهنهم أو لعقائدهم، ثم أخذ يعدد هذه الأسماء، ومنها " الفلسطينيون " عملا بمهنتهم الحربية(٤٥).

في عام ١٩٨٠، كتب باحث آخر هو الأستاذ مايكل غرانت (M. Grant) كتابا عن الايتروسكيون، وكانوا عنده في خلاصة القول - ينحدرون من أصل كنعاني / فينيقي(٤٦)، لذلك ولكل ما مر بنا، فإني مضطر للاستنتاج بأن " الأصول الأجنبية لفلسطيني الحقبة الآشورية، وأصولهم المزعومة من كفتور، مجرد خيال خلقته الروايات التوراتية كقرين لأصول يهوذا أنفسها فيهودا، والفلسطينيون، كلاهما كيانات ثقافية أهلية في فلسطين، وناتجة عن حضارة، وسكان العصر البرونزي، الذين كانوا خلال العصر الحديدي الثاني، متمايزين في مجموعات شبه إثنية، على شكل دويلات تحت حكم إمبراطورية خارجية " (٤٧).

فبالنظر إلى أن السكان الأصليين لم يتغيروا كثيرا منذ العصر الحجري، وخلال فترة الألف السادس - الرابع قبل الميلاد أصبحت فلسطين سامية (بمفهوم لغوي)، وخلال العصر البرونزي القديم، أقامت نمطا استيطانيا واقتصاديا بقي من خصائص المنطقة حتى الحقبة الآشورية في الأقل(٤٨)، بذلك فالسمة الأهلية للسكان لم تعد موضع تساؤل الآن، وهذه السمة تظهر بوضوح في جذور الثقافة المادية في العصر البرونزي القديم، والظاهرة في الأواني، والأدوات، والبناء، وطقوس الدفن، وأنماط الاستيطان(٤٩).

كما وجب تذكر حقيقة هامة، وهي أن الكتابات الإغريقية القديمة حتى

القرن الثاني قبل الميلاد، تصف سكان فلسطين، بأنهم سوريون، وتشير إليهم بصفة " سوريو فلسطين "، إن هذا الوسم، والتقسيم الثقافي، والانتماء السكاني في كتابات الإغريق، وعند الرومان من بعدهم، أي أن الرومان، لم يطلقوا على بلادنا، اسم فلسطين اعتباطًا، وإنما انتهلوا من تاريخ بلادنا يساير تمامًا نتائج أحداث التنقيبات الآثارية.

من أجل ذلك فقد تكون حقوق اليهود التاريخية المزعومة في فلسطين، وإدعاء حقهم في استعادتها، أو العودة إليها، على حد زعمهم، وزعم من يساندهم من حراس، وأصحاب الفكر الآسن العربي، في جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا، تجاه الفلسطينيين، في وضع سيء، للأسباب التاريخية بالذات، هذا، إذا لم يكن التبرير التاريخي الصهيوني كله لحقهم المزعوم، ولسرقتهم حماقة في حد ذاته، وأنه لمن الغطرسة أن يتحدث الصهيونيون عن فلسطين دائما على أنها " أرض إسرائيل "، كان لم يكن هناك فلسطينيون، وبصورة دائمة، وأنه لمن الصلف أن يذكر في " دستور دولة إسرائيل " الذي تم إقراره في ١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨: " لقد ظل شعب اليهود المنفي من أرض إسرائيل وفيًا لأرضه في كل بلدان المهجر ". وليس فلسطين بأرض اليهود، كما أن اليهود لم ينفوا منها، ولذلك فإنهم " لم يظلوا أوفياء " لهذه الأرض في المهجر المزعوم!! " إن العرب الفلسطينيين الذين ما زالوا يعيشون في فلسطين، هم الأبناء الحقيقيون للسكان الساميين - الجزريين الأساسيين، وجذورهم ليست قائمة في سوريا، أو لبنان، أو الأردن أو مصر بل إن البلاد التي عرفوها، ولم

يعرفوا سواها قط في بلاد فلسطين[٥٠]. إذًا فالفلسطينيون مزيج عرقي له نواة قوية عريقة في القدم، وقد كان أجداد اللاجئين العرب الفلسطينيين الذين يحيون اليوم في الغربة حياة بائسة، يحرثون الحقول في فلسطين، قبل ثلاثة آلاف عام، ويبدو أنه مما يتصل بذلك، أن اللاجئين الفلسطينيين يكنون لوطنهم حبًا لا يمكن تصوره أبدا، إنهم يثيرون انطباعًا مؤداه أنهم شعب يضرب بجذوره في الأرض، متعلقا بكل بيت ريفي صغير، وبكل شجرة برتقال، وبكل حجر فليس الفلسطينيون رعاة لا يعنيهم كثيرا أن يستقروا هنا تارة، وهناك تارة أخرى، ومع ذلك فأكثر العرب يكتفون في النزاع الفلسطيني بالإشارة إلى التراث التاريخي العربي - الإسلامي الذي دام ألفا وثلاثمائة عام، وعلى أية حال فقد تم تعريب فلسطين في وقت كانت فيه هجرات الشعوب تجري على قدم وساق، ولم تكشف أمريكا إلا بعد ذلك بـ (٥٨٠) عامًا[٥١]. فيا له من حق من حقوق الملكية هذا الذي يجد سياسيونا، ومثقفونا، ووسائل إعلامنا المأجورة، اليوم سعيًا وراء تحطيمه!! حق احتفظ به بطريق بسيط دؤوب، منذ خرج الإنسان من غياهب المجهول، وربما كان أبسط، وأوضح حق من حقوق الملكية في العالم.

* * *

مراجع المدخل الثالث

(١) أنطوان نمنم، **المواقع الأثرية بفلسطين في فترة ما قبل التاريخ** انظر دراسات في تاريخ وآثار فلسطين المجلد الثاي، بدون دار نشر أو بلد، ١٩٨٤، ص ١١.
(٢) د. بشار خليف، **دراسات في حضارة المشرق العربي القديم**، ط١، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ٢٠٠٣، ص ١٥٢، نقلاً عن: **الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم**، مجموعة من الباحثين، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٠.
(٣) سلطان محيسن، **بلاد الشام ما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم**، الصيادون الأوائل، ط١، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص ٧١.
(٤) نمنم، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢.
(٥) د. تقي الدباغ ود. وليد الجادر، **عصور ما قبل التاريخ**، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٣، ص ٤١.
(٦) فرنسيس أور، **حضارات العصر الحجري القديم**، ترجمة: د. سلطان محيسن، ط٢، مطبعة الألف باء، دمشق ١٩٩٥، ص ٦٨. حضارات العصر الحجري القديم.
(٧) محسين **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٥.
(٨) د. غلاب محمد السيد ود. يسري الجوهري، **الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره**، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٢١٥ - ٢١٤.
(٩) محسين، **مصدر سبق ذكره** ص ١٠٤.
(١٠) د. غلاب، **مصدر سبق ذكره** ص ٢١٥.
(١١) محسين **مصدر سبق ذكره** ص (٣٩ - ٣٨).
(١٢) وليم أولبرايت **آثار فلسطين**، ترجمة: زكي إسكندر ود. محمد عبد القادر محمد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٩٧١، ص ٥٨.
(١٣) لمزيد من التفاصيل عن الثورة الزراعية - ثورة العصر الحجري الوسيط في فلسطين، يراجع بحثنا الموسوم، فلسطين أصل الحضارة **صامد الاقتصادي (عمان)** العدد ١٣١، السنة ٢٥، عمان، شباط / آذار ٢٠٠٣.
(١٤) س. كون كارلتون وإدوارد أ. هنت الابن، **السلالات البشرية الحالية**، ترجمة: د. محمد السيد غلاب، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ١٩٧٥، ص ٨٠.
(١٥) عيسى الحلو، **عصور ما قبل التاريخ وتاريخ بابل القديم** دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٥٤.
(١٦) د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد

وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨، ص ٢٨.

(١٧) يذهب بعض الباحثين إلى تخطئة تسمية " السامية "، وإطلاق اسم " الهجرات الجزرية " على تلك الموجات، على اعتبار أن موطنها الأول هو الجزيرة العربية، وبذلك سوف نستعمل بدلاً من مصطلح الساميين مصطلح الجزريين، للإشارة إلى تلك القبائل، التي كان موطنها الأصلي جزيرة العرب، لمزيد من التفاصيل يراجع أحمد الدبش: **عورة نوح، لعنة كنعان، تلفيق الأصول** "، خطوات للنشر والتوزيع، ط١، دمشق، ٢٠٠٧.

(١٨) تومسون تومس، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح علي سوداح، ط١، دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٢٤.

(١٩) محمد عطية الأبراشي، **الآداب السامية**، ط١، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٦، ص (١٩ - ٢٠).

(٢٠) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص (٨٥ - ٨٧).

(٢١) نسطور ميخائيل، **كنعان - فينيقيا - أرجوان**، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، دراسات قدمس (٦)، دار قدمس للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠١، ص ٢١.

(٢٢) سبتنيو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٨٩.

(٢٣) تومسون، **مصدر سبق ذكره** ص ٢١٤.

(٢٤) د. أحمد داود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دار المستقبل، دمشق ١٩٩١، ص ١٠٠.

(٢٥) أحمد الدبش، **كنعان وملوك بني إسرائيل في جزيرة العرب**، ط١، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦.

(٢٦) مسألة الاسم فينيقيا معقدة، وسنناقشها في فصل كنعانيون أم فينيقيون؟!.

(٢٧) هيرودوتس، **تاريخ هيرودوتس الشهير**، ترجمة عن طبعة لارشي الفرنسي: حبيب أفندي بسترس، مجلدين، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، ١٨٨٦ - ١٨٨٧، ص ٤٦٧، (نسخة مصورة).

(٢٨) فرج الله صالح ديب، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٤٥. ٤٥.

(٢٩) فراس السواح، **تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود**، ط ٣، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٣، ص (١٠٠ - ١٠١).

(٣٠) لمزيد من التفاصيل عن أكذوبة الأموريين يراجع كتابنا: " **موسى وفرعون في جزيرة العرب** ". دار خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤.

(٣١) لمزيد من التفاصيل عن الهكسوس:

* د. سليم حسن، **مصر القديمة**، الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.

* د. عبد العزيز صالح، **الشرق الأدنى القديم**، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٣، بدون تاريخ.
* جيمس هنري برستد، **تاريخ مصر من أقدم العصور**، ترجمة: حسن كمال، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

محمد عزة دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، الجزء الثاني، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٥٩.

* جودت السعد، **أوهام التاريخ اليهودي**، ط١، منشورات الأهلية، عمان، ١٩٩٨، ص ٤٧.
* الموسوعة الأثرية العالمية، ألفها نخبة من العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل عن أوهام التاريخ الإسرائيلي في بلادنا فلسطين يراجع، أحمد الدبش، كناعن وملوك بني إسرائيل، ط١، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦.

(٣٣) السعد **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥.

(٣٤) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود، محمد عناني، سطور، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٥.

(٣٥) طمسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٥.

(٣٦) بير روسي، **مدينة إيزيس - التاريخ الحقيقي للعرب**، ترجمة: فريد جحا، ط١، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٦، ص ٢٥.

(٣٧) لمزيد من التفاصيل عن العابيرو يراجع بحثنا الموسوم: " هل كان إبراهيم يهوديًا!؟ " **القدس**، (القاهرة)، العدد ٣١، يوليو / تموز، ٢٠٠١، وأيضًا بحثنا: " هل العابيرو هم اليهود!؟ "، **العصور الجديدة**، (القاهرة)، العدد الأول، سبتمبر ١٩٩٩.

(٣٨) لمزيد من التفاصيل عن معضلة الفلسطينيين ومن أين أتوا!؟ يراجع بحثنا الموسوم " الفلسطينيون في الأصل والفصل "، **القدس** (القاهرة)، العدد ٢٦، فبراير، ٢٠٠١.

(٣٩) د. محمد خلفية حسن، **رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته**، مطبعة الوادي الجديد، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٩٣٢.

(٤٠) كيث وايتلام، **اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: د. سحر الهنيدي، عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٩، ص ١٩ - ٢٠.

(٤١) جفريزر، **فلسطين إليكم الحقيقة**، الجزء الأول، ترجمة: أحمد خليل الحاج، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٤٦.

(٤٢) طمسن، **مصدر سبق ذكره** ص (١٨٨ - ١٨٧).

(٤٣) **المصدر نفسه** ص ١٠٠.

(٤٤) **الموسوعة الفلسطينية**، ألفها نخبة من العلماء، القسم الثاني، المجلد الثاني، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص (١١٢ - ١١٤).

(٤٥) د. محمد معروف الدواليبي، **دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضارتهم الإنسانية**، ط٢، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٤٦) د. علي فهمي خشيم، **آلهة مصر العربية**، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ٤٤.

(٤٧) طمسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٠.

(٤٨) **المصدر نفسه**، ص ١٢٤.

(٤٩) **المصدر نفسه**، ص ١٣١.

(٥٠) وليم بيكو، **سرقة أمة**، ترجمة: د. سهيل زكار وعدنان برنية، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥، ص ٢١.

(٥١) د. فرانتس شايدل، **إسرائيل أمة مفتعلة**، ترجمة: محمد حديد، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٩، ص ١٧٤.

* * *

الفصل الأول

أقدم من سكن فلسطين

الفصل الأول:
أقدم من سكن فلسطين

فيصل صالح الخيري

كان هناك وقت في الماضي البعيد، لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، حدث فيه الانفجار الأول، إلا أنه بالاعتماد على شواهد، قدر علماء الجيولوجيا تاريخ هذا الانفجار بحوالى ١٥ مليار سنة، ومازال يحتمل وجود شواهد، تعود بتاريخه إلى أقدم من ذلك، والله أعلم. وقد تبعه تكون المجموعة الشمسية، منذ حوالى خمسة مليارات سنة، بينما تشكل كوكب الأرض منذ حوالى ٤. ٥ مليار سنة.

ولنترك خطوات تطور الأرض جانباً، لنقف عند آخر خطوات ذلك التطور، وهو آخر الأحقاب الجيوليجية (السينوزى)، وقد بدأ منذ حوالى ٦٥ مليون سنة، وفيه أخذت الأرض شكلها شبه النهائى، والأقرب إلى الوضع الحالى، وحصل تطور كبير للثدييات، فنشأت حيوانات جديدة، حدث ذلك في القسم الأول من (السينوزى) المسمى بالثلاثى، الذي استمر بين ٦٥ - ٣ مليون سنة، أما الرباعى، فقد بدأ منذ حوالى ٣ ملايين سنة، ولا زال مستمراً، وهو العصر الذي يعنينا مباشرة في دراسة ما قبل التاريخ.

ففي هذا الزمن ظهر الإنسان، وضمن الطبقات الجيولوجية العائد للرباعى وجدت آثاره الأولى، ولذلك أطلق على هذا الزمن اسم حقب الإنسان، فلابد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر، إلى مرحلة يستطيع فيها الإنسان أن يقف على قدميه فوق الأرض، وأن يتأمل ما حوله، ويعيش على ظهرها، مؤثراً ومتأثراً في البيئة التي يعيش فيها.

ويطول بنا المجال، إذا حاولنا تتبع مسيرة الإنسان عبر ملايين السنين، ومازال يحتمل وجود شواهد تعود بتلك المسيرة إلى تاريخ أقدم مما ذكرنا، وقد أخذ يتردد على الألسنة في الآونة الأخيرة، أنها إلى حوالى ٧ ملايين سنة، ولا زال الموضوع قيد البحث.

لذا سنترك المراحل الثلاثة الأولى من مراحل تطوره، ونقف عند المرحلة الرابعة والأخيرة، التي تملت في ظهور الإنسان، الذي يحلو لبعض العلماء أن يطلق عليه لقب " الحاذق أو الصانع "، وقد ظهر هذا الإنسان (الهوموهابيل) منذ أكثر من ٢.٥ مليون سنة، حيث عاش ومات في القارة الأفريقية، على امتداد حوالى مليون سنة، وقد صنع هذا الإنسان أسلحة بسيطة، كانت أدواته الرئيسية في نشاطه في الصيد والالتقاط من أجل تأمين قوته، وهو لم يعرف النار ولا البناء، وكان قصير القامة ضعيف البنية الجسدية والذهنية، ولكنه تطور بشكل بطيء جداً إلى نوع آخر.

إنسان فلسطين الأول:

وهو متطور في صفاته الفيزيولوجية والحضارية عن السابق، ومعنى اسمه " الهومواركتوس " أى الإنسان المنتصب القامة، فقد كان أطول

قامة وأقوى بنية من سلفه، وحجم دماغه أكبر، وجمجمته أكثر تدوراً، وجبهته أقل ميلاً للخلف، وعظام حواجبه بارزة، ولكن ذقنه لا تزال غير واضحه، مما أثر قدره من سلفه، فدخل مناطق جديدة في أفريقيا وآسيا وأوروبا وهذا النوع هو أول أهل بلاد الشام وافداً إليها من أفريقيا، وسكن المناطق الساحلية والداخلية من الشام.

أما عن حياته الاقتصادية، فقد كان هذا الإنسان أكثر عدداً من سلفه، وأقدر على السيطرة على بيئته والاستفادة من خيراتها، وقد عاش على خيرات الطبيعة الحرة، التي توفرت في المناطق التي سكنها، فتغذى بالنباتات البرية من ثمار وخضار، جمعها غالباً بيديه، دون الحاجة غالباً إلى أدوات خاصة.

وطور هذا الإنسان قدرته على الصيد، واصطاد مختلف الحيوانات حتى الكبير منها كالفيل، وفي البداية نظم اصطياد هذه الحيوانات بشكل فردى أو جماعى، وهاجم بالأسلحة والأدوات والحجارة العادية أيضاً، ومع الزمن أصبح هذا الإنسان صياداً ماهراً، صنع أسلحة وأدوات قوية ومؤثرة، على رأسها الفؤوس اليدوية، وهى أدوات كبيرة مصنعة بشكل دقيق، لها حدان قاطعان ورأس حاد وقبضة دائرية، وأشكالها مختلفة متطاولة أو بيضوية أو مثلثة، وقد استخدمت الفؤوس في وظائف متنوعة، كالطعن والقطع والقلع والحفر والسحق وما شابه ذلك، كما صنع هذا الإنسان الأدوات العظمية والخشبية، ولكن لسوء الحظ لم يصلنا منها إلا القليل جداً، بسبب فنائها عبر الزمن. ولقد استطاع بواسطة هذه الأسلحة والأدوات قتل حيوانات خطيرة، مضافاً إلى ما ذكرنا: دب

المغاور وحمار الوحش البرى ووحيد القرن والحصان، وسريعة مثل الأيل والغزال، وبعض هذه الحيوانات، كان يعيش على شكل قطعان، ويصعب النيل منها إلا من قبل جماعة بشرية منظمة ومسلحة بشكل جيد، تستطيع استخدام أساليب قنص متنوعة، كالمطاردة والمهاجمة ونصب الفخاخ أو المحاصرة في المغاور والمستنقعات.

إننا نجد أنفسنا مرغمين على الإصرار على حقيقة ذات مغزى، تعرض لها " ميرسيا إلياد " وهى أن البشريات (أجناس الإنسان)، قد نجحوا في تجاوز أسلافهم، بأن أصبحوا أكلة لحوم، فخلال زهاء مليونين من السنوات، عاش أسلاف أناس العصور الحجرية على الصيد، وأن الثمار والجذور والرخويات... إلخ، والتي كانت تجنيها النساء والأولاد، كانت غير كافية لضمان بقاء النوع. إن الصيد حدد تقسيم العمل تبعاً للجنس، مدعما بهذه الطريقة (التحول البشرى)، لأنه لدى الحيوانات الضارية، وفي كل عالم الحيوان، لا يوجد مثل هذا التفريق وعلى أى حال، فمع تطور فن الصيد، أصبح اللحم يشكل الوجبة الأساسية لهذا الإنسان، الذي أدرك مبكراً القيمة الغذائية العالية للحوم، فأكلها بعد أن عرف تحضيرها بشكل جيد، عن طريق الشى أو الطبخ.

حياة الاجتماعية والروحية:

إن الأمر يصبح أكثر صعوبة وغموضاً، عندما نتحدث عن الحياة الاجتماعية والروحية لهذا الإنسان، لكن المعطيات المتوفرة لدينا، تجعلنا نستنتج أو مجتمعات هذا الإنسان، قد عاش في إطار المشاعية الأولى، وتقاسمت الخيرات حسب الحاجات، في جو اجتماعى هادئ، أصبحت

سماته الإنسانية أكثر وضوحاً، بعد أن انفصل الإنسان عن العالم الحيوانى بسلوكه ومفاهيمه، ومع أن الناس لا زالوا قلة، لكنهم كانوا منتظمين ومتعاونين، تربطهم مفاهيم العمل والأسرة وتربية الأطفال، وكسب القوت والدفاع عن النفس، وما إلى ذلك من العلاقات الإنسانية المتقدمة، فلقد عاش إنسان الهومواركتوس على شكل جماعات قليلة العدد من ٥ إلى ٢٠ شخصاً، سكنت في العراء بجوار مصادر العيش، وفي وديان الأنهار وعلى الشواطئ، أو في المغاور والملاجئ الطبيعية، وقد أدرك أهمية هذه فسكن في مداخلها المميزة، دون أن يجرؤ على الدخول إلى أعماقها المظلمة، ثم قام بتكييفها حسب حاجته، كتقسيمها بجدران من الأغصان والجلود، وإنشاء المواقد والمصاطب فيها.

وننتقل الآن إلى موضوع عظيم الخطر للإنسانية، ويتمثل في اكتشاف الهومواركتوس للنار، فعرف هذا الإنسان النار مبكراً، مكتشفاً فوائدها الهائلة، سواء في التدفئة في مناخ جليدى، أو في الإنارة للمغاور والملاجئ المظلمة التي سكنها، أو في طبخ اللحوم النيئة التي أكلها، الأمر الذي كان له فعل قوى على تطوره التشريحى، ولا سيما في مجال استخدام الفك وشكل الأسنان، كما أنه استخدم هذه النار في حماية نفسه والدفاع عن حياته في وجه الحيوانات المفترسة، التي ولابد أنها تعرضت له وهددته باستمرار، مما ترتب عليه تمكينه من أن يوسع دائرة انتشاره.. وقد عثر على الدلائل الأولى لهذا النار في " كينيا " بأفريقيا، وهى تؤرخ حوالى مليون سنة، لكن منذ حوالى نصف مليون سنة، أصبحت هذه الدلائل أكثر كثافة وانتشاراً، سواء في آسيا، كما دلت مكتشفات الصين،

أو الشرق العربي القديم. ونعود ثانية إلى مساكن هذا الإنسان، لنقف عند واحدة من أهم خطواته، التي أتت عندما استطاع التحرر من الاعتماد الكلى على الملاجئ الطبيعية، وأقام بنفسه بيوته الخاصة، التي مكنته من العيش في الكثير من المناطق الجغرافية المكشوفة.. لقد كانت البيوت عبارة عن أكواخ صغيرة وبسيطة من الأحجار والأغصان والجلود، وبنيت في المناطق الغنية التي توفرت فيها إمكانيات الحياة، ونحن نخمن أن هذا الإنسان قد ارتدى ومنذ ظهوره أوراق الأشجار والنبات وجلود الحيوانات. ومن أظهر المعالم في حياة الهومواركتوس، هو اختراعه لنوع من البدائية، وحسب رأى الدكتور " سلطان محيسن ": فقد أشارت الدراسات التي أجريت على مناطق في المخ إلى أن الهومواركتوس كان يملك لغة واضحة المفردات والمعانى، شكلت الرباط النفسى بين مختلف أفراده وجماعته، التي تناقلت تجاربها ومعارفها عبر هذه اللغة فيما يقول بعض الفلاسفة: لهو أول الاختراعات الكبرى في تاريخ البشرية، إن لم يكن هو الاختراع الأوحد، الذي يطوى في أحشائه كل من اختراعات، اللغة هي الأداة العقلية الأولى التي مكنت الإنسان من تحديد الأشياء أفكاره عنها، وهى بالتالى الوسيلة الفعالة التي سمحت له بالخروج من عهد الاضطراب والفوضى، إلى مهد التجديد والنظام، ومنذ ذلك الحين أصبح في وسع الإنسان أن يتصرف عن بعد، لاغياً في سلوكه كل مسافة قد تفصله عن الأشياء.

بقى علينا أن نقول: إن الحياة الاجتماعية للهومواركتوس، كانت أكثر تنظيماً من سلفه، فقد عاش في نطاق الأسرة، وقف على رأسها أب،

تبعت له زوجة أو عدة زوجات وأولاد، وعرف تقسيم العمل على حسب الجنس والسن، واشتغل الرجال في المجالات الشاقة كالصيد، بينما عملت النساء في الالتقاط، وفي تدبير أمور البيت والأولاد.

بقي أن نتحدث عن حياة الهوموراكتوس الروحية، وللأسف، ليس في الوسع إلى الآن التحدث إلا قليلاً جداً، لأن المعلومات في هذا المضمار شبه معدومة، لكننا نستطيع أن نستدل من مجمل ما تم العثور عليه من آثار هذا الإنسان، أنه تخطى بالكامل مرحلة العزلة الفردية، وأنه تطور في إطار الجماعة الإنسانية الوحدة المتعاونة في الخير والشر، تدافع عن نفسها كجماعة، وتشقى أو تسعد، تجوع أو تشبع معاً، تستهلك من الموارد الطبيعية، ما يكفى لسد حاجاتها فقط، دون أن يكون لديها شعور أو رغبة في التملك الخاص، بل كانت خيراتها مشاعية، تتقاسمها حسب حاجاتها، وبقيت بذلك بعيدة عن متاهات تجميع الثروة وصراعات التفاوت الطبقى.

حضارات فلسطين الأولى:

إن الاهتمام بدراسة مخلفات ما قبل التاريخ، بدأ في فلسطين إبتداءاً من عام ١٩٢٥، من قبل علماء الآثار الأوروبيين والأمريكيين من أمثال درووثى غارود، ورينيه نيفى، وتورفى بيتر، ولويفيل، ورست، وديانا كيركبرايد.

وقد وجدت أقدم بقايا أثرية بشرية في فلسطين، في رسوبيات تكوين عرق الأحمر، الواقعة في غور الأردن، جنوب غرب مصب نهر اليرموك في نهر الأردن، وكذلك في وادى شقمة، وهى أدوات حجرية صغيرة وأدوات للقطع، وعظمة كبيرة لجمل أو زرافة، ويرجع عمر هذا

التكوين بين (١.٧ - ١.٤) مليون سنة، وتنسب هذه المخلفات إلى إنسان الهوموراكتوس، الذي سلك في طريقه إلى بلاد الشام خطين أثنين، يشكلان ممرات طبيعية بين أفريقيا وآسيا. الأول الساحلى، أى على امتداد سواحل البحر المتوسط، والثانى داخلى، على طول الانهدام السورى - الأفريقى، الممتد من جنوب وشرق أفريقيا في الجنوب، مروراً بالبحر الأحمر، فوادى عربة، فوادى الليطانى، وحتى وادى العاصى في سوريا شمالاً.

إنسان موقع العبيدية:

وبعد إنسان " عرق الأحمر " ظهر الهوموراكتوس وسكن موقع (العبيدية)، حوالى ٧٠٠.٠٠٠ سنة مضت، وإن كان بعض العلماء يرى أن موقع العبيدية، قد تم سكناه في تاريخ يعود إلى (١.٤ مليون سنة). وكان إنسان هذا الموقع يعيش على شواطئ بحيرة عزبة، كانت تحتل منطقة بحيرة طبرية وجنوبها، وقد وجدت بقايا الإنسان، كبقايا الأسماك والبرمائيات والزواحف وأكثر من خمسين نوعاً من الثدييات: كالفيل ووحيد القرن والغزال والزرافة وغيرها، ويذكر دكتور سلطان محيسن " أن جماعات العبيدية الأولى قد تغذت من صيد الفيل والحصان والوعل وفرس الماء، كما التقط ثمار الزعور والبطم واللوز وغيره. ومن جهة أخرى، فقد عثر في العبيدية على أربعة أجزاء من جمجمة وأسنان، دلت دراستها المتأنية أنها تعود إلى نوع الهوموراكتوس الباكرة، وهى بذلك أقدم هياكل عظمية إنسانية أتت من بلاد الشام، غير أن آثار هذا العصر على العموم نادرة، ومواقعه صغيرة باستثناء موقع العبيدية، ومع ذلك فإن

آثار هذا الموقع وقبله موقع عرق الأحمر، تشكل دليلاً كاملاً على الوجود الإنسانى الباكر في فلسطين، قبل أية منطقة أخرى من آسيا وأوروبا.

مجتمعات العصر الحجرى القديم الأدنى الثانى وبداية سكنى أراضى القدس:

تدل الشواهد الأثرية أن سكنى أراضى القدس، قد تم في العصر الحجرى القديم الأدنى الثانى، يؤرخ من حوالى ٧٠٠.٠٠٠ إلى ٢٥٠.٠٠٠ سنة مضت، وفي هذا العصر إزداد عدد سكان بلاد الشام، وتوضحت هويتهم الحضارية، فظهرت حضارات محلية أصيلة، تطورت بأشكال مختلفة، في مختلف المناطق الساحلية أو الداخلية من بلاد الشام. لقد أصبحنا في هذا العصر نستطيع التحدث عما يسميه المختصون " المراكز الحضارية " التي عاشت فيها جماعات صنعت كل منها أدواتها الخاصة، التي تطورت على امتداد زمن طويل، وقد ساد هذا التخصص في كل بلاد الشام الساحلية الداخلية، مما يدل على أننا بدأنا نتلمس ومنذ هذا العصر، بوادر تجانس حضارى شمل تلك البلاد كلها. إن موقع (اللطامنة) غرب حماه في سوريا، هو أهم موقع أثرى معروف حتى الآن من ذلك العصر، فقد عثر فيه على بقايا معسكر بقى سليماً منذ حوالى نصف مليون سنة، وقد احتوى على عدة آلاف من الأدوات الحجرية، بينها فؤوس يدوية متطاولة وكبيرة دقيقة الصنع، ندر أن وجد ما يشابهها من هذا العصر في العالم، كما عثر على معاول وقواطع ومقاحف وسواطير وأدوات متنوعة، بعضها ثقيل وأخرى خفيفة، كما عثر فيها على دلائل باكرة للبناء واستخدام النار. وفي مغارة " أم قطفة " شرقى القدس، وعلى مسيرة عشرة كيلومترات للجنوب الشرقى من بيت لحم،

بالقرب من وادى المربعات، عثر الآثارى " رينيه نوفيل " على أدوات دقيقة وأدلة استعمال النار، تتماثل مع ما اكتشفه علماء آخرون في موقع (اللطامنة)، وتعود إلى نفس التاريخ.

وبالإضافة إلى أم قطفة في منطقة القدس، ازدادت بقايا إنسان هذا العصر، ووجدت في مواقع كثيرة في فلسطين منها: موقع جسر بنات يعقوب بين طبرية والحولة، وأفرون، وبرعم، والطابون في الجليل، ولقد بقيت الأدوات الحجرية المؤشر الرئيسي على مجتمعات هذه المرحلة، لكن بدأت تظهر معطيات أثرية أخرى، تصاعدت أهميتها باستمرار. لقد حصلت آنئذ تجديدات هامة في تقنيات تصنيع الأدوات الحجرية أو في نمط الحياة.

مجتمعات العصر الحجرى القديم الأدنى الثالث:

يمثل هذا العصر المرحلة الأخيرة من العصر الحجرى القديم الأدنى، وهو يؤرخ بين ٢٥٠.٠٠٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ سنة مضت، وقد تابعت مجتمعات ما قبل التاريخ في بلاد الشام تطورها في هذا العصر أيضاً، ويلاحظ ازدياد واضح في عدد السكان الذين انتشروا ولأول مرة، إلى مناطق جديدة تقع إلى الشرق من الانهدام السورى - أفريقى، فوصلوا إلى البادية والفرات في سورية، وإلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت في فلسطين، وهكذا بدءاً من هذا العصر، أقام إنسان ما قبل التاريخ، الذي أصبح ينتمي إلى نوع متطور من الهوموواركتوس، في كل المناطق الجغرافية لبلاد الشام، ولم ينقطع عن العيش في تلك المناطق حتى نهاية

العصور الحجرية، لقد أضاف الهوموراكتوس المتطور ابتكارات جديدة ومتنوعة فتابع التقدم في تصنيع الأدوات الحجرية وحسن تقنياتها، وخاصة الفؤوس اليدوية، ثم طور المقاحف والمكاشط والسكاكين، التي أصبحت تستخدم أكثر من السابق، كما تقدم البناء، وتم تكييف المغاور بما يتناسب مع حاجات السكن الطويل، وجرت الاستفادة بشكل أفضل من النار، فحفرت المواقد التي أوقدت عند الحاجة. وقد كشف عن آثار تعود إلى هذا العصر في فلسطين، في مغارة " الزطية " شمال غربى بحيرة طبرية، وأم قطفة في منطقة القدس، ومغارة الطابون ومعان باروخ.

المجتمعات الانتقالية بين الهوموراكتوس والنياندرتال:

بين نهاية الهوموراكتوس، وبداية مجتمعات والنياندرتال، حصر عصر انتقالى، يؤرخ بين حوالى ١٥٠.٠٠٠ إلى ٨٠.٠٠٠ سنة مضت، وفي هذا العصر حدثت تغييرات حضارية، وربما عرقية هامة وعاصفة، اجتاحت بلاد الشام كلها، وشكلت الميزة الهامة لهذه المرحلة، وهى غامضة ومعقدة جداً، لضعف المعطيات الجيوليجية والأثرية، الأمر الذي جعلنا عاجزين أن نورد علة وافية لذلك، وهذه حقيقة يمكن استنتاجها من التفسيرات المختلفة لهذه العلاقة، فمثلاً يعتبر الباحثون استمرار الأدوات الحجرية مع تغييرات بسيطة ومنتظمة، دليل تطور هادئ لنفس الجماعة البشرية، في تحين تعتبر التغيرات الجذرية في تصنيع تلك الأدوات، دليل تحول شامل مرتبط بقدوم بشرية جديدة واختفاء القديمة (اختفاء الهوموراكتوس وظهور والنياندرتال).

ومهما كان الأمر، فقد ظهرت خلال هذه المرحلة حضارات انتقالية، تعايشت كلها في الزمان والمكان، صنعت مجتمعاتها أدوات أكثر دقة وتنوعاً، تعكس قدرة عالية في التحكم بتصنيع الخامات الطبيعية، وبخاصة الحجر، وكانوا أكثر ارتباطاً بأرضهم، سكنوا في مواقعهم لسنوات طويلة وجيلاً بعد جيل، فطبعوا بطابعهم الخاص.

إن موقع الزطية في فلسطين، هو أهم موقع أثرى معروف حتى الآن من ذلك العصر، وقد دلت البقايا العظيمة التي وجدت فيه، على إنسان من نوع الهوموراكتوس المتطور، كما أتت آثاره من مواقع أخرى في فلسطين مثل الطابون.

العصر الحجرى القديم الأوسط مجتمعات إنسان النياندرتال:

منذ مئة ألف سنة أو أكثر، أى منذ مطلع العصر الحجرى القديم الأوسط، ظهر نوع جديد من البشر، كان أكثر تطوراً، سواء في شكله الفيزيولوجى، أو في انجازاته الحضارية من الهوموراكتوس، عثر عليه لأول مرة في وادى (نياندر) في ألمانيا، ومن هنا جاءت تسميته بإنسان (النياندرتال)، وسميت حضارته بالموستيرية أو اللفلوازية.

لقد اختفى، آنئذ الموازيك الحضارى، الذي ساد في المرحلة الانتقالية السابقة، وتوارى الهوموراكتوس، تاركا المسرح لخلفه النياندرتال، الذي كانت جماعته أكثر عدداً، وانتشرت على مساحات جديدة لم تسكن من قبل، ولقد أوضحت دراسة الهياكل العظمية المختلفة، أن النياندرتال كان أكثر تطوراً من سلفه الهوموراكتوس، وهو غليظ الجسم مربوع القامة، طوله يتراوح بين ١٦٠ - ١٦٥ سم، وكان حجم دماغه كبيراً (١٠٠٠ -

١٢٠٠ سم٣، وجهه مسطح وأقل بروزاً إلى الأمام، وحواجبه رغم بروزها فهي أقل سماكة منها لدى سلفه، كما أن جمجمته أكثر تدوراً وجبهته أقل تراجعاً إلى الخلف، ولكن لأول مرة ظهرت له ذقن شبه واضحة.. ومع ظهور النياندرتال، ذاب تقريباً التنوع الحضارى الذي عرفته بلاد الشام في العصر السابق، وساد تجانس واضح جسدته المجتمعات التي عاشت في العصر الحجرى القديم الأوسط، التي صنعت أسلحتها وأدواتها الخاصة، وأتقنت البناء والاستفادة من النار، وكان لها حياة روحية واقتصادية واجتماعية متقدمة، وأتت من هذا العصر هياكل عظمية هامة من فلسطين، دلت على تطور النياندرتال نحو الإنسان العاقل.

حياته الاجتماعية والاقتصادية:

هناك أدلة تفيد بازدياد عدد السكان، وبازدياد حجم الوحدات الاجتماعية، وظهور شواهد على تطور ثقافى وتغيرات تكنولوجية، مع بعض التخصص في بيئات لم تستغلها الكائنات البشرية السابقة. فلقد استمر النياندرتال بالاعتماد على الصيد والالتقاط، وكان صياداً ماهراً، اصطاد حيوانات قوية وخطيرة: كالماموث ووحيد القرن واستفاد من لحمها وجلدها وعظمها، كما ابتكر أسلحة وأدوات حجرية جديدة، معظمها مقاحف وسكاكين ونصال ومخارز، وصنع الأدوات المركبة، ذات القضبان الخشبية والعظمية، والنصل الحجرية الحادة، ولقد ظل النياندرتاليون كأسلافهم، يجمعون النباتات والثمار، لكنهم مارسوا هذه الأنشطة بكثافة وتنظيم أفضل، بعد أن زادت خبرتهم بخيرات بيئتهم عبر

الفصول، اكتشفوا مناطق جديدة، بعضها جبلي مناخه بارد، فتكيفوا معه بمهارتهم في تصنيع الجلود، التي نخمن أنهم فصلوها وخاطوها بعناية وارتدوها، ليس فقط دفعاً للبرد، وإنما لاعتبارات نفسية وجمالية أيضاً، بهدف ستر أجسادهم، والظهور بالشكل الحسن، ورغم أننا لم نعثر على الآثار المباشرة لهذه الملابس التي أفناها الزمن، لكنا وجدنا في مواقع هذا العصر الكثير من المقاحف والمخارز الحجرية والعظمية، وهي أدوات جيدة في تحضير الجلود.

لقد كان النياندرتاليون أكثر ارتباطاً بأرضهم، فأقاموا في مراكز استيطان رئيسية (معسكرات) تبعتها عدة مراكز أو معسكرات مؤقتة، وفي الوقت نفسه أولوا المغاور والملاجئ الطبيعية اهتماماً لم يسبق له مثيل. إن معظم المواقع النياندرتالية في بلاد الشام هي مغاور وملاجئ وقد استغلوها على أفضل وجه، وقاموا بتكييفها وإعادة تنظيمها وتقسيمها، فرفعوا فيها المساطب والجدران ووسعوا وضيقوا مداخلها حسب الحاجة، وقد سكنت آلاف السنين، فتراكمت آثار متنوعة، لها دلالات حضارية كثيرة، نذكر منها المواقد مثلاً.

فلقد استفاد النياندرتاليون من النار، بشكل أفضل وعرفوا متى وأين يوقدونها بطرق مختلفة القدح، الحك، الفتل، وغيرها فأصبح الموقد جزءاً مهماً من مسكنه، كما دلت على ذلك اكتشافات معبرة، أتت من مناطق عديدة من العالم، ولوحظ وجود نوعين من المواقد النياندرتالية، النوع الأول مواقد جماعية كبيرة في مراكز الإقامة الأساسية، أي في المعسكرات القاعدة، التف حولها الناس كلما دعت الحاجة، ودرات بقربها

الجلسات والسهرات والمناسبات، التي تبادل فيها السكان خبراتهم ومعارفهم، مما كان له أكبر الأثر على التطور الاجتماعى والروحى، وهذه هي المرة الأولى التي حصل فيها على أدلة، على أن قدرة الإنسان على خلق الثقافة، قد تطورت بحيث غدت الثقافة ممكنة، يتصل هذا اتصالاً طبيعياً فيما يخص امتلاك النياندرتاليين للغة، وأنهم كانوا يتفاهمون بأكثر من الكلام البدائى والإيماءات. ونعود ثانية للمواقد، لنذكر أن النوع الثانى مواقد صغيرة، في المعسكرات المؤقتة، وفي محطات توقف جماعات الصيادين وملتقطى الثمار، الذين أشعلوا النار لحاجة دفء أو قبل عودتهم محملين بغنائم الصيد والالتقاط إلى قواعدهم الأصلية.

والآن، وقد عرضنا معظم الأمور الهامة عن حياة هذا الإنسان الاجتماعية والاقتصادية، فإنه يتضح لنا أن العلاقات الاجتماعية في هذا العصر، قد أصبحت أكثر تنظيماً، وتبلورت مفاهيم الأسرة، وربما العشيرة التي تكونت من تجمع عدة أسر، وعموماً فإن عدد الجماعات البشرية أصبح أكبر، مما يستوجب وجود شخص قائد أو عدة أشخاص، ويشرف على إدارة أمور هذه الجماعات، التي نظمت حياتها الاجتماعية والاقتصادية، بشكل أفضل من ذى قبل.

حياته الروحية:

فإذا ما انتقلنا إلى حياة النياندرتال الروحية، وجدنا أنه أول من مارس المعتقدات والشعائر الدينية، التي كرست وبشكل واضح إنسانيته، بل أن

الحيـاة الروحيـة لهـذا الإنسـان، تبـدوا وكأنـه أعلـى مسـتوى مـن حياتـه الاقتصادية، فلم يترك موتاه تأكلهم الوحوش والطيور الجارحـة، بل اهتم بهم ودفنهم بعناية، مما يدل على أن الحياة الاجتماعية عنده صارت أحفل بالمعانى من ذى قبل. وكانت القبور غالباً فردية، وأحياناً جماعيـة ضـمت عدة أشخاص، لكنها حفرت بشكل منتظم، ووضعت فيهـا الجثث مثنيـة أو جانبيـــة أو مقلوبـــة، وطليـــت بـــالألوان، وزودت بالأسـلحة والأدوات والأطعمة وغير ذلك، فقد وجدت في مغارة (قفزة) جنوب شرق الناصرة مقبرة في ست عشرة جثة نياندرتالية، أتت من خمس عشرة طبقة أثريـة، أرخت لأكثر من خمسين ألف سنة، وقد ميز بين الجثث، ستة أشـخاص كبار وسبعة أطفال، بعض الجثث دفن بعناية واضحة، بينها رجل وضـع في حفرة صخرية مستلقياً على جانبه الأيمن، ومثنى الأرجل، وهناك قبر لامرأة شابة مستلقية على جانبها الأسير مثنية الرجلين أيضاً، وإلى جانبها طفلها نائماً برأسه على صدرها، في وضعية تهز المشاعر، وبين ذراعى هذا الطفل جثـة غـزال، رمـزاً للحيـاه والخصـب، ممـا يـدل علـى القيمـة الروحية لهذا الحيوان لدى سكان بلاد الشام، والأهم من ذلك أنه يدل على تبلور مفاهيم الأسرة المؤلفة من أب وأم وأطفال. فـي إطـار مجتمع نظم علاقاته الجنسية والاجتماعية.

ومـن موقـع فلسـطينى آخـر، هـو مغـارة (السـخول) كشـف عـن قبـر جماعى فيه عشرة هياكل، بينهم ثلاثـة أطفـال. ويجـدر بنـا هنـا ذكـر مثـال آخر عن الدفن، وإن كـان من بـلاد الرافدين، لأنـه يـدل علـى عنايـة هامـة بـالموتى، لـم نكـن نتصـورها مـن قبـل، ولا يطمـع أن يصـل إليهـا إنسـان

العصر الحاضر.

فقد عثر في مغارة (شانيدار) في شمال العراق على سبعة هياكل نياندرتالية، بينها هيكل لرجل بلغ الأربعين تقريباً من عمره، مع أنه كان منذ طفولته مصاباً بشلل نصفى وأعور، ويعانى من إلتهاب المفاصل، لكنه توفى مقتولاً بصخرة وقعت عليه من سقف الكهف، فدفنه أهله بعد أن فرشوا قبره بالورود، وما كان ليصل حتى ذلك العمر في بيئة صعبة، لولا وجود من يساعده، ويحيطه بكل الحب والرعاية، ليتمتع حتى القاصرين بحقهم المقدس في الحياة، فما أحوج البشرية اليوم إلى مواقف إنسانية تشبه تلك التي اتخذها النياندرتاليون حيال بعضهم البعض، وخصوصاً أولئك المتشدقين بشعارات حقوق الإنسان، ولم يبقوا للشعبين الفلسطيني والعراقى أى حق في الحياة. كما لاحظ العالم الأنثربولوجيا " هول تاكس ": يظهر أول دليل على دفن الموتى بين البشر في هذه الفترة. وهنا أيضاً لا أجد تقليداً واحداً ثابتاً، فقد وجدت جثث مطوية وأخرى ممدة، وتتفاوت محتويات القبور من الحلى لصدفية والأدوات الصوانية إلى عظام الحيوانات والمغرة الحمراء، وقد وجدتبعض القبور محددة بالحجارة، وعلى أضعف الفروض تدل عادات الدفن هذه على بداية الاهتمام بالموتى، أما على أقوى الفروض، فتدل على وعى بمجريات الحياة، وعلى محاولة واعية للتعبير الدينى، ونهاية، لا يسعنا إلا القول: كان النياندرتال إنسان عميق المشاعر، تأثر بالموت واتخذ منه موقفًا محدداً، معتقداً أن هذا الموت لا ينهى حياة اخوته وأفراد أسرته، فزودهم بكل ما يحتاجونه للحياة الأخرى.

فنون النياندرتال:

والآن، وقد عرضنا الأمور الهامة في حياة النياندرتال، جدير بنا أن نقول شيئاً عن حياته الفنية، أو الطرق التي سلكها للوقوف على أبواب الفن، ونقول لذلك، لأنه ليس لدينا في أى منطقة من العالم، أدلة كافية على أن النياندرتال قد عرف الفنون، إلا بعض الحزوز الزخرفية على الأدوات العظمية، التي يعتبرها البعض، البواكير الأولى للفن، الذي سيظهر في العصر اللاحق، على يد الإنسان العاقل، ولكن يتحتم علينا في هذا السياق، ذكر اكتشافين هامين من بلاد الشام، لا يزالان يثيران النقاش، الاكتشاف الأول من مغارة (العصفورية) شمال بيروت، وهو قبر غزال وفيه ألوان من مغرة حمراء، والاكتشاف الثانى من جبل (قفزة) من فلسطين، وهو أيضاً قبر غزال وفيه مغرة حمراء. إن هذين الاكتشافين دفعا إلى الاعتقاد بأن الغزال قد احتل مكانه اجتماعية وروحية مميزة لدى النياندرتال، الذي دفنه بعناية وأحاطه بالألوان الزاهية، علماً بأن تحضير تلك الألوان لم يكن مهمة سهلة، فهو بحاجة إلى معرفة جيدة بخصائص المواد العديدة المستعملة، كالأحجار الحديدية (الهيماتيت والليمونيت) والشحم والدم والنباتات وعصير الفواكه والماء وغيرها، وقد وجدت في مواقع هذا العصر الأحجار النادرة والصدف البحرى والنهرى، التي ربما حملها الناس في آذانهم وأعناقهم (حلق أو أطواق) والأصبغة الحمراء والسوداء، التي ربما دهن بها النياندرتاليون أدواتهم وأجسامهم وملابسهم وبيوتهم، لما كان لهذه الأصبغة من أثر نفسى عليهم. وفي ذلك يقول " ميرسيا إلياد " إن الاعتقاد بحياة ثانية، يبدو أنه

قد برهن على وجوده منذ العصور الموغلة في القدم، باستعمال الصباغ الأحمر البديل الشعائرى للدم، والذي هو رمز الحياة. وأخيراً لابد من الإشارة إلى بعض الحزوز التي كشفت على جدران مغارة السخول في فلسطين.

نياندرتال فلسطين:

لقد توصل النياندرتاليون المشرقيون إلى درجة عالية من التجانس، وقامت بينهم علاقات مباشرة وتبادلوا حاجاتهم وخبراتهم، مما حقق لهم فائدة أكبر من بيئتهم الغنية التي سخروها بشكل جيد خدمة لمصالحهم المادية والروحية المتزايدة، فالمواقع التي تمثلت فيها بقايا هذه المرحلة كثيرة لغاية، وموزعة في جميع مناطق فلسطين، ويمكننا القول بأن فلسطين تمتعت في هذه المرحلة بأفضل الأجواء المناخية، وبطبيعة خضراء ومجموعات حيوانية مختلفة، إن المواقع التي وجدت فيها آثر المجتمعات النياندرتالية في بلاد الشام أكثر من أن تحصى، إلا أن أهمها مغاور فلسطين ومواقعها المكشوفة التي أصبح لها شهرة عالمية، بسبب احتوائها على الهياكل العظمية النياندرتالية المتطورة، مثل مغاور الطابون والعمود والسخول وأبو يوسف وكبارا وقفزة وأم قطفة في منطقة القدس، وموقع عبده في النقب.

وكنا قد أشرنا إلى الصفات الفيزيولوجية المتطولة لتلك الهياكل، وما رافقها من أدوات حجرية متطورة أيضاً. ناهيك عن التطور الاجتماعى والروحى والفنى، مما دفع إلى الاعتقاد بأن النياندرتال من فلسطين، هو الذي تطور نحو الإنسان العاقل، في حين أن النياندرتال الأوروبى قد

انقرض دون خلف، علماً بأن هذا الموضوع معقد، ويحتاج إلى مزيد من البحث.

الإنسان العاقل أصله فلسطيني :

مجتمعات الإنسان العاقل في العصر الحجرى القديم الأعلى :

وعندما قال " فرانزفيد نرايخ " في مؤتمر علماء الانتروبولوجيا في كوبنهاجن، قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة، أنه يبدو أن الإنسان العاقل قد جاء من فلسطين إلى شمال أوروبا. ثار مندوب النازى، وخرج من قاعة الاجتماع. وقد بلغ الإنكار والتلفيق لدى أصحاب النظريات العنصرية درجة الجنون والهوس، عندما دفنوا جمجمة إنسان حديث، في طبقات جيولوجية قديمة في إنجلترا، زاعمين أنها جمجمة حقيقية، ليتوصلوا إلى أن الإنسان العاقل، قد ظهر لأول مرة في إنجلترا وليس في فلسطين، ولكن هذه الخدعة ما لبثت أن اكتشفت، وبات غرضها العنصرى والسياسى مكشوفاً.

إن الوصول إلى كبد الحقيقة، ووضع الأمور في نصابها، يتطلب منا دراسة مطولة، لا يتسع لها صدر هذه الدراسة، لأن هذه القضية بالذات، قد درست وبحث فيها بشكل متواصل لعقود كثيرة، يهمنا أن نكتفي بأهم نتائج الأبحاث في هذا المضمار، التي جاءت في كتب العديد من الباحثين، منهم الدكتور سلطان محيسن الذي قدم سلسلة من الأدلة، يدحض بها الزعم العنصرى إن من أظهر معالم العصر الحجرى القديم الأعلى، أنه قد ظهر في خلاله على أرض فلسطين تغير كان من نوع خاص، بحيث أن نتائجه الأولى تتحدى الإدراك، ففي مطلعه اختفى " النياندرتال "

وظهر نوع جديد من البشر، تطور على ما يبدو من " النياندرتال الفلسطيني "، وهذا النوع أطلق عليه " الإنسان العاقل " أو " الإنسان الفلسطيني " إذا عقدنا العزم على إرجاع الحق لأهله ووضع الأمور في نصابها الصحيح، وهو جدنا المباشر، والأقرب لنا من كل الأنواع البشرية في عصور ما قبل التاريخ.

أن قلة من العلماء المغرضين، الذين تشبعت أذهانهم بنظرية السوبرمان، إلى الحد الذي أن يختلقوا موقفًا غريباً وشاذاً إزاء تاريخ الإنسان القديم، إذ لم تعجبهم نظرية إرجاع شعوبهم إلى إنسان فلسطين العاقل، فراحوا يروجون إلى نظرية (انقراض النياندرتال) بدافع التعالى على الغير، باعتباره الشكل المشوه المنحرف عن المألوف.. يستندون على معطيات مواقع فرنسا وألمانيا وإنجلترا، التي وجدت فيها هياكل عظمية، لا تحمل صفات مشتركة بين النياندرتال والإنسان العاقل، إنما أتت تلك الصفات من الإنسان سلف النياندرت المسمى " الهوموواركتوس " دون أن يمر بمرحلة النياندرتال، وبذلك يكون كل من النياندرتال والإنسان العاقل فرعين مستقلين، تطورًا عن الهوموواركتوس، انقرض الأول وتابع الثاني تطوره، وللتمثيل على هذه النظرية نورد رأياً للانثروبولوجى " آشلى مونتاغيو " يقول فيه: إننا لا نستطيع تناول مسألة تباين البشر إلا من خلال مفهوم التنوع، وأغلب الظن أن إنسان النياندرتال والإنسان العاقل، كانا متعارضين في إحدى مراحل تطورهما، لكن ليس من المحتمل أن يكونا كلاهما قد انحدرا في نفس الوقت من نفس الأسلاف، ولاشك أن النياندرتال كان أقدم من الإنسان العاقل، ولكننا لا

نعرف كيف حدث ذلك في الواقع، وإن كان يبدو من المعقول أن نقول، إن نوعاً من أنواع الإنسان المنتصب هو الذي قاد إلى ظهور الإنسان العاقل فيما بعد، وذلك عن طريق التهجين والطفرة، وللتمثيل النظرية الأخرى، يذكر " كارلتون كون وادوارد هنت " أن الأدلة تزداد توردأ على الاستمرار بين الصناعات النياندرتالية وصناعات الإنسان العاقل في أماكن عديدة، وأخيراً فإن أسنان نوع نياندريتال وجماجمه وعظامه متفاوتة تفاوتاً كبيراً، بعضها أقل اختلافاً عن جماجم الإنسان العاقل أكثر مما نظن، بل أن بعض جماجم الإنسان العاقل ذات ملامح نياندرتالية، ويتماشى مع هذا الرأى " جون كوماس " الذي يقول: ولاشك أن فكرة انقسام الإنسانية إلى أقسام وسلالات منفصلة تمام الانفصال غير صحيحة، فهي مبنية على أسس خاطئة، ومبنية على وجه الخصوص على نظرية الدم، وآثاره الوراثية، وهذه النظرية خاطئة خطأ النظريات العنصرية القديمة.

ويأتى دور " الدكتور سلطان المحيسن " الذي يقول: الرد على أصحاب نظرية انقراض النياندرتال سهل ميسور، وهو أننا لو قبلنا هذه النظرية، فليس لدينا دليل قاطع عن السبب، هل هو تغير مناخى مدمر وكوارث طبيعية، أم وباء شامل أطاح بهذا الإنسان، أم مذابح جماعية نفذها الإنسان العاقل، أدت إلى مسح إنسان النياندرتال المسالم في طبيعته من الوجود، وذلك كما يقول البعض. ولكن يصعب علينا قبول هذا الافتراض الأخير لسبب بسيط، هو أننا لم نعثر حتى الآن على آثار مثل تلك المذابح، بل أننا لم نجد أية هياكل عظمية نياندرتالية، قتال أصحابها

بأدوات الإنسان العاقل.

وفي ضوء ذلك كله، يمكن لنا أن نفترض، بأن كلاً من إنسان نياندرتال والإنسان العاقل، كانا وثيقى الصلة ببعض، وربما تعايشا معاً لزمن قصير أو طويل، قبل أن يسود النوع الأكثر تكيفاً والأفضل، وهو الإنسان العاقل، مهما يكن فلابد لنا أيضاً من قبول الحقيقة الراهنة على الأقل وهي أن النيادندرتال الفلسطيني، هو الذي تطور وحده فيزيولوجيًا وحضارياً نحو الإنسان العاقل، جدنا المباشر، وصانع الحضارة الإنسانية بمفهومها الشامل، أما مصير النياندرتال الأوروبى والأفريقى، فكان الانقراض، ولكن هناك للأسف من يرفض قبول هذه الحقيقة، مثل بعض الباحثين الغربيين والألمان خاصة، ويصعب عليه أن يكون أصله من المشرق العربي، مدفوعاً باعتبارات عنصرية، لا تمت إلى جوهر البحث العلمى بصلة، نخلص من هذا إلى القول، إن مسلمات فجه لها هذا القدر من الصفات المطاطية الهلامية المربكة، وهذا القدر من عدم الوضوح، يجب أن يعاد فهمها أو إذا أمكن - تشطب تماماً من قاموس العالم.

حضارة الإنسان العاقل:

أما العصر الحجرى القديم الأعلى، الذي ساد فيه الإنسان العاقل، فيمتد في الزمان بين ٤٠ - ١٩ ألف سنة من الآن تقريباً، وكل المعطيات المتوفرة لدينا الآن، تدل على أن الإنسان العاقل، كان الإنسان الرابع والأخير في عصور ما قبل التاريخ، وقد أظهر وجوده انعطافاً جوهرياً في مسيرة البيولوجى والحضارى للبشرية، لأنه امتلك تقريباً كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي نملكها نحن، ولم يكن يختلف عنا إلا

بمقدار ما تختلف العروق الحالية بعضها عن بعض.

وأهم ما يميز الإنسان العاقل عن أسلافه، ما طرأ على مقدم المخ من التحسن، فقد بلغ حجم دماغه من (١٤٠٠ - ١٥٠٠ سم٣) مع ما اقترن بذلك من تحسن في العين واليد، ولقد كان طويل القامة من (١٦٠ - ١٧٥سم) وجمجمته مكتملة الدوران، وجبهته عريضة ومستقيمة، ووجهه مسطح وعظامه بارزة وأسنانه وفكاه تحمل صفات مثيلاتها لدى الإنسان الحالى.

حياته الاقتصادية والاجتماعية:

دفع ظهور هذا الإنسان الحضارة بشكل هائل، إذ بلغ المستوى الاجتماعى والاقتصادى درجة كبيرة من التقدم والتنوع، جسدته ابتكارات جديدة في مجالات عديدة، اعتبرت طفرة تكنولوجية لم يسبق لها مثيل، فبدلاً من الآلات التي كانت تتخذ من الشظايا والنوى، استخدم الإنسان العاقل عموماً طريقة أكثر اقتصاداً ولكنها أكثر تعقيداً في تحضير الأحجار المشطوفة (المسنونة)، فكانت سابقة لأغراضه من كشط وطعن وثقب وقطع ونقش وحفر ونشر، فصنع من تلك الشفرات تشكيلة كبيرة من الأدوات المتخصصة والمحددة، كالمكاشط والسكاكين والمثاقب والأزاميل والحفارات والمناشير إلخ، وبمساعدتها أمكن استخدام مواد جديدة في صناعة الأدوات، كالعظام والعاج والقرون، ومنها صنعت رؤوس السهام وحراب صيد السمك، والمثاقيب والخطاطيف والأوتاد والإبر، حتى أدوات النحت، في حين اتخذ من العظام الجوفاء في بعض الأحيان حقاقاً للأصباغ يحفظ فيها المغرة الحمراء التي أدمن استعمالها،

وقد عرف قدر العاج في صناعة الأدوات والحلى، بذلك أصبحت الآثار العظمية من الدلائل الزمنية والحضارية الهامة على مجتمعات ذلك العصر، وقد استخدم نوعاً من الأسلحة المقذوفة، ذات السنن المدببة المصنوعة من الصوان أو العظم أو العاج، واستخدم القوس لقذفها في مرحلة مبكرة، وقد حصل في هذا العصر تخصص في صيد حيوانات معينة، فاصطياد الرنة في أوروبا، والبقر الوحشي في أفريقيا، والماعز الجبلي في بلاد الشام، بينما تراجع الإقبال على حيوانات أخرى، كانت مرغوبة في السابق، كالدب والماموث والحصان وأصبحت الثروة السمكية والطيور، تلعب دوراً هاماً في غذاء الناس.

حدث تطور نوعي وكلي في مجال البناء، فأقيمت المساكن الكبيرة، ذات الأشكال البيضاوية والدائرية، المتخذة أركانها من الخشب، والمرصوفة أرضيتها بالحجارة، وقمست من داخلها إلى مناطق للسكن والنوم وإلقاء الفضلات وتصنيع الأدوات، وزودت البيوت بالمواقد الضرورية المبنية بشكل منظم، وبلغت تلك البيوت مساحات كبيرة أحياناً، واتسعت لعدة أسر، مما يجعلنا نتحدث عن مجتمعات تخطت مرحلة الجماعة الصغيرة الأولى، وأصبحت على مستوى القبيلة المؤلفة من عدة جماعات أو أسر.. ولكن رغم القدرة الواضحة للإنسان العاقل على البناء، فقد استمر في سكنى المغاور والملاجئ الطبيعية، التي نظمها كيفما أراد، فأقام المصاطب والمواقع، وتحكم في مداخلها أو مخارجها، بما ضمن له نور الشمس والنور والحماية والدفء، بل انه دخل مغاور عميقة ومعتمة، بعد أن أتقن الاستفادة من النور والضوء، فصنع السرج التي أنارها من

شحوم الحيوانات ودهنها، ومن صمغ الأشجار، وعنى بزخرفة الحجرات التي اتخذها في جوف الكهوف بالصور، وفي بعض الأحيان بالنماذج البارزة من الطين لأنواع من الحيوانات.

إذا ما انتقلنا إلى زيه، لوجدنا أنه اتخذ ثياباً من الجلود والفراء... وإجمالاً، تمثل هذه المرحلة بداية للتجمعات البشرية التي أصبحت تشكل أنماطاً معيشية متطورة، مع أنها بقيت تعيش على الصيد وجمع القوت، وتستعمل بالإضافة إلى ما تم ابتكاره من أدوات، الأدوات الصوانية التي ورثها من المجموعات التي سبقتها.

حياته الروحية:

لقد أتاحت تلك الابتكارات المتنوعة، حياة كريمة مرفهة للإنسان العاقل، مما أتاح له بعض وقت الفراغ للتأمل في الحياة الدنيا والآخرة، فدفن موتاه بعناية أكبر مما فعل أسلافه. وثمة أمثلة على دفن رجل وامرأة معاً، وأمثلة لمدافن الأسرة والجماعة، وجميعها شاهد على العناية، ويصح أن نقول على المحبة المشوبة بالاحترام، وقد دهن جثثهم بالمغرة الحمراء، رمز الدم وتجدد الحياة، وزودهم بالأسلحة والطعام واللبس، سواء في ذلك الرجل والنساء والأولاد، علاوة على أنه مارس السحر، الذي تدل عليه إشارات غامضة تركها على جدران مغاوره، وعرف تقديم الأضاحى، كما يستنتج من الحيوانات المرجومة بالأحجار أن تؤكل. وفي كتابة تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية - يرى " ميرسيا إلياد " يبدو أن ممارسة الدفن قد تعممت، الأجسام المرشوشة بالمغر الأحمر، مدفونة في حفر، حيث وجد عدد من أدوات الزينة (أصداف أقراط عقود) ومن

الـراجح أن وجـود أشـياء كهـذه، لا يعنـى فقـط الإيمـان باسـتمرار الحيـاة فحسب، وإنما أيضاً بأن الميت سيتابع نشاطه المميز في العالم الآخر.

الفنان الماهر:

تعتبر الفنون بكل أنواعها: الرسم والنحت والحفر والموسيقى والرقص والقصص، من أكبر مميزات الإنسان العاقل، وهى تشكل دليلاً ساطعاً على المستوى الرفيع، الذي وصلته مجتمعات هذا الإنسان.

كانت فنونه إما على شكل قطع منقولة، كالتماثيل والدمى والأسلحة وأدوات الزينة (الفن التطبيقى)، أو آثار ثابتة، كالنحت والرسم على جدران المغاور والملاجئ (الفن الجدارى)، وقد صنع التماثيل للمرأة العاربة (الربة الأم) فاعتبرت الدليل الأول على عقيدة الخصب، التي استمرت عصوراً طويلة فيما بعد، وأخرى لحيوانات شدت انتباهه، كالثور والغزال والماعز الجبلى، كما حفر على القبضات العظمية لأسلحته صوراً حيوانية وإنسانية مختلفة، كما حفر على الصوان، وأجاد الحفر إجادة تامة، فبدت الصور التي حفرها رائعة الجمال. ولم يقتصر فنه على الحفر والنحت، بل تعدى ذلك إلى الرسم والتصوير، فهناك في جوف الكهوف العميقة حيث تخيم الظلمة، ولا تتحقق رؤية الأشياء، خلف على الحوائط والسقوف صوراً عديدة للحيوانات، التي أدمن على اصطيادها، كما أشكال بشرية غريبة، وإشارات غامضة ترمز إلى الجنس أو النار. وتبدو الصور بسيطة في أول العهد، بحيث لا تزيد عن الخطوط الرئيسية التي تحدد الأشكال العامة للحيوان، ولكنها تتطور فيما وتتحول إلى صور ناطقة للحيوان، تبعث في النفس الدهشة وتثير الإعجاب.

أما ألوانه، فكانت تؤلف من المغرة الحمراء والصفراء وأكسيد المنغنيز الأسود وغيرها، وكانت يسحق في مساحيق من الصخر البلورى، صنعت منه لوحات لمزج الألوان التي، كانت تودع في عظام أو يصنع منها أحياناً نوع من الأقلام، تبدو كأنما أخذت تواً من عند بائعها، وكذلك كانت تستخدم لبسط الألوان أقلام من العظم.

وقد خلف الإنسان العاقل الكثير من القواقع البحرية وعظام الأسماك وأسنان الرنة والذئاب وأكوام من قطع مصقولة من العاج، ذوات ثقوب تساعد على استخدامها للزينة تعلق على الجسم، ومن بين ما خلفه أيضاً أنواع من الخرز، اتخذها من العاج وصنعها بمهارة فائقة، ويبدو أنه كان لديه من الوقت ما اتسع لإشباع ميوله الفنية والثقافية، لأنه كما ذكرنا - كان يعيش في يسر ورخاء. وتدل المزامير العظمية على أن الإنسان العاقل عرف الرقص، والموسيقى، وقد عرفه " ميرسيا إلياد " بالرقص الدائرى، وأنه كان لضمان طمأنه روح الحيوان المقدس، ولضمان تكاثر الطرائد.

خضعت فنون هذا العصر لدراسات وتفسيرات مختلفة، فيرى البعض أنها مورست لمجرد الفن، ويرى آخرون أنها تحوى مضموناً سحرياً، من أجل تسهيل عمليات الصيد، بينما حملها البعض الأخر معانى جنسية تدور حول الخصب، وفي دراسة علمية متكاملة، يرى العالم " لوروغوران " أن فنون الإنسان العاقل تبرهن على وجود نظام ميثولوجى - اجتماعى متطور، تحكمه عقائد معينة آمنت بها تلك المجتمعات، وهى تعكس فكراً شاملاً ومترسخاً في ذهن حامليه، يحدد موقفهم من قضايا

الموت والحياة والجنس، ويعتقد هذا العالم أن الأنوثة والذكورة كانتا من جوهر معتقدات ذلك الإنسان وفنونه، لأنه رأى فيهما نفسه واستمرار جنسه، أى رأى فيهما عالمه الذي ربطه بعالمه الخارجى، أى بيئته، فصور هذه البيئة وحيواناتها، معتبراً الثور رمز الذكورة، بينما الفرس رمز الأنوثة، لأنه كثيراً ما ترافق هذان الحيوانان في العديد من الأعمال.. ومهما يكن، فإن الفن في هذا العصر يعكس عقيدة قد لا نفهمها، بسبب غيب الكتابة، وإن كنا نرى الأشكال المرسومة والمنحوتة نوعاً من الكتابة التصويرية، التي أراد الإنسان من خلالها أن يدون أفكاره ومعتقداته، ويعطيها المعنى الرمزى الذي لا يدركه أحد غيره.

يتصل بموضوع اللغة اتصالاً طبيعياً، فن القصص، فلقد تردد على ألسنة بعض العلماء، أن القصص كان فناً آخر من فنون الإنسان العاقل، مما يجعلنا نخمن أن أجدادنا في ذلك العصر، قد بدءوا سرد القصص حول النار، التي كانوا يجتمعون حولها، ولكنهم لم يبلغوا وقتئذ إلى رواية الأساطير عن أبطال الماضى ومآثرهم، وفي ذلك يقول " ميرسيا إلياد ": أما بالنسبة إلى أساطير أصل الحيوانات والعلاقات الدينية بين الصياد والطريدة ورب الوحوش الكاسرة، فمن المرجح أنها دونت بغزارة في قوانين مرموز لها، في مرجع دراسة الفن للعصور الحجرية، كذلك من الصعب أن نتخيل مجتمعاً من الصيادين مجرداً من أساطير حول أصل النار، في حين أن الكثير من هذه الأساطير تبرز النشاط الجنسى..

وأخيراً يجب أن يؤخذ في الحسبان التجربة البدئية لقداسة السماء والظواهر السماوية وهكذا، جسد الإنسان مشاعره ومعتقداته، عبر كل

أنواع الفنون المعروفة لدينا.

مجتمعات الإنسان العاقل في فلسطين:

للأسف، ليس في الوسع، إلى الآن التحدث إلا قليلاً جداً، عن مجتمعات الإنسان العاقل في فلسطين التي انتشر منها بسرعة على الأرض بكاملها، وخصوصاً أوروبا الغربية، مدفوعاً بأسباب لا نعلم حقيقتها، وأقام هناك حضارة غنية رفيعة المستوى، وهكذا، فقد تبودلت في هذا العصر الأدوار، وبعد أن كانت غرب آسيا وأجزاء متفرقة من أفريقيا، تشكل النشاط الإنسانى الرئيسي، انتقل هذا الدور إلى غرب أوروبا، التي حصلت فيها الإنجازات الكبيرة للإنسان العاقل في معظم الميادين، وقد عاصرت تلك الإنجازات حضارات مختلفة، تعاقبت في غرب أوروبا على امتداد ذلك لكنها وصلت في أواخره إلى أدنى مراحل الخمود والانحطاط، لأسباب مناخية وغير مناخية، يلوح أن من أصعب الأشياء على الجماعات المتقهقرة، من محدثى الحضارة، أن ينشطوا إلى خوض طرق جديدة للرقى، ليس لهم سابقة عهد بهم، ومن أجل ذلك تخلف غرب أوروبا في مراحل وبات حيناً إقليمياً على هامش المعمورة همجياً، لا يكاد يمت بسبب ثقافى إلى الشعوب في الأقاليم الأخرى، لتعود الشعلة من جديد إلى المشرق وبلاد الشام وعلى رأسها فلسطين، وتوضع الأمور في نصابها الصحيح، وإن دل هذا على شئ، إنما يدل على أن دور فلسطين في ذلك، لم يكن دوراً هامشياً، فلم تهجر هذه البلاد، ولم يغب عنها الإنسان كلياً، وهذه حقيقة يمكن استنتاجها من مخلفات مجتمعات فلسطين عن غيرها في غرب أوروبا، واستعمالها لأدوات

الطحن، حيث تم العثور في كهف القفزة على بلاطة حجرية مع المدق التابع لها، ومن أهم المواقع الأخرى للإنسان العاقل التي عثر عليها في فلسطين: كهف الأميرة، أم قطفة، موقع عرق الحمر، مغارة الواد وكبارا ومواقع أخرى في صحراء النقب.

طبيعى ألا تكون هذه الصورة الموجزة صورة تامة، لأن الآثار التي وصلتنا لتلك المجتمعات قليلة التنوع، اقتصرت على الأدوات الحجرية ذات الأشكال المتنوعة، بينما لم يعثر على الكثير من الأدوات والآثار العظمية والخشبية، والأهم من ذلك، لا وجود للفنون التي عرفت في أوروبا، يجب ألا يدهشنا أن نجد السجل الآثرى ناقصاً بشكل مؤسف، وذلك فيما يتعلق بالأدلة على فن الإنسان العاقل في فلسطين، إذا أخذنا بعين الأعتبار أن هذا الواقع قد يكون حقيقياً، ولا يعكس طبيعة حضارات سكان فلسطين آنئذ فمن المحتمل أن تكون آثار هؤلاء الناس قد تعرضت لتخريب الزمن كما أن الأعمال الجارية والاكتشافات المحتملة في فلسطين وشقيقاتها من بلاد الشام، ربما تغير الصورة أو تقلبها.

إذا انطلقنا حتى من تلك المعطيات القليلة الموجودة تحت تصرفنا، نستطيع أن نؤكد أن تلك المجتمعات كانت مزدهرة متجانسة، وإذا استطردنا في هذا الموضوع، فإنه يصح لنا أن نتساءل، هل من قبيل الصدفة أن تكون فلسطين مهد الحضارة النطوفية، التي أطلق عليها العلماء ثورة العصر الحجرى الوسيط.

في الطريق إلى أعظم حضارات العالم القديم:

يستحيل علينا أن نلم بحضارات الإنسان العاقل في فلسطين، مما

أوجزنا في هذا الإلمام وربما من الأفيد أن نتجه الآن إلى بيان، يبسط للقارئ بمنتهى الإيجاز، مراحل تطور هذه الحضارات، المرحلة الأولى والأقدم، لها طابع انتقالى من العصر الحجرى القديم الأوسط، إلى العصر الحجرى القديم الأعلى، وظهرت فيها التأثيرات الفلوازية الموستيرية واضحة، وتسمى مرحلة " الأميرة "، نسبة إلى مغارة الأميرة في فلسطين، وعنها يحدثنا " كون وهنت " بأن الحضارة الفلوازية الموستيرية المحلية في فلسطين، وتعرف باسم الأميرة، تمتاز بصقل قاعدتى الأداة الحجرية، تطورت إلى حضارة حجرية قديمة عليا، وهذه هي الحضارة المعروفة جيداً باسم الحضارة الأوريناسية، والتي انتشرت إلى أوروبا. وفي المرحلة الثانية، حصل الدخول الكامل في العصر الجديد، وصنعت الأدوات النموذجية لذلك العصر، وبخاصة المكاشط والمخارز ذات الجبهة الغليظة، والنصال التي تشبه الأورنياسية في أوروبا، لذلك هناك من يطلق على هذه المرحلة تسمية (الأورنياس المشرقى) بينما يسميها آخرون (الأحمرى)، نسبة إلى مغارة عرق الأحمر بفلسطين.

أما المرحلة الثالثة والأحدث، فهي الحضارة (الكبارية)، نسبة إلى مغارة الكبارا بفلسطين، ويبدوا أنها استمرت ما بين ١٩ - ١٢ ألف سنة ق. م، تقريباً، وقد رافق التغير المناخى الذي ساد هذه الفترة، نقصان في الموارد الحيوانية التي كان يصطادها الإنسان، الأمر الذي حدا به إلى البحث عن مصادر عيش أخرى، فلجأ إلى جمع بذور الأعشاب البرية الصغيرة، كالقمح والشعير وغيرها، التي أصبحت تكون عنصراً هاماً في

غذاء الإنسان.

فضلاً عن العينات النباتية التي تم جمعها، فقد عثر المنقبون على أدوات الطحن والمدقات والمناجل والأدوات الصوانية الصغيرة جداً، وقد استعملت مثل هذه الأدوات الصوانية والرماح ومناجل لقطع الأعشاب البرية، ومن بين هذه الأدوات المكتشفة في كهف في جبل الكرمل، وأقدم تاريخ تم الحصول عليه لفترة كبارا حوالى ١٩ ألف ق. م، لقد المسوحات والحفريات الأثرية، عن عدد من المواقع الكبارية في بلاد الشام، ونذكر منها بالإضافة إلى كبارا: الواد، ووادى الفلاح في فلسطين، وفي منطقة الأزرق، ورأس النقب، ووادى الخزانة في الأردن.

أما الأدوات الصوانية الكبارية، فقد امتازت بارتفاع نسبة صناعة الشفرات الصغيرة الحجم، صناعة السكاكين، التي كانت سائدة في الفترة السابقة، وبوجود الآلات صغيرة الحجم، الأدوات المدببة والشفرات المطروقة على أحد الجوانب والطرف العلوى، فضلاً عن بعض الكبيرة الحجم نسبياً، مثل المكاشط الرأسية والمخارز. وقد استعمل الإنسان في مرحلة كبارا الأجدان والمدقات البازلتية لطحن الحبوب البرية، ويدل ذلك على تطور في في كيفية تناول الطعام.

كان العلماء قد صنفوا المرحلة الكبارية، تبعاً لأنواع الأدوات الصوانية التي وجدت فيها، فأطلق اسم كبارية على الشفرات الصغيرة جداً، واسم كبارية هندسية على المواقع التي احتوت شفرات هندسية متنوعة، وتميزت الأخيرة بالأدوات الصوانية ذات الأشكال الهندسية مثل شبه المنحرف والمستطيل والمثلث، مع وجود أدوات أخرى أكبر حجماً،

مثل المكاشط والمثاقب والمناكيش، ومن مواقعها: عين غيف على الساحل الشرقى لبحيرة طبرية، ووادى زين في منطقة النقب في فلسطين، وفي منطقة رأس النقب، والخزانة في الأردن.

بوجه عام، كان للحضارة الكبارية انتشاراً واسع، امتدت من سيناء غرباً وحتى الفرات شرقاً، ومن فلسطين جنوباً وحتى الأناضول شمالاً، وكانت دليل ساطع على وحدة حضارية شاملة الشام، دفعت لأن تصبح فلسطين في العصور التي تلت، مركز النشاط الأهم، والابتكارات في حياة الإنسان والحضارة، إنها ثورة العصر الحجرى الوسيط.

* * *

مراجع الفصل الأول

١- الدكتور سلطان محيسن، **بلاد الشام (عصور ما قبل التاريخ)**، الأبجدية للنشر، دمشق، ١٩٨٩.

٢- الدكتور عبد القادر عابد، **الموسوعة الفلسطينية**، الدراسات الخاصة، المجلد الأول، بيروت، ١٩٩٠.

٣- الدكتور معاوية إبراهيم، **الموسوعة الفلسطينية**، الدراسات الخاصة، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠.

٤- الدكتور أحمد فخري، **دراسات في تاريخ الشرق القديم**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.

٥- كارلتون كون، وادواردهنت، **السلالات البشرية الحالية**، ترجمة د. محمد السيد غلاب، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٥.

٦- هـ. ج. فير، **تاريخ العالم**، ترجمة لفيف من العلماء، الجزء الرابع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د. ت.).

٧- جوردون تشايلد، **التطور الاجتماعي**، ترجمة، لطفي فطيم، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦.

٨- جون كوماس، **خرافات عن الأجناس**، ترجمة د. محمد رياض، مكتبة نهضة مصر، القاهرة (د. ت.).

٩- هـ. ك. بيبي، **قصة البشرية**، ترجمة د. محمد متولي، ود. محمود موسى، مطبعة الفكرة، القاهرة، (د. ت).

١٠- ميرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، ترجمة. عبد الهادي عباس، الجزء الأول، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٧.

١١- آشلي مونتاغيو، **البدائية**، ترجمة د. محمد عصفور، مطابع الأنباء، الكويت، ١٩٨٢.

١٢- شيان لان بو، **كهف بكين**، ترجمة وتعليق د. ناريمان درويش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.

* * *

الفصل الثانى

فلسطين أصل الحضارة

الفصل الثاني:
فلسطين أصل الحضارة

أحمد الدبش

أخذ الإنسان يتدرج في الحضارة منذ زمن بعيد، وأخذ ينتقل خطوة بعد أخرى حتى وصل إلى تحقيق كثير من الاختراعات التي ساعدته على توفير الراحة والأمن لنفسه، ومكنته أيضاً من التغلب على الكثير من الصعوبات، بل والأخطار التي كانت تحدق به في حياته البدائية الأولى.

ليست قصة أصل الحضارة الإنسانية، ثم مولدها وتطورها، إلا سلسلة متعاقبة بدأت في بلادنا فلسطين. وليس بين شعوب العالم أجمع من هو أولى من شعبنا بالعناية وبذل الجهد في سبيل نشر هذا الفرع من فروع المعرفة. لأن القدر أراد لنا أن نولد ونعيش في هذه البقعة التي نبتت فيها شجرة المدنية الأولى، وشع في سمائها ذلك النور المتأجج، نور المعرفة والعلم، في وقت كان فيه العالم خارج هذه المنطقة ينوء تحت حجب كثيفة من ظلام التوحش، فمن هنا - على ما يبدو - ظهر الإنسان العاقل / منذ ما يربو على الخمسة والثلاثين ألف عام مضت. إن اعتدال الجو، وملاءمة مناطقنا لحياة الاستقرار، مكنت الناس من الوصول إلى بعض أسباب التقدم وجعلتهم يتقدمون في بعض مراحل الثقافة، وبالأخص

عندما خلف الإنسان وراءه حياته كجامع للغذاء، وأصبح منتجاً له، وأخذت تستقر جماعات منه على مقربة من موارد المياه، يزرعون الأرض ويستأنسون بعض الحيوانات.

إن بعض علماء الآثار الأجانب يستخدمون على أثر " تشايلد " مصطلح " ثورة العصر الحجرى الحديث " للإشارة إلى هذا الحدث.

وقد نوه " تشايلد " بأنه استخدم كلمة " الثورة " هنا للإشارة إلى نقطة أوج التغيرات السابقة الطويلة في بناية المجتمع الاقتصادية وتنظيمه الاجتماعى. إن مصطلح " ثورة العصر الحجرى الحديث " يعكس بدقة كل أهمية الانقلاب الذي حدث ويربطه، بالإضافة إلى ذلك، بعصر آثارى محدد، بالعصر الحجرى الحديث. إن " ثورة العصر الحجرى الحديث " أو بالأحرى ذروتها، تتسم قبل كل شيء بظهور أهم ثلاثة عناصر في حياة الناس: الزراعة وتربية الماشية (كأساس للاقتصاد). والمستوطنات الدائمة، وصناعة الفخار. إن الانتقال من القنص وصيد السمك وجمع النباتات، أى تلقى منتجات الطبيعة الجاهزة إلى إنتاج الطعام - الزراعة وتربية الماشية - والتبدلات المرتبطة بهذا، حولت بوضوح، أكثر من أى شئ أخر، ظروف تطور الحياة البشرية وغيرت بيئة الإنسان الطبيعية وبيولوجيته، وغيرت كل كوكبنا إلى درجة معينة.

إن كل الباحثين تقريباً متفقون على المغزى الكبير الذي تنطوى عليه " ثورة العصر الحجرى الحديث " بالنسبة إلى تطور المجتمع البشرى. ولكن ما أن حاول العلماء الانتقال من المسلمات والأحكام العامة إلى النظر في الوقائع والمواد الملموسة، حتى ظهر السؤال الآتى:

أين جرى " إنقلاب العصر الحجرى الحديث " على وجه التحديد، وفي أى وسط طبيعى - جغرافى؟.

أضواء على الحضارة الناطوفية:

إذا أردنا أن نبحث عن الجهة التي قامت فيها هذه الثورة - الانقلاب - فيجب أن نذكر أن فلسطين كانت هي مسرح الارتقاء الأساسى للثقافة في العصر الحجرى القديم، وأن أعظم الحضارات القديمة وأسبقها نشأت هناك. فإليها تنسب أولى التجمعات البشرية المستقرة، منذ العصر الحجرى الأول، عصر الرجل الصياد، وعصر المرأة ربة الكهف، ورأس النسب، وسيدة الإنتاج البدائى، وأريحا الفلسطينية، هي التي شهدت أولى التجمعات البشرية في كهوف متجاورة جنباً إلى جنب مع كهوف الكرمل وطبريا ومرتفعات القدس.

فقبل مرحلة الثورة (الزراعة)، كان الإنسان يتجول ويستعمل الأدوات، أو قل متوحشاً، وكان كل ما يملكه أشياء هينة الحمل، وكان يقضى حياته في اقتناص الغذاء، تتداول عليه الأيام ما بين مدد طويلة يقضيها طاوياً، وأخرى يمضيها في رغد. كان حراً، وكانت حياته في خطر مستديم. ولكن من الواضح أنه في تلك الفترة حدث تطور بصورة سريعة نحو العصر الحجرى الحديث. وقد سميت الفترة الانتقالية بين العصر القديم والحديث بالعصر الحجرى الوسيط، ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، وتتمثل هذه الحضارة في بلادنا فلسطين " بالحضارة الناطوفية "، الذي سميت لذلك باسم وادى النطوف شمالى غربى القدس.

لقد حصلت الاكتشافات الأولى لهذه الحضارة من قبل " مالون " A. Mallon و " غارود " D. Garod في موقع شبقة في وادى النطوف بفلسطين وهناك مغارتان في جبل الكرمل هما مغارة الواد الكبار (Turville - Petre 1932) و (Garrod et Bate 1937) ومواقع فلسطينية هي عرق الأحمر، أم الزويتنية، عين صخرى، اكتشفت من قبل " نوفيل " (Neuville 1951)، إلى السوية الناطوفية في يبرود في سورية (Rust 1950) والتنقيبات الأخيرة في أريحا (Kenyon ١٩٥٧) وعين الملاحة (Perrot 1966 - b) والخيام (Echegarary 1966)، وناحال أورن (Stekeliset,Yizarely1963) وهذه المواقع اكملت المعلومات المتوفرة حول ذلك العصر.

فقد كانت الحضارة الناطوفية الفلسطينية حضارة (ميكروليثية) بالمعنى الصحيح، أى أنها تتميز لصناعة الآلات الصوانية الدقيقة الحجم، خاصة النصل القمرى، ومن أهم الآلات الصوانية الكبيرة في هذه الحضارة، نصال المناجل والمعاول، مما يدل على الحياة الزراعية في الحضارة الناطوفية، وعلى أنها كانت تلم بحصد الحبوب، مما استلزم مناجل بصفة منتظمة وبعض الآلات التي سمتها " غارود " معاول هي أقرب إلى الفؤوس التي استخدمت لغرف الأرض قبل بذر الحبوب، هذا يتضح أن أقدم الناطوفيين كانوا أول مرحلة بدائية لحضارة الفأس، أى أنهم كانوا منتجى وجامعى طعام في الوقت نفسه. ويميل " تشايلد " إلى اعتبار الحضارة الناطوفية ممثلة لمرحلة الانتقال من جمع الطعام إلى إنتاجه.

فمنذ حوالى عشرة آلاف سنة تقريباً، ظهرت أولى التجارب الزراعية " في أريحا جنوباً، وفي تل المربيط أبيب شمالاً ".

ويبدو أن الناطوفيين كانوا البادئين أو الممارسين الأول على الأقل، لفن الحصاد الذي بقى في المستعمرات الزراعية للعصور الحجرية الجديدة. فإن مناجلهم الغريبة كانت مكونة من مقبض مشقق فيه قطع قصيرة من الصوان كالأسنان، وقد وجد مثل هذه المناجل أيضاً في أقدم المستعمرات في الفيوم في مصر، وتل حسونة في شمال العراق وفي سيالك قرب كاشان في فارس. وكذا يتضح أن نشر الزراعة لم يكن مجرد انتشار المعرفة بالحنطة والشعير وحسب، بل كان إلى جانب ذلك تعميم أداة الحصاد الغريبة المعقدة التي استعملها الناطوفيين لأول مرة كما نعلم.

قد يكون الناطوفيين زرعوا محصولاً ما، أو جمعوا أعشاباً، لكنهم إلى جانب ذلك قاموا بصيد الأسماك من البحيرات، والمستنقعات، وبعض المجارى المائية الدائمة، التي أقام الناطوفيين بجوارها. وقد دلت على هذا لصيد، الخطاطيف، والصنانير، وبقايا عظام الأسماك، التي وجدت. كما كان صيد الحيوانات نشاطاً هاماً أيضاً دلت عليه البقايا العظمية. فقد استطاع أصحاب الحضارة الناطوفية استئناس الكلب، ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريباً لكلب في طبقات أحد كهوف الكرمل، أول برهان على تدجين الحيوانات. غير أننا لا نعرف هل هناك حيوانات أخرى استأنسها الإنسان إلى جانب الكلب في هذه الفترة. رغم أنه عثر على بقايا حصان وماشية في الرواسب الناطوفية. وقد توصلت الآنسة " بيت " (.A Bate) بالمتحف البريطانى عن طريق دراستها لهذه البقايا إلى أنها ترجع

إلى بعض الحيوانات البرية.

من الناحية البشرية، ينتمى أصحاب تلك الحضارة إلى عنصر البحر المتوسط، تدل الهياكل العظمية التي عثر عليها في مواضع مختلفة، أن أصحاب هذه الثقافة كانوا أقرب إلى قصر القامة، ويمتازون بالنحافة، يحملون صفات البحر المتوسط، برأسها الطويل، ووجهها الضيق - المسكون - مثل كثير من العرب الحاليين.

من أهم مواقع الحضارة الناطوفية الأثرية، موقع عين الملاحة شمال غرب بحيرة الحولة، حيث يعتبر النموذج الحقيقى للقرية التي ضمت أبنية وتجمعاً سكانياً دائماً. لقد حفرت " البيوت " في الأرض، وكان لها جدران دائرية من الحجر بقيت محفوظة أحياناً حتى ارتفاع متر واحد. الأرضيات كانت غالباً مرصوفة بالحصى ومحفورة فيها المواقد والأحواض. إن الأبنية، إضافة إلى الأثاث الثقيل الذي وجد فيها، وما أظهرته الدراسات حول مصادر الغذاء، قادت " بيرو " إلى اعتبار عين الملاحة مركزاً سكنياً دائماً، قدر عدد بيوت السوية الواحدة فيه بخمسين بيتاً أقام فيها ما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ إنساناً.

لقد أتت الفنون الناطوفية الأولى من فلسطين، سواء من المواقع المكشوفة أو الكهوف، وهى دمى حيوانات صغيرة، مصنوعة إما من الطين أو الحجر أو من قرن الغزال، بعضها واقعى، وأخرى مختزلة ومبسطة، نذكر منها قبضان مناجل عظمية تنتهى على شكل رأس الغزال وجدت في السوية الناطوفية في مغارة الكبارا ووادى فلاح، ومن الأعمال التي صورت البشر لدينا نماذج صغيرة، كالرأس المبسط المنحوت على

لوحة حجرية من موقع الواد، ودمية بلا رأس، ولا أطراف من عين الملاحة، وتمثال صغير وجد في عين صخرى بفلسطين، يصور شخصين رجلاً وإمرأة في احتضان حميم، وهو بلا شك العملية الجنسية التي كانت مجتمعات ما قبل التاريخ القديم تنظر إليها بقدسية كما بعض الشعوب الحالية. إضافة إلى ذلك، فقد وجدت في معظم المواقع أدوات زينة كالخرز، والأطواق، أو الحلق المصنوع من الصدف، والأسنان المثقوبة، والفقرات، وزخارف أخرى، على شكل أتت من موقع رأس زين بفلسطين.

عثر على عدد من الأدلة الأثرية المعبرة عن الفكر الدينى في تلك الحضارة، مثل بعض المقابر الفردية، والجماعية، التي تؤكد اعتقاد إنسان تلك الحضارة في الحياة الأخرى، ومن الأهمية الإشارة إلى أن تلك المقابر لم تكن مجرد حفر تحت مستوى سطح الأرض توضع فيها جثث الموتى، بل قد لوحظ بعض الكتل الحجرية فوق بعض الهياكل العظمية، مما يمكن تفسيره كمحاولة مبكرة لتخليد المتوفى في منزله الأبدى. وربما يتجه الرأى إلى تفسير أخر يعتمد على الرغبة في المحافظة على جثة المتوفى من الحيوانات الضارية، التي من المحتمل أن تنهش جسد المتوفى، مما يتنافى مع عقيدة الخلود، ولذلك اتجه إلى محاولة تحقيق ذلك الخلود، بوضع تلك الكتل الحجرية فوق مكان الدفن، للحماية من ناحية، وأيضاً لتثبيت ذلك الاعتقاد بالأبدية.

هناك ظاهرة لها أهميتها في الحضارة الناطوفية في فلسطين، هي ذر التراب الأحمر في المقابر. ويلمس المؤرخ تواجد تلك الظاهرة، أيضاً،

في بعض المجتمعات الأخرى المنتمية للعصر الحجرى الحديث، وبصفة خاصة في إيران والأناضول. وقد اختلف العلماء في محاولة تفسير تلك الظاهرة الغامضة، ولكن اتجه رأى البعض إلى أنها ربما تتصل بعقيدة الخلود، أيضاً، من حيث أن اللون الأحمر هو لون الدم، الذي يعبر تواجده عن استمرار الحياة، وإن ذر التراب الأحمر ربما يرمز أيضاً إلى استمرار الحياة بالنسبة للمتوفى، وبذلك ينعم بالخلود في العالم الآخر.

من أهمية الإشارة، في هذا الصدد، إلى أنه مما يؤكد كون تلك المقابر متصلة اتصالاً وثيقاً بعقيدة الخلود، تواجد بعض الأدوات الخاصة مع المتوفى حتى تكون في متناول خدمته في العالم الآخر.

التاريخ يبدأ في أريحا :

يداوم العلماء البحث عن محطات حضارية أخرى تستكمل معرفة الباحث عن هذه المرحلة الحاسمة في خط سير تطوره الحضارى. ولاشك أن الإنسان قد مر بمرحلة انتقال مهدت إلى أحداث هذه الثورة الاقتصادية الهامة (الزراعة) في حياته، والتي أدت إلى نقلته نحو إنشاء القرى الأولى والاستقرار فيها، ومواصلة تقدمه الجديد في كافة المجالات المادية والفكرية، وبادئاً بذلك المرحلة الحاسمة وهى " مرحلة العصر الحجرى الحديث ".

لاشك أن الحضارة الناطوفية تعتبر من أهم مراحل الانتقال نحو إنتاج الطعام والاستقرار، فقد عثر أخيراً في أريحا على آثار الحضارة الناطوفية، ولكن بصورة متصلة حضارياً تؤكد صفة الانتقال الفعلى نحو مرحلة الاستقرار وإنتاج الطعام. ويمكن استخدام اصطلاح " ما قبل

النيوليت " (Proto - Neolithic) بالنسبة لتلك المرحلة السابقة مباشرة للعصر الحجرى الحديث.

ويذهب " جـ. هاوكس " و " ل. وولى " إلى أن أول حدث لتعمير أريحا هو هو إقامة ضريح، وربما تخليداً من قبيلة صيادى الحضارة الناطوفية السفلى لحياة أصحاب النبع. وتبع ذلك أن استقرت نفس الجماعات نهائياً أو في فترات فصلية منتظمة في أكواخ واهية من نوع تلك الأكواخ التي تنتمى إلى الاستقرار النصف رعوى. هذه المحلات التي يمكن أن تطلق عليها اسم محلات قبيل العصر الحجرى الحديث، الذي يعتبر بمنازله وحصونه أول مدينة بمعنى الكلمة، أما عن الأدوات التي وجدت في أريحا فما زالت تظهر بها سمات الحضارة الناطوفية، وعن طريق التحليل الكربونى أرجع عمر الضريح إلى عام ٧٨٠٠ ق. م.

وتحاول الدكتورة " كينون " إيجاد علاقة بين ذلك الضريح أو المعبد بحكم تواجده بجوار النبع، وبين تقديس الماء. ويصعب التيقن من ذلك التفسير، ولكن مما لا شك فيه أن ذلك الإنسان القديم قد اتجه إلى الاعتقاد بضرورة تجهيز مكان معين لسكنى الإله أو الآلهة التي اتجه إلى الإيمان بها.

ترمز أريحا نفسها إلى التقدم العاصف لجملة من جوانب مؤسسيها الذي تتسم به " ثروة العصر الحجرى الحديث ". إذ صارت ترى معالجة أشكال معمارية معينة، وكذلك تكنيك البناء. وظهرت تحصينات معقدة إلى درجة معينة من أسوار حجرية وأبراج وخنادق، وكأنها تشير إلى تفوق أقدم المستوطنات الزراعية على خلفية ما يحيط بها من قبائل

الصيادين وجامعى النباتات.

فقد كانت مساحة أريحا في الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد، تصل إلـى ٤ هكتـارات، وعـدد سكانها يتـراوح بـين ألفين وثلاثـة آلاف نسـمة، وكانت ذات مساكن متراصـة من الطـين، ومحاطـة بسور حجرى عـالى (حتى ٤.٥ متر) يصل سمكه إلى (١.٧ متـر). وعثـر علـى بـرج حجرى قطره (٩ متـر) وارتفاعـه (٩ متـر أيضـا). وكانـت البلـدة محاطـة، عـلاوة على السور بخندق عرضه (٨ متر) وعمقه (٢ متر).

إن اكتشــاف مســتوطنة محصــنة، وجــدت علــى تخـوم العصــرين الحجريين الأوسط، والحديث، (الحضارة الطاحونة ذات الصلة بالناطوفية التــي مازالــت تعـرف علــى نطـاق ضـيق حتــى الآن) كـان، كمـا يكتـب " دياكونف " مفاجأة كبيرة لعلماء الآثار: كان يفتـرض حتـى ذلك الحين أن الإشتباكات بين القبائل البدائية لم تكن أكثر من عراك علـى أرض الصـيد أو النساء... ولكن ظروف الحياة في فلسطين فـي الألفين الثـامن والسـابع قبل الميلاد، كانـت كمـا يبـدو قلقـة.. بحيث اضطـر السكان إلـى أن ينفقـوا الكثير جداً من الوقت على بناء التحصينات القوية أيضاً.

هذا كله دفع " كينون " إلى استنتاج وجود نظام قوي ودخول التطـور الاجتماعى مرحلة العمران.

لقد كان بناء المساكن في أريحـا الأولـى ممتـازاً، والغـرف واسـعة نحـو (٦.٥ × ٤ أمتار أو ٧ × ٣ أمتار) وكانت الغـرف، عادة مستطيلة الشكل، كمـا كانـت تبنـى حـول سـاحة سـماوية، أبعادهـا نحـو سـبعة أمتـار طـولاً

وعرضاً وكانت أرضية البيت من طبقة طينية، تعلوها طبقة من الجير الناعم، مصبوغ باللون الأحمر أو الأصفر خفيف الصفرة، ثم كان الناتج قاسياً، يمسح وينظف بالماء، فلا يتشقق أو يتقشر، وكانت المساكن ذات طبقة واحدة، ولم يعرف من الآثار مبلغ ارتفاعها، ولكن يظهر بعضها كان طبقتين، وكانت السقف تصنع من القصب والطين. وخلاصة القول، بلغه " كينون " مكتشفه أريحا الأولى، أن البيوت فيها كانت حسنة ومتينة، وذات تخطيط جيد، بل أن هناك دلائل تشير إلى درجة من الدعة والترف، فقد فرشت أرضيات بعض البيوت بالحصير، وهذا أمر يدعو إلى العجب بالنسبة لقدم الزمن.

ربما في الوقت نفسه ظهرت فيه صناعة النسيج في أريحا، حيث عثر بها على أحجار مثقوبة يمكن استخدامها " كمكوك ".

وقد استخدم أهل أريحا، والأواني، والأطباق، المصنوعة من الأحجار، والمأخوذة من صخور محلية ناعمة، يمكنها أن تعطى وجهاً مصقولاً جميلاً للأواني. ومن المحتمل جداً أنه وجدت لديهم بعض الأواني المصنوعة من الجلود والأخشاب. أما بالنسبة لآلاتهم، فقد استعملوا الصوان أساساً في صناعتها، إلى جانب الزجاج الطبيعى الذي استخدم أحياناً. ويعتبر العدد الكبير من المقاشط والمناجل المسننة الأطراف بدقة، والرحى التي عثر عليها هنا دليلاً على أهمية الزراعة. ومما هو جدير بالذكر أنه لم يعثر على عصا معقوفة، وإن وجد في نفس الوقت عدد من الحجارة المثقوبة التي توحى بأن عصياً ثبتت بها، واستخدمت في الحفر بدلاً من العصا المعقوفة. وربما كانت الواحة -

أريحا - مركزاً لحدائق وبساتين تروى، ولكن، حتى الآن، ليس لدينا أى دليل على زراعة الخضروات، والفاكهة، في هذا التاريخ المبكر. وقد اكتشفت قليل من عظام الحيوانات المستأنسة، كما وجد إلى جوار المعبد، عدد من الأشكال النذرية، من الطين، تمثل حيوانات داجنة، كالبقر، والماعز والخنازير.

وقد برهن " دوكو " أن سكان موقع الخيام غربى البحر الميت، أول من دجنوا الحيوانات في الشرق الأدنى.

باكتشاف الزراعة، ازدادت حاجة الإنسان إلى الأوانى من الطين، وخبزها، فقام باكتشاف بالغ الأهمية في مجال تقدمه الحضارى، وسرعان ما حلت الأوانى الخزفية محل الأوانى من اليقطين، أو الجلد، أو قطع الحجارة، أو الخشب المجوفة، التي كانت تخدم حاجته الاقتصادية حتى ذلك الوقت، ولو بصورة غير تامة، وكان مؤدى الاختراع الجديد، أن الإنسان صار بإمكانه العيش على مسافة من مورد المياه التي يحتاج إليها، وأن يطبخ طعامه طبخاً حقيقياً بدلاً من أن يأكله نيئاً أو مشوياً، وأهم من ذلك أنه صار بإمكانه خزن ما لا يمكن استهلاكه في وقت معين ليستخدمه في المستقبل، وهكذا أضاف الإنسان إلى سيطرته على مورد الطعام سيطرته على حفظه، وبعد أن كان جامع للطعام في مرحلة البداوة، منتجاً للطعام في مرحلة الزراعة، أصبح الآن فوق هذا كله، حافظاً للطعام، وقد أعطاه ذلك وقتاً للفراغ بدلاً من البحث المتواصل عن وسائل المعيشة. ويظهر الخزف في فلسطين في إحدى الطبقات الدنيا في أريحا، ويعتقد " غارستانغ " أنه اخترع هناك، وقد اتخذ الخزف، في أول

الأمر، شكل أحواض مجوفة في الأرض، ثم أشكال جرار وغيرها...

من الواضح أن زراعة النبات الصالح للطعام، وتربية الحيوانات من أجل لحومها، أو الجمع بين الاثنين في الزراعة المختلطة يمثل فعلاً خطوة ثورية في الاقتصاد الإنسانى، إذا سمح بالازدياد في عدد السكان، وجعل من الممكن، بل من الضرورى، إنتاج فائض اجتماعى، ووضع خدمات بيولوجية. وعندما مارس الإنسان الزراعة وتربية الحيوانات، كان لأول مرة يسيطر على الطاقة، ويستخدمها بالإضافة إلى ما يمده به جسمه. وبذلك نشأت التجارة. فقد كانت هناك علاقة تجارية بين فلسطين، وبلاد الأناضول، حيث تم العثور على عدد من الأدوات المصنوعة من " الأوبسيديان " التي كانت تصدره بلاد الأناضول إلى أريحا وغيرها، ومقابل هذا، فإن أريحا ربما صدرت المواد الخام مثل القار، والملح من البحر الميت.

أما آثار تلك المرحلة، فقد أكتشف تمثال نسائى من الحجر الكسلى تم تحديد جنسه اعتماداً على مؤخرته فقط، التي نحتت بشكل بارز، ولكن دون إظهار التفاصيل. كما أنه لم يشر إلى بقية أجزاء الجسم الذي ظهر شكله الجانبى ملتوياً ما جعل المؤخرة بارزة، كما أن أظهار الجنس النسائى هو شيء جديد، ولكن الطابع الناطوفى بقى واضحاً من خلال الواقعية الخفية وغياب المبالغة.

اكتشفت السيدة " كينون " تمثالان نسائيان إحداهما تحمل ملامح غامضة، ورأسها مكسور، ووصفت كالتالى: ترتدى ثوباً طويلاً فضفاضاً، ضيقاً في خصره، أذرعها مثنية، والأيدى تحت الصدر وتلاحظ " كينون "

أن هذه الوضعية تمثل الشكل الاصطلاحى " للربة الأم "، الذي وجد في العديد من حضارات الشرق الأدنى من العصر اللاحق، أى بعد هذا العصر بآلاف السنين.

وتتميز التماثيل النسائية بكونها مؤلفة من مجموعات ثلاثية، كل مجموعة منها تتكون من رجل وامرأة وطفل. هذا بالإضافة إلى تماثيل أخرى تصور عضو التذكير كمظهر للخصوبة والإنتاج، والتي عمل الإنسان القديم على تقديس صفتها منذ العصر الحجرى الحديث. وهذه التماثيل الثلاثية فريدة من نوعها في ذلك العصر المبكر. ويذكر " ميرسيا إلياد "، أن هذه التماثيل، كان لها معنى طقسى، كما أنها بأن نظام العائلة كان قد اتخذ في الألف السادس الشكل الذي اتخذه فيما بعد...

من ناحية أخرى، توصل إنسان تلك المرحلة، إلى بعض الخصائص المميزة، والفريدة من نوعها في الشرق الأدنى القديم، ففيما يتعلق بعقيدة استمرار الحياة في العالم الآخر، يلاحظ المؤرخ ظاهرة فصل رأس المتوفى عن جسده، ووضع كسوة جصية فوق رأس المتوفى، حتى تظل صورته مناظرة لما كان أثناء حياته. وقد عثر على بعض أمثلة لتلك الظاهرة، كما وجدت بعض الخطوط ذات اللون فوق رأس المتوفى المكسوة بالجص ربما تكون كرداء للرأس. وتتجه " كول " (Cole) إلى اعتبار فصل رأس المتوفى عن الجسد، ودفنها بصورة مستقلة ربما يتصل بعقيدة عبادة الجمجمة. ومما يسترعى الانتباه وجود وجه شبة بين ذلك التقليد من حيث كسوة رأس المتوفى بالجص وما لا يزال متبعاً جزئياً حتى الوقت الحاضر في ميلانيزيا.

يلاحظ أن إنسان فلسطين، في تلك المرحلة، قد دفن موتاه أيضاً تحت أرضية المساكن، ويعتبر ذلك مرحلة من مراحل التطور بالنسبة إلى تخصيص مكان معين كمنزل للمتوفى في العالم الآخر قريباً للغاية من منزل الدنيوى، وسرعان ما يتطور ذلك نحو تخصيص منزل مستقل خارج مدينة الاحياء خصيصا لذلك الغرض.

انطلاقاً من كل هذا، وتخريجاً عليه، يكون قد ظهر في أريحا (أول مجتمع قروى)، فقد كانت أريحا خلال العصر الحجرى الحديث قبل الفخارى مسورة وبها معابد، وهى أول موقع في العالم يتمتع بهذين المرفقين العاميين، ولذلك يحق وصف أريحا بأنها أقدم مدينة في العالم، وأن سكانها أول مجتمع متمدن، ذلك أن وجود السور يشير إلى وجود سلطة سياسية وعسكرية، كما أن وجود المعبد يدل على وجود ديانة منظمة ذات كهنوت وطقوس.

على ذلك، فإن كل الشواهد تشير إلى أن أرض فلسطين هي البقعة التي تحول فيها الإنسان من جمع الطعام إلى إنتاجه ثم تخزينه. ومن اليسير أن ندلل على أن الفلسطينيين هم أول من اتخذوا هذه الخطوة الثورية، وبذلك أرسوا دعائم المدنية، وليس هذا فحسب، بل أنه لا يقل عن ذلك احتمالاً أنهم ابتكروا الكثير من الفنون والحرف الأساسية، وعلى الأقل كانوا أول شعب عرفناه مارس تلك الفنون والحرف.

لقد فعل الفلسطينيون أكثر بكثير من مجرد ابتكار الزراعة، وابتداع الديانات، وفنون الحكم، فلم يقتصر عملهم على التفنن في الصناعات الخشبية، والحجرية، وفن البناء، بل امتد إلى معرفة الأصول الحسابية،

والإلمام وأصول الجغرافية، واشتراع القوانين التي كانت تنظم الملكية، والعلاقات التجارية، والروابط الاجتماعية.

يسوقنا هذا إلى نقطة بالغة الأهمية، في نظرية ارتقاء الحضارة، وانتشارها، فقد اتضح أن مجتمعاً واحداً من المجتمعات القديمة لم تبلغ ما بلغته فلسطين في تملكها ناحية الحضارة. أفلا يكفى هذا دليلاً يلقى ضوءاً على موضوع المكان الذي نشأت فيه الحضارة.

من النادر أن يأخذ مجتمع من المجتمعات العديد من عناصر الحضارة عن مجتمع آخر، ثم لا يستطيع أن يبارى أستاذه أو يسبقه في ذلك الميدان. فإذا جاءت فلسطين وظلت من عصر إلى عصر فارس الحلبة في حضارتها، ولم يرتفع إلى مستواها أحد، أفلا يكون هذا التفوق شاهداً على أن الفلسطينيين هم أصحاب الابتكار؟ ألا يبين هذا أن الفلسطينيين، لابد، وأن يكونوا مبتدعى العديد من عناصر الحضارة التي نبغوا فيها، وملكوا زمامها؟ إذا كان الأمر غير ذلك، فإن حالة فلسطين تكون حالة شذت شذوذاً عجيباً عن قاعدة يسير عليها العالم في كل العصور. والتفسير الطبيعى لهذا، هو أن الفلسطينيين كانوا أول من ابتكر العديد من عناصر الحضارة في وقت كانت المجتمعات الأخرى مفتقرة إلى الكثير منها.

تليلات الغسول:

تليلات الغسول موقع أثرى مساحته ٢٠ هكتاراً، يتألف من مجموعة من التلال الصغيرة، الواقعة إلى الشمال الشرقى، من البحر الميت بنحو ٥ كم.

أكتشف الموقع عام ١٩٢٨، ثم أجريت فيه تنقيبات بين أعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٨، أشرف عليها المعهد البابوى التوراتى برومة، وشارك فيها كل من مالون (A. Mallon) وكوبيل (R. Koeppel) ونوفيل (R. Neuville) واستكمل الأب نورث (R. North) هذه الأعمال عام ١٩٦٠، ثم تابع بين أعوام ١٩٦٧ - ١٩٧٨ م، الباحث هنسى (B. Hennessey) التنقيب فيه بإسم المدرسة البريطانية للآثار في القدس، وجامعة سيدنى في أسترالية.

استأنفت جامعة سيدنى التنقيبات، في الموقع، من ١٩٩٦، بإدارة بورك (Bourke)، ولا زالت هذه التنقيبات مستمرة حتى تاريخه، وهى تهدف إلى الحصول على المزيد من المعلومات عن هذا الموقع المتميز، وربطها بالتنقيبات التي جرت فيه سابقاً.

أظهرت التنقيبات أن موقع تليلات الغسول قد سكن على امتداد المراحل الباكرة والوسطى والأخيرة للعصر الحجرى - النحاسى (الكالكوليت) بين ٤٦٠٠ و ٣٦٠٠ ق. م تقريباً، وكشف فيه عن بقايا معمارية مهمة بينها بيوت دائرية صغيرة، على شكل حفر في السويات الأقدم، ثم ظهرت في السويات الأحدث بيوت كبيرة مستطيلة، راوحت أبعادها بين ١٥×٥ متر، بُنيت من اللبن فوق أساسات حجرية عميقة، أرضها من الطين المرصوص، وسقوفها من الطين والقصب. ترتفع على أعمدة، وتحيط بهذه البيوت مساحات مكشوفة عثر فيها على دلائل مختلف فعاليات الطبخ والمواقد والتنانير ومخازن بعدة غرف ومشاغل مختلفة. وهناك بيوت صغيرة على شكل حفر دائرية قطرها بين ١ - ٢

متر مبنية من الأحجار، يعتقد أنها خصصت لعمليات دباغة الجلود. كما وجد نمط آخر من المنازل المستطيلة ذات الجدار الواحد المنحنى، وهو الجدار الأقصر للمنزل. كما كشف عن المعابد التي مورست فيها شعائر دينية مختلفة، أحدها مستطيل الشكل مدخله من جداره الطويل الذي يفتح على باحة فيها مصطبة، يقوم عليها بناء المعبد الرئيسى، ولقد حمل جدار أحد المعابد رسومات جميلة من أشكال هندسية ونجوم وأقنعة وأشكال بشرية وحيوانية محفورة ذات ألوان متناسقة، دلت كلها على القدرة العالية لفنانى ذلك العصر، الذين نحتوا من الأحجار المختلفة أشكالاً بشرية محورة أيضاً، وقد نحتوا دمى حيوانية تمثل الثور خاصة.

ومن المكتشفات المهمة، الأدوات الحجرية المنوعة، كالرحى، والأجران، للطحن، والجرش، والنصال، والمناجل، والمكاشط ذات الشكل المروحى، والأدوات المسننة، والأدوات العظمية، وأدوات صناعة الأخشاب، ومختلف أنواع الخرز، ورؤوس الهراوات، والثقالات، وحجارة المغازل، والطبعات الطينية، التي تدل على صناعة السلال والمنسوجات، إضافة إلى أحجار دائرية الأشكال يعتقد أنها استخدمت لوضع الأصوات المصبوغة عليها، كما وجد القليل من الأوانى النحاسية كالبلطات والفؤوس.

تعد الأوانى الفخارية، من أهم مكتشفات هذا الموقع، وكانت عادية وبسيطة في السويات الأقدم، ثم صارت أفضل إتقاناً في السويات الأحدث، وغدت ملونة ومزخرفة بخطوط وأشكال هندسية متنوعة، بينها أوانى تخزين ضخمة مزخرفة بالحز وآثار الحبال أو الطبع بالأصابع.

وهناك أواني فخارية لها رقاب عالية، وأخرى على شكل مضخة، استخدمت لاستخراج الزبدة من الحليب. كما وجدت مزهريات حجرية على شكل صحن عميق يرتكز على قاعدة تتخللها مجموعة من الفتحات، يظن أنها استخدمت كمباخر، إضافة إلى الأقماع، والصحون، والأكواب، وغيرها. لقد عثر في الموقع على بقايا نباتية وحيوانية، تدل على أن سكان الموقع قد عاشوا من الزراعة، ولا سيما القمح والشعير والبقول بأنواعها، إضافة إلى ثمار التمر والزيتون، كما دجنوا الغنم والماعز والبقر والخنازير والحمير.

يمثل موقع تليلات الغسول، إضافة إلى موقع بير السبع في النقب، حضارة متميزة ظهرت في نهاية عصور ما قبل التاريخ سميت بـ " الحضارة الغسولية " (Ghassoulien)، عرفت بعادات دفن خاصة، إذ وضعت الجثث (الأطفال خاصة) داخل جرار فخارية أو بشكل قرفصائي داخل حفرة في إحدى زوايا المنزل. انتشرت هذه الحضارة من منطقة العمق في سورية شمالاً مروراً بلبنان، موقع جبيل، حتى فلسطين في جنوبى بلاد الشام.

مراجع الفصل الثاني

١- غولايف، **المدن الأولى**، ترجمة: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩.

٢- جوردون، دون تشايلد، **تقدم الإنسانية**، ترجمة: د. محمد السيد غلاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٣- جاك كوفان، **ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام**، ترجمة: د. سلطان محيسن، ط١، مطبعة الشام، ١٩٨٨.

٤- د. رشيد الناضروي، **جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا**، الكتاب الأول، والكتاب الثالث، دار مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٨.

٥- كارلتون إس. كون وادوارد أ. هنت الابن، **السلالات البشرية الحالية**، ترجمة: د. محمد السيد غلاب، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٥.

٦- هندى فرانكفورت، **فجر الحضارة**، ترجمة، ميخائيل خوري، منشورات، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ.

٧- د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، ١٩٥٨.

٨- جـ. هاوكس ول. وولي، **أضواء على العصر الحجري الحديث**، ترجمة: د. يسري عبد الرزاق الجوهري، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

* * *

الفصل الثالث

كنعان والكنعانيون

الفصل الثالث:

كنعان والكنعانيون

أسمهان شريح

" يسود في دراسة الآثار الفلسطينية منهجان، أحدهما، منهج دراسة الآثار توراتيًا وبموجبه توظف الأحداث التاريخية والدلالات الأثرية كثقافات الشرق الأدني لخدمة حادثة دينية، والمنهج الآخر هو دراسة الآثار تاريخيًا، وفيه تؤخذ الأحداث التاريخية والدلالات الأثرية كما هي، أي أنها تعبر عن حضارة إنسانية ".

د. " بالو أماتييه "

" وأكثر شيء نبحث عنه هو أساس التاريخ، والحقيقة التأريخية، وفي استطاعتي أن أجادل في التوراة أناسًا كثيرين يريدون أن يزوروا التاريخ ويغيروه ".

د. "س. و. هلمز"

" إن على كل من يلج بوابة كنعان، أن يتسلح بالعلم والصبر، وأن يخوض معركة فك ارتباط جدّ قاسية، من أجل تحرير، هذا التاريخ العربي من كل ما ألصق به عمدًا وجهلاً، من كل المخلوقات الطفيلية، ثم ترك مرميًا خلف البوابات المهجورة الرطبة ".

د. " أحمد داوود "

أدى الاهتمام المتزايد بالقضية الفلسطينية، إلى نشوء وعي حولها، وخاصّة في أوروبا وأميركا، نتج عنه، في العقود الأخيرة من القرن الماضي، ظهور اتجاهات جديدة في كتابة تاريخ فلسطين؛ والمقصود بفلسطين: هي تلك المنطقة الجغرافية بحسب التحديد الناجم عن اتفاقية سايكس - بيكو المعروفة، بين بريطانيا وفرنسا، ومن الأهمية بمكان التأكيد على أنه لا يمكن الحديث عن تاريخ منفصل لفلسطين بمعزل عن جوارها الطبيعي، حيث لم تكن فلسطين يومًا محدّدة كما هي اليوم.

ترمي هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على تاريخ كنعان والكنعانيين، الأرض والشعب، من خلال عرض موجز للكتابات الكلاسيكية حول هذا الموضوع، ومن ثم تقديم الجديد، سواء أكان هذا الجديد من خلال المنهجية، أي الاتجاهات الجديد في كتابة تاريخ المنطقة، أم الجديد الناجم عن النظريات التاريخية الجديدة، وتوسيع الاكتشافات الآثارية، والدراسات الأركيولوجية.

ولأغراض هذا البحث، سيتم تقسيمه إلى مقدمة تعرض بإيجاز هذه النظريات والاتجاهات، وثلاثة أقسام يتناول الأول الكنعانيين كشعب، أو سكان المنطقة المعروفة بـ " كنعان ". وبتناول القسم الثاني كأرض، أو جغرافيا، ثم الحضارة الكنعانية، وأخيرًا سوف نعرض لما توصلنا إليه من استنتاجات.

مقدمة:

إن الحركة الصهيونية باستخدامها الجماعات اليهودية في العالم،

كمادة لمشروعها الاستعماري، من جهة، وبتحالفها مع القوي الاستعمارية الغربية من جهة أخري، أقحمت في الصراع مع سكان المنطقة بعداً تاريخياً أسطوريًا، وحضاريا، بدأت تتكشف تأثيراته، وتأخذ مناحي مختلفة، أدت إلي زيادة الوعي والاهتمام، وبالتالي تعميق البحث حول هذا الصراع وجذروه التاريخية.

وكانت النتيجة ظهور اتجاهات جديدة في كتابة وقراءة تاريخ فلسطين والمنطقة التي اقتطعت منها، ما أدى الي كشف بعض الباحثين الموضوعين الهدف السياسي الكامن خلف الكثير من التلفيق والمغالطات التاريخية المتعلقة بفلسطين، وفي كتابة الشهير " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية يقول روجيه غارودي " إن التبرير اللاهوتي المزعوم للعدوانات المتكررة، بالاعتماد على قراءة أصولية للنصوص الموحي بها، يحول الأسطورة إلي تاريخ [١].

ويري كيث وإيتلام أن " تاريخ فلسطين قد تم تجاهلة وطمسه من قبل الدراسات الكتابية لأن موضوع اهتمامه هو إسرائيل، كما تم تصورها وتقديمها بوصفها الجذر الأساسي للحضارة الغربية [٢]، والمقصود بالدراسات الكتابي دراسات الكتاب المقدس لدي الغرب المسيحي، الذي يتكون من التوراة والإنجيل معاً، وهي الدراسات التي تتعاطي مع تاريخ فلسطين القديم وجوارها من منظور عنصري متماه مع منظور التوراة، ولذلك فإن وايتلام يحاول في كتابة تلفيق تاريخ إسرائيل طمس التاريخ الفسطيني، كما يقول توضيح فكرة مفادها أن التاريخ الفلسطيني القديم موضوع مستقل بحق، ولا بد من تحريره من قبضة الدراسات الكتابية،

وبعد أن يقر وايتلام بصعوبة هكذا عمل، فإنه يقرر إن تكوين المفاهيم عن الماضي وتقديمها عمليتان محفوفتان بالمصاعب، ليس بسبب غموض المعطيات وندرتها فقط، بل بسبب أن بنية التاريخ ذلته المكتوب منه أو الشفوي في الماضي أو الحاضر هي بنية سياسية [٣]وبذلك يقر وايتلام بأن " تاريخ فلسطين " قد تعرض للطمس والتلفيق، وهو الأمر الذي كرس له د. أحمد داوود عددًا في كتبه، في محاولة منه لكشف بعض معالم هذا التلفيق والتزوير.

هذا فيما يتعلق بالمنهجية الجديدة في كتابة، وقراءة " تاريخ فلسطين " القديم، أما عن النظريات الجديدة، فتجدر الإشارة إلي نظرية د كمال الصليبي المتضمنه كتابة " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، والتي اعتبرها البعض فتحًا علمياً جديداً، في حين تعرضت النظرية نفسها للمعارضة والحرب الإعلامية من جهات متعددة من الشرق والغرب.

لعل من أهم المفاهيم المتداولة، والتي تشكل سمة مميزة لفلسطين في العصر القديم، مفهومي الكنعانيين، كسكان سكنوا فلسطين منذ القديم، وكنعان، كمكان، أو نطاق جغرافي عاش ضمنه الكنعانيون.

الكنعانيون:

حسب التاريخ الكلاسيكي، فإنه منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أخذت جموع سامية تنتقل الي المنطقة المعروفة بسوريا ولبنان وفلسطين، من شبه الجزيرة العربية، ويمكن اقتفاء آثار ذلك عند الكنعانيين، الذين سكنوا فلسطين، والفنيقيين، الذين استقروا في لبنان وبعض الساحل السوري، والعمورين الذين استأثروا بسورية الداخلية.

استناداً إلي ذلك، يقول المؤرخ الفلسطيني عارف العارف: إن الكنعانيين هم إحدي القبائل العربية، التي خرجت إلي بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وقد سميت فلسطين بأرض كنعان نسبة إليهم، وقد استوطنوا معظم انحاء فلسطين، وبنوا فيها مدناً محصنة، منها القدس، وشكيم، وبيت شأن، ومجدوا، واشكلون، وغزة، وغيرها، وكانوا يجيدون الزراعة وصناعة الفخار والنسيج، وصناعة البناء، وقد عرفوا المعادن والتعدين، وشرعوا القوانين، كما عرفوا حروف الهجاء، والكتابة والتأليف، وكانوا يعبدون الأصنام، ومن آلهتهم المعروفة " بعل " إله الشمس [٤].

الجدير بالملاحظة، في هذا السرد التاريخي، أنه يوحي، وكأن هذه المنطقة كانت خيالية من السكان، رغم اتفاق العلماء، على ان الإنسان الذي عاش في بداية العصر الحجري القديم الأول، حوالي ١.٥٠٠.٠٠٠ سنة منذ الوقت الحاضر، هو مايسمي بالإنسان منتصب القامة، ودلت المخلفات الأثرية على أن هذا الإنسان قد عاش في غروبي وشرقي نهر الأردن.

مما جاء في الموسوعة الفلسطينية بخصوص الكنعانيين: أما الكنعانيين، فيختلف العلماء في أصلهم، فمنهم من قال إنهم الأقوام الذين تسللوا بين العموريين، في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، ويدعوهم كلود شيفر وكائلين كينون " حملة الأطواق "، منهم من قال إنهم الأقوام العمورية، التي استوطنت في الأراضي المنخفضة من فينيقية وفلسطين، ويقوي الأخذ بالرأي الثاني، الدلائل التي تشير الي أن " حملة الأطواق "،

كانوا في الغالب أقواماً حورية لا سامية، وأنهم جاءوا من الشمال لا من الشرق أو الجنوب مهبط الأقوام السامية.

والكنعانيون، تضيف الموسوعة، كانوا دون أدني شك من اصل سامي والمعلوم أن العموريين، الذين جاءوا من الصحراء، شنوا في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد حملت كثيرة على المدن الفينيقية والفلسطينية، التي ازدهرت في القرن الثالث قبل الميلاد، وتدعي حضارتها حضارة العصر البرونزي القديم، وقد دمروها شر تدمير، وفتكوا بأهلها، وافنوهم عن بكرة أبيهم، ونشروا الفوضي والخراب في المنطقة لمدة أربعة قرون، وعندما قامت الأسرة الثانية عشرة في مصر في القرن العشرين قبل الميلاد، أعيد النظام الي نصابة، وتأسست مدن جديدة على أنقاض المدن، التي دمرها العموريون، وتدل أسماء بعض المدن على أن اللغة كانت لغة، أو لهجة عمورية، واستوطن بعض العمورين في المنطقة الجبلية، وبقوا على اسمهم، واستوطن البعض الأخر في الأرض المنخفضة فلسطين، وسموا كنعانين، وكلمة كنعان مشتقة من كلمة كنع ومعناها باللغة الفينيقية، أو الكنعانية انخفض، ويشمل عهد الكنعانيين العصرين الأثريين البرونزي المتوسط، والبرونزي المتأخر [٥].

أما المقارنة في هذا الطرح، القائل بأن القبائل القادمة من شبه الجزيرة العربية هي أول من استوطن فلسطين والمنطقة المحيطة بها، فتكمن في اتفاقها مع الطرح الصهيوني، القائل أن سكان فلسطين الأصليين (الفلسطينيين)، جاؤوا من الجزيرة العربية، وعليهم العودة من

حيث أتوا، في تبرير لسياسة الترحيل والتطهير العرقي، التي ينتهجها غزاة فلسطين الجدد من اليهود في فلسطين، كي تكون دولة يهودية خالصة.

وجاء في كتاب د فيليب حتي، " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين "، أن الكنعانيين الذين سماهم اليونان بالفينيقين فيما بعد، هم ثاني جماعة سامية لعبت دوراً هماً في تاريخ سوريا بعد الأموريين.

الكنعانيون والأموريون يتنسبون إلي موجة الهجرة نفسها، وبذلك فإن الإختلاف العرقي معدوم بينهم، وكان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل، ولذلك كانوا متجهين إلي مصر (حضارياً).

يري د. حتي، أن السبب في أن اليونانيين أطلقوا على الكنعانيين اسم الفينيقين، لأن الكنعانيين، كغيرهم من الشعوب القديمة، كانوا يتألفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبلية، والمحلية أكثر مما تشعر بوحدتها القومية، وكان عليها أن تنتظر أجنبيا ليعطيها أسما عاماً [٦].

وبذلك فإن د حتي، فضلا عن العنوان الملتبس الذي أختاره لكتابه " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين "، حيث يقر التقسيم الحالي، الذي لم يكون موجودًا قبل اتفاقية سايسكس - بيكو، يتفق في رايه هذا عن الكنعانيين، مع رأي المستشرق مارتن نوت القائل بأنه " كظاهرة طبيعية، البلاد (أرض إسرائيل، أو فلسطين)، لم تكن أبدا كياناً متجنساً مستقلا، كما أنها لم تسكن من قبل أناس متجانسين.. ولذلك فإن تعبير أرض إسرائيل يمكن أن يصلح إلي حد ما كتوصيف مرن للمنطقة [٧].

يري كيث وايتلام مؤلف كتابة " تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، أن تورط الخطاب الكتابي الحديث في الصراع، وادعاءات الدولة الحديثة (إسرائيل) بأن المنطقة هي " الوطن الطبيعي " انعكس في تصور الماضي، الذي تحل فيه إسرائيل محل فلسطين، وينسخ التاريخ الإسرائيلي مرحلتي ما قبل التاريخ، والتاريخ الكنعاني، فليس ثمة فلسطينيون قدماء، بل هناك سكان ماقبل التاريخ، أو كنعانيون فقط، وبالتالي فليس شئ اسمة (التاريخ الفلسطيني) [٨].

أما د. كمال الصليبي، فإنه يؤكد أن الكنعانيين، الذين وصلوا فلسطين قبل الفلسطينيين، واليهود، أعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعن)، على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين.

ويري سابتينو موسكاتي، أن تسمية كنعان، والكنعانيين إنما جاءت من التوراة، فيقول في كتابه الحضارات السامية القديمة: تسمي التوراة المنطقة المكونة من فلسطين وفينيقيا، كنعان، وتسمي سكانها الكنعانيين، ومن ثم تعارف العلماء على إطلاق اسم الكنعانيين على أسلاف إسرائيل، وجيرانهم السامين الذين استوطنوا الظهير السوري [٩].

لذلك، فإن موسكاتي، يري أنه من المستحسن " أن يعالج في المستقبل تاريخ سوريا وفلسطين، أو سوريا بمعناها الواسع، وهو اصطلاح موفق أخذ به الجغرافيون، على أنه موضوع واحد دون أية حدود صناعية.. وهنا لا حاجة به إلي اصطلاحات كلفظ الكنعانيين [١٠].

استنادًا إلي ما سبق، وعلي ضوء أطروحة د. كمال الصليبي القائلة بأن " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، وأن موطن بني إسرائيل هو الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، ويري د. أحمد داوود أن المكتشفات الآثارية من أقصي شمال سوريا الطبيعية إلي أقصي جنوبها، لم تشر إلي أي وجود كنعاني فيها، ولم تأت على أي ذكر لكنعان، وأما ما يزعم البعض من أن الكلمة وردت في الأسطر القليلة المكتشفة على ما دعي بتمثال إدريمي في الألاخ، فهذا زعم باطل، إذا أن الكلمة هي " قيناني "، وتعني مقتنياتي، ملكي، وليست " كنعان ".

ويضيف د. داود: إن المستشرقين الاستعماريين، هم الذين نقلوا الأحداث التوراتية العشائرية، من جغرافيتها الضيقة، في عسير من شبه جزيرة العرب، وحولوها إلى دول، وشعوب، وإمبراطوريات تغطي سوريا الطبيعية كلها، وبقيت تسمية " الكنعانيين " مصطلحًا توراتيًا، لا علاقة له من قريب أو بعيد بكل المكتشفات الآثارية فيها [١١].

كما يعتبر د. دواود " السامية " بدعة يهودية حديثة، وأن الساميين فرع من فروع العروبة. وهو يوضح وجهة نظره بهذا الصدد على الشكل التالي: " إن سام هو ابن نوح، ولم يبتدع لغة، ولم يتكلم لغة غير لغة أبيه، وأمه العربية، ولم يخرج خارج بني قومه العرب، الذين يملأون الساحة العربية منذ آلاف السنين قبله، وما ينطبق عليه ينطبق على أبنائه من بعده؛ فآرام بن سام لم يبتدع لغة، ولم يتكلم لغة غير لغته العربية لغة آبائه وأجداده. وتؤكد جميع مصادر التاريخ العربي أن أبناء آرام جميعًا كانوا من العرب العاربة، أي الشديدي العروبة وأنقيائها. وقد بيدوا جميعًا

ما عدا بقية منهم كانت منها عشيرة إبراهيم وذريته من بعده، وهم جميعًا في شبه جزيرة العرب وأنقيائها. وقد بيدوا جميعًا ما عدا بقية منهم كانت منها عشيرة إبراهيم وذريته من بعده، وهم جميعًا في شبه جزيرة العرب، كما أن سام هو أخو يافث وحام، فكيف يصح أن يقتطع " سام " من بيت أبيه ومن بين إخوته عرقيًا ولغويًا؟

أما عبارة السامية، فقد ولدت للمرة الأولي على يد اللاهوتي اليهودي النمساوي شلوتزر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في محاولة صريحة لإضفاء نوع القدسية على مادعاه أنذاك بلغة الكتاب المقدس، مفترضا أن ثمة ما يدعي بـ " اللغة العبرية " نزل بها كتاب التوراة، وذلك بعد ما لمس حماسة كثير من العلماء، والباحثين اللغويين، إلي دراسة اللغات الشرقية القديمة، ثم ما لبث أن عبر عن نظريته بالفكرة المعروفة التالية: من البحر المتوسط إلي الفرات، ومن أراض الرافدين إلي بلاد العرب جنوباً، سادت لغة واحدة، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون شعبا واحدا، وكان الفينيقيون (الحاميون) أيضا يتكلمون هذه اللغة، التي أود أن أسميها اللغة السامية، وهكذا، تلقف هذه البدعة لاهوتيون يهود آخرون، أخذوا على عاتقهم كتابة تاريخ الشرق العربي، والإسلامي القديم، بصورة يبرزون فيها ما دعوه بالعبريين واليهود، ويسفهون العرب وتاريخهم [١٢].

وبناء على ذلك، فإن تسمية الكنعانيين كشعب أو جماعة بشرية، مازالت رغم كم الكتابات، والدراسات حولها، غير واضحة المعالم بعد، ولم يصار الي تعيين وتعريف واضح لها، والسبب الرئيسي الكامن وراء

هذا الإشكال، يتمثل بالعامل السياسي بالدرجة الأولي.

هذا ماكان بالنسبة للكنعانيين، فماذا عن كنعان الأرض، التي تجمع المصادر التاريخية الكلاسيكية على أنها فلسطين الحالية، من أين جاءت التسمية؟ وماذا تعني؟

كنعان الأرض:

يذكر د. فليب حتي، أن اسم بلاد كنعان، الذي كان يعتبر حتي وقت قريب سامياً، بمعني الأرض المنخفضة لاختلافها عن مرتفعات لبنان، اصبح مشكوكا في أصله السامي، ويظن أنه من اصل غير سامي، والاشتقاق الجديد Knaggi يجعله حوري الأصل، بمعني الصباغ الأرجواني، والصيغة الكادية كناخني Kinakhni وفي مسمارية رسائل تل العمارنة كيناخي Kinakhki، وبالفينقية كنع والعبرية كنعان، أي بلاد الرجوان، وبعد أن أطلق اليونان على الكنعانيين اسم فينيقين (حسب حتي)، اصبحت كلمة فينيقي مرادفة لكنعاني [١٣].

وقد أطلق أسم كنعان، أول الأمر، على ساحل وغربي فلسطين، ثم اصبح الاسم المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية، وقد تأسست مدن اريحا، وبيت شان، ومجدوا قبل عام ٣٠٠ قبل الميلاد، كذلك، فقد ظهرت في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني، مدن أخري، لها أسماء سامية معروفة، يمكن اعتباها كنعانية، مثل عكو وصور، وجبلة، وأركة، وسيميرا [١٤].

أما د. معاوية إبراهيم، فيري أن فلسطين كانت قد عرفت منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، باسم ارض كنعان، كما نصت عليها تقارير قائد عسكري عند ملك ماري، ووردت بوضوح في مسلة أدريمي ملك الالاخ (تل عطشانة)، منذ منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وتقدم الموسوعة الفلسطينية " تحديدا أكثر للمنطقة المعروفة بـ " أرض كنعان "، وما جاء فيها حول هذا الموضوع: كنعان اسم أطلق على المنطقة الساحلية، التي تقع بين مصب نهر العاصي شمالا، وحدود المملكة المصرية جنوبا قرب العريش، وتضم هذه المنطقة فلسطين، وماسمي فيما بعد فينيقية(١٥).

ويقول د حتي، أن طبيعة أراضي كنعان، وموقعها الاستراتيجي بين مراكز الدول الكبري، التي قامت في وادي النيل، ووادي الدجلة، وآسية الصغري، لم تمكن الكنعانيين، قط، من النجاح في تكوين دولة قوية موحدة، فكانوا بدلا من ذلك ينتظمون في جماعات صغيرة على راس كل منها ملك، وصل إلي المُلك، غالبا، بعد انتسابه إلى طبقة الأشراف الملاكين، وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات شرفات، وأبراج للدفاع، يمكن لسكان الريف، والمجاورين، أن يلتجئوا اليها وقت الخطر، وأن يقصدوها وقت السلم، لتكون سوقًا لهم، ومركزًا اجتماعيًا، وإضافة الي ذلك، كانت هذه المدن بمثابة مكان للدفاع الرئيسي ضد غزوات الجيران الأقوياء، أو غارات البدو الرحل.

قد انتشرت المدن الكنعانية الأولي، على طول الساحل من جبل كاشيوس حتي الكرمل في الجنوب، ولكن تعرجات الشاطئ القليلة، جعلت

عدد الموانئ الطبيعية محدوداً، كما أن جبال أمانوس، وكاشيوس في الشمال، ومرتفعات فلسطين في الجنوب، لم تشكل ترساً كافياً ضد الهجمات من الوراء، كما فعلت جبال لبنان المرتفعة، ولذلك، فإن المدن العظيمة، التي قدر لها البقاء، تجمعت وازدهرت في سفح جبال لبنان، وهي طربلس وبوترس (البترون)، وبيبلوس (جبيل)، وبيريتوس (بيروت)، وصيدا وصور، هذه المدن، بالإضافة إلي عرقة، وسيميرا، واردوس (أروادا) في الشمال.. وغيرها من المدن، كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة، التي تكفي نفسها بنفسها. وفي سوريا الجنوبية، تقع غزة وعسقلان على الساحل، ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل، مثل جازر ولاكش ومجدو وهازور وشكيم وأورشليم، وقد ذكرت هذه المدن، وكثير غيرها في تقارير تحتمس الثالث (في القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، ورسائل تل العمارنة، ويوجد وصف لها في سفري يشوع والقضاة[١٦].

وبذلك فإن الأرض التي أطلق عليها اسم بلاد كنعان، كانت تتجاوز فلسطين الحديثة، وتمتد لتضم أجزاء واسعة من لبنان وسوريا الحاليتين. وبالتالي، فإن ماذكر في التوراة حول تدمير بلاد الكنعانيين، يصبح غير صحيح.

واستناداً الي المكتشفات الأثرية، يدحض البروفيسور زئيف هيرتسوغ، المدرس في قسم آثار وحضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب، ماجاء في كتاب حتي بالقول، " التوراة تضخم قوة وحصانة المدن الكنعانية، التي تم احتلالها، ولكن الآثار كشفت النقاب عن مواقع غير

محصنة، حيث وجدت في آحيان كثيرة مباني قصر الحاكم فقط، وليس مدناً حقيقية، الحضارة المدنية في فلسطين في العهد البرونزي المتأخر، انهارت في عملية استمرت مئالت السنين، وليس بفعل الاحتلال العسكري [١٧].

بينما تتلخص رؤية د كمال الصليبي بعنوان كتابه " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، فهو يعتبر أن أحداث التوراة جرت في جزيرة العرب، وليس في فلسطين، ويعتبر د. الصليبي، أن الكنعانيين نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية، عندما تفرقت قبائلهم في الأرجاء في زمن مبكر، ليعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعن)، على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين في المنطقة التي سماها الإغريق فينيقيا (على اسم الفينيقا في عسير)، وكون فينيقيا قد سميت كنعان من قبل سكانها أنفسهم، أمر معروف من خلال قطعة نقد هلينية من بيروت تصف هذه المدينة بالفينيقية بأنها، في كنعان وبالإغريق بأنها في فينيقيا " [١٨].

واستنادا الي هذه الأطروحة، يستهل د أحمد داوود رؤيته حول موضوع الكنعانيين، بالاستشهاد بما جاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر التكوين، وذلك عندما ضاق المرعي بمواشي إبراهيم ولوط، فطلب إبراهيم، من ابن أخيه لوط، أن يختار مرعي آخر لمواشيه، يقول سفر التكوين، " وكان للوط السائر مع إبرام غنم وبقر وخيام، فلم يحتمل ضيق الأرض أن يقيما فيها معًا.. فكانت خصومة بين رعاة ماشية لوط، والكنعانيون والفرزيون حينئذ مقيمون في الأرض، فقال إبرام للوط لا تكون خصومة بيني وبينك ولا بين رعاتي ورعاتك، إنما نحن رجلان

أخوان، أليست الأرض كلها بين يديك، اعتزل عني إما إلي الشمال فأتيامن، أو إلي اليمين فأتياسر.. فاحتار لوط لنفسه مكانا إلي المشرق، واقام إبرام في أرض كنعان.. وقال الرب لإبرام بعد أن فارقه لوط: إرفع ،طرفك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوبا وشرقاً وغرباً، إن جميع الأرض التي تراها لك أعطيها لك ولنسلك إلي الأبد ".

فانتقل إبرام بخيماته حتي جاء، وأقام في بلوط ممرا. ثم يحدد له هذا المكان المرعي، في موضع آخر من سفر التكوين " من نهر مصر إلي النهر الكبير نهر الفرات " [١٩].

ويعقب د. داوود على هذا النص بالقول: في إمكان أي منا، أن يتصور، كيف يمكن لإبرام الواقف أمام باب خيمته تحت بلوطات ممر، أن يري من الفرات الي النيل، كما صارت في التزير الصهيوني، والحقيقة أن مرعي إبراهيم كان في سفوح جبل من بلاد غامد، حيث يظل يمينًا أو غربًا على قرية المصريين، ويسارًا، أو شرقًا على وادي الثرات (الفرات) من تلك الجبال، وينحدر شرقا صوب برية العرب [٢٠].

مما جاء في كتاب " العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود " للدكتور أحمد داوود، وتحت عنوان إبراهيم في ارض كنعان ثم " شخص إبرام من مصر هو وامرأته، وكل ماله، ولوط معه إلي الجنوب إلي بيت إيل الي الموضع، الذي كان في خباؤه في أرض الكنعانيين [٢١].

لننتبه الي التوجه الجغرافي: فأية أرض كنعان هذا سواء في فلسطين، أو في سوريا عمومًا، التي هي في جنوب مصر؟ [٢٢].

بالنسبة للدكتور كمال الصليبي، فإن كنعان (كنعن): آل كنعان (أي اله كنعان) في وادي بيشة، والشعوب الكنعانية كما ورد تعدادها في سفر التكوين: ١٥ - ١٦، تحمل كلها أسماء منسوبة إلي أسماء امكنة في أجزاء مختلفة من عسير، وهي لن تعرف هنا ومدن الكنعانيين، التي أدرجت في سفر التكوين - ١٩، لتثبت حدود الأراضي الكنعانية، وما زالت باقية أيضا بأسمائها التوراتية هناك، حيث توجد قبيلة، أيضا تحمل اسم القنعان. والقول الغامض في سفر التكوين ١١٠ - ١٨، بأنه " بعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني "، قد يفسر السبب في إمكانية العثور على بعض أسماء المدن التوراتية الكنعانية في الشام، كما في شبه الجزيرة العربية [٢٣].

بعد ذلك، واستنادًا إلي ماقاله المؤرخ الشهير هيرودوتس بخصوص الكنعانيين، وموطنهم، يردي د. صليبي أنه مهما كان أصل " فينيقيا "، وهو الاسم الإغريقي القديم لساحل الشام، فإنه استمر في الوجود في موطنه الكنعاني الأصل في غرب شبة الجزيرة العربية، وهو اليوم لقرية اسمها الفينيقا في وادي بيشة، حيث توجد ايضا قرية ال كنعان [٢٤].

أما النص التوراتي، فيشير إلي أن حدود الكنعانيين تمتد، من جهة، من صيدن إلي غزة، مضيفاً أن هذا المكان الأخير يقع باتجاه " جرار " دون أن يوضح ماهو هذا الاتجاه: شمالا أم جنوباً، شرقا أم غرباً، ويصف النص ذاته حدودا أرض كنعان، من الجهة الأخري كذلك، ابتاء من صيدون، ودون أي تحديد للاتجاه [٢٥].

هكذا، فإن ثمة إشكال حقيقي بالنسبة للمنطقة، التي عرفت باسم كنعان، هل هي في سوريا (الكبري)، أم في شبه الجزيرة العربية؟ وهو

أمر يجب أن يكون حافزا للتاريخيين والآثاريين للمزيد من البحث، من أجل الوصول إلي جواب مقنع في هذا الموضوع الهام، خاصة أن التنقيبات الآثرية المحمومة في فلسطين وجوارها، لم تستطيع حتي اللحظة العثور على أي دليل يؤكد أي وجود لبني إسرائيل، أو اليهود، الذين تذكر التوراة، أنهم هاجموا مناطق الكنعانيين، واستولوا عليها.

ربما يمكن، مقارنة الإجابة على هذا السؤال، من خلال الاطلاع على " الحضارة الكنعانية ".

الحضارة:

بغض النظر عن التسمية، فإنه مما لاشك فيه أن المنطقة المقتطعة من سوريا، والتي اصطلح على تسميتها بفلسطين إبان اتفاقية سايكس - بيكوا، واجزاء من المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧، إبان اتفاقية أوسلو، إن هذه المنطقة وجوراها، قد شهدت وجود أقدم الحضارات في العالم، وهي حضارة إنسانية راقية، وعن هذه الحضارة يقول أسد الأشقر: إن المنطقة الجغرافية التي نسميها الهلال الخصيب، أو سوريا الطبيعية " تكون بيئة طبيعية واحدة، وهي بالحضارة التي تبلورت فيها، تعبر عن وحدتها الطبيعية تعبيرا عفويا صادقا، كما تعبر، ايضا، جميع الموجات العربية، والأقوام غير العربية، التي استوطنت هذه البيئة، سواء في الشرق في وادي الرافدين، أم في الغرب على شواطئ المتوسط، أم في الشمال جنوبي جبال طوروس، أم في الجنوب من البادية صعداً نحو دمشق، والتي تصادمت وتفاعلت، وأنتجت إيجابيا لأمة السورية العربية، ونبذت الشعب اليهودي المتحجر، الذي عصا جميع نواميس التفاعل والانصهار

في بيئة طبيعية واحدة (٢٦).

تمركز الكنعانيون على الشاطئ السوري، وأوغلوا في أرض الجنوب " كنعان "، ثم حولوّا بحرهم إلي جزء من القارة الحضارية، التي خلقوها، فكانت " الظاهرة الكنعانية " - كما يسمها أسد الأشقر المدبرة عن اليابسة، والمندفعة في ابعاد المتوسط، والتي لم تكن عابرة، خفيفة الأثر، كما لم يكن اندفاعها في البحر نوعاً من التلاشي والانتحار.

حسب التاريخ الكلاسيكي، فقد استقر " الكنعانيون " القدمي - سكان فلسطين الأصليين - منذ أقدم العصور في بلادهم فلسطين - كنعان -، وأرسوا دعائم حضارة متميزة، أصبحت فيما بعد أساساً ومرتكزاً لحضارات العالم المتمدن، وكانت دويلات المدن، الكنعانية الفلسطينية، تقوم على أساس سياسي، واقتصادي، واجتماعي، وثقافي، يبلور نمط الحياة الفلسطينية، ويطبعها بطابع متميز (٢٧).

وكان النظام السياسي، الكنعاني، يقوم على أساس (الدولة - المدينة)، حيث برزت عدة دويلات / " مدن كنعانية " لها نظامها، وسورها المحيط بها والآلهة، التي تميزها، كما كانت أكثر أسماء المدن " الكنعانية "، تنسب إلي الآلهة الكنعانيين.

عن الديانة الكنعانية، فإن الألواح الفخارية، التي عثر عليها أثناء عمليات التنقيب في أوغاريت، والتي تعود إلي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، قدمت معلومات هامة عن الديانة الكنعانية، التي عرفت آلهة عديدة أبرزها " إيل " كبير الآلهة، ثم شمش " اله الشمس " و " عليان "

بعل إلـه الحيـاة و " مـوت " إلـه المـوت، " ورشـف " إلـه الجنـود، و " الأصح " إله البرق، والإلهة العظيمة " عشتروت ".

كـان جـوهر العبـادات، لـدي " الكنعـانيين "، و " الفينقيـين "، عمومـاً، يعكس اهتماماتهم الزراعية، حيث أطلق على هذه الديانة عقيدة الخصب.

وعـن هـذه الحضـارة، يقـول جـان مازيـل: امتـازت القبائـل الكنعانيـة المتحضرة، بفنونها الزراعية، وقد تجعلنـا النصـوص التوراتيـة نحلق فـي الخيـال، أحيانـاً، مـن خـلال وصـفها لـبلاد كنعـان... وهكذا نشـأت سـلالة جديدة شيئا فشيئاً، واقامت في بقاع مختلفة من السـاحل مراكز حضـارية نشيطة جدا، وهي علائم حقيقية للاتحاد بين التجارة الساحلية، والاستثمار الزراعي. شعب ذو خصائص متميزة [٢٨].

مما جـاء فـي كتـاب د. فليب حتـي حـول الحضـارة الكنعانيـة: عـرف الكنعانيون " الزراعة، واستعملوا المحراث، والمنجل، كما أهتموا بالصيد البحري، ودجنوا الحيوانـات، مثل البقـار، والأغنـام، والحمير، والمـاعز، والخنزير، والكلاب، واهتموا أيضا، بالصناعة، فبرعوا بصناعة الخزف، والمعادن، حيث برهنت المكتشفات الآثاريـة عن معرفتهم بصـهر الحديد وصـناعة النحـاس، والفـولاذ، والبرونـز، كمـا عرفـوا صـياغة الـذهب والفضــة، وتفوقـوا فــي صـناعة الزجـاج، وصـناعة الأقمشـة، وصـباغة الأرجوان.

تبدأ الديانة، واللغة الكنعانيتان، بالظهور من غياب العصور السامية القديمـة، حـوالي مطلـع الألـف الثـاني قبـل الميـلاد، غيـر أن اسـلاف الـذين

سموا كنعانيين، كانوا غالبا يحتلون البلاد قبل ذلك بألف سنة أو أكثر، ويمكن استنتاج ذلمك، من أسماء الأماكن، كما أظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن، مثل أريحا، وبيت شأن، ومجدو، التي لها أسماء " كنعانية " واضحة، قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وظهر في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني مدن أخري، لها أسماء سامية معروفة، يمكن اعتبارها كنعانية مثل: عكو، وصور، وجبلة، واركة، وسيميرا [(٢٩)].

بذلك، فمما لاشك فيه أن ما اصطلح على تسميته ب الحضارة الكنعانية، مكانها في فلسطين، وليس في شبه جزيرة العرب.

مما سبق، فإن تاريخ فلسطين " وجوارها، ما زال غير واضح المعالم بعد بسبب عدة عوامل يمكن إيجازها بالنقاط التالية:

١- في القرن السابع عشر والثامن عشر، إزداد الاهتمام بتاريخ فلسطين وجوراها، حيث كتبت معظم التقارير الموجودة لدينا من قبل العام دراسي اللاهوت المتعصبين.

٢- بعد انتقاد هولندا أدريان ريلاندا لهؤلاء المتعصبين، صار بالإمكان أن نجد، كتابات أكثر موضوعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

٣- في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ تحول واضح في البحث عن الآثار الفلسطينية، واصبح العمل الأثري موجهاً من قبل جمعيات، ومؤسسات غربية أنشئت لهذه الغاية، وقد أتخذت هذه الجمعيات

التوراة منطلقا لدراستها وأعمالها الميدانية، كما تضمن بعضها اهدافها ذات طابع سياسي وعسكري.

٤- من هذه الجمعيات " صندوق استكشاف فلسطين "، وكان هدفه المعلن: البحث الدقيق، والمنظم في الآثار، والطبوغرافيا، والجيولجيا، والجغرافيا الطبيعية، والتاريخ الطبيعي، وعادات، وتقاليد الأرض المقدسة لغاية التوضيح التوراتي.

٥- ولما كانت التوراة مليئة بالأساطير والاقتباسات، فإنه لا يمكن الركون إليها كوثيقة تاريخية.

٦- إن تفسير المعلومات، والمكتشفات الآثارية من خلال التبني المسبق لما ورد في التوراة، أسفر عن وجود مغالطات وإشكاليات، وأحيانا تناقضات في الكتابات، التي أخذت تدون تاريخ المنطقة.

٧- ومع بروز القضية الفلسطينية، ازداد الاهتمام بتاريخ فلسطين، وظهرت مجموعة من العلماء والباحثين المتحررين من تأثيرات التوراة، والأفكار المسبقة، ما أسفر عن معلومات، ودراسات، اتسمت بشئ من الموضوعية والتجرد، أزدادت بمرور الوقت، رغم الممانعة، التي واجهتها من قبل الدراسات الكتابية (التي تعتمد التوراة مرجعاً).

٨- مع ظهور هؤلاء العلماء والباحثين، بدأت تتبلور اتجاهات وتيارات جديدة في كتابة " تاريخ فلسطين القديم "، وأسفرت في جزء منها، عما يمكن الاصطلاح على تسميته ثورة في هذا الاتجاه، حيث أنها تبطل، وتنفي أفكارًا وقناعات راسخة في التاريخ الكلاسيكي المعروف

لفلسطين.

هكذا كانت فلسطين جزءا وثيق الصلة بسوريا الكبري، التي شهدت أول حضارة على هذا الكوكب، ولا يمكن بأية حال كتابة تاريخ مفصل لها، كما أن ماوصلنا من هذا التاريخ، كتب من قبل الغرب وبدوافع سياسية، خدمت الأهداف الاستعمارية، ما يتطلب إعادة النظر في هذا التاريخ، وإعادة كتابته بطريقة موضوعية تخدم طموحتنا كشعب يتوق إلي التحرر، خاصة مع ما يبدو أنه عودة لعصر الاستعمار، والذي تقوده أمريكا هذه المرة.

* * *

مراجع الفصل الثالث

(١) روجيه غارودي، **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**، ترجمة حافظ الجمالي، وصياح الجهيّم، دار عطية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، ص ١٧.
(٢) كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة ممدوح عدوان، مراجعة زياد منى، قدمس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص ٢٠.
(٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٣.
(٤) خليل السواحري، القدس القديمة تاريخية، **صامد الاقتصادي**، العدد ١١٠ خريف ١٩٩٧، دار الكرمل، عمان، ص ٣١ - ٣٢.
(٥) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٤، ص ٦٦٦ - ٦٦٧.
(٦) د. فيليب حتى، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة د. جورج حداد، عبد الكريم رافق، الجزء الأول، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ص ٨٧.
(٧) **المصدر نفسه**، ص ٨٨.
(٨) كيث وايتلام، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٩.
(٩) سبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١١٤.
(١٠) **المصدر نفسه**، ١١٥.
(١١) د. أحمد داوود، **العرب والساميون، والعبرانيون، وبنو إسرائيل**، واليهود، دار المستقبل، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩١، ص ١١.
(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٦٣ - ٦٥.
(١٣) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ٨٧.
(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٨٨.
(١٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦٦.
(١٦) د. حتى، **مصدر سبق ذكره** ص ٨٩.
(١٧) زئيف هيرتزوغ، الحقائق تكذب التوراة، موقع google الإلكتروني، عن هآرتس.
(١٨) د. كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ٣٣.
(١٩) **الكتاب المقدس**، الجزء الأول، تكوين ١٥: ١٨.
(٢٠) د. أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢١) تكوين ١٣: ١ و ٣.
(٢٢) داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٩.
(٢٣) الصليبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٨.
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٨.
(٢٥) تكوين ١٠: ١٩.
(٢٦) أسد الأشقر، **الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي**، الجزء الأول، القسم الثاني، منشورات مجلة فكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.
(٢٧) عبد الحكيم الذنون، **بدايات الحضارة**، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص ٧٦ - ٧٧.
(٢٨) جان مازيل، **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية**، ترجمة ربا الخش، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٢٣ - ٣٣.
(٢٩) د. فيليب حتي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٧ - ٨٨.

* * *

الفصل الرابع

فينيقيون أم كنعانيون؟!

الفصل الرابع:

فينيقيون أم كنعانيون؟!

أحمد الدبش

إن المسألة الأكثر إرباكاً في كل بحث يتناول التاريخ القديم لإحدى مناطق سوريا الطبيعية هي محاولة التوصل لمعرفة أصل الجماعات السكانية ما قبل العربية التي أقامت دولاً حضارية هنا وهناك، وخاصة بالنسبة لحقب زمنية موغلة في القدم.

تسمية كنعانيون؟!:

أطلق مؤرخو الشرق الأدنى القديم، على العناصر التي قطنت فلسطين ولبنان وسورية، منذ أقدم العصور تسمية كنعان وكنعانيين، كتسمية تقليدية عامة لمنطقة فلسطين والساحل الفينيقي، دون تحديد دقيق. وقد افترض حراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب أن فلسطين هي أرض كنعان، انبثاقاً من إيمانهم بصحة جغرافية العهد القديم. وارتكبوا في تفسير كلمة كنعان أبشع أنواع التزوير، والتلفيق. فالتسمية " كنعان " جاءت من التوراة، ثم تعارف العلماء والباحثون على تحديد مضمونها. إنه اصطلاح اتفق عليه المستشرقون الاستعماريون والصهاينة من أجل أن يحولوا أرض سورية كلها، من الفرات إلى النيل، إلى ما تدعوه

التوراة بأرض كنعان التي وعد بها الربُّ إبراهيمَ، فصاروا اليوم يدعونها بـأرض الميعـاد، لتكـون المسـرح الجغرافـي الاسـتعماري الصـهيوني الحديث.

ويذكر مؤرخونا من أصحاب وحراس الفكر الآسن، أن قسماً كبيراً من لبنان وسورية سمي قديماً ببلاد كنعان نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح، وهو مشتق في العبرية من (كنع) بمعنى ركع وهو لفظ ميت، وفي الكلدانية بمعنى خزي، وفي العربية بمعنى خضع. وفي ذلك يقول القديس " أوجستين ": " إن السبب في تسمية أرض الميعاد بأرض كنعان يؤخذ من معنى هذه الكلمة، فمعناها: المنخفض " (١).

وفي ذلك يقول " فيليب حتي " نقلاً عن " ألبرايت "، و " سميث "، وغيرهم: " ولسنا ندري تماماً أصل الكلمة، فبعضهم يشير إلى أن كلمة " كنعان " تعني الأرض المنخفضة، لاختلافها عن مرتفعات لبنان. ولكن أحدث الآراء تشير إلى أن أصل الكلمة غير سامي، والاشتقاق الجديد يجعله حوري الأصل (KNAGGI) بمعنى الصباغ الأرجواني، وهذا أعطى الصيغة الأكادية في نوزي (كناخي - KINAKHI)، وفي مسمارية تل العمارنة (كيناخي - KINAKHKHI)، وفي الفينيقية (كنع - KENA)، وفي العبرية كنعان أي بلاد الأرجوان. كذلك يشير اسم فينيقية المشتق من اليونانية (PHOINI) أي أحمر أرجواني إلى الصناعة نفسها - صناعة الأرجوان - وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم، فإن كلمة فينيقي أصبحت نحو ١٢٠٠ ق. م مرادفة لكنعان " (٢)

ويرى " د. مورتغات " أن أناساً ساميين غربيين قد قطنوا سورية على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ سلالة حمورابي.. أما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على الساميين في سورية اسم الكنعانيين، ولغتهم يجب أن تكون اللغة نفسها التي اقتبسها أولئك اليهود الذين نزحوا إلى الأرض المقدسة من السكان الأصليين قبلهم هناك، أي من الكنعانيين، وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر، إلى هذه المجموعة السامية الغربية (٣).

وفي تفسيره لمعنى اسم كنعان يذكر " ميخائيل نسطور " في دراسته «كنعان، فينيقيا، أرجوان» قائلاً: طالما ظل اسم (كنعان) يُعدّ اسماً سامياً. وفيما بعد ما لبث هذا الاسم أن ظهر في نصوص مسمارية عُثر عليها في تل العمارنة وبوغازكوي على أشكال >كيناخني/ كي - نا - اخ - ني<، >كيناخنا/ كي - نا - اخ - نا<، >كيناخي/ كي - نا - اخ - خي<، >كيناخّي/ كي - نا - ا - اخ - خي<، >كيناخي/ كي - نا - خي<، أي مع ذيل <ني/نا> وبدونه على حد سواء ". ويذهب " يوليوس ليفي " إلى تفسير (كنعان) بوصفها كلمة حورية ملحقة بالذيلين الحوريين > - خ(خ)ي< و> - نا<. واكتشف أيضاً أن كلمة <كيناخّو> كانت تعني صباغاً أرجوانياً أحمر في النصوص المكتوبة بالأكادية في مدينة نوزو ذات الأكثرية الحورية. وقد فهم " إي آ. شبيزر " هذا المصطلح على أنه صفة مشتقة من (كنعان) التسمية المحلية الأصلية لفينيقيا الشهيرة بإنتاج

الأرجوان. أما " وليم ألبرايت " فقد عَدّ، بالمقابل، كلمة <كيناخّي> صفة حورية أصلية بمعنى أرجواني تحديداً، مما جعل من (كنعان) تسمية حورية لفينيقيا بوصفها بلد الصباغ الأرجواني [٤].

ويرى " روجرز " لقد ورد ذكر كنعان في رسائل تل العمارنة التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد باسم KNAKHNI ، وكانت هذه التسمية تطلق حينذاك على القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتملة على أرض فلسطين والتي كان قد استولى عليها تحوتمس الثالث في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أما القسم الشمالي فكان يسمى " أمورو " أو " عمورو "، وكان يشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن [٥].

وينتقد الباحث الجاد " فرج الله صالح ديب " تفسير كلمة " كناخي " في رسائل تل العمارنة المصرية، على أنها تعني " كنعان " قائلاً: نفهم أن تتبدل الخاء إلى كاف والنون إلى ميم، أما تبديل الخاء والجيم كما تلفظ (باللهجة المصرية والبدوية والسريانية) إلى عين، فإنها عصية على الهضم في اللهجات[٦].

واستناداً إلى العديد من الحقائق استنتج " سباتينو موسكاتي " أن هذه التسمية لا تبعث على الرضا من نواح عدة، فإنه يبدو من تمحيص المصادر أن لفظي كنعان والكنعانيين كانا يعنيان قبل كل شيء فينيقيا والفينيقيين، ولم يستعملا إلا في عصر متأخر للدلالة على مدلولين أوسع نطاقاً؛ أحدهما جغرافي، والآخر جنسي. هذا إلى أن حدود تلك التسمية ليست محددة تحديداً يدعو إلى الرضا، فهذه الحدود واضحة بعد مجيء القبائل الآرامية، ولكن هذا الحدث متأخر نسبياً، وكان لفظا كنعان

والكنعانيين يطلقان قبل ذلك على المنطقة السورية - الفلسطينية بأسرها وعلى سكانها. ثم إن الكنعانية من حيث هي مجموعة لغوية ليست وحدة حقيقية، فلفظ " كنعاني " يطلق كما لاحظ الأستاذ " فريدرش " عن حق، على أي عنصر لغوي سوري - فلسطيني لا ينتمي إلى الآرامية(٧).

ويذكر العلامة " طمسن " أنَّ تعبير (كنعاني) أساء استعماله معظم العاملين في الأركيولوجيا ودراسات الشرق الأدنى القديم اليوم.. تعبير (كنعاني) كما هو مستعمل في الأركيولوجيا التوراتية، اسم قبلي تعود أصوله إلى مرويات العهد القديم خلال مرحلة ما بعد النفي، الهادفة لمحاربة عبادة بعل. فهو القطب المضاد لإسرائيل، وفي العصر الحديدي الأول، لا يبدو مناسباً أبداً. إطلاق (كنعاني) على ثقافة الدولة المدينة في السهول والوديان الرئيسية مثير للاعتراض. هذا لأنه ليس تعسفياً في تحديداته فحسب، بل لأنه يفترض وحدة إثنية - سياسية ومادية هي ببساطة لا تتوافق مع أي حقيقة نعرفها، حتى خلال العصر البرونزي. وتعبير (كنعاني) ليس اسماً جغرافياً فحسب، ولا يعرف كاسم قبلي في هذا التاريخ المبكر، بل إن إطلاقه على الأراضي المنخفضة في فلسطين كمنطقة يسود فيها نظام الدولة المدينة في العصر الحديدي الأول، مثير للسخرية (٨).

ويعود " طمسن " ليؤكد: " إن كلمة (كنعاني) تقوم بوظيفتها مصطلحاً ازدائياً بالإشارة ليس إلى الإثنية أو حتى إلى شعب منطقة ما، بل إلى الطبقة التجارية في المجتمع، على نحو يتماشى كثيراً مع التمييزات الاجتماعية كما هو موجود ضمناً في الإشارة العربية إلى البدو

والفلاحين والمدنيين. في الورودات الكثيرة للاسم (كنعاني) في التراثات الكتابية، فإن المشار إليه هم السكان الأصليون الأسطوريون لـ (أرض كنعان)، مع الإشارة إلى فلسطين. المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا المدلول معرفاً لذاته ذي دلالة إثنية هي في نص فينيقي متأخر، من دون الإشارة إلى فلسطين إطلاقاً " [٩].

بقي أن نشير هنا إلى أن المكتشفات الآثارية من أقصى شمال سورية الطبيعية إلى أقصى جنوبها لم تشر إلى وجود كنعاني فيها، ولم تأت على أي ذكر لـ " كنعان "، وأما ما يزعمه البعض من أن الكلمة وردت في الأسطر القليلة المكتشفة على ما دعي بتمثال إدريمي في الألأخ فهذا زعم باطل، إذ أن الكلمة هي " قنياني " وتعني مقتيناتي، ملكي، وليست " كنعان " [١٠].

ويكفي أن نذكر أن اليونانيين تحدثوا عن الفينيقيين، ولم يذكروا الكنعانيين، بدءاً من " هوميروس " إلى " هيرودوتس ". ومن المسائل الواجب أخذها بعين الاعتبار أن سكان الساحل السوري لم يطلقوا على أنفسهم كنعانيين، بل كانوا يعرفون أنفسهم بأهل صيدا، وأهل صور، وأهل جبيل.. إلخ.

في معاني فينيقيا:

يناقش " ميخائيل نسطور " اسم فينيقيا في دراسته الموسومة - كنعان، فينيقيا، أرجوان - بقوله: " من المؤكد أن الأكثر إقناعاً بين سائر التفسيرات الإغريقية لكلمتي: فينيقي، وفينيقيا هو اشتقاقهما من المفردة (فوينيكس) بمعنى أرجواني، الدال على خاصية التجارة الفينيقية.

وبالنسبة إلى إد مَيَر، أبرز المدافعين عن هذه النظرية، فإن الكلمة كانت مفردة يونانية خالصة. كما تبنى شبيرز تفسير العبارة الإغريقية بوصفها تطوراً أوروبياً على نحو كامل. والمقصود بذلك القول بأن المفردة (فوينيكس) نشأت اسماً وصفياً عاماً، ربما من كلمة (فوينوس) التي تعني: أحمر. وقد تم الاعتراف بأن (فوينيكس) مشتق، عبر (فوينوس) <فون - إيو - س> التي تعني: قاتل، دموي، أحمر كالدم، المشتقة من (فونوس) التي تعني: جريمة قتل، والذي جرت استعادة جذور الهندو أوروبية، على أساس سلسلة طويلة من الاشتقاقات، على شكل <غوُ هوُ نو - س>. ولكن صوت (غُ) البدائي الأول ظل في الإغريقية الميقينية يُلفظ قافاً (ق). الآن، تظهر الصفة (فينيقي) التي تنعت بعض السلع المستوردة، في نصوص محددة على شكل: فونيكا (= فوينيكا) التي كانت، مثلها مثل صياغة: فونيكيا، تعني مصبوغ باللون الأحمر، مدهون باللون القرمزي مما دفع فنترس وتشادويك إلى القول، وهما على صواب، بأن فونيكا ربما كانت كلمة مقتبسة، بدلاً من أن تكون مشتقة من فونيوس التي تعني أحمر كالدم، والمأخوذة من المفردة (جُ هُنوس) غونجوس. ومع انتفاء إمكانية عَدُّ (فوينيكس) كلمة إغريقية، بات من الضروري أن نبحث عن أصلها، لدى تلك الأقوام التي اشتهرت بالأصبغة القرمزية والأرجوانية التي كان الإغريقيون يطلقون عليها اسم فُوينيكس. الآن، إن المفردة العبرية <فُوّا>، أو العربية (فُوّة) اسم يطلق على الجذور الصبغية التي تنبت في كل من سورية وفلسطين ومصر، وهي أكثر المصادر شيوعاً للصباغ الأحمر ولتقليد اللون الأرجواني في العصور القديمة. وتظهر

المفردة <فوت> متزامنة في القدم مع أوغاريت في سياق يحدد معناها بشكل صارم على أنه نسيج مصبوغ بالقوّة [١١].

فكلمة فينيقي قد وردت إغريقياً كتسمية لمجموعة البحَّارة والتجار والجماعات الذين أمُّوا شواطئ وجزر المتوسط وما بعدها أيضاً. وكانت كتابات هوميروس في البدء حوالي ٩ ق. م، قد أشارت إليهم، ثم كتابات هيرودوتس المؤرخ. إذاً التسمية الأولي لم تأت من المصادر المحلية، أو نقوشها، بل من الكتابات اليونانية. وبما أن القادمين من شواطئ البحر الأحمر وسوريا ولبنان وفلسطين، يحملون حضارة أرقى من حضارة القسم الشمالي الأوروبي للمتوسط، وخاصة في قسمه اليوناني، فإن إحدى نتاجاتهم (الصباغ الأرجواني) استخدم كاسم لهم، حيث ارتبط اسم فينيقي بالأرجوان، وهي تسمية معرفية لأن الأرجوان تعنى Purple باليونانية. وفي النصوص المسينية [نسبة لجزيرة مسينا] لهرميروس فسرت تسميتهم عبر صفة مؤنثة باسم Ponikija، التي تعنى أحمر. وهذه الصفة قد تكون أخذت قيمة إثنية، خاصة أن اسم Ponikija استخدم للدلالة على عشبة، يمكن أن تكون العشبة الفينيقية Herba Phoeniciea التي أشار لها بليني من ناحية ثانية، فإن المعنى اللغوي لكلمة أرجواني في اللاتينية هي Purpureus، وهي كذلك بالفرنسية حيث Purpurin تعنى أحمر قانٍ أرجواني [١٢]و يشير " فيليب حتى " إلى أن " اسم فينيقية المشتق من اليونانية (Phoini) أي أحمر أرجواني إلى الصناعة نفسها - صناعة الأرجوان - وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين

الذين تاجروا معهم. فإن كلمة فينيقي أصبحت حوالي ١٢٠٠ ق. م مرادفة لكنعان " [١٣].

يناقش " موسكاتي " معنى اسم فينيقي عند المجتهدين في تفسيره، ويري أنه إذا كان Speiser - E قد لاحظ أنه في النصوص الاكادية العائدة لنوزي أن كيناخُّو تعني أرجوان، وأن الأرجوان كانت مرادفة للكنعاني في حينه، إلا أنه ليس هنالك من أسباب لغوية مقنعة تجعلنا نفترض أن كيناخُّو مشتقة من كنعان أو افتراض عكس ذلك [١٤].

ويعلق " شبيزر " على اشتقاق (كنعان) من فينيقية بالقول: " إن أصل واشتقاق (كنعن) ومشتقاته لا علاقة له البتة بالمسألة الحالية " أي باشتقاق اسم (الفينيقيين) [١٥].

أما " يوسف حوراني "، فيري أن: " فينيقس الذي حمل اسمه اللبنانيون، ودعوا بالفينيقيين بالنسبة للإغريق، فهو أحد رؤساء القبائل " [١٦].

أما تسمية (الفينيقيين) فلن نبحث عن مصدرها إلا في القواميس العربية. فالتسمية (الفينيقيين) ترد إلى الجذر العربي (فنق). ويرد معناه في - لسان العرب - لـ " ابن المنظور " (فنق، فنق، الفنق والفناق، والتفنق): كله النعمة في العيش، و(التفنق): التنعم كما يفنق الصبي المترف أهله، وتفنق الرجل أي تنعم، وفنقه غيره تفنيقا، وفانقه بمعنى أي نعمه وعيش مفانق قال عدي بن زيد يصف الجواري بالنعمة زانهن الشفوف ينضحن بالمس وعيش مفانق وحرير و (المفنق) المترف قال لا

ذنب لي كنت امرأ مفنقا أغيد نوام الضحى غرونقا الغرونق المنعم، وجارية فنق ومفناق جسيمة حسنة فتية منعمة الأصمعي وامرأة فنق قليلة اللحم وقال شمر لا أعرفه ولكن (الفنق): المنعمة، و(فنقها): نعمها وأنشد قول الأعشى لا تكون درم مرافقها وهي قليلة اللحم وقال بعضهم ناقة فنق إذا كانت فتية لحيمة سمينة وكذلك امرأة فنق إذا كانت عظيمة حسناء قال رؤبة مضبورة قرواء هرجاب فنق، وقيل في قول رؤبة تنشطته كل هرجاب فنق، قال ابن بري وصواب إنشاده على ما في رجزه تنشطته كل مغلاة الوهق مضبورة قرواء هرجاب فنق مائرة الضبعين مصلاب العنق ويقال امرأة مفناق أيضا قال الأعشى لعوب غريرة مفناق والفنق الفتية الضخمة. قال ابن الأعرابي فنق كأنها فنيق أي جمل فحل والفنيقة المرأة المنعمة أبو عمرو الفنيقة الغرارة وجمعها فنائق وأنشد كأن تحت العلو والفنائق من طوله رجما على شواهق ويقال تفنقت في أمر كذا أي تأنقت، وتنطعت قال وجارية فنق جسيمة حسنة الخلق، وجمل فنق، وفنيق مكرم مودع للفحلة قال أبو زيد هو اسم من أسمائه، والجمع فنق وأفناق، وفي حديث عمير بن أفصي ذكر الفنيق هو الفحل المكرم من الإبل الذي لا يركب، ولا يهان لكرامته عليهم، ومنه حديث الجارود كالفحل الفنيق وفي حديث الحجاج لما حاصر ابن الزبير بمكة ونصب المنجنيق خطارة كالجمل الفنيق والجمع أفناق وفنق وفناق وقد فنق وجارية فنق مفنقة منعمة فنقها أهلها تفنيقا وفناقا والفنيق الفحل المقرم لا يركب لكرامته على أهله والفنيقة وعاء أصغر من الغرارة وقيل هي الغرارة الصغيرة(١٧).

نخلص من كل هذا، أن التسمية (فينيق) تعنى: ترقّه، تنعَّم، رغد، الفحل، المكرم، النبيل.

من أين جاء الفينيقيون؟!:

في مؤلفه - مكتبة التاريخ - يسجل المؤرخ " هيرودوتس " (484 - 425 ق. م)، ما يلي: " أن الفرس البارعين في معرفة تاريخ بلادهم، ينسبون إلى الفينيقيين المبادأة في العدوان، بدعوا هم أن هؤلاء جاءوا من سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) إلى شواطئ بحرنا، وسافروا في البحر مسافة طويلة حالما استقروا في البلاد التي اتخذوها موطناً لهم الآن، وطفقوا يتاجرون بالبضائع المصرية والآشورية، بأن ينقلوها إلى أماكن عدّة منها بلدة ارغوس، وهي التي كانت يومئذ أعظم مدن تلك البلاد المعروفة الآن باسم إغريقية. وكانوا بحال وصولهم قد باشروا بيع بضائعهم. وفي خمسة أو ستة أيام نفذت بجملتها. وكانت جماعة من النساء وفي جملتهن ابنه الملك ايناخوس المدعوة (بو) قد أتين للابتياع. قال مؤرخو الفرس، وبينما أولئك النساء يبتعن من البضائع ما يروق لهن، هاج الفينيقيون عليهن بعضهم بعضاً، فتواثبوا وسبوا (بو) وبعض النساء، وفرَّوا قاصدين نواحي مصر. ذهب مؤرخو الفرس إلى أن (بو) أحضرت إلى مصر بهذه الصفة، وخالفهمْ في ذلك مؤرخو الفينيقيين، وزعموا أيضاً، أنه بعد ذلك توجه قوم من الأغارقة بسفائنهم إلى مدينة صور من أعمال فينيقية وارسوا في مينائها، ثم اختطفوا أوروبة ابنه الملك " [١٨].

ويعيد " هيرودوتس " التأكيد على موطن الفينيقيون بقوله: " والفينيقيون كانوا يسكنون سابقاً سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) كما يقولون هم أنفسهم. إذ اجتازوا من هناك إلى سواحل سورية فقطنوها. والقسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلى تخوم مصر يسمى فلسطين " (١٩).

ويزيد هذه الحقيقة تأكيداً وتأييداً ما رواه الرحالة المؤرخ الجغرافي اليوناني " سترابون " (Strabo) الذي كتب في أواخر القرن الأول قبل الميلاد. وأوائل القرن الأول الميلادي، في الفصل السادس عشر من كتابه الشهير في - الجغرافيا (٣، ٤) - حيث يتحدث عن الخليج الذي تطل عليه منطقة البحرين فيشير فيه إلى جزيرتين هما: أرادوس Arados وصور Tyros، ويحدثنا أن بهاتين الجزيرتين معابد تشبه معابد الفينيقيين وأن أهل الجزيرتين يؤكدان أن المدن والجزر الفينيقية التي تحمل هذين الاسمين [يشير إلى ميناء إرواد وإلى ميناء صور التي كانت في أصلها جزيرة ربط الفينيقيون بينها وبين الساحل السوري] هي مستوطنات لهم (أي لأهل جزيرتي الخليج) [٢٠]ويؤيد " بليني " هذه الواقعة[٢١].

بل مالنا نذهب في الاستشهاد بعيداً وهذا الخليج لا يزال فيه إلى يومنا هذا ثغراً أسمه (جبيل) على اسم الثغر الآرامي في الشام أن التشابه بين الهياكل الدينية في فينيقيا وفي البلاد العربية على الخليج واشتراك البلدين في عبادة (عشتروت) ووجود بلاد في كل من الجهتين تتفق في أسمائها ليس كله مما يجوز حمله على مجرد الاتفاق الذي لا معنى له، وكون الفينيقيين عرباً جاءوا إلى الشام من جنوب البلاد العربية حقيقة معترف

بها ومشهورة من قديم الزمان. وقد ذكر " يستين " مختصر - تزوغ بمبي (١٨: ٣) - : " أن الفينيقيين لما آذانهم الزلازل في أوطانهم وأضرت بهم هجروها وأقاموا أولاً بالقرب من البحيرة الآشورية (الخليج) ثم رحلوا من هناك ونزلوا عند البحر (أي الأبيض) وفي ذلك المحل بنوا مدينة سموها (صيداء) لكثرة الأسماك في ساحلها " [٢٢].

أما المؤرخون العرب فيقولون: " أنهم عبروا مضيق الجزيرة العربية من مصب الفرات إلى وادي الأردن " [٢٣].

ويذكر " د. زيد بن على عنان " نقلاً عن العلاّمة " فرنسيس لنورمان " إن تقليد الفينيقيين الذي جمعه في نفس مدينة صور المؤرخ هيرودوتس البارع في تحرى منابع الأخبار، وقبله تزوغ بمبي المعروف بالرأي الصائب وتقليد سكان العربية الجنوبية الذي نقله استرابون ثم التقليد الذي كان جارياً ببابل في أوائل النصرانية أيام أنشئ الكتاب الكلداني في الفلاحة النبطية، جميع هذه التقاليد الثلاثة متفق على أن الكلدانيين سكنوا في بادئ الأمر بالقرب من الكوشيين أخواتهم الأصليين عند أرياف البحر الأحمر أو خليج العجم، أي في الجهة التي تسمي اليوم في المصورات الحديثة (القطيف) وأن طريق القوافل ممتدة الآن من ناحية القطيف ومتصلة ببلاد الإحساء، وكامل وادي عطفان إلى حد جبل طويق وفيما وراء ذلك بقليل تميل إلى جهة الشمال الغربي في ناحية الوشم إلى أن تتصل بمدينة (عنيزة)، ومن هناك تأخذ نحو الغرب مارة بجميع جهة (القصيم) لتتصل بطريق الحاج على مساواة (الحنيكية) هذه هي الطريق الذي سلكها الفينيقيون عند هجرتهم من بلاد العرب إلى الشام، وذلك أمر

لا يستطاع الارتياب فيه، لأنهم لو سافروا بطريق أخري لما تمكنوا من قطع مسافة الصحراء الواسعة المساحة.

ومن عادة أهل الشرق أن المتأخرين منهم يسلكون نفس الطريق التي اختطها أجدادهم ويمكن التقدير أيضاً بوجه الاحتمال الكلي أن الفينيقيين عند بلوغهم (الحنيكية) مشوا في الطريق التي يسلكها الحجاج كل سنة عند عودتهم من المدينة إلى الشام ولما وصل الكنعانيون [يقصد الفينيقيون] إلى (الحنيكية) تخلفت منهم قبيلة وأتم الباقون مسيرهم نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط. وفي تقاليد العرب القديمة أن قبيلة ثمود أقامت بتلك الجهة ونحتت من الجبال بيوتاً لها. وهي عندهم قبيلة طاغية. لأن الساميين [الجزريين بمفهومنا] ما كفوا مطلقاً عن وصف الكنعانيين والكوشيين بهذه الصفة. فهذه إذن هي الطريق التي يمكن أن يقال أن القبائل الكنعانية [الفينيقية] أنها اتبعتها عند هجرتها من بلادها[٢٤].

بما أن الفينيقيين قد ابتكروا الصباغ الأرجواني فقد اعتقد بعض الباحثين الغربيين، وساندهم في ذلك على الفور السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن من الأكاديميين العرب بأن هذا الاسم قد أعطى لهم لتخليد صناعة قومية اقترنت بهم.

برغم الإجماع شبة العام على أن الفينيقيين هجرة من جزيرة العرب، فتحديد المؤرخ " هيرودوتس " البارع في تحرى منابع الأخبار أنهم جاءوا من بحر اريتريا [البحر الأحمر]، وقبله تزوغ بمبي المعروف بالرأي الصائب، وإضافة استرابون من وجود مدينتي (أرادوس Arados) و(صور Tyros) على الخليج الذي تطل عليه منطقة

البحرين. وأيده في ذلك بليني.

والسؤال الذي أطرحه على السادة مؤرخونا من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي، لماذا لم يثير كلام هؤلاء المؤرخون الثقاة أية رغبة عربية في التدقيق والتحري عن صحة هذه الأخبار!؟ أنني أعتقد أنه جهلاً متعمداً من قبل مؤرخونا، الذين كان همهم إثبات نظريات أسيادهم من مؤرخي الغرب وبحاثة التوراة، فيما يتعلق بجغرافية التوراة.

ووفق قناعاتي الشخصية أنه وجب البحث عن الفينيقيين، في جنوب جزيرة العرب، إذ كانت الأسطورة تقول بأنه في الألف الثاني قبل الميلاد جاء ليستقر فوق رقعة الأرض الضيقة بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان شعب قادم من الجزيرة العربية. وهذا الشعب كان يدعي بـ(الفينيقيين)، والتي تعنى (الشعب الأحمر). قد حافظ على اسمه في جنوب جزيرة العرب، بـ (حِمْير). إننا في الواقع نجد في لفظتي (حِمْيَر وحِمْيَريين) الجذر الثلاثي (ح م ر) الذي ما زال في أيامنا هذه يعنى في العربية الاحمرار.

وليس مستبعداً أن يكون هؤلاء الحميريين قد أعطوا اسمهم أيضاً للبحر الأحمر الذين كانوا يقصدونه، والذي لابد أنهم قد عبروه أثناء رحلتهم الطويلة إلى الغرب.

وقد كان الحميريون يشكلون في العصر القديم من القرن العشرين قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادي أشهر تكتل عرقي وسياسي في جنوبي شبة الجزيرة العربية. وكانوا يحتلون حضرموت الحالية. وكانت

أراضيهم تمتد قديماً من عدن حتى مسقط. هذا ويبدو أن مملكة حمير كانت لها علاقات قرابة وثيقة مع مملكة سبأ. ومن المحتمل أن هاتين المملكتين قد شكلتا خلال عصور طويلة مملكة واحدة.

إن لغة الحميريين، التي تدعي أيضاً (العربية الجنوبية القديمة) تبدو وكأنها اللغة الأم للفينيقيين. والكتابات التذكارية التي وجدت في النقوش الحميرية لها بعض الصلات مع الكتابات الفينيقية.

وفي ذلك يقول الأستاذ المستشرق " موريتز " الألماني إلى " أن أصل إيجاد الكتابة بالحروف الهيروغليفية كان في اليمن، وهو يعتقد أن اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأي المشهور، وقد أفضي " موريتز " بأدلته على هذا الرأي وقال: أن الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمنية ثم أن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين، وعنهم أخذ الرومانيون فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، ولهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية " [٢٥].

فقد كان المصريون القدماء يطلقون على مملكة حمير اسم " بلاد البون ". وإذا رجعنا إلى قصة " ماسبيرو " (Maspero) وجدنا أن هناك ألفاظاً مثل (بون) أو (بوانيتي) أو (بويني). وكل هذه الكلمات تعنى أيضاً الفينيقيين كما تعنى بالتالي البونيين أي سكان قرطاجة. زد على ذلك أن الحميريين قد سبقوا الفينيقيين في إقامة علاقات تجارية، قبل استقرارهم على الساحل اللبناني، مع الهند وشبة الجزيرة العربية وأفريقيا [٢٦].

وهذا يدفعنا إلى مناقشة مسألة بونت، وماذا قصد بها؟!:

أن أقدم ما ورد مسطراً على الآثار عن مصر - وادي النيل وصلتها ببلاد بونت هي البعثة التي أمر بإرسالها الملك " ساحورع " من الأسرة الخامسة (حوالي عام ٢٥٥٠ ق. م) إلى تلك البلاد وبقيت مناظرها على بقايا جدران معبد أبو صير. ثم جاء ذكرها مرة ثانية على حجر بالرمو وفيه تفصيل لما عادت به الحملة من خيرات بونت مثل جلود الحيوانات والعاج وريش النعام وبعض الأحجار نصف الكريمة، وذلك إلى جانب البخور وبعض أنواع العطور التي كانت السبب الرئيسي لقيام بهذه الرحلة. وزادت الصلة بين مصر - وادي النيل وبلاد بونت في الأسرة السادسة إلى حد كبير، وفي إحدى مقابر أسوان يذكر أحد الموظفين أنه ذهب مع سيده إحدى عشرة مرة إلى تلك البلاد.

وفي الأسرة الحادية عشرة (حوالي عام ٢١٠٠ ق. م) بلغ من اهتمام الملوك بالتجارة مع بونت أن الملك " منتوحوتب الرابع " أرسل مدير خزانته واسمه " حننو " لإحضار البخور. فذهب ومعه ثلاثة آلاف رجل عن طريق وادي الحمامات والبحر الأحمر ونجح نجاحاً عظيماً في مهمته. وتكررت الحملات في الأسرة الثانية عشرة وما بعدها. ونري في قصة الملاح الغريق (يرجع تاريخها إلى الأسرة الثالثة عشرة) صدي لما يلاقيه البحارة المصريون من مصاعب ومتاعب عند سفرهم إلى بلاد بونت.

وأشهر رحلات المصريين إلى تلك البلاد هي الرحلة التي أمرت بها الملكة " حتشبسوت " في الأسرة الثامنة عشرة (حوالي ١٤٩٠ ق. م)

تحت قيادة الوزير " نحسي " ونقشت مناظرها على جدران معبد الدير البحري في طيبة. أعدت " حتشبسوت " سفناً كبيرة لهذه الرحلة غادرت طيبة في النيل وربما وصلت إلى البحر الأحمر عن طريق القناة التي كانت مستخدمة في ذلك العهد مخترقة وادي الطميلات. ثم عادت إلى مصر - وادي النيل محملة بخيرات بونت من بخور وعطور وأخشاب وحيوانات، كما أحضرت إحدى وثلاثين شجرة لزرعها في حديقة معبد أمون بالدير البحري. واهتم المصريون بتدوين تفاصيل هذه الرحلة، فنري استقبال مندوب الملكة لزعماء بونت والهدايا التي قدمها إليهم، كما رسموا أيضاً القرية الساحلية التي رسوا عندها. وعنوا عناية خاصة برسم جميع أنواع الأسماك التي رأوها في البحر الأحمر.

لم يتفق العلماء على تحديد موقع بلاد " بونت " فترددوا بين أن تكون ساحل أفريقيا الشرقي وبالذات ما يسمي الآن " الصومال "، وبين بلاد العرب، وكل ما قاله العالم " غاردنر " في تعريف " بونت " هذه أنها " الشريط الساحلي جنوب البحر الأحمر " (Eg. Gr., P. 565) أي شريط؟ الغربي أم الشرقي؟ لا جواب [٢٧] المسألة لم تحسم بعد، ولكي نحدد موقع " بونت " يجب أن نعيد قراءة النقوش المصرية ذات العلاقة، وكذلك عبر الاستعانة بعلمي الآثار واللغة:

- إن مناظر أهل بونت في معبد ساحورع في الأسرة الخامسة، ومناظرهما علي جدران الدير البحري وبعض مقابر طيبة في الأسرة الثامنة عشرة تبين أنهم من جنس يشبه كثيراً جنس سكان وادي النيل، ويتفق معهم في أكثر الملامح والملبس.

❖ جميع ما ذكره المصريون كخيرات بونت يمكن الحصول عليها من الشاطئ الآسيوي وأكثره محلي، وبعضه يأتي إليها بوساطة التجارة.

❖ إن خير أنواع البخور واللبان لا تنبت في الشاطئ الإفريقي بل في بلاد الشحر والمكلا وظفار وجزيرة سوقطره، وكلها على الشاطئ الجنوبي لجزيرة العرب.

❖ فحص الأخصائيون رسوم الأشجار المرسومة على جدار معبد الدير البحري ووجدوا أنها من نوعين أحدهما ذو أوراق كثيفة من نوع Boswellia Carteri ويقول الأستاذ " شُف " (Schoff) أنه من نوع أشجار ظفار ولا يمكن أمن ينبت في الشاطئ الأفريقي. أما النوع الآخر فهو قليل الأوراق بل يكاد يكون عارياً منها، ويشبه أشجار اللبان التي تنبت في بلاد الصومال [٢٨].

❖ إن العلماء أنفسهم قرروا أن النقوش المصرية تسجل وقوع بلاد " بونت " في " طء - نتر ". أي في بلاد الرب، هي كما قال " د. أبو العيون بركات " صفة ملازمة لاسم اليمن جنوب الجزيرة العربية في النقوش المصرية الفرعونية، وأن سبب تلك الصفة الخاصة باليمن ربما يعود إلى أنها أرض البخور واللبان المقدس الذي كان يرتبط بالعقائد والتقرب إلى الآلهة ويتم إحضاره من اليمن [٢٩].

فإذا وضعنا في ذهننا جميع هذه الحقائق، وأردنا أن نحدد مكان بلاد بونت، لوجدنا أن " بلاد بونت " هي بلاد اليمن الجنوبية " [٣٠].

وفي عملية البحث عن موقع " بلاد بونت/ الفونت "، يستعين الباحث " زياد منى " باللغة العربية. فباستشارة القواميس المتخصصة نعرف أن العرب عرفوا (أفلت) و(فليت) كاسمي علم. كما أن " الفلت " و " اللفت " هو الموت. معنى ذلك إن الاسم المصري القديم " فونت " يشير إلى إقليم " حضرموت " في جنوبي جزيرة العرب. حيث يعنى الاسم العربي " بلاد الموت " أو " حاضرة الموت ". وحيث أن البخور كان ينظر له قديماً على أنه غذاء الآلهة، فمن الطبيعي أنه كان ينمو في بلاد الرب، أي في جزيرة العرب[٣١].

وهنالك نقطة أخرى جديرة بالاعتبار. ففي المناظر التي تسجل صلة المصريين بأهل " بونت " مثل رحلة حتشبسوت. ومناظر الجزية في بعض المقابر، نري بعض الأهالي يرتدون ملابسهم التقليدية، ونري فيها شبهاً كبيراً بين الإزار الذي كان البونتيون القدماء يلفونه حول وسطهم، وبين ذلك الإزراء نفسه الذي مازال يستخدمه حتى يومنا هذا بعض رجال القبائل في جنوبي اليمن، وعلى الأخص في مناطق الساحل الجنوبي [٣٢].

وتذكر " سوزان راتييه " أن أهل البلد الوطنيون البونتيون من الجنس الحامي الذين تبدو بشرتهم مصبوغة باللون الأحمر، وربما هم أسلاف الفينيقيين [٣٣].

والتي تمتد حركتهم من الناحية الزمنية إلى مراحل ما قبل التاريخ، حيث كان موطنهم الأصلي في جنوب الجزيرة العربية وفي منطقة اليمن تحديداً، ولنفس الأسباب التي دفعت بالهجرات العروبية إلى مواقع أخرى، هاجر الفينيقيون إلى منطقة الخليج العربي واستوطنوا في / وقرب جزيرة

الديلم " البحرين حالياً ". ويعتقد العالم " راكوزين " أن الفينيقيين. الذين سكنوا الساحل الشامي كانوا قد قدموا من البحرين وقد تفرقوا إلى قبائل وتوزعوا في أقسام عديدة من سوريا وأطلق على أحد فروعهم اسم بنط أو بونا(PUNT/ PUNE) ودعاهم الإغريق بالفينيقيين والبونيون " الفينيقيون " كانوا شعباً تجارياً وقد هاجروا إلى الأماكن التي تزدهر فيها التجارة. كما سكنوا شمال أفريقيا ومنهم القرطاجيون. على أن أهم فرع لهم سكن في بلاد اليمن وحول مضيق باب المندب ثم انتقل إلى السواحل الأفريقية الشرقية واستوطن بلاد الصومال وسيطر على البحر الهندي والبحر الأحمر، ويعتقد المؤرخون بأن " البونيين " قبيلة من الكنعانيين [الفينيقيين] استوطنت بلاد سوريا منذ أقدم الأزمان وما زالو [٣٤].

إذن " البونيون " ما هم إلا الهجرة العربية التي يرجع أصلها إلى مدينة " بَون " في اليمن، والتي امتدت إلى الجزائر وتونس في صدر التاريخ، وإليهم يرجع بناء مدينة " بون " في الجزائر، المعروفة اليوم بمدينة " عنابة "، وإن تسميتها باسم " بون " ما هو إلا إشارة إلى أصل سكانها وأن هجرتهم من اليمن، مع بنائهم عده مدن أخرى تحت هذا الاسم في أماكن أخرى من العالم.

إن رأيي هذا يلقي دعماً من قبل العالم اليمني " الهمداني " الذي ذكر في سفره الرائع - صفة جزيرة العرب - أن " البون " (بونت بإهمال التاء) في عداد حدود قبيلة حاشد اليمنية الأصلية وذكر عشرات القرى فيها وقد وصفها بأنها: " من أوسع قيعان نجد اليمن...... ". ويعلق على ذلك محقق الكتاب " محمد بن على الأكوع الحوالي " قائلاً: البون: بفتح

الباء الموحدة أخره نون، وهو بونان: البون الأعلى والبون الصغير. وقد يقال البون الكبير والبون الصغير، وهو في شمال صنعاء بمرحلة [٣٥].

* * *

مراجع الفصل الرابع

(١) محمد عطية الأبراشي، **الآداب السامية**، ط ١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٦، ص (١٩ - ٢٠).

(٢) د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨، ص (٨٥ - ٨٧).

(٣) د. أحمد داود، **تاريخ سورية القديم تصحيح وتحرير**، سلسلة سورية وعودة الزمن العربي، الكتاب الأول، ط ٢، دار الكاتب العربي، دمشق، ١٩٩٧، ص (٢٢٢ - ٢٢٣).

(٤) ميخائيل نسطور، **كنعان - فينيقيا - أرجوان**، ترجمة: فاضل جتكر، ط ١، دراسات قدمس (٦)، دار قدمس للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠١، ص (١٩-٢٠).

(٥) **د. أحمد داود**، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨.

(٦) فرج الله صالح ديب، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، ط١، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٦٠.

(٧) سبتنيو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٨٩.

(٨) تومس طمسن، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح على سوداح، ط١، دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ٢١٤.

(٩) (طمسن) تومس، من العصر الحجري إلى إسرائيل، ترجمة: عدنان حسن وزياد منى، الفصل الثالث من كتاب الجديد في تاريخ فلسطين، ط١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٧٦.

(١٠) د. أحمد داود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩١، ص ١٠٠.

(١١) **ميخائيل نسطور**، مصدر سبق ذكره، ص (٢٣ - ٢٤).

(١٢) **فرج الله صالح ديب**، مصدر سبق ذكره، ص (١٦٥ - ١٦٦).

(١٣) **د. فيليب حتى**، مصدر سبق ذكره، ص (86 - 87).

(١٤) **فرج الله صالح ديب**، مصدر سبق ذكره، ص (١٦٥ - ١٦٦).

(١٥) **ميخائيل نسطور**، مصدر سبق ذكره، ص 21.

(١٦) يوسف حوراني، **لبنان في قديم تاريخه**، دار النهار، ١٩٩٢، ص ١٠٦.

(١٧) **يوسف حوراني**، المصدر نفسه، ص ١٠٦.

(١٨) هيرودوتس، **تاريخ هيرودوتس الشهير**، ترجمة عن طبعة لارشي الفرنسي: حبيب أفندي

بستـرس، مجلـدين، مطبعـة القـديس جـاورجيوس، بيـروت، 1886 - 1887، ص 12. [نسخة مصور].
(١٩) **هيرودوتس**، المصدر نفسه، ص 467.
(٢٠) د. لطفي عبد الوهاب، **العرب في العصور القديمـة**، دار المعرفـة الجامعيـة، الإسكندرية، بلا تاريخ، ص ٦٤.
(٢١) ج. كونتـو، **الحضـارة الفينيقيـة**، ترجمـة: د. محمـد عبـد الـهـادي شـعيرة، الـهيئـة المصـرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٤٢٠.
(٢٢) زيد بن على عنان، **تاريخ حضارة اليمن القديم**، ط١، دار الأفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٤٢٠.
(٢٣) **ج. كونتو**، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢١.
(٢٤) **زيد بن على عنان**، مصدر سبق ذكره، ص (٤٣ - ٤٤).
(٢٥) سـعيد عـوض بـاوزير، **الفكـر والثقافـة فـي التـاريخ الحضـرمي**، دار الطباعـة الحديثـة، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٦.
(٢٦) جـان مازيل، **تـاريخ الحضـارة الفينيقيـة الكنعانيـة**، ترجمـة: ربـا الخش، ط١، دار الحـوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٩٩٨، ص (٣١ - ٣٢).
(٢٧) د. على فهمي خشيم، **آلهة مصر العربيـة**، المجلد الأول، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، ١٩٩٨، ص، ٢٨١.
(٢٨) د. أحمـد فخـري، **دراسـات فـي تـاريخ الشـرق القـديم**، ط ٤، مكتبـة الأنجلـو المصـرية، ١٩٨٤، ص (١٣٨ - ١٣٩).
(٢٩) د. أبـو العيـون بركـات، بونـت بـين المصـادر المصـرية واليمنيـة القديمـة، **الـيمن الجديـد**، صنعاء، العدد٢، السنة الخامسة عشر، فبراير/ شباط ١٩٨٦.
(٣٠) د. أحمد فخري، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٩.
(٣١) د. زياد منى، **جغرافية التوراة: مصر وبنو إسرائيل في عسير**، ط١، دار ريـاض الـريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٤، ص ٦٤.
(٣٢) **د. أحمد فخري**، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩.
(٣٣) سوزان راتييـه، **حتشبسـوت الملكـة الفرعونيـة**، ترجمـة: فاطمـة عبـد الله محمـود، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ٩٥.
(٣٤) د. جمـال الـدين الخضّـور، **عـودة التـاريخ - الانتربولوجيـة المعرفيـة العربيـة** / دراسـة فـي الأناسة المعرفية العربية التاريخية - اللغوية ووحدتها- حتى الألف الثاني قبل الميلاد، الجزء الأول، الفصل الثالث، دراسـات من منشورات اتحـاد الكتـاب العرب، ١٩٩٧. (موقـع علـى الإنترنت).
(٣٥) الحسن أبـن أحمـد أبـن يعقـوب الهمـداني، **صـفة جزيـرة العـرب**، تحقيـق: محمـد بـن علـى الأكوع الحوالي، ط١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢٢٠.

* * *

الفصل الخامس

الفلسطينيون في الأصل والفصل

الفصل الخامس:
الفلسطينيون في الأصل والفصل

أحمد الدبش

أهمل مؤرخو الغرب المتخصصون في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته دراسة تاريخ الفلسطينيين، ولم يخصصوا في دراستهم الخاصة بشعوب الشرق الأدنى القديم أي ذكر خاص بتاريخ الفلسطينيين في عمل مستقل، أو حتى في فصل مستقل من فصول الدراسة.

وهذا الإهمال مقصود لذاته بسبب سيطرة المؤرخين اليهود والصهاينة على مجال الكتابة التاريخية عن فلسطين، ولذلك فقد أخرجوا من دائرة البحث تاريخ الشعب الفلسطيني القديم بصفته شعب من شعوب الشرق الأدنى القديم، مركزين تركيزاً شديداً على دراسة تاريخ الإسرائيليين، وذلك لتأصيل الوجود الإسرائيلي المزعوم في فلسطين باستبعاد الفلسطينيين الذين سميت المنطقة باسمهم.

ويبدأ تاريخ فلسطين عملياً لهؤلاء الكتاب فقط عند بدء تاريخ إسرائيل (المزعوم)، وعندما تصبح فلسطين في وفاق وانسجام تامين مع إسرائيل (المزعومة)، والسبب في ذلك لا يمكن أن نقول بأن بؤرة التركيز هي على تاريخ إسرائيل (المزعوم)، أو الادعاء بأن سرد هؤلاء المؤرخين

للتاريخ يبدأ عند ظهور ما يسمى بإسرائيل على مسرح الأحداث، ذلك لأنهم جميعاً يعالجون فترات ما قبل الوجود الإسرائيلي (المزعوم)، ولكنهم جميعاً يرفضون بثبات استعمال تعبير " الفلسطينيين " للدلالة على سكان الإقليم - المكان، حتى إن استعملوا تعبير فلسطين للدلالة على أشياء جامدة مثل: المكان المادي الاقتصادي.

إن رفض استعمال صفة واحدة لنعت سكان المنطقة هو إذن إنكار للوجود وللتاريخ الفلسطينيي، ولهذا فإن فلسطين توصف على أنها منطقة صغيرة وفقيرة ومعزولة.. وهذه أوصاف شائعة في الدراسات التوراتية، ثم يتغير هذا الوضع وتصبح فلسطين مرموقة فقط بسبب الوجود التاريخي المزعوم لما يسمى بإسرائيل فيها، وعلى هذا فإن الدراسات التوراتية متورطة في تجريد الفلسطينيين من وطنهم، ولهذا مقابل سياسي معاصر متمثل في السيطرة الصهيونية على الأرض وسلب الشعب الفلسطيني أرضه، وتصويره على أنه شعب بلا تاريخ أو تجريده من هذا التاريخ.

وهكذا نرى أن الخطاب التوراتي يجعل الفلسطينيين شعباً غير ذي أهمية، وفي نهاية الأمر غير موجود.

يختلف الباحثون والأثريون حول أصل الفلسطينيين، فمنهم من يعتبرهم مجموعة من شعوب البحر، واعتبرهم آخرون أنهم من سكان فلسطين أصلاً وامتزجوا بمجموعات شعوب البحر، الذين أثروا في حضارتهم، وأدخلوا عليها مواد وعادات جديدة أصبحت متميزة في الكثير من مواقع الساحل الفلسطيني الجنوبية، وما زال النقاش محتدماً حول

موطنهم الأصلي، مع الأخذ بالحسبان بأن أصحاب الرأي الأول غالباً ما كانوا من التوراتيين أو المتأثرين بالدراسات التوراتية التقليدية.

ولهذا ستتناول الأسطر التالية أهم الآراء التي تكونت عن الفلسطينيين، وذلك بما يسمح به إطار هذه الدراسة وما يتيسر من معلومات ومصادر تتعلق بهذا الموضوع.

الفلسطينيون في المصادر القديمة:

تسود قناعة لدى علماء التوراة بشكل خاص، وبين العامة بشكل عام بأن اسم أرض فلسطين، يعود في أصوله لشعب أو لقبائل انتمت لما يعرف بـ " شعوب البحر ". ويطلق الاسم الأخير في علم التاريخ القديم المتخصص بالمشرق العربي وفي علم التوراة أيضاً، على مجموعة من القبائل أو الشعوب التي يقال أنها غزت مصر في الألف الثانية قبل الميلاد. وهناك رأي بأن هذا التحرك القبلي الذي تم عبر إقليم البلقان وكذلك عن طريق البحر، لم يكن غزواً وإنما هجرات قبلية. وبغض النظر عن طبيعة هذا التحرك البشري [سنناقش هذه المسألة لاحقاً]. تفيد الحوليات المصرية أن تلك الموجة البشرية هُزمت في عهد " رمسيس الثالث " (١١٩٣ - ١١٦٢ ق. م). الذي أوقف تقدمهم عند مصب نهر النيل. وفي النقوش العائدة لذلك الفرعون، ترد تفاصيل إلحاق هزيمة بأعدائه، ومنهم (دنونا) و(فولستا) [١].

كما عُثر في مدينة هابو الواقعة قرب الأقصر بمصر العليا على نقوش أخرى تقول إن " رمسيس الثاني " (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق. م) هو الذي حقق ذلك النصر على ستة أقوام هي (فرست / ف - ر- ست)،

و(دانونا)، و(شكلش / سكلس)، و(شردنو)، و(شش)، و(تجكر).

ويعتقد البعض، ومنهم " ألن جاردنر "، بأنه قد وصلت إلى أيدي علماء الآثار معلومات وافية عن الفلسطينيين في الكتابات والنقوش التي سجلها " رمسيس الثالث " على جدران معبد أمون في مدينة هابو غربي مدينة طيبة، وقد ملأت هذه الكتابات والنقوش آلافاً من الأقدام المربعة كلها منحوتة على الحجر، وقد احتوت على سجل كامل لحملات الفراعنة وحروبهم.

وقد وصفت هذه الشعوب المعادية لمصر وصفاً رائعاً في النقوش المصرية، ونخص بالذكر الصور التي سجلت المعركة البحرية الفريدة من نوعها. وقد امتزجت النصوص المكتوبة بحديث مليء بالزهو موجه من " رمسيس الثالث " إلى أبنائه ورجال بلاطه، والمقتطفات التالية حذفت منها جمل لا نستطيع أن نخلص منها بحقائق تاريخية:

قامت البلاد الأجنبية بمؤامرة في جزرهم، وقد زعزعت المعركة وبعثرت البلاد كلها في وقت واحد، ولم تكن هناك أرض تستطيع أن تقف أمام أسلحتهم، وقد ابتدوا بخاتى وقودى وقرقميش وأرزاروا والاسيا.. أقيم معسكر في مكان في أمور وقضوا على شعبها وأرضها فأصبحوا كأن لم يكن لهم وجود من قبل.. ثم جاؤوا، واللهب معد أمامهم متقدمين نحو مصر وكان حلفهم مكوناً من بلست وزكار وشكلش ودانو ووشش متحدين جميعاً، ووضعوا أيديهم على البلاد جميعاً إلى محيط الأرض كلها وقلوبهم تردد في ثقة " لقد نفذنا خطتنا "! ولكن قلب هذا الإله، سيد الآلهة، كان مستعداً ومجهزاً لاقتناصهم كالطيور، لقد دعمت حدودي في

زاهي وأعددت أمامهم الأمراء المحليين وقواد الحاميات والماريانو وأمرت بأن يجهز مصب النهر، كسور قوي بالسفن الحربية والغلايين والزوارق التي كانت معدة إعداداً تاماً من قبل ومن بعد بالشجعان من الرجال الذين يحملون أسلحتهم ومن المشاة من خيرة المصريين الذين كانوا كالأسود المزمجرة فوق الجبال، أما العربات فكان بها المحاربون الأكفاء وكل الضباط الممتازين ذوي الأيدي القادرة، وكانت خيولهم ترتعد كل مفاصلها مستعدة لسحق الجيوش الأجنبية تحت حوافرها. ويستطرد " رمسيس الثالث " قائلاً: أما عن أولئك الذين وصلوا إلى حدودي فليست فيهم بذرتهم.. قلوبهم وأرواحهم انتهت إلى الأبد.. أولئك الذين تقدموا من ناحية البحر.. كان اللهب الكامل أمامهم عند مصاب النهر وكان سياج من الحراب يحيط بهم على الشاطئ. أما عن تفصيلات الهزيمة البحرية فإن النتيجة هي: جهزت لهم شبكة لاقتناصهم، فكان من دخل منهم إلى مصاب النهر يحصر ويسقط في داخلها ثم يقيدون في أماكنهم ويذبحون ثم تقطع جثثهم [٢].

وانطلاقاً من حقيقة أن قدماء المصريين لم يوظفوا حرف اللام (ل) لكتابة الأسماء غير المصرية، واستعاضوا عنها إما بحرف الراء (ر)، أو حرف النون (ن)، فقد اقتنع معظم العلماء بأنه وجب كتابة الاسم (فرشت) على نحو (فلشت). وبعد أن لاحظ العلماء التشابه اللفظي بين الاسمين (فرست) و (فلشت / فلست) الوارد في العهد القديم كاسم قوم وإقليم جارين بني إسرائيل، رأى أهل الاختصاص أن المقصود واحد، وبضرورة نطق الاسم الأول بصيغة (فلشت).

وفي الوقت نفسه الذي لا يجوز علمياً نبذ هذه الإمكانية كاحتمال، إلا أنه من غير الممكن قبولها على أنها حقيقة غير قابلة للنقاش [٣].

ومن ناحية أخرى فقد عُثر على الاسم (فلست) في نصوص عائدة إلى ملك مصر " رمسيس التاسع " (١١٣٤ - ١١١٧ ق. م) تشير إلى اثنين من أقوام البحر هم (شردانا)، و(تجكر)، وإلى ثلاث مدن (فلستية / فلسطية) هي عسقلان، وأشدود، وغزة [٤].

وفي التعريف بـ " فلسطين " و " الفلسطينيين " في المصادر اليهودية نجد تعتيماً شديداً وإيهاماً بأن الفلسطينيين شعب غريب ليست له أصول في المنطقة، ففي دوائر المعارف اليهودية يرد الحديث عن فلسطين والفلسطينيين مقتضباً وغامضاً يوحي للقارئ بعدم أهمية المكان وسكانه، ويؤكد عدم أصالته وأنه كان شعباً غريباً!.

" الفلسطينيون من شعوب البحر الأبيض المتوسط تعود أصولهم إلى مواقع في آسيا الصغرى واليونان، وأتوا إلى فلسطين في موجات متعاقبة. وقد أتت إحدى هذه الموجات قبل عصر الآباء، واستقرت جنوب بئر السبع، حيث دخلوا في صراع مع إبراهيم وإسحاق، وأتت موجة أخرى من كريت بعد طردها من مصر على يد رمسيس الثالث في ١١٩٤ ق. م، فاحتلت المنطقة الساحلية من جنوب فلسطين، حيث أنشأوا خمس مدن هي: غزة وعسقلان وجت وأشدود وعقرون، ولأنهم شعب محارب بالفطرة فقد تسيدوا أجزاء أخرى من يهوذا زمن العصاة وهزموا شاؤل لكن داود هزمهم ووضع نهاية لسيادتهم، وبعد سقوط المملكة الإسرائيلية استعاد الفلسطينيون استقلالهم، ولكنهم لم يصبحوا أبداً عاملاً رئيسياً في

المنطقة. وفي العصرين الفارسي واليوناني تغلب مستوطنون أجانب من جزر البحر المتوسط على المدن الفلسطينية، وأطلق اليونان منذ هيرودوت اسم فلسطين على هذه المنطقة نسبة إلى الفلسطينيين (فلسطين السورية)، وفي عصر هادريان أطلق الرومان هذا الاسم رسمياً على إقليم يهوذا " [٥].

ولكن ماذا يعني مصطلح " فلسطيني " للإنسان الغربي؟! تجدر الإشارة إلى أن مصطلح (Philistine) يستعمل لوصف الشخص المادي النزعة الفج المعادي للثقافة الرفيعة، كما يعرفه قاموس أكسفورد، وهو تعريف ينم عن تأثير التفسير التوراتي للتاريخ لمصلحة اليهود.

وقد بلغ التشويه إلى حد أن الدعاية الصهيونية روجت للقصة التوراتية عن جليات وداود إذ تصور انتصار داود الصغير بالمقلاع على جليات، وكان من جبابرة الفلستين إذ بلغ طوله أكثر من تسعه أقدام، وكانت أدواته الحربية مناسبة لطوله وقوته، ويرى " د. عبد الوهاب المسيري " في « موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية » أن الدعاية الصهيونية نجحت في ترسيخ صورة داود رمزاً لإسرائيل، الذي يستخدم ذكاءه ومهارته في هزيمة عدوه، مقابل صورة جليات رمزاً للعربي الذي يتسم بضخامة الحجم وكثرة السلاح، ولكنه لا يستخدم عقله فيمنى بالهزيمة [٦].

نحن إذن أمام خطأ شائع يتمثل في أن أسلاف عرب فلسطين - الفلسطينيين - كانوا يمثلون البربرية بكل مظاهرها، وبذلك تم تغييب الحضارة الفلسطينية، وهذا ما حدا بـ " روبنسون " إلى الانتفاض

والتقريع؛ تقريع من كتب الكذب في جامعات أوروبا، ومن صدق ذلك في جامعاتنا، فيقول: يجب ألا نظن أن أسلاف عرب فلسطين كانوا يمثلون البربرية بكل مظاهرها؛ لأنهم كانوا فلاحين، ولأنهم أقاموا على الوثنية أمداً طويلاً.. لقد كان الفلسطينيون يملكون ثقافة متقدمة وعريقة! ويضيف قائلاً: إنها لسخرية عجيبة من سخريات القدر أن كتب على لفظة فلسطيني أن تكون مرادفة لكلمة بربري، وقد نشأ هذا الاستخدام اللفظي؛ لأن تاريخ أيامهم وصل إلينا عن طريق الإسرائيليين الذين لم يكن في ضميرهم إنصاف لأعدائهم (٧).

الفلسطينيون.. تغريب الأصيل:

يؤرخ " ج. ل. مايزر " لأصول الفلسطينيين قائلاً: إن الزائرين المينيين معروفون زهاء قرن من الزمان في البلاط المصري، وقد كان المصريون يدعونهم كيفتو حتى عهد أمنحتب الثالث، وكانوا يقدمون مصر زائرين وتجاراً وعلى رؤوسهم تلك الجدائل من الشعر التي كانت إحدى مميزاتهم، كما كانوا يلبسون جلابيبهم ذوات الألوان الزاهية، كما كانوا يجلبون معهم أنماطاً من مصوغاتهم الفنية من الذهب والفضة. ولكن قدوم الكيفتو Kiftiu انقطع منذ تربع أمنحتب الثالث على عرش مصر وحل محلهم الشاردانا Shardana والدانونا Danauna وهؤلاء هم رجال حرب سواء كانوا مخاصمين أم مأجورين، وبعض هؤلاء ألحقوا بالجيش المصري وعهد إليهم أن يمنعوا أبناء جلدتهم من دخول البلاد، وإذا ما اعتمدنا على رواية " مانتيون " أحد المؤرخين الوطنيين، فإن أحد هؤلاء الحراس أنفسهم جعل نفسه ملكاً بعض الوقت إبان

الفوضى التي كانت سائدة في البلاد عقب وفاة إخناتون نحو سنه ١٣٦٥، ولم تنقطع شاردانا Shardana عن شن الغارات، حيث ظلت تقوم بغارات متوالية بين الفينة والفينة إلى سنة ١٢٠٠. ولم يكونوا منفردين بالإغارة بعد سنه ١٣٠٠، بل أسهم فيها معهم عدد من الشعوب الأخرى، أخذ في الزيادة، فضلاً عن أن غاراتهم كانت أوسع مدى وأبلغ ضرراً، وأكبر اعتداءين وقعا في عامي ١٢٣٠ و١٢٠٠، وكان الاعتداء الأول في عصر مرنبتاح وكان يصحبه غزو من طريق الساحل قام به الليبيون على غرب الدلتا، ولم ينفرد الليبيون والشاردانا بالغزو، بل قام بالغزو كذلك الإخيفاشا Akhaivasha والشاكلشا Shakalsha والتورشا Tursha واسم الأول من هؤلاء أصبح منطبقاً في العصر الحاضر على الآخينين Acheans وأواخر هذه الأسماء تشبه النهاية التي في آخر كنوس Cnossus وسجالاسو Sigalassus وبعض أسماء بلاد أخرى إيجية، والاسمان الأخيران وهما لا يزالان موضع تحقيق وبحث قد زادا الاعتقاد الآن بأنهما مشتقان من أصل إيجي.

وليس من شك في أن هناك اتجاهاً قوياً إلى اعتبار التورشا Tursha هم التورسيني Turseni الذين استوطن بعضهم إتروريا Etruria وأن الشاكلشا Shakalsha والشاردانا Shardana أطلقوا أسماءهم على أوطانهم الحديثة كذلك في صقلية وكردينيا.

ووقع اعتداء ثان في السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث اشتركت فيه قوة برية وقوة بحرية، وكان مصدرها هذه المرة الجانب السوري، وكان من بين المعتدين الدانيونا Danauna والشاكلشا، وقد اعتدوا على

مصر من قبل وشاركهم التكراي Tikkarai وقبائل أخرى حديثة بعضهم فيما يبدو من الإيجيين وبعضهم من شمال سورية، ومن آسيا الصغرى، وكان منهم قوة من الحيثيين، ولعل الباعث هذه المرة أكثر وضوحاً منه في المرة السابقة.

فإن القوة البرية قدمت تصحب جنودهم أسرُهم ومتاعهم على مركبات كبيرة ذوات عجل والقوة البحرية في سفن شراعية كبيرة، وفي أعلى صواريها علامة الحرب، وكانت أسطح السفن ملأى بأبطال في عدة طيبة من الأسلحة، على حد تعبير أعدائهم الشجعان، فمن الواضح إذن أنهم قدموا للاستقرار، ومع أن ملك مصر حال دون دخولهم على إثر معركة حامية وقعت في جنوب سورية ومعركة أخرى بحرية، فقد كان عليه أن يتصرف في أمر من لم يقتل من المحاربين، وفي أمر من لم يشترك في القتال كذلك، وكان يقيم بالسهول الساحلية في فلسطين خليط من الوطنيين والأجانب، فارتباط هؤلاء بالفئة الحديثة القادمة يجعل هؤلاء الأهالي المحبين للحروب المدينين بالولاء لمصر حائلاً دون أي اعتداء على مصر مستقبلاً، وهذه هي السياسة عينها التي جعلت مصر تتخذ من الشاردانا حراساً لها قرناً من الزمان.

وكان اسم أشهر هؤلاء النزلاء البولشتا Pulishta، ولا يبعد أن يكون هذا اللفظ من الأصل اللغوي للاسم الغامض البلاسجيين Pelasgi، وهو اسم نقله الكتاب الإغريق من شعب قديم من القراصنة في المنطقة الإيجية، ولا ريب في أنه اسم ينطبق على اسم الفلسطينيين وعلى لفظ فلسطين الذي انتقل من الساحل حتى أطلق على سوريه الجنوبية كلها (٨).

ويفترض " جي - إي - رايت " افتراضاً على منوال تأريخ " مايزر " لأصول الفلسطينيين، فيذكر أن " شعوب البحر المهاجرين قد وطدوا أنفسهم على الساحل الفلسطيني كمستعمرات مرتزقة، حيث أصبحوا وكلاء ثم خلفاء للسلطة المصرية في فلسطين " (٩).

ويذكر المؤرخ المصري " سليم حسن " في كتابه الموسوعي « مصر القديمة، الجزء السابع » أن " بلست أو بلستي (فلسطين). قد جاء ذكرها أولاً في النقوش التي من عهد رمسيس الثالث، وقد جاء ذكر البلد على تمثال مغتصب في عهد غير مؤكد. ويظن " ستايندورف " أنه عهد الأسرة الثانية والعشرين، وقد اغتصبه شخص يدعى " بيتز " رسول " كنعان " إلى فلسطين.

وقد ذكرها في نقوش " رمسيس الثالث " حيث نجد أن القوم الذين يحملون هذا الاسم من أقوام البحار الذين غزوا مصر وسورية من الجزر.. فإننا لا نكون قد حدنا عن جادة الصواب إذا اقترحنا أن " بلستي " أي (الفلسطينيين) كانوا يسكنون على الساحل من جهة الجنوب بعد " دور " حتى إذا لم يكن هناك براهين تعضد هذا الزعم. يضاف إلى ذلك أن قرن " بلست " بكنعان على التمثال السالف الذكر يمكن أن يعضد هذا الزعم بعض الشيء.

والآن يجب أن نحاول هنا تلخيص البراهين التي ترمي إلى تحديد موطن الفلسطينيين الأصلي قبل ذلك العهد، فالتقاليد اليهودية تتفق مع التقاليد الإغريقية على أن الفلسطينيين من جنس أجنبي، وقد كانوا لا يختتنون، وهم في ذلك يختلفون عن الساميين [الجزريين]، ولا يفوتنا أن

نذكر هنا أن الأدلة القليلة التي تشير إلى أن " بلستي " أو فلسطينيي عصر " رمسيس الثالث " لم يهاجموا مصر من جهة البحر وحسب، - بل تدل الشواهد كذلك على أنهم قد ساروا براً مخترقين آسيا الصغرى على ما يظهر قاصدين شمالي سورية. والظاهر أنه في هجرتهم هذه كانت نساؤهم وأولادهم يستعملون العربات التي تجرها الثيران المسمنة التي نراها مصورة في الموقعة البرية في نقوش مدينة هابو.

وأخيراً لم نجد أي شيء يتعارض مع ما جاء في متون مدينة هابو عن أن الفلسطينيين كان مثلهم مثل حلفائهم قد بدؤوا غزواتهم من جزر البحر الأبيض، هذا إضافة إلى أننا لم نجد ما يدحض التقاليد التي وردت في التوراة أو فيما كتبه الإغريق من أن الفلسطينيين قد جاؤوا إلى فلسطين عن طريق كريت. ولكن فروق التسليح التي بين المنويين كريت والفلسطينيين مضافاً إليها قرص فياستوس الذي كانوا يلبسونه قد جعلت من المحقق أن كريت لم تكن الموطن الأول للفلسطينيين مهما كان طول مدة إقامتهم هناك في طريقهم إلى مصر وفلسطين. أما موطنهم الأصلي فيمكن أن يبحث عنه في مكان ما في شمال بحر ايجه، ومن المحتمل كذلك أن احتلالهم للجزر هناك كان إحدى مراحل هجرتهم. وقد أخذ بعض المؤرخين حديثاً يربطون اسم بلستي باسم بلاسوي لما بين الاسمين من التشابه اللفظي، غير أنه من المستحيل إعطاء رأي قاطع في هذا الأمر (١٠).

أما العالم الأثري الأمريكي " ج. هـ. برستد " فالرأي عنده أن أهالي " بلست " وهم الفلسطينيون - إنما أصلهم من جزيرة كريت (١١).

ويشير " هول " إلى أن الفلسطينيين قد أتوا مع الشاردانا وجموع من شعوب البحر من زواية جنوب غرب آسيا، وهناك ما يدعو إلى الاحتمال بأن القبائل الكارية، ومن بينهم الفلسطينيون، قد احتلوا نهاية شرق كريت، وذلك عند سقوط قوة كنسوس وانهيار الحضارة المينوية. ثم يقرر " هول " بعد ذلك أن موطن الفلسطينيين إنما كان في حقيقته في ليسياوكاريا، ويقرر " بونفايت " بعد دراسة لغوية لتغير اسم الفلسطينيين أن الفلسطينيين شعب " هندوأوربي " أتى من كريت، ولكنه لم ينشأ بها أصلاً.

ويذهب " وينرايت " إلى أن الفلسطينيين من كفتور، ولكنه يرى أن كفتور ليست كريت، ذلك لأن فكرة أن كفتور هي كريت لا تعتمد على شيء أكثر من ترجمات التوراة التي تتحدث عنها على أنها جزر كفتور، ثم وجد بعد ذلك أن جزيرة بـ (كريت) هي جزيرة مناسبة وكبيرة تصلح للغرض، ورغم ذلك فإن الكلمة العبرية التي ترجمت جزر إنما تعني أصلاً الأرض الساحلية، وتستعمل مثلاً لشاطئ فلسطين، وهناك أدلة أثرية تجعل الإصرار على الاعتقاد بأن كفتور هي كريت، يجرنا إلى اضطراب لا نهاية له.

ويرى " وينرايت " بعد ذلك أن الفلسطينيين قد أتوا من كفتور، وأن كفتور هذه إنما كانت بلداً عند نهر كاليكادنوس، كما يظهر ذلك من ترجمة كفتور بقبادوقيا في الترجمة التوراتية سبتواجنيتا مرتين، ذلك لأن المترجمين ربما كانوا في عمل بمملكة قبادوقيا العظيمة، كما أن كابديرس إنما كان لقباً لملك كفتور، والتي تعادل هنا " سليسيا "، ومن ثم فمن

الواضح أن الفلسطينيين كانوا قد احتلوا " سليسيا " الغربية، والأكثر احتمالاً أنَّ المنطقة أعلى وأسفل نهر كاليكادنوس إنما كانت من " سليسيا - تراشيا " وسواحلها. وينتهي " وينرايت " إلى أن مجموعة قبائل الفلسطينيين ثيكر ودنين إنما يكونون مجموعة من القبائل في سليسيا، الفلسطينيون والثيكر في الجزء الغربي من البلاد، بينما دنين في الجزء الشرقي منها(١٢).

ويرى العالم الأثري التوراتي " أولبرايت " أنه في أوائل القرن الثاني عشر استقرت أقوام جديدة من جزر وسواحل البحر الأبيض المتوسط على ساحل فلسطين، ونعرف عن الفلسطينيين أكثر مما نعرفه عن غيرهم من شعوب البحار، كما يسميهم المصريون. وقد قدم " ج. برارد " (J. Berard) و " جورجيف " (V. Georgiev) في سنه ١٩٥٠ - ١٩٥١ الدليل على أن الاسم (فلسطين / Philistine) هو نفس الاسم (فلاسجيان / Pelasgian) يؤيد دليل الفخار أنهم جاؤوا من البحر الإيجي (١٣).

ويذكر المؤرخ الدكتور " فيليب حتى " متأثراً بخطاب الدراسات التوراتية: أن مما يساعد في الدلالة على أن الفلسطينيين كانوا أوروبيين - الرسوم التي وجدت على البناء التذكاري الذي أقامه رمسيس الثالث، كما يدل على قدومهم من جزر اليونان وخاصة كريت نموذج الخزف الذي أدخلوه، وبما أنهم أتوا معهم نساؤهم، فإنهم ظلوا مترفعين في أول الأمر يشكلون طبقة عسكرية أجنبية تقيم في الحاميات، وتمثل حضارة أجنبية، وقد نظمت مدنهم الخمس بشكل ممالك مدن كل منها تحت حكم سيد،

ولكنها جميعاً كانت تشكل اتحاداً، ويبدو أن السيادة كانت لمدينة أشدود[١٤].

نتساءل ههنا: كيف توصل باحثونا الأجلاء إلى هذه الفرضية؟ الجواب ببساطة أنهم اعتمدوا على ما ذكره محرّر العهد القديم في سفر التكوين (١٠: ١٣ - ١٤): " ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم. الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم ". وما جاء في سفر صفينا (٢: ٤ - ٥): " لأن غزة تكون متروكة، وأشقلون للخراب. أشدود عند الظهيرة يطردونها، وعقرون تُستأصل. ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين! كلمة الرب عليكم: يا كنعان أرض الفلسطينيين، إني أخربك بلا ساكن ". ويضاف لذلك ما ذكره سفر حزقئيل (٢٥: ١٦): " هكذا قال السيد الرب: هأنذا أمد يدي على الفلسطينيين وأستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل البحر ". وعلى ما ذكره في سفر صموئيل الأول (٣٠: ١٤): " فإننا قد غزونا على جنوبي الكريتيين، وعلى ما ليهوذا وعلى جنوبي كالب وأحرقنا صقلغ بالنار ".

أما عالم الآثار " سير ألن جاردنر " فيذكر أن: البلست هم الفلسطينيون، وهم من منحوا اسمهم لفلسطين والذين تتناولهم أحاديثنا اليوم بطريقة تدعو إلى الانتقاص من قدرهم بغير حق، ومن المتواتر أنهم جاؤوا من كفتور أو كريت، ولكن ربما كانت هذه مرحلة فقط من مراحل تجوالهم في هجراتهم[١٥].

عرب لا أوربيون:

يذكر " روبرتسن سميث " أن الفلسطينيين يوصفون أحياناً بأنهم شعب غير سامي [*]، إلا أنه ثبت عدم كفاية الأسانيد التي تؤيد هذا الرأي، ورغم دخولهم إلى فلسطين عبر البحر ربما من كريت، إلا أنهم كانوا إما من أصل سامي أو كانوا على الأقل يصطبغون بالصبغة السامية بالفعل، سواء في اللغة أو في الديانة لدى هجرتهم [١٦].

فآخر الدراسات التاريخية تشير إلى أنَّ سكان كريت الأول - على ما يبدو - الذين أقاموا الحضارة المينوية الزاهرة فيها، وصلوا إليها ما بين الألف الرابع والثالث من آسيا الصغرى، وأغلب الظن أن حضارتهم تأثرت بالحضارة السومرية، ولقد أصبح الآن معروفاً أن أهل كريت كانوا يتحدثون لغة سامية إلى جانب اللغة اليونانية في صورتها البدائية، بالرغم من أن الوثائق سجلت اللغتين مكتوبتين بطريقة مقطعية واحدة. أما من ناحية الجنس، فقد قام بعض العلماء بفحص جماجم الكريتيين، وتبين أنها مستطيلة الشكل، وأنها تدل على جنس البحر الأبيض المتوسط، ولكن بعضها كان مستديراً، ويبدو أن الجنس الألباني اعتاد التردد على الجزيرة [١٧].

ويشير العلامة " طمسن " إلى أن كلمة فلسطين لا تستعمل لوصف مهاجرين من بحر ايجه وكليكا، كما أنها لا تستعمل لوصف العناصر المشاغبة في الإمبراطورية المصرية الأخيرة، فقد استعملت في وقت متأخر جداً اسماً لشعب السهل الساحلي الجنوبي ولجماعة تنتسب إلى سكان الدول المدينية في فلستيا. أما سكان السهول الساحلية الفلسطينية وكانوا من أصول مختلفة ومعظمها من الساميين الغربيين الأهليين في

فلسطين، من حيث ثقافتهم المادية ولغتهم وديانتهم. وتعبير (فلسطين) يشير مبدئياً إلى حقيقة جغرافية، وفي القصص التوراتية يكتسب سمة إثنية محدودة خيالية، كمناهض رئيس لظهور شعب إسرائيل، كما في قصص القضاة وصموئيل
١ - ٢. الفلسطينيون لم يوجدوا بوصفهم شعباً إلا في المنظور العرقي التوراتي اللاحق، وإشارات النصوص الآشورية إلى (بي - ليس - تي) مثل الإشارات إلى (آ - يو - دي) جغرافية تناقض الإشارات الإثنية [١٨].

والكلام ما زال لنفس العالم: " والقول بأن الفلسطينيين يمثلون شعباً غريباً متطفلاً على فلسطين، يجب إنكاره. التأثير الوارد من بحر إيجه جزئي، وعلى أساس البينات المعروفة كان هذا التأثير هامشياً وسطحياً في اللغة والديانة والأشياء المادية حتى في أقدم أشكال الفخار المدعوة فلسطينية. كانت ثقافة المنطقة الساحلية وطنية تماماً ويمكن القول بأنها متأثرة بحضارة بحر إيجه ولكنها سامية تماماً وذات طابع حضاري فلسطيني [١٩].

والحقيقة أن المخلفات الحضارية الفلسطينية في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد وبضمن ذلك الساحل الفلسطيني، تعتبر استمراراً لحضارة العصر البرونزي الأخير. ومن أهم المكتشفات التي تنسب عادة للفلسطينيين فخار ملون بأشكال هندسية وطيور، وتظهر أيضاً أشكال حلزونية ومجموعات من أنصاف دوائر متشابكة، أما أشكال الأواني نفسها فمشابهة للأواني التي عثر عليها في جزيرتي رودس وقبرص، ولكنها غير مطابقة لها، ومن الصعب اعتبارها مستوردة، بل على العكس

فإن طينة الفخار محلية وصانعوها محليون أيضاً رغم تأثرهم بصناعة الفخار المعروفة في الجزر الإيجية.

وظهرت التأثيرات الكنعانية [الفينيقية] المحلية على مخلفات الفلسطينيين من خلال أسماء آلهتهم أمثال داجون وعشتروت، كما أن العمارة من مبان عامة ومنازل مستمدة من التقليد المعماري للعصرين البرونزيين الوسيط والأخير، والحياة الدينية عند سكان الساحل الفلسطيني كنعانية [فينيقية] الأصل، وكذلك المباني الدينية وأهمها: سلسة المعابد المتعاقبة في تل القصيلة التي أنشئت على غرار المعابد الكنعانية / الفينيقية مع ما يظهر عليها من تأثيرات مصرية وإيجية.

وبذلك يصعب على الباحث التفريق بين ما يمكن نسبته إلى المجموعات البشرية التي سكنت فلسطين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، فوجود هذا الصنف من الفخار أو ذاك في منطقة معينة لا يدل بالضرورة على سكنى هذه المنطقة من مجموعة إثنية مختلفة، ولكنها غالباً ما تعني أن هذه المنطقة وقعت تحت تأثيرات خارجية [٢٠].

وبالإضافة لضعف أدلة علماء التوراة والآثار ومنطقهم، فإن النقطة الأساسية التي ترغمنا على إهمال الرأي بأن الفلسطينيين يمثلون شعباً غريباً، تكمن في تجاهل أهل الاختصاص لمسألة جوهرية تتعلق بتاريخ المنطقة، ألا وهي أن ما من شعب ينتمي لخارج بوتقة الإقليم الحضارية تمكن من فرض اسمه على منطقة أو إقليم. فالإغريق والرومان قاموا بتغيير أسماء بعض المدن والأقاليم في المشرق العربي، ومنها مدينة عمان التي أضحت فلادلفيا في عهد الرومان، لكن هذه المناطق سرعان

ما استعادت أسماءها الأصلية بعد رحيل الغزاة. برأيي إن الحال نفسه ينطبق على فلسطين إذ أستبعد أن الاسم فلسطين يعود لشعب مجهول الهوية والأصول، لم يترك لنا أي أثر عن نفسه أو ثقافته، حتى عبر طرف ثان.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن التوراة تذكر " الفلسطينيين / فلشتيم " بالعلاقة مع إبراهيم، الذي يربط إيضاً بالفترة الزمنية الواقعة بين القرنين العشرين والسابع عشر ق. م، أي خمسة قرون قبل ورود أي إشارة لـ " شعوب البحر " في النقوش المصرية القديمة.

ولأنَّ قناعتي تنطلق من أن اليمن ومحيطه، هي التي احتضنت تجربة بني إسرائيل، فإن البحث عن " فلشتيم / فلسطينيي التوراة " يجب أن يتم هنا. وفي الوقت نفسه لا يجوز علمياً نبذ إمكانية أن يكونو الفلسطينيون ضمن الشعوب التي أطلق عليها في النقوش المصرية " شعوب البحر " كاحتمال. قد يثير هذا الرأي استغراباً، بل وانتقده بعض الباحثين العرب، الذين يبيعون التاريخ لمن يدفع أكثر. مما يثير التساؤل الأتي: كيف يكون الفلسطينيون ذاوي أصول يمنية، ومهاجرين من شعوب البحر في آن واحد؟ والجواب بمنتهي بساطة: وهو أنه من المثبت تاريخياً أن جزيرة كريت قد شملتها عمليات استيطان بواسطة اليمنيين [فينيقيون أو معينيون]، وقاموا بتأسيس الحضارة المينوية (Minoans) في كريت، فقد أشارت المصادر والدراسات إلى علاقاتهم باليمن منذ وقت مبكر، إذ يذكر " د. بافقيه "، نقلاً عن المؤرخ الروماني " بليني " (Pliny) أن المعينيين قد انتشروا في أرجاء العالم القديم.

وربط بعضهم بين المعينيين والمينويين سكان كريت القدامى، وقالوا برابطة دم بين الفريقين [٢١].

ومن الجدير ذكره أيضاً أن الكثير من المدن قد استعمرت يوماً بواسطة الفينيقيين [ذوي الأصول اليمنية كما أثبتنا في مؤلفنا السابق " موسى وفرعون في جزيرة العرب "] ضمن " الهجرات العربية " القديمة فيما قبل التاريخ التي " امتدت على أفريقية الشمالية والبلقان وإيطالية وأسبانية، وعرفت بأسماء موجات أقوام البحر المتوسط "، كما صرحت به المراجع الأثرية الحديثة. ومن المحتمل جداً أن بعضهم [الفينيقيين أو المعينيين] بعد أن اتصلوا طويلاً بالقبائل اليونانية رجعوا ثانية شرقاً إلى موطنهم الأصلي فلسطين، فبغض النظر عن أسماء بلدانهم، فإنا نرى عدداً من أسماء أشخاصهم سامية / جزرية، ومنهم أبيمالك، دليلة، عبيد أيدوم - وربما أيضاً أشبي، صاف، جوليات، رفح.

ويظهر أن ديانتهم تطبق الأساليب السامية نفسها في تقديس معبودين اثنين ذكر وأنثى، فلداجون آلهة من الأسماك بجانبيه، والأسماء داجون وبلعزبوب آلهة كنعانية [فينيقية] أصلاً، ولا ينفي هذا كون الفلسطينيين لا يمارسون عمليات الختان، فربما أبطلوا إجراءها عندما هاجروا إلى كريت.

ومن الأمور الواجب أخذها بعين الاعتبار في هذا المقام أن المؤرخ " هيرودوتس " (٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م) سجل في مؤلفه «مكتبة التاريخ»، قوله: " والفينيقيون كانوا يسكنون سابقاً سواحل بحر إريتريا (البحر الأحمر) كما يقولون هم أنفسهم، إذ اجتازوا من هناك إلى سواحل

سورية فقطنوها. والقسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلى تخوم مصر يسمى فلسطين " [٢٢].

ونتساءل ههنا ما الذي يجبرنا على أن نجعل من الفلسطينيين شعوباً مختلفة من الوجهة القومية عن شعوب المنطقة؟ فهل هم حقاً غرباء إلى هذا الحد؟ وهل هناك فرق صوتي بين " فينيقيين " و " فلسطينيين "؟ ألسنا هنا، أيضاً، الضحايا الراضين بأفكارنا المسبقة التوراتية؟

ويؤكد البحاثة الأثري الفرنسي " هيلير دو بارانتون " (Hilaire de Baranton) في كتابه «الايتروسكيون في غربنا وفي أصولنا الفرنسية» (Les Etrusques en Notre Occident et nos Origines Francaises) ما انتهينا إليه، قائلاً: إنَّ " الإيتروسكيين " هم فرع من الفينيقيين السوريين، وإن " الفلسطينيين " هو أحد أسمائهم، وأن معنى " الإيتروسك " في اللغة المصرية القديمة هو " بحارة النيل "، وأن معنى " الفلسطينيين " هو الجنود المحاربون. وزاد الباحث على ذلك فقال عن هؤلاء الفينيقيين السوريين إنهم يحملون أسماء كثيرة مختلفة، وذلك تبعاً لمهنهم أو لعقائدهم، ثم أخذ يعدد هذه الأسماء ومنها " الفلسطينيون " عملاً بمهنتهم الحربية [٢٣].

وفي عام ١٩٨٠، كتب باحثٌ آخر هو الأستاذ " مايكل غرانت " (M. Grant) كتاباً عن الإيتروسكيين وكانوا عنده، في خلاصة القول، ينحدرون من أصل كنعاني [فينيقي][٢٤].

لذلك ولكل ما مر بنا، فإني مضطر للاستنتاج بأن " الأصول الأجنبية لفلسطينيي الحقبة الآشورية وأصولهم المزعومة من (كفتور) مجرد خيال خلقته الروايات التوراتية قريناً لأصول يهوذا أنفسها، فيهوذا والفلسطينيون كلاهما كيانات ثقافية أهلية في فلسطين، وناتجة عن حضارة العصر البرونزي وسكانه، الذين كانوا خلال العصر الحديدي الثاني، متمايزين في مجموعات شبه إثنية، على شكل دويلات تحت حكم إمبراطورية خارجية " (٢٥).

بهذا نكون قد تمكنا من استعراض الآراء الأساسية بخصوص الفلسطينيين، وبيّنا وهن الأدلة التي وظفها أهل الاختصاص لتثبيت آرائهم بأن الفلسطينيين أقوام طارئة على فلسطين ضاربة بجذورها في بحر إيجة، أو جزيرة كريت أو أي موطن أخر بعيداً عن المشرق العربي، اللهم إلا لغرض مشبوه هو استبعاد الفلسطينيين من العناصر القاطنة بالمشرق العربي، وحسبانهم غرباء على فلسطين، لتسويغ اعتبار فلسطين سامية من الفرع العبراني؟! لكن يبقى شيء هو " أن العرب الفلسطينيين الذين مازالوا يعيشون في فلسطين هم الأبناء الحقيقيون للسكان الساميين الأساسيين، وجذورهم ليست قائمة في سورية، أو لبنان، أو الأردن، أو مصر، بل البلاد التي عرفوها ولم يعرفوا سواها قط هي بلاد فلسطين " (٢٦).

إذن فالفلسطينيون مزيج عرقي له نواة قوية عريقة في القدم، وقد كان أجداد اللاجئين العرب الفلسطينيين، الذين يحيون اليوم في الغربة حياة بائسة، يحرثون الحقول في فلسطين قبل ثلاثة آلاف عام، ويبدو أنه

مما يتصل بذلك أن اللاجئين الفلسطينيين يكنون لوطنهم حباً لا يمكن تصوره أبداً، إنهم يثيرون انطباعاً مؤداه أنهم شعب يضرب بجذوره في الأرض متعلقاً بكل بيت ريفي صغير، وبكل شجرة برتقال، وبكل حجر، فليس الفلسطينيون رعاة لا يعنيهم كثيراً أن يستقروا هنا تارة، وهناك تارة أخرى [٢٧].

* * *

مراجع الفصل الخامس

(١) د. زياد منى، **مقدمة في تاريخ فلسطين القديم**، ط١، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٦٦.

(٢) سير ألن جاردنر، **مصر الفراعنة**، ترجمة: د. نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص (٣١٣ - ٣١٦).

(٣) **د. زياد منى**، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٦.

(٤) **د. زياد منى**، المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٥) د. محمد خليفة حسن، **رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته**، مطبعة الوادي الجديد، ١٩٩٥، ص ٢٣٩.

(٦) كيث وايتلام، **اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: د. سحر الهنيدي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ١٩٩٩، هامش ص ١٥٣. مقدمة الكتاب.

(٧) جفريز، **فلسطين: إليكم الحقيقة**، الجزء الأول، ترجمة: أحمد خليل الحاج، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص ٤٦.

(٨) مايزر، **فجر التاريخ**، ترجمة: على عزت الأنصاري، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٢، ص (١٨٧ - ١٩٠).

(٩) تومس طمسن، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح على سوادح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٨٨.

(١٠) سليم حسن، **مصر القديمة**، الجزء السابع، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١، ص (٧٩ - ٨٠).

(١١) جيمس هنري برستد، **تاريخ مصر من أقدم العصور**، ترجمة: حسن كمال، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٣٨٩.

(١٢) د. محمد بيومي مهران، **مصر والشرق القديم**، الجزء الثامن، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص (٤٥٦ - ٤٥٧).

(١٣) وليم أولبرايت، **آثار فلسطين**، ترجمة: زكى إسكندر ود. محمد عبد القادر محمد، مطابع الأهرام، ١٩٧١، ص (١٧٦ - ١٧٧).

(١٤) د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٩٧.

(١٥) **سير ألن جاردنر**، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٣.

(١٦) روبرتسن سميث، **محاضرات في ديانة الساميين**، ترجمة: د. عبد الوهاب علوب، مطابع

الأهرام، ١٩٩٧، ص ١١.

(١٧) د. سيد أحمد الناصري، **قضية التاريخ القديم**، القاهرة، ١٩٧١، ص (٨٠ - ٨٥).

(١٨) **تومس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص (١٨٧ - ١٨٨).

(١٩) **تومس طمسن**، المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٢٠) **الموسوعة الفلسطينية**، ألفها نخبة من العلماء، القسم الثاني، المجلد الثاني، ط ١، بيروت، ١٩٩٠، ص (١١٢ - ١١٤).

(٢١) محمد عبد القادر بافقيه، **تاريخ اليمن القديم**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٨.

(٢٢) هيرودوتس، **تاريخ هيرودوتس الشهير**، ترجمة عن طبعة لارشي الفرنسي: حبيب أفندي بسترس، مجلدين، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، ١٨٨٦ - ١٨٨٧، ص ٤٦٧. (مصور).

(٢٣) د. محمد معروف الدواليبي، **دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضارتهم الإنسانية**، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣، ص (١٢٩ - ١٣٠).

(٢٤) د. على فهمي خشيم، **آلهة مصر العربية**، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ٤٤.

(٢٥) **تومس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠.

(٢٦) وليم بيكو، **سرقة أمة**، ترجمة: د. سهيل زكار وعدنان برنية، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٥، ص ٢١.

(٢٧) د. فرانتس شايدل، **إسرائيل أمة مفتعلة**، ترجمة: محمد حديد، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٩، ص ١٧٥.

* * *

الفصل السادس

الحضارة الكنعانية . .
ملامحها ، سماتها ،
ومظاهرها

الفصل السادس:
الحضارة الكنعانية..
ملامحها، سماتها، ومظاهرها

مجدولين أبو الرب

بالرغم من قلة الكشوف الأثريه التي توصل لها العلماء بخصوص " الحضارة الكنعانية "، إلا أن القليل الذي وصلت كان كفيلا بالكشف عن حضارة حية غنيه وراقيه عند العرب الكنعانين، ليس هذا فحسب، لكنها، أيضًا، تقدم دلالات واضحه على أن ما يدعيه اليهود من مؤشرات حضارية، وخاصة ما تعلق بالأدبيات، إن هو إلا سرقات حضارية، وأن ما يدعى " حضارة اليهود " أو " حضارة العبرانيين " أخذت قاعدتها العريضة عن الحضارة الكنعانية نقلاً وانتحالاً.

وللبحث عن موضوع " الحضارة الكنعانية "، إعتمد الباحثون العرب على نتائج الرحلات الاستكشافية للباحثين:

وعلماء الآثار الأجانب، وحول ذلك يمكن ملاحظة ما يلي:

- جاء الإهتمام بالمنطقه والتنقيب عن آثارها متأخرًا، ويعود ذلك إلى بدايات القرن الماضى تقريبًا.

- نشرت نتائج البحوث التي أجراها علماء الآثار والتاريخ من أمريكيين وأوروبيين بلغاتهم، فجاءت المراجع بلغات أجنبيه، أما المراجع العربيه (الترجمات) فهي قليله جدًا، ناهيك عن ندرة الأبحاث الأثريه الخاصه ببعثات عربيه.

- اعتمد الباحثون بشكل رئيس على المكتشفات الأثريه، والتي تم تفسيرها من منطلقات المنقبين، وخلفياتهم وأهدافهم، وكان معظمها متحيزًا للجانب الصهيوني.

- انصبّ اهتمام الباحثين في القرن الماضى، ولا سيما علماء التوراة، على فترات العصر الحديدى، من أجل توضيح، أو اثبات صحة الكتاب المقدس، وسعى الصهاينة العاملين في الأثار، وعلماء الأثار المنحازين للصهيونيه، إلى ربط العصر الحديدى بالتاريخ اليهودى، لإيهام العالم بالحق التاريخى المزعوم لليهود في فلسطين، ورافق ذلك اغتصاب المادة الحضارية، وتشويهها بالربط القسري، بين المكتشفات الأثرية، والعهد القديم. ولكن دراسة الآثار، والتاريخ، لا تعطى، ولا تسلب حقًا، ثم أن فصول العهد القديم، التي تتضمن معلومات تاريخيه كتبت من وجهة نظر معينه لم تكن معاصرة للأحداث نفسها. [١]

لكن ذلك لم يكن ليخفى الحقائق، سيما وأن بعضها كان ساطعًا سطوع الشمس ليجلو أى زيف أو انتحال، فبرزت مظاهر الحضارة الكنعانية، بفضل بعض العلماء ممن تحلوا بالموضوعيه والنزاهه، أمثال العالم هـ. ى. ديل ميدكو في كتابه (التوراه الكنعانية)، والذي جاء ترجمة للوحات الفخارية، التي عثرت عليها، بعثة السيد شيفر، في أوغاريت القديمه

(رأس الشمر)، وكانت دراسه العالم " ميدكو " لتلك الألواح واحدة من عشرات الدراسات، لكن ما قام به هذا العالم من جهد في الفترة (١٩٤٣ - ١٩٤٧) في باريس، مكّنة من دراسة وترجمة أدب أوغاريت الكنعانى عبر النصوص المكتشفه، واستطاع ان يزيح حجاب الغموض عن كتاب التوراة، لا بل فسر المعجزة بقوله: " إن التراث اليهودى مأخوذ من التراث الكنعانى، وفي قسم آخر عن تراث بلاد الرافدين " [٢].

العرب الكنعانيون:

خرج الكنعانيون موجه واحدة من الجزيرة العربيه مع العموريون في آواخر الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن المؤرخون كانوا يتميزن عادة بين العموريين، والكنعانيين، وظلوا على ذلك وقتًا طويلاً، ثم اتضح أن الاختلاف بينهما هو في التسمية، فحسب، ومرده بالأساس إلى أسباب جغرافية، فالذين استقروا غرب بلاد الرافدين مباشرة، عرفوا بإسم العموريين، بدءً من مطلع الألف الثانى قبل الميلاد، لأن " عمور " تعنى " الغرب " لدى سكان الرافديين. وأطلق على من استقر منهم على ساحل بلاد الشام، وفي جنوبها (فلسطين) اسم كنعان، وقد عرفهم اليونان على ساحل بلاد الشام باسم الفينيقيين [٣].

كانت الجزيرة العربية، منبت العرب، قد شهدت هجرات واسعة متجددة، إلى ما حولها من المواطن البشرية، وكوّن أولئك العرب حضارت بابل وأشور وأرام وكنعان وفينيقيا. اخترعوا الزراعه فاستنبتوا الأرض، وأنسوا الحيوان، وإستخرجوا المعادن وصنعوها، وشيدوا المدن، والمعابد، واخترعوا الأبجدية، فكتبوا، وبرعوا في الفنون

التشكيلية، فأنتجوا الروائع منها نحتًا وتصويرًا، وسنوا القوانين، وابتدعوا التنظيم الإدارى التجارى، وأسسوا النظم السياسية، واستخدموا السفن، فعلوا كل ذلك بمبادرتهم، وبتفاعلهم مع الشعوب حولهم، فرسموا بذلك كله خطًا جديدًا للحضارة الإنسانية، تناقلتها عنهم شعوب الشرق والغرب [٤].

بهذا الصدد يقول الدكتور " مورغات ": " أننا نعلم من خلال الحفريات التي أجريت في جبيل في ساحل بلاد الشام، أن أناسًا ساميين غربيين، قد قطنوا بلاد الشام على الأقل، منذ نهاية الألف الثالثة. قبل الميلاد، وأن هؤلاء كانوا على قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين من سلالة حمورابى. أما من ناحية التسميه الخاصه، فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين، ولغتهم يجب أن تكون نفس اللغة، التي اقتبسها أولئك اليهود اللذن نزحوا إلى الأرض المقدسه من السكان الأصليين قبلهم هناك، أى من الكنعانيين، وكذلك ينتسب الفينيقيون الأوائل أى سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر إلى هذه المجموعه الساميه الغربيه أيضا [٥].

الفينيقيون هم من علّموا العالم كله فن الملاحة البحرية، وصناعة السفن، والأبجدية، والتعدين، وابتكروا العجلة، وأبدعوا في الصناعات اليدوية الدقيقة، والزجاج وفي علم الحساب، والنجوم، والأبراج، وهم من اكتشف كروية الأرض، ودار حول أفريقيا، واستخدم النجم الفينيقى (نجم القطب) في الملاحة، وفوق هذا كله كانوا أول أمة في التاريخ تاجرت في البر والبحر، وتصل موانئهم على البحر المتوسط بمراكزهم على الخليج العربي، حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها من إرواد وصور

وصيدا[٦].

مقومات الحضارة الكنعانية :

توفرت للكنعانيين مجموعه من الشروط والمقومات التي هيأت لانطلاق حضارتهم، اعتبرت معظم هذه المقومات شروطًا للحضارة، وقبل الحديث عن تلك المقومات نتوقف قليلاً عند مفهوم " الحضاره " بشكل عام.

فالحضارة لغة (بفتح الحاء أو كسرها) تعنى في العربيه الإقامه في الحضر. اى في المدن و القرى بخلاف البداوة، وهى الإقامه المتنقلة في البوادى. فأصل المعنى إذن هو الإستقرار، الذي ينشأ عن زراعة الأرض، هو السبيل الذي تتاح فيه لأبناء المجتمع مجالات التطوير فإذا ولجوها، تقدموا في فنون اكتساب العيش، وبناء المدن، وتحصيل المعرفة، والانتظام الداخلي، والتعامل الخارجي، وكات لهم حظهم من الرفاة والإبداع ومن الحضارة بوجه عام [٧]. وقد دار مفهوم الحضارة عند العرب، عمومًا على ذلك النمط المتناقض للبداوة، والمنشئ للمدن، والأمصار. المستقر فيها المتصف بفنون منتظمه من الملك والإدارة، ومن مكاسب العيش، ومن الصنائع والعلوم، ومن وسائل الدعة والرفاه. وقد جاء ابن خلدون في محاولته استكشاف " طبائع العمران "، أى قوانين تطور المجتمعات، فجعل البداوة والحضارى طوريين طبعيين من أطوار المجتمعات البشرية، واعتبر الحضارات البشرية، واعتبر الحضارة آخر هذه الأطوار و " غاية العمران " [٨].

أولاً الإستقرار والنظام:

كانت أولى مقومات الحضارة عن الكنعانيين، وأهمها، الاستقرار وزراعة الأرض. فالزراعة تعنى الثبات، وتقتضى أنواعًا من التعاون تفوق تلك التي تقوم في المجتمعات القنصية، أو البدوية، وتوفر موردًا للأمن، والاستمرار وتتيح الفراغ لصنع الأدوات، أو الإنصراف إلى أعمال لا تنحصر بمجرد تحصيل العيش، وحفظ البقاء، وبهذا فهي تفتح إمكانيات الإنسان، وتقوى فعله في محيطه وفي نفسه. وقد اتسمت أرض كنعان بالخصوبة، وبرع الكنعانيون في زراعتها، والاستفادة من خيراتها، وكانت زراعة الكروم والتين، والزيتون والقمح، من أهم المزروعات القديمة في كنعان. وعندما تصف مدونات الحاكم المصرى تحوتمس الثالث الغنائم التي أخذها من المدن الكنعانية، نجد في القائمه ٢٠٧.٠٠٠ كيس من القمح جلبها تحوتمس من كنعان [٩].

لكن الحضارة، تتطلب مستويات أعلى من التعاون الذي تقتضيه طبيعة العمل في الزراعة، يمكن أن نلمس ذلك من الجهود التي انبثقت منها الحضارت التاريخية الأولى، كإنشاء السدود، وحفر الأقنية الواسعة والمتفرعة، وغيرها. وقد توفر مثل هذا التعاون لدى الكنعانيين، لا أدل على ذلك من إنجازاتهم الحضاريه في مجال الصناعة، وركوب البحر، وغيرها مما سنتناوله لاحقًا.

كذلك، تتطلب حضارة من الحضارت قدر السلطة والنظام، ومن هنا تنشأ أنواع من الروابط الاجتماعية نجدها في كل حضارة من الحضارات مهما تكن أحوالها، ومن هذه الأنواع العادات والأعراف. ومن وسائل

تنظيم المجتمع وتنسيق علاقات أفراده بعضهم ببعض وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى، والشرائع والقوانين، ويرتبط بذلك التنظيم السياسي، وما يتصل به من شؤون الحكم والإدارة [١٠].

وقد كان للكنعانيين، عاداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، وشرائعهم المستمدة من فلسفة عميقه جسّدت نظرة الكنعانى للحياة، وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالدين، وأخذت دورها في تنظيم المجتمع تغلغلت بعض هذه العادات، والتقاليد إلى اعماق نفوس الشعب، واختلطت بمشاعرهم، لتسرى في أشعاره وقصصه وأمثاله.

وكانت لديه الإدراة، وشكلاً من الحكم، وارتبط بمعتقداته، وقد عكست أشكال التنظيم هذه لون الحضارة الكنعانية، وخاصة شكل العلاقه بين الشعب / الآلهه / الحاكم، والتي سنتناولها في الجزء المخصص للحديث عن مظاهر الحضارة الكنعانية.

ثانيا الدين:

أما الفكر الدينى الكنعانى، فقد سما وتطور، ولعب دورًا مهمًا في حياة وأخلاق الكنعاني.

وللدين دلالة حضارية، فهو يتصل بجدور متغلغلة في الطبيعة البشرية، ولفهم أية حضارة من الحضارات، لابد من سبر غور الدين السائد فيها، وإدراك روحه وعقائده ونظمه، فهو من ناحية رابطة اجتماعية، تصل للناس ببعضهم، وتلبى حاجاتهم إلى التعاون والتشارك، وتؤلف بين قلوبهم وتنظم سلوكهم، وهو كذلك يتصل بموقف الإنسان من

الطبيعه عندما يحاول استكناه أسرارها، واستكشاف القدرة التي تسيرها، وتحكمها، وهذا جذر ثان، أما الجذر الثالث، فهو ما تضطرب به نفس الأنسان من أحاسيس، ومشاعر وبطبيعته الذاتية، فهو يحب ويكره، ويرضى، ويثور، ويتفائل، ويتشائم، ويفرح، ويألم، وهو بصفه خاصة يخشى الموت الذي يحرمه لذائذ الحياة، ويلقيه في أغوار المجهول [١١]. والدين يتجيب لهذه المشاعر ويضبطها ويوجهها فيجد فيه الإنسانما يهديه في حريته وما يقويه في ضعفه، ويرفعه ويرقيه في مراتب انسانيته [١٢].

وقد كان للعقيده التي يعتنقها الكنعانى تجسيدًا لإدراكه لما حوله، ولنفسه، وجمعت المعانى، والقيم، التي آمن بها، وكونت مصدرًا للقواعد السلوكية في الحياة الفردية والاجتماعية، وغدت أساسًا للتنظيم، ومصدرًا للحكم والإدارة.

كان الكنعانيون العرب أول من نطق بإسم الله خالق السموات والأرض، وكان يعرف بإسم " إيل " أو الإله أو الله في العربيه الفصحى. وكانت الديانة الكنعانية تعتبر من ارقى ديانات الأمم السامية الوثنية فعل الرغم من تأثير الثقافة المصرية، والثقافة البالبلية، فيها لاحتكاكها بهذه الثقافات، إلا أنها احتفظت بطابعها البدوي السامي، وبالتقاليد القديمه السائدة في جزيرة العرب، فكان أكبر آلهة الكنعانيون، وأعلاها مقاما الإله " إيل " الذي لقب بالإله العلى أو الإله العظيم. وقد اعتبر الكنعانيون جميع أرض كنعان أرض الإله إيل، وهو القادر على كل شيء، والحاكم المطلق لا ينافسه منافس، ولا يستطيع أحد ان يغير من إرادته وحكمه السامي، وقد تسمى بسيد الآلهه الحامى. وكلمة إيل أى الإله، أو الله كلمة

عربية الأصل، ذلك لن ملوك العرب في الجزيزة العربيه قبل الإسلام كانوا يقرنون اسمائهم بإسم الإله ايل تيمنا وتبركا به. وعلى غرار ما نستعمله الآن بإضافة اسم الله إلى اسم الشخص مثل عبد الله وعبد الإله وغيرها (١٣). وقد ورد اسم الإله " إيل " في الكتابات الفينيقيه بإسم " ايل داجون " (١٤). أو بصيغة " أيلوس " وهو الإله الكنعانى نفسه (١٥).

وحول الديانه الكنعانية يقول الدكتور ولفنسون: " للكنعانيين عدا تأثيرهم العلمي والصناعي على العالم فضل عظيم آخر، وهو التأثير الدينى في جميع الأمم السامية، فقد كانت ديانتهم أرقى ديانات الأمم الساميه الوثنيه، ولذلك تأثرت بها ديانات بابل، وورث الأراميون، والإسرائيليون، والعرب هذا التأثير (١٦). وكان من أشهر ملوك الكنعانيين الموحدين " ملكى صادق " الكاهن الأعلى الموحد، ملك اورشليم الذي بارك ابراهيم الخليل، بإسم الإله العلى خالق لسموات والأرض (١٧).

ثالثا: اللغة و الكتابة:

تعتبر اللغة والكتابة من وسائل التفاهم والتواصل في سبيل تعامل الأفراد وارتباطهم، وتربط المجتمع بسواه من المجتمعات، واللغة، وصورة من صور الحضارة، أما الكتابه، فتعتبر أساسًا من أُسس التحضر وشرطًا من شروطه، وتتخذ دليل من الأدله على انتقال المجتمع من مرحله " ما قبل التاريخ " البدائيه إلى مراحل التاريخ الحضاريه.

وتعِّبر اللغة عن الحضارة من وجهتين رئيسيتين: والمفردات والتركيب. فالمفردات تدل على مدى سعة خبرات المجتمع وعمقها. وبالتالى على نوع الحضارة التي يتميز بها فحينما تكون الخبرات

محدودة، تـأتى مفردات اللغـة محـدودة المعـانى ضـيقة الدلالـة والحضـارة المعنيـة بالأشـياء المحسـومه تكـون لغتهـا فقيـرة بالألفـاظ المعتبـرة عـن الشؤون الفكرية والروحية [١٨].

وقـد اعتبـرت " اللغـة الكنعانيـة " أصـل اللغـة العربيـة التـي كانـت مستعمله في العصر البرونزى. ويطلق عليها " لغة بيبلـوس "، فهـي ذات صلة اللغة العربيه التي كانت سائدة قبل الإسلام، وهذا مـا استطاع العالم اللغوى " جورج واندل هول " من التواصل اليه عبر حل رمـوز النقـوش الكتابيه التي تم كشفها في جبيل " بيبلوس " عبـر المقارنـات اللغويـه التـي قام بها، فوجد أن تلك النقوش تظهر علاقة وثيقه بين اربعة فـروع للغـات السـامية: الأكاديـة وللغـة إيبلا، والعموريـة " الأموريـة "، ولغـة بيبلـوس الكنعانية، ويذهب " هول " إلى القول بأن لغة بيبلوس الكنعانيـة المقطعيـة التركيب تعود بتاريجها إلى القرن الرابـع والعشرين قبـل الميلاد بـل أقـدم مـن ذلـك بكثيـر [١٩] أى أن اللغـة الكنعانيـة هـي لغـة مـن لغـة أم مهـدها الجزيرة العربيه تلونت محليا بعوامل جغرافية واقتصاديه وتارخيه [٢٠].

والكنعـانيون، عنـدما أخـذوا ينشـئون الـدول، ويرتقـون فـي حيـاتهم، يقبلـون علـى المعـارف والعلـوم لتتسـع خبـرتهم وتنضـج حضـارتهم، كـان يواكب ذلك اتساع وتطوير في لغتهم. فتفرغت الألفـاظ لتدل علـى تعـابير فرعيـة، وذلـك بالاشتقاق. ويرتبط ذلـك بخصـائص لغويـه وذهنيـه وتعـود بدورها إلى خصائص ومميزات الحضـارة. وهنـاك أيضـا " دلالـه التراكيب " في اللغة، أى كيف تؤلف هذه المفـردات فـي جمـل للتعبيـر عـن الأفكـار والمشاعر؟ ففي اللغات الهندية الأوروبية مثلاً، لا نجـد جمـلاً إسمية، بـل

كل الجمل يجب أن تحتوى على فعل. أما اللغات السامية، ومنها الكنعانية فنجد الجملة الإسمية، تحتل مكانتها بجانب الجمله الفعلية، وهذه أيضا تعكس خصائص اللغة، وبالتالى خصائص الحضارة التي تعتبر عنها [٢١].

أما ابتداع الكتابة فيعد عاملاً بارزًا من عوامل التكوُّين الحضاري وشرطًا من أوجب شروطه، ارتبط اختراعها وانتشارها بنشوء الحضارت وتطورها، فهي أداة ثابتة نافذة الفعل في النقل من جيل إلى جيل. ولما كانت الحضارة تتألف في جوهرها من المكاسب المتراكمة التي يحرزها الإنسان، فإن تلقى المكاسب والإنجازات الماضية، وحفظها، ونقلها مع المنجزات الجديدة إلى الإجيال المقبله هو نشاط من أهم الأنشطة الحضاريه [٢٢]. وهذا يؤكد أهمية تلك الخطوة الفاصلة التي أقدم عليها الكنعانيون، عندما كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة. هذا ما اتفق عليه العلماء، فالكنعانيون كانوا أول من استعمل الحروف الهجائية في الكتابة، وهي الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء، ويعود تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ ق. م، ومن الكنعانيين انتقلت الفينيقيين الذين نقولها بدورهم بين سنة ٨٥٠ و ٧٥٠ ق. م. إلى الإغريقية واللاتينية، وصارت تعرف في اليونانية باسمها العربي الأصل (الألف باء)، وقد احتفظت اليونان بالترتيب نفسه الذي وضعه الفينيقيون، ومن حيث تسلسلها، ومن حيث طريقة كتابتها من اليسار إلى اليمين، وفق الطريقه الأصلية [٢٣]. ويؤكد خبير اللغات " دايرنجر " أن مصدر اختراع الأبجدية (الفابيت) اللاتينية يرجع إلى منطقة فلسطين وسوريا،

وهى تنفرد بين جميع مناطق الشرق الأدنى، في هذا الاختراع الذي يمثل شبه جسر يجمع بين حضاري مصر وبلاد الرافدين. كما يؤكد د. ولفشون: " أن الخط الكنعاني (الأبجدية) وهو من صنع الكنعانيين، واختراعهم وحدهم، لأنه دليل مطلقًا على وجود أبجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الأمم " (٢٤).

وقد أطلق على الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء أسم كتابة طور سيناء، أو الأبجدية السينائية، وهذه الكتابة البسيطه جائت باللغه الكنعانية القديمة وتعد حلقة وصل بين الهيروغليفية التصويرية والأبجدية، وقد عثر عليها بالمعبد المصرى القديم، عند مناجم الذهب المصريه في سيناء. وقد وجد عدد من هذه النماذج، بالأحرف نفسها في جنوبى فلسطين، وكتبت كل هذه النماذج باللهجة الكنعانية القديمة (٢٥).

ويعلل الخبراء كيفية نشوء فكرة الأخذ بالأحرف بدلا من الصور بأن الكنعانيين، الذين يعملون في مناجم طور سيناء، اهتدوا إلى التدوين بالحروف الهجائيه من خلال اختزالهم الكتابه الهيروغليفية، التي تشير إلى المعاني ومقاطع الكلمات بصور وإشارات، واكتفوا بالحروف الأولى من أسماء الصور، فتكونت عندهم مجموعه من الحروف شكّلت الأبجدية الأولى، وهي مؤلفة من اثنين وعشرين حرفًا، ثم انتشرت هذه الأبجدية، شمالاً وجنوبًا وشرقًا، وصارت أصل الأبجديات في جميع أنحاء الأماكن. بعد أن تطورت في كل منها حسبما اقتضته طبيعة لغة أهله، فمنهم من حافظ على شكلها الأصلى، ومنهم من غيرّ فيها، وأضاف لها أو نقص منها (٢٦).

واتضح لدى العلماء أن الكتابة العبرية بمعنى اليهودية، لم تكن لها أية صلة في نشوء الأبجدية الكنعانية العربية وتطورها، وهي لم تتعد كونها واحدة من الأبجديات المتفرعة من الأبجدية الكنعانية العربية الأصلية (٢٧).

من مظاهر الحضارة الكنعانية:

فيما يلى سنتناول ثلاثه من مظاهر للحضارة الكنعانية وهى الحياة الإقتصادية لدى الكنعانيين، وما تنطوى عليها من مظاهر حضارية تتمثل في الصناعات، والفنون المرتبطة بها، والعلاقات التجارية، وما انبثق عنها أشكل التعامل الراقى، أما المظهر الثانى، فسوف يتناول البعد الحضارى للعلاقة الثلاثية نظام الحكم / الآلهه / الشعب، وأشكال التنظيم في البعد الثالث: أو المظهر الثالث للحضارة الكنعانية، سيتم تناول الإنتاج الأدبى للكنعانيين.

وتجدر الإشارة هنا إلى ان هذه بعض من مظاهر الحضارة الكنعانية، وأن تناول الجوانب بشكل أوفى يتطلب عشرات الدراسات. كما نشير إلى الملاحظة التي وردت حول مقومات الحضارة الكنعانية، التي يمكن اعتبارها، في الوقت نفسه مظاهر للحضارة الكنعانية.

أولاً الحياة الإقتصادية:

ترجع الحضارة الكنعانية إلى عصور موغلة في القدم، فمنذ العصر الحجرى الحديث، أو العصر النيوليتى (٧٠٠٠ - ٥٠٠٠) ق. م، بدأت هذه الحضارة تنمو، وتتقدم في مجال التمدن، فكان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس الطري ثم اهتدوا إلى الجمع بين النحاس، والقصدير في

إنتاج البرونز، وبذلك كانوا السابقين في استخدام صناعة التعدين، مما أعطى تلك الشعوب البدائية أدوات وأسلحة فتاكة، وقد أصبح استخدام البرونز شائعًا، في المدن الكنعانية منذ أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد، وبدأت تستخدم الحديد وفي أواخر الألف الثانيه قبل الميلاد (٢٨). وازدهرت صناعة المعادن في بلاد كنعان في وصف الغنائم التي أخذها تحوتمس الثالث (١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق.م) من المدن الكنعانية، إذ نجد ان بين المصنوعات المعدنية، عربات مطعمة بالذهب، وأوتادًا لتثبيت الخيل مطعمة بالفضة، وتماثيل من الذهب، ومن خشب الأبنوس (٢٩).

وقد ازدهرت المدن الكنعانية، وانتعشت، وتفاعلت مع مراكز الحضارة في العالم القديم، فاتخذت منه وقدمت له، وهذا واضح من إنتاج الصناعات المختلفه التي تم الكشف عنها في انحاء مختلفه من منطقة بلاد الشام، وبلدان البحر الأبيض المتوسط، ومنها الخزف، والفخار، حيث تقدمت صناعة الفخار في البلاد الكنعانية، واستخدمت في صناعة العجلة السريعة ذات المحور المركزي، وأنتجت نماذج فخارية متناسقة رقيقة الجدران، وصقلت ولونت بلون بني غامق (٣٠). وكان الكنعانيون يفضلون الشكل الأجاصي عند صناعة الخزف، وكانوا أول أمرهم يطلون الأواني باللون الأحمر القرمزى، ويصقلونها صقلاً لامعًا ثم أصبحوا يطلونها باللون العاجى، ويدهنونها باللونين الأحمر، والبني (٣١).

ومن الآثار التي تم الكشف عنها في جبيل، تبين مدى براعة الكنعانيين في صناعة الأواني من النحاس والفضة، والذهب، أما القطع الفنية التي تم الكشف عنها في تل المتسلم (مجدو)، فكان بعضها عبارة

عن تماثيل صغيرة منحوتة من العاج، وقطع أخرى مصنوعة من الذهب، والأحجار الكريمة إضافة إلى غيرها من المعادن الثمينة، وتعتبر تلك المخلفات من أرقى ما أنجزه فنانو ذلك العصر، وإن دلت على شيء فإنما تدل على مستوى فني وحضاري رائعين [٣٢]

كذلك، برع الكنعانيون في صناعة المنسوجات، فصنعوا الأنسجة الرقيقة، والأنسجة الثقيلة، التي تتخللها خطوط ذهبية وفضية [٣٣].

إن المستوى الرفيع من الصناعه الذي توصل له الكنعانيون يحمل دلالتين مهمتين، الأولى: القدرة التقنية العالية، مقارنة بعصرهم، التي استطاع الكنعانيون التوصل لها عبر صناع الآلات، والأدوات المتطورة التي يحتاجها الصانع. أما الثانية: فتدل على المستوى الجمالى الفنى الرفيع الذي ابدع فيه الكنعانيون.

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى معاصر الزيت والعنب التي وجدت عند الكنعانيين، والتي صنعت بمنتهى الدقة والإتقان [٣٤].

وقد تعرض الفن الكنعانى، من منحوتات، ورسوم للتأثير المصري، خاصة في زمن الأسرة الثانية عشرة، عندما خضعت أرض كنعان للحكم المصرى، بمحض إرادتها وتحالفت مع المصريين، وكان في تحالف الكنعانيين مع المصريين مصحلة مشتركه للطرفين، فالكنعانيون في ظل الحماية المصرية حققوا الاستقرار، والأمن، والثراء عن طريق التجارة، مع وادى النيل تاركين للمصريين، حمايتهم من الغزاة المتربصين، بهم من الشرق.

أما مصر فقد ضمنت حدودها الشرقية، من أى عزو قادم لها عبر كنعان[٣٥].

وقد أخذت العلاقات شكلاً راقيًا، حيث كان لمصر سفارة في أرض كنعان، كما تخبرنا رسائل تل العمارنة التي تعتبر من أهم المصادر التي تمكن الوقوف عليها، لمعرفة حال البلاد، وما يهمنا هنا أن مصر كانت قد اتخذت مركزًا مستقرًا لسفارتها في غزة، وأطلقت عليها (با - كنعان)، أى مدينة كنعان، كما أقامت مصر حاميات لها في بعض المدن، مثل: بيسان، ومجدو، ويافا، وعزة، مهمتها حماية طرق القوافل التجارة، أما الملوك الكنعانيين فكان واجبهم، أن يزودوا مصر بما تحتاج إليه من عتاد، ورجال، في حال توجيهها حملات عسكرية لصد الهجمات، التي كانت تهددها من المشرق[٣٦].

ثانيا: تنظيم السياسي:

لا يمكن فهم البنية السياسية في المجتمع الكنعانى، بمعزل عن فهم العلاقة بين الحاكم / الآلهه / الشعب. فالملك يعتبر ابن الآلهه، وقاضي الشعب. أما الآلهه، فتمثل بوضوح روح المجتمع والصراع بين الخير والشر، حيث كان الإله " إيل " وهو الإله العلى العظيم، كما أسلفنا، رمزًا للخير، أما الإله بعل، فقد كان رمزًا للشر.

كان الإله إيل يسيطر في طقوسه على معظم البلاد الكنعانية، إلا بعض الأجزاء، وعلى سبيل المثال، في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، خضعت البلاد الكنعانية إلى سيطرة الإله إيل عدا قسما من شمال فلسطين، وهى المنطقة المجاورة لمملكة إبن داغون (الإسم الذي كان

يطلق على دمشق)، حيث كان الشعب من أتباع الإله " بعل "، الذي كان مصدرًا للويلات، والأرزاء، وتأتمر بأمر الأبالسة، فكان الكنعانيون، يعتقدون، بأنه يسيطر على الغيوم، والأمطار، وبيده كل السماء، كما بيده، من جهة ثانية، الصاعقه المدمرة [٣٧].

ويلاحظ ان الصراع بين الخير والشر، والذي تجلى عبر الصراع بين الإله ايل والإله بعل ظهر جليًا في قلب الهيكل الكنعانى [٣٨].

ويعتبر الشعب نفسه شعب الله، وبتعبيرهم " شعب أيل "، وعلى أساس هذا الإيمان، يترتب على الإله، بإعتقادهم أن يساعد الشعب، كما ترتب على بقية الآلهة، أن تتدخل لدى إيل في حال إحجامه عن المساعدة، ومثل هذا التداخل تتعهده دوما العذراء المحاربه الإلهه " عناة " الملقبة " الخطابة "، وهى عنصر إلهي وعنيف في آن واحد. إنها محاربه إذا اقتضى الأمر، وداعية للسلام متى كان ذلك ضروريًا، وهى إذ تؤنب أباها " إيل " تقوله له محذرة: " يجب أن لا تتمادى الآلهه في تعذيب الشعب، لأن الشعب لن يهلك، وله ديمومة الحياة " [٣٩].

كان نظام الحكم عند الكنعانيين قائم على ما يسمى بتحالف الملوك، حيث يتحالف كل سبعة ملوك، بزعامة أحدهم مؤلفين حلقًا سياسيًا عسكريًا يقيهم شر الاجتياحات، والتهديدات الخارجية، وجميع هذه التحالفات الملكية، كانت تابعه للحكومه المركزية، التي يترئسها الملك الكبير [٤٠].

ويطيع الشعب، الملك ويوليه كافة شؤونه، ويعتبره ابن الآلهة ولكن عندما خرج الملك الكبير عن طول الإله " إيل " كما تخبرنا نصوص أوغاريت، رفض الشعب القتال إلى جانبه.

فعندما خرج " الملك الكبير " عن التقاليد والأخلاق الكنعانية، متخذًا عشيقة أجنبية، وخرج عن الطقوس الدينية، واستبد في الحكم، مما أوقع البلاد في حاله اضطراب، خلفت المصائب والمجاعات، أحتج الشعب في البداية جماعيًا لدى الملك على تصرفاته، وعندما لم ينجح الاحتجاج، ذهب الشعب إلى المعابد يصلى من أجل اصلاح روح الملك، وشفائه، وعندما استمر الملك في غيه لم يستسلم الشعب، فنراه بعد ان ضاق ذرعا يهاجم القصر، ويرمي الملك بالحجارة حتى الموت [٤١].

مما تقدم تتضح الدرجة الراقية من التحضر لدى الكنعانيين، في ذلك العصر الموغل في القدم، والتي تتجاوز تحضر الكثير من الشعوب المعاصرة فالآلهة " عناة "، تنتقد والدها الإله " إيل "، قائلة: " يجب أن لا تتمادى الآلهه في تعذيب الشعب ". كما تنتقد " الملك الكبير "، عندما يخرج عن رغبة الآلهه والشعب.

إن في ذلك دلالات حضارية مهمة، فهذا المستوى من النقد، ومجابه الذات و الآخر لدى الكنعانى، هو ميزة مهمة يتسم بها العقل، الذي لا يكتفى بنقد الأشياء من حوله، بل وينتقد ذاته يواجهها، مما يدل على مستوى راق من النضج والقدرة والثقه بالنفس، وهى مبعث النشاط والتجديد بعكس الركود والجمود، ومبعث الرقى والتحضر، بعكس التخلف.

كما نلاحظ أن الشعب يمارس الديموقراطية، وبتدرج، فهو أولاً يحتج لدى الحاكم نفسه، ثم يدعو الآلهه لإصلاحه، ثم يأخذ حقه بيده.

وللإنسان قيمة ساميه في الحضارة الكنعانية، ولا أدل على ذلك من قول الإلهه " عناة " للإله " إيل ": (الشعب لنيهلك وله ديمومة الحياة)، فأي إدراك لقيمة الحياة والإنسان أرقى من ذلك؟ وهل تختلف هذه النظرة عن أسمى الحضارات المعاصرة بعد عشرات القررون من العلم والتفاعل الإنسانى؟

ثالثا: الإنتاج الأدبى:

على الرغم نم قلة الآثار والنصوص الأدبيه التي وصلتنا عن الكنعانيين، إلا أنها جاءت على جانب كبير من الأهميه في كونها شكلت مدخلا لفهم نواحى تلك الحضارى.

ولعل أهم النصوص الكنعانية التي تم الكشف عنها النص الكنعانى " اللآلئ "، وهو النص الذي كتبه كاهن أوغاريت الأكبر، المدعو " أيلى ملكو " بأمر من الملك " نيكمد "، وهي تحكى أخبار " الملك الكبير "، وبها دروس وتوجيهات ومواعظ في الأخلاق والعقائد الدينيه والسياسيه والسلوك الشخصى.

من قراءة نص اللآلئ يمكن ملاحظة الخضائص التالية:

١- يلاحظ من دراسة هذا النص أنه نص ناضج أدبيا مما يدل على أن فن الكتابه الأدبيه لم يكن وليد العصر، وأن اللإنتاج الكنعانى يعود إلى مراحل سابقه مهدت له.

٢- جـاءت كتابــات " إيلــى ميلكــو " فــي هــذه النصــوص بأســلوب وتراكيب لغويه تميزت بالجمل القصيرة المقتضبه. أما الفصل الأخير فكان يحتوى على نفحه شعريه عاليه واكانت الإنطلاقة الحرة في التعبير تتخلل كل كتاباته يقول الأستاذ ميدكو. مترجك اللآلئ: " مهما كان حكم التاريخ، فمن المؤكد ان الكنعانيين كانوا في مصاف الشعراء الكبار دون جدال " (٤٢).

٣- فـي منتصـف النص تقريبا نقرأ ملاحظـة " تقول أن الحد يجب التوقف عن السرد إلى الغد لأن الفتيان قد تعبوا ". نفهم من هذه الملاحظة أن هذه الأخبار عن حكم " الملك الكبير " هي بمثابة دروس ملقاه عن أنباء الملك " نمكد " الذي خلف الملك الراحل. فلدينا إذا سلسله من الدروس التعليميه. ولهذا الغايه إستخدام " ميلكو " أسلوبا لا يخلو من الفهم العميق فن مضمار التربيه. فإبتعد عن السرد التاريخى الممل نسبيا. بل تعمد تحريض التلاميذ عن طريق السرد الذكى لوقائع التريخ. وللأساطير. مضيفا إليها بعض الحكايات القديمه الملائمة للأحداث. وأهمل الكثير من أسماء الأعلام.

ومن أجل إعطاء دروس في علوم الأخلاق. نراه يشدد دائما بصورة مطولة على نقائض وأخطاء العاهل المتوفى. إن التكرار المتواصل والتذكير الوارد في النص، وفيما سبق من نصوص، واللهجه الخاصه المستعمله كل ذلك كان متعمدًا من أجل تسهيل تعليم التاريخ (٤٣).

٤- ما تم عرضه هنا إن هو إلا ملاحظات مقتضبه حول ما قدمته الحضارة الكنعانية، من موروثات أدبيه، وقد أخذ العبرانيون من هذه

الموروثـات الدبيـه الكنعانيـة وأدخولهـا فـي تـراثهم العبـري، ولا سيما فـي كتـابهم المقدس. كـأقوال الحكمـه والمزامير ونشـيد الأنشـاد، وفـي بعض الأساطير التي جاءت في سفر التكوين. وقد أوضحت إكتشافات أوغاريت هذا الأمر بتقديمها الكثير من الموروثات الأدبيه الكنعانية، وسهلت مقانتها بالموجود في التوراة [٤٤].

يقول العالم " ميدكو ": " ما تضمنه كتاب التوراة اليهودي من تراث اخـتلس اليهـود، معظمـه لا بـل قاعدتـه الفكريـة الأساسـيه. عـن التـراث الكنعانى وتبنوه وكأنه تراثهم الأصيل [٤٥].

ولعل هذا القول لا يبدو غريبًا إذا علمنا أن عالم المصريات الألمـانى " أدولـف رمام " أثبت في عام ١٩٢٤ في مقالته الشهيره عن بردية آمون أن هـذه البرديـه الفرعونيـه هـي أصـل سـفر الأمثـال المنسـوب إلـى النبـى سليمان. وقد دهش العلم كلـه لهذه الحقيقـه حينئذ [٤٦] وأن المزمـور رقم ١٠٤ مـن مزامير داوود فـي التـوراة منقـول مـن النشـيد الكبـر لأخنـاتون الفرعونـى [٤٧].

* * *

مراجع الفصل السادس

(١) **الموسوعة الفلسطينيه**، القسم العلم، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤، ص ٢٨٠.

(٢) إيلي ميلكو، **اللآلئ:** من النصوص الكنعانية، ترجمة ودراسة العالم ه. ى. ديل ميدكو، ترجمة وتعليق مفيد عرنوق، ودمشق، (دون تاريخ) ص ٨.

(٣) **الموسوعه الفلسطينيه**، القسم العام، المجلد الرابع. دمشق، ١٩٨٤، ص ٤٨.

(٤) د. محى الدين صابر، الحضارة العربيه بوصفها حضارة عالميه المجلة العربيه للثقافه، دمشق، السنة الرابعه، العد السادس، آذار ١٩٨٤.

(٥) د أحمد داوور، **تاريخ سوريا القديم**، الطبعه الأولى، ١٩٨٦، دون ناشر، ص٧٨١.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٧٨٢.

(٧) قسطنتين زريق، **في معركة الحضارة**، دار العلم للملايين، الطبعه الثالثه، بيروت، ١٩٩٧، ص ٢٧.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٣١.

(٩) أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥٦.

(١٠) زريق، **مصدر سبق ذكره**، الصفحات ٨٩، ٩٢.

(١١) **المصدر نفسه** ص ٩٤.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٩٥.

(١٣) د. أحمد سوسه، **حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور**، ورزاة الإعلام بغداد، ١٩٨٧، ص١٨٣.

(١٤) د. محمد أبو المحاسن **عصفور**، **المدن الفينيقيه**، دار النهضه العربيه، بيروت، ١٩٨١، ص ١٤٠.

(١٥) سوسه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٠.

(١٦) سوسه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩١.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ١٩٢.

(١٨) زريق، **مصدر سبق ذكره** ص ٩٧.

(١٩) د خير نمر ياسين، **جنوبى بلاد الشام تاريخه وآثاره في العصور البرونزيه**، ومنشورات لجنة تاريخ الأردن، المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلاميه عمان الأردن ١٩٩١، ص ١٤/١٥.

(٢٠) الموسوعه، المجلد الرابع، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨/٤٩.

(٢١) زريق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٨/٩٩.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٣.
(٢٣) سوسه، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٠.
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص١٨١.
(٢٥) خير نمر ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩.
(٢٦) سوسه. **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٨.
(٢٧) **المصدر نفسه** ص ١٨٢.
(٢٨) أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥٥.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٥.
(٣٠) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٦، ١٣٢.
(٣١) الموسوعه الفلسطينيه، **مصدر سبق ذكره**. ج ٣. ص ٦٦٨.
(٣٢) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٥، ٢٠٠.
(٣٣) إيلي ميلكو، **مصدر سبق ذكره** ص ٢٥٦.
(٣٤) أحمد داوود، **مصدر سبق ذكره** ص ٢٥٦.
(٣٥) الموسوعه الفلسطينيه، الجزء الثالث، **مصدر سبق ذكره** ص ٦٦٧.
(٣٦) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٨.
(٣٧) ميلكو، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١.
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ٩.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ١١.
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص ١٠.
(٤١) **المصدر نفسه**، ص ١١.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ١٤.
(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ١٣، ١٩.
(٤٤) الموسوعه الفلسطينيه، المجلد الرابع، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨.
(٤٥) الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨.
(٤٦) د. أحمد أمين سليم، **دراسات في حضارات الشرق الأدنى القديم**، بيروت ١٩٨٦، دون نشر، ص ١٤٢ - ١٤٣.
(٤٧) **المصدر نفسه**، ص ١٤٢/١٤٣.

* * *

الفصل السابع

العصر الحديدي والبحث عن إسرائيل القديمة؟

الفصل السابع:
العصر الحديدي والبحث عن إسرائيل القديمة؟

أحمد الدبش

يتفق معظم علماء الآثار التوراتيين، ويساندهم في ذلك السادة حراس وأصحاب الفكر الآسن في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا، على أن نشوء إسرائيل القديمة في بلادنا فلسطين تم نحو ١٢٠٠ ق. م، وهي الفترة الانتقالية الواقعة بين أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي. وتلك هي الفترة التي يطلق عليها عادة فترة " النشوء "، أو " أصول " إسرائيل. وهي الفترة التي يفترض أن تكون إسرائيل (المزعومة) تلك قد سيطرت فيها على فلسطين. لكنهم يختلفون اختلافاً حاداً حول الكيفية التي تمت لها السيطرة على تلك البلاد.. فالجدل المتعلق بجذور ونشوء إسرائيل القديمة يصور عموماً كأنه نقاش حول ثلاثة نماذج أو فرضيات. قام عالم الآثار الألماني " فرتز فُلكمار " بتلخيصها على النحو التالي:

- " وليم ألبرايت "، و " ج. إرنست رَايت "، و " جُون برايت "، و " مول لب ": يتمسكون بنظرية الغزو (أي رواية العهد القديم). لكن هذه النظرية لا تأخذ بعين الاعتبار التحليلات النقدية لأسفار التوراة منذ عصر التنوير. ومن الجدير بالذكر أن " تومس طمسن "، وزملاء آخرين

له، يتفقون على رفض فرضية الغزو ويضيفون القول " إن معاينات فنكلشتاين (الآثارية) توضح بشكل كامل أن نظرية الغزو ميتة وللأسباب التالية: العديد من المواقع لم تكن مأهولة في فترة نهاية العصر البرونزي المتأخر، العديد من المواقع هجرت في نهاية تلك الفترة الزمنية لكنها لم تتعرض للتدمير. العديد من المواقع العائدة للعصر البرونزي استمرت قائمة في العصر الحديدي الأول، وتلك المواقع العائدة للعصر البرونزي المتأخر التي لم تظهر فيها آثار تدمير، كانت مهجورة لفترة طويلة بعد الدمار الذي لحق بها، سكنها الناس مجدداً.

- " ألبرشت "، و " ألت "، و " مارتن نوث "، و " مانفرد فايبرت ": يرون أن ذلك كان نتيجة عملية تسلل إلى فلسطين، لكن هذه النظرية لا تشرح كيفية سقوط المدن الكنعانية.

- " جورج مندنهول "، و " نورمان غوتفالد "، و " كورنليس دي غويس ": يرون أن ذلك تم عبر إعادة تنظيم اجتماعي، أي غزو وتسلل وتمرد. لكن هذه النظرية غير قادرة على تقديم شروح كافية، لسبب حدوث مثل هذه التطورات.

وفي الوقت نفسه أخفقت كل هذه النظريات في أن تأخذ بعين الاعتبار المكتشفات الآثارية الأخيرة. هنا نرى أن العالم يتقدم بنظرية رابعة أطلق عليها اسم [افتراضية التعيش المتكافل]، والتي تشبه إلى حد كبير نظرية التسلل [1].

ويعلق العلأمة " كيث وايتلام " من جانبه على الفرضيات الثلاث

السائدة بالقول: " لقد برهنت أنَّ تغيرُّ منظور قراءة الكتاب العبري، الذي أثار عدة تساؤلات حول الفرضيات التاريخية النقدية السائدة واستخدام الموروث الكتابي من أجل إعادة البناء التاريخي، بالإضافة إلى تراكم المعطيات الآثارية من حفريات موقع واحد، وعمليات المسح الإقليمية لفلسطين، قد بينت كلها أن هذه الأنماط والنظريات المتنوعة ليست. أكثر من اختلاقات لماض متخيل. والعجز المتزايد للتركيبات الأساسية الثلاثة للأصول الإسرائيلية عن التعامل مع الكم المتزايد من الأدلة، بالإضافة إلى التقليل من مغزى ما تعتبره نصاً يلقي المزيد من الضوء على المدى الذي تم فيه اختراع إسرائيل " (٢).

وهكذا، وبعد هذا الفشل الذريع في العثور على أقل دليل يثبت هذه النظريات، كان محتماً على بعض الباحثين والأثاريين التوراتيين محاولة خلق وجود إسرائيلي في فلسطين بأنه طريقة، فبدأ بعض الآثاريين بالبحث عن أصول إسرائيل القديمة في فلسطين نفسها لا خارجها.

فيذكر العالم الأثري " فنكلشتاين " أن الإسرائيليين لم يأتوا إلى فلسطين في صورة محتلين من الخارج، وإنما انبثقوا ونبتوا من داخل هذه البلاد، فهم السكان الاصليون وليسوا وافدين ولا مهاجرين، فيزعم أن علم آثار السنوات الأخيرة يكشف سلسلة أحداث مغايرة لقضية الاستيطان - الهجرة من الخارج - والنظريات العلمية التي سيطرت منذ نهاية القرن الماضي انهارت واحدة تلو الأخرى، والصورة التي تظهر اليوم من المكتشفات الأثرية! تفيد بأن الكيان الإسرائيلي ظهر من خلال سكان محليين وليس نتيجة لحدث واحد (الهجرة) وما كان مرحلة في سلسلة

أحداث دورية متكررة طويلة المدى في تاريخ البلاد، ولم يتغذ [الوجود الإسرائيلي] من السكان الذين جاؤوا من خارج البلاد؟! [٣].

وهذا ما حدا بـ " ليمخي " أن يعلن أن التمييز الشائع بين ثقافة الكنعانيين والإسرائيليين لا مبرر له في سجل الأركيولوجيا حتى الآن، وهذا قاده إلى استنتاج تاريخي يشاركه فيه عدد من الدارسين وهو أن إسرائيل كانت محلية في فلسطين [٤].

ويمكن تلمس ذلك في كتاب " ملر وهيز " حول التاريخ الإسرائيلي واليهودي، بإشارتهم إلى إسرائيل على أنها محلية أصلية في فلسطين القديمة. وقد طرح كل من " آهلشتروم " (١٩٩٣) و " طمسن " و " وايتلام " (١٩٩١ و١٩٩٤) أيضاً بوضوح وصراحة أشد ضرورة دراسة تاريخ فلسطين القديمة[٥].

وقد وجد أصحاب هذا الاتجاه، رواجاً داخل أروقة الجامعات ومراكز الأبحاث العربية، فها هو ذا المفكر العربي " فراس سواح " يأتي بنظرية مثيرة للاستغراب، وهي [نظرية التطور الديني المحلي]، والتي تتفق إلى حد بعيد مع نظرية " جورج مندنهول "، " ونورمان غوتفالد "، من حيث تركزها على التمايز الديني لسكان المناطق الهضبية عن الوسط الكنعاني، ولكنها تختلف معها بإسقاطها لعنصر الانتفاضة الداخلية. ولعل المقطع التالي، يعبر عن جوهر هذه النظرية: " لقد أوصلتنا دراسة المخلفات المادية للثقافة الإسرائيلية(!!!)، إلى القول بأن أرض فلسطين لم تعرف شعباً متميزاً اسمه الشعب الإسرائيلي، ولا ثقافة خاصة يمكن وصفها

بالثقافة الإسرائيلية. ذلك أن كل ما كشف عنه علم الآثار يدل على ثقافة سورية كنعانية في تطورها الذاتي الطبيعي. ثم جاءت دراستنا للتراث اللغوي والأدبي والديني لما يدعي بالثقافة إسرائيلية، لتدعم نتائجنا المبدئية. فاللغة التي نطق بها الإسرائيليون كانت كنعانية، والخط لذي كتبوا به كان كنعانياً، وآدابهم تجد جذورها في الأدب الكنعاني على ما تدل عليه المقارنة مع الأدب الأوغاريتي، ومعتقدهم التوراتي الذي وجدوا فيه مصدر تميزهم قد نشأ وتطور نتيجة لجدليات المؤسسة الدينية الكنعانية. ولا ينجم عن ذلك كله إلا القول بأن الشعب الذي أنتج ما يدعى بالثقافة الإسرائيلية، هو فئة كنعانية لم تغادر فلسطين قط، مع بقاء الاحتمال قائماً في أنها ربما استقبلت فئة قليلة من النازحين من مصر. وعندما بدأ كهنة يهوذا في المنفى بتحرير أسفار التوراة، كتبوا تاريخ بني إسرائيل من وجهة نظرهم، فجعلوا منهم فئة متميزة منذ البداية، سعياً وراء ترسيخ الصيغة الأخيرة للدين اليهودي الذي صار مصدر تماسكهم وأملهم في الوقوف في وجه الفناء. لقد ميز كهنة يهوه أنفسهم وبقية سبي يهوذا عن كنعان تمييزاً مطلقاً، وجعلوا من الفارق الديني الذي يفصلهم عن بقية الكنعانيين، فارقاً في كل شيء " [٦].

الكثير من علماء الآثار التوراتيين، ومن يساندهم من أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي يميلون إلى القول بأن مولد إسرائيل يرجع إلى موجة جديدة من الاستيطان في المرتفعات الوسطى في بلادنا فلسطين. إذ اكتشف الآثاريون بقايا عدد من القرى غير الحصينة يبلغ نحو مائة قرية من الأرض الجبلية شمالي أورشليم (القدس)، وقالوا إنها

ترجع إلى عام ١٢٠٠ ق. م تقريباً. وكانت تلك الأراضي القاحلة غير صالحة للزراعة حتى ذلك الوقت، ولكن بعض الأساليب التكنولوجية اكتشفت قبل ذلك التاريخ بقليل مما مكن الناس من الاستيطان فيها، وقد تمكن المستوطنون الجدد من العيش فيها عيش الكفاف بتربية الأغنام والماعز والأبقار، ولا توجد أدلة على أن المستوطنين كانوا أجانب، فالآثار الحضارية التي وجدت في هذه القرى لا تختلف عن آثار السهل الساحلي. وقد انتهى علماء الآثار من ذلك إلى أنه غير من المؤكد أن المستوطنين كانوا من أبناء فلسطين الأصليين [٧].

يفهم " أهلشتروم " أن الدافع وراء التزايد في التوطن في المرتفعات قليلة السكان في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، كان مدفوعاً بالرغبة في الهرب من الحروب والاضطرابات في تلك الفترة. ويلجأ إلى رسائل تل العمارنة ليبين أن من الممكن استقراء أن القلاقل الاجتماعية والمخاوف كانا من القوى الأولية التي دفعت حركة الجماعات السكانية من الاتجاهات كافة. إلا أن الأدلة عن القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد. كانت كنعانية، مثلما كانت الثقافة المادية في النقب لفترة ١٢٠٠ ق. م، وهذا واضح من أنماط البيوت والفخاريات، وتلخيصه للفترة على أنها تقدم استمرارية ثقافية ودينية ومادية تعود إلى مرحلة أواخر العصر البرونزي حتى العصر الحديدي الأول يتردد صداه في كتب " لمكه " و " كوت ووايتلام " (١٩٨٧) و " كوت " (١٩٩١) و " طمسن " (١٩٩٢م)[٨].

وبالرغم من عدم توافر أدلة على وجود إسرائيلي في بلادنا فلسطين، بدأ بعض المعنيين من الإسرائيليين والتوراتيين، وساندهم في ذلك السادة حراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، في البحث في النقوش القديمة التي تعود لممالك الشرق القديم، والتي تشير إلى مجموعات من الناس عُرفت بأسماء مختلفة مثل [س‌ء. ج‌ءز]، [خفيرو]، [خبيرو]، [عفرم]، [عفر. و]، [عابيرو] في النصوص المسمارية في (نوزي، وتل حريري - ماري -، وتل العطشانة - الالاخ -، ورأس شمرا - أوغاريت -، تل العمارنة وغيرها...) واعتقدوا أنهم اكتشفوا فيهم [العبريين].

فيذهب الباحث التوراتي " إدوارد كامبل " إلى أنَّ كلمة [عابيرو] تطابق كلمة [العبريين] فيخرج بالنتيجة المتسرعة والفجة إي أن [العابيرو] هم [العبريون] (٩).

فـ [العابيرو] لم يكونوا طائفة عرقية، بل طبقة من طبقات المجتمع الكنعاني، كانوا شعباً تحول إلى طائفة منبوذة في المجتمع الكنعاني، وطرد من المدن - الدول لأسباب اقتصادية وسياسية، وقد أصبحوا - أحياناً - لصوصاً وقطاع طرق، وأحياناً أخرى جنوداً مرتزقة (١٠).

فمراجعة " م. ليفيراتي " الحديثة لتفسير رسائل تل العمارنة أكدت أن [العابيرو] طبقة دنيا ناقمة ولاجئون، هربوا من القمع الإمبريالي المصري إلى المناطق الجبلية، ليعيشوا لصوصاً وقطاع طرق ضد رواد التجارة البرية، ويظهر أنهم استقروا أخيراً في المناطق الجبلية بعد حقبة تل العمارنة(١١).

ومن الجدير بالذكر أن استعمال اسم [العابيرو]، في رسائل تل العمارنة، مع صيغة الفعل الأكدي الذي يعني (يعمل / To - Do) أو (يستعمل) وفي الجملة يمكن أن يعني شيئاً يشبه الفعل [عبروا] أو ببساطة ليصبحوا [عابيرو] إلى أن يصبح المعنى " هرع وأخذ جانب العابيرو "، وبدلاً من مصطلح [العابيرو] السطحي الذي يعني خروجاً عن القانون فإن المعنى الأدق والأكثر احتمالاً أن يكونوا ثواراً، ذلك أنه ليصبح عابيرو فليقاوم سلطة لملك، وهذا ما يفسر محاولة تقليل أهمية العابيرو في رسائل العمارنة بينما نشاط العابيرو كبير جداً. فالمدن ثارت وأصبحت [عابيرو] وقد أعطى " رب - عدي " أحد ملوك المدن في فلسطين هذا المصطلح معنى واسعاً، داعياً كل الذين يثورون في وجه مصر بـ [العابيرو] ووضعهم ضمن هذا الإطار. فـ [العابيرو] ليسوا إذن عناصر أجنبية أتوا من الخارج - كما يرى البعض - بل هم من نبات الأرض والصحراء. إن ظاهرة [العابيرو] تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة بلاد الشام. ونتيجة الاضطهاد والقهر الواقع على عاتق الناس من جهة، واحتقار الحكام الذين نصبهم الفرعون للعامة من جهة ثانية قامت حالات تمرد كبيرة، هذه الحالات رسمها الحكام الذين ظلوا على ولائهم للفرعون من خلال نصوص رسائل تل العمارنة.

ينتقد " لوريتز " (Loretz) بحدة جهود المؤرخين الرامية إلى الربط بين الـ [عابيرو] والـ [عبرانيين]، ويبين الخطأ الفادح الذي تنطوي عليه هذه المحاولات لشرح أصول إسرائيل على أساس هذا الربط. نقده مدمر بسيط ومستقيم: لا توجد بينات تاريخية تربط بين رسائل تل العمارنة في

القرن الرابع عشر والـ [عابيرو] المذكورين فيها، مع أصول إسرائيل. ومهما كانت الروابط اللغوية بين هذه التعابير المختلفة جذرياً، لا سبب يدعونا لأن نرى هذا الموضوع اللغوي مرتبطاً بأي شكل كان بتاريخ أصول إسرائيل(١٢).

وإذا كان مؤرخونا الأفاضل أصحاب الفكر الآسن، لم يشككوا لحظة في ما تلقنوه، بل رددوه كبغباء في صالون المتحف، فإن أحد المفكرين الغربيين " بير روسي " لم يسعه السكوت على الكذب التاريخي، فيخصص الفصل الأول من كتابه الرائع « مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقي للعرب » لدحض هذه الفرية مقدماً إيضاحاً موجزاً حول قضية العبرية.. التي ليست إلا وهماً معقداً ومستمراً لشعوذة اشتقاقية لغوية، قد استطاع أن يجر كثيراً من الناس ليروا [العبرانيين]، وفي [ثقافتهم] الأجداد الساميين لتاريخ الشرق، ولتاريخنا نحن (في أوروبا) أيضاً. إن علينا أن نعرف قبل كل شيء أن التاريخ المصنوع [للعبرانيين] خارج النصوص التوراتية هو الصمت الكلي المطبق. فلا العمارة ولا الكتابات المنقوشة على الآثار، ولا القوانين والدساتير تكشف أثراً قليلاً [للعبرانيين]. فعلى آلاف النصوص المسمارية أو المصرية التي تؤلف المكتبة المصرية، أو مكتبة رأس شمرا أو نينوى، وحتى في الروايات الآرامية.. في ذلك كله لا تذكر كلمة [عبرية].

وأشهر ملوك التوراة داود وسليمان لم يصبحا قط موضوع وقائع تاريخية، وليس هناك أبداً ذكر للملحمة المعزوة لعبور [العبرانيين] وليس هناك أي انقطاع حضاري ثبت بالحفريات التي تمت في فلسطين منذ عام

١٨٨٠ - ١٩٢٥ فالعدم كامل مثلما هو قطعي وجازم[١٣].

لنغادر أراء " روسي " هذه، الجديدة والمفاجئة حتى لنا نحن عرب هذا العصر، ولنغادر كتابه القيم الذي هو جدال موسع محكم حول صحة مقولاته وأطروحاته هذه، ولننظر إلى مفهومنا الديني عن [العبريين] عبر كتاب الله تعالى القرآن الكريم: فهل ثمة ما يشير إلى [العبريين] في القرآن الكريم؟! لم ترد كلمة [عبري / عبراني] في القرآن الكريم مطلقاً، فقد ورد ذكر الإسرائيليين بصيغة [بني إسرائيل] و[قوم موسى]، ذلك مما يدل على أن العرب في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يعرفوا اليهود بغير التسميات المذكورة، فلو كانوا يعرفون بـ [العبرانيين] أو [العبريين] لورد ذكرهم في القرآن بهذه التسمية. لنضف إلى ذلك أن [العبرانيين] مجهولون في الأناجيل، على أن هناك رسالة للعبرانيين في الأناجيل، ولكنها مرفوضة لأسباب مادية من قبل شُرّاح الكتاب المقدس، مرفوضة لأسباب مادية قبل كل شيء[١٤].

إنَّ تزايد التوطن في المرتفعات هو النتيجة الأكثر وضوحاً لإعادة ترتيب المجتمع الفلسطيني، إلا أنه لا يمكن أن يوصف بدقة على بأنه فريد أو أنه نتيجة لتسرب جماعة (إثنية) جديدة. وقد حدثت تحولات توطنية مشابهة في أماكن أخرى من شرقي المتوسط، وكانت جزءاً من دورة على مدى قرون من التطور والركود والانهيار والانبعاث والتجدد في تاريخ فلسطين [١٥].

وعلى أية حال، إن التحول الاستيطاني الذي حصل في نهاية العصر البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، كان رد فعل على خلل طرأ

على الحياة الاقتصادية كان له أثر كبير في كل جوانب المجتمع الفلسطيني ومستوياته، ولم يكن نتيجة مباشرة لصراع طبقي أو غزو أو تغلغل خارجي.

لذي يصعب على الباحث التفريق بين ما يمكن نسبته إلى هذه أو تلك المجموعات البشرية التي سكنت فلسطين في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. فوجود هذا الصنف من الفخار أو ذاك في منطقة معينة لا يدل بالضرورة على سكنى هذه المنطقة من مجموعة إثنية مختلفة، ولكنها غالباً ما تعني أن هذه المنطقة وقعت تحت تأثيرات خارجية سواء أكان عن طريق التجارة أو تنقل مجموعات حرفية، أدخلت هذه الصناعة أو أصبحت تقلدها. ويبالغ الأثريون والمؤرخون ومنهم التوراتيون بالحديث عن الهجرات في هذه المرحلة، ولا يركزون على التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي عايشها وحمل لواءها سكان فلسطين الأصليون، فمن المحتمل أن يكون قد سكن فلسطين في القرون الثلاثة الأخيرة للألف الثالث قبل الميلاد مجموعات بشرية مختلفة بالإضافة إلى غالبية السكان الفلسطينيين، إلا أنَّ من الصعب للغاية التعرف على هذه المجموعات من المصادر التاريخية المتوافرة لدينا، وإنها لصعوبة أكبر وخطأ منهجي كبير محاولة نسب مادة حضارية لمجموعة بشرية دون غيرها، خاصة أنَّ انتشارها يغطي كامل الأرض الفلسطينية ويتعداها إلى مناطق أخرى في الشمال والشرق. وقد قع في مثل هذا الخطأ المنهجي الكثيرون من الباحثين التوراتيين ونسبوا مجمل الحضارة المادية للعصر الحديدي المبكر إلى القبائل الإسرائيلية وأسموها [إسرائيل ١] اعتماداً على

النصوص التوراتية وما يمكن أن ينسجم معها من تفسيرات لنتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية. وفي الحقيقة كانت غالبية مواقع العصر الحديدي الأول الرئيسية مأهولة بالسكان في المراحل البرونزية السابقة رغم وجود عدد من المواقع التي تم تأسيسها في العصر الحديدي لأول مرة.

واختلفت مخططات المواقع السابقة بعض الشيء مع أنه يظهر في بعض المواقع إعادة استعمال الأساسات التي بقيت من العصر البرونزي الأخير. وبشكل عام فقد كانت مباني العصر البرونزي المتوسط والأخير تخضع للتنظيم، بينما نجد مواقع العصر الحديدي الأول أقل عدداً وتنظيماً ولا تتبع المدن مخططات متجانسة. وهناك بعض المواقع التي يحيط بها سور مزدوج - عبارة عن جدارين متوازين بينهما تجويف ويصل بينهما أحياناً جدران عريضة - ظهرت في تل القدح وتل قصيلة واشدود وتل الفول وتل الجزيري وتل بيت مرسيم وعراد وغيرها. ويتضمن العديد من هذه المواقع حصوناً دفاعية كتلك التي كشف عنها في تل الفول وتل القدح وخربة مشاش وتل القصبة وتل زورور.

أما المباني العامة التي كشف عنها حتى الآن فمحدودة للغاية وأوضحها معبد تل قصيلة، وكذلك معبد بيسان (الطبقات الخامسة والسادسة) حيث لا يزال التأثير المصري واضحاً من خلال التفاصيل المعمارية والكتابات الهيروغليفية التي تتضمن تعيين رمسيس الثالث في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد لحاكم أو قائد عسكري اسمه رمسيس أوسر - خيبش ووجدت داخل المعبد مكتشفات دينية متنوعة بالأسلوبين

المحلي والمصري وبعضها تقليد للصناعة المصرية.

تطورت البيوت السكنية في العصر الحديدي وأخذت طابعاً مميزاً طوال مراحل هذا العصر في كثير من المواقع، فقد تم الكشف عن أعداد كبيرة من البيوت التي تضم ساحة أُقيم حولها مجموعة من الحجرات (٢ - ٤ حجرات) التي كثيراً ما تتوسطها أعمدة تدعم السقف. تضم الباحة في العادة آبار جمع المياه ومرافق الطبخ والتخزين. وقد شيدت هذه البيوت من الحجارة أو الآجر الطيني أو كليهما، أما حُفر التخزين فهي غالباً ما تكون مقصورة ومقطوعة في الأرض على شكل مجموعات وكأنها تخدم أغراضاً جماعية. وجدت مثل هذه المنازل في مختلف مناطق جنوبي بلاد الشام بما في ذلك مرج أبن عامر (تل المتسلم والعفولة) ووادي الأردن (تل القدح، تل السعيدية، وتل دير علا) وفي منطقة الجبال الغربية (تل الفارعة الشمالي، عين سمش، تل بيت مرسيم، تل بئر السبع، خربة مشاش، خربة الردانة، التل أو عي) ومنطقة الجبال الشرقية (سحاب، السماكية، طويلات، تل الخليفية).

نستنتج من هذا التوزيع صعوبة التعرّف، بل استحالته، على بناه هذه المنازل من الناحية الأثنية، مع العلم أن المنقبين الإسرائيليين والباحثين التوراتيين نسبوها إلى الإسرائيليين الأوائل (إسرائيلي١) دون توافر أي برهان على ذلك. بنيت هذه الآراء على مفاهيم توراتية لا علاقة لها بالمصادر التاريخية أو بالشواهد الأثرية، على أية حال. إن تطور هذه البيوت ليس مفاجئاً بل مستمداً من العمارة الفلسطينية التي ترسخت في الألف الثاني قبل الميلاد وقبل ذلك. لم يقتصر استعمال هذا النوع من

البيوت على السكن وإنما استعمل بعضها كمرافق صناعية كتلك التي عثر عليها في تل بيت مرسيم وتل السعيدية وسحاب، حيث وجد فيها أعداد كبيرة من ثقالات النسيج وأدوات أخرى مرتبطة بهذه الصناعة. انتقلت ادعاءات التوراتيين والأثريين الإسرائيليين من العمارة إلى المكتشفات جرة فخارية كبيرة الحجم تأخذ شكلاً شبه بيضوي ويلتف حولها بين العنق والكتف طوق ألصق بالإناء وعرف بالمصادر الأجنبية بـ (Collared - rimjar). وقد أشير في دراسة أخرى إلى أن وجود هذه الجرار مرتبط بالإنتاج الزراعي لسكان فلسطين والأردن لفترة طويلة من الزمن، ولا يمكن أن تكون من اختراع مجموعة بشرية دون غيرها، وإنما تطورت هذه الجرة عن جرار أخرى مشابهة لها عرفت في العصرين البرونزي الوسيط والأخير، وقد وجدت بأعداد كبيرة وفي مناطق مختلفة من الأردن وفلسطين تخرج عن إطار الخارطة الجغرافية لسكان العصر الحديدي الأول التي رسمها التوراتيون ومن يسير في فلكهم. لقد تبين أيضاً في الدراسة المشار إليها أنه تم إنتاج هذا النوع من الجرار في مراكز صناعية رئيسية وكان لابد من إنتاجها بمواصفات فنية محددة لتنسجم وحاجة الناس إليها، خاصة إذا علمنا أن أعداداً كبيرة من هذه الأواني الفخارية متجانسة في الحجم والشكل والتصنيع. والغريب في الأمر أن جميع المواقع التي وجدت فيها مثل هذه الجرة ذات الطوق وصفت بأنها إسرائيلية قديمة (Early Israelite) وتكاد تكون في كثير من الحالات المؤشر الوحيد لهذا التعريف[١٦].

وهكذا ما لبثت اللقى الأثرية الجديدة العائدة إلى العصرين البرونزي المتأخر والحديدي أن قادت إلى نقاشات شديدة، أن أفضتنا، خلال فترة تزيد قليلاً عن العقد، إلى انقلابات وتحولات مدهشة في فهمنا لهذه الفترة ذات الأهمية البالغة. فالعديد من الباحثين ما عادوا ينظرون إلى تدمير المراكز الحضرية في فلسطين ونمو المئات من المواقع الريفية في المرتفعات والسهول بوصفها تأكيداً لقيام إسرائيل بإخضاع فلسطين أو لهجرة بني إسرائيل إلى داخل المنطقة. فقد بات الآن مسلماً به على نحو عام أنه كانت ثمة استمرارية ثقافية ذات شأن بين العصرين البرونزي المتأخر وأوائل العصر الحديدي، وأن المئات من المواقع الصغيرة في المرتفعات والأطراف كانت بأكثريتها محلية أصلية. يؤكد " وليم دفر " ومعه عدد كبير من علماء الآثار الآخرين أن أواني هذه المواقع تظهر استمرارية واضحة من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي. يقول " دفر ": " يجب التأكيد في ضوء علم الآثار اليوم أن ما يثير الدهشة، وعلى نحو متزايد مع تقدم البحوث، هو التواصل، لا التفاصل، على صعيد الثقافة المادية بين العصرين البرونزي المتأخر والحديدي الأول ". وما يهم هنا هو عدم وجود أي قطيعة ثقافية بين العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي [١٧].

يتضح من ذلك، أن اللغز بالنسبة إلى الآثاريين هو في أنهم قد افترضوا أن إسرائيل قد سكنت مناطق معينة من البلاد [فلسطين]، ولذلك صار من الممكن تمييز الاحتلال الإسرائيلي، وحتى بعد أن اتضح أن نماذج خزفية ومعمارية معينة قد عُثر عليها في أجزاء متفرقة من

فلسطين، أو في مناطق لا يشير الكتاب [التوراة] على أنها إسرائيلية، فقد استمر السعي للعثور على إسرائيل. إن خطاب الدراسات الكتابية هو الذي شجع هذا السعي الأعشى نحو ماض متخيَّل، وهو وضع تعزز من خلال الحاجات السياسية لدولة إسرائيل لأن تجد لنفسها مكاناً في الماضي. وعلى الرغم من أن الكم المتزايد من المعطيات الأثارية ونسب التوجهات التاريخية الاجتماعية إلى النصوص الكتابية قد بدد النموذج السائد، فقد ظلت له سطوته على تصورات الباحثين الغربيين والإسرائيليين ووعيهم بحيث أنه قد صمد بثبات في وجه التناقض المهيمن. وذلك هو أفضل التفسيرات لقوة خطاب الدراسات الكتابية في طمس التاريخ الفلسطيني وإعاقة أية تركيبة بديلة للماضي[١٨].

قلنا إن النظريات السائدة حول الكيفية المفترضة لنشوء «إسرائيل القديمة» ؟! في بلادنا فلسطين انهارت بمجرد عرضها على المكتشفات الآثارية التي أوضحت بأن سكان المرتفعات، لم يختلفوا عن باقي سكان بلادنا فلسطين. أي أن سكان هذه المستوطنات كانوا شعوباً محلية. فـ " الأبحاث الأثرية التي جرت في بلادنا فلسطين لا تشير على وجود مخلفات، كما هي العادة في المراحل المبكرة من مراحل الاستيطان بفلسطين، خاصة في فترة القضاة [المزعومة] فقد اختفي الفخار والأشياء الأخرى التي تميز العصر البرونزي الحديث تدريجياً. ولكن يصعب جداً أن نقول في أي موقع من المواقع إن هذه الطبقة كنعانية والثانية إسرائيلية "[١٩].

إذن لقد صارت كلمة (إسرائيلي) [*]، حين تطلق على تلك الأماكن بلا معنى، ويفترض " طمسن " أنه صار من المضلل التحدث عن (إسرائيلي) ضمن سياق آثاري حول فلسطين العصر الحديدي الأول وتقدم المعطيات الآثارية التي تغطي فترة الانتقال بين أواخر العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي، ومطالع العصر الحديدي معلومات قيمة حول الوضع السكاني والتوطن، والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي في المجتمع الفلسطيني. ولكنها لا تقول أي شيء مباشر عن كيان كان اسمه إسرائيل [٢٠].

بناءً على كل ما سقناه آنفاً نتوصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، لم يشهد وصول جماعات معروفة بالإسرائيلية إلى المناطق الهضبية في بلادنا فلسطين. وإن مسألة الإثنية، برمتها، في السجلات الإركيولوجية، لا مبرر لها.

آثار فلسطين.. تكشف زيف سفر يشوع:

يؤكد كثير من الباحثين التوراتين، ويساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي النظرية القائمة على دخولين منفصلين لفلسطين من الجنوب ومن الشرق، فقد أبانوا أن هناك مجموعة تسللت من الجنوب أولاً، وهناك مجموعة أخرى شمالية، وهي التي كانت العنصر المهم، وكان دخولها من الجهة الشرقية والشمال الشرقي. ففيما يتعلق بالدخول من الجهة الجنوبية، لا توجد شواهد أثرية مؤكدة، ففي نهاية القرن الثالث عشر ق. م، تعرضت المدن الفلسطينية إلى تدمير شامل ولكن هذا التدمير كان جزءاً من تدمير شمل المنطقة الممتدة من

الأناضول حتى مصر، لقد كان هذا التدمير الذي سبب سقوط كثير من القوى العظمى بالمنطقة آنذاك، كان بسبب اجتياح شعوب البحر، الذي تشير إليه النقوش المصرية بأنه تم نحو عام ١١٩٠ ق. م، لقد عثر على كثير من الشواهد الأثرية لذلك التدمير في جنوب فلسطين في كثير من المواقع التي تعود إلى نحو عام ١٢٠٠ ق. م، ولكن لا يوجد لدينا دليل نستطيع أن نقرر على ضوئه أن ذلك التدمير كان من أعمال شعوب البحر، أو نتيجة لتسرب الإسرائيليين أو حتى نتيجة الحملات المصرية ضد شعوب البحر، إن الشاهد المتعلق بهذا الدخول من الجنوب هو شاهد كنعاني [٢١].

وفي ذلك يقول " مايزر " إن استقرار الإسرائيليين في فلسطين " ليس إلا إحدى الهجرات في تاريخ هذا المعبر الجنوبي، أو هو إحدى قصصه المتأخرة، وهي تقع حسبما كان متواتراً بعد انهيار الدولة الحديثة في مصر وانتهاء حمايتها على سورية، ولما كانت لغة إسرائيل من طراز اللغة الكنعانية يمكننا أن نعتبر الغزو - مما وراء الأردن - موجة متأخرة من الحركة الكنعانية الكبرى " [٢٢].

وفيما يتعلق بالدخول من الشرق، فقد اجتهد علماء الآثار ليجدوا شاهداً، يعود لفترة الدخول تقدمه المواقع الأثرية في (إيدوم Edom) و(مؤاب Moab) و(عمون Ammon). فلقد كانت نتيجة المسح الأثري المتميز والواسع الذي قام به " نلسون جلويك " (Glueck) أنه أشار إلى فقر المنطقة بالمستوطنات خلال الجزء الأكبر من الألف الثانية ق. م. وتغير كل ما يحيط بالصورة حين عثر على لقى تعود إلى العصر

البرونزي الوسيط والحديث في المناطق التي تجاور مدينة عمان. وهذا ما أكدته تنقيبات " كريستال بنييت " (Bennett) في موقع (أم البيارة Um elbiyara) وموقع (طويلان Tawilun) وعلى وجه الخصوص موقع (البصيرة Buseira) التي كانت على الغالب عاصمة الأدوميين، فلم يعثر على شاهد مؤكد يشير إلى مستوطنات حتى القرن التاسع ق. م تقريباً، أو أحدث قليلاً حيث من المتوقع أن يظهر الكثير من الشواهد [٢٣].

أين معارك السفاح التوراتي يشوع بن نون؟!:

في سياق الحديث عن أسطورة غزو الإسرائيليين لفلسطين من الشرق، وعن حملات السفاح التوراتي " يشوع بن نون " هناك ثلاثة مواقع يمكن أن تقدم شاهداً وتساعد على تكوين تأريخ وهي: (أريحا)، (عاي)، (جازور) التي نقبت على نطاق واسع. بدأت أعمال التنقيب في أريحا بعمل سبر صغير في عام ١٨٧٦، ثم نقبت فيها بعثة أثرية نمساوية - ألمانية من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩٠٩؛ وبعثة أثرية بريطانية بإدارة الأستاذ " جون جارستانج " (Johan Garstang) من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٦؛ وبعثة بريطانية من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٨ بالتعاون مع أمريكيين وكنديين في عدة مواسم.

زعم في التنقيبات التي جرت في الفترة ما بين (١٩٣٠ - ١٩٦٣) أن شاهد الغزو قد عثر عليه مجسداً في خرائب المدينة أي (أريحا) نحو عام ١٤٠٠ ق. م. أخذ بهذا التاريخ، وهذا الادعاء المبني على اكتشاف أسوار المدينة التي قيل وظهر في نصوص عدد كبير من الكتب الإفرنجية والعربية ثبت بطلانه تماماً الآن.

وقد أوضح البروفيسور الألماني " أرنست سيللين " (Ernest Sellen) وذلك عندما نشر نتائج أعماله التنقيبية في (أريحا) ١٩١٣ واصلاً إلى نتيجة أن الكنعانيين سكان المدينة قد تعرضوا للدمار ما بين ١٦٠٠ - ١٥٠٠ ق. م عندما كانت أحد المراكز المهمة للهكسوس. وعليه فمن المحتمل أن الدمار الذي لحق ببعض المدن الكنعانية قد تم على يد الفراعنة، أثناء مطاردة الهكسوس أو أثناء إخماد ثورات العابيرو [٢٤].

وقد أكدت هذا الرأي الآثارية البريطانية " كاثلين كينون " (Kathleen Keny) التي قامت بالتنقيب والحفر حول مدينة (أريحا) فبرهنت الحفائر التي قامت بها أن مدينة أريحا كانت غير مأهولة في ذلك الوقت في القرن الثالث عشر ق. م - فمدينة العصر البرونزي الوسيط كانت قد دمرت نحو ١٥٥٠ ثم هجرت بعد ذلك. وفي القرن الرابع عشر، سكنت بصورة ضعيفة، فقد وجدت آنية من الفخار ترجع إلى ذلك العصر داخل مقابر العصر البرونزي الوسيط التي استخدمت مرة أخرى، ومنزل به إبريق صغير يرجع إلى منتصف القرن الرابع عشر. ولا شيء ينتسب إلى القرن الثالث عشر، ولا توجد أية آثار لحصون العصر البرونزي الحديث، وكانت النتيجة التي توصلت إليها الدكتورة " كينون " أنَّ من المستحيل ربط تدمير أريحا بدخول الإسرائيليين في نهاية القرن الثالث عشر ق. م [٢٥].

وأخيراً قام العالم الأثري الإسرائيلي البروفيسور " زئيف هرتسوغ " بدحض فرية تدمير (أريحا) على يد يشوع بن نون قائلاً: رغم كل أعمال الحفر والبحث فإن علماء الآثار لم يجدوا أي دليل على أن جدران أريحا

الضعيفة انهارت كما وصفها يشوع في القصة التوراتية، وليس هذا فحسب ولكن ليس هناك ما يدعم قصة المعجزة العظيمة التي تلي انهيار جدران أريحا كما ترويها التوراة. ويستطرد قائلاً " إن كل الأحداث المذكورة في التوراة تتناقض تماماً مع ما توصل إليه علماء الآثار " [٢٦].

ويذكر " ج. كونتو " أنه قد حدث زلزال عام ١٣١٦ ق. م ومس البلاد الآتية: بيت مرسيم، وأريحا، ومجدو، وبيسان، وتل الحصى، وعسقلان، وطرطوس[٢٧]. وبذلك نصل إلى أن " قصة احتلال (أريحا) إما أنْ تكون مختلقة اختلاقاً أو كما يقترح البعض أنها من المرويات " [٢٨].

وهكذا الحال بالنسبة للاستيلاء على مدينة (عاي)، فقد قامت بعثتان بالحفر والتنقيب في الموقع، وجاءت النتائج متطابقة، وهو أنه لم تكن توجد مدينة وقت قدوم الإسرائيليين، ولم يكن هناك ملك لـ (عاي) فقد كانت هناك أطلال تعود إلى سنة ١٢٠٠ ق. م [٢٩].

وفي عام ١٩٦٥ م كتب أحد العلماء الذين نقبوا هناك، وهو " بريتشاد "

(James Pritchard) من جامعة برنستون Princeton، أنه ليس هناك شك بناء على أفضل ما يتوافر من شواهد في أنه لم تكن هناك مدينة معاصرة ليشوع [٣٠]. وبذلك فإنه من المحتمل ألا يكون هناك أساس تاريخي لقصة الهجوم على (عاي).

أما فيما يتعلق بمدينة (جازور) فقد دمر " سيتي الأول " المدينة في القرن الرابع عشر ق. م، ربما نحو ١٣١٨، أو ربما عام ١٣٠٠ ق. م، ولكن سرعان ما أعيد بناؤها دون تغيير في مخططها في الغالب، ولكن المباني كانت بسيطة. ومرة أخرى دمرت المدينة، كما هو واضح بعد فترة قصيرة وحرقت بعنف، وبالتأكيد فإن الفخار الذي عثر عليه في المراحل الأخيرة من العصر البرونزي الحديث المتأخر يعود إلى نهاية القرن الثالث عشر ق. م، عانت (جازور) بعد ذلك اضمحلالاً، إذ ظلت المدينة المنخفضة مهجورة باستمرار، وعليه يمكن القول بأن هناك فاصلاً بين تدمير (أريحا) وتدمير (جازور) في أقصاه يمكن أن يكون خمسين عاماً وفي أقله يمكن أن يكون خمسة وعشرين عاماً [٣١].

أما فيما يخص (حاصور) فينفي " طمسن " فريّة تدمير (حاصور) قائلاً: " إن وجود انقطاع في استيطان حاصور في نهاية العصر البرونزي الأخير لا نزاع حوله، ولكن مدة هذا الانقطاع تبقى غير مؤكدة في أي حال، ومن غير المحتمل أبداً أنه كانت هناك علاقة تاريخية بين الدمار الشامل الناجم عن الحريق في حاصور في أواخر العصر البرونزي الأخير، وأي من المستوطنات الجديدة في العصر الحديدي الأول والجليل، وحتى الاستيطان الثاني في حاصور. وفي الواقع إذا اعتمدنا التسلسل الزمني الذي وضعه (فنكلشتاين) يصبح من الضروري أن نستنتج أن منطقة الجليل بكاملها قد شهدت فجوة في الاستيطان الزراعي لمدة قرن كامل. ويذكر في موضع آخر أن مدينة حاصور في العصر البرونزي الأخير انتهت مثل (أوغاريت) بدمار شامل وحريق،

ومثل أقرانهم في (أوغاريت) لم يكن سكان طبقة هذا العصر في حاصور قادرين على إعادة البناء والاستمرار في الموقع بعد الدمار، وبالفعل تشير الفجوة في الموقع إلى أنَّ أرضهم لم يأخذها منهم عدو عنوة، بل إنها هجرت رغم وجود سلسلة من الأسباب المحتملة التي أدت إلى هذا الاقتلاع الجذري لعدد كبير من السكان، فلا الغزو ولا التوسع الاستثماري يحتمل أن يكونا بينها، وبالفعل فإن عدم قدرة السكان على إعادة البناء لا تستتبع، بل لا توحي بضائقة حادة وفقر واضطراب سياسي. منذ فترة ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق. م، تقريباً (فترة القرنين التي شهدت تغيرات جذرية عديدة في كافة مناطق المتوسط) هناك بيانات وفيرة تؤيد حصول جفاف طويل الأمد ومجاعات توجت الانهيار الاقتصادي والسياسي في العصر البرونزي الأخير، التدهور واسع النطاق في الحوض الساحلي للمتوسط توافق مع تغير مناخي عالمي[٣٢].

وقد أكد هذه الأبحاث السيد " بروشي "، المسؤول المتقاعد عن مخطوطات البحر الميت الذي ذكر " أن المدينة - أريحا - أخليت بداية القرن ١٥ ق. م إلى نحو القرن ١١ ق. م، والشيء نفسه تقدمه الأثريات بالنسبة للمدن الأخرى، ويقول بروشي إن تلال يهودا والسامرة (الضفة الغربية الفلسطينية) لم تكن مأهولة في تلك الفترة، أي لم يكن هناك مدن باسم عاي وجازور وأريحا، ولم يكن الداخل بحاجة لتدمير وقتل لكي يستوطن؟ [٣٣].

وها هوذا " جيمس بريتشاد " (James Pritchard) يؤكد بعد تنقيبه في فلسطين: " أن التناقضات الواضحة التي كشفت عنها نتائج التنقيب

الأثري في (أريحا) وغيرها من المواقع التي تحدث عنها سفر يشوع تدل على أننا نسير في طريق مسدود في محاولة العثور على شواهد أثرية لإثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الإسرائيلية ".

ويؤكد " د. عفيف بهنسي "، المدير العام السابق للآثار في سورية، " أن جميع الجهود الأثرية المبذولة في بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) لم تقدم أي دليل تاريخي يؤكد الأحداث التوراتية " (٣٤).

ويذكر عالم الآثار الإسرائيلي " زئيف هرتسوغ " في تقريره المثير للجدل «التوراة: لا إثباتات على الأرض » أنَّ الحفريات المتكررة التي أجرتها بعثات مختلفة في (أريحا) وفي (عاي) المدينتان اللتان يذكر وصف احتلالهما بالتفصيل الدقيق في سفر يشوع - خيبت الآمال جداً. فرغم مساعي الباحثين تبين أنه في أواخر القرن الثالث عشر، في نهاية العهد البرونزي المتأخر، وفي الفترة المتفق على أنها فترة الاحتلال، لم يُعثر أبداً في هذين الموقعين على أي أثر لمدينة، بالتالي لم تكن هناك أسوار يمكن هدمها. ولذلك فإن باحثي التوراة اقترحوا منذ يوبيل من السنوات النظر إلى قصص الاحتلال هذه بوصفها مجرد أساطير ليس غير، ولكن، بقدر ما كانت تزداد المواقع التي تكتشف ويتبين أن هذه المواقع السكنية خربت أو هجرت في فترات زمنية، كان الاستنتاج الذي يتعزز هو أنه ليس هناك أساس واقعي لقصص التوراة عن احتلال أرض (إسرائيل) على أيدي أسباط (إسرائيل) في حملة عسكرية بقيادة يشوع (٣٥).

ويرى البروفيسور " يسرائيل فنكلشتاين " عالم الآثار الإسرائيلي في جامعة تل أبيب، أن الدراسات أظهرت أن أريحا لم تكن محاطة بسور قط في الفترة المذكورة، وهي القرن الثالث عشر قبل الميلاد أي ١٣٠٠ قبل ظهور يسوع المسيح، فترة العصر البرونزي المتأخر، وفي مواقع كثيرة ورد ذكرها في التوراة لم يوجد أثر لأي موقع سكاني، أي أن دمار المدن الكنعانية لم يكن نتيجة لحملة احتلالية واحدة بقيادة عسكري واحد يشوع بل عملية متواصلة لفترة مئة عام على الأقل تدمرت خلالها مدون، وتجمعات سكنية في المنطقة[٣٦].

وبذلك لم يعد الدارسون يجدون براهين اركيولوجية ظاهرة على غزو إسرائيل لمدن كنعانية / فلسطينية في مواقع (عاى) و(أريحا)، وعدم قدرة العوامل الأركيولوجية على التميز بشكل واضح بين المجموعات الإثنية الإسرائيلية والكنعانية يجعل مسألة الانتقال من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي غير صالحة كدليل على فتح إسرائيلي [٣٧].

وينتقد " لمكة " بشدة نظرية الغزو، بقوله: " إن موجة الغزو عندما تصل إلى التدمير وإعادة الاستيطان، تكون على نحو ما واضحة كما تصورها المؤيدون لهذه النظرية، لكن الآثار تظهر أن أريحا لم تكن موجودة أيام يشوع [من المحتمل أنها قد دمرت قبلئذ في منتصف القرن السادس عشر قبل التاريخ الشائع]. ولأن يشوع لم ينهب ولم يحرق مدينة باسم عاي، فقد كانت هذه المدينة خراباً منذ عام ٢٣٠٠ ق. م. عندما هُجرت في نهاية العصر البرونزي المبكر. ولم يُعد بناؤها أبدا، الاسم يقول هكذا إذ يعني (تل)، لذلك فإن يشوع قد غزا تلاً مهجوراً كان

موجوداً في الجوار لمدة ألف سنة! أخيراً سيكون من عاني المشكلات للتوصل إلى ميثاق مع سكان قرية جبعون، نظراً لأن هذه المدينة لم يجر تأسيسها، ولم تكن سوى قرية، في القرن الثاني عشر قبل التاريخ الشائع، أي وفقاً لتقدير الأثريين الذين نقبوا عن جبعون في الستينيات. في الختام، من دون أن تكون بحاجة لأية حجة أخرى، فمن السهل أن نثبت أن غزواً مثل الغزو الموصوف في سفر يشوع لم يحدث أبداً(٣٨).

ويقول الأب " مايكل برير " حول اقتحام القبائل الإسرائيلية للمدن الفلسطينية: " هناك إجماع فعلي في الآراء بأن نموذج الفتوحات القبلية كما هو مرويّ في سفر يشوع (١٢ - ١) هو نموذج لا يمكن الدفاع عنه إذا ما وضعنا دليل <الكتاب> جانباً، فلن يكون لدينا أي دليل على وجود فتوحات عبرية [الأصح إسرائيلية]، بل أكثر من ذلك، فثمة إجماع علمي بأن القصة الكتابية التي تصف فترة الاحتلال التوطني جاءت عن طريق المؤلفين الذين كتبوها بعد عدة قرون، لا عن طريق الأحداث الموصوفة (سواء في فترات السبي، أو ما بعد السبي) التي لا تستند إلى معلومات يمكن الاعتماد عليها عن الماضي السحيق (٣٩).

ومن ثم وتلخيصاً لما أوردنا، يتضح انهيار أي نظريات قائمة على الغزو والفتح والاقتلاع، وتبدو من جهة أخرى مستبعدة لا سيما بسبب وجود فجوات دامت قروناً قبل العودة إلى الاستيطان في المنطقة.

ما كان داود وسليمان التوراة يوماً في فلسطين! :

لما كان داود وسليمان التوراة يشكلان مرتكزاً وأساساً للمزاعم الصهيونية، ولما كان ينظر إليهما، كما هو الحال، كجد للصهيونية

المعاصرة، فيجب أن نوضح أن جهود الباحثين التوراتيين في البحث عن المملكة الداودية - السليمانية ليست ذات أهمية تاريخية وأثرية فقط، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن دولة إسرائيل الحديثة ترجع مطالبتها التاريخية والطبيعية إلى دولة العصر الحديدي تلك. فقد أشار إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب في ١٤/٥/١٩٤٨أشار إلى " إعادة بناء الدولة اليهودية " (re - establishment of the Jewish state)، وما هذا التعبير إلا صياغة لوعد بلفور الذي أعلن قبل واحد وثلاثين عاماً من إنشاء الدولة، ذلك الوعد الذي تحدث عن " إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ".

إن الباحثين التوراتيين وكذلك علماء الآثار قد بحثوا عن دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة ومؤسسها داود وابنه سليمان وتصوروا أن هذه المملكة قد وجدت بالفعل. وقد هيمنت تلك " الحقيقة " المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية خلال معظم القرن الحالي، وأتاحت مجالاً لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه " الحقيقة " المزعومة أسهمت أكثر من أي شيء آخر في إهمال وتحقير الشعب الفلسطيني وثقافته، مع إغفال التاريخ الذي بقي آلافاً من السنيين لفلسطين، ذلك التاريخ الذي تعامى عنه علماء الآثار بالمعنى الحرفي لكلمة التعامي.

وفي ذلك يقول " لورنس دفدسن " في دراسته القيمة - الأثريات الكتابية والصحافة: «صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب»: إن علم الآثار في فلسطين، شدد على مواقع العهد

القديم. إن العهد القديم، وبالتالي التاريخ اليهودي القديم في فلسطين (كما هو مصور في التوراة) هو الذي سعى اللاهوتيون إلى إثبات صحته. وحتى أولئك المسيحيون، الذين اعتبروا فلسطين وطناً ليسوع، كانوا سيجدون أنفسهم، جراء اتباعهم تغطية علم الآثار في فلسطين، أنه قد تمت إعادة توجيههم نحو في فلسطين الملكين داود وسليمان، وخلفائهم ما قبل المسيحية، رغم بقائها ذات أهمية دينية. ففيما سعى الصهاينة مادياً إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومي يهودي، ساهم عمل علماء الآثار في تحويل فلسطين، على الصعيد النفسي، إلى أرض يهودية[٤٠].

من القضايا المهمة التي تشير إلى مغالطات المؤرخين وتبنيهم وجهة نظر التوراة، وأحياناً كثيرة المغالاة فيها موضوع و " المملكة الداودية - السليمانية "، فمعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع من الباحثين التوراتيين والغربيين وساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، أشاروا إلى أن هذه المملكة، التي عادة ما تُرْبَطُ بالفترة الممتدة من (٩٦٠ - ٩٣٠ ق. م)، كانت أعظم إمبراطوريات المشرق العربي، وأن حدودها امتدت لتغطي كل بلاد الشام، ولم تقتصر على فلسطين فحسب.

وبالرغم من أن التوراة لا تكل عن مديح عصر داود وسليمان واعتباره العصر الذهبي الإسرائيلي، والإشادة بما يقال عن انجازات عصرهما الثقافية والعمرانية والإدارية، فمن الطبيعي أن نتوقع العثور، على أثر واحد على الأقل يعود إلى تلك المرحلة عمرانياً كان أم وثيقياً أو نقشاً، أو ما إلى ذلك، لكن الحقيقة، حتى هذه اللحظة، لم يتمكن الآثاريون

من العثور على أي دليل يشير، صراحة أو كناية، على المملكة الداودية - السليمانية في فلسطين.

إن مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان وعن دورهما السياسي والعمراني هو التوراة، والتوراة وحدها، إذ لم يعثر المنقبون على أي أثر من هذا الدور. فلا توجد مصادر تاريخية تدعم السجل التوراتي، كما لا تسهم المخلفات الأثرية في إيضاح ذلك. لا شك في أن للباحث أن يطرح تساؤلات في حالة انعدام الوثائق والبيانات، فالمملكة الدوادية - السليمانية المزعومة التي تأسست مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد في فلسطين، كما يزعم بعض الباحثين الغربيين ومن يواليهم من أصحاب الفكر الآسن في جامعتنا ومراكز أبحاثنا، لابد أن تكون قد سبقتها مدة طويلة وأن يكون تأسيسها قد تمخض عن صراع محتدم بين دويلات المدن آنذاك، فأين هي مقدمات تأسيس المملكة الدوادية - السليمانية؟!

وإذا كان علماء الآثار يبحثون عن أرشيف تاريخي للمرحلة السابقة لممالك داود وسليمان. فإنهم لم يعثروا على ذلك في فلسطين، علماً بأن الدول المجاورة قد قدمت أرشيفاً تاريخياً للمرحلة نفسها.

ويعلن " أمنون بن ثور "، عالم الآثار في الجامعة العبرية، أن المسألة تشبه نقطة زيت تسقط فجأة قد تجدها في كل مكان إلا هنا[٤١].

ففي السنوات الأخيرة، بدأ الإجماع على فكرة وجود المملكة الدوادية - السليمانية يتداعى تدريجياً، وإن كانت هذه الفكرة لا تزال تهيمن على خطاب الدراسات التوراتية، ومن يواليهم أصحاب الفكر الآسن حراسه

من بعض الأكاديميين العرب. فقد أصدر " ليتش " نقداً معتدلاً في حدته للاستخدام التاريخي للقصص التوراتية من منظور (أنثروبولوجي) بنيوى. والموضوع السائد في كتابه هو أن الكتاب العبري بوصفه نصاً مقدساً لا يوفر مصدراً تاريخياً ولا يعكس بالضرورة حقيقة عن الماضي. إنه يمثل عند " ليتش " تبريراً للماضي يكشف عن عالم القصّاصين أكثر مما يكشف عن أية حقيقة تاريخية. ويطرح أسئلة مهمة جداً تثير شكوكاً حول التقديمات السائدة لحكمي داود وسليمان، وتُسائل تاريخية هذه المرحلة الهامة كما قُدمت في الموروثات الكتابية؛ أنا شخصياً أرى ذلك غير قابل للتصديق. ليس هناك أي دليل أثري على وجود هذين البطلين أو على وقوع أي من الأحداث التي ارتبطت بهما. ولو لا قداسة هذه القصص لكان وجودهما التاريخي مرفوضاً بالتأكيد [٤٢].

ومما قاله العالم " روني ريك " في هذا الصدد: " آسف أن السيد داود والسيد سليمان لم يظهرا في هذه القصة " [٤٣].

إن السمة الأكثر إدهاشاً في الخطاب [الكتابي] هي الصمت المطبق للسجل الآثاري حول ما يتعلق باللحظة التعريفية [فترة سليمان وداود] في تاريخ المنطقة. إنه الصمت الذي ساهم بشكل أساسي القوى ضمن مشروع، وتحديداً بسبب أنه أكد تحامل المؤرخين الكتابيين الذين قرروا أن كتابه التاريخ تعتمد على المصادر المكتوبة، كما صرح " غاريبيي " و " ليتش " و " فلاناغان " أن صمت السجل الآثاري هو الذي يطرح أكثر الأسئلة جدية حول تقديم إمبراطورية إسرائيلية بوصفها تعبيراً عن ثقافة حضارة نهضوية ويوحي بأننا نتعامل مع ماضٍ مخترع[٤٤].

ويشير " مِلَر " إلى أنه ليس هناك دليل على المملكة الداودية - السليمانية خارج التقاليد والموروثات الكتابية، المؤرخون الذين يتحدثون عن هذا الكيان إنما يفترضون مسبقاً صحة المعلومات التي يأخذونها من الكتاب العبري (٤٥).

شكك عالم الآثار الإسرائيلي " يسرائيل فنكلشتاين " من جامعة تل أبيب بوجود أي صلة لليهود بالقدس، جاء ذلك خلال تقرير نشرته مجلة " جيروساليم ريبورت " الإسرائيلية توضح فيه وجهة نظر " فنكلشتاين "، الذي أكد أنه لا يوجد أساس أو شاهد إثبات تاريخي على وجود داود، هذا الملك المحارب الذي اتخذ القدس عاصمة له والذي سيأتي (الميا) من صلبه للإشراف على بناء الهيكل الثالث، مؤكداً أن شخصية داود كزعيم يحظى بتكريم كبير لأنه وحد مملكتي يهودا وإسرائيل هو مجرد وهم وخيال لم يكن لها وجود حقيقي. كما يؤكد فنكلشتاين أن وجود باني الهيكل وهو سليمان بن داود مشكوك فيه أيضاً (٤٦).

يقول العلامة " طمسن " في كتابه الجديد «الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)» : " جرى تقديم [القرن العاشر ق. م] بوصفه العصر الذهبي لإسرائيل وعاصمتها في أورشليم. كانت تلك الحقبة مرتبطة بالمملكة المتحدة التي تضم السلطة السياسية لشاول وداود وسليمان وتسيطر على الجسر البري الضخم من النيل إلى الفرات. إضافة إلى مفهومها عن الهيكل الذي بناه سليمان بوصفه مركزاً لعبادة يهوه. تلك الصور لا مكان لها في أوصاف الماضي التاريخي الحقيقي. إننا نعرفها فقط كقصة، وما نعرفه حول هذه القصص لا يشجعنا على معاملتها كما

لو أنها تاريخية، أو أنه كان يقصد منها أن تكون كذلك. ولا يتوافر دليل على وجود مملكة متحدة، ولا دليل على وجود عاصمة في أورشليم، أو وجود أي قوة سياسية موحدة متماسكة، هيمنت على فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية بالحجم الذي تصفه الحكايات الأسطورية. ولا يتوافر أي دليل على وجود ملوك يدعون شاول أو داود أو سليمان؛ ولا نملك دليلاً على وجود هيكل في أورشليم في هذه الفترة المبكرة. ما نعرفه عن إسرائيل ويهوذا القرن العاشر لا يسمح لنا بتفسير انعدام الدليل هذا بوصفه فجوة في معرفتنا ومعلوماتنا حول الماضي، أو مجرد نتيجة للطبيعة العرضية للآثاريات. ما من متسع ولا سياق، لا شيء مصطنع أو أرشيف يشير إلى مثل هذه الحقائق التاريخية في القرن العاشر في فلسطين. لا يمكن للمرء أن يتكلم على دولة بلا سكان. ولا يمكنه أن يتكلم عن عاصمة من دون بلدة. والقصص ليست كافية [٤٧].

إذن لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاول وداود وسليمان. إن الحقبة المبكرة التي تؤطر فيها التراثات حكاياتها هي عالم خيالي من زمن غابر لم يوجد على هذا النحو أبداً.. لم يكن من الممكن أن توجد مملكة لأي شاول أو لأي داود ليكون ملكاً عليها، ببساطة لأنه لم يكن ثمة ما يكفي من الناس. دولة يهوذا لم تكن فقط غير موجودة بعد، بل إننا لا نملك أي دليل على وجود أي قوة سياسية في أي مكان في فلسطين كانت كبيرة بما يكفي، أو متطورة بما يكفي لأن تكون قادرة على توحيد الاقتصادات والأقاليم العديدة لهذه البلاد. في هذا الوقت كانت فلسطين أقل توحداً بكثير

مما كانت عليه لأكثر من ألف عام. ويكاد الحديث أن يكون غير ممكن تاريخياً عن أورشليم القرن العاشر. فلو وجدت إطلاقاً، ولم تعثر سنوات من التنقيب على أي أثر لبلدة من القرن العاشر، لكانت ما تزال تبعد قروناً عن امتلاك المقدرة على تحدي أي من (العشرينيات) أو أكثر، من بلدات فلسطين القوية المتمتعة بالحكم الذاتي(٤٨).

إن الصورة التقليدية التي تقدمها أسفار العهد القديم عن أورشليم مطلع العصر الحديد الأول، مدينة داود وسليمان، هي صورة مدينة كبيرة جميلة، ذات تحصينات وقصور ومخازن، ومعبد رائع الصنعة. وفي المقابل، فإن مؤلفات صدرت حديثاً لـ " طمسن "، و " ديفيد جميسون درايك "، تري أن أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد، لم تكن أكثر من بلده صغيرة لعبت دور السوق المحلى للمنطقة. إن البقايا الأثرية التي اكتُشفت حتى الآن لتدل على أن أورشليم كانت خلال القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد بلدة متواضعة تشغلها بصورة رئيسية الأبنية الإدارية، أما مساحتها فلم تزد عن ٣٠ أكراً، ولم يسكن فيها أكثر من ٢٠٠٠ نسمة. أي أنه في زمن ما من القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد جرى تشييد بلدة جديدة تحتوى على أبنية عامة ولكن من دون منطقة سكنية واسعة. ونحن هنا نصف هذه البلدة بالجديدة لأن بلدة - عصر البرونز الوسيط لم تكن قائمة خلال عصر البرونز الأخير وعصر الحديد الأول. ومن المستبعد أن هذه البلدة كانت عاصمة لدولة كبرى كتلك الموصوفة في النص التوراتي، مملكة إسرائيل الموحدة " (٤٩).

يقول " أ. فنكلشتاين " و " ن. سلبرمان ": " وكما رأينا، فإنه لا وجود

لشواهد أركيولوجية مقنعة على وجود مملكة تاريخية موحدة اشتملت على جميع أراضي إسرائيل [فلسطين]، وكانت عاصمتها في أورشليم " [٥٠].

لقد انزعجت مجلة bar من هذا الاتجاه لأنها متخصصة في الدعاية لإسرائيل، وخاصة في مجال الحفريات، فجمعت العلماء من الاتجاهين المختلفين. حيث كان يمثل مدرسة كوبنهاجن شيفلد الأستاذين: " طمسن "،

و " ليتش "، وكلاهما من جامعة كوبنهاجن. وكان يمثل الطرف الثاني: الأستاذ " وليم ديور "، من جامعة أريزونا، وهو يعتبر ذا شهرة عالمية في مجال دراسة الآثار في فلسطين. والأستاذ " كائل ميك آرثر "، من جامعة جون هوبكنز. ونشرت المناقشات التي دارت بين الفريقين على صفحات مجلة bar نفسها في يوليو/ أغسطس ١٩٩٧. لقد نفى " طمسن " أن تكون يوروشليم عاصمة للمملكة الموحدة في القرن العاشر قبل الميلاد. ولقد ذكر الباحث الإسرائيلي " اسيكشن "، ووافق عليه " فينكلشتاين " أيضاً بأنه لا يوجد في الحفريات البقايا من الأواني الفخارية من القرن العاشر قبل الميلاد، أي من عصر داود وسليمان، ولذلك استنتج " ليمش " أن داود الملك المذكور في العهد القديم لا يمكن إثباته تاريخياً. قال " ديور " في مناقشته: لم لا تقول إنه من الممكن أن يكون، ومن الممكن كذلك أن لا يكون؟ قال " ليمش " رداً عليه: لأن العهد القديم يصوره إمبراطوراً، كان يحكم من الفرات إلى النيل، وقد أضاف سليمان إلى هذه الإمبراطورية مساحات أخرى، لذلك لا يمكن أن يكون داود شخصية تاريخية. ووافق " ديور " نفسه على هذا القول، واتفق مع "

ليمش " بأنه لا يوجد داود وسليمان بهذا المفهوم [٥١].

وفي استعراض " غبريل باركاي " (Gabriel Barkay) لآثار فترة العصر الحديدي الثاني يتوصل إلى الاستنتاج الذي يقول: " إن التحديد الدقيق لتاريخ طبقات التوطين ومجموعات اللقى العائدة للقرنين العاشر والتاسع قبل التاريخ الشائع محفوف بالمصاعب ". كما يضطر لأن يستنتج أن " فكرة المجد " التي تنبثق من الروايات الكتابية لا تتطابق مع " الواقع الذي تعكسه اللقى الأثرية " [٥٢].

مما يجدر ذكره في هذا السياق، أن الوثائق الأثرية لا تذكر مملكة إسرائيل قط، كما لا تأتي على أي ذكر لداود أو سليمان في بلادنا فلسطين. ولكن يرى بعض الآثريين التوراتيين، ويساندهم في ذلك أصحاب الفكر الآسن العربي وحراسه، أنه يتعين الآن تخفيف حده الهجوم على داود مع اكتشاف نقوش (تل القاضي / Tel Dan). فخلال موسم التنقيب لعام ١٩٩٣ بموقع تل دان المزعوم، اكتشف عالم الآثار الإسرائيلي " أفراهام بيران " (Averaham Biran) قطعة من نقش محفور على الحجر، سرعان ما صار موضع جدل حامى الوطيس بين الباحثين الكتابيين، نظراً لأهميته في الإجابة عن السؤال المتعلق بتاريخية الملك داود. والأهمية تأتي من ورود تعبير (بيت داود / Betdawod) في السطر التاسع من القطعة الأولى للنقش. وبعد هذا الاكتشاف بسنتين أي عام ١٩٩٥ عُثر على نقشين آخرين قد تكون القطعتان الجديدتان جزءاً من القطعة الرئيسية التي

احتوت على النقش السابق، وربما لا، وقد جرت العادة على الإشارة إلى هذه القطع الثلاث بالرموز (A) للأولى و(B1) و(B2) للقطعتين الجديدتين [٥٣].

بعد ذلك كله يتبقى السؤال الأهم: هل هناك إشارة في النص إلى الملك داود، أو إلى يهوذا؟ يزعم الباحثون التوراتيون ويساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين العرب، أن هذه النقوش ذكر فيها داود. فقد نظر هؤلاء إلى الإشارة إلى تعبير (بيت دود / Betdawod) في السطر التاسع من النقش على أنها لا تثبت وجود داود التاريخي فحسب، وإنما تؤكد صحة روايات التوراة حول الملك داود.

لكن هذا يتناقض مع المنهج المتحفظ لعلماء الآثار الذين نقبوا عن هذه القطعة، ويتعارض مع ما نشروه من هذا الجزء، فيذكر العالمان " بيران " و " نافيه " أن طبيعة المصادر التوراتية من جانب، والطبيعة الجزئية لنقش دان من جهة أخرى، لا يسمحان لنا باستنتاجات قاطعة. قد تكون هناك تفسيرات أخرى محتملة. ولن يمدنا بالدليل إلا اكتشاف قطع إضافية من هذا النقش للإجابة عن الأسئلة التي أثارتها اكتشافاتنا لهذه العينة.

أما العلامة " طمسن " فيذكر في كتابه «الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)» : "... ك بيتدود ". سرعان ما قرئت الأحرف " ملك بيت داود ". وقد حدد تاريخ النقش بأوائل القرن التاسع قبل الميلاد. كان يعتقد أنه يروي قصة معركة وصفت في سفر الملوك الأول (١٥: ١٦ - ٢٠) وهو حدث يعود تاريخه إلى عام ٨٨٣ ق. م. هذا النقش الجديد لم يكن فقط أقدم إشارة معروفة إلى ملك إسرائيل، وإن يكن غير مسمى، بل زعم

أيضاً أنه يقدم الدليل القاطع على أن داود الكتاب كان موجوداً ذات مرة وكان المؤسس للسلالة الحاكمة ليهوذا في أورشليم. وقد احتفت المجلات العلمية، إضافة إلى الصحف والمجلات الشعبية، بهذا الاكتشاف بحماسة كبيرة. مع ذلك كان ثمة مشاكل مع الاكتشاف، مع قراءة النص وتأريخه وتفسيره، لم تحل حتى الآن. ويستطرد " طمسن " بقوله: إن قراءة [حرف] >ك< على أنه الحرف الأخير من كلمة (ملك) إنما كان مجرد تخمين بالطبع، لا شيء في النقش ذاته يقضي بأن تربط كلمة أو اسم <بيت داود> مباشرة بأورشليم أو يهوذا، فقد كان من الممكن أن تشير إلى مكان أقرب كثيراً إلى تل دان. كما في أسماء أماكن كثيرة، فإن (بيت) يمكن ترجمته بمعنى بَيْتْ ويعكس اسم المحمية التي تحكم البلدة. كذلك بشكل عام، خصوصاً عندما يضم إلى اسم أو نعت إله أو آلهة، ترجمته بمعنى (معبد / هيكل)، هذا ما نجده بين أسماء أماكن في فلسطين مثل بيت إيل [تعنى معبد الإله]، وبيت دجن. يضيف " طمسن " أن الكتاب لا يستعمل المصطلح (بيت داود) بالطريقة التي يستعمل بها البريطانيون مصطلحاً مشابهاً هو (بيت ستيوارت) [House Of Stuurt] أي بالمعنى المحدد لسلالة حاكمة. ويتابع " طمسن " تحليله لهذا النقش قائلاً: عندما تم نشر المزيد من كسر النقش أو النقوش المتصلة به، أصبح إثبات أن القراءة الأصلية أكثر مراوغة حتى. في حين أنني أصبحت مقتنعاً بأن الكسر المنشورة تعود في الحقيقة ليس إلى نقش واحد بل إلى نقشين مرتبطين مختلفين، فقد وجد باحثون آخرون مؤشرات قادتهم إلى المجادلة بأن النقشين هما شيئان مزيفان.

في الوقت الحالي فإن هذه القضية غير محلولة وتنتظر تقصى إدارة إسرائيل الآثارية (٥٤).

أن هذا النقش الذي دخل في " علم الآثار التوراتي " على أنه أول وثيقة من " مصدر مستقل " تثبت الصلة ما بين الرواية التوراتية والآثار، لم يستطع أن يقف صامداً أمام النقد الصارم الذي وجه له والذي أظهر في النهاية أنه " مزيف ". وقد أثبت الزيف طائفة من علماء الآثار واللاهوت واللغات السامية القديمة والنقوش (الإبيغرافيا). أهمها " فرد كراير " والمستشرق الإيطالي " جيوفاني غاربيني " (Geovani Garbini)، الذي عدّته أوساط الدراسات التوراتية بمثابة الخوارجي الرجيم، بعد أن نشر كتابه المعروف - History and Ideology in Ancient Israel - عام ١٩٨٦. وعلينا هنا ألا ننسى أن " غاربيني " هو باحث على درجة عالية من الكفاءة في اللغات السامية الغربية ويضمنها الآرامية.

لقد عبّر " غاربيني " عن اقتناعه التام بأن نقش تل دان هو نص مزور. وأن الحالة المادية للنصب الحجري هي أفضل من أي نصب آخر ينتمي إلى تلك الفترة. إنه يبدو وكأنه نص نُقش حديثاً. أما لغته فآرامية ذات طابع عام، أي إنها تحتوي على ذخيرة من الكلمات المتداولة في غير العصر الذي ينتمي إليه النقش، قد احتوائه على كلمات تنتمي إلى عصره. ومن ناحية ثانية يرى " غاربيني " تشابهاً في أسلوب التعبير والأفكار بين نقش تل دان ونقش ميشع ملك مؤاب. وهذا يعني أن الشخص الذي كتب نص تل دان كان مطلعاً على نص ميشع، وأنه قلد العديد من جمله وعباراته.

أما الباحث " كراير " فيبني نظريته في تزوير النص اعتماداً على فحصه المباشر لقطع النقش في متحف إسرائيل. وقد بسط نظريته هذه في محاضرة شفهية ألقاها في ندوة متخصصة بكوبناغن منذ عدة سنوات، حيث وزع على الحضور صورة فوتوغرافية التقطها زميله الأمريكي " رونالد غميركن " (Ronald Gmyrkin) للقطع في متحف إسرائيل بالقدس. تُظهر الصور الجوانب المكسورة من القطعة (A) وعليها آثار من الأزميل الذي استخدمه من كتب النقش على الحجر، بحيث أن رسم بعض الحروف قد استمر من السطح الأمامي للنقش إلى الجانب المكسور. وبما أنه من المفترض أن الكاتب قد نقش نصه على سطح النصب قبل أن ينكسر، فإن مثل هذه البقايا على الجوانب المكسورة لا يمكن أن تدل إلا على أن الكتابة قد حصلت على قطع مكسورة من حيث الأصل، وأنها حديثة العهد. [٥٥].

أما " ناداف نعمان " (Nadav Neeman)، المؤرخ والأستاذ في جامعة تل أبيب، فقد ألقى ظلالاً كثيفة من الشك على هذا النقش حتى مال إلى رفضه، وهو يعلل ذلك بما يلي: " إن النقش مثير للشك والجدل، فهو ليس كأي نقش ملكي من الشرق الأدنى القديم أنا على دراية به، فهو وحيد في نوعه في جميع الأحوال، إنه يحتوي على كلمات عديدة لا تظهر في التوراة، وخاصة خاتمة هذا النقش المفترض به أن يكون ملكياً وهي تدعو إلى أن تحل بركة الرب على الشعب، ذلك بأن النقوش الملكية من الشرق الأدنى القديم المعروفة لدينا تنتهي عادة بإنزال اللعنة على أي

شخص يصيب النقش بالضرر، أو تنتهي أحياناً باستمطار البركة على الشخص الذي كتب النقش، أما الدعاء بالبركة على الشعب فليس هناك شيء آخر يشبهه ". كذلك يرى أن التأكيد الذي جاء في النقش على مساهمة الشعب في يهوذا بأعمال الترميم التي قام بها يهوآش في المعبد هي حالة فريدة، لأن العادة جرت في النقوش الملكية على تأكيد الملك على نشاطاته هو شخصياً مع تجاهل تام لجميع الآخرين الذين شاركوا في البناء، ومع هذا فهو يتساءل: أليس من الجائز أن يكون ملوك يهوذا قد كتبوا بأسلوب مغاير لما فعله أندادهم غير اليهود في الشرق الأدنى القديم؟ وهو يجيب بأن الوسيلة الوحيدة لإثبات أو عدم إثبات الزعم بوجود أسلوب كتابة مختلف في يهوذا هي العثور على نقش ملكي يهوذي آخر يمكن أن يشكل أساساً للمقارنة.

غير أن الشكل الأسلوبي للنقش لم يكن هو موضوع النقد الوحيد، فقد توقف آخرون عند اللغة المستخدمة فيه، وفي هذا الصدد توصل " إد. جرينشتاين " (Ed Greenstein) خبير اللغات السامية والأستاذ بجامعة تل أبيب، إلى أن هناك استعمالات لغوية وردت في النقش لا تنتمي إلى عبرية القرن التاسع قبل الميلاد، الزمن المفترض للنقش، بل هي استعمالات أخذت دلالاتها بعد ذلك بقرون وأساء أو أخطأ من اختلق هذا النقش عندما أدرجها في النقش على أنها قديمة، ومن هذه الاستعمالات تعبير (ب ي د ك ب ا ي ت) bedek bayit وفق ما رسمه " جرينشتاين " بالأحرف اللاتينية الذي يعني في العبرية التوراتية " تشققات البيت " وقد ورد في النقش أن يهوآش صنع هذه التشققات ما يعني أنه سبب

تصدعات في البناء وخربه وهو خلاف ما قصد من النقش، فقد أراد مختلقه أن يقول أن يهوآش عمل ترميمات في البيت فاستعار تعبير bedek كما تطور في العبرية الحديثة بمعنى " الترميم " دون أن يعرف مدلوله القديم، كذلك استعمل مختلق النقش كلمة (ي د و ت) edut بمعنى الشاهد: " ليكن هذا اليوم شاهداً " على العمل، بينما لم تعرف العبرية التوراتية القديمة هذه الكلمة بهذا المعنى، فقد كانت تشير إلى معنى " الميثاق " أو " الاتفاق " وتطور بعض مشتقاتها في العبرية الحديثة ليعني " الشاهد " فانتزعها المختلق من هذا الاستعمال الحديث واستخدمها في النقش " القديم " ويستخلص جرينشتاين من هذين المثلين وغيرهما أن النقش مزور بالتأكيد.

كذلك تعرضت الأحرف التي كتب بها النص للنقد الشديد وهي قد أظهرت زيف النقش، فـ " روبرت دويتش " (Robert Deutsch) «من جامعة حيفا، وهو نفسه تاجر آثار »، وجد أن النقش " تزييف هزيل وكائن خرافي هجين، فقد جمع معاً ما بين الأحرف المؤابية والفينيقية والعبرية " كما ذهب إلى هذا الرأي " كريستوفر رولستون " (Christopher Rollston) الخبير بالنقوش السامية القديمة، ورئيس تحرير مجلة Maarav المتخصصة باللغات والكتابات السامية، الذي رأى أنه " ليس من الصعب فضح التزوير في النقش لأنه ليس متقن الصنع، فهو يختلف كلياً عن جميع النقوش المؤكدة التي تعود إلى لغة عصر الحديد العبرية (من حيث الدمج بين أشكال من أزمنة ولغات مختلفة) حتى إنه لا يمكن أن يؤخذ بجدية على أنه قديم " [٥٦].

فبخلاف هذا النص المنقوش المزعوم، لم يتمكن الأثريون من العثور على دليل يشير صراحة أو كناية إلى مملكة داود وسليمان في فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك الأول بأن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات أورثها لسليمان بعد وفاته، لم يتمكن رجال الآثار من العثور على ذكر واحد لأي من ملكي بني إسرائيل، رغم وجود ٣٠٠ موقع تقوم فيها البعثات الأثرية بأعمال الحفر، في بلادنا فلسطين. وإذا كانت المملكة الداودية - السليمانية، ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كل الوقائع الأركيولوجية والتاريخية في بلادنا فلسطين.

* * *

مراجع الفصل السابع

(١) د. زياد منى، **مقدمة في تاريخ فلسطين القديم**، ط١، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٠، ص (٣٦ - ٣٥).
(٢) كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: ممدوح عدوان، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٢، ص (١٧٠ - ١٦٩).
(٣) يسرائيل فنكلشتاين، **القدس العربي**، لندن، بتاريخ ١٩٩٨/٤/١٥، وبتاريخ ١٩٩٨/٦/٦.
(٤) تومس طمسن، **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي**، ترجمة: صالح علي سوادح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ٩٤.
(٥) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٢.
(٦) فراس السواح، **تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود**، ط٣، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٢٥.
(٧) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة ثلاث عقائد**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، كتاب سطور الرابع، سطور، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٥٥.
(٨) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٧.
(٩) جودت السعد، **أوهام التاريخ اليهودي**، ط١، منشورات الأهلية، عمان، ١٩٩٨، ص ٦٥.
(١٠) **كارين أرمسترونج**، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥.
(١١) **تومس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.
(١٢) **تومس طمسن**، المصدر نفسه، ص ٩٦.
(١٣) بير روسي، **مدينة إيزيس - التاريخ الحقيقي للعرب**، ترجمة: فريد جحا، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٨٠، ص ٢٥.
(١٤) **بير روسي**، المصدر نفسه، ص (٢٦ - ٢٥).
(١٥) **تومس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٢.
(١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، ألفها نخبة من الباحثين، القسم الثاني، المجلد الثاني، الدراسات التاريخية، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص (١١٥ - ١١٤).
(١٧) تومس طمسن وآخرون، **الجديد في تاريخ فلسطين**، ترجمة: عدنان حسن وزياد مني، ط ١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ١٣٩. (كيث وايتلام، إعادة اكتشاف فلسطين).
(١٨) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره،، ص ٢٧٤.
(١٩) كاثلين كينون، **الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة**، ترجمة: د. شوقي شعث

وسليم زيد، دار الجليل للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٠، ص (٥٧ - ٥٨).
(٢٠) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٩.
(٢١) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.
(٢٢) مايزر، **فجر التاريخ**، ترجمة: على عزت الأنصاري، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٢،
ص (١٣٠ - ١٣١).
(٢٣) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره، ص (٤٦ـ ٤٧).
(٢٤) **جودت السعد**، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤.
(٢٥) روجيه جارودي، **الأساطير المؤسسة للسياسية الإسرائيلية**، ترجمة: قسم الترجمة بدار الغد العربي، ط١، دار الغد العربي، ١٩٩٦، ص (٥٩ـ ٦٠). نقلاً عن د. كينون، **الحفر في أريحا**، لندن، ١٩٥٧، ص (٢٥٦ـ ٢٥٧).
(٢٦) زئيف هرتسوغ، عالم آثار إسرائيلي يشكك في فكرة أرض الميعاد، BBC ARABIC NEWS. ٢٤/١٢/١٩٩٩.
(٢٧) ج. كونتو، **الحضارة الفينيقية**، ترجمة: د. محمد عبد الهادي شعيرة، مركز كتب الشرق الأوسط، ب. ت، ص ٣٨.
(٢٨) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧.
(٢٩) **روجيه جارودي**، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠. نقلاً عن الأب دي فو، **التاريخ القديم لإسرائيل**، ص ٥٦٥.
(٣٠) كيث وايتلام، **اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني**، ترجمة: د. سحر الهنيدي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ١٩٩٩، هامش ص ١٥٣.
(٣١) **كاثلين كينون**، مصدر سبق ذكره،، ص ٥٤.
(٣٢) **تومس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧ وما بعده.
(٣٣) فرج الله صالح ديب، **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية**، ط١، دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨، ص ٣٢.
(٣٤) د. أحمد داود، **العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود**، ط١، دار المستقبل، دمشق، ١٩٩١، ص (٩١ - ٩٢).
(٣٥) زئيف هرتسوغ، التوراة: لا إثباتات على الأرض، **هاآرتس**، إسرائيل، ١٩٩٩/١١/١٨.
(٣٦) يسرائيل فنكلشتاين، **القدس العربي**، لندن، بتاريخ ١٩٩٩/٤/١٥.
(٣٧) **تومس طمسن**، مصدر سبق ذكره، ص (٢٢ـ ٢٣).
(٣٨) **تومس طمسن وآخرون**، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩. (نيلز لمكة، يشوع والعنف الغربي).
(٣٩) الأب مايكل برير، **الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني أمريكا اللاتينية - جنوب**

أفريقية - فلسطين، ترجمة: أحمد الجمل وزياد منى، ط٣، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤،
ص (٣١٣ - ٣١٢).

(٤٠) لورنس دفدسن، الآثاريات **الكتابية والصحافة صياغة التصورات الأمريكية لفلسطين في العقد الأول من الانتداب**، ترجمة: فاضل جتكر، ط١، دراسات قدمس (٤)، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠١، ص ١٢٥.

(٤١) **فرج الله صالح ديب**، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.

(٤٢) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.

(٤٣) أحمد الدبش، إسرائيل أمة مفتعلة، **العصور الجديدة**، العدد ١٥، السنة الثانية، دار العصور الجديدة، القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٠.

(٤٤) **كيث وايتلام**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.

(٤٥) **كيث وايتلام**، المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(٤٦) يسرائيل فنكلشتاين، **القدس العربي**، لندن، بتاريخ ١٥/٤/١٩٩٨.

(٤٧) **تومس طمسن، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)**، ترجمة: عدنان حسن، ط٢، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٣، ص (٢٦٩ - ٢٦٨).

(٤٨) **تومس طمسن**، المصدر نفسه، ص (٣٢٤ - ٣٢٣).

(٤٩) **تومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، القدس أورشليم العصور القديمة بين التوراة والتاريخ، ترجمة: د. فراس السواح، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، ص (١١٣ - ١١٦). [مارغريت شتاينر، حدود متوسعة: تطور أورشليم في عصر الحديد].

(٥٠) **تومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢. (إنغريد هيلم، قتال الأخوة: النزعة الإثنية لدي اليهود والسامريين في التاريخ والروايات التوراتية).

(٥١) د. محمد مصطفي الأعظمي، علماء كوبنهاجن وشيلفد يفضحون تزوير تاريخ إسرائيل القديم البروفيسور تومس طمسن نموذجاً، **الجزيرة**، العدد ١٠٦٠٢ مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، رجب ١٤٢٢.

(٥٢) **تومس طمسن وآخرون**، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢. (كيث وايتلام، إعادة اكتشاف تاريخ فلسطين).

(٥٣) **تومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، مصدر سبق ذكره، ص (٧٧ - ٨٠). [نيلز لمكه، " بيت داود " في نقش " تل دان "].

(٥٤) **تومس طمسن**، الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، مصدر سبق ذكره، ص (٣١٩ - ٣٢٢).

(٥٥) **تومس طمسن ود. سلمى الخضراء الجيوسي**، مصدر سبق ذكره، ص (٩٦- ٩٨) [نيلز لمكه، " بيت داود " في نقش " تل دان "].

(٥٦) د. عصام سخيني، نقش الملك التوراتي يهوآش نموذج لتزوير التاريخ الفلسطيني، **المركز الفلسطيني للإعلام**، موقع على الإنترنت.

* * *

الفصل الثامن

فلسطين والفراعنة

الفصل الثامن:

فلسطين والفراعنة

رشا حسني

فلسطين الجسر البرى بين قارتى أسيا وأفريقيا، كما تربط بين مغرب الوطن العربي ومشرقه، بما يزخر به هذا الوطن من ثروات، وما يتمتع بـه مـن موقـع استراتيجى بـالغ الأهميـة، مـن أجـل هـذا الموقـع لطالمـا تعرضت فلسطين للغزو، وإتخذ منها الطـامعون نقطـة إنطـلاق نحـو دول عربيه أخرى، وعلى رأسها مصر.

تنبه الفراعنه لأهمية آسيا بالنسبه لمصر، وبالطبع فإن آسيا، التي اترتبطت بها الحضارة الفرعونيه، هي من منطقة محدودة المعالم، بخلاف آسيا المعروفه حاليا، الخاصة بالشرق الأدنى. [١]

في عصر ما قبل الأسرات المتأخرة، دلت البحوث عل أن لآسيا تأثيرا عظيم على سكان وادى النيل وسرعان ما استثمرت مصر، بدورها، شبه جزيرة سيناء وفلسطين، من الناحية الاقتصادية في عهد الدولة القديمة [٢].

كان هناك أساس قومى لما بلغته مصر القديمه، من التقدم

والحضارى عماده الحركه القوميه، والتي يقصد بها الجهود التي بذلها الشعب المصرى بمختلف طبقاته في سبيل تكوين مصر الحرة المستقله والذود عن كيانها والدفاع عن إستقلالها (٣).

أولا : العلاقات المصريه الفلسطينيه في عهد الدوله القديمه :

بدأ عهد الدوله القديمه مع بداية الأسرة الثالثة فقد وضع الفراعنة، في ذلك العهد، أسس ودعائم الحضارة المصرية التقليدية، وصار استخدام الأحجار في بناء المنشآت أمراً يسيراً ثم بدأ الإتجاه نحو المناجم، الواقعه في جزيرة سيناء، والغنية بالنحاس والفيروز (٤).

لما تولى زوسر حكم البلاد، في عهد الأسرة الثالثة، واهتم بحماية البلاد من الغارات الأجنبية، التي كانت تجتاح أطرافها بخاصة من البدو، لذلك قسم حدود البلاد إلى مناطق أطلق عليها اسم أبواب المملكة وجعل في كل منها حامية، ونصَّب على كل من هذه المناطق حاكماً خاصاً حمل لقب " مرشد الأرض "، وكانت له الكلمة العليا على حكام المقاطعات وقد أقيم في العرابة أقدم الحصون المصرية حيث اهتم المصريون بإقامة حصون في الأماكن التي يُخشى تعرضها للغزو، كانوا يقيمون الحصون في المواقع التي يكون فيه االنهر ضيقا فإذا باعتهم العدو في النهر، أصبح من الصعب علي العدو ان يخترق المكان الضيق المحصن، ويتمكن منه المصريون، أما نقاط الضعف التي سهل على العدو اختراقها خاصة عند بداية الوديان التي تشرف على الصحراء، والتي يسهل على البدو وغيرهم الانقضاض منها على البلاد، فكان الفراعنة يقيمون فيها حصونا مجهزة بكل المعدات سميت " أبواب المملكة " (٥).

أما الأسرة الرابعة، فقد عُنيت ببناء الأهرامات وأ طلق على تلك " الأسرة " بناة الأهرام الكبرى، ولم يمنع ذلك من الإهتمام بتأمين حدود مصر الشماليه الشرقية، حيث يعتقد علماء الآثار بأن السور العظيم الذي أقامه أمينمحات الأول لسد برزخ السويس في وجه المغيرين، لم يكن إلا تجديدا لسور سبق أن أقيم في عهد الدوله القديمة، ويعزز هذه النظرية أن اسم " البحيرات المرة "، كما كُتب في متون الأهرام، خصص في نهايته بسور " هرم بيبى الأول " يضاف إلى ذلك أن الفرعون " سنفرو " من الأسرة الرابعة، قد خلد اسمه، ضمن أسماء عدة قلاع في هذه المنطقة [٦].

استمر فراعنة الأسرة الخامسة في تشييد أهرامات، ولكن أقل حجماً من أهرامات الأسرة الرابعة، واستمروا كذلك في إرسال حملات إلى محاجر " الديوريت " ببلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء، وإلى مدينة " جبيل " بفينيقيا كما عملوا على تأمين الحدود عن طريق شن غزوات حربية على الليبيين والنوبيين والبدو الرُحَّل [٧].

الجيش والأسطول معاً لأول مرة في التاريخ:

في عهد الأسرة السادسة أرسل الملك " بيبى الأول " القائد " ونى " على رأس الجيش في حملة ضد فلسطين، تعد الأولى من نوعها في تاريخ مصر والعالم إذ أنها أول حملة يشترك فيها الجيش والأسطول وقد تجنب الجيش المصرى الطرق الصحراوية وانتقلت القوات عن طريق البحر، إلى نقطة الهدف وسبب القيام بهذه الحملة تزايد الهجرة من أهل

بلاد ما بين النهرين " موبوتاميا "، وتقدمهم في هجرتهم إلى أن وصلوا إلى فلسطين ثم الحدود المصريه مما اضطر فرعون مصر آنذاك إلى منع هؤلاء المهاجرين الآسيويين من دخول مصر [٨].

غير أن " الدولة القديمة " انهارت تماما في أواخر عهد الأسرة السادسة بسبب تفاقم النزاعات الاستقلالية وإن حافظت على المستوى للبلاد ولم تتوقف الإمدادت الغذائية والتبادل التجارى بين البلاد المجاورة [٩].

يتضح مما سبق إدراك الفراعنة لأهميه تأمين حدود مصر الشمالية الشرقية والتصدى للهجمات أو الغزوات التي تتعرض لها فلسطين حتى لا تمتد يد الغزاة في مراحلة تالية، نحو مصر.

تؤكد الوثائق التاريخية على أن أهم الوظائف التي ظهرت في مصر القديمة وظيفة " قائد قلعة الأراضى الشمالية " ولا يعزى هذا اللقب إلى قلعة في فلسطين أو سورية بل إلى قلعة الشمال الشرقى من الحدود المصرية ضمن سلسة الحصون التي أ قيمت لحماية الحدود من هذه الناحية، حيث كان لابد لمصر من معاقل يعززها جيشها عند حدودها الشرقية أما في الجنوب فكانت حدودها محمية ببلاد النوبة، التي كانت تحت حكم ملك مصري منفصل بإرادتها [١٠].

ثانيا العلاقات المصرية الفلسطينية في عهد الدولة الوسطى:

شهدت الأ سرات من السابعة إلى العاشرة بلبلة شديدة نتجت عن التطاحن الذي ساد بين مختلف الطامعين في العرش إلى درجة أن الأسرة

العاشرة اعترفت بوجود " الأسرة الطيبية " نسبة إلى طيبة بمصر العليا المنافسة لها وإن كانت قد حافظت على حدودها عند الدلتا الشرقية من خطر الآسيويين وحرصت بشكل أو بآخر على صيانة التراث الثقافى [١١].

استحوذت الأسرة الحادية عشرة على الموارد الطبيعية، وكذا الثقافية، التي سمحت لها باستئناف السياسة التقليدية لكبار الفراعنة من إرسال بعثات إلى المناجم والمحاجر ومصادر التجارة الخارجية وترميم وإصلاح المعابد وتشييد المبانى الجنائزية على أوسع نطاق [١٢].

كانت مصر - في تلك الفترة - تجد كفايتها في تربة أراضيها ولا تخرج عن نطاق حدودها، إلا عندما كانت إحدى الممالك المجاورة تهدد حدودها، أو عندما تغير على تخومها، طلبًا للغنائم. وفي أوائل عهد " إمنمحات الأول " مؤسس الأسرة الثانية عشرة تقدم في زحفه إلى فلسطين ويرجح أنه أول من اهتم بحماية التخوم وأقام القلاع في وادى " النطرون "، و " الواحة الخارجة " [١٣].

عمل الفراعنة، منذ عهد الدولة الوسطى على تأسيس امبراطورية مصرية في الأصقاع الآسيوية، المجاورة لمصر، غير أن هذه الإمبراطورية التي بدأت تأسيسها في تلك الحقبة كانت تهتم بمد نفوذها على الأفكار الخاضعة لها، وفرض الضرائب على أهلها، وتهديدهم بالغزو، إذا حاولوا التمرد، وكان ذلك في عهد أواخر فراعنة الأسرة الثانية عشرة [١٤].

تمكنت الأسرة الثانية عشرة من صياغة سياسة خارجية فعالة ارتكزت على معرفة البلاد المجاورة وإقامة علاقات متنوعة معها، وفي إطار ذلك، تم تعزيز النشاط التجارى مع سوريا وفلسطين، وفي الوقت نفسه هاجر العديد من الآسيويين إلى مصر ولا شك أن قصة سنوهى تعكس ذلك تماما (١٥).

و " سنوهى " هو هارب سياسى، فر من منطقة المراقبة المصرية عند موت " أمنمحات الأول " قد مر في رحلته بساحل فينيقيا ثم اخترق الجهة الشرقية حيث استقبله أحد أمراء " رتنو العليا "، وهو إقليم غنى بالفاكهة والكروم والماشية رغم أنه كان يعيش على مقربة من طريق يُرى منه الذاهب إلى مصر والراجع منها، فإنه لم يكن في متناول الشرطة المصرية أو حتى سلطانها القضائى، ويرجح أنه كان يسكن في إقليم " بقعا "، الذي يحتوى على طريق يمتد شمالا وجنوبا بين لبنان والإقليم المقابل له، ويؤكد ذلك أن المراقبة الفعليه المصرية في هذه الجهات كانت في فلسطين وفينيقيا، أكثر منها داخل بلاد سوريا، قبل أن يتمكن الفراعنة، الذين حكموا في نهاية الأسرة الثانية عشرة من مد نفوذ مصر إلى آسيا (١٦).

في عهد إمنمحات الثانى عادت العلاقات بين مصر وجاراتها في الشمال الشرقى، في سوريا وفلسطين، على أحسن ما يكون، وقد كان هؤلاء الأعداء من طراز خاص، حيث كان في مقدورهم أن يهددوا الأمن على الحدود لكنهم، في الوقت نفسه، لم يستطيعوا المقاومة، وهم، دائما،

في حرب ينتصرون أو يهزمون، ولا يعلنون يوم هجومهم، لذلك كان أكبر ضمان ضد جار كهذا، أن تقيم الدولة المعاقل، والحاميات، على الحدود، وقد تم تشديد الرقابة على الحدود الشرقية لمصر، حيث يُحمى الطريق المسمى " طريق حور " بقلعة سارو، الذي يؤدى إلى الصحراء، بواسطة " وادى طليمات "، قد سُد " بجدار الأمير "، وإن كان سلطان الفرعون أكثر إمتدادا، داخل سوريا، فقد كانت المحاصيل الآسيوية ترد إلى مصر، وكان " أمنمحات الأول " يمتلك على النيل، مثل سلفه " سنفرو " أسطولا من السفن المصنوعة من خشب الأرز، المُصدر من " جبيل " (ببلوص). وقد كان البدو يسعون إلى الإقامة في مراعى وادى النيل، كلما تعرضوا لضيق الرزق، وبهذه الطريقة وفد في السنة السادسة من حكم " سنوسرت الثانى "، رئيس الأجانب " إيشا " ومعه عشيرته، التي كانت تتألف من ٣٧ من الكنعانيين (١٧).

كانت آسيا ميدانا للحروب، غير أن سيطرة " امنمحات الأول " و " سنوسرت الأول " لم تمتد قط أكثر من إخضاع شبه جزيرة سيناء. ومن جهة أخرى فقد قامت في عهد " سنوسرت الثالث " حملة إلى فلسطين وسار قائد الجيش نحو الشمال، ليخضع الأسيويين ويدل تمثال " تحوتى حتب " الذي عثر عليه في بلدة " مجدو "، وتمثال " سنوسرت عنخ "، الذي إكتشف في " رأس شم " على أن العلاقات المصرية الآسيوية لم تقتصر على النواحى التجارية والثقافية فحسب، بل كانت ثمة علاقة حربية وإدارية أيضا، وتدل الشواهد على أن ملوك الدولة الوسطى مدوا نفوذهم إلى آسيا، وأنه كانت هناك إمبراطورية من نوع خاص،

ضمت هذه الأقاليم الآسيوية المتاخمة [١٨].

وقد اكتشف تمثال يخص " سنوسرت عنخ " في آسيا، واعتبر أهم دليل على أن هذا الوزير المصرى خدم في بلد أجنبى وشغل مركزا ساميا فيه، ويحتمل أن إقليم سوريا، عندئذ، كان خاضعا لمصر، وإن كان مستقلا اسميا، كذلك إكتشف تمثال لتحوتى حتب الكاهن الأعظم، الذي أقام في مدينة " مجدو " بما يؤكد النفوذ الإمبراطورى لمصر في آسيا [١٩].

شهدت مصر في أعقاب الأسرة الثانية عشرة حالة من إهتزاز العرش، تجلت خلال الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، حيث تتابع على الحكم حوالى ستين فرعوناً، لم يبق معظمهم على كرسى العرش إلا بضع سنين، وأحيانا بضعة أشهر. وكان عدد كبير من هؤلاء الفراعنة من العامة والعسكريين والأجانب (الآسيويين)، وقد ظهرت أُسرة جديدة في " أفاريس "، الميناء النهرى المؤدى إلى أسيا و " جبيل ". واستطاع الهكسوس بإزاحتهم لتلك الأسرة الأخيرة أن يضعوا أيديهم على مصر خاصة وان هذه الأسرة كانت تعيش في منطقة " أفاريس " الخاضعة للملكة المصرية إلا أن غالبية سكانها كانوا من الآسيويين لذا سرعان ما طوتها موجة الهكسوس، الذين بسطوا نفوذهم على مصر إنطلاقا من تلك المملكة [٢٠].

ثالثا : الهكسوس في مصر :

قبل كشف رموز اللغة الهيروغليفية، كانت المعلومات الخاصة بالهكسوس تنحصر فيما رواه المؤرخ اليهودى " فلافيوس يوسفس "،

الذي عاش خلال القرن الأول الميلادى وقد أخذ معلوماته من المؤرخ المصرى " مانيتون " محاولا رفع شأن اليهود، بإدعاء أنهم و الهكسوس عنصر واحد. يقول يوسفس عن مانيتون: " تجرأ قوم من أصل وضيع، من الشرق، على غزو بلادنا في عهد تحتمس، وتمكنوا من البلاد دون نشوب واقعة حربية، وبعد أن تغلبوا على القادة أحرقوا المدن بوحشية وأزالوا معابد الآلهة وساروا في معاملة الأهلين، بكل قسوة، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والأطفال، وفي نهاية الأمر نصَّبوا واحدا منهم " سالايتس " ملكًا واتخذوا مدينة منف مقرا له.. وتوفى، بعد أن حكم البلاد ١٩ سنة تولى بعده خمسة ملوك كان الملوك الستة يطمعون في محو الشعب المصرى " (٢١).

واستطرد المؤرخ اليهودى يوسفس في روايته مدعيا أنه بعد هزيمة " الرعاة " (الهكسوس) واستسلامهم، مقابل عقد معاهدة تنص على أن يجلون عن كل أرض مصر، غادر منهم ما لا يقل عن ٢٤٠ ألف أسير، حملوا متعاهم، مخترقين الصحراء إلى سوريا ولخوفهم من الآشوريين، أقاموا مدينة في الإقليم الذي يدعى " يودا(*) " صالحة لإيواء جمعهم الهائل، وأطلقوا عليه " أورشليم " (٢٢).

فند المؤرخون هذه الرواية، وشككوا في صحتها من حيث عدد رجال الهكسوس، وعدم معقولية إقامتهم لمدينة جديدة فور طردهم من مصر ولا يخفى ما لتلك الرواية من قيمة في نظر المؤرخ اليهودى المتحيز، أما الرأى المتفق عليه فيفيد بأن كلمة " هكسوس " مركبة من كلمتى " حقاو "، " خاسوت " الهيروغليفية، وتعنيان " حكام الأقاليم الأجنبية " (٢٣).

من ناحيةٍ أخرى، أشار بعض المؤرخين إلى أن الهكسوس هم أنفسهم " العمالقة " الذين ينتمون للقبائل الكنعانية، التي أقامت في جنوب فلسطين وسيناء وقيل بأن فريقًا منهم نزل بلاد نابلس(٢٤).

على أية حال، فإن أهم ما يلفت النظر في غزو الهكسوس لمصر، هو الكيفيه التي نفذوا من خلالها تلك الخطوة فقد كانت ثمة فكرة راسخة عند عامة المؤرخين بان الهكسوس استولوا على مصر فجأة، عندما اندلعت الحروب الداخلية فيها غير أنه توجد عدة دلائل تؤكد بأن أولئك الغزاة كانوا يمثلون قوة ثقافية في وادى النيل، منذ عهد " سنوسرت الثانى، " أى في منتصف عهد الدولة الوسكى، عندما كانت مصر في أوج عظمتها، وقد غزا الهكسوس مصر، تدريجيا وتسربوا تدريجيًا وتسربوا للبلاد، في جماعات صغيرة متفرقة إلى أن تمكنوا من توطيد أسرة تمثلهم وهى الأسرة الخامسة عشرة(٢٥)...

من المسلم به أن الهكسوس قد تمكنوا من مصر بعد أن تسلطوا على فلسطين، من قبل، ولم يفدوا إلى مصر بوصفهم فاتحين أو غزاة، بل بوصفهم مهاجرين مسالمين، مكّنوا أنفسهم بمثابة ملوك صغار في الدلتا الشرقية، ومنها أفلحوا في التغلب على صغار ملوك الوجه القبلى، الذين كانوا لا يحكمون إلا مددًا قليلة ويبدو واضحا من متن خاص بحرب التحرير لرفع نير الهكسوس، أن بلدة " شاروهين " في فلسطين الجنوبية، كانت معقلا للهكسوس، وقد فتحها " أحمس " بعد أن قام بحصار ناجح بلدة " أواريس " عاصمة الهكسوس في مصر، التي يدل وقوعها في الدلتا

الشرقية على أن الهكسوس كان لهم علاقة وثيقة بفلسطين ومن المحتمل أن يكون قد حكموا الجزء الجنوبى منها (٢٦)..

تبرهن كثير من الآثار على ان الهكسوس كان لهم إتصال وثيق بآسيا، ومن ثم أخذوا عنها قوتهم الملحوظة في فنون الحرب، خلال الحرب الفاصلة التي شنوها على المصريين، الذين إعتمدوا بدورهم على أراضيهم الخلفية في أفريقيا؛ وهكذا نخرج بفكرة أن حروب التحرير هذه كانت حروبا بين آسيا وأفريقيا وتشير الوثائق إلى ان " كاموس " قد بدأ في طرد الهكسوس وان أخاه " احمس " قد نجح في طردهم، نهائيا، من مصر فقد سقطت " اواريس " بعد حصار طويل، ثم سقطت " شاروهين " الفلسطينية، وبسقوطها أبعد الخطر عن الشمال المصرى وكسرت شوكة الهكسوس على الأقل في هذه الفترة (٢٧)

غرس تحرير البلاد من الهكسوس الروح القومية في نفوس المصريين وحفزهم لغزو معاقل الهكسوس في فلسطين وسورية ولبنان، فشنَّت مصر عليهم وعلى حلفائهم في عهد الدولة الحديثة، حروبا دفاعية بقيادة " تحتمس الثالث " بطل معركة " مجدو " عام ١٤٧٩ ق. م. استمرت هذه الحروب لسنين عدة، حتى اطمأنت مصر على كيانها، ومن ثم اتسعت رقعتها، فامتدت حدودها من أعالى الفرات شمالا إلى الشلال الرابع على النيل جنوبا (٢٨)...

كانت الحروب التي خاضتها مصر في سبيل تأمين حدودها، حروبا دفاعية هدفها الدفاع عن النفس ولم تكن بهدف الفتح أو الغزو، ولم تكن مصر تحارب أهل تلك البلاد بل حاربت الهكسوس الذين اتخذوا منها

قواعد للانقضاض على مصر، نفذ هذه السياسة الدفاعية القومية ملوك مصر خاصة تحتمس الثالث و رمسيس الثانى [٢٩]..

رابعا : العلاقات المصرية الفلسطينية في عهد الدولة الحديثة :

على الرغم من أن الغارات التي قام بها ملوك الأسرة الثامنة عشرة في، أول الأمر مخترقين بها جبال " الكرمل " عام ١٥٨٢ ق. م، قد لا يكون الدافع لها، في الأصل، إلا الإنتقام من الهكسوس فإنه كان يستهدف كذلك تلاشى مد الهكسوس وقد تعلم المصريون من تلك الأحداث وكانت حملاتهم في الجنوب الغربى لآسيا في عهد " أحمس الأول " وعهد " تحتمس الأول " مقدمة لتمكين ملكهم هناك وحتى ذلك الوقت كان الأمر قاصرًا على الإغارة على قبائل البدو أو على أهالى " رتنو " في جبال الجليل دون الاستيلاء على أماكن حصينة مثل عسقلان أو مجدو أو غزة إلى أن اتخذ تحتمس الثالث موقفًا جديدا تجاه آسيا [٣٠]...

بعد أن انفرد " تحتمس الثالث "، بالحكم، أخذ في تأسيس إمبراطورية في أقاليم آسيا بصورة ثابتة وسياسة مخططة، بالإستيلاء على " غزة " و " مجدو " والأماكن الحصينة الأخرى في فلسطين، ثم لتحتمس الثالث ضم الجزء الجنوبى الأقصى من سوريا وكانت هذه الإمبراطورية من الدرجة الثانية، أى أقاليم يدير شؤونها حكام من أهل البلاد نفسها. نصَّبهم الفرعون برضى منه لولائهم له، إلى جانب بعضهم الحاميات والعمال الذين عينهم الفرعون هناك وكانت حدود الإمبراطورية تبدأ من ساحل البحر المتوسط وشمالى " إرواد " ثم تنحنى إلى الجنوب عند انفصال نهر " العاصى " عن نهر " الأردن "، ثم تأخذ بالتلاشى في الصحراء

الشرقية، علـى مسـافة ضـئيلة مـن جنـوبى " دمشـق "، وكـان الجـيش المصرى يقوم بحملات تأديبية في جهات مختلفة من هذه الأقاليم السورية الشمالية ولم يقتصر ذلك على شمالي " فينيقيا " والجزء الأسفل من نهر العاصى بل امتدت هذه الحملات إلى " بلاد نهرين " حتى وصلت إلى بلدة " تونب " (٣١)..

كانت الإمبراطورية المصرية في آسيا من اعظم الإمبراطوريات التي ظهرت في الشرق القديم. فقد مهدت الحملات التي بدأها تحتمس الأول لترسيخ السيادة المصرية على تلك البقعة الشاسعة من آسيا، التي تبدأ من الحدود عند برزخ السويس، وتنتهى عند منحنى الفرات، ولا أدل على أهمية تلك المنطقة لضمان إستقرار مصر من عدم وقوع حروب تستحق الذكر، في عهد خلفه تحتمس الثانى والملكة حتشبسوت، كما لم يُسمع بثورات في سوريا، إلى أن ألف فلول أمراء الهكسوس والولايات الأخرى حلفا ضد مصر مما اضطر تحتمس الثالث لمواجهتهم، وتكوين تلك الإمبراطورية المصرية الشاسعة. ضمانًا لأمن مصر (٣٢)..

منذ بداية عهد الدولة الحديثة تولى " كتاب المجندين "، المسؤولية عن حماية قواعد الحدود واهم هذه القواعد الحصون الواقعة بين حدود مصر و آسيا والقائمة منذ فجر التاريخ المصرى، فقد أقيمت في عهد الملك " سنفرو " - كما سبق الذكر - ثم أقيمت، مرة ثانية، في العهد الإهناسى وفي عهد الأسرة الثانية عشرة، أصلحها " امنمحات الأول "، وأضاف إليها وسماها " سور الحاكم "، وحمل قائد تلك الحصون في الأسرة الثامنة عشرة لقب قائد حصن " سيلة " وإتخذت مقرا للإدارة

ونقطة الوسط لخط الدفاع وفيها المركز الرئيسى ومنها قامت الحملات التي شنها الفرعون على بلاد سوريا [٣٣]...

بعد موت أخناتون تولى العرش " سمنخكارع " ثم خلفة " توت عنخ آمون " وفي عهده إزداد نفوذ القائد " حور محب " وانتصر في عدة معارك، من بينها معركته ضد أهل " خيتا "، التي تلاها عشرون عاما من الهدوء، على أن ذلك مكّن المصريين من متابعة حروبهم التي شنوها على أهل فلسطين بسبب ثورتهم على الحكم المصرى وكان أكثرهم إثارة للقلاقل قوم " خبيرى " (اليهود فيما بعد " وتمكن " حور محب " من إخماد ثورتهم [٣٤]..

قبل تولية " رعسميس الأول " الملك، عمل قائدا لقواعد الدفاع على الساحل، كما أشرف على الحدود الشرقية الشمالية، ويضاف إلى ذلك أنه عمل على حماية طرق الصحراء المؤدية إلى فلسطين؛ وكان من واجبه ألا يدع شخصا غير معروف يدخل الحدود المصرية أو يغادرها ويلاحظ توافر معلومات كثيرة عن حراسة الحدود الشرقية في الدلتا بينما تتضائل المعلومات عن حراسة الحدود الغربية لها وربما يعزى ذلك إلى أهمية الحدود الشرقية ودورها الرئيسى في ضمان استقرار مصر.

بإلقاء نظرة سريعة على ملوك الأسرة التاسعة عشرة في الدولة الحديثة يمكننا تبين أن الإمبراطورية المصرية في آسيا تعرضت لفترة من الاضمحلال لم تنتهِ إلا عندما تولى " حور محب ". وفي تلك الحقبة، كانت أملاك مصر السابقة في آسيا قد أصبحت في يد ملوك آسيويين على أن هذه الممتلكات لم تكن قد ضاعت من مصر نهائيًا لأن الفراعنة الذين

أتوا بعده أعادوا لمصر تلك الإمبراطورية التي تسيطر عليها، سيطرة إمبراطورية من الدرجة الثانية، وعلى رأسها فلسطين وفينيقيا، غير أن الفراعنة لم يستطيعوا الحفاظ على هذه البلاد، فنجد مثلا أن مدينة " أرواد " كانت تساعد عدو " رعمسيس الثانى " في موقعة قادش رغم فوزه بها إلا ان انسحابه العاجل من المعركة والمعاهدة التي أبرمها مع " خيتا " دلت على تخلى مصر عن سياستها على سوريا فيما بعد جنوبى فلسطين، وحتى هذا الإقليم الأخير وفقد، بعد عهد " رعمسيس الثالث "، أحد ملوك الأسرة العشرين [٣٥].

بدأ رمسيس الثانى متحمسا للحرب واستعادة المناطق السورية التي كان تحتمس الثالث قد شيد من خلالها إمبراطورية مصرية عظيمة غير أن رمسيس الثانى لم يحقق على مدى عشرين عاما في الحرب نجاحًا يذكر وانتهى إلى معاهدة لم تحقق شيئا ذا بال مما كان يتطلع إليه [٣٦]...

في معركة قادش أفلت رمسيس الثانى من هزيمة محققة إذ كانت معلوماته خاطئة بالنسبة لموقع الحيثيين ولم يكن لديه جنود استطلاع، كما لم يحصن جناحيه في المعركة ومن المحتمل أن الحيثيين بتدافعهم نحو الغنائم، أتاحوا لرمسيس الثانى وجنوده فرصة لتحقيق انتصار جزئى، واتجهت الغارات المصرية صوب الجنوب، دون أن تستولى على قادش. [٣٧]..

يبدو الفرق جليا بين رمسيس الثانى وتحتمس الثالث الذن كان من أبطال الحرب والكفاح ففي حين كان رمسيس يميل إلى السلم لم يكن على كفاءة تحتمس فى المعارك، فقد كاد تسرعه في معركة قادش يورده مورد

الهلاك لولا تدخل القدر [٣٨]...

في عهد رمسيس الثانى عظم النفوذ السامى بمصر وقتئذ، ثم ظهر الأوربيون لأول مرة في تاريخ مصر القديمة، فانزلوا جنودهم على ساحل غرب الدلتا، أدى ذلك النفوذ فيما بعد إلى إضطراب البلاد وسقوط الأسرة التاسعة عشرة. [٣٩]

قامت حركة التمرد التي قام البدو الآسيويين في فلسطين، في عهد " سيتى الأول "، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة المتأخرين، حيث سعوا لتوطيد أقدامهم في فلسطين وانتهز البدو المغيرون الفرصة للتخلص من تسلط مصر على بلادهم مما دفع سيتى الأول إلى قيادة حملة ضد فلسطين مخترقا صحراء قاحلة في شمالى شبه جزيرة سيناء، جنوب بحيرة " سربونيس "، وكان هذا هو أقدم طريق في العالم وهو الذي استخدم للغرض نفسه في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، ويمتد شرقا من ثارو حتى رفح في المرحلة الثانية من الحرب، وبعد أن غرس " سيتى الأول " الخوف في قلوب المتمردين اشتبك في معركة دامت يوما واحدا وانتهت بانتصار الجيش المصرى انتصارا باهرا[٤٠].

على الرغم من أن سيتى الأول لم يوافق في عهد الإمبراطورية المصرية آسيا إلى ما كانت عليه في عهد الأسرة الثامنة، فإنه أفلح، إلى حد كبير، في إعادة السيطرة المصرية على فلسطين كلها، وواصل نضاله، أمام دولة " خيتا " في الشمال، التي كانت تقف لمصر بالمرصاد " [٤١].

أعقب هذا النجاح في الحفاظ على نفوذ مصر وهيمنتها على آسيا إخفاقا جديدا فبعد الجهود التي قام بها الملك " سيتى الأول " ومن بعده رمسيس الثانى، ثم مرنبتاح، في دحر الغزاة، والاحتفاظ بفلسطين واجه الملك " سيتى الأول "، ابن " مرنبتاح "، معارضة من جانب الطامعين في الحكم وبعد سنوات عدة غاب عن مصر القائد الزعيم فوقعت فريسة في أيدى كبار الموظفين، والحكام المحليين، استطاع أحد السوريين أن ينصِّب نفسه حاكما للبلاد، وقام أعوانه بإبتزاز الشعب المصرى، ثم قام الملك " ست نخت " بوضع حد لهذه القلاقل مؤسسًا السلالة الملكية الثانية المعروفة بإسم الرعامسة ثم تولى الحكم بعده سبعة ملوك آخرون حملوا إسم " رعمسيس " [٤٢].

عمل " رمسيس الثالث "، ابن " ست نخت " على إنقاذ مصر من هجمات الليبيين وغزوات البحر، واحتفظ ببعض المواقع في الأراضى الكنعانية ثم سادت بعد ذلك مرحلة طويلة من التدهور وطول ثلاثة أرباع قرن من الزمان لم تضع مصر قدميها في سيناء بعد موت " رعمسيس السادس " [٤٣]..

من اللافت أن معظم الغزاة - إن لم يكونوا كلهم - قد اختاروا، في الحقب التاريخية المختلفة، البوابة الشرقية لحدود مصر، موطئا لأقدامهم على سبيل المثال، فقد بدأ " قمبيز " - أول عاهل فارسى - الحكم على مصر عام ٥٢٥ ق. م. - بتجريد " أحمس الثانى من حلفائه، متحالفا هو مع كل من ملك جزيرة " ناموس "، وملك فينيقيا، ما سهَّل لقمبيز تعزيز الحملة البرية على مصر وأسطوله البحرى، وأساطيل حليفية، يضاف إلى

ذلك أن قمبيز وجد تعاونا من البدو، وقد ضمن قمبيز لنفسه قاعدة أورشاليم " فضلا عن إكتساب الفرس عواطف الجنود اليهود الذين كانوا في خدمة الفرعون وقد جمع " قمبيز " جيش في فلسطين وأرسى أسطوله على ساحل عكا وبدأ هجومه على مصر، في ربيع ٥٢٥ ق. م. فزحف الجيش الفارسى من غزة وتقابل مع الجيش المصرى وهزمه في مدينة " الفرما " إلى أن سقطت العاصمة منف [٤٤].

تأكد مما سبق وبمتابعة سياسات الفراعنة في مصر القديمة إدراكهم لمدى اهمية فلسطين على وجه الخصوص ودورها في الحفاظ على إستقرار مصر وأمنها وأنه في كل مرة تتعرض فيها فلسطين للغزو سرعان ما يتطلع الغزاة نحو مص متخذين من فلسطين لوحة قفز تمكنهم من تثبيت أقدامهم في مصر والإنقضاض على خيراتها وإستغلال موقعها الجغرافى المميز.

وبالطبع فإن مراحل التاريخ، المختلفة تشكل دروسا علينا الإستفادة منها وإعادة النظر في تقييم أهمية فلسطين بالنسبة لمصر ودور مصر تجاه فلسطين فالمصير مشترك منذ فجر التاريخ، ولا يخفى على أحد أنه سيظل واحدا، ولن تتمكن مصر من تحقيق أمنها، أو تقدمها الاقتصادى، إلا بحصول فلسطين على حريتها وأمنها، ولا يمكن لفلسطين تحقيق ذلك الهدف المأمول إلا إذا وقفت إلى جوارها مصر وتكاتف معها الوطن العربي.

* * *

مراجع الفصل الثامن

(١) باسكال فيرنوس وجان يويوت، ترجمة د. محمود ماهر طه، **موسوعة الفراعنة**، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩١، ص٤٨.

(٢) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٤٢٤.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، **تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة**، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩، ص١١.

(٤) فيرونوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦ - ٢٧.

(٥) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٢، الهيئة العامه للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٥٨.

(٧) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(٨) سليم حسين، **موسوعة مصر القديمة**، ج ١ الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٩) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١ - ٣٢.

(١٠) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩٢.

(١١) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٢ - ٣٤.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٥.

(١٣) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٣ الهيئة العامة للكتاب القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤١١ - ٤١٢.

(١٤) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٨٠.

(١٥) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨.

(١٦) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٠.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٤٣٤، ٤٣٦.

(٢٠) فيرنوس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨ - ٤١.

(٢١) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٤، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص ٥٧ - ٥٩.

(*) وردت في نسبة كبيرة من المراجع " يهودا ".
(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٩ - ٦٠.
(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٦٠.
(٢٤) أحمد سلامة النحال، **فلسطين أرض وتاريخ**، ط ١، دار الجليل للنشر. عمان، ١٩٨٤، ص ١١٨ - ١١٩.
(٢٥) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٥٤ - ٥٦.
(٢٦) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٣٠ - ٢٣١.
(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٠ - ٢٤٢.
(٢٨) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٧٣.
(٣٠) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج٥،، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ١٨١ - ١٨٢.
(٣٢) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٤، الهيئة العامة للكتاب. القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.
(٣٣) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٩٣ - ٤٩٤.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٨.
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٨٥، ١٩٢، ١٩٣.
(٣٦) كنت أ. كتشن، ترجمة د أحمد زهير أمين، مراجعة د محمود ماهر طه، رمسيس الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، ١٩٩٨، ص ٣٤٩.
(٣٧) بيير مونتيه، ترجمة عزيز مرقس، منصور، **الحياة اليومية في مصر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٣.
(٣٨) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**. ص ١١٠.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ١١٠.
(٤٠) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ٦، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٣، ٣٥، ٣٨.
(٤١) **المصدر نفسه**، ص ٥٧.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٥.
(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ٥٢.
(٤٤) سليم حسن، **موسوعة مصر القديمة**، ج ١٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١ - ٢.

* * *

الفصل التاسع

ما حقيقة السبي البابلي والعودة الفارسية؟!

الفصل التاسع:
ما حقيقة السبي البابلي والعودة الفارسية؟!

أحمد الدبش

مازال أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين كعادتهم، يشددون على أن غزوة " نبوخذ نصر " (*) والسبي اليهودي(**)، حدثا في بلادنا فلسطين، ولا في أي مكان آخر، بالرغم من أن التنقيب الأثري الذي قلب تراب فلسطين ظهراً على عقب لم يؤد إلى أي أثر يربط غزوة " نبوخذ نصر " بها، ولم يتوافر لدينا نصوص ونقوش بابلية تشير إلى الحملة البابلية بقيادة " نبوخذ نصر " على بلادنا فلسطين، وبالأخص مدينة القدس، وتدميرها. ولكن السؤال المطروح: أين كانت غزوة " نبوخذ نصر "، وسبي اليهوديين، الذي يسمى بالسبي البابلي؟!

إنني أجد نفسي مجبراً علي تأجيل الإجابة علي هذا السؤال، إلى موضعه المناسب، وذلك بعد استعراض ما جاء في التوراة عن هذا الحدث، وما سجله التقليد العربي اليماني عن غزوة " نبوخذ نصر " إلى حضور.

تسجل التوراة في سفر الملوك الثاني (٢٣: ٣٦): " كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك، وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم..

وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل آباؤه ".

" في أيامه [يهوياقيم]صعد نبوخذ ناصر ملك بابل، فكان له يهويا قيم عبداً ثلاث سنين. ثم عاد فتمرد عليه. فأرسل الرب عليه غزاه الكلدانيين، وغزاة الآراميين، وغزاة الموآبيين، وغزاة بني عمون وأرسلهم على يهوذا ليُبيدها حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبيده الأنبياء..

ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه، وملك يهوياكين ابنه عوضا عنه. ولم يعد أيضاً ملك مصر يخرج من أرضه، لان ملك بابل اخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر. كان يهوياكين ابن ثماني عشرة سنة حين ملك، وملك ثلاثة اشهر في أورشليم.. في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذ ناصر ملك بابل إلى أورشليم، فدخلت المدينة تحت الحصار. وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل علي المدينة، وكان عبيده يحاصرونها. فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل، هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه، وأخذه ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه.. وسبي كل أورشليم و كل الرؤساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي، وجميع الصناع والاقيان. لم يبق احد إلا مساكين شعب الأرض. وسبي يهوياكين إلى بابل. وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض، سباهم من أورشليم إلى بابل، وجميع أصحاب البأس، سبعة آلاف، والصناع والأقيان آلف، وجميع الأبطال أهل الحرب، سباهم ملك بابل. وملك ملك بابل متنيا عمه عوضاً عنه، وغير اسمه صدقيا " - سفر الملوك الثاني (٢٤: ١ - ٢٠).

انقسم الرأي بين الأورشليميين، فريق يدعو لمحاربة بابل وملكها " نبوخذ ناصر " وفريق يدعو إلى عبودية بابل، وأهم هؤلاء كان إرميا النبي، عميل البابليين في أورشليم: " هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هكذا تقولون لسادتكم: إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي علي وجه الأرض، بقوتي العظيمة وبذراعي المحدودة، وأعطيتها لمن حسن في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي، وأعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه. فتخدمه كل الشعوب. وابنه وابن ابنه، حتى يأتي وقت أرضه أيضاً، فتستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام. ويكن أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ ناصر ملك بابل، والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل، إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء، يقول الرب، حتى أفنيها بيده.. وكلمت صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام، قائلا: أدخلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموه وشعبه واحيوا.. اخدموا ملك بابل واحيوا، لماذا تصير هذه المدينة خربة " - سفر أرميا (٢٧: ٤ - ١٧).

" وفي السنة التاسعة لملكه [صدقيا]، في الشهر العاشر في عاشر الشهر، جاء نبوخذ ناصر ملك بابل هو وكل جيشه علي أورشليم ونزل عليها، وبنوا عليها أبراجاً حولها. ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا، في تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة، ولم يكن خبز لشعب الأرض فثغرت المدينة، وهرب جميع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك. وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين، فذهبوا في طريق البرية. فتبعت جيوش

الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا، وتفرقت جميع جيوشه عنه. فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى ربلة، وكلموه بالقضاء عليه وقتلوا بني صدقيا أمام عينيه، وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس، وجاؤوا به إلى بابل وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ ناصر ملك بابل، جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار. وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين " سفر الملوك الثاني (٢٥: ١ - ١٣).

" وأما الشعب الذي بقي في أرض يهوذا، الذين أبقاهم نبوخذ ناصر ملك بابل، فوكل عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان " - سفر الملوك الثاني (٢٥: ٢٢).

وفيما عدا أسفار التوراة لا توجد مصادر أثرية تساند الذين أرخوا. وإذا كانت مرويات التوراة لا تصلح وحدها مصدراً تاريخي، ولكن بالاستناد إلى روايات الإخباريين العرب فهناك شبه إجماع على أن " نبوخذ نصر " (بختنصر) - وهو إمبراطور بابل (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م) - قد جرد بالفعل حملات عسكرية وصلت في مداها إلى أرفع جبال اليمن وأعزها، وهو جبل النبي شعيب المعروف تاريخياً باسم جبل حضور وهو جبل باليمن لحمير سمي بساكنة منهم، وهم ولد حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن حميد الأصغر[1].

ويذكر لسان اليمن " الهمداني " في كتابه « الإكليل » الجزء الثامن، إن من الجبال المقدسة عند أهل اليمن جبل حضور وضين ورأس بيت فائش من رأس جبل تخلي ورأس هنوم ورأس تعكر ورأس صبر. وفي رؤوس هذه الجبال مساجد مباركة مأثورة [٢].

وينقل لنا " الهمداني " في سفره الرائع « صفة جزيرة العرب » عن (مخلاف حضور)، قوله: وهو حضور بن مالك من ولده شعيب النبي ابن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور عليه السلام، وهو الذي قتله قومه، ويقال قتله أهل حضوري وعربايا. وكان بعث إليهم [٣].

وتذهب روايته في شيء من التفصيل، في كتابه « الإكليل »، الجزء الثاني: فبعثه [شعيب] إلى قومه رسولاً فكذبوه وقتلوه، فأوحى الله إلى برحيا بن اخنيان بن زريابيل بن شالثان من سبط يهوذا أن ائت بخت نصر، ويسمى بخت ناصر وهو عند أهل الكتاب الملك الأعظم، والفرس تقول إنه مرزبان من مرزابة الفرس سرحه كيبشتاسب وأمره أن يغزو العرب الذين قتلوا نبيهم، فيقتل مقاتليهم ويستبيح أموالهم، فأقبل برخيا من حران إلى بابل فأخبر بخت نصر، فتوجه لذلك من تلقاه مستأمناً من الأنبار وأتتهم جيوش بخت نصر، وهتف بهم هاتف:

سيغلب قوم غالبوا الله جهرة وإن كايدوه كان أقوى وأكيدا
كذاك يضل الله من كان قلبه مريضاً ومن والى النفاق وألحدا

فلما غشيهم الجنود هربوا يركضون إلى تهامة فلقيهم الملائكة يضربون وجوهم وأدبارهم، ويردونهم إلى حضور يقول الله عز وجل: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا

أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾} [الأنبياء: ١١ - ١٣][٤].

وتتفق رواية " الهمداني " هذه مع ما ذكره " الدّيبع الزَّبيدي " صاحب

« تحفة الزمن في فضائل أهل اليمن » من أن الله بعثه [شعيب] إلى أهل حضور، وهو جبل غربي صنعاء وبه قبره وبيته معروفة ومشهورة. وأهل حضور الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن بقوله تعالى:{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾} [الأنبياء: ١١ - ١٣]. وكان ظلمهم أنهم قتلوا شعيب بن مهدم الذي أرسل إليهم[٥].

ويروي " د. جواد علي " نقلاً عن " الطبري "، وآخرين: أن بختنصر (نبوخذ نصر) غزا أهل حضور (حضوراء)، وأعمل فيهم السيف وأجلى خلقاً منهم إلى أماكن أخرى، لأنهم كفروا وجحدوا نبوة نبي منهم أرسله الله إليهم، وهو " شعيب بن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور "، ولم يصدقوه، وكانوا أصحاب بطش وشدة وغلظة، فلما قتلوه، أوحى الله إلى نبي في عصره هو " برخيا بن أخبيا بن رزنائيل ابن شالتان "، وكان من سبط " يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل "، أن يأتي " بختنصر "، فيأمره بغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب، ويطأ بلادهم الجنود، فيقتل مقاتلهم، ويستبيح أموالهم، فأقبل " برخيا " من نجران، حتى قدم على " بختنصر "، وذلك في زمان " معد

بن عدنان "، فوثب " بختنصر " علي من كان في بلاده من العرب، وجمع من ظفر به منهم، فبني لهم حيزاً على النجف وحصنه، ثم ضمهم فيه، ووكل بهم حرساً وحفظة، ثم سار في بلاد العرب فالتقى بعدنان بذات عرق، فهزم " بختنصر " عدنان، وسار إلى حضور، فانهزم الناس وفروا فرقتين: فرقة أخذت إلى ريسوب وعليهم عك، وفرقة قصدت وبار. أما الذين بقوا في حضور، وحاربوا بختنصر فقد احتصدتهم السيوف. ثم رجع ملك بابل بما جمع من السبايا، فألقاهم بالأنبار، وخالطهم بعد ذلك النبط، ومات عدنان. فلما مات بختنصر، خرج " معد بن عدنان " حتى أتى مكة، ثم ذهب إلى " ريسيوب " فاستخرج أهلها، وسأل عمن بقي من ولد " الحارث بن مضاض الجرهمي " وهو الذي قاتل دوس العتق، فأفنى أكثر جرهم علي يديه - فقيل بقي " جرشم بن جلهمة " فتزوج معد ابنته " معانة "، فولدت له نزاراً " [٦].

ونجد خبر غزوة " بختنصر " لأهل " حضور " مكتوباً في سفر أرميا (٤٩: ٢٨ - ٣٣): " عن قيدار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ ناصر ملك بابل هكذا قال الرب: قوموا اصعدوا إلى قيدار. اخربوا بني المشرق. يأخذون خيامهم وغنمهم، ويأخذون لأنفسهم شققهم وكل آنيتهم وجمالهم، وينادون إليهم الخوف من كل جانب. اهربوا. انهزموا جداً. تعمقوا في السكن يا سكان حاصور، يقول الرب، لأن نبوخذ ناصر ملك بابل قد أشار عليكم مشورة، وفكر عليكم فكراً. قوموا اصعدوا إلى أمة مطمئنة ساكنة آمنة، يقول الرب، لا مصاريع ولا عوارض لها. تسكن وحدها. وتكون جمالهم نهباً، وكثرة ماشيتهم غنيمة، وأذرى لكل

ريح مقصوصي الشعر مستديراً، وأتى بهلاكهم من كل جهاته، يقول الرب. وتكون حاصور مسكن بنات آوى، وضربة إلى الأبد، لا يسكن هناك إنسان، ولا يتغرب فيها ابن آدم ".

أما النبي " برخيا " الذي يقول الإخباريون أنه هو الذي أشار علي " بختنصر " أنْ يغزو حضور، فهو " باروخ بن نيريا (نريا) " - سفر أرميا (٤٥: ١).

وهكذا تتفق روايات الإخباريين العرب مع سفر أرميا (٤٩: ٢٨ - ٣٣)، بأن اتجاه حملات نبوخذ نصر كان بلاد العرب. وبالرغم من ذلك نجد من لا يزال يصر على أن روايات الإخباريين العرب هشة، وأن سهام الريب توجه إليها من كل جانب، ولعل أهم ملاحظتهم علي هذه الروايات:

- أن " برخيا " النبي كان يقيم في نجران، وأنه ذهب إلى بابل ليحرض

" نبوخذ نصر " ضد العرب، والمعروف أن الرجل إنما كان يقيم في أورشليم.

- أن حاصور التي يتحدث عنها أرميا في التوراة، إنما تقع في شمال بلاد العرب، وبالأخص في بلادنا فلسطين.

هكذا يظهر لنا أن المرتكز لقراءة كتب الإخباريين العرب، وما جاء في أسفار التوراة، هو الانطلاق من بدهية أن أرض التوراة هي بلادنا فلسطين. علي الرغم من هذه القناعات فقد استعصى على العلماء العثور

علي حد أدنى ومعقول من الآثار التي تثبت " غزوة نبوخذ ناصر " إلى بلادنا فلسطين. ولن يعثروا.

ولدينا إشارة مهمة لعلاقات " نبوخذ نصر " بالقبائل والشعوب العربية، إذ تخبرنا الحوليات البابلية. أن ملك أكد أرسل في شهر كسلو (Kislev) من السنة السادسة [من حكمه ٥٩٩ ق. م]، جيوشه إلى أرض حاتي، وهي الحملة التي أسفرت عن الاستيلاء علي أملاك ومواشي وآلهة القبائل العربية، وأن الملك قد عاد إلى أرضه (بابل) في شهر أذار(Adar)[٧].

ويروي " بنيامين التطيلي " الذي دون رحلته في القرن الثاني عشر الميلادي: " وفي هذه الصحراء [بين اليمن والعراق] مضارب بني ركاب من عشائر تيماء. وفي تيماء يقيم شيخهم وحاكمهم الكبير حنان، وهي صقع واسع الأرجاء، امتداده مسيرة ستة عشر يوماً بين الجبال الشمالية. وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأية سيطرة أجنبية. وأهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الأماكن البعيدة. وهؤلاء الأعراب يعيشون عيشة بدوية، يبتون في الخيام، لا يعرفون بناء البيوت، دأبهم الغزو في أرض اليمن. ويعتقد أن بني ركاب قبيلة مديانية أو قتبية [سفر أخبار الأيام ٢: ٥٥]. وقد ورد ذكر هذه القبيلة في مواضع عديدة من التوراة، فكانت تنسب إلى جدها الأكبر " يونداب بن ركاب " [سفر الملوك ١٠: ١٥]. وقد ورد عنهم في قاموس الكتاب المقدس في طبعته الجديدة (ص ٤١٠) ما نصه: ولما غزا نبوخذ نصر اليهودية هرب الركابيون إلى أورشليم طلباً للنجاة " [٨].

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه، من أن غزوة نبوخذ نصر كانت بإتجاة الجزيرة العربية، وقد وصلت في توغلها داخل شبه الجزيرة العربية إلى التخوم الغربية للهضبة اليمنية، أما ما ذكر عن أنهم هربوا إلى أورشليم طلباً للنجاة، فمن المحتمل أنهم هربوا من وجه حملة نبوخذ نصر أي من تيماء، باتجاه أورشليم اليمنية (*) طلباً للأمان والسلامة، لكن نبوخذ نصر استمر في غزواته حتى وصل إلى أرفع جبال اليمن، جبل حضور، وقد طال الهجوم والإحراق والسبي الكثير من العشائر العربية، وتتضح حدة المعركة وضراوتها وسعة رقعتها، بصرف النظر عن المبالغة فيها. فيما أورده " الهمداني "، إذ قال: " وأرض العرب يومئذ خاوية وليس فيها بتهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحد لإخراب بخت نصر إياها وإجلاء أهلها، إلا من كان اعتصم منهم برؤوس الجبال وشعابها ولحق بالمواضع التي لا يقدر عليه فيها أحد متنكباً لمسالك جنوده ومسُتن خيوله فاراً إليها منهم " (٩).

ويشير المؤرخ التاجر " ابن المجاور " في كتابه الشهير « تاريخ المستبصر »، الذي كرسه لتاريخ وجغرافية اليمن ومكة وبعض الحجاز، إلى السبي البابلي بقوله تحت عنوان ذكر نهر السبت: " قالت أهل الذمة إنه في أرض التيه. وحدثني يهودي صائغ بعدن قال: إنَّ نهر السبت في أرض يقال لها صيون، والأصح أنه في الحجاز ظهر وهو نهر رمال سيال يجرى من ليلة الجمعة إلى غداة يوم السبت لم يقدر الإنسان أنْ يعبره من شدة جريانه في ذلك اليوم، ويسكن باقي الأسبوع. وراء هذا النهر من اليهود مائة ألف ألف رجل وامرأة وهم زائدون على العدّ

خارجون عن الحدّ. والقوم عرب يعقدون القاف الألف في لغتهم، وفي جملة القوم أولاد موسى بن عمران عليه السلام. ويقال إنما حصلوا هؤلاء اليهود في هذه الأرض والأعمال إلا من غزوة نبوخذ نصر البابلي لليهود بأرض الشام وديار مصر(**) " (١٠).

ولما قضى " نبوخذ نصر " على مملكة يهوذا، قام بهدم الهيكل الذي بناه سليمان. وهناك صمت في التقليد اليهودي حول مصير تابوت العهد بعد هذا الحدث. أما التقليد العربي اليماني الذي دونه " وهب بن مُنبّه " - ورواه عنه " الهمداني " في كتابه « الإكليل » الجزء الثامن، فيقول: " لم يزل بنو إسرائيل يزحفون بالتابوت حتى كان في زمن الحارث بن مضاض الجرهمي بعد موت إسماعيل النبي عليه السلام، وبعد موت ابنه ووصيه نابت بن قيدار بن إسماعيل، فبدل بنو إسرائيل دين داود وسليمان صلي الله عليهما وانتحلوا علي الزبور كتباً انتحلوها.. والملك يومئذ بمكة وما والاها الحارث بن مضاض الجرهمي. فلما أتي بنو إسرائيل إلى مكة.. برز إليهم جرهم في مائة ألف، وعملاق في مائة ألف.. فانهزم بنو إسرائيل ومن معهم ورموا بالتابوت. فأخذته جرهم وعملاق، فأتوا به إلى مزبلة من مزابل مكة، فحفروا له ودفنوه فيها.. فأخذهم الوباء بالغمّ.. فعمد الحارث بن مضاض إلى التابوت في تلك المزبلة فاستخرجه ليلاً. وأخذه هميسع (بن نابت قيدار بن إسماعيل). وكان عنده يتوارثونه وارثاً عن وارث إلى زمان عيسى بن مريم عليه السلام، فإنه أخذه من كعب بن لؤي بن غالب " (١١).

العودة الفارسية: كورش يأمر بإعادة المسبيين!:

يقص سفر عزرا (١: ١ - ٤) القصة الكاملة للعودة: " وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب يفهم أرميا. نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وبالكتابة أيضاً قائلاً: هكذا قال كورش ملك فار س جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه، ليكن إلهه معه، ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذي في أورشليم. وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغرب، فلينجده أهل مكانه بفضة ويذهب بأمتعة وببهائم، مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم ". ويضيف " والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخذ ناصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهته. أخرجها كورش ملك فارس عن يد مثرداث الخازن، وعدها لشيشبصر رئيس يهوذا. وهذا عددها.. الكل أصعده شيشبصر عند إصعاد السبي من بابل إلى أورشليم " - سفر عزرا (١: ٧ - ١١).

وقد جاء شيشبصر إلى أورشليم والياً عليها وباشر بوضع أساسات بيت الرب " حتى إن آنية بيت الله هذا، التي من ذهب وفضة، التي أخرجها نبوخذ نصر من الهيكل الذي في أورشليم وأتى بها إلى الهيكل الذي في بابل، أخرجها كورش الملك من الهيكل الذي في بابل وأعطيت لواحد اسمه شيشبصر الذي جعله والياً. وقال له: خذ هذه الآنية واذهب واحملها إلى الهيكل - الذي في أورشليم، وليبن بيت الله في مكانه. حينئذ

جاء شيشبصر هذا ووضع أساس بيت الله الذي في أورشليم، ومن ذلك الوقت إلى الآن يُبنى ولم يُكمل " - سفر عزرا (٥: ١٤ - ١٦).

لقد هتف النبي أشعيا للملك كورش، وأطلق عليه لقب مسيح الرب، فنقرأ في سفره: " هكذا يقول الرب لمسيحه، لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً، وأحقاء ملوك أحل، لأفتح أمامه المصراعين، والأبواب التي لا تغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أمهد. اكسر مصراعي النحاس، ومغاليق الحديد اقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ، لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك، إله إسرائيل " - سفر أشعيا (٤٥: ١ - ٥).

على أن هذا الفرح العام بصعود كورش، وبمرسومه الخاص بعودة السبي، لم يترجم فوراً إلى حركة عودة جماعية إلى أورشليم. ففي عهد الملك " داريوس "، ابن قمبيز وحفيد كورش، قاد هذه الموجه من العودة الثانية رجل يسمي زربابل، برفقة الكاهن يشوع، وهذا ما يكشف عنه سفر عزرا (٣: ٨ - ١٣)، (٤: ١ - ٥). وبعد عام من الانتهاء من بناء بيت الرب، نقرأ في سفر عزرا (٧: ١٢ - ٢٦) ما يلي: " من أرتحشثتا ملك الملوك، إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل إلى آخره. قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع، من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلهك التي بيدك، ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه. وكل الفضة والذهب التي تجد في كل بلاد بابل، مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذين في

أورشليم، لكي تشتري عاجلاً بهذه الفضة ثيراناً وكباشاً وخرافاً وتقدماتها وسكائبها، وتقرها علي المذبح الذي في بيت إلهكم الذي في أورشليم. ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقي الفضة والذهب، فحسب إرادة إلهكم تعملونه.. أما أنت يا عزرا، فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكاماً وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك. والذين لا يعرفون فعلموهم. وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك، فليقض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس ".

بعد أربعة عشرة عاماً تقريباً من وصول عزرا، يأتي إلى أورشليم واحد من أبرز أفراد السبي، وهو " نحميا بن حكليا " - سفر نحميا (١: ١). وكان نحميا هذا قد تدرج في منصبه في البلاط الفارسي حتى وصل إلى منصب ساقي الملك الخاص. طالباً من ارتحشستا أن يرسله إلى يهوذا، لتحصين مدينة أورشليم " أنتم ترون الشر الذي نحن فيه، كيف أن أورشليم خربة، وأبوابها قد أحرقت بالنار. هلم فنبني سور أورشليم ولا نكون بعد عاراً. وأخبرتهم عن يد إلهي الصالحة علي، وأيضا عن كلام الملك الذي قاله لي، فقالوا: لنقم ولنبن - وشددوا أياديهم للخير " - سفر نحميا (٢: ١٧ - ١٨).

انتهى نحميا من بناء السور: " وكمل السور في الخامس والعشرين من أيلول، في اثنين وخمسين يوماً. ولما سمع كل أعدائنا ورأي جميع الأمم الذين حوالينا، سقطوا كثيراً في أعين أنفسهم، وعلموا أنه من قبل إلهنا عمل هذا العمل " - سفر نحميا (٦: ١٦ - ١٧) " وكانت المدينة

واسعة الجناب وعظيمة، والشعب قليلاً في وسطها، ولم تكن البيوت قد بنيت " - سفر نحميا (٧: ٤) " وسكن رؤساء الشعب في أورشليم، مدينة القدس، والتسعة الأقسام في المدن. وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكنى في أورشليم " - سفر نحميا (١١: ١ - ٢).

والسؤال المطروح ههنا: هل هناك أدلة أو شواهد أثرية، تؤكد رواية سفري عزرا ونحميا؟! الجواب ببساطة لا. تقف رواية سفري عزرا ونحميا وحيدة دون أي سند من مصدر خارجي، فمن الأمور المؤسفة حقاً عدم العثور حتى الآن علي أية نقوش أو كتابات أثرية تمكننا من تشكيل فكرة عن حالة المشرق العربي وتقسيمه الجغرافي والسياسي في ظل الاحتلال الفارسي. فكل ما عادت علينا به التنقيبات الأثرية هو محض نقوش متفرقة لا تسمح بأي حال من الأحوال بتشكيل صورة عن أوضاع الإقليم، مهما كانت عمومية. هذا يعني أن الخطاب الكتابي، في رسمه تسلسل الأمور في فلسطين إبان الاحتلال الفارسي، يعتمد بشكل كامل على تأويل روايات مسجلة في العهد القديم، وعلى سفري عزرا ونحميا تحديداً. ويرفض كثير من علماء الكتاب الاعتراف بأية صدقية تاريخية للسفرين، بل إن هناك من يرى بأنهما لم يكتبا قبل ما يسمى الانتفاضة الحسمونية. كذلك ثمة رأي قوي بين العلماء الكتابيين يقول بأن دوافع كتابة هذين السفرين لم تكن نقل الحقيقة التاريخية، وإنما عرض الفكرة[١٢].

لقد كان الغموض يلف التاريخ التوراتي طيلة المراحل السابقة، بل يستحيل من التأكد من حقيقة التاريخ التوراتي. فالتسلسل التاريخي مشوش

ونصوص المصادر فاسدة، خاصة الفترة التي أعقبت السبي: فلا نعرف الهيكل التنظيمي زمن " زيروبابل " ولا نعرف دور " عزرا "، ولا نعرف دور الولاية (State) الفارسية هذه، ولا وضع الكاهن الأعلى بين سنوات (٥١٧ - ٤٤٤ ق. م)، وأيهما جاء أولاً: عزرا أم نحميا. وبالمختصر فإن المؤرخ سيجد نفسه مواجهاً عدة إشكالات الأمر الذي يجعل الموضوع التاريخ مستحيلاً " [١٣].

يشير الباحثون التوراتيون، ويساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا. إلى وجود مقاطعة (يهوذا - يهد) في بلادنا فلسطين إبان الحكم الفارسي للإقليم، فها هو الباحث الألمع، صاحب الأفكار التوراتية " فراس السواح " يعلن بمنتهي صفاقة: " أن الشواهد الأثرية بخصوص مقاطعة يهود الفارسية تنحصر في طبعات الأختام علي الجرار الفخارية المعدة لتسويق منتجات الزيت والخمور وما إليها، وكذلك في قطع العملة المعدنية. تبدأ قطع العملة المعدنية التي تحمل اسم مقاطعة يهود بالظهور في المستويات الأثرية العائدة لأواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك شظايا الجرار الفخارية التي تحمل طبعات أختام تذكر اسم المقاطعة منقوشاً بالقلم الآرامي الخالي من الحركات الصوتية (ي هـ د) " [١٤].

ورغم أن الباحث « السواح »، يشير إلى وجود مقاطعة يهوذا في بلادنا فلسطين، إلا أنه ليس بين أيدينا أية وثائق مستقلة تثبت ذلك حيث ينفي علماء آخرون مثل هذه الإدارة. وعلى هذا فإن القائلين بوجود مقاطعة يهوذا مستقلة يعتمدون بشكل كامل على نصوص سفر نحميا،

وكذلك على قطعة نقود معدنية عثر عليها في فلسطين نقش عليها كتابة قرأها البعض (يهد)، بينما يفضل آخرون قراءتها علي نحو (يحنن) [١٥].

ومن الجدير بالانتباه، أن مرجعنا المستقل الوحيد عن هذه الفترة، هو كتاب « التاريخ » لـ " هيرودوت "، فهل ذكر " هيرودوت " وجود مقاطعة يهوذا أو إسرائيل؟! ففي مجال كتابته عن التقسيمات الإدارية للإمبراطورية الفارسية التي احتلوها في المشرق العربي يقول " هيرودوت " في القسم (٣: ٩١) التالي: " المنطقة الممتدة من مدينة بوزايدوينوس التي أسسها أمفيلوخوس بن أمفياراوس، وحتى مصر، هذا ما لم تكن تابعة للعرب الذين لا يدفعون شيئا - تعود بضرائب مقدرها ثلاثمائة وخمسون تالنت، ويتبع هذا الإقليم مجمل فينيقيا وفلسطين سورية وقبرص.. ".

ويعود " هيرودوت " في القسم (٤: ٣٩) من كتابه للحديث عن الإقليم بالقول: " أما الثاني فيبدأ ببلاد فارس ويستمر في الامتداد حتى البحر الأريتري، أولاً تأتي بلاد فارس ثم أشور ثم بلاد العرب، وتنتهي، وفق التقسيم الإداري بالطبع، قرب الخليج العربي قرب القناة التي شقها داريوس وتمتد حتى نهر النيل، والبقعة الممتدة من بلاد فارس حتى فينيقيا كبيرة وواسعة، ولكنها تضحي بدءاً من فينيقيا شريطاً ساحلياً ضيقاً يمتد من بحرنا عبر فلسطين السورية وحتى مصر حيث ينتهي هناك ويعيش فيها ثلاثة أقوام " [١٦].

إن غياب أية إشارة في كتابات " هيرودوت " إلى يهوذا، يمنحنا الحق العلمي في الاستنتاج بأنه لو سمع بذلك لسجله. وكل ما عرفه "

هيرودوت " أن فلسطين كانت جزءاً من مقاطعة (عبر النهر؟).

والسؤال المطروح ههنا: هل هناك عودة ليهودي السبي البابلي؟! بعد الانتصار الشهير الذي أحرزه " كورش " على البابليين، واحتلاله بابل ٥٣٩ ق. م، أعلن الامبراطور الفارسي (قراراً) أو (مذكرة) جاء فيها:

« الإله مردوخ طاف كل البلدان وبحث عن أمير عادل، أمير قريب من قلبه بوسعه أن يأخذه بيده؛ وقد ناداه باسمه:

يا كورش، ملك انزان! فعينه لسرير الملك..

لقد نظر الإله مردوخ.. نظرة فرح.

إلى أعماله الخيرة، وإلى قلبه العادل

وأمره بأن يذهب إلى مدينته

بابل.. وكصديق

ورفيق مشى إلى جانبه.. »

وتنهي أسطوانة كورش تدوينها المطول على هذا الوجه:

« إن آلهة سومر وآكاد التي

أجرعها نبونيد، علي أثر غضب

مردوخ العظيم، إلى بابل،

بناء علي أمر مردوخ، جعلتها

من جديد تحتل مذابحها بطمأنينة وهدوء ».

ويضيف كورش في صلاته قائلاً:

« كل الآلهة الذين أعدتهم

إلى مذابحهم، يومياً

أمام بعل مردوخ ونابو،

يدعون لي بالعمر الطويل!

وليتهم يحدثون الإله مردوخ، سيدي

عن كورش.. وعن

ولده قمبيز! »

وتشير الأسطوانة بالإضافة إلى ذلك، أن قورش:

« منح حق العودة لشعوب كل البلدان قاطبة » (١٧).

هنا يقول الرأي التقليدي بأن " قورش " سمح ليهودي السبي بالعودة إلى فلسطين. وذلك وفق (قرار كورش) أو (مذكرة كورش) المشار إليها آنفاً في سفر عزرا، بالرغم من أن (مذكرة كورش) لا تشير إطلاقاً إلى يهوديي السبي، ولم تصلنا أية وثيقة فارسية بخصوص هذا المرسوم الوارد في سفر عزرا.

وهذا ما أشار إليه " لمكة " بقوله: لقد بدأ الشك في الرواية التوراتية عن العودة، وعن الفترة الفارسية.

* * *

مراجع الفصل التاسع

(*) ملك بابلي حكم (٥٦٢ - ٦٠٥ ق. م)، ويعرف بالعربية " نبوخذ نصر "، ويرد في سفر أخبار الأيام الثاني (٦: ٣٦) باسم " بخت نصر " والتهجئة الصحيحة للاسم باللغة الاكادية " نبو - كودورري - ءوشو ".

(**) هو ذلك الخبر الذي أوردته التوراة، ولم تؤكده النقوش البابلية ذات الصلة، عن قيام ملك بابل " نبوخذ نصر الثاني " باقتياد أعيان مملكة يهوذا بعد القضاء عليها إلى بابل، وتوطينهم فيها.

(١) نشوان بن سعيد الحميري، **منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم**، ودواء كلام العرب من العلوم، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١، ص٣٧.

(٢) الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، الجزء الثامن، تحقيق: نبيه أمين فارس، المكتبة الأزهرية، مصر، ٢٠٠٠، ص ١٢١.

(٣) الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط ١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢١٠.

(٤) الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، الجزء الثاني، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط ٣، منشورات المدينة، بيروت، ١٩٨٦، ص (٢٦٠ - ٢٦١).

(٥) الإمام وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الديبع الزبيدي، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص (٧٦ - ٧٧).

(٦) د. جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء الأول، ط ١، دار العلم للملايين - بيروت، مكتبة النهضة - بغداد، ١٩٦٨، ص (٣٤٨ - ٣٤٩).

(٧) عارف أحمد إسماعيل، **العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية منذ منتصف الألف الثالث وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد**، ط ١، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ١٩٩٨، ص ١٥٢.

(٨) د. أحمد سوسة، **أبحاث في اليهودية والصهيونية**، دار الأمل للنشر والتوزيع، أربد، ٢٠٠٣، ص (٥٢ - ٥٣).

(٩) **الهمداني**، **صفة جزيرة العرب**، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

(١٠) كمال الصليبي، **حروب داود الأجزاء الملحمية من سفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العبري**، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٠، ص (٢٩ - ٣٠) أورده: الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، الجزء الثامن، تحقيق: نبيه أمين فارس، المكتبة الأزهرية، مصر، ٢٠٠٠، ص ١٦٣ - بقوله: " فقرأت الألواح فأصبت فيها

أن أهل الألواح الحرث بن مضاض الجرهمي الذي سلب قومه تابوت بني إسرائيل حين قصدوا مكة. فاجتمعت جرهم وعدنان وطسم وجديس والعمالقة وجميع العرب والتقوا بني إسرائيل لقتالهم فهزموهم. وأخذوا التابوت علي بني إسرائيل، وله حديث يطول شرحه. وقد ذكر القصة كاملة وهب بن منبه في تيجان الملوك ".

(١١) زياد منى، **مقدمة في تاريخ فلسطين القديم**، ط ١، بيان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٠٢.

(١٢) جودت السعد، **أوهام التاريخ اليهودي**، ط ١، منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨، ص ١٠٣.

(١٣) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط ٣، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٢٣٣.

(١٤) **زياد منى**، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣.

(١٥) **زياد منى**، المصدر نفسه، ص (٧٣ - ٧٤).

(١٦) مارغريت روتن، **تاريخ بابل**، ترجمة: زينة عازار وميشال أبي فاضل، ط ٢، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ١٩٨٤، ص (١٧٠ - ١٧٢).

(١٧) تومس طمسن وآخرون، **الجديد في تاريخ فلسطين**، ترجمة: عدنان حسن وزياد مني، ط ١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ١٣٩. (نيلز لمكة، استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء علي الأرض).

* * *

الفصل العاشر

فلسطين تحت الاحتلال الهلينستي

الفصل العاشر:
فلسطين تحت الاحتلال الهلينستي

راندا أبو الدهب

أمكن ترجمة مصطلح هلينستى إلى " التأغرق "، أى أن الحضارة لم تعد إغريقية خالصة، ولا وقفًا على بلاد اليونان وحدها، وإنما أصبحت مزيجا من العناصر الشرقية والإغريقية معًا، فقد امتزجت حضارة الإغريق الوافدة مع حضارة الشرق الأدنى القديم [*]، بعد الغزو المقدونى، وقد امتد العصر الهلينستى لثلاثة قرون تقريبًا، بدأت من موت الإسكندر المقدونى، عام ٣٢٣ ق. م.، وانتهت عند قيام الإمبراطورية الرومانية، على يد أكتافيوس أغسطس، عام ٢٧ ق. م [١].

خرج الإسكندر من بلاده وهو في سن العشرين، في أوائل عام ٣٣٤ ق. م.، على رأس جيش، تراوح عدده بين ثلاثين وأربعين ألفا، وهاجم الإمبراطورية الفارسية، وعبر مضيق الدردنيل إلى آسيا الصغرى ثم كلكيا فمناطق السهول، وانتصر في معركة أيسوس، عام ٣٣٣ ق. م، على الملك الفارسى داريوس الثالث، ثم اندفع باتجاه الجنوب واستولى على المدن الفينيقية، حيث وصل " صور " التي قاومت بشدة، وحاصرها سبعة أشهر، ثم اقتحمها وفتحها، عنوة، ما مهد الطريق أمام الاسكندر إلى

الساحل الفلسطيني، فاحتله حتى وصل إلى غزة، التي قاومت وصمدت شهرين، أما حصاره لها ثم اقتحمها ونكل بأهلها واستولى على كنوزها وثرواتها ثم اتجه إلى مصر، ووصل إلى واحة سيوة، وأمر ببناء الإسكندرية ٢٣٢ ق. م. ثم عاد إلى بلاد الشام، ومر بفلسطين، وأقام في " صور "، بعض الوقت، ثم تابع سيره إلى بلاد الرافدين وفارس. وقد توفى لاحقًا عام ٣٢٣ ق. م، في " بابل " [٢].

بعد وفاة الاسكندر قسمت امبراطوريته بين قواده، وكانت فلسطين من حصة القائد " لاميدون "، وعلى إثر ذلك، شب نزاع بين قادة الإمبراطورية الأربعة " بطليموس "، و " سلوقس "، و " انتيفونس "، و " انيباتر "، ونحج الأول في أخذ فلسطين من لاميدون، عنوة، ولكن أنتجنوس عزا سوريا، ووصل حتى غزة، وبسط سيطرته عليها، إلا أن بطليموس حاول عرض مكافأة مالية، في مقابل الجزء الجنوبى من ولاية " سوريا المجوفه "، ولما رفض عرضه، تقدم بقواته واستولى على إقليم فينيقيا، ودخل القدس أوائل عام ٣١٨ ق. م، فيما اعتبر انتيجونس ذلك عدوانًا يخل بتوازن القوى، وعقد العزم على محاربته، وطرده من الشام، مهما كلفه الأمر [٣].

أما سليوقس بن أنطيوخوس (٣٨٥ - ٢٨٠ ق. م.) فقد كان من أتباع أنتيجونس، الذي طرده من خدمته، بعد أن شعر بمدى طموحه، فلجأ سليوقس إلى بلاط بطليموس الأول في مصر، الذي رحب به واحتفظ به، لوقت الحاجة، وبالفعل أمده بطليموس، ودعمه، واستطاع سليوقس أن يقتحم بابل، عام ٣١٢ ق. م، واستولى عليها ونصب نفسه ومد نفوذه

شرقا في بلاد فارس وشمال الشام غربا وتحالف مع أعداء أنتيجونس وفتكوا به في معركة أسوس عام ٣٠١ ق. م. فأعيد تقسيم الإمبراطورية، في أعقاب هذه المعركة، وعندما طالب بطليموس بالاحتفاظ بالمنطقة الجنوبية من بلاد الشام، والتي تشكل فلسطين، رفض طلبه وكانت حجته بأن هذا الجزء تابع لمصر منذ أيام الفراعنة ومع هذا لم ينتظر بطليموس طويلاً فاحتل سهل البقاع، ولم يتحرك سلوقس، لطرده من الشام، التي اعتبرها ملكا له ورثها عن أنتيجنوس. وكان سكوت سليوقس تعبيرًا عن امتنانة للمساعدة التي لقيها من جانب بطليموس، عندما كان لاجئاً في بلاطه، وفي الوقت نفسه أعلن سليوقس عدم شرعية الوجود البطلمي في الشام، ولهذا فإن خلفاء سليوقس عملوا على طرد البطالمة من الشام، بينما تشبث البطالمة بالجزء الجنوبى، ودافعوا عنه، وقامت بسببه خمسة حروب شرسة، عرفت بالحروب السورية، والتي ظلت محور الصراع بين البطالمة والسلوقيين [٤].

بدأت الحرب الأولى (٢٧٦ - ٢٧٢ ق. م)، بمبادرة من بطليموس الثانى، ضد " أننطيوخس الأول " السلوقي، الذي استطاع صد الباطالمة واستعادة دمشق، وعقد صلح بين الطرفين احتفظ بموجَبه بطليموس بفينيقيا، وما إلى الجنوب من دمشق، على أن تظل الأخيرة لأنطيوخس، أما الحرب الثانية (٢٦٠ - ٢٥٥ ق. م) فقد شنها أنطيوخس الثانى، لاسترداد ما حصل عليه البطالمة، وانتهت الحرب بتقلص الأجزاء التابعه للبطالمة في شمال الساحل. فيما الحرب الثالثة (٢٤٦ - ٢٤١ ق. م.) بدأت حين طمح بطليموس الثالث في امتلاك بلاد الشام كلها، ونجح في

الوصول إلى إنطاكية، واحتل سلوقية، إلا أن أنطيوخس الثالث استردها، في الحرب الرابعة (٢١٩ - ٢١٧ ق. م)، ما شجعه على الاتجاه جنوبًا، حتى وصل عكا، ونجح بطليموس الرابع في حشد جيش كبير من المصريين، ومرتزقة آسيا، والتقى الجيشان عند رفح، عام ٢١٧ ق. م. وانتصر بطليموس، واحتفظ بفلسطين، إلا أن أنطيوخس أعاد الكرَّة، وهاجم البطالمة، في الحرب الخامسه (٢٠٢ - ٢٠٠ ق. م) والتقى الجيشان، وانتصر أنطيوخس تلك المرة، عند بانيسون " بانياس "، قرب منابع الأردن [٥].

بذلك أصبحت فلسطين جزءا من المملكة السولقية وهو ما صاحب إنشغال أنطيوخس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧ ق. م.) في حروبة ضد روما الدولة التي صعد نجمها، كما إنشغل خلفاء انطيوخس في صد الفرثيين في بلاد فارس، ناهيك عن نشوب الحروب الأهلية بين أصحاب الوراثة في العرش، والمطالبين به، فضلاً عن موقف البطالمة العدائى، فقد حاول بطليموس السادس استعادة ما فقد من بلاد الشام، ووقع السلوقيون في أزمة مالية، خارجوا منها على حساب رعاياهم وقاد أنطيوخس الرابع (١٧٥ - ١٦٤ ق. م.) حملة ضد بطليموس، حتى وصل إلى الاسكندرية، وكاد يحتلها، لولا تدخل روما، عام (١٦٨ ق. م.) والتي أمرتة بالجلاء عن مصر [٦].

في العام ١٧٥ ق. م. اندلعت الثورة المكابية في فلسطين ضد السلوقيين، وتطورة تلك الثورة إلى حرب استمرت أربعين عامًا انتهت بقيام الأسرة الحشمونية، فقد بدأت الثورة بالخلاف بين اخوين على شَغل

وظيفة الحبر الأعظم، تبعه أنطيوخس بإعلان الأحكام العرفية، واستباحة القدس، وأمر بإلغاء الدين اليهودي فهبَّ الكاهن " ماتاتياس "، من قرية " مودين " (المدية)، شرقي " اللد "، واعتصم بقريته، وشرع في الثورة، التي قادها ابنه يهوذا، الذي اتخذ لقب المكابي، أى المطرقة، ونظَّم عصابات غير نظامية عملت في التلال، ولم تواجه الجيش مباشرة، ما أنزل خسائر فادحه بقوات أنطيوخس، ومن بينها قتل حاكم نابلس " أبولونيوس "، وبعد عدة معارك سيطر المكابيون على القدس [٧].

بقى أن تلك الثورة وجهت، في الأساس، ضد الطبقة العليا، وليس الحكومة المركزية، في المقام الأول، إضافة إلى أنها توجهت ضد تيار الثقافة الهلينستية، وبعد أن استطاع المكابيون فرض وجودهم في فلسطين انتخبوا سمعان، شقيق يهوذا، حاكمًا وكاهنًا أعظم، عام (١٤١ ق. م) واعترف الملك السلوقى (ديمتريوس) الثانى بالأمر الواقع، ومنح اليهود نوعًا من الاستقلال تحت حكم سمعان، الذي استطاع إعلان الإستقلال عن الدولة السلوقية، وعقد حلفًا مع روما واسبارطة، أهم القوى السياسية الصاعدة، آنذاك، بعد أن اغتيل سمعان، ورثه ابنة هركانوس، لمدة ثلاثين عامًا (١٣٥ - ١٠٥ ق. م)، وعرف عنة التعصب ومحاربة الصبغة الهلينسية وكل من اصطبغ بها من اليهود، وغيرهم، وأجبر العرب الأدوميون على التهود والإختتان، كما حارب السامريين، وهدم مدينة السامرة، ولكن أنطيوخس السابع حشد جيشًا كبيرًا، وحاصر القدس، إلا أن هركانوس استطاع مداهنتة، فتم تسوية النزاع على أن يصبح هركان من أتباع أنطيوخس وأن يؤدى له قسطا من المال فرفع أنطيوخس

الحصـار، وعـاد إلـى أنطاكيـة، عـام ١٣٣ ق. م، إلا أن أركـانوس عـاود انقلابه على سيده الجديد، عـام ١٢٥ ق. م، عنـدما مُنـي جيش أنطيوخس بهزيمة فادحه من الفرثيين، فإستغل هركـانوس الهزيمـة، وأعلـن استقلاله عن أنطاكية، مـرة أخـرى، وتوسـع جنوبًـا، وضـم أدوم، وأجبـر الأدوميين على التـهوُّد [٨].

أما إسكندر جنـاديوس (١٠٣ - ٧٦ ق. م.) بـن هركـانوس، فقد كـان بمثابة النقمة التي صُبَّت علـى أهل فلسطين جميعًـا، حيث مد نفوذه إلـى الجليل، الذي كان مـأهولاً بـالأيتوريين، وخيَّرهم بين التهـوُّد والطـرد من أراضـيهم، وحتـى بعـد أن تـهوَّد غالبيـة أهـل الجليـل، فقد ظـل الأحبـار ينظرون إليهم نظرة مواطنين من الدرجة الثانيـة، وقـالوا يوم ظهـر السيد المسيح: " أمن النـاصـرة يجـيء شـيء حسن؟! " فقد حـرص أهل الجليل على لغتهم، وثقافتهم الآرامية، وإن تـحدثوا العبرية بلكنة ورطانة، حيث لم تعد العبرية لغة الشارع، وانحصـرت في دور العبادة فحسب، أما " مصر " فلـم تكـن بعيـدة عـن تلـك الأحـداث، ولكنهـا لـم تتـدخل، واعتبرتـه شـأنًا داخليًـا، إلا أن مصـر لـم تسمح بـأى تـدخل أجنبـى علـى حـدودها الشـرقية فبعدما انتهى جناديوس من أمر الجليل، شن الغـارات علـى السـاحل، من صور إلى غزة، وخيَّر أهل الساحل بين التـهوَّد أو المـوت، فاستنجدت مدن السـاحل بملك قبـرص، لاتـروس، الـذي لبـى النـداء، وفتـك بـاليهود، الـذين استنجدوا بالمصـريين، فلـم يسـمحوا بـأي تـدخل أجنبـي وأجبـروا لاتيـوس على الجلاء [٩].

في عام ٧٦ ق. م. قتل جناديوس، أثناء حصار أحد الحصون، وورثه ولداه، هركان وأرسطو بولس، وسرعان ما نشب الصراع على السلطة، واستنجد هركان بملك أدوم، الحارث الثالث، الذي ضرب الحصار حول القدس، فاستنجد أرسطو بالرومان، بعد دخولهم سوريا، عام ٦٤ ق. م، وأذعن الحارث الإنذار الروماني وفك الحصار، وعاد إلى البتراء (١٠).

فى عام ٦٣ ق. م. استطاع بومبي القضاء على الأسرة الحشومية، نهائيًا وأصبحت فلسطين ضمن ولايات الإمبراطورية الرومانية.

الحياة الاقتصادية:

رغم صغر مساحة فلسطين، فقد تنوعت تضاريسها وتباينت، حيث امتد غور الأردن من الشمال إلى الجنوب، شرقًا محاذيًا لجبال القدس، والخليل، ونابلس، والجبال الأولى والثانية جرداء في اتجاهها نحو الغور، خضراء في انحدارها نحو الغرب، وتحيطها الينابيع، التي تكوِّن أنهارًا، تصب في الأردن، أو البحر المتوسط، كما تحتضن جبال القدس، والخليل، وجبال نابلس، أودية متسعة تصلح للزراعة، فيما مرج بن عامر، يقع في الجليل الأردني، وهو سهل من أخصب ما عرفته المنطقة من أرض، أما السهل الساحلي، فامتد من البصة شمالاً إلى رفح جنوبًا، تكوَّن في أوله من جيوب ساحلية، واتسع، تدريجيًا، في اتجاهه الجنوبي الشرقي، حتى غزة. وقد أدى هذا التنوع في التضاريس إلى التباين، في الطبيعة، والمناخ، وبالتالي تنوع إنتاج الأرض، فشغلت فلسطين حيِّزًا كبيرًا في التخطيط الاقتصادي لدى الملوك، وخاصة البطالمة، الذين اهتموا بمشروعات الري في غور الأردن، في القرنين الثالث والثاني قبل

الميلاد، ما أوجد اقتصاداً متخصصًا، أساسه النخيل والبلسم، في غور الأردن، والمنحدرات الشرقية للبحر الميت، كما زرع البلسم، زرع أيضًا، القطن، والخضار [١١]، بالإضافة إلى القمح، الذي نمى، وغيره من الحبوب في السهول، خاصة في المنطقة التي امتدت شمال يافا.

حصَّن ستراتون مراكز لتصدير القمح، أما في يبنا، وعسقلان فجعلهما لتصدير الشعير. كما زرعت الحبوب في أجزاء كثيرة من الجليل، الذي عثر على آثار المطاحن به، وأهمها ما وجد في صفورية، وعكا، وخوارزين، أما التين فقد زرع في جبال القدس، والخليل، واعتبر من أهم المحاصيل لدى الفلاح، حيث استهلكت ثماره، وهو ناضج، ومجفف في الشتاء، كما عرفت زراعته في المنطقة الممتدة من اللد إلى عمواس، فيما البصل، والخضر، والبقول، والخردل، كان في أراضي الجليل، بسبب التنوع في التربة والمناخ، كما زرع البصل، والترمس، والقنَّب في منطقة بحيرة طبرية، وغور الأردن، أما الزيتون فقد كان المحصول الأول، حيث زرع في معظم أراضي فلسطين، خاصة في القدس، والخليل، والجليل، وجبال نابلس، التي صدَّرته إلى الخارج، وخاصة مصر، كما كان الكرم من المحاصيل المهمة، ذائع الصيت، وزرع في جبال القدس والخليل، وفي بساتين عسقلان، وطبرية، وصفورية، وسخنين، وبيسان، وطولكرم، وقامت في معظم هذه المناطق معاصر الخمور، الذي اعتبر الصناعة الأولى لفلسطين في تلك الفترة، في حين اهتمت السامرة بزراعة الفاكهة [١٢].

اعتبر الملك هو الدولة، وكان، نظريًا، المالك الوحيد للأرض، وفي الواقع لم يستحوذ عليها كلها، بمفرده، فقد قسمت الأرض إلى نوعين، أولهما: أرض الملك، وثانيهما: الأرض الممنوحة أو المتروكة، وهي تلك المساحات التي منحها الملك، أو تركها في حيازة أفراد، أو جماعات، أو هيئة ما، وأُطلق على المزارعين العاملين في النوع الأول، " الفلاحون الملكيون "، وكان بينهم مزارعون ميسورون، سجلوا في السجلات الرسمية، تحت اسم " المستأجرين "، بموجب عقد إيجار، الذي كان في وسع الدولة إلغائه، في أية لحظة، وأن تنتقل الأرض إلى مستأجر آخر، إلا الفلاحين الملكيين، الذين نعموا بكثير من الامتيازات، منها الحصانة في موسم الزراعة، فلم يجر القبض على أي فرد منهم، أو تقديمه للمحاكمة، وغيره، حتى لا تعطل الأعمال الزراعية، كما منع المحضرين، والقضاة، استدعاء أحد من المزارعين الملكيين، أو القبض عليه، لضمان عدم إلحاق أضرار محققة بالخزانة الملكية[١٣].

أما الأرض الممنوحة، أو المتروكة فانقسمت إلى أربع فئات: الأرض المقدسة، وأرض الإقطاعات العسكرية، وأرض الهبات، والأرض الخاصة. والمقصود بالنوع الأول أملاك المعابد، الخاضعة لإشراف الدولة، فيما أرض الإقطاعات شملت الأنصبة العقارية، التي منحها الملك للعسكريين المتوطنين، في مقابل الالتزام بأداء الخدمة العسكرية، لضمان جنود أكثر ولاءً من المرتزقة، وفي الغالب منح البطالمة الجند الأراضي غير الجيدة، وفي حاجة إلى الاستصلاح، ما كفل توسعًا في مساحة الأرض المزروعة، وكان صاحب الإقطاع العسكري ملزمًا

باستصلاحها، وزراعتها، ولو أن هذا الاستصلاح لم يتم، في جميع الأحوال، على أيدي هؤلاء الإقطاعيين، وإنما بواسطة عمال زراعيين، أو مستأجرين، ومنح هذا الإقطاع لمدى الحياة، ثم أصبح يؤول إلى أكبر أبناء الأقطاعي، وطبع بمظهر الأملاك الخاصة، أما أراضي الهبات، فقد كانت ضياعًا واسعة، تمنح لكبار الموظفين، والمقرَّبين، وتمنح لمدى الحياة فحسب، فيما أرض الأملاك الخاصة تألفت من حدائق الخضروات، والبساتين، وأحراش النخيل والكروم، وفي الغالب استغلت بمقتضى عقود للإيجار، إما وراثية، أو طويلة الأمد، أما البيع والشراء فكان من خلال حق الانتفاع، حيث الملكية ظلت على الدوام، حكرًا على الملك وحده [١٤].

إلى جانب الحاصلات الزراعية، اشتهرت فلسطين بالصناعات المتنوعة، وإن قام بعضها على الزراعة مثل صناعة الخمور، خاصة في السهل الساحلي، والجليل، حتى أنه نافس خمر جزيرة " كيوس " في بحر إيجة، أما القار فقد جمع من البحر الميت، الذي دخل في صناعة السفن، والتحنيط، فيما كانت السفوح الجبلية مكانًا صالحًا لتربية الماشية، فقد عرفت صناعة الصوف في الخليل، وخاصة عمواس، وثمة سوق خاص بالصوف الخليلي، وترتب على ذلك قيام صناعة صباغة الصوف في اللد، ونابلس، وقيصرية، كما برع أهل الجليل في صناعة تمليح الأسماك، وصدَّروها إلى تدمر، أما قيصرية، فقد اشتهرت بصنع الأثاث، وأعمال النجارة، بالإضافة إلى الحصر، والمنتجات الجلدية [١٥]. كما اعتمدت مصر على أخشاب الغابات، التي غطت بعض أجزاء فلسطين، فضلاً عن

أرز لبنان. كذلك، ظهر فن صياغة المعادن النفيسة، من ذهب، وفضة، الذي بلغ قمة ازدهاره في العهد السلوقي، ولم يقتصر هذا الفن على قطع الحلي، بل امتد إلى زخرفة الثياب، ومقابض الأسلحة، والأدوات الخاصة، والتمائم، وقطع الأثاث، اعتمادًا على الذهب القادم من بلاد الأنباط، فيما الفضة من جبال طوروس، كما اعتبر اللؤلؤ من أهم مظاهر الزينة، فضلاً عن تطريز الثياب، وصباغتها بالأرجوان، التي شجعها السلوقيون، وصدورها إلى الشرق والغرب (١٦).

أما التجار، فقد اهتم بها البطالمة والسلوقيون، على حد سواء، بل كانت لهم الاهتمام الرئيس. وكانت مدن وموانئ فلسطين من المراكز التجارية المهمة، والتي حرص الملوك البطالمبة والسلوقيون على ربطها بطرق مناسبة، وآمنة، ما منح المدن الهلنستية شيئًا من الوحدة والتناسق، في الثقافة العامة، فاقترن بناء هذه المدن بظهور نشاط تجاري واقتصادي، نتج عن توافد الصنَّاع، والتجار إلى المدن ذاتها، كما صحب تشجيع الملوك اليونان للتجارة، تأسيس المستعمرات في معظم ولاية سوريا، ومن أهم هذه المستعمرات " مريسة "، في أقصى الجنوب في إيدومية، التي كانت بلدًا تجاريًا مزدهراً، في عهد البطالمبة (١٧). فقد من رجال الاقتصاد، مثلما كانوا من القواد، أما موانئ فلسطين، فلم تقل أهميتها التجارية عن الحربية، إذ كانت النقاط التي تنتهي إليها تجارة العطور، القادمة من البتراء، والشرق، وتبدأ عندها الخطوط البحرية المتوسطية، حيث الطريق البحري المعروف باسم " فيامارس "، الذي اتصل بسوريا شمالاً، ومصر جنوبًا، فكان ذا أهمية في التجارة الدولية.

كما أُقيمت على الطريق نفسه، أسواق موسمية، أهمها أسواق غزة، وعسقلان، التي كان لها دور مهم في التجارة البحرية، كما عُوِّل على بحارة يافا كثيرًا، حتى في غيرها من الموانئ. أما غزة، فقد كانت من المنافذ الرئيسية على الساحل، خاصة قوافل الأنباط، وتنقل منها إلى البتراء، أو إلى الموانئ اليونانية، والرومانية، كما كانت عكا المنفذ الرئيسي لجيوب وغلات مرج بن عامر والجليل، لنقلها إلى الخارج. إضافة إلى ذلك، فقد نقلت إليها منتوجات شمال الأردن، عبر بيسان، وغور الأردن، كما كانت السفن التي تخرج منها، تحمل الزيت، والزيتون، والخمور، والحبوب فضلاً عن ذلك أصبحت الأجزاء الداخلية من فلسطين على طرق تجارية رئيسية، واعتبرت القدس سوقًا رائجة [١٨]. فيما ازدهرت تجارة الرقيق، واهتم بها السلوقيون، أكثر من البطالمة، فقد نتج عن كثرة الحروب امتلاء الأسواق بالرقيق، ناهيك عن ضحايا القرصنة، خاصة خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد [١٩].

أما الضرائب، فقد دفعت عينًا من الحاصلات، فيما غدت النقود لدفع المكوس، كما لم تجمع الأموال، في عهد البطالمة، من خلال موظفين ماليين، بل عن طريق التلزيم، الذي لم يكن محليًا، فكان يتوجب على المتقدمين أن يذهبوا إلى الإسكندرية، واستمر هذا النظام حتى العصر الروماني [٢٠]. ومن أنواع الضرائب المعروفة، في الحقبة السلوقية، العشور، أي جمع عُشر المحصول في كل موسم، ولم تفرض الضرائب على الفرد، بل على الجماعة، ودفعت باسم المدينة، أو القبيلة، بالإضافة إلى الجزية، وضريبة الرأس، وضريبة التاج، وضريبة الملح. وأحيانًا

استغلت الضرائب، في خطب ودّ فئة من فئات الشعب، ففي عام ٢٠٠ ق. م. أعفى أنطيوخس الثالث مدينة القدس من الضرائب، لمدة ثلاث سنوات، وفي عام ١٥٢ ق. م. عرض ديمتريوس الأول سوتر، على اليهود إعفاءهم من الجزء الأكبر من الجزية، والضرائب، وضريبة الرأس، والملح، لمساعدته خلال نزاعه مع أحد منافسيه على العرش [٢١].

استعملت فلسطين النقود، منذ أواخر القرن السادس ق. م وسكّت النقود في دار الضرب في غزة، قبل عام ٤٠٠ ق. م. أما بيت المقدس فقد ضربت النقود في القرن الرابع ق. م. وإن كان ثمة احتذاء بالنماذج اليونانية، منذ كانت النقوش آرامية. وقد شهد النقد فوضى كبرى في أواخر الحكم الفارسي، نجح الاسكندر بالقضاء عليه، حيث تم إنشاء دار لضرب النقود في عكا، التي سكّت أول نقد باسمه، وكانت المدن المستقلة والمؤسسات الرسمية، المسؤولة عن سك العملة، كما عرف العصر الهيلنستي إنشاء المصارف، خاصة مع منح الكثير من المدن المستقلة حق سك النقود، فضلاً عن مصارف خاصة، مهمتها تبديل النقود، وتصفية الحقوق المالية، وتسديد الفواتير عن عملائها، وتقديم القروض، وقبول الرهونات، والودائع. كما قامت بعض هياكل الآلهة بدور المصارف، وإن اقتصر أمرها على استيداع الأموال فحسب، بالإضافة إلى المصارف التي قامت على الطرق التجارية. كما عرف نظام المصرف المركزي، الذي قامت بدوره الخزانة الملكية البطلمية في مصر [٢٢].

الحياة الاجتماعية:

جاء الملك، سواء عند البطالمة أو السلوقيين، على رأس الهرم الاجتماعي، فقد كانت الملكية نظام الحكم الأساسي، وسلطة الملك نافذة مطلقة، حيث عيَّن الموظفين، وشرَّع القوانين، وملَّك أرض المملكة، وتحكَّم في خزانتها، وضرائبها، بل احتكر بعض السلع، والمحاصيل، والصناعات، وحول الملك تجمعت الحاشية، التي ضمت كبار رجال البلاط، وموظفين بالإضافة إلى أُسرة الملك الاستشارية، وغيرهم من النبلاء المقدونيين، الذين هاجروا من بلاد اليونان، وبعض أصحاب النفوذ والأثرياء، من كبار الملاك والتجار، سواء من اليونايين، أو أهل البلاد الأصليين [٢٣].

أما الطبقة المتوسطة، فقد عاشت في المدن، وضمت البورجوازيين من أصحاب المهن الحرة، كالأطباء، والمعلمين، والمهندسين، والصنَّاع، وكبار الفلاحين، بالإضافة إلى صغار الموظفين.

بما أن أرض الدولة من ممتلكات الملك الخاصة، فقد اعتبر العاملين عليها من الأقنان، حيث قاموا بحرث الأرض، وزرعها، وجمع غلتها، لصالح الملك، في مقابل حصة ضئيلة من غلة الأرض، أو إتاوة تدفع لموظفي الملك، الذي كثيرًا ما أقطع الأرض إلى الجنود المرتزقة، والقرى إلى مدينة ما، قامت بدور الملتزم، وجمعت الضرائب، أو الإتاوات من الأقنان، ورغم عدم تحررهم تمامًا، إلا أن أوضاعهم شهدت تحسنًا، خاصة إذا كان استثمارهم للأرض، وراثيًا [٢٤].

طالما دارت عجلة الحرب بين البطالمة والسلوقيين، أو بين السلوقيين وأعدائهم في آسيا الصغرى، كلما زادت، وتنوعت مصادر الحصول على الرقيق، ناهيك عن القرصنة، حيث أغارت سفن القراصنة على السواحل، كما لم تسلم المدن الداخلية، حتى أصبح اليونانيون أنفسهم معرضين للاسترقاق. أما أهم الأعمال التي قام بها العبيد، فقد توقفت على مستوى العبد الثقافي، وخبرته العملية، حيث عمل المثقفون منهم، معلمين، وكتبة، ومؤدبين للأطفال، كما امتصت المناجم، والمصانع، والمزارع، وغيرها من المنشآت الصناعية والتجارية، أعدادًا ضخمة من الرقيق، واحتاجت إليهم هياكل الآلهة، للعمل في زارعة الأرض، وجني الثمار، وخزن الحبوب، وإن كان استخدام الرقيق في المنازل، أكبر منه في المجالات الأخرى، بالإضافة إلى أعداد من اليهود كانوا يباعون في أسواق الرقيق، في مصر وبلاد اليونان، منذ عهد بطليموس الأول (٣٢٣ - ٢٨٢ ق. م) [٢٥].

من الجدير بالإشارة أن اليهود في فلسطين لم يكن لهم كيان سياسي خاص، ولم يتمتعوا بالاستقلال، وإن كان المسؤول عنهم، الكاهن الأعظم، عاونه موظف من الدولة، مهمة الإشراف على المعابد.

بالإضافة إلى ذلك فقد ضم المجتمع الفلسطيني، في تلك الفترة، الجنود، وخاصة المرتزقة من اليونانيين، الذين أتوا أثناء الحكم الفارسي، ثم مع الإسكندر، وخلفائه، وإن قل عدد المرتزقة، بعد عام ١٨٨ ق. م. بعد احتلال روما لبعض مناطق بلاد اليونان، فاستخدم بدلاً منهم، اليهود والأدوميون.

نظرًا لازدهار الحالة الاقتصادية في فلسطين، ارتفع مستوى المعيشة، وبالتالي زاد عدد السكان، حتى وصل عدد سكان فلسطين إلى المليونين، عند قيام الإمبراطورية الرومانية، كما أصبح الترف من أهم مظاهر المجتمع، والولائم، والحفلات الزاهية والصيد والفروسية، من وسائل التسلية الرئيسية (٢٦).

نظم الحكم والإدارة:

ورث البطالمة عن الفرس نظمهم الإدارية في فلسطين، مع إجراء تعديلات طفيفة، فقد كانت فلسطين تحت الحكم الفارسي جزءًا من المرزبانية الخامسة، التي ضمت بلاد الشام، وجزيرة قبرص، وعاصمتها دمشق، وقسمت فلسطين إلى خمس وحدات إدارية، تمثلت في الجليل، والسامرة، والقدس، واسدود، وأدوم، أما المدن الساحلية، فقد كانت تابعة لمدينتي صور، وصيدا، الفينيقيتين، وهو ما أُلغي، تدريجيًا، في عهد البطالمة، الذين اعتبروا ما في أيديهم من سوريا وحدة إدارية، أطلقوا عليها " سوريا - فينيقيا "، وقسمت الإدارة نفسها إلى ست " إبارخيات "، أولاها، الجليل، وشملت الجليل الأعلى والأدنى، ومرج بن عامر، حتى بحيرة طبرية، ونهر الأردن شرقًا، ومرتفعات الجليل وجبل الكرمل، غربًا، وكانت بيسان العاصمة، أما الإبارخية الثانية، فكانت السامرة وعاصمتها جبل الحرزيم، فيما بيت المقدس الثالثة والعاصمة، وامتدت من منحدر جبال القدس غربًا، إلى نهر الأردن، والبحر الميت شرقًا، ومن حدود السامرة شمالاً، إلى خط يمتد شمالي مدينة الخليل جنوبًا، وكانت أدوم الإبارخية الرابعة، وعاصمتها مريسة. بالإضافة إلى ذلك،

أُنشئت إبارخيتان جديدتان في السهل الساحلي، هما حصن ستراتون، وأسدود في الجزء الجنوبي من السهل الساحلي، وعلى رأس كل إبارخية، ستراتيجوس [٢٧]، كان، في الأصل، حاكمًا عسكريًا، وأصبح موظفًا مدنيًا، عاونه مساعدون ماليون، أهمهم الكاتب الملكي المسؤول على التعداد والإحصاء، وبما أن كل إبارخية اشتملت على مجموعة من القرى، فقد أصبح لكل قرية مسؤول من الشيوخ المحليين [٢٨].

اتسم النظام الإداري البطلمي بالمركزية المتشددة، ومع هذا، فإن ثمة فرصة لوجود شكل من أشكال الحكم المحلي، أو الاستقلال الذاتي، فقد تمتعت مدن تمتعت بالحكم الذاتي، مثل عسقلان، ويافا، واسدود، وغزة، وتبعت الملك البطلمي، مباشرة، ولها مجلس بلدية. أما منطقة بيت المقدس، فلم تكن مستقلة، سياسيًا، بل خضعت لإشراف ملكي، وعرفت موظفًا إداريًا، عيَّنه الملك، أطلق عليه اسم إبستاتس، مهمته الإشراف على مالية هيكل الآلهة، والأراضي التابعة له، بالإضافة إلى أن الكاهن الأعظم لم يكن حاكمًا مستقلاً، وإنما انحصرت مهمته في مسؤوليته تجاه اليهود، والمعابد الموجودة في منطقة بيت المقدس، كما ترأس مجلس شيوخ محافظ، سمي " غيروسيا "، ضم رؤساء الأسر الكبيرة، وبعض كبار رجال الدين، والنبلاء، والأثرياء، وكبار الملاك، وإن كان ترؤس الكاهن لهذا المجلس، على اعتبار أنه إرث عائلي [٢٩]. أما عندما احتل الملك السلوقي أنطيوخس الثالث ممتلكات البطالمة في بلاد الشام، فإن الإدارية لم تتغير كثيرًا، حيث أُطلق على الولاية، اسم " استراتيغية سوريا المجوَّفة وفينيقيا "، أعقب ذلك بعض تعديلات في تقسيم الولاية،

حيث قسمت، منذ عام ١٩٨ ق. م. إلى ثلاث وحدات إدارية، أولهما إبارخية السامرة، وضمت إليها منطقة القدس، والجليل، ومدينة يافا، وثانيها أدوم، وثالثتها إبارخية الساحل، التي امتدت من صور، وحتى الحدود المصرية، بالإضافة إلى قضاء اسدود، وقد انقسمت الإبارخية إلى قسمين، ضم القسم الجنوبي منها عسقلان وغزة، وباقي الساحل في القسم الشمالي، فيما تحولت " دورا " تحولت إلى قلعة ملكية. وفي أواخر أيام أنطيوخس الرابع (١٧٥ - ١٦٤ ق. م)، واشتداد الثورة المكابية، تم فصل منطقة القدس، وجعلها إبارخية مستقلة، في حين ظلت عكا عاصمة للولاية، كما كانت زمن البطالمة [٣٠].

أما نظام القضاء، فلم يختلف كثيرًا، طوال العصر الهلينتستي، فقد كان الملك البطلمي، أو السلوقي، مصدر القوانين، قراراته وأوامره قانون ملزم للجميع، حتى وإن تعارض مع غيرها من القوانين، والأعراف السائدة، وكان كبير القضاة، بمثابة وزير العدل والمشرف على الشؤون القانونية والقضائية، ومن مهامه تعيين القضاة، فيما تنوعت المحاكم، ما بين محاكم متنقلة، ومختلطة، والنوع الأول عبارة عن هيئة قضائية، تكونت من ثلاثة قضاة يونانيين، أو أكثر، ولها دورة قضائية، تقوم بها في أنحاء إقليم اختصاصها، أما المحاكم المختلطة، فقد عرفت في القرن الثالث ق. م. ومهمتها الفصل في القضايا المدنية التي نشأت بين اليونانيين وأهل البلاد، كما تمتع الإستراتيجوس أو الإبارخوس، بصلاحيات قضائية، خاصة في القضايا الجنائية، بالإضافة إلى تلقيه الشكاوي في القضايا المدنية، وله حق التصرف، وفق ما يراه في تلك

الشكاوي، وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد، فيما فقد هذا التفويض في القرن الثاني ق. م. وانتحل الإبارخوس في مقابل ذلك حق إصدار الأحكام، من خلال إجراءات غير رسمية في قضايا، يتطلب عرضها على محكمة مختصة، أما المسائل المتعلقة بمالية الدولة، فقد تولى الحكم فيها عمال المالية المسؤولون عن دخل خزانة الدولة، وأحكامهم نهائية، ولم يكن من حق الأفراد استخدام محامين، إذا كان بينهم وبين خزانة الدولة خلاف. كما تمتع بعض الموظفين الإداريين، بسلطات قضائية، خاصة فيما اتصل ببعض القضايا، التي لها صلة بنظام الاحتكارات الملكية، والمزارعين العاملين في الأراضي الملكية [٣١].

الحياة الفكرية والحضارية:

تحقق التفاعل الحضاري بين الحضارة الإغريقية، وغيرها من الحضارات الشرقية خلال الفترة التي امتدت بين غزو الإسكندر المقدوني للشرق، ووفاته، عن طريق امتزاج الأفكار، والمؤسسات اليونانية والشرقية، وإن كان اليونانيون القدماء قد عرفوا فلسطين، قبل مجيء الإسكندر، خاصة التجار والبحارة منهم، الذين أتوا إلى موانئ فلسطين وفينقيا، بهدف التجارة، فيما لم يقل الجنود المرتزقة في دورهم الحضاري عن التجار والبحارة، حيث عمل الكثير من المرتزقة في جيوش الآشوريين، والكلدانيين، بالإضافة إلى الفرس، فبين سنتي ٣٨٠ - ٣٧٤ ق. م. ثمة جيش فارسي رابط في عكا، معظمه من المرتزقة اليونانيين [٣٢]. وحين جاء الاسكندر إلى الشرق، تم الامتزاج المنشود بين الغرب والشرق، ولعل خير دليل على هذا زواج الاسكندر من أميرة شرقية، وقد

احتذى بـه جنـوده. وفـي مأدبـة حضـرها الاسكندر، وتسـعة آلاف مقدونـي وفارسي، بارك زواجه جنده من شرقيات [٣٣].

ربما لم يكن ثمة ترابط بين الشعوب والقوميات، التـي عاشت فـي ظل الحضارة الإغريقية، إلا أن تلك الثقافة والحضارة، كانت الرابطة الوحيدة بين مختلف الشعوب، فقد كان لامتزاج الحضـارة الهلينستية بالحضـارة الشرقية، تأثير كبير على منطقة الشرق الأدنى عمومًا، وفلسطين خصوصًا، فمن خلال معاهد الجمنزيوم (معاهد التربية والتعليم)، حصل كثير من الشرقيين على قدر وافر من العلم والثقافة الإغريقية، ولعب بعضـهم دورًا مهمًـا فـي تـاريخ هذه الحضارة، حتى بعد الغزو الروماني، ومن هؤلاء: الشاعر والفيلسوف الساخر ملياجروس الجداري (١٤٠ - ٧٠ ق. م)، مـن مدينـة جـادارا (جنـوب بحيـرة طبريـة)، تكلـم الآراميـة، والفينقيـة، فضـلاً عـن اليونانيـة، وتنقـل بـين صـور وجزيـرة كـوس، حيث جمـع ديوانًـا شـعرياً، بعنـوان " الأكليل " ضـم أفضـل أشعار الكتاب الأوائل، فأسهم كثيرًا فـي تـاريخ الشـعر الإغريقـي فـي العصـر الهلينستي [٣٤].

أما الفيلسوف الأبيقوري، وشاعر المناسبات فيلوديمس، فقد ولـد فـي أوائل القرن الأول ق. م. فـي " جدرة "، وهـي مستعمرة مقدونيـة، علـى مرتفع شاهق علـى مضيق اليرموك، والطـرف الجنـوبي لبحيـرة طبريـة، وقد رحل فيلوديمس إلى روما، وعاش فيها فترة، خـلال عهد شيشرون، الذي امتدح شعره الغزلي [٣٥]. فيما أنجبت عسقلان الفيلسوف أنطيوخس، الـذي حـاول التوفيـق بـين آراء الفلاسـفة الأفلاطـونيين، والـرواقيين [٣٦]. وبما أن عسقلان كانـت مركـزًا فكريًـا، فقد أصـبح عددًا من أبنائهـا كتابًـا

كبار، من أمثال الفلاسفة: أنطيوخس، وسوسس، وأنتيبيوس، ويوبيوس، فيما من رجال النحو والبلاغة: بطليموس، ودوروثيوس، ومن المؤرخين: أبوليونيوس، وأرتيمديورس، وأبولونيوس العكي. وقد أنجبت باقي مدن فلسطين عددًا آخر من الشعراء، والأدباء، والفلاسفة من أمثال البلاغي ثيودروس، والشاعر الساخر منيبوس، فيما ثمة مفكرين يهود، منهم " السامري المجهول "، ومع أنه وصف بالمؤرخ، فإنه حاول الجمع بين ما جاء في " العهد القديم "، والأسطورة، وما دوَّنه الآخرين، بهدف تعظيم العبرانيين، وسار على خطاه أرستوبولس، وأرطبانوس، أما الكتابة التاريخية، فلم تظهر في فلسطين، إلا في النصف الثاني للقرن الأول الميلادي (٣٧).

من الملاحظ تضاؤل النشاط الأدبي المحلي أمام الشعر اليوناني، كما لم توجد آثار للأدب الأرامي، ربما لشعوره بالنقص، حتى كاد ينعدم (٣٨). مع هذا بقيت اللغة الأرامية، لغة الشعب، خاصة في الريف، كما تقلص استعمال العبرية، فيما أصبحت اليونانية لغة النخبة المثقفة، نظرًا لكثرة المدارس في كل مدينة، وبلده، حتى أن التوراة تمت ترجمتها إلى اليونانية، في عهد بطليموس الثاني (٢٨٢ - ٢٤٦ ق. م. حين اصطحب معه إلى مصر سبعين عالمًا يهوديًا، من أجل ذلك الغرض (٣٩).

كان من أهم أهداف الحكم اليوناني لفلسطين، نشر الحضارة الهيلنسية، التي انحصرت بين عصرين ساميين، وهما الأرامي والعربي، مع هذا تفاوت انتشار الهلينسية، في ولاية سوريا - فينيقيا، واختلفت استجابة مناطقها للمؤثرات اليونانية، وإن كان ثمة فريق دعاة للهلينسية،

واتخذ الأسماء اليونانية، مثل متلاوس، وياسون، وانتيبارتر، وغيرها، كما استعملت اللغة اليونانية في الحياة اليومية، فضلاً عن التزاوج بين أهل البلاد، والغرباء القادمين، فلم يتأخر تقبل الثقافة، والحضارة الهلينسية، كما كان تعلم اللغة اليونانية، بداية الطريق نحو الوصول لحق المواطنة.

اعتبر تخطيط المدن، والعمران من أهم مظاهر الحضارة الهلينسية، ومن وسائل نشرها، فقد قام الملوك البطالمة والسلوقيون ببناء الحواضر، وإعادة تجديد القديم منها، وصبغة بالهلينية، لتصبح من مراكز الإشعاع، الثقافي، والإبداع الفني، والفكري، واعتبر تخطيط المدن وتنظيمها فنًا، فلم تقام المدن عشوائيًا، بل بعد دراسة دقيقة، تبدأ من اختيار موقع بناء المدن، عند مصبات الأنهار، أو في السهول التي تخترقها قوافل التجار، أو المواقع الاستراتيجية الحصينة، وتحديد موقع كل مرفق، سواء كان قصرًا أو ملعبًا، أو مكتبة، وكانت شوارع المدينة متوازية ومتقاطعة، وعلى والجانبين الحوانيت، وعند التقاء الشوارع الكبرى تقام أقواس النصر، فضلاً عن السوق، أو الساحة العامة، التي اعتبرت قلب النشاط الاجتماعي، والثقافي، والتجاري، وكانت تقام حول المعابد، بالإضافة إلى القلعة، مقر الحكم، وقلب المدينة، التي تعسكر فيها الحامية العسكرية، إلى جانب السور المنيع، الذي أحاط بالمدينة، كما كانت المعابد، ومعاهد الجمنزيوم، من أهم المرافق، فيما المسرح، وملاعب سباق الخيول، من أدوات التسلية والتثقيف، فاهتم الملوك بتزويد المدن بالمياه العذبة، وزرع الحدائق، وإقامة التماثيل، ما جعل مخططي المدن من المشاهير، كالأدباء

والفلاسفة، والعلماء[٤٠]، من أمثال هبودراموس.

لم يكن إنشاء المدن غريبًا على فلسطين، في العصر الهلينستي، فقد عرفت المدن، منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فيما في العصر الهلينستي، ازداد عدد المدن، وتطورها الحضاري والثقافي، والملك هو الذي منح الأرض، وأسهم في نفقات الإنشاء، في مقابل اعتراف المدينة بالملك، ودفع ما ترتب عليها من ضرائب وإتاوات، والمدينة مستقلة، داخليًا، تشرف على شؤونها بنفسها، من خلال مجلس، اختير أعضاؤه من بين المواطنين، بالقرعة، فضلاً عن الموظفين المنتخبين، لمدة قصيرة محدودة، واتضح استقلال المدن، من خلال أمرين، أولهما اتخاذ تاريخ تدوَّن بموجبه، فيما بعد، أحداث المدينة، وثانيهما حق سك النقود في دار ضرب تقام داخل أسوارها، وفي الغالب حصلت المدن على استقلالها بموافقة الملك، وفي سنوات الضعف مقابل مبلغ من المال، ومن المدن التي حصلت على استقلالها عسقلان، عام ١٠٤ ق. م. بالإضافة إلى ذلك، ثمة أنواع أُخرى من المدن، مثل دول الهياكل، والمستعمرات اليونانية [٤١]. فضلاً عن إنشاء مدن جديدة، طورت بعض المدن القديمة، وحولت إلى مدن هلنستية، وغيرت أسماءها، مثل عكا (بتولمايس)، في عهد بطليموس الثاني، وبيسان (سكيثوبوليس)، وأرسوف (بولونيا)، ويافا (يوبا)، ورفح، وغيرها من المدن التي سرعان ما طرحت كل المظاهر الهلينية، واستعادت صفتها الكنعانية، وأسماءها القديمة، باستثناء نابلس، التي لصق بها اسم " ينابوليس "، الذي أطلقه عليها الامبراطور الروماني، تيتوس، حين أعاد بناءها، وكان اسمها القديم " شكيم "، مع

هذا كان ثمة مدن لم يفلح الملوك اليونانيون في صبغها بالهلينية، ومن هذه المدن بيت المقدس، أما المدن التي تأسست خلال العصر الهلينستي، فهي مدينة فيلوتيريا، على بحر الجليل، في موقع خربة كرك، في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، بناها بطليموس الثاني، وأعطاها اسم أخيه، وكذلك مدينة جدارا، " أم قيس " الحالية، غربي إربد، ومدينة بيلا، مقابل بيسان[٤٢]، فيما قيسارية أسسها ملكان من صيدا، أحدهما عاش في القرن الرابع ق. م. والثاني معاصرًا للإسكندر، وقد عرف هذان الملكان باسم واحد هو (عبد - عشتروت)، وتحول إلى اليونانية، وأصبح ستراتون، وهو الاسم الذي عرفت به المدينة في وثائق زينون. وفي أحد أعمال الكاتب الإغريقي أرتيمودوروس، واعتبرها اليونانيون مركزًا ثانيًا للدفاع عن الساحل، كما كانت مركزًا للتبادل التجاري في البحر المتوسط، والبر، فقد اشتهرت بخمرها الجيد، وصباغة الأرجوان، والنجارة، والأثاث، واستيراد الأسماك من مصر وأسبانيا، إضافة إلى ذلك، فقد كانت ستراتون من المدن المستقلة، إلا أن الدمار أصابها على أيدي المكابيين، وأعيد تأسيسها، في العهد الروماني، على يد هيرودس الكبير. فيما كانت يافا أحد أهم المراكز الهلينستية في فلسطين؛ وبسبب صلاتها التجارية، مع جزر بحر إيجه، من أكثر المدن تقبلاً للحضارة اليونانية. واستوطنها عدد من اليونانيين، فضلاً عن أنها بمثابة نقطة دفاعية حصينة بالنسبة للبطالمة، فور استيلائه على فلسطين، للمرة الأولى، عام ٣٣٢ ق. م. وضع بها حامية مقدونية، فيما اعتبر السلوقيون يافا قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد البطالمة، كما اعتبرت بؤرة الثورة ضد حكم المكابيين، حتى أنه تم اقتحامها مرتين، وأجلى سكانها

اليونـان عـام ١٠٤ ق. م. فقد أقـام فـي مينائهـا، طبقًا لمـا جـاء فـي برديـات " زينـون "، كثيـر مـن التجـار والموظفين الإغريـق، وأطلـق علـى يافـا " سيدة البحـار والتجـارة البحريـة " وتبين لنـا ذلك من عملتهـا، التـي ظهرت عليهـا صورة الإله " بوسيدون " إله البحر [٤٣].

بعد أن قدمنا قراءة سريعة لأوضـاع فلسطين فـي العصـر الهلينستي، يمكن أن نرصد أهم ملامح تلك الفترة في النقاط التالية:

- إنـه، نظـرًا لـدور فلسطين التجـاري فـي العـالم القديم، اختلط أهلهـا باليونانيين، سواء كانوا من التجـار والبحـارة، أو الجنـود المرتزقـة، الذين استوطن بعضـهم المدن الفلسطينية، قبل مجيء الإسكندر.

- إن زوال الحكـم الإغريقــي، لـم يتبعـه انهيـار للحضــارة والثقافـة الهلينية، التي امتدت خلال العهد الروماني.

- إن ثمـة تفـاوت فـي انتشـار الهلينيـة، مـن منطقـة إلـى أخـرى داخـل فلسطين، فقد بقيـت الآراميـة، لغـة الشـارع عمومًـا، والريـف خصوصًـا، وحـافظ الشعب الفلسطيني علـى كنعانيتـه، فيمـا كانـت اليونـانيـة لغـة النخبـة المثقفة، أما العبرية فانحصرت داخل دور العبادة فحسب.

- إن ثمة اهتمامًا بتأسيس المدن الجديدة، وتطوير القديمة منها لتكون بمثابة مراكز لنشر الحضارة الهلينية.

- إن البطـالمة في مصـر كانوا علـى درجـة كبيـرة مـن الـوعي بأهميـة فلسطين، فخاضوا كثيرًا من الحروب مع السلوقيين، وتصـدوا لكل تـدخل أجنبي في فلسطين، التي اعتبروها مفتاح مصر من جهة الشرق.

- إن ما سمي بالثورة المكابية لم تكن من أجل تحرير أرض وشعب من حكم البطالمة، أو السلوقيين بل كانت ضد طبقة عليا، وتيار ثقافي هليني، وشعب عربي كنعاني.

* * *

مراجع الفصل العاشر

(*) اتفق المؤرخون على إطلاق اسم " الشرق الأدني " على المنطقة التي تفصل بين الشرق الأقصى، وبين جنوب أوروبا، والمنطقة الممتدة من النيل إلى الفرات، هي قلب " الشرق الأدنى ".

(١) سيد أحمد الناصري، **مصر والشرق الأدنى في العصر الهلينيسي**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩١، ص ٥ - ٦.

(٢) أحمد صدقي الدجاني، نظرة تحليلية في تاريخ فلسطين، الحلقة الثانية، **شؤون فلسطينية**، (بيروت)، عدد ٧٧، إبريل: نيسان ١٩٧٨، ص ١٢٤.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ١٢٥.

(٤) الناصري، **مصدر سبق ذكره** ص ٢١٥ - ٢١٧.

(٥) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، (انظر نقولا زيادة، **فلسطين من الإسكندر إلى الفتح العربي الإسلامي**، ص ١٤٤ - ١٤٥).

(٦) **المصدر نفسه**، ص ١٤٥.

(٧) الدجاني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٦.

(٨) يوسف سامي اليوسف، **تاريخ فلسطين عبر العصور**، دار الأهالي، دمشق، ١٩٨٩، ص ٩٢ - ٩٣.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٩٤ - ٩٥.

(١٠) عمر الصالح البرغوثي، وخليل طوطح، **تاريخ فلسطين**، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣، ص ٧٧ - ٨٠.

(١١) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: نقولا زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٣).

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٦٢ - ١٦٤.

(١٣) عبد الحليم محمد حسن، **تاريخ مصر في عصر البطالمة**، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٩١ - ١٩٢.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ١٩٣ - ١٩٥.

(١٥) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٤).

(١٦) الناصري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٥ - ٣٠٧.

(١٧) فيليب حتى، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق، ج١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(١٨) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٠ - ١٦٥).

(١٩) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٢.
(٢٠) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٩).
(٢١) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.
(٢٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٦ - ١٦٧).
(٢٣) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.
(٢٤) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٧ - ١٥٨).
(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ١٦٠.
(٢٦) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٩ - ٣٠٦.
(٢٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٨ - ١٤٩).
(٢٨) حسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٢٩) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٩ - ١٥٠.
(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ١٥٢ - ١٥٣.
(٣١) حسن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٨ - ١٩٠.
(٣٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٤٦).
(٣٣) الدجاني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٤.
(٣٤) الناصري، **مصدر سبق ذكره**، ٣٠٧ - ٣٠٩.
(٣٥) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٥.
(٣٦) الدجاني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٩.
(٣٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠).
(٣٨) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٢.
(٣٩) البرغوثي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣.
(٤٠) الناصري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٧ - ٣٠٠.
(٤١) الموسوعة، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥٤.
(٤٢) الدجاني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٨.
(٤٣) فيصل الخيري، **مدن فلسطينية**، المركز العربي للإعلام، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥٣ - ٥٤.

* * *

الفصل الحادى عشر

فلسطين تحت الاحتلال الروماني

الفصل الحادي عشر:
فلسطين تحت الاحتلال الروماني

نظيمة سعد الدين

حيثما نضع أقدامنا، فنحن إنما نمشي على التاريخ(*).

ينطبق هذا القول على الأرض الواقعة جنوبي سورية، وشرقي البحر المتوسط، أي فلسطين، فهي، أرض صنعت التاريخ، وصنعها، أيضاً(١).

إن القطر الذي يمثل ملتقى طرق العالم، ومفارقها، لا يسمح لبنيه بأن يهجعوا، أو يعرفوا الراحة، فالجيران الأقربون، والطامعون الأبعدون، لا بد أن يُحدثوا - دغدغة، أو لكزا، أو سلبا، أو نهبا، أو حربا، أو سبيا، أو تهجيرا. فكانت تجربة فلسطين، خلال القرون العشرة بين احتلال الاسكندر للبلاد والفتح العربي لها، تجربة فذة في أبعادها، وعناصرها، ونتائجها. ولعل العنصر الأول الذي يجب أن يذكر هو " المدينة "، وما يرافقها من تنظيمات وإدارة. ويذكر أن خلفاء، الاسكندر الاكبر، ورجالهم من الرومان، حملوا إلى فلسطين وسائل علمية، أكثر تقدماً من بعض ما عرف في المشرق من قبل. ففي النواحي المدنية أدخلت أساليب لبناء الطرق، وإقامة الجسور. وفي المجال العسكري، بنيت قلاع وحصون أكثر متانة من ذي قبل. وفي المجال الاقتصادي ادخل نظام النقد إلى

البلاد، وأنشئت المصارف، وطورت، ونظمت رابطات التجارة[٢].

بالنسبة للاسم، كتب هيرودوتس، قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون: "... يعرف هذا الجزء من سورية بفلسطين ". ومع مرور الأيام، حمل اسم " بالستين " محل الاسم الشامل: " سورية الفلسطينية ". وبهذا المعنى استخدم كلمة " بالستين " كل من المؤرخ اليهودي، جوزيفوس (٣٧ - ٥٩ م) وفيلو (٣٠ ق - ٤٠ م). وتوجد هذه الكلمة في العبرية، باسم " بلشيت ". وفي حقيقة الأمر، فإن اليونانيين هم الذين اختاروا هذا الاسم، وأصبحوا يطلقونه، على كل أجزاء فلسطين، وانتقل منهم هذا الاسم إلى الرومان، والبيزنطيين. وكان الرومان قسموا فلسطين، في سنينهم الأخيرة، إلى ثلاثة أقسام[٣]:

١ - بالستين الأولى، يطلق على يهودية.

٢ - بالستين الثانية، يطلق على الجليل.

٣ - بالستين الثالثة، يطلق على الأجزاء الباقية في جنوب البلاد.

لذلك نفرد الصفحات التالية لفلسطين في العهد الروماني، لأهمية تلك الفترة من تاريخ فلسطين، ويمكن لنا، من خلال التعرف على جذور فلسطين العربية، ومكافحتها للاحتلال، على مر العصور، لتكون نبراسا يضئ لنا بالامل، مستقبل فلسطين.

رومة تحتل فلسطين:

بدأت روما تتدخل في شؤون المشرق، منذ مطلع القرن الثاني قبل الميلاد؛ لأن ما أصاب الدولة السلوقية من الضعف بسبب الحروب

الخارجيــة والداخليــة، ومــا أصــاب منطقــة ســورية - الفلســطينية مــن اضـطراب وخـراب بسبب حـرب المكـابيين - ثـم انتصـار الرومـان عـل انطوخن الثالث، في معركة مغنيزيا (١٩٠ ق. م.)، شجع الرومـان علـى التدخل. وجدير بالذكر أن المكابيين أقامو صلات خاصة مع رومـا، حتـى قبل ان تصل جيوشها إلى سوريا. ومع ما كان لرومـا من ثقل ونفـوذ فـي حوض المتوسط الشرقي، فقد ظلت تدير الامور هناك مـن بعيد إلـى سنة (٦٥ ق. م)، ففي تلك السنة دخلت الجيوش الرومانية كيليكيا، في طريقها إلـى سـوريا وفلسـطين، وكانـت هـذه الجيـوش تحـت إمـرة بـومبي. وكـان بومبي قد اعتزم تصفية الدولـة السلوقية من جهة، وتنظيم غرب أسيا على الطريقة الرومانية من جهة أخرى [٤].

أرسل بومبى وكيله سكاوروس إلـى سـوريا، سنة (٦٥ ق. م.)، وقد التقى الوكيل، في دمشق، بالأخوين المتنافسين على عامة الجماعة الدينيـة في بيت المقدس، وهما هركانوس، وأرستوبولس، من الاسرة الحشمونية. فبعـد وفـاة الكنـدر سـلومه (٧٦ - ٦٧ ق. م)، تعرضـت الاسـرة الحاكمـة للانحطاط وحتى الاحتلال. فقد تولى هركانوس منصـب الكـاهن الأعظم، لكـن أخـاه ارسـتوبولس اخرجـه مـن بيـت المقـدس، وتـولى مكانـه فلجـأ هركانوس إلى ملك الأنباط. وقد أعانه هذا، كما جاءه العون من انتيباتر الادومى، وبذلك عزل ارستوبولس، لكن هذا اعتصم بالهيكل. وقد عرض كل من المتنافسين على القائد الرومـاني مبلغا من المـال، مقابل نصـرته. وانتهى الامر بأن أيد سكاوروس ارستوبولس في منصب الكاهن الأعظم. وفـي السنة التالية دخل بومبى نفسه سوريا، وقضـى شتاء (٦٤ - ٦٣ ق. م)

في الشمال، ثم انتقل في الربيع (٦٣ ق. م) إلى دمشق. وهناك استقبل مندوبا عن ارستوبولس (كان يحمل وعدا بمبلغ كبير) وأخر هو انتيباتر الادومى، وكيلا عن هرناكوس، ثم جاء الأخوان بالذات إلى خضرة بومبى. وقد وصل ثالث، يمثل فئات من الجماعة الدينية في بيت المقدس. وهذا طالب بإقصاء الأخوين عن السلطة، ووضع حد نهائي لأسرة الحشمونيين، وسيادتها، بسبب ما جرته هذه الاسرة على البلاد من نكبات[٥].

جدير بالذكر أن الشيء الذي اقتضى مجيء بومبى إلى القدس هو أن ارستوبولس لم يمتثل لوساطة بومبى، بل رجع إلى القدس يستعد للثورة، وقد نزع بومبى لقب (الملك) الذي انتحله حكام القدس في نهاية العهد السلوقي، ثم نصب " هيركانوس الثاني " كبير الكهنة، وقتل بومبى كثير، من اليهود المشاغبين، وأخذ معه أرستوبولس إلى روما، وحطم اسوار القدس، فوضع حدا للدولة اليهودية. وبتر بومبى الاجزاء الاخرى من أيدي اليهود، ونقلها إلى الحاكم الجديد، الذي أقامه في سوريا. واستمرت الأسرة المكابية في ظل الرومان[٦].

هكذا وضع بومبى حدا للصراع الذي شهدته مملكة يهوذا الصغيرة في فلسطين، بين الصدوقيين، وهم الكهانة. وكانوا متزمتين، فهم يتمسكون بحرفية " التوراة " الخمس كتب الأولى من العهد القديم، وكانوا يعادون الفارسيين الذين أضافوا فيضا من التقاسيم والسنن، والتقاليد الموروثة والتي نسخها الكتبة والاحبار من اليهود القدماء، وهم الذين وضعوا أساس " التلمود "، وكان معظمهم ينتمي إلى الطبقة الوسطى

والدنيا، والتي رفضت مشاعر التأغرق، والاخذ بأساليب الحضارة الاغريقورومانية، مثلما فعل الصدوقيون[٧].

لقد كان نجاح بومبى في الشرق الأوسط ساحقًا؛ لأنه، للمرة الأولى، ثبتت أقدام الإمبراطورية الرومانية في الشرق. وظلت هذه الاقدام ثابتة في سوريا، حتى انقسام وسقوط الإمبراطورية[٨].

وضع انتيباتر ابنيه - فصايل وهيرودس - على المسرح، فأعطى ادارة منطقة بيت المقدس، وبيريا لفصايل، وعهد إلى هيردوس بإدارة الجليل، وسمى كلا منها " ستراتغوس ". وقد أثار هذا التصرف حنق الكهنة والجماعة الارستقراطية في بيت المقدس. فجربوا أن يحاكموا هيرودس، لأنه قتل لصوصا، كانوا يعيثون فسادا في الجليل، دون أن يقدمهم للمحاكمة أمام (السنهدريم)، فكان في تصرفه تعد على حقوق هذا المجلس. لكن المجلس، في بيت المقدس، لم يجرؤ على ذلك، لأن هيرودس قاد فرقة عسكرية ضد بيت المقدس. ولولا تدخل أبيه (انتيباتر)، لكان اقتحم المدينة لتأديب المجلس أو معاقبته[٩].

حدث آخر أزعج الدولة الرومانية، في آذار/ مارس سنة (٤٤ ق. م) إذ اغتيل يوليوس قيصر، وجاء أحد المتآمرين عليه، كاسيوس، واليا على سوريا (٤٤ - ٤٢ ق. م.) فاستغل جميع مصادر الولاية المالية لمصلحته، الأمر الذي أثار استياء الجماهير السورية. وقد وقف انتيابتر إلى جانب كاسيوس، ولذلك ازدادت نقمة الجماعة الدينية في بيت المقدس عليه. وأخيرا سُم انتيباتر، نتيجة مؤامرة اساسها عداء شخصي (بسبب دفعه لأبنية لمسرح الأحداث). الا ان ابنيه كانا قد ثبتا مكانتيهما، بحيث

أن وفاة الأب لم تؤثر على مركزيهما. وقد تمكنا من قتل الشخص الذي دس السم لأبيهما. وعاد أنتيغولس (ابن ارستوبولس) إلى العمل العسكري، فهاجم الجليل، لكن هيرودس انتصر عليه، وأخرجه من المنطقة بأسرها. وهذا وثق الصلة بين هيرودس وهركانوس (الكاهن الاعظم) وجاءت سنة (٤٢ ق. م)، وحملت الفوز النهائي في معركة فيليبي لأنطونيوس، وأكتافيوس، ضد كل من تبقى من قتلة يوليوس قيصر، فأوكل أمر ادارة المشرق لأنطونيوس. وعندها تعددت الوفود إلى أنطونيوس من قبل الجماعة الدينية في بيت المقدس، أملا في أن يقصى فصايل أخاه هيرودس، ولكن المحاولات باءت بالفشل[١٠].

في سنة ٤٠ ق. م. هاجم الفرس البلاد. وفي هذه الاثناء كان حاكم إيدومية غير يهودي (أنتى بيتر) الأجنبي الجنسية، الذي سبق وأن ساعد اليهود في الحصول على دعم الانباط، وكان أن زاد سلطانه كثيرًا، عندما أصبح هيركانو - كبير الكهنة اليهودي - غير ذي أهمية. فأعطى القيصر " سيزار " أنتى بيتر المواطنه الرومانية، ومنحه لقب " حاكم يهودية "، سنة (٤٧ ق. م)، ونصب ابني أنتى بيتر، (فصايل) حاكما على القدس، و(هيرودس) حاكما على الجليل (شمالي فلسطين، حيث كانت إسرائيل). وقد قتل أنتى بيتر في القدس على يد اليهود. والاخ الثاني لهركانوس، (أنتى جونوس)، الذي كان يكافح للحصول على عرش القدس، اتصل بالقدس، وجاء مع جيشهم، وحاز على ثقتم، فنصبوه ملكا على اورشليم، وكبيرا للكهنة (وهو المنصب الذي ظل الحكام المكابيون يحتفظون به في الحكم الثيوقراطي). وانتحر فصايل، وهرب الأخ الثاني " هيرودس " إلى

روما، يستصرخ حلفاءه. واستمر أنتى جونوس، من الفرس، يحكم أورشليم ثلاث سنوات حكما مضطربا، إلا أن اليهود رحبوا به بسبب انتمائه إلى المكابيين، ورفضهم أسرة أنتى بيتر - التي كان يمثلها هيردوس - لأنها كانت غير يهودية. والحقيقة أن أنتى بيتر هذا كان قد أعتنق اليهودية، مضطرا للاحتفاظ بالحكم، ولاسترضاء اليهود[١١].

في روما أصدر مجلس الشيوخ قرارا بتعيين هيرودس ملكا على يهودية، سنة (٣٩ ق. م.)، ورجع هيرودس إلى فلسطين سنة (٣٩ق. م) وعقب ذلك بسنتين، استطاعت القوات الرومانية التي أتت مع هيرودس طرد الفرس (الذين ظلت لهم شعبية كبيرة في فلسطين). وقتل هيرودس، حين دخوله القدس بعد حصار خمسة أشهر، عددا لا يحصى من سكانها. وتزوج هيردوس من احدى بنات اسرة انتى جونوس، الا أنه قتل هذا الأخير، شر قتلة، حين وقع في أيديه، وكان ذلك بضرب رأسه بالفأس، وكانت هذه أول مرة ينزل فيها الرومان مثل هذا العقاب بملك ما. ومجئ هيرودس التابع للرومان، والايدومى غير اليهودي، اسبغ على فلسطين سلاما لم تنعم به، حتى في أيام الاستقلال. وقد اتسم عصر هيرودس الطويل (٣٧ ق. م - ٤ ق. م) بالرفاهية العامة، واستطاع استعادة الاراضي التي كان بومبى قد استولى عليها، نظم الادارة على النمط الهيلني. وكان هيرودس من أنصار الرومان، الذين كان يدين لهم في ارتقائه عرش أورشليم، وكان ضد " القومية اليهودية " لذا كرهه اليهود. وبعد موت هيرودس، عادت الفوضى إلى البلاد، بسبب كثرة أبنائه من زوجاته العشر، فأقام الرومان حكما مباشرا على البلاد[١٢]. كما سنذكر

لاحقا. ولكن قبل أن نذكر كيف تحولت فلسطين إلى ولاية رومانية، وجبت الإشارة إلى الولايات الرومانية، وإلى طبيعة العلاقة بين الولايات وروما، وهذا ما سنفرده فيما يلي:

روما والولايات:

كانت الوصمة التي يوصم بها رخاء إيطاليا - إذا أغضضنا النظر عن نظام الاسترقاق، الذي كان نظاما عاما في الدول القديمة - هي اعتمادها إلى حد ما على استغلال الولايات، لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدى لها الشيء الكثير، نهبا أو خراجا، ومن هنا نجد أن النهب والخراج كانا اصل الثروة التي نشأ عنها ازدهار المدن الايطالية. وكانت روما، قبل عهد قيصر، تعد الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح، وتعد سكانها رعايا رومانيين، ولم يكن منهم الا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان؛ وكانت ارض تلك البلاد بأجمعها ملكا للدولة الرومانية، يملكها اصحابها على أنها منحة لهم من قبل الحكومة الإمبراطورية، ومن حقها ان تستردها منهم. وأرادت روما أن تقلل من احتمال قيام الثورات في الأقاليم المفتوحة، فقسمتها إلى ولايات صغيرة، وحرَّمت على كل ولاية ان يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة، وكانت تفضل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا في جميع الولايات. وكان سر الحكم الروماني، وشعاره هو " فرق تسد " (١٣)

لقد اتبعت الإمبراطورية الرومانية خطة مرنة حكيمة، امكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة لسلطانها اقساما متفاوتة في المرتبة، وتقسيم

الأهلين في داخل كل ولاية إلى طبقات، متفاوتة القدَرْ، كذلك، كانت بعض البلديات كأثينة ورودس " مدنا حرة " تعطى جزية، ولا تخضع لحاكم الولاية، وتدير شؤونها الداخلية بنفسها، من غير أن تتدخل فيها رومة، ما دامت تحافظ على النظام الاجتماعي والسلم. وكان حاكم الولاية يجمع في شخصه السلطة التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، ولم يكن يحدُ من سلطانه إلا من المدن الحرة، وحق المواطن الروماني في أن يلجأ إلى الأمبراطور، والرقابة المالية التي كان يقوم بها الكوستر، أو الرقيب(١٤).

كانت جباية الضرائب أهم أعمال الحاكم وأعوانه، وقامت الدولة في عهد الإمبراطورية باحصاء عام في كل الولايات، بقصد فرض الضرائب على الأرض، وعلى الأملاك، ومنها الحيوانات، والعبيد.

وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج، فاستبدلت بالعشور خراجا محدد القيمة. ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضر اتب، وأن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية من الثغور، ويُشرِفون على الأعمال الجارية في غابات الدولة، ومناجمها، وعلى الاشغال العامة فيها. وكان ينتظر من الولايات أن تسهم بعمل تاج من الذهب لكل امبراطور جديد، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية، وأن ترسل، في بعض الحالات، سفنا محملة بالغلال إلى رومة. وكان للحكومة المحلية، أو للوالي، بمقتضى هذه العادة، أن " يطلب " إلى الأغنياء أن يقدموا قروضا للعرب، وسفنا للأسطول، ومباني للاغراض العامة، وطعاماً لضحايا القحط، ومغنين في الأعياد والمسرحيات(١٥).

وفاة هيرودس:

لما توفى هيرودس، ترك لأولاده الثلاثة وصية، بما كان تحت حكمة ملكاً. الملك لأرخلاوس، مع إدارة القسم الأكبر من فلسطين، ولانتيباس تتراخية الجليل وبيريا، وتتراخية البثنية والجولان، وجزء من خوران لفليب. لكن هذه الوصية كانت بحاجة إلى موافقة الامبراطور أغسطوس، قبل أن تصبح نافذة. وبعد عرضها عليه منح أغسطوس (أرخلاوس) ما أوصى به أبوه، لكنه لم يجعله ملگا بل اثنارخا، وانتزع منه غزة، وبعض المدن العشر، وألحق هذه بحكم والي سوريا. وجعل انتيبا مى تتراخا (حاكما) على الجليل وبيريا، فيليب (حاكما). على ما أوصى به أبوه له. ظل انتيباس في الحكم على تتراخيتة من 4 ق. م. إلى 39 م. وكان في تصرفه الشخصي يقتفي آثار أبيه، لذلك كثرت مشكلاته الشخصية والسياسية. ولما طلب من الامبراطنور كاليغلا (37 - 41 م) أن يجعله ملكاً، خلعه عن العرش، ونفاه إلى بلاد الغال (فرنسا). واحتفظ فيليب بالحكم في تتراخيته، حتى وفاته، سنة ٣٤ م. أما الذي أقصى عن الحكم قبل غيره، وبعد عشر سنوات، فقط، من توليته حكم تترارخيته، فقد كان ارخلاوص، الذي نفى إلى بلاد الغال، وذلك سنة 6 م. وكان لهيردودس حفيد هو أغريبا الذي نشر في رومة، وكان قريباً من أهل الحكم وحاشيتهم. فلما جلس كاليغلا على عرش الإمبراطورية (سنة 37 م)، جعل)غريبا والياً على ما كان في يد فيليب، وسماه ملكاً، ثم لما خلع كاليغلا انتيباس ضم ما كان تحت سلطته إلى أغريبا، ثم جاء كلود يوس إلى العرش (41 م) وكان يحب أغريبا أيضاً فجعل ما كان بيد أرخلاوس

الذي كان قد جعل ولاية رومانية تابعة كذلك لأغريبا. لكن أغريبا لم يعمر طويلاً، فمات سنة 44 م، وبعد ذلك (أصبحت فلسطين بكاملها ولاية رومانية)[١٦].

فلسطين ولاية رومانية:

لما عزل ارخلاوس من منصبه، سنة ٦ م، لم يجد أغسطوس من يملأ الفراغ من بيت هيرودس، لذلك ضمت المنطقة التي بأمره ارخلاوس إلى الإدارة الرومانية المباشرة. وكانت هذه المساحة تشمل الجزء الأكبر من فلسطين، فأصبحت البلاد جمعاء ولاية رومانية، وهو الوضع الذي استمر، حتى سنة ٦٦م. (تستثني من ذلك فترة قصيرة كان فيها اغرابيا، حفيد هيرودس وصديق الأمبراطور كاليغلا، ملكاً على البلاد ٣٧ - ٤٤م). وقد أطلقت الحكومة الرومانية ألقاباً مختلفة على أولئك الذين أرسلتهم لإدارة الولاية الجديدة (وكيل، حاكم، ووال) ومع انه كان لكل من هذه الألقاب معناه القانوني، ودلالته على طبقة الموظفين التي يختار منها، فان ذلك لم يكن له أية أهمية بالنسبة لفلسطين، في ذلك العهد. إذ أن المهم، برأيْ شورر، هو السلطات التي كان هذا الحاكم يتمتع بها. فقد كان يشرف على شؤون الولاية العسكرية، ويتولي السلطة القضائية العليا، ويدير الشؤون المالية[١٧].

كانت فلسطين، مثل أي أرض خاضعة لمغتصب، تقوم بثورات، أو بمقاومة ذلك المغتصب. وفي الجزء التالي، سنحاول رصد أهم الثورات التي قامت في فلسطين، في العهد الروماني، وأسبابها، وما نتج عنها.

ظل اليهود يكافحون، ولما مات ميرودس الأعظم، نبذ الوطنيون نصائح هلل السلمية، وأعلنوا الثورة على خليفتة أرخلوس، وعسكروا في خيام حول المعبد. فقتل جنود أرخلوس ثلاثة آلاف، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم، ليحتفلوا بعيد الفصح (4 ق. م) لكن الثوار عادوا إلى التجمع، في عيد العنصرة، وتعرضوا للقتل، وحرقت أروقة الدير، ونهب الجنود ما فيه من الكنوز، ثم تألفت عصابات من الوطنيين في الريف، وهددوا حياة كل من يؤيد روما، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة بوداس الحولوني استولت على صفورة، عاصمة الجليل. وزحف قادس، حاكم سوريا، على فلسطين، بعشرين ألفاً من رجاله، وهدم مئات من بلدانها، وصلب ألفين من الثوار، وباع ثلاثين ألفاً من اليهود في أسواق الرقيق. وذهب وفد من زعماء اليهود ال روما، وطلب إلى أغسطس أن يلغي الملكية في بلاد اليهود. فاستجاب أغسطس لطلبه، وعزل أرخلوس، وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية، وعين عليها حاكماً مسؤولاً أمام والي سوريا[١٨].

في سنة 66 م اندلعت في فلسطين حركة عصيان عنيفة ضد الحكم الروماني. على أن بذور هذه الحركات كانت تنمو، منذ مدة. وكان للحكام الرومان، على يبدوه في إثارة هذه الحركة، بسبب جهلهم، أو تجاهلهم. كما كانت هناك الضرائب المرتفعة. على أن العنصر الفعال في هذه الحركة جماعة، صغيرة نسبياً، لكنها نشيطة على غير استعداد للقبول بأي شي، فيه " الحضارة الجديدة "، أي الحضارة الهلينستية، التي استمرت تعمل في الاطار الروماني. فكان الصدام، الذي استمر من سنة 66 م إلى

سنة 74 م[١٩].

بدأت الثورة في عهد نيرون (54 - 68 م)، وكان فسبسيان أول قائد روماني عهد إليه بالقضاء علي العصيان. لكن هذا كان أخر إمبراطور (69 - 79 م) فانتدب ابنه تيطس قائدا مكانه، وقد أنهى تيطس الأمر، وهدم الهيكل، (سنة 70 م)، الذي كان هيرودس قد بناه مكان المعبد الأقدم، أو في مكان قريب منه وتولى تيطس العرش الروماني (79 - 81 م) بعد أبيه. وبعد القضا، على الثورة، ظلت الفرقة العاشرة (من الجيش الرومان) في بيت المقدس، وكانت أُرسلت، أصلاً، للقيام بمهات عسكرية، أثناء العصيان[٢٠].

كان أحد الضباط اليهود، الذين عُهد اليهم بقيادة حركة العصيان في الجليل، فلافيوس يو سيفوس، قد نجح، في بادئ الأمر، لكنه رأى، فيما بعد، أن يستسلم، ويوفر إزهاق الأرواح، وقد تم له أن سلّم نفسه إلى فسبسيان، لما كان هذا قا ئداً للجيش في فلسطين. ولا يهمنا الدور العسكري أو السياسي الذي قام به يوسيفوس، لكن المهم هو أن هذا الرجل، انصرف إلى وضع كتب (باللغة اليونانية)، عرض فيها لتاريخ الحرب هذه، ولتاريخ اليهود، مع ترجمة ذاتية له. وهذه المؤلفات ذات قيمة خاصة، في التاريخ لهذه الفترة، التي عاصر يو سيفوس أحداثها، وأسهم فيهاه عملياً[٢١].

في سنة 73 م كانت كل أنواع المقاومة قد انتهت، وأطلق الرومان اسم " يهودية " على كل فلسطين، أي إطلاق الجزء، على الكل، وأصبح يديرها قائداً الفيلق الروماني السادس. ".. وعقب تدمير أورشليم " لم يتخذ

الرومان الغزاة وسائل قمعية خاصة، بل على العكس من ذلك، حاولوا أن يكسبوا اليهودى، كرعايا، وذلك باستخدام الرفق الذي كان قد أثبت نجاحه في قضية الشعوب الأخرى، التي تم إدخالها إلى الإمبراطورية. ولكنهم (الرومان) حاولوا ذلك دون اللجوء إلى النفوذ العازل للحاخامية. وقامت انتفاضات صغيرة، هنا وهناك، ورغم أنها أخمدت، بسهولة، كانت إحداها تلك التي أخدها تراجان، إلا أنها أظهرت للرومان أنه وجب عليهم أن يعاملوا شعباً مشاغباً ومتضايقاً. وفي النهاية قرر هادريان محق هذه (القومية اليهودية) العنيدة. وأصدر مرسوماً يمنع بمقتضاة قراءة القانون (التوراة) واحترام السبت، وسنّة الختان، وعقد العزم على تحويل أورشليم، المدمر نصفها، إلى مستعمرة رومانية [٢٢].

ثمة ثورة حدثت حوالي (132 - 135 م) وأُسميت (ثروة باركوخبا)، نسبة إلى اسم قائد الحركة، ولا يعرف أصل هذا الرجل، اسمه الحقيقي هو " سيمون "، إلا أنه حصل على اعتراف بأنه " المسيح "، من جانب أقوى حاخام، من ذلك العصر " اليبابن يوسف "، واجتمع تحت لوائه مائتا ألف يهودي، هجموا على القدس واحتلوه، ثم احتلوا - حاميات ومراكز رومانية أخرى " في مختلف أنحاء البلاد [٢٣].

لقد جذب جيش باركوخبا متطوعين من يهود كل البلاد. والذين لم يتمكنوا من الخدمة، شخصياً، ارسلوا بكنوزهم. وحتى غير اليهود انضموا إلى القوات المتمردة، وإن أحجم مسيحيو فلسطين عن الاشتراك في تلك الثورة. وأرسل هادريان جيشاً كبيرًا - استدعاه من بريطانيا - لمواجهة الطغيان اليهودي. وهزمهم الرومان، واعملوا فيهم سيف القتل.

وبعد اخماد الثورة، أقام هادريان مدينة وثنية على أورشليم، وأقام بها هيكلاً وثنياً للجوبيتز، على نفس مكان " المعبد القديم "، ومنع هادريان اليهود من دخول المدينة. وكان الامبراطور أوريليوس قد سمح لليهود بدخول القدس لأداء الصلاة. أما اليهود الذين، بقوا عقب الغزو الروماني، فكان مركزهم أكبر إلى حد ما من أولئك الخارجين على القانون(٢٤).

معروف بأن فلسطين عادت إلى الحكم العربي، لمدة ثلاث سنوات، وذلك حين غزت الملكة العربية، زنوبيا، سنة 270 م، سائر فلسطين، وسوريا، ومصر. وكانت قد بدأت الغزو، بحجة إعادة مصر إلى روما، ووصلت الحاميات التدمرية، حتى شاالسيدون المواجهة لبيزنطية، وحين ارتقى " أورليان " العرش الروماني، تنبه إلى خطر التدمريين وإلى أخطار سياسة زنوبيا، فنزع منها مصر، ثم سار إلى قتالها، وبعد معارك طويلة، استسلم التدمريون، وحين ثاروا، ثانية، بعد عدة أشهر من عودة أورليان، رجع هذا الأخير، ودمر " تدمر " نهائياً. وهكذا انتهت سيطرة العرب، ثانية، على بلادهم، سنة 273 ، بعد أن أثبتوا بذلك حقهم عليها(٢٥).

النشأة الأولى للمسيحية:

ظهر للمسيحية اتجاهان، بعد انشارها الأول المحدود، فقد كان المسيحيون، خاصة في بيت المقدس، ونجد أن اليهود لم يقبلوا السيد المسيح على أنه " المسيا " المنتظر، فقد كانوا يعتبرون هؤلاء المسيحيين " خوارج " على الدين اليهودي، لذلك اعتدوا عليهم، واضطهدوهم، لكن ذلك لم يفتّ في عضدهم. وهذه الجماعة المسيحية (المسيحية اليهودية)،

التي نظَّمت نفسها، نسبياً، في بيت المقدس، هي التي خرج منها الكثيرون من الرسل والمبشرين الأوائل. أما المسيحية الهلينية فقد بدأت في القدس، أيضًا، لكن سرعان ما ظهرت خصائصها في انطاكية (وفي هذه المدينة سمي المسيحيون بهذا الاسم، لأول مرة). وأبرز ما في هذه الخصائص أن هؤلاء المسيحيين لم يروا أنفسهم " طائفة يهودية " أو " فئة يهودية " هذه المسيحية هي التي اعتبرت نفسها ديانة جامعة عامة. وقد تخلت عن الطقوس اليهودية. ويعتبر بولس أكبر المفسرين لها. لكن يجب أن يذكر هنا أن النوعين - المقدسي والأنطاكي - كانا متفقين حول الأصول[٢٦].

يمكن تقسيم الفترة الأولى لانتشار المسيحية إلى ثلاثة أدوار: أولاً تلا أيام المسيح، مباشرة، وسمى " عصر الرسل " (30 - 95 م). وكانت بيت المقدس المركز الأول للجماعة المسيحية، هذا مع العلم بأن الأماكن التي بشَّر فيها المسيح أكثر أيامه، وعمل فيها تلاميذه، كانت في الجليل. وامتد الدور الثاني نحو قرن، من نهاية القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني الميلاديين، وقد كان انتشار المسيحية فيه خارج فلسطين أسرع. أما فلسطين فقد كانت أبطأ في قبول المسيحية، ولعل السبب يعود إلى مقاومة اليهود لها. وينتهى الدور الثالث باعتناق قسطنطين المسيحية، سنة 312 م[٢٧].

قاد اليهود الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون، وخاصة في بيت المقدس، وبضع نواح في فلسطين، وليس لدينا أي وثيقة تدلنا على موقف الدولة الرومانية من هذه الجماعة، وتعاليمها، في أول الأمر. ولعل القائمين بالأمر في فلسطين من حكام وإداريين، ظلوا يعتبرون هؤلاء

المسيحيين فريقًا يهودياً، حتى هدم تيطس الهيكل، في بيت المقدس. عندها اتضح بأن هناك فرقاً بين المسيحيين واليهود، لأن الأولين لم يتأذوا من الذي حدث. وهؤلا، كانوا يعقدون اجتماعاتهم في أماكن نائية عن المجتمع، ما أثار حولهم بعض الشبهات، وأهمها التآمر على سلامة الدولة. فطالب البعض بمحاكمتهم. ومما كان يثير بعض الفئات ضد المسيحيين أنهم كانوا ينظرون إلى الألهة الأخرى نظرة صغار، وإلى عُبَّادها نظرة احتقار. فكانت الجماعات الأخرى تهاجمهم، وتوقع الأذى بهم. وقد تمثل موقف الخصومة ضد المسيحية في أمور ثلاثة: أولها قيام بعض السكان ضد المسيحيين، غيرة منهم على آفتهم، ولطالما كبدوا المسيحيين خسائر فادحة. وثانيها دحض دعاوى المسيحيين في كتب، ألفت خصيصاً لذلك، والثالث هو الاضطهاد الرسمي، الذي كان يتم بأمر الامبراطور. وفي الدور الثاني من انتشار المسيحية (95 - 180 م) عرف ستة من الأباطرة باضطهاد المسيحيين. ولن ندخل في تفاصيل هذه الاضطهادات " ولكن يبدو أن عمل ديسيومى (249 - 51)، مع أنه لم يدم سوى سنة واحدة، كان من أشدها بالنسبة للمشرق، فاستشهد في أيامه أساقفة القدس، وأنطاكية، ومصر، وشمال أفريقيا، وأسيا الصغرى أجمعين. والاضطهاد المعروف بالكبير، هو الذي جاء في أيام ديو قلتيان، وكان ذلك في أواخر حكمه (303 م). وقد ورد في الأمر الذي أصدره أن تهدم بِيَع المسيحيين، وتمزق كتبهم المقدسة، ويخرج الموظفين منهم من خدمة الدولة، ويُسترقوا [٢٨].

جدير بالذكر أن الخصومة التي نشأت بين أهل الفكر والفلسفة، الوثنيين والمسيحيين، جعلت الوثنيين يوجهون انتقادات وحملات ضد المسيحية، ودارت الانتقادات حول أن المسيحيين خصوم للمدنية، واعتناق المسيحية يضعف الأخلاق الغافلة، وأنها خالية من الفكر الفلسفي، ولعل من أطرف ما اتهمت به المسيحية، هو أنها حديثة العهد، ومن ثم فلا مكانة لها بين الأديان والمعتقدات العريقة[٢٩].

نظم الحكم والإدارة:

لعل من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية بأنها تتألف من مجموعة من دول - المدن، تحكم نفسها بنفسها، إلى حد ما، فضمت كل منها لحدودها أراضي واسعة، تمتلكها، وتسيطر عليها، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات. ورادفت الوطنية في هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته، أكثر مما عنت حبه للإمبراطورية.، وكان الأحرار في كل مدينة يقنعون، في الأحوال العادية، بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة، وقلما كان الذين نالوا حقوق المواطنية الرومانية، من غير أهل رومة، يذهبون إلى تلك العاصمة، ليعطوا أصواتهم في الانتخابات، ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة في العاصمة، مصحوباً باضمحلال مماثل له في مدن الإمبراطورية، كما تدل على هذا بمبى نفسها. وامتلكت معظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ، حظيت بعض المدن الشرقية بمجالس تشريعية، تسن قوانينها وجمعيات تختار حكامها، و كان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال، نظير تفضلها عليه أن يكون حاكمًا لها. وقد جرت العادة،

أيضًا، أن يتبرع، من حين إلى حين، ببعض المال، للأغراض أو الألعاب العامة. واذا كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجرًا، فإن ديمقراطية الأحرار - أو أرسقراطية الأحرار - قد استحالت، في كل مكان تقريباً، فالمناصب يتولاها ذوو المال والجاه[٣٠].

كان الأباطرة، من أغسطوس (27 ق. م - 14 م) إلى فيليب العربي (244 - 249)، يعملون باستمرار على بناء المدن الجديدة من جهة، ومنع الرعوية لمدن قديمة من جهة أخرى. وجدير بالذكر أن الأباطرة قاموا برعاية المدن الجديدة التي بنوها. وقد وضع كركلا حدًا للفروق بين الأحرار، المقيمين في الإمبراطورية، بأن منح هؤلاء جيعاً الرعوية الرومانية، وصدر الأمر بذلك، سنة 212 . وثمة أمران يجب أن يذكرا عن حاكم فلسطين، قبل البحث في التفاصيل المتعلقة بإدارته. أولهما أنه لم يكن تابعاً لوالي سوريا، الذي كان أرفع مكانة في سلم الحكم. إلا أن الوالي كان يسطيع أن يتدخل، عند الحاجة، وخاصة إذا كانت الحاجة العسكرية، دون استئذان رومة، أما الأمر الثاني، فهو أن عاصمة هذه الولاية كانت قيصرية. هناك كان الحاكم يقيم، ومن هناك كان يدير الولاية، أما بيت المقدس فكان يتفقد أمورها، بين الفينة والفينة، إلا أنه كان عليه أن يقضى أيام الأعياد والمواسم الدينية هناك، للحفاظ على النظام[٣١].

لقد امتلك الحاكم السلطة العليا في الشؤون القضائية. وتجلت هذه السلطة في براءة التعيين التي يصدرها الامبراطور عند انتدابه وكيلاً عنه لهذا المنصب. ومع أن الحاكم كان القاضي الوحيد، فإنه غالباً ما لجأ إلى

أصحاب الخبرة من أبناء البلد. وغدا من المألوف أن يشرك الحاكم الموظفين من الرومان، الذين جاؤوا معه، خصوصاً أن كثيرين من هؤلاء كانوا يرسلون مع الحاكم، كي يدربوا، إدارياً، تهيئة لانتدابهم لوظائف أكبر في المستقبل. وللحاكم أن يصدر، وينفذ جميع أنوع الأحكام، ومن ذلك الحكم بالإعدام. إلى جانب الإشراف على السلطتين، العسكرية والقضائية، كان الحاكم يشرف على الشؤون المالية: جمعاً للضرائب الباهظة، واتفاقاً على المشاريع العامة، ودفع الرواتب لكل من يستحقها. وقد كانت الضرائب، والمكوس منوعة، وبحجفة بالناس. أما المكوس فجمعت عن طريق التلزيم، كما تم اللجوء إلى هذا الأسلوب في جمع الضرائب، أيضًا (٣٢).

تميزت الإدارة الإمبراطورية بأن الموظفين الذين تولوا شؤون الدولة، من كبار الوزراء إلى صغار الموظفين الماليين أثبتوا أنهم كانوا أهل اقتدار وكفاية. ومن ثم فقد غلب على العمل الإداري السير المنتظم. وبالنسبة لفلسطين فإن أهم ما تم، في تلك الفترة، هو العناية بتطوير الإدارة. ويبدو لنا أن الرومان كانوا، من نظرتهم إلى التطوير الإداري، محافظين، أكثر مما يبدو للوهلة الأولى. فنحن نقرأ عن تبديل، وتغيير، وتطوير في الإدارة، ولكن الهيكل الأصلي العام ظل ثابتاً، وقوامه أمور ثلاثة: إن الوالي، في العصر الروماني، كان يمثل السلطة المركزية العليا، أي الملك؟ وهو في الدرجة الأولى، صاحب الكلمة الأخيرة، وخاصة فيما يتعلق بالشؤون القضائية، والمالية. والأمر الثاني، أنه داخل حدود الولاية، بالذات، كانت ثمة من لها إدارتها المدنية الخاصة. ومن

هذا النوع مدن مثل بيسان، وقيصرية (الساحل)، ونابلس، وسبسيطية، وصفورية، وعكا، وغزة، وبيت جبرين. وهذه المدن كانت لها إدارة ذاتية حرة، وأهم امتيازاتها سك النقود. كما كان لهذه المدن أرض، اقتطعت داخل الولاية، بل دخلت الأقضية، بالذات، وكانت في واقع الأمر، قرية، أو دسكرة تابعة للمدينة، لا اقتصادياً فحسب، ولكن إدارياً، أيضاً. والأمر الثالث هو أن السلطان، ملكاً كان أو شبه ملك، يعين أو يختار محليًا، مثل هيرودس، وله ضياع ملكية (أو أميرية)، يديرها ويستغلها ادارة الملك الخاص. وجدير بالذكر أن فلسطين حوالي سنة 400 م، أو بعد ذلك بقليل، أصبحت مقسمة، إدارته إلى أقسام ثلاثة: فلسطين الأولى، وفلسطين الثانية، وفلسطين الثالثة (أو الصحراوية، أو الداخلية، أو الآمنة). وظل سهل عكا، بأكمله، ومنطقة حيفا جزء من ولاية فينيقيا(٣٣).

سبقت الإشارة إلى إصلاح المدن القديمة، وإنشاء المدن الجديدة في فلسطين، ولذلك نُجمل فيما يلي ذكر تلك المدن(٣٤):

١ - المدن، التي يعود الاهتمام بها إلى بومبي، وغابينوس (أواسط القرن الأول قبل الميلاد)، عكا (بطوليمايس) ودورا (الطنطورة)، وعسقلان، وغزة البحرية (ميوماس) ورفح (رفيا)، وبيسان (سكيتو بوليس)، وأرسوف (أبو لونيا)، ويافا (يوبه).

٢ - المدن التي يعود بناؤها إلى هيرودس (37 - 4 ق. م)، وهي: قيصرية فلسطين (أو الساحلية)، وذلك تمييزاً لها عن قيصريات كثيرة في الإمبراطورية الرومانية، وسبسطية (السامرة)، واللجون في فلسطين (ليغنيومكسيما نوبوليس)، ورأس العين (أنتيباتريس)، وجبع، قرب جبل

الكرمل (وهذه هي المدينة، وهي غير جبع القرية، التي كانت تابعة لسبسطية).

٣ - طبرية، من أيام طبيباريوس (١٤ - ٣٧م).

٤ - منشآت، من أيام فبسيان، إلى أيام ترا جان (69 - 7 ١١م)، وهي نابلس (شكيم القديمة)، وصفورية، (التي سميت دبوسيزارية).

٥ - أيام هدريان (١١٧ - ١٣٨م)، وتمثلت إنجازاته في بناء، إيليا كابيتولينا (بيت المقدس).

٦ - أيام سبتيموس سفيروس (١٩٣ - ٢١١م)، الذي ينسب إليه بناء اللد(ديوسبوليس)، وبيت جبرين (اليوتيروبوليس).

٧ - وبعد ذلك، بنيت عمواس (نيكوبوليس)، إكراماً لرجاء يوليوس الإفريقيى، الذي رئس وفداً إلى الامبراطور الكسندر سفيرؤس (٢٢٢ - ٢٣٥م).

الحياة الاقتصادية:

عندما تنحدث عن الحياة الاقتصادية في فلسطين في العهد الروماني، يجدر بنا أن نناقش الحياة الاقتصادية في فلسطين قبل احتلال روما لها. والطبيعي عند التحدث عن الحياة الاقتصادية، أن نتعرض لأهم عنصر من عناصر الاقتصاد، ألا وهو الزراعة، فهي في أغلب الأزمنة التاريخية، المورد الرئيس لحاجات السكان.

قدرت مساحة فلسطين مع (بيريا من شرقي الأردن) بنحو مليون هكتار (أي نحو ١٠٠.٠٠٠ كم مربع). وقد قدرريفنبرج الأجزا، التي

كانت تُستغل، في العصور القديمة، بما يعادل 65 - 70% من المساحة. وبسبب ارتباط كثير من المنتجات الزراعية بالقرابين، التي كانت تقدم في المواسم والأعياد، فإننا نجد معلومات لا بأس بها تتعلق بالنتاج الزراعي. فخير اصناف الطحين (للفطير)، والشعير المستخدم في صناعة الخمور [٣٥]، كانت هناك. ومن ناحية أخرى، نجد أن الزراعة كانت أساس حياة الروماني، فقد كان يقيم المدن، لتكون مجتمعاً للزراع، يتبادلون فيها محصولات أرضهم، وينظم جيوشه، ودولته، على أساس استعداد الروماني للدفاع عن أملاكه، وتوسيع رقعتها، ويفكر في آلهته على أنها أرواح الأرض الحية، والسماء المغذية. وقد اهتم الرومان بالزراعة، إلى حد كبير، مما جعلهم يستوردون كتباً في الزراعة العلمية، من بلاد اليونان، ومن قرطاجنة. وبحانت الأرض تزرع حبًا فخضارًا، ثم تترك، من حين إلى حين، مراعي، حتى لا يستنفد خصبها.

وقد تميز الرومان بجودة محاصيل معينة، مثل العدس، والفول، والحمص، والثوم، والخضر، والكروم، والتين، والزيتون، الذي استبدل بزيتة الزبد في الطعام، وبالصابون في الاستحمام، واستخدم في الإضاءة، ودهان الشعر، والجلد، لحمايته [٣٦]. وعندما أتى الرومان إلى أرض فلسطين، أدخلوا محاصيلهم إليها، وكذلك اهتموا بجلب محاصيل من بلدان أخرى إلى أرض فلسطين. واهتموا كذلك بتربية الحيوان، مثل الأبقار، والخراف، والماعز، وذلك لارتباطها بالتقدمات والقرابين، وكان الحليب يستعمل في صناعة الجبن [٣٧].

أما ما كانت البلاد تستورده من المواد الغذائية، بانتظام، فشمل السمك المملح، والمجفَّف، من مصر، وأسبانيا، والخراف من الأردن، خاصة في المواسم الدينية. فقد نقل أبلباوم عن تاجر أدومي، اسمه بابا بن بوتي، أنه جاء بثلاثة آلاف خروف، في أحد المواسم. وكان الملح يُحمل من مصر، ومن سوريا، ومن سدون (زغر)، جنوبي البحر الميت. وفضلاً عن المواد الغذائية، كانت فلسطين تستورد الفخار الإيطالي، والسلال، والحبال، والبردى من مصر، والزجاج، والقنَّب، والأقمشة الخشنة من المناطق السورية(٣٨).

على أن ما كانت تصنعه فلسطين لم يكن يكفي للتصدير فالأقمشة الكتانية، التي كانت تصنع في قيصرية وبيسان، لم تكد تكفي للاستهلاك المحلي. لكن الإنتاج الزراعي كان يعرض في الميزان التجاري. فزيت الزيتون، والخمور، والتمور، وزيت الورد، والبصل (العسقلاني)، والحنَّاء، والبلسم، كانت أشياء مرغوبة في الجوار، وحتى في الأماكن البعيدة، ولطالما أرسلت بعض المواد الخام من فلسطين إلى الخارج، وأهمها القار من البحر الميت، والرمل الناعم من منطقة عكا، الذي كان يُستعمل في صنع الزجاج. إلى ذلك تم تصدير كميات صغيرة من الأقمشة، الخشنة والرقيقة. وكان هناك رابطات على مدن القوافل، بل كانت توجد في الموانئ، أيضاً. وقد كان لرابطات صوره وبيروت فروع في إيطاليا. وكان لغزة مثل هذا التنظيم البحري(٣٩).

أما موارد الخزينة في الولاية، فكانت تعتمد على عدد من الاحتكارات الرسمية، شأنها في ذلك شأن غيرها من الولايات الرومانية،

وهذه السياسة هي، في واقع الأمر، استمرار للسياسة، التي أدخلها اليونان إلى المنطقة في العصر الهلينستي، وقد أدخلت عليها تعديلات كانت، على الأرجح، في مصلحة الحكومة. ومن الأشياء التي كانت تخضع للاحتكار أصلاً، البلسم، إنتاجاً وتصديراً. فقد أصبحت مزارعه ملكاً للدولة. وكان صيد السمك من الاحتكارات المهمة. وساعدت أنوع مختلفة من الضرائب، والرسوم الجمركية، خزينة الدولة، بطبيعة الحال. فمن الضرائب المباشرة، التي تجمع عن طريق موظفي الحكومة، الجزية، وضريبة الأرض. أما بالنسبة لشؤون النقد، في هذه الفترة، ففي القرن الرابع كان في الإمبراطورية خمس عشرة دار لضرب العملة، أما في القرن الخامس، فقد انخفض العدد إلى ست، منها أربع دور لسك النقود الفضية، وداران لسك النقود الذهبية. وعاد فارتفع إلى اثنتي عشرة داراً، في القرن السادس. أما في أيام هرقل، فقد أقفلت أكثر دور الضرب. واقتصر سك النقود على القسطنطينية. ولعل أهم ما طرأ على النقود المسكوكة ما يتعلق فيها بالنقد الذهبي. وإذا سكت قطعة نقد ذهبيه سميت سوليدوس، وكانت قيمتها 25 ديناراً. وسكت قطعتان من النقد الذهبي أيضًا، الواحدة تريمسيس، وتساوي ثلث سوليدوس، والثانية سيميسيس، وتساوي نصف سوليدوس. وقد شاعت القطعة النقدية الأولى، أما الثانية والثالثة، فلم تلق في السوق الإقبال ذاته[٤٠].

ثمة سؤال يطرح نفسه، وهو: ترى إلى أي حد حاولت الحكومة، في عهد الإمبراطورية، أن تسيطر على الحياة الاقتصادية؟

لقد حاولت أن تعيد ملكية الأرض إلى الفلاحين، ولكنها عجزت عن ذلك، إلى حد كبير. ولقد كان الأباطرة في هذه الناحية أكثر استنارة من مجلس الشيوخ، لأن هذا المجلس كان خاضعاً لسيطرة اصحاب الضياع الكبيرة. وأراد دوميان أن يشجع زراعة الحبوب في إيطاليا، ولكنه لم يفلح فيما كان يرمى اليه. وكانت السياسة الاقتصادية الرومانية تسير على مبدأ التخلي مع استثناء امتلاك الدولة للمناجم، ومقالع الأحجار، ومصايد السمك، ورواسب الملح، ومساحات واسعة من الأراضي المنزرعة[٤١].

الحياة الاجتماعية:

وصل تقدير الإنسان للمال في رومة، إلا أقلية، لا يعتد بها، المال، حد العبادة، وخاصة أصحاب المصارف. وبالنسبة للطبقات، في ذلك الوقت، فقد انحصرت في طبقتين أساسيتين، الأولى: طبقة " رجال الشرف "، أو رجال المناصب، وهذه الطبقة كانت تضم الشيوخ، والفرسان، والحكام، والموظفين، ولقب كل ما عداهم " الأدنياء " أو " الضعفاء ". وتألفت هذه الطبقة، وقتئذ من رجال الأعمال، الذين لم يرشحوا للعضوية في طبقة أخرى، ومن العمال الأحرار المولد، والفلاحين الملاّك، والمدرسين، والأطباء، والفنانين، والعبيد المحررين. ولم يحدد الإحصاء، طبقة الصعاليك، حسب أعمال أفرادها، بل كان يحدها حسب مولدهم. وقد وصفتهم إحدى الرسا ئل القديمة بأنهم " السوقة "، الذين لا يقدمون للدولة إلا الأطفال، كان الكثيرون منهم يعملون في الحوانيت، وفي المصانع، وفي تجارة المدن[٤٢].

عند دخول الرومان إلى البلاد، موظفين، وجنودًا، وتجارًا، وهؤلاء كانوا يأتون للعمل، لكنهم لا يلبثون حتى يستقروا، ويصبحوا جزءًا من سكان فلسطين. وكلمة " الرومان "، عندما نستعملها، لا تعني، بالضرورة، أفراداً روماني الأصل. فنحن عندما ندرس تكوين الفرق الرومانية التي عهد إليها بحراسة ثغور البلاد، وحمايتها، والمحافظة على الأمن في البلاد نفسها، نجد أنها مكونة من جميع أصناف السكان في الإمبراطورية الرومانية - من المغرب إلى حوض الدانوب، إلى القبائل الجرما نية التي استقرت هناك مثل القوط إلى المشرق. [٤٣] وقد أثرت الحضارة اليونانية في مدن، مثل رفح (رافيا)، وغزة، وعسقلان، ويافا (جبا)، وأبلونيا والسامرة، وقيصرية. وكانت هذه المدن، رغم وجودها في فلسطين، نصف يونانية في مكانها، تسودها لغة اليونان، وثقافتهم، وأنظمتهم، والصورة التي تطالعنا لسوريا، تحت الحكم الرومان، بما فيها فلسطين هي صورة البلد الرخي، رخاء آدوم من رخاء ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية. وكان معظم أهلها من الأحرار، لا من كان يقوم منهم بالخدمة في البيوت. وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية (كما أشرنا سابقاً)، أما الطبقات الدنيا، فقد احتفظت بطابعها الشرقي، وقد اختلط الفلاسفة اليونان في المدينة الواحدة بعاهرات الهياكل، والكهنة، وقد ظل الأطفال، حتى أيام هدريان، يُضحَّى بهم قرباناً للآلهة. وكانت التماثيل المنحوتة، والصور الملوَّنة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية، وعليها طابع العصور الوسطى[٤٤].

الحياة الفكرية والتعليم:

لم تعن المدينة اليونانية بالتعليم. وقد اهتمت الدولة الرومانية بالمدرسة كمؤسسة تفتح أبوابها لقبول صغار التلاميذ. لذلك كان التعليم، في تلك المرحلة، في العالم اليوناني - الروماني، مسؤولية الآباء الشخصية، فكانوا يقومون بتعليم أبنائهم، إذا كان هذا في مقدورهم، أو أنهم كانوا يبحثون عن المعلم، ويدفعون له مكافأة لقاء تعليم هؤلاء الصغار. إلا أن التعليم العالي، كان أمره يختلف. فقد عفيت سلطات المدينة بمؤسسات التعليم العالي، كما اهتم ملوك العمر الهلينستي بذلك. فأنشأت في المدن - العواصم في أثينا، وروما، والاسكندرية، وغزة مثلاً مؤسسات للبحث العلمي، ومكتبات غنية. ثم انتشرت المؤسسات التعليمية، وازداد عددها، فتعدتها المدن الكبرى. ولما اتخذت القسطنطينية عاصمة، صارت لها جامعة، عين فيها ثلاثة عشر أستاذاً للدارسات اللاتينية، وخمسة عشر أستاذًا للدراسات اليونانية. واشتملت المناهج علم الغراماطيق، أي علم النحو، والبلاغة، والفلسفة، وقد تدخل فيه العلوم الطبيعية، أيضًا [٤٥].

في زمن الإمبراطورية الرومانية كان التعليم والبحث العلمي على اختلاف موضوعات الدراسة، يدوران في إطارين لغويين: واحد يوناني، في الشرق، والآخر لاتيني في الغرب، مع تشابك في الحدود اللغوية، بالنسبة للحدود السياسية. كان هناك، في الأطراف الشرقية للامبراطورية، والبلاد المتاخمة لها، فئة ثالثة كانت تستعمل اللغة السريانية في تعليمها الديني المسيحي، والبحث العلمي، والتأمل الفلسفي،

والجدل المسيحي. واستحدث انتشار المسيحية، في القرون الأولى من عصر الإمبراطورية، جواً من الخلاف بين المسيحية وما ألفه الناس، فلا الدولة قبلت بهؤلاء الذين لم يعترفوا بنظراتها الدينية، ولا الوثنيون أدركوا المبادئ الجديدة، التي حلتها المسيحية إلى العالم، ولا اليهود رأوا شيئاً يتفق مع نظراتهم(٤٦).

يسرت الإمبراطورية الرومانية للسكان فيها حرية التنقل، في مجال واسع. فكان مجتمعها مجتمعًا مفتوحاً، وتنقل الناس من مكان إلى آخر، سعياً وراء الرزق، أو للمتعة، أو للتعلم. ومنذ القرن الرابع، خصصت رحلة لزيارة الأرض المقدسة. هذا التنقل شمل جميع أنواع السكان، ولعل المشتغلين بالعلم والتعليم، وكبارهم خاصة، كانوا من أكثر الأفراد تنقلاً. ذلك أنهم كانوا يتخيرون المدارس التي يعملون فيها، من بين المدارس المتنوعة، فينتقلون من مدرسة إلى أخرى، أكبر، أو أشهر، وأغنى. فالفلسطيني المدَّرب في غزة، أو قيصرية، مثلاً، يتجه، إذا رغب، إلى لقسطنطينية، أو بيروت، أو حتى أثينا، ليعلم هناك. ومثل لذلك يقال في مدارس فلسطين، بالذات، التي كان يطمح الكثيرون في مناصب التعليم فيها بسبب ما كانت توفره من مرتب، ومقام، وهدوء نسبي. ويرى الباحثون أن فلسطين أُتيحت لها الفرصة لأن تكون مدارسها في مقدمة مدارس الإمبراطورية. فقد اجتمع لهذا القطر الصغير عدد من المكتبات الكبيرة، في بيت المقدس، وقيصرية، وغزة. وكان في قيصرية مدرسة تعد الطلاب في شؤون البلاغة، والآداب القديمة، ومعهد تعلم فيه الموضوعات المسيحية(٤٧).

مما سبق يظهر لنا الدور الذي لعبته فلسطين، في تلك الفترة، والتي كانت بمثابة الكعبة التي يحج اليها الطامحون في المجال العلمي لما تملكه من جامعة، ومكتبة، زاخرة بنفائس الكتب، وبما أنها قبلة طالبي العلم في العهد الروماني.

ثمة نقطة جديرة بالإشارة، وهي أن التعليم، في المرحلة العالية من التعليم الروماني، كانت تعنى بتعليم الخطابة، والبلاغة، على الطريق الإغريقية؛ لأن تعلم الثقا فة الإغريقية اعتبر المرحلة العالية في نظام التعليم الروماني. وأحياناً كان التعليم يشمل علم قياس الأرض، والموسيقى، إلى جانب الخطابة، والبلاغة. ولم تتدخل الدولة، بتاتًا في التعليم، حتى عصر فسباسيا نوس، عام 69 ميلادية، عندما جعل الدولة تتكفل، لأول مرة، بدفع رواتب معلمي البلاغة، الإغريقية والرومانية[٤٨].

تنتهي مرحلة التعليم العادي عند بلوغ الابن سن السادسة عشرة، أو الرابعة عشرة، حيث يقام، في السابع عشر من شهر مارس / آذار من كل عام (عيد الفتية). وفيه يخلع الفتيان رداء الطفولة، وهي العباءة ذات الأطراف المزركشة الأرجوانية، ويضعون، بدلاً منها، عباءة الرجال، ويذهبون، لأول مرة، إلى القورم الروماني، حيث يقيدون أسماءهم في قوائم المواطنين. وجدير بالذكر أن بعض الشباب كانوا يبدأون المرحلة التأهيلية من التعليم، حيث يختار الابن إما المجال السياسي والمدني، حيث يعهد به إلى خبير من السياسة والإدارة، يصحبه إلى قاعات المحاكم، وإلى اجتماعات الفورم، أو المجال العسكري، حيث يعهد به إلى معلم عسكري يدربه، مبدئياً، على العسكرية، من أجل أن ينضم إلى صفوف

الجيش، فيما بعد، ليعمل ضابطاً فيه[٤٩].

من الشخصيات العلمية التي عرفتها غزة، مطرانها بروفوريوس (395 - 420م)، وزوسيموس، الذي كان معاصرًا للإمبراطور زينون (457 - 574م). ومنهم إينياس، الذي صنَّف كتبه في ثمانينيات القرن الخامس، وبروكوبيسوس، معاصرًا لإمبراطور أنستاسيوس (491 - ٥١٨)، وتلميذه كروكيوس. وكان آخر رجال غزة الكبار، يوحنا معاصر حبستنيان (527 - 565). لقد ولد بروكوبيوس في الإسكندرية (حوالي سنة 465)، وتعلم في مدرستها، ثم دعى لتدريس البلاغة في غزة. وظل هناك، إلى حين وفاته (527). وهناك زنوبيوس، المولود في ألوسا (الخلصة) في النقب، كان أستاذاً للبلاغة في أنطاكية. وكان سيريكيوس النابلسي من أساتذة البلاغة في أثينا[٥٠].

نضيف إلى لائحة الأسماء، يوسابيوس القيصري المؤرخ، ابن قيصرية فلسطين، وكان أحد المقربين من الامبراطور قسطنطين، ابيفانيوس، من بيت جبرين، وتيمونستيوس العسقلاني، الذي وضع معجما لاتينياً، وألف كتاباً في النحو. وهناك عالمان آخران من عسقلان، زوسيموس، وبطليموس. واثنان من قيصيرية، ها يوزيوس، وجيلاسيوس، وهناك، أيضاً، صفرونيوس التلحمي، وأنطيوخس العكي، وكيرلس المقدسي وهو غير الذي مر بنا. فهذا فلسطيني الأصل، لكنه عمل في أسيا الصغرى. وممن عُرف بمقدرته الفائقة، وعلمه الغزير، صفرونيوس (وهو غير صفرونيوس التلحمي، المار ذكره)، الذي تولى

بطريكية القدس (634 - 638)، وسلَّم المدينة المقدسة إلى الخليفة عمر بن الخطاب[٥١].

مثلت مدرسة غزة أرفع ما وصلت إليه المعرفة الكلاسيكية والمسيحية، في المشرق، في القرن السادس، حيث قامت بدور مهم في الحفاظ على الفكر الهليني، ونقله إلى المتعلمين، والإفادة من هذا التقليد نفسه، لتوضيح الفكر المسيحي. وقد عرفت مدرسة غزة، في القرن السادس، عددًا من المعلمين، والعلماء، كان الأبعد صيتاً، بينهم بردكوبيوس، وكوريكيوس [٥٢].

لعل البعض يتساءل عن الصلة بين مدرسة غزة، ومكان المدينة، وزوَّارها. هل كانت المدرسة مجمعاً أكاديمياً، يقتصر العمل فيه على أساتذة يدرسون، وتلاميذ يتعلمون، والجميع ينقبون ويبحثون فحسب؟ وقد نجد الجواب في عبارة لكوريكيوس نفسه، وردت في أمدوحته الثانية لأسقف المدينة " مركيانوس " أنه يتحدث عن الأسواق، وما فيها، ومن يقضي وقته فيها والاحتفالات والأعياد التي كانت تقيمها المدينة. هذه الاجترا عات قديمة ووثنية، لكن غزة حافظت عليها، بعد أن جعلتها مسيحية الروح. كانت هذه المواسم جميعها مناسبات يحضر فيها القوم الاجتماعات، ليصغوا إلى ما يُلقى فيها من خطب، ووعظ، وشعر. ومع أن الجمهور هو الذي كان يحضر فإن ذلك لم يعن هبوطاً في المستوى الفكري، أو الأدبي، أو الفني. ويتضح بأن أثر غزة كان يصل إلى أنحاء مختلفة من فلسطين، وقد يتجاوز حدودها، أيضًا[٥٣].

بالنظر إلى ما سبق، نجد أن التاريخ يعيد نفسه، فاليهود هم اليهودى، قديمًا.. قاموا بالاتصال بالرومان، لكي يأتوا إلى فلسطين، ويستقووا بهم في بناء دولتهم، واليوم يستقووا بأمريكا، لكي تستمر انتهاكاتهم لحقوق الشعب الفلسطيني. ونجد أن الوجود الروماني في فلسطين قد أثرى النواحي الحضارية، والفكرية منها خاصة، كانت متعة لسكان المدن. صحيح أن عدداً لا يستهان به من القرى أو البلدان رفع إلى درجة مدينة تكريمًا للسكان، أو إرضاء للزعماء، وهذا كان الأجزاء الشرقية، وبذلك أتيح لها أن يكون بها مسرح، وجمنازيوم، وما إلى ذلك، لكن هذا كان شيئاً ظاهرياً فحسب. وظلت هذه قرى كبيرة، وقد أسرع الخراب إليها، لأن نفقات الصيانة فيها كانت أكبر مما تستطيع " القرية " أن تتحملها. وظل الريف متأخراً بعض الشيء. أما الذي نفع فلسطين، إلى درجة كبيرة، فهو أن البلد صغير، والاتصال بين أجزائه يسير، وكانت فيه، في أوقات كثيرة، ثروة من التجارة، فكانت فيه مدن لا يستهان بها، في النقب، وفي أجزاء شبيهة بذلك. لكن الريف مع ذلك، ظل هو الذي يدفع الثمن الأكبر لما كان يقوم به الحكام من حروب، أو بناء، أو ما يتمتعون به من عيش خفيض.

فالضرائب كثيرة، وطرق جمعها قاسية بالنسبة للفلاح. فقد ظل يشقى ويُظلم.

كان اتصال " القصر "، بوصفه مقر الإدارة الإمبراطورية، بالشعب الفلسطيني، يتم عبر أجهزة متنوعة. فكان هناك الوالي، الذي كان يُعين من القسطنطينية، أو من ينوب عنه في الوحدات الأصغر. وفي بعض الجهات،

وفلسطين الثالثة كانت منها. كان الممثل المحلي للامبراطور، أي الحاكم، هو القائد العسكري (سواء سُمي سترا تغوس أو دوكس)، الذي كان يجمع بين الإدارة العسكرية والمدنية. هذان، أي الوالي، ومندوب الامبراطور، كانا حاكمين معينين.

ليس هناك شك في أن الحروب التي قامت، في تلك الفترة، لم يكن لأهل فلسطين فيها مصلحة قط، لذلك فقد زادت من نقمة السكان على الدولة.

* * *

مراجع الفصل الحادي عشر

(*) مقولة للخطيب الروماني، شيشرون.

(١) ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٥ - ١٦.

(٢) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: نقولا زيادة / فلسطين في العهد الروماني، ص ٢٤٠ - ٢٤٢).

(٣) خان، **مصدر سبق ذكره**، ١٨ - ٢٠.

(٤) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٤).

(٥) **المصدر نفسه**، ص ١٧٥.

(٦) خان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٤.

(٧) سيد أحمد على الناصري، **تاريخ وحضارة الرومان**، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩١، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٣٢٣.

(٩) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٦).

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ١٧٧.

(١١) خان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٤ - ٨٥.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٨٦ - ٨٧.

(١٣) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، المجلد السادس، قيصر والمسيح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٢٦.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٧ - ٢٨.

(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٨ - ٢٩.

(١٦) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٨ - ١٧٩).

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(١٨) ديورانت، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(١٩) **المصدر نفسه**، ص ١٨٩ - ١٨١.

(٢٠) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨١).

(٢١) **المصدر نفسه**، ١٨١ - ١٨٢.

(٢٢) خان **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٩ - ٩١.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٩١ - ٩٢.

(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٩٢ - ٩٤.
(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٩٤ - ٩٥.
(٢٦) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٢ - ١٨٤).
(٢٧) **المصدر نفسه**، ١٨٤.
(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١٨٥.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ١٩٥ - ١٩٧.
(٣٠) ديورانت، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢ - ٢٦.
(٣١) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٠).
(٣٢) الناصري، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٤ - ١١٠.
(٣٣) الموسوعة الفلسطينية **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٢ - ٢٠٣).
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٣ - ٢٠٧.
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٨٦ - ١٨٧.
(٣٦) ديورانت، المجلد الخامس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٨ - ١٦٠.
(٣٧) الموسوعة الفلسطينية **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٧).
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ١٨٨ - ١٨٩.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ١٨٩.
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص ١٨٩ - ١٩٢.
(٤١) ديورانت، المجلد الخامس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٧.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ١٣٩ - ٢٤٢.
(٤٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر زيادة **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٢ - ٢١٣).
(٤٤) ديورانت، المجلد السادس، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٨ - ١٢٦.
(٤٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٥).
(٤٦) **المصدر نفسه**، ص ٢١٥ - ٢١٦.
(٤٧) **المصدر نفسه**، ص ٢١٦ - ٢١٨.
(٤٨) الناصري، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٢.
(٤٩) **المصدر نفسه**، ص ١٠٣ - ١٠٤.
(٥٠) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زيادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٤ - ٢١٦).
(٥١) **المصدر نفسه**، ص ٢١٦ - ٢١٧.
(٥٢) **المصدر نفسه**، ص ٢١٧ - ٢٢١.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

* * *

الفصل الثاني عشر

فلسطين في عهدة الإسلام

الفصل الثاني عشر:
فلسطين في عهدة الإسلام

عبد القادر ياسين

بعد ست سنوات في المعارك، تخللتها انتكاسات عدة، تمكن القائد البيزنطي، هرقل، سنة ٦٢٨، في استرجاع سورية - ومدينة الرها في شماليها، موطن آبائه - بعد أن كانت قد وقعت في أيدي الفرس، وبعد أن كان خسرو الثاني (الفارسي) قد اجتاحها (٦١١ - ٦١٤م)، وأعمل فيها النهب، والدمار، أينما توجه؛ وفي ١٤ سبتمبر / أيلول ٦٢٩ م، أعاد امبراطور بيزنطة الصليب إلى القدس، فنادوا به محررًا للمسيحية، ومعيدًا لوحدة الإمبراطورية الشرقية[١].

في هذه الأثناء، كانت فرقة من نحو ٣٠٠٠ مقاتل عربي مسلم، تشن غارة على بلدة مؤتة، إلى الشرق من الساحل الجنوبي للبحر الميت وقاد الغارة زيد بن حارثة، لكنه استشهد فيها. وفي السنة التالية (٦٣٠م) قاد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، بنفسه، حملة على واحة تبوك، في شمالي الحجاز. وأمَّن الأهالي هناك على أنفسهم، على أن يدفعوا جزية سنوية وشملت البلدات المستهدفة كلاً من أيلة، ومقنا (على خليج العقبة)، وأذرح (بين البتراء، ومعان)، فالجرباء (على مسيرة ساعة من أذرح،

شمالاً) [٢]. وكان الهدف الحربي من هذه الحملة إجراء " بروفة " لفتح بلاد الشام، وتحضير المناطق المومأ إليها إلى رأس جسر للفتح.

لقد دعمت القبائل العربية النصرانية، المقيمة في جنوبي سورية (نظير / جذام / وقضاعة) الفتح الإسلامي، بعد أن استبد السخط بتلك القبائل، بسبب إيقاف هرقل منحة مالية كانت تدفع لتلك القبائل، مقابل حراستها الحدود. فيما أهمل هرقل أمر الحصون على الحدود الجنوبية، ما سَّهل للفتح مهمته [٣].

ما كان للفتح الإسلامي إلا أن يمتد ليشمل فلسطين، بعد أن تم ذلك الفتح لمعظم بلاد الشام [*]، أولاً حتى يتخلص العرب المسلمون من الشوكة البيزنطية في خاصرتهم ببلاد الشام، وثانيًا، حتى يزيل العرب المسلمون عقبة كأداء تعترض طريقهم إلى شمال أفريقيا، بدءًا من مصر. ولم يجد العرب المسلمون عناءً كبيرًا في فتح فلسطين، بسبب تدهور أوضاع الحكم البيزنطي فيها، اقتصاديًا، وسياسيًا، وعسكريًا، ومذهبيًا (مسيحيًا). ما جعل أهالي فلسطين يزدادون سخطًا على الحكم البيزنطي، وينفضُّون من حوله، في انتظار المخلّص.

غني عن القول بأن الفتوحات الإسلامية إنما هي جزء متمم، وتنفيذي، لفريضة الجهاد في سبيل نشر الإسلام، المنبثق عن مبدأ عالمية الدعوة [٤]. دون أن يلغي هذا الدافع الاقتصادي وراء تلك الفتوحات [٥].

لقد نُسب إلى الخليفة الراشد، أبو بكر الصديق ☺ أنه ألح على القائد أبي عبيدة بن الجرَّاح - حين أرسله للمشاركة في فتح بلاد الشام - بأن

ينشر جنده في القرى، ويتجنب محاصرة المدن، إلا بتعليمات من الخليفة نفسه، كأني بأبي بكر يريد محاصرة المدن بالقرى، إلى أن تتراخى قبضة السلطة البيزنطية في المدن، أكثر فأكثر، ففي القرى زاد المدن، وفي القرى، أيضًا، فلاحون يرزحون تحت عسف وضرائب الحكم البيزنطي الباهظة. فضلاً عن أن الفلاحين في معظمهم - يتحدرون من أصول عربية، ما يجعلهم مهيئين للتناغم مع الفتح الإسلامي. لذا، تم للفتح الإسلامي دخول قرى فلسطين، سلمًا (٦).

ما أن اطمأن أبو بكر إلى ولاء القبائل العربية النازلة على التخوم الشمالية لدولته، حتى انتقل، في المرحلة الثانية من الفتح إلى ضرب المركز المدنية الأكبر، والتي تضم عربًا وغيرها (٧).

كان أول صدام بين جيش العرب المسلمين - بقيادة عمرو بن العاص - وجيش البيزنطيين، عن قرية داتن، قرب غزة، وكانت الموقعة الثانية بين جيش العرب المسلمين، بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وبين الجيش البيزنطي، بقيادة بطريق غزة، وقد هُزم البيزنطيون، وقُتل قائدهم (٨).

بعد أن أتم خالد بن الوليد فتح بُصرى (سورية)، سلمًا (٦٣٤م)، سار خالد وبقية القادة العرب المسلمين، باتجاه فلسطين، حيث التقوا عمرو بن العاص، الذي كان يواجه تجمعًا كبيرًا للجيوش البيزنطية (٩).

معروف أن الخليفة أبا بكر قد وجه جيوشه (نحو ٢٤ ألف مقاتل)، لفتح بلاد الشام (أواخر ٦٣٣م)، على النحو التالي (١٠):

- إلى فلسطين، عبر الساحل، بقيادة عمرو بن العاص.

- إلى الأردن، بقيادة شرحبيل من حسنة.
- إلى دمشق، بقيادة يزيد بن أبي سفيان.
- إلى حمص، بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح.

سلك عمرو بن العاص، بقواته، الطريق الساحلي، الذي دأبت على أن تسلكه القوافل التجارية (طريق المُعْرِفة)، المؤدية من مكة والمدينة إلى دمشق. وهي الطريق التي يسلكها، اليوم، الحجاج العائدون من الحجاز إلى المدن السورية، وبذا تكون أول بلاد وقعت تحت الحكم الإسلامي هي تلك الواقعة شرقي نهر الأردن، والبحر الميت. وقد تلا فتح دمشق، وما حولها، فتح الجليل، وغور الأردن، وفلسطين [١١].

انتهى ابن العاص إلى إيلة، عند رأس خليج العقبة، قبل أن يخترق النقب، ويصل إلى النقب، فقريتي داك، ويادَن، قرب غزة. وتمكن ابن العاص من الانتصار السهل السريع على قوى حملية تصدت لقواته. ونزل ابن العاص بقواته في " غَرة العربات "، بوادي عربة، بين البحر الميت وخليج العقبة، حيث عمل على إخضاع القبائل البدوية في النقب.

حين وصل يزيد بقواته إلى البلقاء في الأردن، أرسل مجموعة من مقاتليه - بقيادة أبو أمامة الباهلي - إلى العربة، من أرض فلسطين، وهزمت تلك المجموعة قوة بيزنطية، مكونة في نحو خمسة آلاف مقاتل، يقودهم سرجيوس[١٢].

جمع البيزنطيون قوات كبيرة، قرب أجنادين [*]، يتقدمهم القُبقُلار، الذي كان هرقل استخلفه على أمراء الشام، حين سار الأول إلى

القسطنطينية، وسرعان ما اندلعنت معركة أجنادين الشهيرة (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣ هـ ٦٣٤/٧/٢٩م). فكانت أولى المعارك الكبيرة بن العرب المسلمين والروم البيزنطيين. وفيها انتصر العرب المسلمون، ولكن بثمن بشري فادح، وطارد العرب المسلمون فلول البيزنطين حتى فحل، على الضفة الشرقية للأردن، قرب بيسان، وبعد أن حاقت بالبيزنطيين هزيمة ساحقة، بخسائر بشرية هائلة (نحو عشرة آلاف قتيل)، طلب أهالي فحل الأمان، مقابل دفعهم الجزية، والخراج، فأمَّنهم القائد أبو عبيدة بن الجرَّاح. وانسحب البيزنطيون إلى دمشق، فتعقبهم العرب المسلمون، وأوقعوا بالبيزنطيين هزيمة أُخرى في مرج الصفَّر، قرب دمشق (١٤هـ - ٦٣٥م)، وكان يقود البيزنطيين ثيودور، شقيق هرقل [١٣] واندحر البيزنطيون إلى دمشق، في صدهم العرب المسلمون، الذين تصدوا لنجدة أرسلها هرقل من القسطنطينية إلى دمشق، فهزمها جيش (العرب المسلمين) قبل أن يتمكن هذا الجيش من فتح دمشق (رجب ١٤هـ، سبتمبر / أيلول ٦٣٥م). ثم دارت معارك سجال، بين كروفر، إلى أن كانت معركة اليرموك الشهيرة الفاصلة، بقيادة خالد بن الوليد، وعلى الميمنة القائدان، عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وعلى الميسرة القائد يزيد بن أبي سفيان. وفي هذه المعركة أحرز العرب المسلمون انتصارًا حاسمًا (رجب ١٥ هـ، سبمتبر/ أيلول ٦٣٦م). وكانت نسبة مقاتلي العرب المسلمين نحو ربع مقاتلي أعدائهم. وترك هرقل، بعد معركة اليرموك، بلاد الشام، مرغمًا [١٤].

لعل من فضلة القول بأن لعمرو بن العاصي يعود الفضل في فتح معظم أرض فلسطين (غزة/ سبسطية/ نابلس/ اللد/ يُبنى/ عمواس/ بيت جبرين/ يافا/ ورفح). وعززت قوات أبي عبيدة قوات ابن العاص، التي ضربت حصاراً حول بيت المقدس، طال أمده، إلى أن طلب أهلها تسليم مدينتهم، بعد أن أرسل ابن العاص رسالة إلى القائد البيزنطي، طلب منه فيها التسليم [١٥] وقد سخِر الأخير من ابن العاص، مشيرًا إلى أن الذي سيفتح القدس اسمه مكوَّن من ثلاثة حروف، وليس في أربعة حروف. وعندما يئس البيزنطيون من جدوى المقاومة، طلب البطريرك صفريونوس أن يكون التسليم للأمير، فظن ابن العاص بأنه المقصود، لكن صفريونوس رفضه، مشددًا على ضرورة أن يتم التسليم للخلفية عمر ☺ ، الذي أعلمه القائد أبو عبيدة بن الجرَّاح بطلب صفريونوس، فخف الخليفة عمر إلى الجابية، وعقد الصلح مع المقدسيين [١٦]. وحين بلغ عمر جبلاً يشرف على القدس، كبَّر من فوقة الراحلة، ومن يومها سمي ذاك الجبل " جبل المكبرِّ ". ثم بلغ عمر سور المدينة المقدسة، وقد وقف نصاراها - يتقدمهم البطريرك صفريونوس - فسجدوا لعمر، لكن غلام عُمر نهرهم، وأفهمهم بأن السجود لا يكون لغير الله، وحده. هنا انتحى صفريونوس ناحية، وبكى، لكن عمر طيَّب خاطره. وخاطب عمر أهل إيلياء، مؤكدًا لهم بأن " لكم ما لنا، وعليكم ما علينا ". ولما أدركت الصلاة الخليفة عمر، وهو في كنيسة القيامة، رفض الاستجابة لطلب البطريك صفريونوس بأن يصلي حيث هو، ورد: " ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة، فيأتى المسلمون بعدي، ويقولون: (هنا صلى عمر، ويبنون

مسجداً). وابتعد عمر عن الكنيسة، مرمى حجر، وفرش عباءته، وصلى. فكان مسجد عمر، لاحقاً. ثم أعطى عمر عهداً إلى أهل القدس، عُدَّت - بحق - نموذجاً فريداً في تاريخ الإنسانية كله للتعامل بين غالب ومغلوب، حيث أمَّنهم الخليفة عمر على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم، وعلى أن " لا يسكن بإيليا معهم، أحد من اليهود "، مقابل دفع النصارى الجزية، وأن يُخرجوا اللصوص، ومن لا يريد الإقامة في القدس من الروم والبيزنطيين. وقد شهد على " العهدة العمرية "، كل من القادة: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وقد أعطى عمر عهداً مماثلاً لأهل اللد، وبقية المدن الفلسطينية[١٧].

كانت قيسارية آخر مدينة فلسطينية يفتحها ابن العاص (١٩ هـ / ٦٤٠ م). فيما فتح معاوية بن أبي سفيان عسقلان، صلحاً (٢٣ هـ / ٦٤٤ م)، حين كان والياً على الشام. وإبان خلافة عثمان بن عفان أسكنها معاوية العرب، وأقطعهم بها، بأمر من الخليفة[١٨].

اتخذ المقاتلون العرب المسلمون من الرملة قاعدة لهم، كما أسكن الخليفة ابن الخطاب مقاتليه في القدس، وجعل علقمة بن حكيم أميراً على نصف فلسطين (" جند فلسطين "، أي الولايات العسكرية الفلسطينية)، وحاضرتها الرملة، فيما أمَّر ابن الخطاب علقمة بن مجزَّر على نصف فلسطين الآخر (الأردن). وأنزل ابن الخطاب ابن مجزَّر القدس، وأقطعت الدولة مقاتلي جيشها الأراضي[١٩].

لقد ظهرت أمام العرب المسلمين معضلة إدارة البلاد التي فتحوها، وهم بلا تجربة سابقة في هذا الميدان، وبعد اجتماعات عقدها عمر مع

قادته، استقر الرأي على إبقاء العرب المسلمين، في البلاد المفتوحة، بمثابة أرستقراطية دينية - عسكرية. ودفع الأهالي (أهل الذمة) الجزية (ضريبة الدخل)، والخراج (ضريبة الأراضي)، وإن أعفوا من الجندية، التي بقيت حكراً على المسلمين. أما " الفيء " فانحصر دفعه في المسلمين. وقد اختلفت نظام الضرائب من قطر لآخر، بحسب طبيعة التربة، وتبعاً للنظام المحلي السابق (بيزنطياً كان أو فارسياً) (٢٠).

كما سبق وأشرنا إلى أن الخليفة عمر قسَّم - في سنة الفتح - سورية إلى مقاطعات عدة، وحملت كل مقاطعة اسم " جند "، وقسمت سورية إلى خمسة أجناد، وهي: جند دمشق، وإلى الشمال منها جند حمص، وجند قنسرين، وإلى الغرب، والجنوب الغربي من جند دمشق، ثمة جند الأردن، الذي شمل الجليل، وبحيرة طبريا، والغور حتى البحر الميت. وإلى الغرب من جند الأردن، جاء جند فلسطين، وشمل كل الأراضي الواقعة إلى الجنوب من سهل عكا، وإلى الغرب غور الأردن، والبحر الميت، وإلى الشرق من البحر المتوسط، وإلى الشمال من برية التية، والطريق المؤدية إلى مصر. وأما البلاد الواقعة إلى الشمال من نواحي دمشق، فقد كوَّنت جنداً واحداً، دعي جند حمص، باسم أكبر مدينة فيه. وقد اتفقت هذه التقسيمات مع التقسيم القديم، الذي أوجده الرومان البيزنطيون، وقد وجده العرب المسلمون قائماً، عند الفتح، وأبقوا عليه. وقد أشار قانون جستنيان إلى أن هذا التقسيم يرجع إلى القرن الخامس الميلادي (٢١).

لقد كان طبيعياً أن يترأس الجند القائد الأعلى، والحاكم العام، الذي جمع في شخصه كل السلطات، التنفيذية، والقضائية، والعسكرية. وإن أبقى على هيكل الجهاز الحكومي البيزنطي، على حالة، واحتفظ بالموظفين من أهل البلاد. أى أن الحكومة العربية الإقليمية، في دورها البدائي، كانت حكومة عسكرية محضة، ذات هدف مانح واضح [٢٢].

لم يعكّر صفو الاستقرار والأمن في فلسطين إلا أصداء الصراع على الخلافة، منذ وصول عثمان بن عفان إلى منصب أمير المؤمنين، وحتى اغتيال خليفته، على بن أبي طالب.

معروف بأن عمرو بن العاص قد وليَّ على فلسطين، ليخلفه عبد الرحمن بن علقمة الكناني، ولما مات الأخير ضم فلسطين إلى والي الشام، آنذاك، معاوية بن أبي سفيان. لكن الخليفة عاد وعين علقمة بن مجزّر والياً على فلسطين، قبل أن يلحقها خلفه، الخليفة عثمان بن عفان، مرة أخرى إلى معاوية. وحين أفلتت " للفتنة الكبرى " من عقالها، زمن الخليفةعثمان، الذي قُتل، وخلفه على بن أبي طالب، لاذ ابن العاص بقرية عجلان الفلسطينية، إلى أن استعان به معاوية ضد الخليفة عليَّ بن أبي طالب، وإن فشل معاوية في انتزاع البيعة لنفسه. ثم نشبت معركة صفّين بين الخليفة عليَّ وبين معاوية، ثم اغتيل الخليفة عليَّ (٧٢٤ / ٦٦١ م)، فآلت الخلافة لمعاوية، على النحو المعروف [٢٣].

تبقى ثمة ملاحظات مهمة في أمر الفتح العربي الإسلامي لفلسطين، لعل أهمها أن ذاك الفتح لم يأتِ وفق خطة مرسومة، وتدبير مسبق [٢٤]. وقد ضحى المسلمون، في سبيل فتح بلاد الشام - بما فيها فلسطين - بنحو

خمسة وعشرين ألف مقاتل، خلال حروبهم مع الروم البيزنطيين، " مما جعل ثمن هذه البلاد عليهم [العرب المسلمين] عالياً، والدماء الغزيرة التي أُهدرت في فتحها عزيزة " [٢٥].

أما وقد غدت سورية قاعدة عسكرية عربية إسلامية، فإن جيشًا عربيًا إسلاميًا انطلق منها، بقيادة عياض بن غَنْم، نحو الشمال الشرقي، وقام بأعمال حربية، بين سنتي ٦٣٩، ٦٤٦م، أخضع بها بلاد ما بين النهرين، ففتح الطريق إلى شمالي غربي فارس، وما وراءها. قبل أن يزحف جيش آخر، بقيادة عمرو بن العاص، في اتجاه جنوبي غربي، ثم له به، بين سنتي ٦٤٠، ٦٤٦، إخضاع مصر. ومنها استؤنفت، بسهولة، الأعمال الحربية في شمال أفريقيا، وأخيرًا في الأندلس، فيما غدت آسيا الصغرى عرضة لغارات العرب المسلمين[٢٦].

إلى ذلك ليس من المبالغة القول بأن الفتح العربي الإسلامي لسورية ساوى، في أهميته التاريخية، فتوحات الاسكندر الأكبر، التي حوَّلت الحياة الحضرية في سورية والأقطار المجاورة - لنحو ألف سنة - نحو الغرب، واتسمت تلك الأقطار بطابع ذالك الغرب. أما الفتح الإسلامي، فاستبدل بالغرب الشرق، عبر الصحراء، وحلت الصلات بمكة والمدينة محل الصلات بروما وبيزنطية، وفي مدى عقد من الزمان، بدَّل الفتح العربي الإسلامي وجه الشرق الأدني، وعلى مدى قرن بدَّل وجه العالم المتمدن. لقد غدا الفتح العربي الإسلامي عاملاً حاسمًا في تطوير مجتمع العصور الوسطي، وتحويل البحر المتوسط إلى جبهة إسلامية[٢٧].

لقد حكم المسلمون فلسطين وفق الشريعة الإسلامية، التي لا تفرِّق بين شخص وآخر، فلا " فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " وحتى أهل الذمة فإن المسلمين الأوائل تعاملوا معهم وفق قاعدة " لا إكراه في الدين "، ولكم دينكم ولي دين " (٢٨).

بيد أن الفتح العربي الإسلامي لفلسطين لا يعني أن عرب فلسطين هم أخلاف أولئك العرب المسلمين، الذين قدموا مع الفتح. ففلسطين بلاد عربية، لأن العرب وفدوا إليها منذ عشرات القرون، فالعرب قطنوا فلسطين، منذ فجر التاريخ، حتى وإن أضيفت إليهم موجات من الهجرة، وفدت من الجزيرة العربية - وبضمنتها موجة الفتح - وقد انصهرت كل تلك الموجات مع أهالي فلسطين. لذا " فإن عرب فلسطين، اليوم، هم الشعب التاريخي للأرض، وكانت البلاد، دائمًا، بلادهم ".

* * *

مراجع الفصل الثاني عشر

(١) فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ج٢، ترجمة: كمال اليازجي، مراجعة وتحرير د. جبرائيل جبور، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩، ص ٣.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٥.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٦.

(*) عرفت، فيما بعد، باسم سوريا، الأردن، ولبنان.

(٤) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠. (انظر: د. نبيه عاقل، **فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي**، ص ٢٥٩).

(٥) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص١٧.

(٦) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٩ - ٢٦٠.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٦٣.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٦٤.

(٩) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(١٠) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(١١) لي سترانج، **فلسطين في العهد الإسلامي**، ط١، ترجمة محمود عمايري، عمان، وزارة الثقافة، والإعلام، دائرة الثقافة والفنون، ١٩٧٠، ص ٤٢.

(١٢) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦٤.

(*) تقع بين الرملة وبيت جبرين، على بعد نحو خمسة وعشرين كيلو مترًا، جنوب غرب مدينة القدس، على أنه لم يعد لأجنادين أي أثر منذ قرون.

(١٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، الجزء الثالث، القاهرة، د. ت، ص٦٠١.

- عاقل، **مصدر سبق ذكره** ص ٢٦٧.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

- الطبري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٠٦ - ٦٠٨.

(١٥) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧٠.

(١٦) الطبري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٠٦ - ٦٠٨.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٦٠٩.

- عبد الله التل، **خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية**، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤،

ص ١٣٠.

- ظفر الله خان، **تاريخ فلسطين القديم**، منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي (١٢٢٠ ق. م - ١٣٥٩م)، بيروت، دار النفائس، ١٩٧٣، ص ٣٩.

(١٨) عاقل، **مصدر سبق ذكره** ص ٢٧٠.

(١٩) الطبري، **مصدر سبق ذكره**، ص٦١٠.

(٢٠) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩ - ٢٠.

(٢١) سترانج، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢٢) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢.

(٢٣) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ١٠٩ - ١١١.

(٢٤) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤.

(٢٥) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي**، ج١، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٥، ص ٢٩٧.

أورده: خان **مصدر سبق ذكره** ص ١٤٧.

(٢٦) حتى، مصدر سبق ذكره، ص ١٥ - ١٦.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٢٨) خان، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣ - ١٦٠.

الفصل الثالث عشر

الأمويون وفلسطين

الفصل الثالث عشر:
الأمويون وفلسطين

ريدة خضر البرعى

لم يكن كل العصر الإسلامى مثاليًا، بل لطالما شابته الشوائب، وتخللته المؤامرات، ولعل خير دليل على ذلك هو انتصار معاوية بن أبي سفيان على علىَّ بن أبى طالب، مؤسساً بذلك الدولة الأموية.

تُنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان سيداً من سادة قريش ومتنافساً مع ابن عمه، هاشم بن عبد مناف، على الرياسة والشرف، وقد تجمع لأمية عناصر السلطان في الجاهلية، فهو من أرومة جيدة، وله مال كثير، وعشرة من الأولاد النجباء، وإذا تجمعت لشخص هذه العناصر في الجاهلية يكون قد ضمن الشرف [١].

ظل التنافس قائمًا بين بنى هاشم وبني أُمية، إلى أن دخل بنو هاشم الإسلام، وانقلبت العلاقة بينهما إلى عداء ظاهر، حيث وقف بنو أُمية موقفًا حازماً ضد الرسول، ودعوته، ولم يدخل بنو أُمية الإسلام، إلا بعد أن سُدت كل الطرق في وجوهم، وذلك عندما زحف محمد صلى الله عليه وسلم بألف من المؤمنين، يدخل بهم مكة، وبهذا كان بنو أميه من أشد أعداء الإسلام، ومن المتأخرين في الدخول فيه، ولكم ما إن دخلوا فيه،

حتى أظهروا بطوله رائعة. وقد فقد أبو سفيان، زعيم أُمية، إحدى عينيه، وهو يشترك مع الرسول، في إحدى غزواته، ثم فقد الأخرى في موقعة اليرموك وهو يقاتل تحت إمرة إبنه يزيد. ويروى أن زوجته كانت تشترك في حروب الفتوح (٢).

كما أن النبى صلى الله عليه وسلم راضى بنى أميه وجعل لهم امتيازات خاصه، فقال عند دخوله مكه " من دخل دار أبى سفيان فهو آمن "، وأعطى من غنائم حنين لكل من أبي سفيان وابنه معاوية مائة بعير، ليتآلفا، فكانا ضمن المؤلفه قلوبهم، وأصبح معاوية من كُتاب وحي النبى (٣).

كان يزيد بن أبى سفيان قائد أحد الجيوش الأربعة، التي وجهها أبو بكر لفتح الشام، وجعل يزيد من دمشق وجهته، ولما أراد أبو بكر أن يرسل مدداً لهذه الجيوش، كان معاوية على رأس المدد الذي أرسله ليزيد، وحارب معاويه تحت إمرة أخيه. وتولى الفيلق الذي فتح صيدا وبيروت وغيرهما من مدن سواحل الشام. ولما تم النصر للمسلمين، في عهد عمر، ولى يزيد ولاية دمشق، وجعل معاوية واليًا على الأردن، وتوفى يزيد في طاعون عمواس، في عهد عمر، فضم معاوية ولاية دمشق إلى ولايته (٤).

تطلع بنو أمية للخلافة، منذ عهدها الباكر، على أنه لم يكن لهم فيها أمل، في عهد أبي بكر، وعمر. ودخل معاويه على أبيه، حينما استعمله عمر على الشام، فقال له أبوه. " يابنىّ إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا، وتأخرنا، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً

وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجرى إلى أمد لن تبلغه، وإن بلغته لتنفست فيه ". واستجاب معاويه لرأى والده، الذي نصحه، فأحسن السيرة، ومهد لنفسه في الشام (٥).

بعد ما تولى عثمان الخلافة، انفجرت أسباب السخط في ولايات شتى، ودعا الثائرون إلى إصلاح أحوال المسلمين، وتخفيف الفروق بين الأغنياء والفقراء، بزعم أن العرب الذين نزحوا إلى الولايات المفتوحة حصلوا على ثروات كبيرة، في حين كان جوارهم بعض المسلمون يحيون حياة أقرب إلى التقشف. وتجمع أهل الكوفة والبصرة ومصر وضربوا حصارًا حول دار عثمان (شوال ٣٥ هـ / ٦٥٥ م) أربعين يومًا، ثم دخلوا دار عثمان، يتقدمهم محمد بن أبى بكر، وقتلوه، يوم الجمعة، الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ / ٦٦٥م). بمقتل عثمان تمت مبايعة على بن أبى طالب، وبايعه أهل مصر والكوفة والبصرة، ولكن معاوية، الذي كان واليًا على الشام، رفض مبايعته، ودعا أهل الشام ورؤساء الأجناد، لتحريضهم على الوفاء للخليفة المظلوم (عثمان) والطلب بدمه. وهنا ظهر عمرو بن العاص، الذي وجد على عثمان، حين عزله عن مصر، فلما اندلعت الثورة على عثمان، كان ابن العاص من المعارضين لعثمان، وعندما وصلت الثورة إلى غايتها، آثر ابن العاص أن يعتزلها، فخرج إلى إلى أرض يملكها بفلسطين، وأقام بها، ولما جاءه نبأ مقتل عثمان قال " ماحككت قرحه إلا وأدميتها ". وانضم ابن العاص إلى معاوية، حيث اجتمعت المصلحة بينهما، فعمرو أراد ولاية مصر، فيما أدرك معاويه بأن عمرو داهية من دواهى العرب، وشيخًا ذا مكانة

من شيوخ قريش، وهو صاحب حرب ومكيدة، فتح فلسطين ومصر، واطمأن عمر بن الخطاب إليه، منذ فتح مصر. فضمه معاوية إلى معاونيه. [٦].

يعد على بن أبى طالب من أخطر فرسان المسلمين، فهو المحارب الذي لم يُهزم، أبداً، حتى حين نشب القتال بينه وبين معاوية، انتصر علىّ حتى اضطر جيش معاوية أن يرفع المصاحف على الحراب، طلبًا لوقف القتال، والاحتكام للقرآن. وعندما طعن عبد الرحمن بن ملجم الحميرى علىّ بن أبى طالب، خلا الأمر لمعاوية [٧].

هكذا نجح الإسلام في تقويض المجتمع العبودى، وحاول الخلفاء الراشدون بناء مجتمع مثالى فيما أدت تحالفات الخليفه الثانى، عمر بن الخطاب، إلى تعزيز موقع بنى أمية في النظام الحاكم، ثم أعطى عثمان بنى أمية دفعات قوية إلى الأمام، وحاباهم في المال والسلطة، وحين وصل إلى موقع الخليفه علىّ بن أبى طالب، جوبه بمعارضة قوية من ممثلى الإقطاع، المتمثلين في بنى أُمية الذين استقووا بالمؤامرات، فيما لاذ علىّ بالأساليب المبدئية، في الصراع مع بنى أُمية، فكانت الغلبه للأخرين، على النحو المعروف.

بدأت فلسطين مرحله جديدة من مراحل حياتها، حين أعلن معاوية بن أبى سفيان نفسه خليفة، واستهل عهده بالذهاب إلى بيت المقدس، حيث أعلن خلافته في العام ٤٠هـ / ٦٦١ م [٨].

بعد مقتل عليّ، قامت بعض المحاولات من أجل البيعه للحسن بن على. وقد بويع بالفعل من بعض الشيعة، لكن الحسن كان قد عاصر المشكلات التي عاناها أبوه، وعرف أن أباه لم يستطيع التغلب عليها، وإذا كان البطل قد عجز عن حل المشكلات، فما أجدى بالحسن أن يطلب السلامة، إيمانًا منه بأن تيار الأحداث كان أقوى منه. وتم الصلح بين معاوية والحسن، وتنازل الثانى للأول عن الخلافة، مقابل بعض الشروط، عام ٤١ هـ / ٦٦٢م [٩].

انقسمت الشام في العصر الأموى إلى أجناد خمسه هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين، وجند الأردن، وجند قنسرين. وتبعت جند فلسطين أقاليم التيه والجفار وكلاهما على الحدود مع مصر. وكانت اللد عاصمة هذا الجند، وعندما أنشأ الخليفة الأموى، سليمان بن عبد الملك، مدينه الرمله جعلها العاصمه الجديدة للجند. وأكبر مدن جند فلسطين هي القدس. ورغم ضيق مساحتها، فإن بها حوالى عشرين مسجداً. وجند فلسطين هي اخصب سوريا ومن مدنها عسقلان والرمله وغزة أرسوف وقيساريه ونابلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين ومعظم أراضيها جبلية، والسهول فيها قليله، وجند الأردن يتبعه كور الغور المنطقه الواقعه حول البحر الميت، وعاصمه هذا الجند طبريه، ويتبع الجند السامرة (نابلس) وبيسان وصفد وجرش وعكا وصور [١٠].

حين تولى معاويه بن أبى سفيان الخلافة، جعل من دمشق عاصمه لخلافته وتولى حسان بن مالك جند فلسطين والأردن، فيما كانت فلسطين،

عند قيام الفتح الإسلامى، تضم عناصر سكانية متعددة، من الروم، والفرس، والزنج، واليهود، والسامرة، فيما كان العرب أهم هذه العناصر، وكانوا قبائل انتشرت في جنوب فلسطين وشرقها وفي البادية وهم في الغالب من العرب المستعربه مثل قبائل غسان ولخم وجذام وعامله والقسين وبهراء وكلب وسواها وكان عدد كبير من افراد هذه القبائل يدين بالنصرانيه، ووقف بعدهم أبان الفتح إلى جانب الروم والبيزنطين وتحواوا بعد ذلك إلى الإسلام وقد نزل الأمويين في بقاع مختلفة من جندى الأردن وفلسطين في أبله وبقاع ومعان والبلقاء ووادى الأردن والساحل الفلسطيني وبئر السبع، كذلك نزلت جماعة بنى مخزوم في منطقه غزة وعمل بنو امية على ائتلاف هذه القبائل إذ كان لبعضها علاقات تجارية مع الأمويين قبل الإسلام ومعاوية منذ أن كان واليًا على الشام، أنزل العرب بمواضيع نائية عن المدن والقرى ومنحهم حق استغلال الأراضى التي لاحق فيها لأحد ثم ما لبث أن ملكهم أياها وصار خلفاؤه من بعده على هذه السياسه الأمر الذي أدى إلى نشوء إقطاع عربى واسع في بلاد الشام عمومًا وفي فلسطين بخاصه(١١).

إلى جانب طبقة المسلمين العرب ثمه فئة ثانية من الأهالى هي فئة الموالى وهم المسلمون من الأعاجم ومعظمهم من الأراميين والسريان وهم السكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وكان رأب هولاء ان يلتحقوا ببعض القبائل العربية عن طريق الولاء فيعتبرون من أفرادها ويحتسبون من مواليها لكن التحاقهم بالعرب على هذه الصورة أدى إلى اعتبارهم الطبقة الاجتماعية

الدُنيا في البيئة الإسلامية فامتعضوا لذلك أشد الامتعاض وأظهروا هذه المرارة التي ملأت نفوسهم بانحيازهم إلى الشيعة في العراق وإلى الخوارج في فارس ولقد كان الموالى هم السابقون في المجتمع الإسلامى إلى تركيز جهودهم على العناية بالابحاث العلمية والفنون الجميلة. وما أن أظهروا تفوقهم على العرب في ميدان العلم والفكر، حتى أخدوا ينافسونهم في تولى الزعامة السياسية، ثم نتج عن اختلاط الموالى بالعرب، عن طريق الزواج، إلى تهجين الدم العربي، وحتى آل الأمر، أخيرًا، إلى إطلاق لفظة " عربى " على جميع المسلمين الذين تحدثوا العربية، دون اعتبار العِرق، الذي تحدروا منه(١٢).

أما السكان الغير المسلمين، فكانوا في عداد أهل الذمة، والمراد بهم اليهود، والنصارى، ذلك أن الإسلام شملهم بالأمان، وصانهم بالعهود، والمواثيق، وكان يفرض على أهل الذمه الجزيه، واستثنى منها الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين والفقراء والمرضى وسواهم. وكان معاوية، وابنه يزيد، ومن بعدهما عبد الملك، وسواهم من خلفاء بنى أُمية يعتمدون أهل الذمه في إدارة الدولة، فقط كان سيرجون بن منصور من موالى معاوية، ويكتب له الديوان، وخلفه ابن يوحنا (يوحنا الدمشقى) في خدمة معاوية، ثم ابنه يزيد. وإلى جانب النصارى كان كان هناك قله من اليهود و السامرة، وكان النصارى يقيمون في المدن، خاصه بيت المقدس والمدن الساحليه عدا الأديرة، أما السامرة فكانوا يقيمون في مدينه نابلس والرمله، فيما تشتت اليهود في بعض المدن، باستثناء بيت المقدس أما

الطبقة الرابعة في المجتمع فكانت طبقة الرقيق (١٣).

التنظيم الأدارى:

وضع أبو بكر الصديق أولى لبنات التنظيم الإدارى للدوله، حيث قال في خطابه للمسلمين: " لابد لكم من رجل، يتولى أمركم ويصلى بكم، ويقاتل عدوكم ". لكن عمر بن الخطاب هو الذي وضع أُسس النظام الإدارى لدولة الإسلام، وقررمبدأ مركزية السلطة، معتبرًا ان الخليفة هو المسئول الاول عن إدارة شئون الدولة، وفق مبادىء الدين الجديد، لذا نهج نهجًا إداريًا، خلاصته أن من يتولى أمور الأقاليم مسؤول، مسئولية مباشرة أمامه.

وسار عثمان على نهج عمر، ولكنه انساق مع مطامع بعض أقربائه من أفراد العائلة الأموية الذين استغلوا صلة قرباهم به ليحققوا المكاسب لأنفسهم ويتولوا أعلى المناصب، الأمر الذي كان من جملة الأسباب التي أدت إلى الثورة على عثمان ولأن عهد الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر بن الخطاب، امتلأ بالفتوحات، لذا لم يستقر التنظيم الإدارى، ويأخذ شكله النهائي إلا في العهد الأموي (١٤).

في خلافة أبي بكر ظهرت فكرة مركزية السلطة، وظهر ذلك باعتبار الخليفة، رئيس الدولة، له حق اختيار من يشاء، لتصريف شئون الإدارة والحكم، وهو المسئول الاول عن اعمال من يختارهم، لأنهم خاضعون له ويعملون باسمه. ودافع أبو بكر دفاعًا مستميتًا عن مركزية السلطة، وأرادت بعض القبائل ان تستقل بواردات الزكاة، وألا ترسلها إلى المدينة، فرفض ابو بكر، وأقسم انهم لومنعوه عقال بعير، كان يعطونه

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلهم من أجله. وسار على نهج أبو بكر كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب، إلا أن خلفاء بنى أُمية، وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، اتبعوا اللامركزية، في الإدارة سبيلاً لإعادة الاستقرار في الدولة الإسلامية، في ظل ظروف نجمت عن مقتل عثمان، والصراع على السلطة بينه وبين على بن أبى طالب، وبروز العصبية الاقليمية، التي تمثلث، بشكل واضح، في اتساع شقة الخلاف بين الشام والعراق، هذا فضلاً عن رغبة معاوية في توسيع رقعة الدولة، واستكمال عملية الفتوح في أقاليم تبعد عن العاصمة، دمشق، كثيرًا. كما أن العمل الإدارى في الأقاليم والأجناد لم يكن مسئولية الوالي وحده، بل كان يعاونه موظفون، يقيمون معه في الجند، ويمثلون مختلف الوظائف التي تشكل ما كان يُعرف " بالديوان "، الذي أسسه معاوية، وهو مكتب حكومى مهمته أن يستخرج نسخة من كل وثيقة رسمية، قبل أن تُختم، وترسل في سبيلها(١٥).

بيد انه يعزى إلى ابن الخطاب وضع أُسس الإدارة المالية، وحين دوَّن الدواوين أفرد للأمور المالية ديوانًا خاصًا وقد أنشئ لديوان الجند في الأردن وفلسطين ديوانا خاصا اتت اهم موارده من الزكاة والخراج، والجزية والعشور. أما الزكاة فتفرض على المسلمين، فيما تؤخد الجزية على رؤوس أهل الذمة. وأهل الذمة في الأردن وفلسطين هم النصارى واليهود والسامرة، فيما الخراج هو الضريبة على الأرض الزراعية والعشور الضريبة على التجارة التي تقدم على ديار المسلمين. ويقابل هذه الوارادت نفقات تترتب على بيت المال. وقد اشتملت سجلات بيت المال

على جانب النفقات كما اشتملت على جانب الواردات، وأهم وجوه النفقات هي العطاء، وهو المال الذي تفرضه الدولة للمسلمين المثبتين بالديوان، وفي خلافة بني أمية كان العطاء بين الزيادة والنقصان، وقد زاد معاوية العطاء لأهل الشام (١٦).

الصناعة والزراعة:

في مجال الصناعة اشتهرت الشام، عمومًا، ومدنها القديمه بصناعة الخزف، وقد حافظت على هذه الشهرة على مدى عصور التاريخ الإسلامى، وبخاصة الخزف المنقوش وكذلك الزجاج، وقد وصف زجاج الشام العديد من الرحالة، وضُرب به المثل في الرقة والصفاء، حتى قيل " أرق من زجاج الشام "، أو " أصفى من زجاج الشام "، وقد مهروا في زخرفته بالذهب وتلوينه بألوان زاهية، وبلغوا درجة كبيرة في الإتقان في ذلك، وكان الزجاج الملون يصدَّر إلى بقاع شتى في العالم. وكان صناعة الفسيفساء من أشهر صناعات بلاد الشام وقد شاهد الرحالة المقدسى جدران وأروقة المسجد الحرام، وقد زينت بالفسيفساء من أشهر صناعات بلاد الشام، وكذلك امتازت الشام بصناعة الأقمشة الحريرية (الدمقس أو الدمسكو) ويذكر أن طبرية كانت تنسج نسيجًا أبيض تصنعه ثيابًا، وكان ثمن الثوب منه اربعمائة درهم، لجودته، ومن الصناعات التي اشتهرت، صناعة الحرير. وأشتهرت طبرية بصناعة الورق هذا فضلاً عن صناعات أخرى: كصناعة السكر، على الساحل، بالقرب من عكا، وصناعة السفن في عكا، وصناعة السُبح في القدس، أما الزراعة، فقد وفرت، فترة صدر الإسلام وخلافة بنى أُمية للشام الامن والاستقرار،

ونجحت على حد كبير، في إيقاف الصراع بين البدو والزرَّاع، وأحلت التعاون بين الجانبين، كما توفرت الاموال اللازمة للاستثمار والتطوير، وهيأت السبل اللازمة لعناية أفضل بمنشآت الرى، وتوسيع نطاق الأرض المزروعة المعتمدة على نظام دائم للرى. هذا فضلاً عن إدخال زراعات جديدة، والاتجاه إلى الاهتمام بالمزروعات التي تصلح للتسويق لا للاستهلاك فحسب، كقصب السكر والقطن وسواهما (١٧).

الثروة الحيوانية:

كانت الثروة الحيوانية في فلسطين متنوعة، فقد كانت الاغنام تُربى في منطقة عمان، كما انتشرت تربية الجاموس، من شمال الشام إلى جنوبها، واعتمد أهالى فلسطين في غذائهم على لحمه ولبنه، واستخدم الجاموس في مناطق كثيرة للأعمال الزراعية. اما البقر فلم يكن لحمه مستساغًا وكان يرُبى للانتفاع بلبنه، واهتم أهالى الشام ومنهم أهل فلسطين، بتربيه الخيل، والبغال، والحمير، ومن الطيور اهتموا بتربية الأوز، والدجاج، والحمام، وكما برعوا في تربية النحل لاستخراج العسل، وكان العسل عندهم أنواعًا عدة وأفضله من نبات السعتر (الزعتر) في الأراضى المحيطة بالقدس، وجبل عاملة، أما السمك فكانوا يستخرجونه من بحيرة طبرية، وخليج العقبة (١٨).

الحياة الفكرية والعمرانية:

من أهم مظاهر التحول الفكري في فلسطين بعد الفتح، هو تضاؤل، ومن ثم انحسار الثقافة الهيلينية والسريانية، وحلول الفكر العربي والإسلامى محلها. والشام من أقدم مراكز الحضارة في العالم وأن أرضها

شهدت عملية تمازج ثقافى دائم، إذا التقت على أرضها حضارة الفراعنة والكنعانين، وفكرهم ومنجزاتهم، بحضارات ما بين النهرين، ومن ثم باليونان، والرومان، الذين أقاموا وجودًا سياسيًا على أرضها وخلفوا وراءهم آثارًا مادية [١٩].

النقود:

كان العرب قبل الإسلام، يعرفون الدراهم الساسانية والبيزنطية، ويستعملونها، وذلك بسبب اتجارهم مع البلدان التي كانت تستعمل نقود هاتين الامبراطوريتين، وأول من ضرب الدراهم والدانانير العربية في الإسلام هو الخليفة عبد الملك بن مروان وقد سميت الدنانير التي ضربها عبد الملك " الدمشقية ". ويذكر ان عبد الملك اصدر دينارا عربيا عام ٧٤ هـ - ٦٩٣ م " عليه صورة ترمز إلى الخليفة، واقفا يهم باستلال سيفه من غمده رمزا للتحدى القوى لامبراطور القسطنطينية، الذي كان طامعا باسترداد مدن الشام " [٢٠].

الوراثة في الدولى الاموية:

بدأ معاوية بالمبايعة لابنه يزيد سنة ٤٩ هـ - ٦٧٠م. ويروى ان معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة، وكان واليًا على الكوفة، آنذاك، يقول: " اذا قرأت كتابى، فأقبل معزولاً، فابطأ المغيرة على معاوية فلما حضر، سأله: " ما بطأ ". فأجاب " أمرا كنت أوطئه، وأهيئه "، قال: وما هو، قال، " البيعة ليزيد من بعدك "، قال: أوقد فعلت، قال: نعم، قال معاوية، ارجع إلى عملك ". وتربى يزيد بن معاوية في فلسطين مع امه ميسون بنت بحدل، وكان شاعرًا، ونشأفى البادية حيث أجاد اللغة والأدب

والصيد. وبعد توليه الحكم، أراد يزيد ان تتم له بيعة الحسين، ولكن أهل الكوفة ارسلو إلى الحسين يدعونه للسير اليهم ووعدوه بالبيعة، لكن ابن عباس نصحه قائلا: " إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم " وفي طريقه للكوفة، قابله الفرزدق، وعبد الله بن مطيع العدوى، ونصحوه بالعودة لكنه أهمل النصائح [٢١].

في العاشر من محرم ٦١ هـ - ٦٨٢م، نشب القتال بين جيش العراق، ولم يكن به أحد من أهل الشام. وبين مقاتلى الحسين، في معركة غير متكافئة قُتل فيها الحسين، ودفن جسده بكربلاء، أما رأسه فقد أرسلت إلى يزيد بن معاوية في الشام، ويذكر ان رأس الحسين دفن في عسقلان في فلسطين ونقلته الدولة الفاطمية إلى القاهرة، عندما حكمت مصر [٢٢].

بوفاة يزيد بن معاوية، بويع بالخلافة لابنه معاوية الثانى، وكان في زمانه بيعتان، احدهما لمعاوية الثانى في الشام والأخرى في الحجاز لعبد الله بن الزبير، ولكن معاوية الثانى كان مريضا فتنازل عن الخلافة ولم تطل خلافته أكثر من ثلاثة أشهر وانزوى في بيته ومات بعد أربعين يوما [٢٣].

اضطربت الأفكار في سوريا وفلسطين، واتجهت الأنظار نحو الحجاز بعد تنازل معاويه الثاني عن الخلافة، وأجمع أمراء سورية على مبايعة عبد الله بن الزبير، ماعدا أمير فلسطين، حسان بن مالك بن بحدل، وعندما أراد شيخ بنى أميه مروان بن الحكم، مبايعة الزبير، أشار عليه عبيد الله بن زياد بأن يطلب الخلافة لنفسه، ونصره أمير فلسطين وهو خال يزيد بن معاوية ودعا روح بن زنباع واستخلفه على فلسطين وقال

له: " أنى أرى أمراء الأجناد يبايعون لأبن الزبير، وأبناء قيس بالأردن كثير، وهم قومى، فأنا خارج إليهم، وأقم أنت بفلسطين، فإن جل أهلها قومك، من لخم وجذام. وسار بن بحدل إلى الأردن فأخذ بيعتهم، وثار نائل بن قيس الجذامى وأخرج ابن زيناع من فلسطين وألتحق بالأردن، وبايع نائل لأبن الزبير، وأرسل حسان كتابًا إلى الضحَّاك بن قيس أمير دمشق، فلم يستجب لها فذهب إلى الجابيه، وقابل بنى أميه هناك، وبايعوا مروان بن الحكم، وذهبوا إلى الضحاك، وحاربوه، في مرج وراهط، وكانت هذه المعركة بين قيس ويمن، وهما اكبر القبائل في الشام وظفروا به ففر نائل الجذامى إلى الحجاز، وعاد روح بن زنباع إلى فلسطين، ثم توجه مروان إلى مصر، وفتحها، وبايع أهلها، ورجع إلى قريه السمراء، قرب طبرية، فشكر حسان، واثنى عليه، وعاد إلى دمشق، عاصمه ولايته، وعهد مروان بالخلافه لابن عبد الملك، وبعده لعبد العزيز. وعندما تولى عبد الملك بن مروان الخلافه، اعترضته امور شاقة. ثورات داخلية، الخوراج، شيعه على، ومناظرة ابن الزبير، ومنافسه عمرو بن السعيد [٢٤].

قبه الصخرة:

عمل ابن الزبير على بسط نفوذه على الجزيرة العربية، والمناطق الأفريقية، وجعل مكة مركز حكومته، وخشى عبد الملك من ضياع عرشه، خاصه عندما رأى الجموع الغفيرة من المسلمين تحج سنويا، إلى الكعبه، وكذلك عندما شعر بأن مركز عبد الله بن الزبير الدينى والسياسى، قد أخذ ينتشر في جميع البلاد الإسلاميه، فمنع عبد الملك بن

مروان اهالى سوريا من الحج إلى مكة بحجه أن عبد الله بن الزبير كان كان يجبرهم أثناء الحج على على مبايعته، ولكن الناس كانوا يتذمرون قائلين: " كيف تمنعنا من الحج إلى بيت الله، مع أن هذه فريضه علينا ". ولكن الخليفه أجاب " قال الرسول صلى الله عليه وسلم لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثه مساجد، المسجد الحرام في مكة ومسجدى في المدينه والمسجد الأقصى في القدس " (٢٥).

ذهب عبد الملك بن مروان بنفسه من دمشق إلى القدس، ومن هناك أرسل رسائل إلى جميع المناطق، وحكام المدن يستشيرهم في بناء قبه الصخرة المقدسة،، ليقى المسلمين من البرد والحر، كما يرغب، ايضا، في بناء مسجد ولكنه لا يرغب في أن يقوم بهذا العمل، دون استشاره رعيته، فأتته جميع الرسائل من حكام المناطق، تؤكد رضا الرعيه التام، وبانهم يعتبرون قصده قصدا دينيا. فكلف الخليفه رجاء بن حيوة، ويزيد بن الإسلام بالأشراف على بنائه، فوضعا خارطة لبناء صحن منطقه الحرم. وأمرهما بأن يبنيا بيتًا للمال، في الجهه الشرقيه من الصخرة، وقد اوقف على نفقات هذه الأبنيه دخل مصر، لمدة سبع سنوات وبدأ عبد الملك بناءه في ٦٩ هـ وأتمه عام ٧٢ هـ وبعد أن تم يزيد ورجاء البناء بقى معهم ١٠٠.٠٠٠ دينار ذهب، فأخبرا الخليفة، الذي أمر بها مكافأة لهم ولكنهما رفضاها فأمر الخليفة بصهر الذهب واستعماله في زخرفه القبه (٢٦).

في سنه ٧٢هـ / ٦٩٣ م توجه الحجاج بن يوسف الثقفى إلى الحجاز، ليقضى على ابن الزبير، فذهب واحتل المدينه، وحاصر مكه، وخَرَّبها

بالمجانيق، وأضر بالكعبة، وقسم حراسه أبواب المسجد على البلدان، فأخذ أهل الأردن باب الصفا، وأهل فلسطين باب جُمع، وفي هذه الحرب كما هو معروف قتل عبد الله بن الزبير، ودانت البلاد لعبد الملك، الذي توفى ولي عهده، عبد العزيز، ٨٥ هـ فعهد بالخلافة، من بعده لابنيه الوليد، ثم سليمان [٢٧].

عندما تولي الوليد بن عبد الملك الخلافة، هرب يزيد بن الملهب، وقدم فلسطين، فنزل على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي، الذي أخذه إلي سليمان بن عبد الملك، في الرملة، وتشفع فيه، ونجاه، وبعد وفاة الوليد، تمت البيعة لأخيه، سليمان، وهو في مدينة الرملة، فبايعه الناس، وهو على سطوح الصخرة، وهم أن يحول عاصمته من دمشق إلى الرملة، أو القدس، لكنه عدل عن ذلك وكان الخليفة الأموي سليمان (٧١٥ - ٧١٧)، يقيم في الرملة التي بناها، ولا تزال، مئذنة المسجد الأبيض، قائمة كما رممها المماليك، وغدا هذا المسجد، بعد المسجد الأموي، في دمشق، وقبة الصخرة في القدس، الثالث بين مباني المسلمين الكبرى المقدسة في سوريا[٢٨].

بلغت السلطة الأموية أوج عزها، في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥)، وهناك اثنان من الخلفاء يجدر ذكرهما، من بعده، هما عمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك [٢٩].

كان عمر (٧١٧ - ٧٢٠) الخليفة المتعبد الوحيد في عهد اشتهر بطابعه الدنيوى، وقد تأثر بجده لأمه، ثاني الخلفاء الراشدين، (عمر بن الخطاب)، الذي حمل اسمه، ووصف بتقاه وزهده وبساطته، وكان معاوية

قد ابتدع هذا كما أن عمر منع النصارى من تقلد مناصب في الدولة [٣٠].

لما بويع الوليد الثاني كان مقيماً في البرية، فافتتح أعماله بنفي سليمان بن هشام إلى عمان، وأقبل على الشراب بنهم، وجاهر به، وانغمس في الطرب والموسيقى، واقتناء الكلاب المطوّقة بقلائد الذهب، وانتهك حرمة القرآن، فنفر بنو أمية منه، وتجمع أمراء قبائل فلسطين، وأقروا خلعه، ومبايعة سواه، فراودو يزيد بن الوليد، الذي أجابهم إلي طلبهم، وظل متكتماً، إلى أن انتشر الوباء في الشام، فخرج العباس بن الوليد إلى القسطل، وأخوه يزيد إلى بادية الأردن، وأخذ يدعو لنفسه، وبايع الناس سراً، فعلم أخوه العباس، وتهدد أخاه، وأنذره بالسجن، أو إرساله إلى الخليفة، إذا لم يقلع عن عمله هذا، فلم يعقه هذا التهديد، وسار إلى دمشق، خلسة، واحتلها، وبايعه جميع أهلها، وضبط الأموال، والخزائن، وتوافد عليه أعوانه، فقدم أهالي جرش من فلسطين، وغيرهم، وكان الوليد في ضياعة نافراً من الوباء فغضب، وسيَّر جنداً إلى دمشق، حيث انضموا إلى يزيد، ثم سار بنفسه فالتقى العسكرين، وأسفرت المعركة عن خذلانهم فيها فبايعوا له.

وقد وثب أهالي فلسطين، بتحريض سعيد وضبعان، ولدي روح بن زيناع، على عاملهم، سعيد بن عبد الملك، فأخرجوه، وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك، فدعاهم إلى قتال يزيد، فأجابوه: " لأن أهالي فلسطين كانوا ميالين لأبيه ". ولما بلغهم ما فعل أهل فلسطين ولوا عليهم محمد بن عبد الملك، واجتمعوا معهم على قتال يزيد، والتقى جمعهم في طبرية، قصبة الأردن أما سعيد بن عبد الملك، عامل الوليد بن يزيد على

فلسطين. فإنه حين ارتحل عن فلسطين، خرج إلى يزيد بن الوليد، وأعلمه بما آل إليه حال هذا الإقليم، فوجه يزيد إلي أهل فلسطين سليمان بن هشام على رأس جيش ليعيدهم إلى طاعة البيت الأموى وبعث سليمان إلى سعيد وضبعان، ابنى روح بن زنباع، وإلي الحكم وراشد ابني جرو بن بلقين، وإلى محمد بن عبد الملك، يمنيهم، ويعدهم إن هم دخلوا في طاعة الخليفة، يزيد بن الوليد: فأجابوا الدعوة، ورحل ضبعان بأهل فلسطين، وتفرق أهل الأردن فبار أهل طبرية، ونهبوا دواب يزيد بن سليمان، ومحمد بن عبد الملك، ولحقوا بقراهم ومنازلهم، ونزل سليمان بن هشام، بعد ذلك، الحنبرة، وقدم عليه أهل الأردن، فبايعوا ليزيد بن الوليد، ثم دخل طبرية، وتوجه إلى الرملة، وأخذ البيعة على من بها.

واستعمل يزيد بن الوليد على الأردن، أخاه إبراهيم بن الوليد، وعلى فلسطين ضبعان بن روح بن زنباع، إلا أن حكم هذه الخليفة لم يطل، فتوفى، بعد بضعة أشهر، وعهد بالأمر من بعده لأخيه، إبراهيم الذي لم يقو على مواجهة الأحداث، وآل أمر الخلافة، بعد ذلك، إلى مروان بن محمد، آخر خلفاء البيت الأموي، الذي سار إلى دمشق، من أرمينية فخلفه مروان، وأخذ البيعة لنفسه. ثم طلب إلى أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم، فأختار أهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم، ابن أخى عبد الملك و اختار أهل فلسطين، ثابت بن نعيم الجذامي. ولم تمض على خلافة مروان ثلاثة أشهر، حتى خالفه أهل الشام، وانتقضوا عليه، بزعامة ثابت بن نعيم، الذي سار إلى مدينة طبرية، وحاصر أهلها وواليها الوليد بن معاوية، فقاتله أهلها، أياماً وأرسلوا رسولاً إلى مروان

بن محمد، يعلمونه أمرهم، فكتب مروان بن محمد إلى أبي الورد بن الكوثر، وكان في دمشق، فخرج إليهم، وحينما أقترب من طبرية، خرج أهلها على ثابت ومن معه، واستباحوا عسكرهم، فانصرف إلي فلسطين، منهزماً، فجمع قومه، وجنده، ومضى إليه أبو الورد، وهزمه، ثانية، وفرق من معه، وأسر أبو الورد ثلاثة رجال من ولده، وبعث بهم إلى مروان، وهم جرحى فأمر مروان بمداواة جراحهم اما ثابت فقد استطاع الهرب وتغيب معه ابنه الرابع، ودانت فلسطين لمروان، وولى عليها الرماحس وتم القبض على ثابت، بعد شهرين من ولايته، فأرسله إلى مروان، في دمشق، وأمر مروان بثابت وبنيه، الذين كانوا أسرى لديه، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وعرضوا في دمشق، وليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه، الخروج على الخليفة (٣١).

وبعد، بانتهاء الخلافة الأموية، خرجت فلسطين من دائرة الضوء، التي وضعها فيها الراشدون والأمويون على التوالي حيث غذت في العهدين ركناً متيناً من أركان الدولة، وعصبتها. فقد نقل الأمويون مقر الخلافة من مكة إلى دمشق، التي كانوا يعرفونها حتى قبل نزول الرسالة من خلال التجارة، وكانت حياة الخلفاء في دمشق حياة بذخ وترف، بالقياس إلى حياة الخلفاء السابقين في مكة، في حين أن حياه الخلفاء الراشدين في مكة موسومة بالوقار. وليالى الخلفاء في دمشق حفلت بالأبهة والسمر، ومجالس الأنس، كما أنهم استمروا التوسع في احتساء الخمور، حتى عرف يزيد بن معاوية " بيزيد الخمور "، لإدمانه على شرب الخمر، كما عَرف عن الوليد الثاني (٧٤٣ - ٤٤) بأنه كان يسبح

في بركة خمر، ويشرب منها، حتى يهبط مستواها، ويقال إنه فتح القرآن يوماً، فوقعت عيناه على (وخاب كل جبار عنيد)، فغضب غضباً شديداً ورمى الكتاب بنباله حتى مزقه.

* * *

مراجع الفصل الثالث عشر

(١) د. أحمد شلبي، **الدولة الأموية نشأتها**، (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلاميه)، القاهرة، مكتبه النهضة المصرية، ١٩٨٤، ص ٢٤٧.
(٢) **المصدر نفسه**، ص ٣٠.
(٣) عمر الصالح البرغوثى، خليل طوطح، " **تاريخ فلسطين** "، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٣، ص١٢٢.
(٤) **شلبي**، مصدر سبق ذكره، ٣١.
(٥) **المصدر نفسه** ص ٣٢.
(٦) محمد حسنين هيكل، " **بين الخلافة والملك. عثمان بن عفان** "، القاهرة، دار المعارف، ص ١١٥ - ١٢٤.
(٧) أحمد عباس صالح، " **اليمين واليسار في الإسلام** " بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د. ت، ص ٧٥ - ٧٨.
(٨) " **الموسوعة الفلسطينيه** "، القسم الثانى، المجلد الثانى، بيروت، ١٩٩٠، (انظر د. نبيه عاقل،
" فلسطين من الفتح العربي الإسلامى إلى أواسط القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى "
ص ٢٤٧).
(٩) لى سترانج، " **فلسطين في العهد الإسلامي** "، ترجمه محمود عمايرى، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، عمان ١٩٧٠، ص ٤٥ - ٤٦.
(١٠) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
(١١) **المصدر نفسه** ص ٢٩٧ - ٢٩٩.
(١٢) د. فيليب حتى " **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** "، ترجمه د. كمال اليازجى، الجزء ٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩، ص ٩٧ - ١٠١.
(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٩٩ - ١٠١.
(١٤) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩٩ - ٣٠٣.
(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.
(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٠٦ - ٣٠٩.
(١٧) سترانج، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٠ - ٩٥.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٣١٨.

(١٩) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ٣٢٠ - ٣٢١.
(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٣١٣.
(٢١) شلبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٩ - ٥٠.
(٢٢) البرغوثي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٢ - ١٢٣.
(٢٣) **المصدر نفسه** ١٢٤ - ١٢٨.
(٢٤) **المصدر نفسه** ١٢٤ - ١٢٨.
(٢٥) سترانج، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٢ - ١٢٥.
(٢٦) البرغوثي، **مصدر سبق ذكره** ص ١٢٢ - ١٢٥.
(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ١٢٥ - ١٢٧.
(٢٨) **المصدر نفسه**، ١٢٨ - ١٣٠.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ١٣٠ - ١٣١.
(٣٠) عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ٢٧٦ - ٢٧٧.
(٣١) **المصدر نفسه** ٢٧٧.

* * *

الفصل الرابع عشر

العباسيون وفلسطين

الفصل الرابع عشر:
العباسيون وفلسطين

رباب يحيى عبد المحسن

تنسب الخلافة العباسية إلى العباس عم النبي (ﷺ)، فمؤسس دولة بني العباس هو عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ويعتبر قيامها انتصارًا للفكرة التي نادى بها بنو هاشم، عقب وفاة الرسول (ﷺ)، بإسناد الخلافة إلى أهل الرسول وذويه، وقد هزمت هذه الفكرة، في مطلع الإسلام وانتصار التفكير الإسلامي الصحيح، وهو أن الخلافة ملك للمسلمين، يولون على أنفسهم من يشاءون، لكن الفرس الذين كانوا يدينون بمبدأ الحق الإلهي المقدس، ظلوا يعملون على نشر مبادئهم، حتى استطاعوا أن يأتوا ببني هاشم إلى الخلافة.

كان العلويون أقرب إلى الرسول في نظر الجماهير، لمكانة فاطمة من أبيها، ولمكانة علي بن أبي طالب ابن عمه وصهره، ثم مكانته في الإسلام، ولكن العباسيين بعد أن نالوا السلطان، أذاعوا أنهم أولى بني هاشم بميراث الرسول، لأن جدهم عم الرسول، ولا ينحدر الميراث إلى ابن العم مع وجود العم، وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبة.

استمرت الخلافة العباسية من سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م إلى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م، أي أن مدتها ٥٢٤ سنة، وفي سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م زحف التتار على العالم الإسلامي وقتلوا الخليفة المستعصم (أبو أحمد عبد الله المستعصم) وكثيرين من أهله، وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية.

المدة الطويلة التي قضاها بنو العباس في الخلافة لم تكن، بطبيعة الحال، على نمط واحد، من ناحية مدى سلطة الخلفاء، وإنما تفاوتت هذه السلطة، مما جعل المؤرخين يقسمون مدة الخلافة العباسية إلى عصور، تختلف ملامح كل عصر منها عن سواه، وهذه العصور هي:

العصر الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ - ٨٤٧م): وكانت السلطة خلاله في أيدي الخلفاء.

العصر الثاني (٢٣٢ - ٥٩٠ هـ/ ٨٤٧ - ١١٩٤م): وقد ضاعت السلطة خلاله من أيدي الخلفاء.

العصر الثالث(٥٩٠ - ٦٥٦ هـ/ ١١٩٤ - ١٢٥٨م): وفيه عادت السلطة إلى أيدي الخلفاء، ولكن في بغداد وما حولها[١].

المناخ السياسي:

حتى أوائل سنة ١٣٢ هـ، لم تكن قد ظهرت الكلمتان " العباسيون " و " العلويون " في أفق التاريخ ظهورًا واضحًا، بل كان هناك تعبير يشمل هؤلاء وأولئك، هو " بنو هاشم " أو " الهاشميون " أو " آل البيت "، وكان هؤلاء يكافحون معًا، ويناوئون بني أمية، متساندين، رجاء أن ينتزعوا لأنفسهم الخلافة، التي اعتقدوا أنها حق لهم، اغتصبه الأمويون.

كان العنصران اللذان يتكون منهما " الهاشميون " يختلفان، اختلافاً بينًا، فالعلويون فيهم طيبة وصفاء، يعتقدون أن الخلافة حقهم، وأن الناس جميعًا يسعون ليردوها إليهم، أما العباسيون فكان فيهم دهاء وسياسة، وقد وقف العلويون، مدة طويلة، في قمة الزعامة من بني هاشم، وهب زعماء بنو هاشم من العلويين في وجه بني أمية عدة مرات، وناوئوا سلطانهم، لكن الأمويين كانوا يضربون هذه الحركات، ضربات قاسية، ويقضون على زعمائها، ومن ضحايا العلويين برز اسم الحسين بن علي، وحفيده زيد، ثم يحي بن زيد.

فلسطين:

وسط هذا المناخ السياسي المحتدم بين البيتين الأموي والعباسي، لم يقف عرب الشام موقفًا صلبًا للدفاع عن البيت الأموي الحاكم، وقد مكن هذا الموقف العباسيين من أن يقضوا على فلول الأمويين، ومن ظل على الولاء لهم، على أن القلة القليلة من أشياع بني أمية، التي نجت من بطش بني العباس، نهضت لمعارضة البيت العباسي الحاكم، بكل ما أتيح لها من أساليب.

تجلت هذه المعارضة الشامية لبني العباس بثورات، قامت بها القبائل، بقيادة شيوخها، أو بعض أمراء البيت الأموي، ولم تكن حقيقة ولاء أهل الشام لبني أمية بخافية على رجال البيت العباسي، لذا اعتمدوا البطش ببني أمية، أو من يواليهم.

كما حاول العباسيون محو آثار الأمويين في بلاد الشام، ومن ذلك ما فعلوه بالمسجد الأقصى الذي بناه الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ/

٦٩٣م وأتمه الوليد بن عبد الملك عام ٨٦ هـ/ ٧٠٥م، مكان مسجد الخليفة عمر بن الخطاب، وقد أصاب بناء المسجد شيء من الخراب، في عهد الخليفة العباسي، المأمون وحين قام هذا الخليفة بزيارة بيت المقدس، سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠م، أمر بترميمه، ولما انتهى العمل من ذلك، استبدلوا اسم الخليفة الأموي عبد الملك باسم المأمون، ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي تم فيها البناء وغدا المكتوب: " بني هذه القبة عبد الله الإمام المأمون، أمير المؤمنين، في سنة اثنتين وسبعين، تقبل الله منه ورضي عنه آمين[٢]، الأمر الذي يفضح التزوير الذي وقع في اسم باني القبة، كما يقال بأنه سبق أن حدثت عدة زلازل أثرت في بناء المسجد الأقصى وخاصة زمن الخليفة العباسي أبي الجعفر المنصور، فأمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية التي كانت على أبواب المسجد الأقصى، وضربت دنانير، ودراهم أنفقت في ترميمه، وإعادة بناء ما تخرب منه[٣].

ثورة "المبرقع":

لعل أهل الثورات التي قامت في فلسطين إبان العصر العباسي الأول، وأخطرها هي ثورة المبرقع اليماني، التي جرت في عام ٢٢٧ هـ/ ٨٤١م، أي زمن الخليفة المعتصم، وهي الثورة الأولى التي انطلقت شرارتها من فلسطين، وغيرت موقف الأهالي من الحكم العباسي، وسبب ثورة المبرقع ـ وهو رجل من عرب فلسطين اليمانية، يدعى أبا حرب ـ أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها، وفيها إما زوجته أو أخته، فمنعته من ذلك، فضربها بسوط كان معه، فلما رجع أبو حرب (المبرقع) إلى منزله، بكت، وشكت إليه ما فعل بها، وأرته الأثر الذي

بذراعها من ضربه، فأخذ أبو حرب سيفه، وذهب إلى الجندي، وهو فار، فضربه حتى قتله، ثم هرب وألبس وجهه برقعًا، كي لا يعرف، وهرب إلى جبل من جبال الأردن، وأخذ يدعو الناس لنفسه، فتبعه الكثيينر، كانت غالبيتهم من الفلاحين، والريفيين، وحراث الأرض، واعتقد أتباعه بأنه السفياني المنتظر، وأنه يملك الشام، وقد بلغ تعداد أصحاب المبرقع مائة ألف رجل، ولإضفاء صفة شرعية على ثورته ادعى بأنه أموي النسب.

لقد بلغت أخبار ثورته، المعتصم وكان مريضًا بمرضه الذي توفي به، فأرسل إليه رجاء بن أيوب الحضاري، في زهاء ألف من الجند، وحين وصل إليه لمس كثرة أتباعه فتهيب قتاله، ولما دنا وقت حراثة الأرض، انصرف معظم أنصاره من الفلاحين إلى أعمالهم الزراعية، ولم يبق معه إلى نفر قليل، لا يتجاوز الألف أو الألفين، وحينئذ وجد رجاء بأن الفرصة مواتية لقتال المبرقع اليماني، فهاجمه، وتمكن من أسره، وحمله إلى سامراء(٤).

وهكذا يمكن اعتبار ثورة المبرقع اليماني الثورة التي لم تعبر عن النقمة السياسية فحسب، بل عن النقمة الاقتصادية والاجتماعية أيضًا، ويتضح ذلك من نوعية الناس الذين انضموا إليها، ومن الأسباب التي أدت إلى قيامها.

سكان فلسطين:

لم يطرأ تبدل جوهري على التركيبة في فلسطين، بعد قيام خلافة بني العباس وفي العهود التي تلتها، حيث ظل العرب ومواليهم المسلمون يشكلون الغالبية العظمى من السكان.

لعل أهم تغيير نلحظه في المجال السكاني، في هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام، ومنها فلسطين هو ظهور الطبقية، بشكل أوضح مما كانت عليه في العصور السابقة، حيث غدا المجتمع طبقتين متمايزتين، هما: طبقة العامة، وطبقة الخاصة، فالفصل والتمازج بين العناصر السكانية لم يعد قائمًا على أساس الدين أو العرق، بل غدا ذلك يقوم على أساس طبقي[٥]. ويرجع ذلك إلى سوء الأحوال الاقتصادية وفساد الإدارة، وتفشي الرشوة.

الإدارة:

حين آل أمر الحكم إلى بني العباس، لم يغيروا في التنظيم الإداري، الذي كانت عليه فلسطين قبل صيرورة الخلافة إليهم، إنما غيروا كلمة " جند " التي كانت تستعمل لتقسيمات بلاد الشام الإدارية زمن بني أمية، إلى كلمة " ولاية "، وأصبحت الرملة مركز ولاية فلسطين، وقسمت ولاية فلسطين إلى اثنتي عشرة كورة هي: الرملة، إيلياء، عمواس، يبنى، يافا، قيسارية، نابلس، سبسطية، عسقلان، غزة، وبيت جبرين.

كما لم يطرأ على النظم الإدارية أي تغيير زمن بني العباس، كذلك النظام الضريبي، فقد ظل من حيث الأسس والقواعد المتبعة في جباية الضرائب وأنواعها كما كان عليه زمن الأمويين.

استهل العباسيون حكمهم لفلسطين بالمذابح، التي حاولوا من خلالها استئصال شأفة بني أمية وأنصارهم، فعهد الخليفة العباسي الأول، أبو العباس السفاح، إلى عبد الله بن علي بولاية الشام، الذي اعتقد بأن أهم مهامه هي استئصال شأفة بني أمية، أو من يواليهم بصلة أو نسب فقتل

من وقعت يده عليه ممن بقى على قيد الحياة منهم.

ولكي يتمكن من ذلك بعث، حين قدم إلى فلسطين، إلى بني أمية، وأظهر لهم أن أمير المؤمنين أوصاه بهم خيرًا، وأمره بصلتهم، ورد أموالهم عليهم، فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلا، على حد زعم بعض الروايات، أو اثنين وسبعون على ما تزعم روايات أخرى، فما كان منه إلى أن أعد لهم مجلسًا، فيه أضعافهم من الرجال، ومعهم السيوف والغمد، ولما أخذوا مجلسهم، قام جنوده، فضربوا الأمويين حتى قضوا عليهم، وقد أراد عبد الله من فعلته هذه أن تكون عبرة لكل أنصار البيت الأموي، وحتى يقضي على أحلام كل من تسول له نفسه بالثورة على بني العباس، انتقامًا لبني أمية(٦).

لقد توزعت فترة حكم بني العباس في فلسطين إلى قسمين(٧):

١- فترة الارتباط المباشر بالعراق (١٣٢ - ٢٦٤ هـ / ٧٥٠ - ٨٧٨ م).

٢- فترة الارتباط بمصر (٢٦٤ - ٣٥٨ هـ/ ٨٧٨ - ٩٦٩ م).

في الفترة الأولى، كان قد ترتب على انتقال السلطة إلى بني العباس، تدهور حال جنوب بلاد الشام، وانسحابه إلى الظل بعد أن كان في مكان الصدارة، زمن بني أمية، وأصبح هذا الجزء ولاية ثانوية، يشك العباسيون في ولائها، فلم يعط العباسيون حكمها إلا لأمراء البيت العباسي، أو لبعض المقربين المخلصين، كل الإخلاص، لهذا البيت.

أما الفترة الثانية، وهي فترة الارتباط بمصر، فقد انقلبت الأمور في

بلاد الشام، وكذلك في مصر، ودخلت هذه البلاد في عهد من القوة الإقليمية السياسية، والنشاط الاقتصادي بعكس ما كان يعانيه مركز الخلافة في العراق من فوضى عسكرية، وضعف السلطة المركزية، وبهذا ضعفت صلات جنوب الشام مع العراق، وتحولت هذه الصلات من بغداد إلى مصر، وقد اجتمع حكم جنوب الشام كله في يد وال واحد على الأغلب، وأصبح للقبائل العربية دور بارز على مسرح الحياة السياسية.

الزراعة والصناعة والتجارة:

افتقرت بلاد الشام عامة إلى المجاري المائية الدائمة، التي يمكن الاستفادة منها في الري، الأمر الذي أدى إلى اعتماد الزراعة، اعتمادًا كبيرًا، على مياه الأمطار في تقرير مصير المواسم الزراعية فيها. حيث انحصرت الزراعة في الشام بوجه عام في الجهات التي تستقبل كميات من المطر، والمناطق التي يمكن أن يستفاد منها من المصادر المائية الطبيعية للري، كالأنهار، والبحيرات، والعيون، وما شابه. وكانت السنة الزراعية تبدأ في بلاد الشام، في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، لأنه الشهر الذي يبدأ فيه سقوط المطر.

أما الأرض، فاستثمرت بطرق عديدة: كأن يقوم المالك بزراعتها، وجني محاصيلها. وينطبق هذا الأسلوب على الأراضي قليلة المساحة، أو أن يستأجر العمال للعمل في أرضه لقاء أجر محدد، أو يؤجر الأرض لقاء مبلغ من المال سنويًا، أو لقاء جزء من المحصول.

وظلت فلسطين، على مدى عصور تاريخها، محافظة على نمط زراعي واحد، ولم تدخل على هذا النمط تغييرات جذرية أو كبيرة، اللهم

إلا دخول زراعات حديثة، في عصر لم تكن معروفة في العصر الذي سبقه فالمحاصيل الزراعية لم تختلف في الماضي عما هي عليه الآن، إلا في المحاصيل التي عرفت بعد اكتشاف العالم الجديد، كالتبغ، والبندورة، والبطاطا، والذرة الصفراء، وكذلك قصب السكر الذي نقله العرب عن الصينيين[٨]، وهذه الزراعات الحديثة قليلة وطارئة.

إلى ذلك، كان الخل والزيت من الضرائب العينية التي تدفعها بلاد الشام إلى الخزانة المركزية، الأمر الذي يدل على وفرة محاصيل الكرمة وشجر الزيتون، فالزيتون كان آنذاك متوفرًا بكثرة في أغلب نواحي فلسطين، ولاسيما في منطقة البلقاء ونابلس، والجليل، أما أشجار الكرمة فكانت شائعة في البلقاء، والمقدس، وكذلك التين، وسواه من الفواكه، والخضروات[٩].

في مجال الصناعة، اشتهرت الشام عمومًا، ومنذ القدم، بصناعة الخزف، وقد حافظت على هذه الشهرة على مدى عصور التاريخ الإسلامي، وبخاصة الخزف المنقوش، وكذلك الزجاج الملون المطلي بالميناء الذي كان يصل إلى بقاع شتى من العالم، كذلك امتازت الشام بصناعة الأقمشة الحريرية، فضلاً عن صناعات أخرى: كصناعة السفن في عكا وصناعة السكر.

أما في مجال التجارة، فيمكن تقسيم التجارة في بلاد الشام إلى قسمين: تجارة داخلية وأخرى خارجية، ففي الأولى، كان النشاط التجاري يتمركز في الأسواق التي تقام في كل مدينة، وكان لكل طائفة من التجار سوقًا يختصون بها، وكانت الحوانيت تمتد على طول الشارع من الجانبين،

واتخذت الأسواق أسماء السلع التي تتخصص ببيعها، ولطالما حصلت موانئ فلسطين، وبخاصة عكا، على ما تحتاجه من السلع من سوق دمشق إلى جانب ما كان يصلها من بضائع عن طريق البحر، سواء من بقية الموانئ السورية، أو من تجارتها البحرية عامة، واستمدت أسواق بيت المقدس شهرتها في هذه الفترة، كسوق ناقلة للتجارة بين مغرب الدولة الإسلامية ومشرقها، وهناك كانوا يتقابلون مع الحجاج المسيحيين، فتتاح الفرصة للطرفين لتبادل البضائع.

في التجارة الخارجية، لم يتناسب حجم هذه التجارة مع موقع بلاد الشام المهم بين الشرق والغرب، أو مع ما يتوافر في هذه البلاد من موارد وخيرات، فكان التجار يستغلون موسم الحج ليسيروا في حماية قوافل الحجاج، ويقدموا البضائع إلى دمشق أو يبيعونها إلى تجار من الغرب.

فتجارة فلسطين في هذا العصر كانت في الغالب تجارة داخلية، ولم يكن للتجارة الخارجية شأن ملموس في الحياة الاقتصادية، وكانت مدينة بيت المقدس، بما لها من مكانة دينية عند المسلمين والمسيحيين، أهم مدن الشام التي تجري فيها معاملات تجارية مع الخارج.

تحالف العنصرية مع الفرنجة:

مضى على انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في القدس نصف قرن، فشل فيه الصليبيون الذين تشبثوا ببعض الحصون والقلاع، مثل صور، وعكا، وغيرهما، في الاحتفاظ بالقدس، أو أي من المناطق والمدن التي حررها العرب والمسلمون، ومن ثم أخذت إمدادات الغرب

لهذه الإمارات والحصون تقل وتضمر، حتى عجزت عن مواصلة البقاء في الأرض العربية، ولم يمد في أجلها، إلا ضعف الإمارات العربية، والفرقة التي أصابت أجزاء الوطن العربي، بعد صلاح الدين خاصة بعد استئثار المماليك بحكم مصر وبقاء إمارات الشام فريسة للضعف والمنازعات بين بقايا الأمراء الأيوبيين.

غير أن الغرب كان قد قرر أن يقوم بجولة أخرى، في صراعه ضد حضارة العرب والمسلمين، وتوافق هذا التفكير الاستعماري مع ظهور قوة الدولة المغولية (التتر) في أواسط آسيا، تلك الدولة التي كونتها قبائل وثنية جبلية، من الأتراك، ويقول مؤرخو الترك بأن الملك " النجه خان "، أحد ملوك الترك في الأزمنة القديمة، ولد له ولدان توأمان، هما " تتارخان "، و " مغل خان "، وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين في عهد " إيلخان " ملك المغل، و " سونج خان "، ملك التتر، وجر هذا النزاع إلى حروب طويلة، انتصر فيها التتار تارة، فيما انتصر فيها المغول تارة أخرى، إلى أن جاء عهد " جنكيز خان "، الذي وحد بين المغول والتتار، فصارت له مملكة واسعة وعاصمتها مدينة " قراقروم " [١٠].

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر الميلادي، اكتملت استعدادات في بلاط الدولة المغولية للقيام بزحف مدمر يستهدف احتلال الكثير من بلاد أوروبا بالإغارة على المناطق الشمالية الغربية لأوروبا، وهنا بذل الغرب جهودًا مضنية، كي يجعل وجهة هذا الزحف التتري إلى بلاد العرب والمسلمين، ولكي يقيم تحالفًا غير مقدس بينه وبين هذه القوة الوثنية

العنصرية، علـه يقتسم معها الوطن العربـي، ويعيد سيطرته ثانيـة علـى القدس وغيرها من مدن الشام، وفلسطين ففي سنة ١٢٤٥م أرسل البابـا " أنيوسننت الرابع " بعثة إلى " قراقروم " عاصمة الدولـة التتريـة، ورأس هذه البعثة مندوب البابا " جون ده بياني كـابريني "، حيث قـام بمباحثـات طويلـة وشـاقة، استهدفت تحويل مطـامع التتـار إلـى بلاد العرب، وإقامـة حلف بينهم وبين الفرنجة، وعندما أقلعت من فرنسا الحملة الصليبية التـي قادها ملكهـا " لـويس التاسـع "، قاصـدة مصـر، كـي تحتلهـا، وتغـزو مـن بعدها وعن طريقها فلسطين، توقفت هذه الحملة في جزيرة قبرص، شتاء ١٢٤٨ - ١٢٤٩ م، لاستكمال الاستعدادات، وهنـاك جاءت إلـى " لـويس التاسع " بعثة تترية من قبل " خاقان " التتـار، " جغطـاي "، حملت معهـا التحف والهدايا، وعقدت المباحثات لإقامة هذا التحالف، ولما عادت إلى " قراقروم " صحبتها بعثة فرنسية لاستكمال البحث حول تسيير جيش تتري من الشرق ليحتل المشرق العربـي، فـي الوقت الـذي يهاجم فيـه " لـويس التاسع " مصر عن طريق دمياط، فلا تستطيع مصـر نجدة المشرق، ولا يتيسر لجند المشرق أن يقفوا إلى جوار المصريين(١١).

لم تقض هزيمة " لويس التاسع " في مصر على الجهود المبذولة لعقد هذا التحالف، إذ خرجت من حصن الفرنجة، " عكا " سنـة ١٢٥٢م بعثـة فرنسية رئسها رجل الدين " جليوم ردبروك "، وذهبت إلى " قراقروم "، واستمرت تفـاوض فـي بـلاد الخـان التتـري " منكوقـا آن "، خمسـة أشـهر كاملة للوصول إلى الاتفاق المنشود.

واستغل الفرنجة نفوذ إحدى زوجات " هولاكو " واسمها " دوقوزخاتون "، وكانت مسيحية نسطورية، ذات نفوذ على قلب القائد، وعقله، وبعد مفاوضات استمرت خمسين يومًا متصلة في " قراقورم "، بين " هولاكو " وبين الأمير " هيتوم " الذي كان يومئذ، ملكًا على الإمارة الصليبية " أرمينيا " على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، نجح الفرنجة في إقناع التتار بعقد هذا التحالف، وتجهيز الحملة لتدمير بلاد العرب والمسلمين، بل أكثر من ذلك، نجحوا في أن يقرر " هولاكو " أن يكون نائبه في قيادة الجيش التتري، القائد " كتبغا "، وهو من قبيلة تترية، اعتنقت المسيحية على مذهب النسطوريين.

وعند ذلك جمع الأمير " هيتوم " جيشًا، انضم به إلى قوات " هولاكو "، وأتلى " البطريق " الأرمني المسيحي كي يمنح البركة للخان الوثني ولجنده الزاحفين لتدمير حضارة العرب والمسلمين(١٢).

فلسطين والوحدة العربية:

بعد أن دمر الجيش التتري الدولة الخوارزمية في فارس، بدأ زحفه على العالم العربي بدخول بغداد في ٧ صفر سنة ٦٥٦ هـ الموافق ١٣ فبراير / شباط سنة ١٢٥٨م، حيث قام بمجزرة استمرت، ولا تزال، مضرب الأمثال على مر التاريخ، حتى قدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى في هذه المذبحة من أهل بغداد بثمانمائة ألف نسمة، فيهم الخليفة العباسي المستعصم (الذي قتل على يد هولاكو)، وأهل بيته، ومملكته من الأمراء والوزراء.

ثم بعد ذلك سقطت حلب بيد " هولاكو " في محرم سنة ٦٥٨ هـ، بعد حصار سبعة أيام ففر الملك الناصر، بمن معه من دمشق إلى غزة، يريد اللجوء إلى مصر، ولكنه عاد وتردد خوفًا من عقاب الملك المظفر " قطز "، ففضل العودة والاستسلام للتتار، وذلك بعد أن ترك دمشق تسقط في يد العدو خالية من القوات المقاتلة، وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت أرض الشام ميدانًا مفتوحًا أمام جحافل التتار، فأخذوا في التقدم، حتى بلغوا غزة، على مشارف مصر.

أرسل " هولاكو " رسالة شديدة اللهجة إلى الملك المظفر " قطز " يطلب فيها الاستسلام لكن " قطز " رفض الاستسلام، وقتل رسل " هولاكو "، وعلق رؤوسهم على باب زويلة، وقرر حتمية الخروج للقاء العدو، وضرورة قتاله، فخرج الملك المظفر " قطز " بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام، ومن العرب قاصدًا قتال الأعداء، على الرغم من أن العدو كان بالنسبة لهم أسطورة لم تعرف الهزيمة، في يوم من الأيام، مدمرًا كل ما خلف وراءه من حضارات ومدنيات، وانضم " بيبرس " من أمراء الملك الناصر، بجيشه إلى جيش مصر، كما انضم لمصر أيضًا الملك المنصور، صاحب حماة، الذي لجأ بجنده إلى مصر.

في غزة كان أول لقاء، انتهى بانسحاب التتار إلى شاطئ نهر " العاصي "، كي ينظموا صفوفهم ويجمعوا قواتهم للقاء الفاصل بينهم وبين العرب والمسلمين، ورحل الجيش العربي عن غزة بعد أن أقام بها يومًا واحدًا، واتخذ ساحل البحر الأبيض المتوسط طريقًا له نحو الشمال،

والتقى هناك في عكا، ببقايا لجند الفرنجة، الذين هالهم ضخامة استعداد العرب، وقوة الحشد الذي خرجوا به للقتال، وبسيف الرهبة أفسحوا الطريق للجيش الزاحف، ولكنهم أرادوا الغدر به عن طريق الانضمام إليه حتى يخذلوه ويشيعوا فيه الفرقة وأسباب الهزيمة عند شدة اللقاء، وكان " قطز " يقظًا للعبتهم هذه، فرفض عرضهم هذا، وطلب منهم " أن يكونوا لا له ولا عليه "، وأقسم لهم بأنه متى تبعه منهم فارس، أو رجل يريد أذى عسكر المسلمين، رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار، تأمينًا لظهر جيش المسلمين.

ثم سار " بيبرس " على رأس جزء من الجيش في مقدمة الزحف، وأخذ في مناوشة طلائع التتار، حتى انتهى الأمر بمجموع الجيشين إلى الوقوف مواجهة عند قرية " عين جالوت " في ١٣ سبتمبر ١٢٦٠ م الموافق يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ، التي انتصر فيه الجيش العربي على التتار وأوقعوا أمراءهم قتلى وأسرى، وجيء بقائدهم " كتبغا " مكبلا بين يدي السلطان الذي فصل رأسه عن جسده كي يطاف بها في مختلف أنحاء البلاد، على حين تعقب " بيبرس " فلولهم وقضى عليهم، وعاد الجيش المنتصر، لتستقبله مدن الشام وقراها، وتتقدم إلى سلطانه إمارته معلنة عودتها إلى الوحدة مع مصر، تلك الوحدة التي كان قد انفرط عقدها منذ أن توفى صلاح الدين الأيوبي.

خاتمة:

سجل التاريخ أنه، على أرض فلسطين، استطاع العرب والمسلمون في " عين جالوت " أن يحسموا لصالحهم جولة من جولات الصراع ضد

حضارتهم، وتقدمهم.. وهي الجولة التي هزموا فيها قوة التتار العنصرية، المتحالفة مع الصليبيين، كما كان قد سجل من قبل انتصارات صلاح الدين الأيوبي، في جولة سابقة ضد الأعداء على الأرض نفسها، أرض فلسطين عام ١١٨٧م.

في كل هذه الجولات كانت الوحدة هي سبيل استعادة الحق العربي الإسلامي، وطريق تحرير هذه الأرض من غاصبيها، كما كان القتال على هذه الأرض، وإحراز النصر فيه، الخيوط التي تنسج، من جديد، وحدة العالم العربي، وتمنحه اليقظة والقوة، وسجل التاريخ في ذلك اليوم، أول هزيمة للجيش التتري، الذي لم يعرف من قبل سوى الانتصارات، كما سجل هزيمة للغرب اللاتيني الصليبي الذي تحالف مع " هولاكو " ضد العرب والمسلمين، ولكن هذا النصر العربي الكبير لم ينه فصول الصراع بين الحضارة العربية وبين الأعداء، فكما تحالف الغرب مع التتار الوثنيين بالأمس ضد العالم العربي، يعود اليوم للتحالف مع الصهيونية العنصرية ضد العروبة ومقدسات المسلمين.

لذلك تبقى دروس انتصار الأمس معالم حية على طريق انتصارنا المأمول، فلقد كانت الوحدة هي طريق النصر في عين جالوت، كما أعاد النصر في عين جالوت وحدة المشرق العربي مع مصر، بعد أن انفرط عقدها منذ أيام " صلاح الدين ".

أمة اقرأ لا تقرأ:

فمنذ قرون طويلة، كان الصراع قائمًا بين الشرق والغرب، وظلت لهذا الصراع دوراته، وموجاته، ومعاركه، رغم تعدد النظم والحضارات

التـي شـهدتها مـواطن الغـزاة، الـذين ظلـت أعيـنهم جميعًـا علـى الشـرق طامعين في ثرواته، وكنوزه، وموقعه الاستراتيجي الذي يحكم مركز هذا الكوكب الذي نعيش فيه.

وقد كـان صـراع الغـرب، ممـثلا فـي الدولـة البيزنطيـة، ضـد الشـرق ممثلا في الدولة الفارسية القديمة، فصـلا مـن فصـول هـذا الصـراع، امتـد على طول قرون عديدة سبقت ميلاد المسيح، وقد استطاع الغـرب بقيـادة الإسكندر المقدوني أن يحرز في القرن الثاني قبل الميلاد انتصـارًا بـاهرًا للغرب ضد الشرق عندما كون إمبراطوريتـه الشـرقية الواسـعة الأرجـاء، هي الإمبراطورية التي جعلت سيادة الغرب تدوم أكثر من ثمانية قرون.

وعنـدما ظهـر الإسـلام، تسـلح العـرب بأسـلحته الماديـة، والمعنويـة، وأخذوا على عاتقهم مهمة تحرير الشرق مـن نيـر الحكـم البيزنطـي، ففـتح المسيحيون المصريون أذرعهم لجيش عمـرو بـن العـاص، ونصـروه ضـد البيزنطيين، وحـارب عـرب سـوريا الغساسـنة ـ وهـم نصـارى ـ فـي صـفوف الجيش العربـي المسـلم ضـد نصـارى الـروم، وفـي مـدة وجيـزة، اسـتطاع العـرب أن ينفضـوا عـن كاهـل الشـرق رداء الغـزو الاسـتعماري الغربـي الذي ألقاه على كاهله الاسكندر الأكبر في القرن الثاني قبل الميلاد.

وفـي العصـور الوسـطى، وعلـى امتـداد قـرنين مـن الزمـان (١٠٩٦ - ١٢٩٢م) تجدد الصراع من جديد، وجـاء الغـرب الاسـتعماري هـذه المـرة متخفيًـا وراء سـتار الصـليب، محـاولاً سـتر أطماعـه الاسـتعمارية الاسـتيطانية بالـدين، واسـتولى علـى مسـاحات مـن الأرض أقـام عليهـا الإمارات الصليبية، التي فصل بها الشرق العربي عن مصـر والمغـرب،

وأحكم قبضته على مقدرات التجارة العالمية المارة بالشرق العربي، واستيقظ الشرق، وكانت " حطين "، المعركة الفاصلة التي حسمت هذه الموجة من موجات ذلك الصراع لصالح العرب.

وفي صراع الغرب الاستعماري هذا ضد العرب والعروبة، استعان بالأقليات والقبائل والفئات العنصرية التي لا يكن لها أي ود، ولا تربطه بها أية روابط فكرية، كما حدث مع " التتار " الوثنيين ضد العرب الذي يدينون بدين سماوي.

وفي بدايات العصر الحديث، تعرض الشرق العربي لموجة جديدة من الغزو الغربي، رفع أصحابها هذه المرة رايات التجارة والتجار، فكان ذلك الصراع القائم والمستمر منذ حملة بونابرت على مصر ثم الشام، وفي هذه الموجة والمرحلة من هذا الصراع، استعان الغرب، ولا يزال، بالأقلية العنصرية المتمثلة في اليهود والصهاينة، رغم تاريخ هذا الغرب في حصار اليهود في مدنه كالمنبوذين.

وطوال جميع مراحل هذا الصراع كانت عين الغزاة على مصر، تحاول عزلها عن المشرق العربي، حتى لا تتم للعرب قوتهم بوحدتهم، فكانت الكيانات الصليبية قديمًا تمتد من البحر المتوسط حتى ميناء " آيلة " على خليج العقبة، وحديثًا تقوم في هذا الموقع الدولة الصهيونية لتحق الأهداف نفسها، وهي تطمح في التمكين لهذا العزل بإعطاء " الجدار العازل " المزيد من العرض والطول!.

وطوال المعارك التي شهدها هذا الصراع، كانت وحدة الجبهة

القومية العربية، وبالذات وحدة المشرق مع مصر، وتَسَانُد الجبهة الشرقية مع الجبهة الغربية هي المقدمة الضرورية لإحراز النصر على هذا الغزو الاستعماري، وذلك الجسم المزروع قسراً في قلب الوطن العربي.

* * *

مراجع الفصل الرابع عشر

(١) د. أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة**، الجزء الثالث، القاهرة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، ١٩٨٢، ص ١٩ - ٢٦.
(٢) عارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي**، القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، ١٩٤٧، ص ١٦.
(٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٣ - ٤٤.
(٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، والقاهرة، د. ت. ج٩، ص ١١٦ وما بعدها.
(٥) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص ٢٩٩.
(٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٧ - ٢٥٩.
(٨) **المصدر نفسه**، ص ٣١٧.
(٩) **المصدر نفسه**، ص ٣١٧.
(١٠) الشيخ محمد الحضري بك، **الدولة العباسية**، تحقيق الشيخ محمد العثماني، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.
(١١) د. محمد عمار، **معارك العرب ضد الغزاة**، بيروت، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ١٢١.
(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٢٣.

* * *

الفصل الخامس عشر

فلسطين بين الإخشيديين والفاطميين، والقرامطة والسلاجقة

الفصل الخامس عشر:

فلسطين بين الإخشيديين والفاطميين، والقرامطة والسلاجقة

عبد القادر ياسين

خلال أيام الطولونيين، نظَّم صالح بن مدَّرِّك (الطائي)، سنة ٨٩٨م، عصيانًا على السطة، وهاجم قوافل الحج، واستولى على أموالها. ولم ينظر بنو الجراح بعين الرضا إلى الحكم الفاطمي، الذي هدد مصالحهم، فأخذوا يناوئونه. وكان بنوا الجرَّاح قد برزوا في جنوب بلاد الشام، غداة أفول نجم الحمدانيين في شمالها، بعد موت سيف الدولة الحمداني (٩٦٧م). وأفضى تناحر القبائل، وإذكاء القوى المجاورة (العباسيين والفاطميين، والبيزنطيين، والقرامطة) للصراع، إلى تدهور أحوال بلاد الشام، الاقتصادية والاجتماعية. وقد اتخذ الطولونيون، ومن بعدهم الإخشيديون، فالفاطميون، من مصر مقرًا لحكمهم، فيما كانوا يتولون ولاية الشام، أيضًا[١].

على مدى نحو مائة وأربعين سنة (٩٣٥ - ١٠٧٢م) ظلت فلسطين، ككرة، تتقاذفها أقدام الإخشيديين، والفاطميين،

والقرامطة، والعباسيين.

١ - الإخشيديون:

مدَّت الدولة الإخشيدية سلطانها على مصر والشام، لنحو أربعة عقود متَّصلة (٩٣٥ - ٩٦٩م). فقد تولى الإخشيد محمد بن طغج أمر مصر والشام، سنة ٩٣٥م، بعد أن هزم محمد بن رائق، الوالي العباسي. لكن ابن رائق عاد، بعد خمس سنين، واستولى على الشام، وحين توجه لغزو مصر، في السنة نفسها، تصالح مع حاكمها الإخشيدي، القائم بأمر الله، الذي أعاد تنظيم صفوف قواته، وهزم ابن رائق، في سيناء، ثم أرسل الإخشيد شقيقه، أبا نصر بن طغج، ليلاحق ابن رائق في بلاد الشام، على أن الأخير هزم أبا نصر، وقتله. فاضطر الإخشيد إلى عقد صلح جديد مع ابن رائق، على أن تكون فلسطين للإخشيد، مقابل أتاوة يدفعها لابن رائق[٢].

ولما قُتِلَ الأخير، بعد سنتين، احتَّل الأخشيد دمشق. وبعد أربع سنوات توفى الأخشيد، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور (٩٤٦ - ٩٦٠م). وحين احتل سيف الدولة الحمداني دمشق، خرج أنوجور من القاهرة، لملاقاته، فهزم سيف الدولة، في الرملة، وعادت دمشق للإخشيديين. وقويت شوكة كافور الإخشيدي، في ولاية علي بن الإخشيد، الذي خلف أنوجور. حتى أن كافور خلف عليًا في الحكم، لمدة سنتين وأربعة أشهر. وقد خلفه في مصر أحمد بن علي بن الإخشيد (٩٦٨م). وفي السنة التالية أخذ الجند المغاربة يتدفقون على مصر، تحت إمرة جوهر الصقلّي، القائد العسكري للمعز لدين الله لفاطمي، فانقرضت الدولة الأخشيدية[٣].

٢ - الدولة الفاطمية:

حين اعترى الوهن الدولة العباسية، انعكس ذلك على الولايات التابعة لها، وبضمنها الشام. وكثمرة للضرورة، السياسية والحربية، يمم الفاطميون وجههم شطر بلاد الشام.

لم يجد جعفر بن فلاح، قائد الحملة الفاطمية على بلاد الشام، أيام المعز لدين الله، صعوبة كبيرة في إلحاق الهزيمة بعامل الإخشيديين على فلسطين، في معركة قرب الرملة (٩٦٩م). وتوجه ابن فلاح، بعد ذلك، إلى طبريَّة - عاصمة جند الأردن - فدخلها صلحًا. ومن هناك تابع مسيرته إلى دمشق، بعد أن كان وجهاؤها قد جاؤوا جعفر، في طبرية، لعقد صلح معه، فأساء معاملتهم، الأمر الذي دعاهم إلى المقاومة، وإن بدون جدوى. ووقعت دمشق في يد ابن فلاح، وأقيمت الخطبة فيها للمعز، في العام نفسه[٤].

حين مدَّت الدولة الفاطمية نفوذها من مصر إلى بلاد الشام (٩٦٩م)، فإن هذا النفوذ افتقر إلى الاستقرار، بسبب القبائل العربية بالداخل، والحركات الاستقلالية (الحمدانيين، وبنو مرداس في حلب، وبنو الجرَّاح الطائيين بفلسطين)، ومن الخارج كان ثمة القرامطة، والدولة البيزنطية. ناهيك عن التعارض المذهبي بين الفاطميين (الشيعة)، وأهل الشام (السُنَّة)، ما عرَّض حكم الفاطميين للشام إلى هبَّات وحالات تمرُّد عِدة[٥].

أي أن العوامل التي سهَّلت على الفاطميين فتح بلاد لاشام، هي نفسها التي حالت دون استقرار حكمهم فيها، حتى أن الامبراطور البيزنطي، تمسكس توغَّل عميقًا في بلاد الشام، وصولاً إلى بيسان

بعد دمشق (٩٧٥م). لكن البيزنطيين انسحبوا، إثر اتفاق مع لفاطميين، فيما تقدَّم الأخيرون إلى دمشق، للقضاء على ألبتكين، الذي استعان بالقرامطة، فخفَّ لنجدته الأعصم من الأحساء، ودحرا جيش جوهر الصقلي، وطارداه حتى عسقلان، وحاصراه، وفرضا عليه صلحًا، سلَّم بموجبه لألبتكين بحكم الشام، لكن الخليفة الفاطمي الجديد، العزيز بالله (٩٧٥ - ٩٩٦م) رفض شروط الصلح، وقاد بنفسه جيشًا ضد تحالف القرامطة والقبائل الترك، والعسكر الترك، وألحق بهم هزيمة، ولكنها لم تكن حاسمة، ما دفع العزيز بالله إلى استمالة بني الجرَّاح، والعفو عن ألبتكين، ودفع جعالة سنوية للأعصم[٦].

٣ - القرامطة:

ألحق القرامطة - بزعامة الحسن الأعصم - الهزيمة بجيش جعفر بن فلاح، سنة ٩٧١م، وقُتِلَ الأخير في هذه المعركة، ودخل الأعصم فلسطين، وعاصمتها الرملة، قبل أن يتركها لوال من رجاله، ومعه مفرج بن دغفل بن الجرَّاح (الطائي)، وبعض الأخشيديين، والكافوريين. وفتح الأعصم يافا، وحين اتجه إلى مصر، هزمه جوهر الصقلّي، سنة ٩٧١م. وإن رضخ حسَّان لإغراء ذهب المعز، وتخلى عن الأعصم، وتعاون مع الفاطميين ضده، ودحر الحليفان الأعصم عن بلاد الشام[٧]. ما مكَّن الصقلّي من استرداد فلسطين، وإن عاد القرامطة واستردوها، في العام التالي، وظل الطرفان أسرى حروب متتالية، يتناوبان النصر والهزيمة، والاحتلال والانسحاب، إلى أن تمكَّن جيشٌ فاطمي، بقيادة محمود بن جعفر بن فلاح، من استرداد دمشق من القرامطة[٨].

في العام نفسه نقل التركي، أفتكين، ولاءه في فلسطين، من الفاطميين إلى العباسيين. لكنه، بعد قتال ضار مع الفاطميين، تنازل لهم أفتكين عن ما بين غزة ومصر. وانتظر الفاطميون سنتين أُخريين قبل أن يكروا على أفتكين، ويستعيدوا فلسطين والشام، إلى أن حكم آل الجرَّاح فلسطين (٩٧٠ - ١١٠٣م)، وتذبذبت علاقة آل الجرَّاح بالفاطميين، فيما تحالفوا مع الحمدانيين في حلب[٩].

في سنة ٩٨٨م، تمرَّد المفرج على حكم الفاطميين، متحالفًا مع سعد الدولة الحمداني. ومع موت المفرج (١٠١٣م)، وتولى الحاكم بأمر الله الخلافة الفاطمية بمصر (١٠٢١م)، أوفد الأخير جيشًا ألحق الهزيمة بحسَّان بابن المفرج، عند الرملة، لكن الأخير عاد واحتل الرملة، مع موت الحاكم بأمر الله (١٠٢٤م). وإن هزم الفاطميون إبن المفرج، لاحقًا، في طبرية (١٠٢٩م). واندلع الصراع بين الأمراء على فلسطين والشام، حتى أن بعضهم استعان بالروم البيزنطيين على خصومه[١٠].

٤ - السلاجقة:

أغرى انحسار النفوذ السياسي للفاطميين، في شمال بلاد الشام وجنوبها، السلاجقة - بعد أن كانوا استولوا على بغداد - لمد سلطانهم إلى الشام، فتمكَّنوا من الاستيلاء على الرملة، والقدس، ودمشق. لكن الفاطميين قاسموهم السلطة في الشام، في أواخر القرن الخامس الهجري. كما تعرَّضت بلاد الشام، في تلك الحقبة، إلى تهديد البيزنطيين لحدودها الشمالية[١١]. ففي ١٠٧٢م، اجتاح التركمان السلاجقة بلاد الشام، لكن الخلاف سرعان ما دبَّ ين نوّاب السلاجقة. ثم حدث أن فرَّ القائد

العسكري التركي، البسياسيري، من بغداد (١٠٧٥م) من وجه السلاجقة، ووصلت جماعة صغيرة من الأتراك إلى بلاد الشام، وغدت طرفًا في الصراعات الداخلية، التي احتدمت هناك. ما اضطر والي الشام الفاطمي، بدر الجمَّالي، إلى الاستعانة بالجماعات الغزِّية (الخوارزمية)، لإخضاع القبائل العربية. لكن الجمالي سرعان ما تحالف مع هذه القبائل، منقلبًا على الجماعات الغزِّية، وهزمهم (١٠٧١م)، لكن تلك الجماعات استولت على الداخل، تاركة الساحل للفاطميين، الذين تشبَّثوا به، لأهميته الاقتصادية في مجال التجارة مع بيزنطة. ثم استولى الغزّيون على عكا، في السنة التالية. وحين توجَّهوا إلى مصر حاقت بهم الهزيمة. ما أغرى الفلسطينيين على الثورة ضد الغزِّيين، فقمعهم الأخيرون، وعاثوا تخريبًا في القدس(١٠٧٥م) [١٢].

ما دفع الخليفة الفاطمي إلى تسيير حملة عسكرية، لاسترداد بلاد الشام، سنة ١١٩٩م، فدخل قائد الحملة، الفضل بن بدر الجمَّالي، القدس، بعد أن منح أهلها الأمان، الذي طلبوه، وعاد الجمَّالي إلى مصر، بعد أن ولَّى افتخار الدولة على القدس. وإجمالاً، فإنه يمكن اعتبار مقتل تاج الدولة تتش، في القتال مع أخيه، السلطان بركيا روق (١٠٩٥م)، بدايةً فعلية لنهاية نفوذ السلاجقة في بلاد الشام، مما مهَّد لحملات الفرنجة[١٣].

حين استفحل أمر أطسيز، أرسل السلطان ملكشاه (١٠٩٢م)، أخاه تتش، لإخضاع أطسيز، الذي قُتِلَ، وانتهز الفاطميون الفرصة فوسّعوا سلطانهم، ولم يلبثوا أن استولوا على القدس(١٠٩٦م)، إلى أن دخلها الفرنجة، بعد ثلاث سنوات[١٤].

مراجع الفصل الخامس عشر

(١) إلياس شوفاني، **الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩**، ط٢، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨، ص ١٨٤ - ١٨٥.

- د. خاشع المعاضيدي، **الحياة السياسية في الشام خلال العصر الفاطمي**، بغداد، دار الحرية، ١٩٧٦، ص١٩.

(٢) **الموسوعة الفسطينية**، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠(انظر: نبيه عاقل، فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ص٢٨٥ - ٢٨٦).

(٣) **المصدر نفسه**، ص٢٨٦.

(٤) **شوفاني**، مصدر سبق ذكره، ص١٨٣.

(٥) **المصدر نفسه**، ص١٨٥ - ١٨٦.

- عاقل، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٨٨ - ٢٨٩.

(٦) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٥.

- المعاضيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٧.

(٧) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٥ - ١٨٦.

(٨) **المصدر نفسه**، ص١٨٦.

(٩) **المصدر نفسه**، ص١٨٧.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص١٨٣ - ١٨٤.

(١١) المعاضيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٧، ٨.

(١٢) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨٧.

(١٣) المعاضيدي، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٩ - ١٠٧.

(١٤) شوفاني، **مصدر سبق ذكره**، ١٨٧.

* * *

الفصل السادس عشر

فلسطين
إبان حروب الفرنجة

الفصل السادس عشر:
فلسطين إبان حروب الفرنجة

د. نهال خضر البرعى

كـأن الـرئيس الأمريكـى جـورج دبليـو بـوش، أحيـا فـي الغـرب الإستعمارى، بل في العالم أجمع، ذكريات حروب الفرنجة سيئة الصيت. فكما أضفى الغرب على هذه الحروب صفة " الصليبية "، فإن بوش الابن ألبس حروبه ضد ما أسماه " الإرهـاب "، صـفة " الصـليبية "، ولـم يعفـه تنصله أو اعتذاره اللاحق عن هذه السقطة.

فما هي " الحروب الصليبية " ؟ ما ملابساتها؟ وما موقع فلسطين في هذه الحروب؟

" الحـروب الصـليبية "، مصـطلح اسـتحدثه المؤرخـون، ويقصـد بـه الحملات الأوروبية " حملات الفرنجة " على المشرق العربي، ابتداءً من سـنة ١٠٩٥م وحتـى ١٢٩١م، أو حتـى شـطر كبيـر مـن القـرن الخـامس عشر، حسب آراء أخرى [١].

وإن استمرت هذه الحروب ما يزيد على القرنين من الزمان، فإن ثمة ظروف وداوفع مهدت لهذه الحروب.

التأسيس للحملات:

" هكذا أراد الله "! هذه هي صيحة الحرب الشهيرة، التي أطلقها البابا أوربان الثانى، في ٢٧ تشرين الثانى / نوفمبر ١٠٩٥، في مؤتمر بكليرمون، جنوبى فرنسا، داعياً إلى تخليص " القبر المقدس "، من أيدى " البرابرة والكفار "، فاتحا بذلك درب هجمات استعمارية إستيطانية، مستظلة بالدين المسيحى.

الغريب أن تُشن الحرب بإسم الدين المسيحى، فمن يمعن النظر في الأناجيل المسيحية يجد إتجاهاً سلمياً واضحاً. حيث جاء في " إنجيل متى "، على لسان المسيح؛ " لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون ". وجاء أيضاً " سمعتم أنه قيل عين بعين، وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً ".

كما نهى عن القتل " قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ". ورد على لسان بولس الرسول: " لا تجاوزوا أحداً عن شر بشر، معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس، لا تنتقموا لأنفسكم، أيها الأحباء، بل أعطوا مكاناً للغضب، لا يغلبك الشر، بل إغلب الشر بالخير ".

كان سان باسيل القبادوقي، أعظم مشرِّعى الكنيسة البيزنطية، يعتبر أن الشهيد هو الذي يموت متسلحاً بالإيمان فحسب، وليس الذي يقتل في الحرب ضد الكفار، بل إنه كان يوصى الجندى الذي قتل عدوه في الحرب، بأن يكفِّر عن ذنبه بالإبتعاد عن الجماعة المقدسة ثلاث سنوات. ولعل هذا هو السبب في الطابع الدفاعى الغالب للحروب البيزنطية،

ولميل الأباطرة البيزنطيين إلى الوسائل السلمية [٢].

إذا كانت تعاليم السيد المسيح تنبئ بالسماحة والسلام، فكيف تحولت الكنيسة إلى داعية للحرب والدمار والقتل؟!.

يعد الامبراطور البيزنطى، هرقل أول من استغل الروح الدينية حيث أعلن حرباً صليبية ضد أعداء الدولة، وأعداء الكنيسة، بين عامى ٦١٠ - ٦٤١ م، حارب خلالها الفرس وطردهم من البلاد التي احتلوها في آسيا الصغرى، وبلاد الشام، ومصر، واستعاد " الصليب المقدس " وبيت المقدس منهم، وكانت الكنيسة تساعده وتسانده، لذلك حمل لقب " أول الصليبيين " [٣].

توالت بعد ذلك، " الحروب الصليبية " ضد المخالفين، وضد معتنقى الديانات الأخرى خاصة الإسلام، كالحروب التي دارت رحاها بين المسلمين وأعدائهم في شبه الجزيرة الإيبرية، أسهمت فيها البابوية أكبر إسهام [٤]. وفي كانون الأول / ديسمبر ٨٥٣م، طلب البابا ليو الرابع مساعد الجيوش الفرنجية ضد المسلمين الذين هاجموا روما، ووعدهم بأن من يموت في المعارك، سوف يكافأ على ذلك في السماء. وكانت هذه خطوة أكثر تقدماً في سبيل صياغة إيديولجية الحرب المقدسة، أوجدتها الظروف التاريخية الموضوعية. فالبابوية لم تكن متورطة، بشكل مباشر، في تنظيم الجيوش، وتوجيهها للحرب، حتى القرن التاسع، عندما واجهت مشكلة الدفاع عن أملاكها، في وسط أوروبا، وعندما حدث ذلك، بدأت محاولات البابوية لتبرير الحرب على أُسس دينية من ناحية، وربطها بمفهوم الخلاص المسيحى، من ناحية أُخرى [٥].

برزت الفكرة مرة أخرى، في عام ٨٧٨ م، على يد البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢ م) الذي طلب في سنة ٨٧٦م، مساعدة شارل الأصلع ضد المسلمين، وعبر عن خوفه من أنه بدون هذه المساعدة، قد تتعرض الديانة المسيحية، والمجد الإمبراطورى للخطر [٦].

في سنة ١٠٦٣ م، منح البابا، إسكندر الثانى، المحاربين المسيحيين، الذين يقاتلون مسلمى الأندلس غفراناً، وإعفاءً من التوبة، واعنبر قتالهم ضد المسلمين تكفيراً عن خطاياهم. يعد هذا جزءاً من سياسة تشجيع الحرب ضد المسلمين (حرب الإسترداد). وفي خطابه الموجه إلى أسقف ناريون نجد البابا يستثنى ذبح المسلمين من التحريم الكنسى العام للقتل، مما يكشف بوضوح، مساندة هذا البابا للحرب ضد المسلمين [٧].

كان أوربان الثانى - صاحب المبادرة الأولى - قد دعا لحرب الفرنجة، في مجمع " بياسنزا - بليزانس " بإيطاليا، عام ١٠٩٥ م حين دعم أوربان، مطلب رسل البابا إلى المجمع المسكونى، دون أن يكون مقتنعاً بأن " الصليبية " يمكن أن تحرز هدفاً سريعاً، وسهلاً. ما بين آذار / مارس، وتشرين الثانى / نوفمبر قام البابا أُوربان الثانى بجولة في أوروبا، لتأمين الدعم لهذه الحرب، والدعوة لها [٨].

في مؤتمر في أو فريني، بكليرمون، استهل أُوربان الثانى خطبته، باستثارة المشاعر الدينية لدى الحضور، وإلهاب حماستهم، محرضاً إياهم على المسلمين، وموجهاً الإتهامات المبالغ فيها: " يا شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار!... لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة

القسطنطينية أنباء محزنة، تعلن أن جنساً لعيناً، أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد،، بلاد المسيحيين، وخرّبها، بما نشره فيها من أعمال السلب، وبالحرائق، ولقد ساقوا الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر، بعد أن عذبوهم، أشنع التعذيب، وهم يهدمون المذابح في الكنائس، بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان، وانتزعوا منها أقاليم، بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع إجتيازها، في شهرين كاملين. على من، إذن، تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم؟!.

وإذ يذكرهم البابا أُوربان الثانى بأسلافهم، أمثال شارلمان، وأمجاده وعظمته، فإنه يشير إلى القدس، بوضوح، داعياً للهجرة إليها، والإستيطان فيها، ومبشراً بالغفران: ".. فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس، ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أُمم بخسة، وغيره من الأماكن المقدسة، التي لوثت ودنست.. لا تدعو شيئاً يقعد بكم من أملاككم، أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وقلل الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضهم بعضاً ويلتهم بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحرب الداخلية ". ويسترسل البابا أوربان الثانى: "... إتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض التي لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم، أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة، راغبين

متحمسين، تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا، لا يفنى في ملكوت السماوات " [٩].

هنا علت أصوات الجموع المتحمسة، قائلة: " تلك إرادة الله "!، وردد أوربان هذا النداء، ودعاهم إلى أن يجعلوه نداءهم في الحرب، كما أمر الذاهبين إلى الحرب " بأن يضعوا علامة الصليب على جباههم، أو صدورهم[١٠].

على مدى تسعة أشهر، بعد هذا الخطاب، كان البابا ينتقل، بنشاط، عبر مدن أوروبا، داعياً للحملة " الصليبية " وقد أخذ على عاتقه أن يحل جميع " الصليبيين " من القيود التي تعوقهم عن الإنضمام إلى المقاتلين، فحرر رقيق الأرض، ومعهم التابع الإقطاعى، طوال مدة الحرب، مما عليه من الولاء لسيده، ومنح جميع " الصليبيين " مزية المحاكمة أمام المحاكم الكنسية، لا أمام المحاكم الإقطاعية، وضمن لهم مدة غيابهم، حماية الكنيسة لأملاكهم. وهكذا نجح البابا أُوربان الثانى في أن يوحِّد أوروبا، تحت نفوذ البابوية في الكنيسة الكاثوليكية [١١].

رغم أن السبب المعلن وراء الدعوة للحملات " الصليبية " على المشرق العربي كان " تأمين طرق الحج للمسيحيين، بعد تعرضهم للمذابح من قبل المسلمين " [*] فإنه، دون أدنى شك، هناك الكثير من الأسباب المهمة التي شكلت الدافع الرئيسى لإستجابة الأوروبيين " للحرب المقدسة "، كما أطلق عليها، وأهم هذه الأسباب والدوافع:

أولاً: الدوافع الإقتصادية:

١- أطماع الإقطاعيين:

تبلور النظام الإقطاعى، في أوروبا الغربية، في القرن الحادى عشر الميلادي، وتطلع الإقطاعيون لزيادة أملاكهم ونفوذهم من خلال المشرق العربي، في تلك الأثناء، كانت فرنسا هي القطر الإقطاعى الوحيد في أوروبا، ولعل هذا هو السبب في إختيار البابا أوربان لفرنسا من أجل الدعوة لحملات الفرنجة (١٢).

٢ - للإفلات من الضائقة الإقتصادية:

تعتبر السنوات العشر التي سبقت الدعوة للحملة الصليبية الأولى، سنة ١٠٩٥ م، سنوات صعبة، على سكان أوروبا، ولا سيما في شمال فرنسا، وغرب ألمانيا، حيث شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة، وانتشار وباء غامض، حصد السكان في كل مدينة مر بها، ولعل من الطبيعى أن يكون رد الفعل الجماهيرى، التعلق بالدين، ومحاولة التكفير عن الذنوب، والإلتفاف حول النساك بحثاً عن الخلاص، ولذا راقت الدعوة التي وجهها البابا لشن حملة " صليبية " ضد المسلمين، للفلاحين الأوروبيين الفقراء، الذين تشبعوا، منذ زمن طويل، بأفكار الوعَّاظ الجوالين، وخاصة في كليرمون (١٣).

كما أن معدلات تحول الفلاح الحر في أوروبا إلى قن (عبد للأرض)، أخذت تتصاعد، باطراد ولم تقف الكنيسة ضدها، بل أفادت منها، بصفتها أكبر ملاك الأرض الزراعية في الغرب الأوروبي، حتى ذلك الحين. فقد

كانت الهبات التي أغدقها الحكام والنبلاء على الكنائس والأديرة قد جعلتها تمتلك مساحات زراعية شاسعة، ومن ثم لا بد من أن توفر لها من يزرعونها، وقد كانت عملية تحويل الفلاحين إلى أقنان، تحت ذريعة " حب الرب "، أكثر الوسائل فعالية [١٤].

في الوقت الذي كان البابا يوجه خطابه إلى الفرسان، من أبناء الطبقة الإقطاعية. لم يخطر بباله أن تسارع الجماهير إلى الخروج في الحملة التي ارادها، لتحقيق أهدافه السياسية في الداخل والخارج، وأدرك البابا بأن خروج العامة سيشكل عائقاً، فبذل جهداً لمنعهم. ومما يدل على ذلك خطابين، أولهما خطاب موجه إلى أتباعه، في بولوني، بتاريخ ١٠٩٦/٩/١٥ م، فيه: " ولكننا لا نسمح للرهبان، أو القساوسة بالذهاب، دون إذن.. كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعايا أبرشياتهم بالذهاب، دون نصيحة، وبغير علم القساوسة المسبق، كما ينبغي عدم ترك الشباب المتزوجين حديثاً يذهبون في رحلة طويلة على هذا النحو دون موافقة زوجاتهم ".. وقرر البابا، في خطابه الثاني، ١٠٩٦/١٠/٧م، بأن العامة الراغبين في الذهاب إلى القدس أشخاص غير مناسبين لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب في هذه الحملة، لأنهم قد يستطيعون كبح وحشية المسلمين، ويعيدون للمسيحيين حريتهم.. " [١٥].

٣ - جشع التجار:

تشمل تجار جنوا، والبندقية، وبيزا، والمدن التجارية الفرنسية، والكاتالانية [١٦] فقد بنت البندقية أسطولها القوى، في منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وفي الفترة نفسها، تقريباً كانت جنوا، وبيزا، قد

بدأتا التجارة، على طول شواطئ البحر المتوسط، مع مارسيليا، وناريون، وبرشلونه وأخذت جنوا، وبيزا زمام المبادرة، في الهجوم على أساطيل المسلمين [١٧]، وقد حاولت إيطاليا ان تفوز بالثروة الطائلة التي نعم بها العالم الإسلامى، وأن ترث دور المسلمين في تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم، وجاءت الحروب " الصليبية " فرصة للتوسع الأوروبى، خاصة مع ما تتمتع به فلسطين من موقع متميز بين القارات الثلاث. فقامت بتقديم المساعدة لحملات الفرنجة على المشرق العربي، وأمدتهم بالعتاد والأسلحة مقابل عدة امتيازات، فقد اشترط الجنويون:

أ - أن يحصلوا على ثلث كل مدينة يتم الإستيلاء عليها بمعونتهم.

ب - أن يكون لهم شارعاً في كل مدينة أخرى لتجارتهم.

ج - أن يحصلوا على ثلث الغنائم المنقولة. فكان لهم ثلث قيسارية، وأرسوف وعكا. فيها اشترط البنادقة:

أ - ثلث المدن المحتلة، ليكون لهم حي تجارى، معفى من الجمارك.

ب - عدد من الإمتيازات الأخرى، في مدن المملكة [١٨].

٤ - أطماع القادة العسكريين في الإستيلاء على مناطق جديدة، وأرباب الخيال البعيد، وعشاق المغامرات بالإضافة إلى المجرمين والخطأة، الذين نشدوا الغفران، بالحج إلى الأرض المقدسة التي وطئتها قدم السيد المسيح [١٩].

ثانياً: الدوافع السياسية:

وتشمل تفرق المسلمين، والضعف السياسي، ونشأة مصالح مختلفة

ومشتركة عربية - أوروبية فحتى القرن الحادى عشر الميلادي، كانت أوروبا، مجرد منطقة ريفية متخلفة، مقارنة ببيزنطة، والعالم العربي الإسلامى. مع بداية القرن الحادى عشر، بدأت بيزنطة تعانى مظاهر التآكل البطيء والضعف الناجم عن الصراع الداخلى، والهزيمة الفادحة على يد المسلمين في معركة ما نزكرت (أو ملاذكرد) سنة ١٠٧١ م.

على الرغم من حضارة العالم العربي الإسلامى، وإمكاناته العسكرية، والبشرية، وثرواته الأسطورية، فإنه كان يعاني التشرذم، والضعف السياسي. ففي النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، توزع المسلمون في المنطقة العربية في ولاءاتهم السياسية بين الخلافة العباسية السنية في بغداد، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، وبسبب النزاع والتخاصم بين الخلافتين، فإن كل مدينة كبيرة في بلاد الشام، وقعت تحت حكم حاكم عربى، أو من الأتراك السلاجقة، وسببت مشاعر الحقد والشك المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة عداءً سياسياً وعسكرياً، مما أدى إلى تنافر هذه القوى، وعدم توحدها في مواجهة الغزو الصليبي [٢٠].

عشية وصول حملات الفرنجة إلى المنطقة، كانت إمارة حلب تحت حكم رضوان (١٠٩٥ - ١١١٣ م)، الموالى للفاطميين وكان العداء مستحكماً بينه وبين إمارة دمشق، التي يحكمها دقاق، الموالى للخلافة العباسية (١٠٩٥ - ١١٠٤ م). فيما كانت إمارة شيزر، على نهر العاصى، قرب حماة، تحت حكم بنى منقذ، أما طرابلس فوقعت تحت حكم بنى عمار، الشيعة.

ظلت بيت المقدس بأيدى السلاجقة، حتى استعادها الفاطميون، سنة ١٠٩٨ م، أثناء وجود الفرنجة في أنطاكية، ولكن الفاطميين لم يلبثوا أن فقدوا القدس، بعد مذبحة مرِّوعة، إرتكبها الفرنجة الأوائل، بمجرد أن استولوا على القدس، وكانت مدن الشمال في آسيا الصغرى، وأعالي بلاد االشام تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس بطريقة تبادلية (٢١).

نتيجة لهذه الظروف السياسية، نسجت تحالفات عدة متداخلة، فنشأ محور الدولة البيزنطية - الدولة الأموية بالأندلس، كما نشأ محور الدولة العباسية - دولة شارلمان، وظهرت علاقات دبلوماسية بين طرفي كل محور، لم تكن معروفة، منذ ظهور الإسلام، وعندما ظهرت الخلافة الفاطمية المعادية للخلافة الأموية بالأندلس، سرى مفعول المحور الأندلسى – البيزنطي ضدها واتخذ شكل ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية بالأندلس. هكذا لم يعد العامل الدينى، المتحكم في الصراع، بل نشأت مصالح مختلفة ومشتركة عربية - أوروبية، أصبحت العامل الرئيسى المحرك للصراع بين العرب وأوروبا (٢٢).

ثالثاً: الدافع الدينى:

لطالما سعى البابا إلى توحيد كنيستى روما والقسطنطينية، تحت زعامة بابا روما، ومد النفوذ البابوي، لذا فقد استغل أزمة الإمبراطورية البيزنطية، كما تذرع البابا بإضطهاد المسيحيين المشارقة (*)، والحجاج المسيحين، وما أشبه هذا الزعم بالدعاية السياسية الغربية الحديثة (٢٣).

ومن الأهمية بمكان ان نثبت هنا وجهة نظر مؤرخى البروتستانت في الحرب " الصليبية "، فقد إعتبروها بدعة، إستغل فيها البابوات الكاثوليك الأوهام، ليوسعوا سلطانهم [٢٤].

مع تعدد الدوافع، للقيام بحروب الفرنجة، وتدخلها، كانت فلسطين، ولا تزال، البقعة التي تجمع هذه الأهداف، فهي الأرض المقدسة في الديانات السماوية الثلاث، وهى ممر التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وأرضها مغرية بخيراتها التي يعرفها الحجاج الغربيون جيداً، فاعتبرت أرض: " اللبن والعسل "، وكان لدى الأوروبيين اعتقاد بأن فلسطين هي مركز العالم.

لذا، فإنه من السهل الانتقال في غزو فلسطين من حجة الدين إلى التجارة والأرض، ومن التجارة إلى الأرض والدين، وخلط الأوراق جميعاً[٢٥].

الذريعة:

رغم كثرة الدوافع الغربية لقيام الأوروبيين بالحروب " الصليبية "، فإنه كان لابد من توفر ذريعة للبدء بتنفيذ مخططهم، وقد تمثلت هذه الذريعة في الخطاب الذي وجهه إليكسيوس كومنينس، إمبراطور بيزنطة إلى البابا أوربان الثانى، وفيه طلب المساعدة، إثر هزيمته في معركة ملاذكرد الشهيرة، سنة ١٠٧١م، التي دارت بين البزنطيين، بقيام رومانوس ديوجيسنس، والسلاجقة، بقيادة ألب أرسلان، وانتهت بانتصار المسلمين، وأسر رومانوس.

خشي الامبراطور - البيزنطى، إليكسيوس كومنينوس، من تقدم السلاجقة نحو القسطنطينية، فأرسل يستنجد بالبابا، وجاء في خطابه: "…. لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس، وبلاد الإغريق... لم يبق، الآن، تقريباً سوى القسطنطينية، لذا: أستحلفك بمحبة الله، وباسم جميع الجنود المسيحيين الإغريق، أن تمد لنا وللمسيحيين الإغريق يد العون والمساعدة، وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين، من كبير وصغير، فضلاً عن العامة، مما يتسنى جمعهم من بلادك ". تابع أنه يفضل " أن تكون القسطنطينية في حوزتكم، وليست في قبضة الأتراك، لأن فيها أثمن آثار السيد [المسيح] "[٢٦].

استخدم البابا أُوربان الثانى هذا الخطاب، لحث المسيحيين على الحرب ضد المسلمين، في كل من مجمعى بيلزانس، وكليرمون وكان هذا أحد أسباب دخول الامبراطور إليكسوس - كومينوس مع البابا أُوربان الثانى في مفاوضات، حيث أراد الأول مساعدة البابا في تجنيد المرتزقة من غرب أوروبا، فيما تطلع الثانى إلى انتهاز الفرصة، لكى يعيد توحيد كنيسة القسطنطينية، وكنيسة روما، تحت الزعامة البابوية [٢٧].

الحملات:

تم تحديد ١٠٩٦/٨/١٥ م، موعداً لرحيل الحملة، على أن يكون مكان الللقاء في مدينة قسطنطينية الحصينة، على ضفاف البسفور. ثم عين الأسقف أديمار دي مونتي، أسقف لوبوي، قائداً للحملة، أو مندوباً عن البابا، الذي أراد توضيح أن الحملة يجب أن تكون تحت السيطرة البابوية.

فـي ربيـع سـنة ١٠٩٦ م، توجـه الفلاحـون صـوب الشـرق، بعد أن تجمعوا حول بطـرس الناسك، وكانـت أول فرقـة قد تشكلت بقيـادة والتر المفلـس، وأعملـت هـذه الحملـة السلب، والنهـب، وإشـعال الحرائـق فـي المناطق التي مرت بها، كبلغاريا، مدينة " سملين "، على حدود المجر مع الإمبراطوريـة البيزنطيـة، حتـى وصـلوا إلـى القسـطنطينية، فأخذ يعيثـون فيها فسـاداً، ورد الامبراطـور كومنينـوس بـنقلهم إلـى المضـايق فـي آسيا الصغرى، وهناك ارتكبوا المذابح ضد السكان المسيحيين، وبسبب الطمع والفوضى، وقع الفرنجة في شباك كمين أعده الأتراك السلاجقة، وأجهزوا على الحملة الشعبية، وقتل والتر المفلس، في حين تمكن بطـرس الناسك من النجاة بنفسه، والهرب إلى القسطنطينية[٢٨].

الحملة الأولى:

امتدت من ٤٩٠ - ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٦ - ١٠٩٩ م، سميت " حملة الأمراء " وانتهت بسقوط البلاد المقدسة، وإنشاء مملكة وإمارات لا تينية فيها. في أواخر صيف ١٠٩٦ م كانت جيوش الفرسان، متأهبة للرحيل صوب فلسطين، وتكونت جيوش عدة، فتولى جودفرى البوبونى في قيادة الجيش، الذي جمعه من اللورين، شمال فرنسا، والألمان، واشترك معه أخوه بلدوين. وتولى روبرت، دوق نورماندى، قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا، ونورماندى، وبعض مناطق الشمال، فضلاً عن الكثير من الفرسان الإنجليز، من أتباع أخيه المللك الإنجليزى، وليم روفوس. أما الجيش الثالث، فكان تحت قيادة ريمون الرابع، كونت تولوز، وقد تألف جيشه من فرسان جنوب فرنسا، وكان في صحبته أديمار، أسقف لوبوي والمندوب البابوى في هذه الحملة الجيش الرابع كان جيش " هيو "، كونت فرماندوا، وأخيراً جيش بوهيموند النورمانى الذي تألف من المقاتلين النورمان الأشداء في جنوب إيطاليا واعتذر الامبراطور البيزنطى، إليكسيوس كومنينوس، عن قبول العرض بقيادة الحملة ولكنه زود الجيش " الصليبى " بعدد من المرشدين وأرسل معهم بعض ضباطه، وظل يرسل لهم المؤن والإمتدادات، عن البحر والبر [٢٩].

حتى ربيع ١٠٧٩ م، استجاب لنداء البابا ١٥٠.٠٠٠ من الإفرنج والنورمانديين، عرفت حملتهم بـ " حملة المقدسة " واخترقت طرق آسيا الصغرى، فاحتلت نيقيا، قاعدة السلاجقة، في شهر حزيران / يونيه ١٠٩٧ م، ثم دوريلايوم، وما أن عبر قادة الحملة جبال طوروس، حتى وقع

الخلاف بينهم، وأخذ كل منهم يضع خططه الخاصة للتوسع المحلي، حيث تحول بلدوين شرقاً، ودخل منطقة، أهلها من النصارى، ثم احتل الرها، وهي تحت حكم الأردن في الأوائل سنة ١٠٩٨ م، وأنشأ " ولاية الرها ". فيما تحول تانكرد، أحد القادة النورمانديين القادمين من جنوبي إيطاليا وصقلية، غرباً، ودخل كيليكيا وسكانها من الأرمن، بينهم جماعة من اليونان، وقد احتل مدينة طرطوس، وسائر نواحيها (٣٠).

ولَّدت المنازعات المحلية، والتحاسد الأخوي، ومشكلات الولاية السلالية، حالة مزمنة من الإضطرابات. أما أهل البلاد فتفرقوا، بعد أن تفرغت فرق عدة من الإسلام، فاعتصم الدروز في جنوبي لبنان، واستوطن النصيرية في جبال سورية الشمالية، واستقر الإسماعلية، ثم الحشاشون، إلى الشرق من مواطن النصيرية (٣١).

بعد حصار طويل، دام حوالي تسعة شهور من ٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٠٩٧ م، وحتى ٣ حزيران / يونيو١٠٩٨ م، سقطت أنطاكية في أيدى الفرنجة، بقيادة بوهيمند، إثر خيانة فيروز، القائد الأرمنى، الذي كان يتولى الدفاع عن أحد أبراج أنطاكية. وهكذا إستطاع الفرنجة إنشاء ثانى إمارة " صيلبية " في المشرق، وهى إمارة أنطاكية (٣٢).

تابعت الحملة السير نحو فلسطين فاحتلت عكا، وحيفاً، وقيسارية، ثم أرسوف، وكان الفرنجة ينهبون كل ما في طريقهم، دون أي مقاومة، بل إن حاكم عكا قدم لهم الهدايا والرشى من المؤن، كما جدد الفاطميون عرضهم السابق، بتقاسم الأرض الشامية فيها بينهم، بينما كان الفرنجة لا يزالون عند طرابلس، ولكنهم لم يلقوا رداً.

وصل الفرنجة الرملة، في ٣ حزيران / يونيو ١٠٩٩ م ولم يجدوا فيها أحداً، فقد فر سكانها، دون أي دفاع، لأنه لم تصلهم أي معونة من البحر، فأعلنت الرملة أبرشية، وتولاها أسقف من النورماند، عرف بأسقف الله[٣٣].

حاصر الفرنجة القدس، مدة أربعين يوماً، من ٧ حزيران / يونيو - ١٥ تموز / يوليو ١٠٩٩ م، في حين بذل الوالي الفاطر افتخار الدولة أقصى جهد في الدفاع عنها، ولم يتلق أيه نجدة، في تلك الأثناء، بينما رست في مرفأ يافا ست سفن جنوية وإنكليزية، رفدت الفرنجة بالمؤن والسلاح، فدخلوا المدينة في ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ تموز يوليو ١٠٩٩ م، وأقاموا فيها مذبحة ضد المسلمين قدر عدد ضحاياها بحوالي سبعين ألفاً، ويُذكر أن دماء المسلمين وصلت حتى الكعوب، في المسجد الأقصى، كما أحرق الفرنجة اليهود في كنيسهم [٣٤].

توالي سقوط المدن العربية في أيدى الفرنجة، فسقطت جبيل، في سنة ١١٠٤ م، وطرابلس، سنة ١١٠٩، مرفأ صور، سنة ١١٢٤ م.

هكذا انتهت الحملة الصليبية الأوُلى بتكوين إمارات صليبية، تتبع مملكه القدس، التي بلغت أقصى قوتها، واتساعها، أواخر حكم بغدوين الثانى، ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م، حين امتدت حدودها من بيروت في الشمال إلى العريش في الجنوب، وأيلة، على خليج العقبة، وامتدت من الساحل حتى هضاب شرقي الأردن وأضحت محاطة بسلسلة من الحصون العسكرية التجارية على أطرافها [٣٥].

الحملة الثانية:

بدأت، سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م، وانتهت سنة ١١٤٩ م، وقام بها كونراد الثالث، ملك ألمانيا، ولويس السابع، ملك فرنسا، وانتهت بحصار دمشق، دون جدوى [٣٦].

قام أتابك زنكي (١١٢٧ - ١١٤٦ م)، أمير حلب والموصل، بضرب حصار حول الرها، سنة ١١٤٤م، استمر أربعة أسابيع، وانتهى بإنتزاعها من يد جوسلين الثانى. ويعد سقوطها نذيراً بتحول مجرى الحوادث في مصلحة المسلمين، اما وقع الخبر في أوروبا، فكان باعثاً على تجهيز الحملة الثانية [٣٧].

وتمت صيغة المبرر، للحملة الثانية، على أساس أن الأرض التي شهدت قصة السيد المسيح، صارت بأيدى المسيحيين حقاً، بيد أنها تحتاج إلى قوات عسكرية، للدفاع عنها، وقد أكد البابا أجينوس الثالث هذا الأمر سنة ١١٤٥ م، وترددت أصداء كلماته في الخطابات البابوية اللاحقة

نتيجة لذلك، عقد مؤتمر في عكا، في ٢٤ حزيران / يونيو ١١٤٨ م، ضم الملوك الثلاثة، الفرنسي، والألماني وملك بيت المقدس، وتقرر في هذا المؤتمر مهاجمة دمشق، فزحفت الجموع: " الصليبية " إلى المدينة، في خمسين ألف مقاتل، وعلى رأسها الملوك الثلاثة. وشرعت في حصار المدينة، في ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ/٢٤تموز/ يوليو ١١٤٨ م، الحصار الذي استمر خمسة أيام متصلة وانتهى بفشل الفرنجة في الإستيلاء على دمشق. ورغبة من بارونات القدس في إنقاذ سمعة الحملة، اقترحوا مهاجمة عسقلان [٣٩].

استغل بغدوين الثالث، وقوع مصر أسيرة الحرب الأهلية، ١١٥٠ م، مما أضعف نظام الحكم فيها إلى درجة العجز عن تقديم أية معونة لعسقلان. فضرب حصاراً حول المدينة، في مطلع ١١٥٣ م، استمر شهوراً، وانتهى بالاستيلاء عليها في جمادى الأولى ٥٤٨ هـ - آب / أغسطس ١١٥٣ م [٤٠].

ظهر صلاح الدين اليوبي على الساحة السياسية، عام ١١٦٤م، حين رافق عمه في حملته على مصر بعد تردد وتمنع، فقد كان ينزع إلى العلوم الدينية، أكثر من الشؤون العسكرية. على أن هذه الرحلة كانت طليعة اتجاه جديد في حياته، يرمى إلى السعى وراء ثلاثة أهداف، هي:

١ - إحلال التعليم السني مكان التعليم الشيعي في مصر.

٢ - توحيد مصر وسورية، تحت سلطة واحدة.

٣ - مواصلة الجهاد ضد الإفرنج.

عام ١١٧١ م، عمد صلاح الدين، حين كان وزيراً، والخليفة العاضد مسجًّى على فراش الموت، إلى جعل اسم الخليفة العباسي المعاصر " المستضئ "، في صلاة الجمعة، مكان العاضد، وعلى هذه الصورة كان ختام الخلافة الفاطمية، وبذلك حقق هدفه الأول.

أما الهدف الثانى، فتحقق سنة ١١٧٤م، عندما توفي نور الدين زنكي، حاكم سورية، إذ تمكن صلاح الدين، بعد بضعة إشتباكات محدودة من انتزاع سورية من إبن نور الدين، إسماعيل، وهو، بعد في الحادية عشرة من عمره. وإنضمت كلٌ من القيروان والحجاز إليها لتصبحان

جزءاً من الدولة السورية المصرية الناشئة. ثم ألحق توران شاه، شقيق صلاح الدين الأكبر، بهذه الدولة، النوبة واليمن. وفي سنة ١١٧٥ م أسند الخليفة العباسي إلى صلاح الدين، بناءً على طلبه الخاص، السلطة على جميع هذه المناطق. وكان إلحاق العراق الأعلى، بإستثناء الموصل، مما استكمل الوضع الجغرافي لهذه السلطنة[٤١].

وبذلك تمت محاصرة الإفرنج، وتمكن صلاح الدين من سحقهم.

بعد حصار دام ستة أيام، سقطت طبريا، ثم تحول جيش المسلمين نحو حطين، في جوار طبرية، حيث نشبت المعركة، في الثالث والرابع من تموز / يوليو سنة ١١٨٧ م، وتصدر موكب الأسرى، ملك القدس بذاته، غي دي لوسينيان. وبعد حصار دام أسبوعاً واحداً، استثلمت القدس، في الثاني من تشرين الأول / اكتوبر واتجهت موجة الفتح، بعد القدس، نحو الحصون الباقية، فجرفت في طريقها الشوبك والكرك إلى الجنوب، وقلعة كوكب، والشقيف، وصهيون، إلى الشمال، ثم سقطت عسقلان، وعكا، وصفد، وطرطوس، وجبلة واللاذقية جميعها، قبل سنة ١١٨٩ م، ولم يبق في يد الإفرنج إلا صور، وطرابلس، وأنطاكية، وبعض المدن والحصون الصغيرة[٤٢].

الحملة الثالثة:

امتدت من سنة ٥٨٥/٥٨٨ هـ - ١١٨٩/١١٩٢ م، وهى " حملة الملوك "، التي انتهت بالاستيلاء على عكا، وبعض المدن الساحلية من صلاح الدين، إلا أن بيت المقدس ظل بيد المسلمين [٤٣].

أثار خروج المدينة المقدسة من يد الصليبيين أوروبا، مما دفعها إلى إعداد " حملة صليبية ثالثة "، بدأها كونراد مونتفرات، حين بعث مع جوسياس، رئيس أساقفة صور، لوحة كبيرة، جرى الطواف بها في أوروبا، تمثل القبر المقدس وقد داسته خيول المسلمين. نتيجة لذلك حشدت أكبر الحملات الصليبية بقيادة فردريك باربا روسا، ملك ألمانيا، فيليب أوغسطس، ملك فرنسا، ريكاردوس الأول، ملك إنكلترا، والملقب بقلب الأسد [٤٤]. فيما انضم إليهم ملك صقلية، فضلاً عن دون أوستريا (النمسا)، وبرغنديا، وكونت الفلاندر. وكبارالبارونات والفرسان المشهورين [٤٥].

في الطريق نحو الشام، غرق الامبراطور الألماني، في نهر صغير، بين طرسوس وأذنة، وتفرق جيشه، وعاد أدراجه، وإستكملت باقي الجيوش المسير، فضربت حصاراً حول عكا، دام سنتين، ما بين آب / أغسطس ١١٨٩ - وتموز / يوليو ١١٩١ م. ولما لم يستطيع صلاح الدين إنقاذ المدينة، قبل المفاوضة، وطالب الفرنجة بإعادة مملكة بيت المقدس إلى حدودها، ثمناً لحامية عكا، مع إرجاع " صليب الصلبوت ". لكن حامية المدينة عقدت إتفاقاً مع مونتفرات، تخرج به سالمة من عكا، مقابل مائتي ألف دينار، وتحرير ألفين وخمسمائة أسير من الفرنج، بالإضافة إلى إرجاع الصليب. فإستقلت المدينة لكن الفرنج نقضوا الهدنة، وأسروا وقتلوا من أهالي المدينة بالآلاف، في تموز / يوليو ١١٩١ م [٤٦].

استمر ريتشارد قلب الأسد في معاركه، حيث زحف على الساحل الفلسطيني، في أواخر آب / أغسطس ١١٩١ م، واستولى على حيفا، ثم

قيسارية، وبعد معركة، استولى على أرسوف.

انتهز صلاح الدين الأيوبي، فرصة وجود ريتشارد في بيروت، فهاجم يافا، في آب / أغسطس ١١٩٢ م، لكن الهجوم فشل، وانتهت المفاوضات بين الطرفين بما عرف بصلح الرملة، في ٢٢ شعبان ٥٨٨ هـ/٢ أيلول / سبتمبر ١١٩٢م. وبموجبه يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا، بما فيها حيفا، وقيسارية، وأرسوف. وتكون عسقلان للمسلمين، ويجرى اقتسام اللد والرملة مناصفة بين الطرفين، واشترط صلاح الدين دخول الإسماعيلية في الصلح، فيما اشترط " الصليبيون " دخول صاحب إنطاكية وطرابلس فيه.

أما الأماكن المقدسة في القدس، فقد نص الإتفاق على منح الفرنج حرية الحج إلى القبر المقدس، دون مطالبتهم بأي ضريبة، على أن يكونوا في جماعات محدودة. ومدة الهدنة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، تنتهي في آخر سنة ١١٩٥ م [٤٧].

بعد انقضاء الحملة " الصليبية " الثالثة، أفلت زمام الحملات من أيد البابوية، وصارت من اختصاص السلطات المدنية، تتولى تنظيمها، على أساس ما وضعته من نظام للضرائب [٤٨].

إثر وفاة صلاح الدين في آذار / مارس ١١٩٣ م، جهز الفرنجة عدداً من الحملات، وجهت إلى القسطنطينية، مصر، وتونس. الحملات التي وجهت إلى مصر، كانت تأمل في أن تبلغ البحر الأحمر، وتسهم في النشاط التجاري العامر في المحيط

الهندي، على افتراض أن احتلال دمياط، أو الإسكندرية مثلا، قد يمكّن من استبدال القدس بإحداهما [٤٩].

الحملة الرابعة:

امتدت من ٥٩٩/٦٠١هـ - ١٢٠٢/١٢٠٤ م، وهي التي انتهت بسقوط القسطنطينية في يد الصليبيين، وبإنشاء إمبراطورية لاتينية على ضفاف البسفور، لمدة قصيرة.

الحملة الخامسة:

من ٦١٤ - ٦١٨ هـ/ ١٢١٧ - ١٢٢١ م، نظمها جان دي بريانا على الساحل المصري، وانتهت بانخذال الفرنجة، دون أن ينالوا نصراً.

الحملة السادسة:

من ٦٢٦/٦٢٧ هـ - ١٢٢٨/١٢٢٩ م، قام بها الامبراطور الألماني، فريدريك الثاني، وانتهت بعقد إتفاق بين الامبراطور، والسلطان الأيوبي، الكامل.

الحملة السابعة:

امتدت ما بين ٦٤٦ - ٦٥٢هـ/١٢٤٨ - ١٢٥٤ م، قام بها لويس التاسع، ملك فرنسا، مهاجماً سواحل مصر، وانتهت بهزيمة الفرنجة، وأسر مليكهم.

الحملة الثامنة:

شكلها لويس التاسع، واتجه بها صوب تونس في سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ م، طمعاً في أن يحمل أميرها على إعتناق الديانة النصرانية، وانتهت هذه

الحملة بموت الملك الفرنسي [٥٠].

بعد وفاة صلاح الدين، كان المسلمون قد فقدوا روح الجهاد، إلى حد كبير، وأضاعوا الزعامة والممتلكات الموحدة، فقد انقسمت سورية بين إبني صلاح الدين، على أن الملك العادل، شقيق صلاح الدين، أحرز، بعد ذلك بأمر قصير، السيادة على مصر، وعلى جزء كبير من سورية.

ظل العادل، طيلة ولايته (١١٩٩ - ١٢١٨ م)، يحافظ على صلاته مع الإفرنج، بهدف تحقيق السلام، وتنمية الصلات التجارية مع الإيطاليين.

نشأت، بعد العادل، أسر أيوبية عدة، تولت الحكم في مصر، دمشق، والعراق، وظهرت منها فروع أخرى في حمص، وحماة، واليمن، وفي خلال الإضطرابات التي نشبت ما بين فروع هذه السلالة، أخذت المدن التي احتلها صلاح الدين، نظير بيروت، وصفد، وطبرية، بل القدس نفسها (١٢٢٩ م)، تعود تباعاً إلى أيدي الإفرنج. فقد تخلى الملك الكامل إبن العادل عن القدس، لفردريك الثانى، ملك صقلية، بموجب معاهدة عقدت لعشر سنوات، تعهد فيها فردريك، بأن يقدم العون للكامل على أعدائه، وجلهم من الأيوبيين. لكن الملك الصالح، نجم الدين، ابن أخي الكامل، عمد، سنة ١٢٤٢ م، إلى استخدام مفرزة من أتراك خوارزم، الذين أخرجهم جنكيز خان من موطنهم، في آسيا الصغرى، ليعيد المدينة إلى حوزة الإسلام، على أنه لم يكن بوسع الإفرنج، أن يستغلوا هذا التفسخ، لأن الشقاق كان قد دب، أيضاً، في صفوفهم، فاشتدت المنافسة بين أهل جنوى، وأهل البندقية، واستحكم التحاسد بين الفرسان الهيكليين،

والفرسان الاسبتاريين، فنشب النزاع بين زعمائهم، ولم يكن حصول أحد الجانبين في هذه الخصومات على تأييد من المسلمين ضد الجانب الآخر بأغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض الفرنجة ضد مسلمين آخرين [٥١].

أوضاع فلسطين إبان حروب الفرنجة:

أولاً: المقاومة:

لم يكن سكان الأرياف من المسلمين جنوداً، ولا يجيدون مهنة القتال. وكانت مقاومتهم تأخذ شكل تمردات محدودة المدى، تتمثل في الرفض، والإنتفاض، عند أي فرصة من فرص الضعف.

وبالرغم من أن أشكال هذه المقاومة، كانت فردية، إلا أن كثرتها وشدتها، كان ذا تأثير كبير، مما دعا الفرنجة إلى إنشاء فرقة الداوية العسكرية، سنة ١١١٨ م، وتحول فرقة الإسبتارية، إلى مؤسسة عسكرية، هدفها حماية الحجاج، وتطهير الطريق إلى بيت المقدس من " قطاع الطرق "!.

على أن هذه المقاومة، رغم أثرها فإنها لم تكن خطرة، وما كان ممكناً كان أن تكون حاسمة، لأنها:

١ - كانت فردية، متفرقةالزمان والمكان، تفتقر للمؤسسات الشعبية.

٢ - بالرغم من منطلقها الديني الواضح، فإنها تضطر للمهادنة أحياناً، وإلى الهجرة هرباً، أحياناً أُخرى.

٣ - كانت محدودة في المواقع التي تتكاثف فيها القرى المسلمة، فلم

تكن تؤثر على مراكز القوى الأساسية للفرنج في المدن والحصون.

٤ - لم تكن تتلقى المعونة من القوى الإسلامية المحيطة، وإنما تنتظر أن تنتصر هذه القوي في بعض المعارك لتنتهز الفرصة للتحرك. وإن ساعد المصريون في عسقلان، وأصحاب الشام هذه الجماعات، لأسباب سياسية، أثناء فترات الأزمات بينهم وبين الفرنج [٥٢].

ثانياً: إقتصادياً:

احتفظ الفرنجة بالطبقة الريفية في فلسطين، وكان فيها، إلى جانب المسلمين، قلة فرنجية المحدودة في البساتين، والمزارع، وحول المدن، مع نسبة مسيحية محلية كبيرة، وبخاصة حول القدس، والناصرة، وبيت لحم. لهذا كان طبيعياً ألاّ يؤثر الاحتلال الفرنجي في شئ من الإنتاج الزراعي، الصناعي في البلاد، إلا فيما يتعلق بالعلاقة مع الإقطاعين الفرنج، بدلاً من المتقبلين(الملتزمين[*]) من المسلمين، وإلا فيما يتعلق بمقدار الجزء المخصص للإقطاعي، ولم يهمل الفرنجة الأرض الزراعية، التي هجرها أهلها إلى الشام وإلى مصر.

خسرت البلاد جزءاً من الصنّاع المسلمين، فيما زاد الفرنجة صناعة قصب السكر والسروج، وإصلاح الأسلحة الحديدية، بسبب الحاجات الحربية، واستغلوا موارد البلاد الزراعية، وصناعها التقليديين في صناعة الحرير، والقطن، ونسجها، كموارد تجارية ثمينة، ونقلت إلى أوروبا عن طريق ضياع الشام.

عرف الريف وضياع المدن في فلسطين، فترة من الهدوء، خلال

العهد الفرنجي، سمحتا دون شك، بالازدهار، بسبب غياب مخاطر البدو، ونكبات الحروب [٥٣].

ثالثاً: دينياً:

أذن، الفرنجة، ببناء عد قليل من المساجد للمسلمين، فيما اضطهدو اليهود. ويذكر أنه أثناء الإستيلاء على بيت المقدس، تجمع عدد كبير من اليهود، داخل معبدهم، فعمد الفرنجة إلى اشعال النار في المعبد وحرق كل من فيه على أن حملات الفرنجة ألحقت أضرارًا كثيرة، بفلسطين، والمشرق العربي عامة، لعل أبرزها: **أولاً الناحية الإقتصادية** [٥٤]:

١ - عانت الزراعة من التدهور، وبرز النظام العسكرى، وكان الفلاحون ملزمين بدفع الضرائب للفرنجة، كما ان العمليات العسكرية، بين كل من: الصليبيين " والمسلمين، أثرت سلبيًا على الزراعة في مصر. أما الشام، فمنذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادى حتى عهد السلطان الضاهر بيبرس البندقدارى (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م)، عانت من نقص الإنتاج الزراعي، وتعرضت مناطق عدة لخطر المجاعة أكثر من مرة.

٢ - أما بالنسبة للتجارة، فحتى بداية حروب الفرنجة، كانت التجارة بين الشرق والغرب تسير في اتجاه واحد تقريباً، لصالح الشرق، وبعد نجاح الحملة الأولى ترتب على ذلك أن كل موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط صارت تحت سيطرة أوروبا حتي سنة ١١٨٧ م، وتأسست الأحياء التجارية في المدن التي استولى عليها الصليبيون، مما أدى إلى تعاظم النفوذ الإيطالي، ثم الأوروبي في التجارة العالمية على حساب

التجار المسلمين [٥٥].

ثانياً: اجتماعياً [٥٦]:

١ - تنوعت عناصر السكان، وتعددت دياناتهم ومذاهبهم، فضلاً عن الإختلال الديمغرافي، بسبب هجرة أعداد كبيرة من أهالي الشام إلى مصر.

٢ - عمليات التفريغ السكانية، والإحلال السكاني، أي زرع مستوطنين جدد.

٣ - عانى المسيحيون المحليون، معاملة سيئة في المناطق " الصليبية، فقد اعتبرهم الفرنجة منشقين، وخارجين عن الدين المسيحى.

٤ - سببت المنازعات والصراعات المسلحة مصدر إضطراب أمني، أدى إلى ظهور اللصوص، وقطاع الطرق.

٥ - كان للحروب الصليبية تأثير " سلبي ملحوظ " على القيم والأخلاق في العالم العربي.

٦ - إنتشرت الصوفية الجاهلة من الدراويش، وأتباعهم الذين رددوا الخرافات، وأنباء معجزات الدراويش.

٧ - آثر بعض المسلمين، أن يرتدوا عن دينهم، وأن يعتنقوا المسيحية، خوفاً على حياتهم.

ثالثاً: ثقافياً:

صار النشاط الثقافي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي موجهاً نحو الحفاظ على التراث الفكري المجيد أكثر منه نحو الإبداع والتجديد كما كانت حركة التدوين التاريخي مزدهرة وانتشار الموسوعات والمعاجم، التي جمعت مفردات اللغة العربية، مثل: " لسان العرب "، لابن منظور، و " القاموس المحيط "، للفيروز أبادي، رغبة في الحفاظ على الذات الحضارية.

كذلك ظهرت " النبويات " وهي قصائد مطوَّلة، كتبت لغرض الإستغاثة بالرسول، والتوسل إليه برفع المعاناة، كما تجلت هذه الظاهرة في مجال القصص الشعبي [٥٧].

استنتاجات:

ما كان لحملات الفرنجة أن تمر دون أن:

- تعكس أطماع الغربيين في المشرق العربي، ولم يكن الدين سوي مجرد مظلة، ليس إلا، وإن كان الإتشاح بالدين أمراً موغلاً في القدم، فإنه لم ينته بعد، ويبدو ذلك جلياً في عودة صيغة " الحروب الصليبية "، في خطابات الرئيس الأمريكي، جورج بوش، وسيلفيو برلسكوني، رئيس وزراء إيطاليا الحالي.

- إنكشف هدف هذه الحملات الإستيطاني، الإحلالي، ولعلها كانت أحد مصادر الإلهام، للتجربة الصهيونية العاصرة.

- شكلت خلافات الحكام المسلمين، نقطة ضعف، استغلها الفرنجة، ببراعة فإثر سقوط القدس، في الحملة الأولى، وقع الفرنجة بين فكّى حاكم

القاهرة من جهة وحاكم الموصل من جهة أخرى، ولكن خلافهما حال دون طرد الفرنجة من القدس، كما وأن الخلافات التي استبدت بالسلاجقة، حالت دون وصول الإمدادات إلى القدس.

- أدار العرب ظهرهم لسلاح الوحدة، التي تمت على يدي صلاح الدين الأيوبي، فبعد وفاته، توزعت الإمارات في الدولة الأيوبيبة، بين أولاده، وأحفاده، واتسعت شقة الخلافات بينهم، حتى إنهارت هذه الدولة.

- ارتبط الأمن القومي في كل من مصر والشام، ارتباطاً وثيقاً، ولا يزال، فغدا كل قطر منهما خط الدفاع الأول والثانى، وعمقه الإستراتيجى

مراجع الفصل السادس عشر

(١) د. عبد العظيم رمضان، **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٣٠٦.

(٢) د. قاسم عبده قاسم، **الخلفية الأيديولوجية للحروف الصليبية**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٩، ص ١٤ - ١٥.

(٣) محمد ماهر حمادة، **وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٨٦، ص ١٧ - ١٨.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٨.

(٥) قاسم، **مصدر سبق ذكره** عن: Russell, The Just war, P32. Rundage, Holy war, P 104.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٠.

(٧) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٨) نيكيتا إيليسيف، **الشرق الإسلامي في العصر الوسيط**، ترجمة منصور أبو الحسن، بيروت، دار الكتاب الحديث، ١٩٨٦، ص ٣٨٢.

(٩) ول ديورانت، **قصة الحضارة - عصر الإيمان**، ترجمة محمد بدران، القاهرة، مكتبة الأسرة، المجلد الثامن، ٢٠٠١، ص ١٥ - ١٦.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ١٦ - ١٧.

(*) هذا زعم باطل، والدليل رسالة ثيودوسيوس، بطريق بيت المقدس، سنة ٨٦٩ م إلى زميله إجناتيوس، بطريق القسطنطينية، وفيها يمتدح الأول المسلمين، ويثنى على قلوبهم الرحيمة، وعلى تسامحهم المطلق، ويقول إنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس، ولم يتدخلوا في شؤونهم الخاصة، حيث ذكر في رسالته " إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت ".

- راجع: د. عبد العظيم رمضان " الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية "، دار المعارف ١٩٨٣، ص ٣١١.

(١٢) د. قاسم عبده قاسم، **ماهية الحروب الصليبية، الأيديولوجية، الدوافع، النتائج**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ٢٠٠١، ص ٥٦.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٦١.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٦٣.

(١٥) **المصدر نفسه** ص ٦٧.
(١٦) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: شاكر مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي من أواسط القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي / إلى أواسط القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، ٣٦٤.
(١٧) قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨.
(١٨) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨٤.
(١٩) د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة د. كمال اليازجي، ج٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩م، ص ٢٢٣.
(٢٠) قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٨ - ٩٩.
(٢١) **المصدر نفسه**، ص ١٠١ - ١٠٢.
(٢٢) رمضان، **مصدر سبق ذكره** ص ٣٠٧.
(*) لم يبعث مسيحيو الشرق أي استغاثة إلى الغرب، ليرد عليهم، ويحارب من أجلهم، بل ثمة ما يؤكد رعايتهم، وعدم المساس بهم، وخاصة في فلسطين، في الفترة السلجوقية، فقد استرد أتسز، مثلاً، القدس سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦م، من الفاطميين، بعد حصار استمر شهوراً عديدة، فتعرض المسلمون فيها لمذبحة، ونجا المسيحيون الذين اعتصموا داخل سور حيهم. ثم لما عاد خاسراً من مصر، وطردته القدس، دخلها بمذبحة أشد فتكًا، فلم يمس المسيحيين.
- الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: شاكر مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي من أواسط القرن الرابع الهجري الميلادي إلى أواسط القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، ص ٣٦٥).
(٢٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦٥.
(٢٤) رمضان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١٢.
(٢٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره** ص ٣٦٦.
(٢٦) حمادة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٧ - ٩٨.
(٢٧) د. قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٤.
(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١١٥.
(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ١٢٠ - ١٢١.
(٣٠) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
(٣٢) رفيق التميمي، **الحروب الصليبية**، القدس، مطبعة اللواء، ط١، ١٩٤٥، ص ٤٧.
(٣٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦٨.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٢.
(٣٦) التميمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤.
(٣٧) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٤.
(٣٨) قاسم، ماهية. **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٦.
(٣٩) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧٥ - ٣٧٦.
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٧.
(٤١) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٦.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٣٦.
(٤٣) التميمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤.
(٤٤) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.
(٤٥) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤١١.
(٤٦) **المصدر نفسه**، ص ٤١٢ - ٤١٣.
(٤٧) **المصدر نفسه**، ص ٤١٤.
(٤٨) **المصدر نفسه**، ص ٤١٥.
(٤٩) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٢.
(٥٠) التميمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٥.
(٥١) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.
(٥٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨٠ - ٣٨١.
(*) الملتزمون: هم الأشخاص الذين يتعهدون للحاكم بجمع الضرائب من الفلاحين، فيما يلزم أولئك الأشخاص بدفع مبلغ معين مما يجمعون إلى خزينة الحاكم.
(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٧٩ - ٤٨٠.
(٥٤) لمزيد من التفاصيل انظر: د. قاسم ماهية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٧ - ٢١٦.
(٥٥) **المصدر نفسه**، ص ٢١٣.
(٥٦) لمزيد من التفاصيل، انظر: **المصدر نفسه**، ص ١٩٢ - ٢٠٧.
(٥٧) قاسم، ماهية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٣.

* * *

الفصل السابع عشر

المماليك وفلسطين

الفصل السابع عشر:
المماليك وفلسطين

راندا أبو الدهب

نظرة عامة:

أدت وفاة صلاح الدين الأيوبي إلى إحداث فزغ كبير في العالم الإسلامي، لم يستطع أي من أحفاده ملؤه، فقد قام أبناء صلاح الدين، وأقاربه، باقتسام دولته، وتفتيتها وأصبحت حمص وحلب، وحماة، ودمشق، وبعلبك، والكرك، وبصرى مجرد إمارات أيوبية. يحكمها أبناء، البيت الأيوبي، فضلاً عن مركز الدولة في مصر.

بسبب هذا التفتيت، والخلافات بين أبناء، البيت الأيوبي، استطاع الفرنجة انتزاع مزيد من الأرا ضي العربية بهدف توسيع رقعة ممالكهم، فاستولوا على معظم الساحل الشمالي، من عسقلان جنوبًا، إلى طرابلس شمالاً ناهيك عن بعض المناطق في الداخل، ومنها صفد. وازدادت رقعة ممالك الفرنجة اتساعًا، بعد أن منح الملك الكامل الأيوبي صديقه الحميم، الامبراطور فردريك الثاني، بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، عام ٦٢٦هـ/ 1229 م، بموجب " اتفاقية يافا "، على أن يبقى الحرم القدسي الشريف في أيدي المسلمين، دون تحصين المدينة (١).

في (642 هـ /1249 م) استطاع الصالح نجم الدين أيوب، استرداد بيت المقدس، ما أثار الغرب، ودفعه لإعداد حملة سابعة، هدفها انتزاع فلسطين وإذا كان تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين عام 583 هـ/ 1187 م، والملك الصالح، فيما بعد، فالأولى الهجوم على مصر، التي هي مفتاح كل خطوات التحرير السابقة. وبالفعل، توجهت حملة الفرنجة السابعة، بقيادة ملك فرنسا، لويس التاسع، نحو مصر، واحتلال دمياط، في 647 / هـ 1249م، في الوقت الذي كان فيه الملك الصالح على فراش المرض، فحُمل إلى قلعة المنصورة، لمواصلة إعداد الجيش، وتنظيمه، ولم يكد لويس يبدأ في الزحف نحو القاهرة، حتى توفى الملك الصالح، في 23 نوفمبر/ تشرين الثاني١٢٤٩م) ، إلا أن أرملته شجرة الدر أخفت الخبر حتى لا يفتَّ في عضد الجند، وأرسلت في طلب توران شاه، ابن الملك الصالح، من حصن كيفا بالموصل. في الوقت نفسه استمرت الاستعدادات العسكرية قائمة[٢]. وفي المنصورة التقى الفرنجة بالجيش الأيوبي، وعلى رأسه مماليك الملك الصالح، بقيادة بيبرس البندقداري، وعند فارسكور، بالتحديد، حُسمت المعركة لصالح الجيش الأيوبي، واقتيد لويس التاسع، وكبار رجال حملته، أسيرًا، وسُجن في دار بن لقمان بالمنصورة. في الوقت نفسه لم يحسن توران شاه لمماليك أبيه، وأرملته شجرة الدر، فتآمر عليه الجميع، وقتلوه، في مايو/ أيار 1250 م، وتسلمت الأخيرة السلطة، فكانت أول امرأة تتولى السلطة في الإسلام، واستمرت في الحكم ثمانين يومًا أُفرج خلالها عن لويس التا سع، مقابل فدية، حيث لم يقر الخليفة المستعصم بالله العبا سي، في بغداد، أن تتولى

حكم المسلمين امرأة، فاختارت شجرة الدر الزواج من عز الدين أيبك التركماني كبير أمراء، المماليك، وتنازلت عن الحكم له، في يوليو/ تموز 1250 م[٣].

بوصول أيبك التركماني إلى سدة السلطنة، انتهت الدولة الأيوبية، وولدة الدولة المملوكية، وإن كان بعض المؤرخين يعتبرون وصول شجرة الدر للحكم، بداية تأسيس تلك الدولة، ومنهم المقريزي، الذي قال عنها: أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك [٤].

بعد هزيمة حملته، لم يتجه لويس التاسع إلى فرنسا، بل اتجه نحو عكا، في مايو/ أيار ١٢٥٠م، وحاول أن يستغل ما نشب من خلاف بين الأيوبيين في الشام، والمماليك في مصر، لتعديل شروط المعاهدة المعقودة مع المماليك. وبالفعل، استجاب عز الدين أيبك لآمال لويس وحرص على استرضائه ووافق على إطلاق سراح كبار قواد الفرنجة من الأسرى، والتنازل عن بقية الفدية المطلوبة من لويس، فيما أرسل له أمير حلب، الناصر يوسف، سفارة، وعرض عليه التحالف معه، ضد المعز أيبك، مقابل منح لويس بيت المقدس غير أنه خاف على أرواح الأسرى لدى أيبك، فوافق على عرضه، وسانده، حين تنازع غزة مع الناصر يوسف، في فبراير/ شباط 1251 م، وكاد المماليك أن يضحوا ببيت المقدس، لولا تدخُّل الخليفة العباسي، للصلح بين الناصر وأيبك. وفي إبريل/ نيسان 1253م، عُقد بينهما اتفاق على أن تكون مصر، وفلسطين حتى نهر الأردن، بما في ذلك غزة، والقدس والساحل للمماليك، وبقية الشام للأيوبيين[٥].

في 655 / 1257 م، خلا المسرح السياسي من المعز أيبك، وشجرة الدر، واعتلى عرش الدولة علي بن أيبك، وسيف الدين قطز نائبًا ووصيًا عليه، لكن الأخير سرعان ما استقل بالحكم، وتخلَّص من الأول في إبريل/ نيسان 1259 م، سبق ذلك بقليل أن زحف التتار بقيادة هولاكو، من أذربيجان صوب بلاد الشام، ونجحوا في إسقاط حاضرة الخلافة العباسية بغداد، في فبراير/ شباط 1258 م، ثم اندفعوا، واستولوا على ديار بكر، وآمد، فأسرع الناصر يوسف، أمير حلب، إلى إعلان خضوعه لهم، وأرسل ابنه بذلك إلى هولاكو، محمَّلاً بالهدايا إلا أن هولاكو خيَّب أمله، واقتحم حلب، في 658 هـ/ 1260 م، وهرب الناصر إلى غزة [٦]. ثم استولى التتار على دمشق دون قتال، في مارس/ آذار 1260 م، ما سهَّل لهم الطريق نحو مصر، من خلال فلسطين [٧].

أعد السلطان سيف الدين قطز الجيش، لمحاربة التتار، وبعد استعراض الجيش في شوارع القاهرة، كَلَّف القائد ركن الدين بيبرس البندقداري بالتقدُّم على رأس قوات من الجيش نحو غزة، التي احتلها التتار، بقيادة " بيدرا "، وفي وثبة خاطفة تمكَّن بيبرس من اقتحام المدينة، وطرد طلائع التتار منها، وتعقبهم، حتى شاطئ نهر العاصي. في الوقت نفسه كان قطز قد اتفق مع الفرنجة في عكا على السماح لقواته بالعبور عبر الأراضي الساحلية، التي يسيطرون عليها، فقد رأى الفرنجة في القتال بين سلطان المماليك والتتار فرصة للإنتقام منهم عما أحدثوه من تخريب في " صيدا "، وكذلك لتخوف الفرنجة من نوايا التتار التوسعية العدوانية [٨].

اتجه الجيش المملوكي من مصر إلى طبريا شمالاً، ثم عين جا لوت، وبالقرب من بيسان، دارت المعركة الفاصلة مع التتار، في 6 سبتمبر / أيلول 1260 م، فكان بينهما على بيسان واقعة أعظم من الأولى، وقتل من عسكر التتار نحو النصف، وغنم منهم عسكر مصر غنيمة عظيمة.. " [٩].

قلبت معركة عين جالوت موازين القوى في بلاد الشام، رأسًا على عقب، فقد تخلّص المماليك من بقايا الأيوبيين الذين تعاونوا مع هولاكو، من أمثال الملك السعيد حسن، أمير بانياس، يوم المعركة، فقُتل جزاءً له[١٠]، ولم يبق في مواجهة المماليك سوى الفرنجة، الذين بدأ نجمهم في الأفول، سواء في أنطا كية، أو طرابلس، وعكا، خاصةً بعد فشل حملاتهم المتكررة، فبدأ المماليك في إعادة توحيد مصر والشام، من جديد، مثلما فعل نور الدين زنكي، وصلاح الدين، من قبل.

في أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٦٠م، تخلّص بيبرس من السلطان قطز، واستولى على الحكم، وبعد أن بسط سلطانه على مصر والشام، تطلع بيبرس إلى التخلُّص من بقايا الفرنجة هناك، فبدأ بمحاصرة عكا، في إبريل/ نيسان 1263 م، لكنه لم يستطع الاستيلاء، لذلك عمد، بعد ذلك، إلى جعل حملاته ضد الفرنجة بشكل هجمات متقطّعة، يتمكن خلالها من صد بقايا التتار، الذين تكررت غاراتهم على بلاد الشام، طوال العصر المملوكي[١١].

في العام التالي، علم بيبرس بتحرُّك المغول نحو بلاد الشام، فسار على رأس جيشه حتى غزة، ثم يافا، وعندما صدَّت قواته التي في شمال

الشام هذه الغارة، غيّر خططه، فزحف في اتجاه قيسارية، أهم المواقع لدى الفرنجة وأخصَّها على الساحل، فيما بين عكا وغزة، وبعد أن حاصرها، وفر من كان فيها نحو يافا، اقتحم بيبرس وأمر بهدم قلعتها، وفي الوقت نفسه استولى على عتليت، ثم حاصر أرسوف، أربعين يوماً، ثم اقتحم حصنها، وحررها، في إبريل/ نيسان 1265 م. ولم يكن العرب الفلسطينيون بعيدين عن كل هذا، فشاركوا الجيش في اقتحام الأسوار، والقتال، حتى أن "... النساء، الصالحات (كن) يسقين الماء، في وسط القتال، ويجررن في المجانيق... " [١٢].

أما صفد، فقد زحف بيبرس نحوها، في 1266 م، وحاصرها مدة ثلاثة أسابيع، وعزلها، ومنع وصول النجدات إليها. وبعد سقوطها، هدم قلعتها، وأعاد بناءها في العام التالي، فيما سقطت يافا في يد المماليك، في العام 1268 م، ثم إمارة أنطاكية، في العام نفسه.

ولم يبق من إمارات الفرنجة بالشام إلا طرابلس، وعكا [١٣]، التي زحف نحوها السلطان قلاوون، وحاصرها حتى استولى عليها، في إبريل/ نيسان 1289 م، أما عكا فقد شرع قلاوون في الاستعداد لحصارها، إلا أن الموت عاجله، في ١٢٩٠ ، فأكمل ابنه، الأشرف خليل، المسيرة، فاستنفر قوات الشام، حيث خرج نائب دمشق، الأمير حسام الدين لاجين، على رأس جيشه، وكذلك أمير حماة، الملك المظفَّر، وغيرهم، فضلاً عن الأشرف خليل، واجتمعوا عند أبواب عكا، وحاصروها، وضربوها، بالمنجنيق، وسرعان ما سقطت عكا، في 18 مايو/ آيار ١٢٩١ م، بعد أن ظلَّت في يد الفرنجة قرن من الزمان [١٤].

الحياة الاقتصادية:

رغم افتقاد فلسطين للكثير من الموارد الطبيعية، اللازمة لقيام بعض أوجه النشاط الاقتصادي، فإن ثمة ازدهار ونشاط اقتصادي ملحوظ، عاشته فلسطين في عصر سلاطين المماليك، نظرًا لوقوعها على طريق القوافل التجارية، بين شمال بلاد الشام ومصر، أو بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، إضافة إلى تنوع إنتاجها الزراعي، الذي قامت عليه بعض الصناعات، فضلاً عن دور الحج في هذا الازدهار، كأحد أهم الموارد الاقتصادية لأهل فلسطين، والدولة المملوكية نفسها.

أولاً: الزراعة:

تراوحت معوقات الزراعة في فلسطين بين قلة مواردها المائية، وأرضها القابلة للزراعة، نظراً لتنوعها، فثمة أراضٍ صخرية، وأُخرى رملية، منخفضة، شبه صحراوية، وثالثة صحراوية، إلا أن هناك أراضٍ جيدة الخصوبة، ذات تربة طينية، خاصة في السهل الساحلي، وما حول المدن الكبرى، كالقدس، وصفد، وغيرها، أما المياه فقد تغلَّب السكان على مشكلتها، من خلال اللجوء، إلى الزراعة بالاعتماد على مياه الآبار، والبرك، والعيون، وأحياناً الأمطار.

قُسم الإنتاج الزراعي إلى قسمين، أولهما الأشجار المثمرة، وثانيهما ما تغله الأرض من حاصلات.

يأتي الزيتون على رأس الأشجار المثمرة، فلم تخلُ مدن وقرى فلسطين منه، إلا أنه كثر في المرتفعات الجبلية الغربية المحاذية لساحل البحر، خاصة نابلس " وهي مدينة عظيمة، وكثيرة الأشجار، مطردة

الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتونًا، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق " [١٥]. كما انتشر الزيتون في القدس، على سفوحها، وحوافها، وعلى جانبي التلال الصخرية، الممتدة حول أطراف المدينة، والقرى المجاورة لها، وعلى طول الوادي، الممتد ما بين القدس والخليل، وفي المكان نفسه انتشرت أشجار الكروم، والفواكه من التين، والموز، والجوز، والتوت، والتفاح، فضلاً عن الحمضيات وأشجار البلح [١٦] التي كثرت زراعتها في نيابة صفد، أيضًا، بجوار أشجار الزيتون الكثيفة في الجليل، والساحل، أما القطن فقد زُرع على الطريق من يافا إلى القدس، وفي مرج بن عامر، وساحل عكا، كما حظي قطن صفد بشهرة واسعة، لجودته، كذلك أرز صفد الذي صُدِّر إلى دمشق، وزرع في سهل الحولة، وفي المناطق الواقعة بينه وبين طبريا، وبالقرب من قناة صور. أما قصب السكر فقد اشتهرت به عكا، منذ القدم، حيث زُرع في ساحلها، وأنتج منه السكر [١٧]، كما زرع في أراضي الغور، وفي أريحا، التي تميَّزت، أيضًا، بزراعة القلقاس، الذي لا ينمو إلا في المناطق الحارة[١٨].

ونظرًا لخصوبة التربة في بعض القرى المحيطة بالقدس، زُرع القمح بكثرة، لأنه كان يزرع، ويحصد، دون عناء، فضلاً عن عدم احتياجه لكثير من المياه، وقلت زراعته في الوادي الممتد من بيت المقدس إلى الخليل، مع هذا لم تفِ كمية القمح المزروعة حاجة السكان، فكان السلاطين المماليك ينعمون على القدس والخليل، مثلاً بكميات كبيرة من القمح [١٩].

أما الشعير، فكانت زراعته شائعة، خاصة في الأراضي المرتفعة، على التلال بالقدس، حتى أن القمح والشعير كانا أهم محاصيل نيابة صفد، فضلاً عن بعض البقوليات، والخضروات، من فول، وبصل [٢٠]، إضافة إلى ما تميّزت به فلسطين من زراعة الأعشاب الطبيعية.

بما أن النظام السيامي قائم على الإقطاع، فقد كانت الأرض تُزرع بنظام المقاسمة، أي أن يتولى أحد الأشخاص استئجار الأرض من " مقطعها، ويقوم هو بالإنفاق عليها، وشراء، كل ما يلزمها، ثم يتقاسم ثمن المحصول، هو ومن قام بزراعتها " [٢١].

ثانيًا: الصناعة:

اشتهرت المدن الفلسطينية بقيام صناعات عدة، تماشت مع حاصلاتها الزراعية، وأشجارها، فضلاً عن مكانة بعض مدنها الدينية، خاصة بيت المقدس.

فقد اشتهرت نابلس بصناعة عصر الزيتون، واستخراج الزيت منه، فضلاً عن الصابون، وصناعة الورق، وصدرت معظم هذه الصناعات إلى دمشق. أما عكا فقد عرفت صناعة السكر من القصب، منذ القدم، فيما قامت في صفد صناعة استخراج الزيوت، والدبس، وماء الورد، وحفظ بعض الفواكه، وصناعة المنسوجات القطنية والصوفية، والكتانية خاصة في الجليل، كما أن سهل الحولة كان ينتج الحلفاء بكثرة، وكانت تستخدم في صناعة الحصر [٢٢]. أما مدينة بيت المقدس، فقد كانت مركزًا صناعيًا مهمًا، بالإضافة إلى استخراج الزيوت، إذ عرفت المدينة بصناعة الصابون الذي كان يصدر إلى المدن المجاورة، مثل يافا، ومنها إلى البلاد المجاورة،

فضلاً عن بعض الصناعات التي ارتبطت بموسم الحج، ومنها صناعة الشمع، والحفر على خشب الزيتون وقد تم صنع بعض أدوات الكتابة، ولعب الأطفال منه، إضافة إلى الهدايا التذكارية، التي يقبل عليها الحجاج الغربيين، فضلاً عن صناعة المنسوجات القطنية والحريرية، والمشغولات الفضية والذهبية. كما أن بعض أهل المدينة اشتغلوا بصناعة النبيذ، والسلال من سعف النخيل(٢٣).

ثالثًا: التجارة:

نظرًا لاستتباب الأمن والاستقرار، في عهد دولة سلاطين المماليك، فقد ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية، في فلسطين، إضافة إلى أنها تمتعت بموانئ عدة على الساحل، وإن تأثر هذا الازدهار، في أواخر العصر المملوكي لحرص السلاطين على فرض الكثير من الضرائب والأتاوات على الصنَّاع والتجار، فضلاً عن سياسة احتكار السلاطين والأمراء المماليك لبعض السلع، ناهيك عما تعرضت له البلاد، أحياناً، من أوبئة، ومجاعات، وكوارث طبيعية، كالزلازل.

أدى ازدهار الزراعة والصناعة في فلسطين، إلى رواج تجاري شهدته معظم المدن، خاصة الساحلية، فالمقادسة، تركزت تجارتهم في الحاصلات الزراعية من قمح، وشعيره وزيتون، وغيره، كما كانوا يستوردون بعض السلع، لبيعها في مدينتهم، خلال موسم الحج، مثل الأسماك من يافا، والأقمشة الحريرية من دمشق، كما تاجر بعضهم في الأخشاب، والعقاقير الطبية، والتوابل. أما البن، والأرز، والفول، والعدس، فكان يأتي إلى فلسطين من مصر، ودمشق، عبر طريق القوافل

التجارية، الذي ربط بين مصر وفلسطين، عبر سيناء، مروراً بغزة، والخليل، وبيت لحم [٢٤]، فضلاً عن شهرة بعض المدن الفلسطينية التجارية، مثل الرملة، العامرة بالكثير من الأسواق، أما عكا فقد كانت نشطة، تجاريًا، حتى وهي تحت احتلال الفرنجة، إلا أنه تم هدمها، بعد تحريرها، وتوقف نشاطها البحري، والتجاري الخارجي، على أنه يبدو أن عكا استردت نشاطها، وغدت ميناء، نيابة صفد، التي نشطت تجارتها مع دمشق[٢٥]، كما تم استيراد اللؤلؤ من الخليج العربي، عبر مينائي يافا، وطرابلس[٢٦].

أما الأسواق، فقد انتشرت في مختلف المدن، فضلاً عن تنوُّع هذه الأسواق، مثل سوق التوابل، وسوق العطارين، في القدس، وأسواق القطانين، والبصالين، والبقالين، والسراجية في الرملة، وفي الخليل سوق الزياتين، والحصرية.

اعتبر الخان من أهم المؤسسات التجارية في العصر المملوكي، سواء، داخل المدن، أو على طريق القوافل، وهو عبارة عن نزل، أو فندق، لنزول التجار، أو الحجاج، خلال رحلتهم، كما احتوى الخان على مخازن لحفظ بضائع التجار ودوابهم، ومن أشهر خانات فلسطين التي أُقيمت خارج المدن: خان المنية، عند بحيرة طبريا، والخان الأحمر، بين المقدس، وأريحا وخان يونس، جنوبي مدينة غزة، فيما أهم خانات القدس، تمثلت في: خان الفحم، وخان الجاولي، وخان القاضي فخر الدين بن نسيبة، وخان الزيت، وعلى بُعد ميلين من سور القدس، يقع خان بني سعد، وخان الظاهر بيبرس، الذي يعتبر من أقدم المنشآت المملوكية في

فلسطين [٢٧].

شكل الحج موردًا مالياً مهماً، سواء، لخزينة الدولة، لما يدفعه الحاج من رسوم دخول فلسطين، أو رسوم زيارة لكل الأماكن المقدسة، منذ أن تطأ قدميه ميناء، يافا، وحتى عودته إليها، بعد انتهاء موسم الحج، أو لأبناء، بيت المقدس، وخاصة التجار، وما يقومون به من معاملات تجارية مع الحجيج. كما أن الحج لم يقتصر على الحجاج المسيحيين، بل المسلمين، أيضاً، الذي كان يحج بعضهم إلى المسجد الأقصى، كجزء، من فريضة الحج إلى مكة، والمدينة المنورة، وكان الحجاج يأتون، في الغالب، عن طريق البحر، خاصة مينائي عكا، ويافا، أو من خلال الطريق البري، عبر مصر ثم غزة، أو من خلال ميناء، دمياط [٢٨].

عند استيلاء المماليك على فلسطين، عام 1250م، كانت الدراهم الكاملية (نسبة إلى الملك الكامل ناصر الدين الأيوبي)، الأكثر رواجاً في مصر، وبعض أنحاء بلاد الشام، منذ أن أمر بضربها عام ١٢٢٦م، وظلت، أثناء، حكم المماليك، وانتشرت معها الدراهم الظاهرية، التي سكها الظاهر بيبرس. ورغم أن الدينار والدرهم، والفلس كانت الوحدات النقدية الأساسية في مصر والشام، إلا أن قيمة كل منهما اختلفت بين منطقة وأُخرى، أو عام وآخر، تبعاً لما تعرضت له هذه العملات من غش، الذي ارتبط، في معظم الأحيان، بالأزمات الاقتصادية، التي مرت بها الدولة المملوكية [٢٩].

كانت الضرائب من أهم مصادر الدخل بالنسبة للدولة، لذلك تنوعت الضرائب بين المكوس، والرسوم، والجوالي، والمواريث الحشرية، فقد

فرض المماليك الضرائب على السلع والمشتريات، والأسواق والتجار، ناهيك عن الرسوم التي فُرضت على المسابك، ودار الوكالة (الخانات)، ونصف متحصل كنيسة القيامة، أما الجوالي، أو الجزية، فتُفرض على أهل الذمة من يهود، ومسيحيين، البالغين دون النساء، والأطفال والرهبان، فيما المواريث الحشرية، المال الذي تركه من لا وريث له أو له وارث لا يستحق كل الميراث، فيكون ذلك من موارد الدولة، التي تضاف إلى بيت المال [٣٠]. أما في أوقات الأزمات والحروب، فكانت الدولة تفرض المزيد من الضرائب لتمويل الحملات العسكرية، بل إنها لجأت أحيانًا إلى مصادرة ممتلكات الشعب، مثلما حدث، عام 890 هـ / 1485م، عندما توترت العلاقات بين الدولة المملوكية والعثمانية.

نظم الحكم والإدارة:

على غرار براعة المماليك في فنون الحرب والقتال، برعوا كذلك في التنظيم الإدراي لدولتهم، فقد قُسمت بلاد الشام إلى نيابات [*]، أما فلسطين فقد قُسمت إلى ثلاث نيابات، أولهما نيابة صفد، وقد تأسست بعد تحريرها من يد الفرنجة، في عهد الظاهر بيبرس، ووصفها ابن الظاهري، قائلاً: " أما المملكة الصفدية فإنها مملكة متسعة، قيل إنها تشتمل على ألف ومائتي قرية، ولها عدة معاملات، وأعظم مدنها صفد، هي مدينة متفرقة.. وبها جوامع ومدارس.. وقلعة حصينة.. و(عكا) وهي، الآن، مينا المملكة الصفدية وكفر كنة " [٣١]. ورغم وصف بن الظاهري لنيابة صفد، فإنه لم يُبين حدودها.

بما أن نيابة صفد، أول نيابة أُقيمت في فلسطين، على غرار النيابات السابقة في بلاد الشام، في هيكلها الإداري، وإن طغى على صفد الطابع العسكري، فإن باقي النيابات الفلسطينية لم تختلف عنها في البناء الإداري باستثناء، نيابة القدس التي زاد بها بعض الوظائف الدينية، لذلك يمكن إيجاز الجهاز الإداري في مختلف النيابات في الوظائف والدواوين التالية[٣٢]:

١ - النائب: يتم تعيينه من قِبل السطان، وممثِلاً عنه، ويكون مسؤولاً عن تصريف أمور النيابة كافة، وصلاحياته شبه مطلقة.

٢ - الوالي: هو المسؤول عن الأمن والإدارة داخل المدينة الواحدة من النيابة، وغالباً ما يكون الوالي من ذوي المراتب العسكرية الأقل من النائب.

٣ - والي القلعة: وهو تابع للسلطان، مباشرة، مسؤوليته صيانة القلعة، ومراقبة النائب خشية تمرده.

٤ - الأتابك: قائد عسكر السلطان.

٥ - الحاجب: نائب السلطان، في حالة غياب النائب، وإلى الحاجب ترد المراسيم السلطانية، ويتولى تنفيذها، حتى لو كانت أمراً بالقبض على النائب؛ وللحاجب مساعدان.

٦ - الخزندار: المسؤول عن خزائن القلعة، ومحتوياتها، من سلاح وعتاد.

٧ - ناظر النظّار: مهمته الإشراف على الدواوين، وكانت مهامه استشارية، أكثر منها تنفيذية، فيما تمثّلت الإدارة المدنية في ديوان الإنشاء، ويرأسه " كاتب السر "، ومن موظفيه الموقّعون، أو كتّاب الدرج، ولعل المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي أشهر من تولوا هذا المنصب.

أما البريده فقد ارتبط بديوان الإنشاء، ولم يكن البريد يستغرق من دمشق إلى القاهرة سوى أربعة أيام، اعتماداً على الفرسان، والحمام الزاجل، والشارات الضوئية، فكانت صفد نقطة الوصل بين القاهرة ودمشق، من خلال البريد.

إضافة إلى ذلك، هناك ديوان الجيش، الذي اهتم بشؤون العسكر المحلية، وإقطاعاتهم، وتولاه ناظر الجيش.

أما الإدارة الدينية فشملت القضاء، والفتوى، والحسبة، والأوقاف، والمساجد، والمدارس الدينية، حيث اعترفت الدولة بأربعة مذاهب إسلامية، هي: الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي. لذلك تم تعيين أربعة قضاة، للحكم بين الناس، حسب المذاهب الأربعة، أما الإفتاء فقد كان لبعض النيابات مفتيين، واحدًا للشافعية، والآخر للأحناف، بالإضافة إلى أن بعض العلماء تصدوا للإفتاء، دون تكليف رسمي. أما المحتسب فقد تولى الإشراف على النظام العام، والأسواق، والآداب العامة، وتطبيق الشريعة.

أُنشئت نيابة صفد بهدف التصدي لمملكة عكا الفرنجية، وكان المسؤول عنها أعلى رتبة في الجيش المملوكي، كما شارك المتطوعون من أهل صفد الجند في الدفاع عنها، ضد الفرنجة، والمغول، حتى تم دحرهم نهائياً، ثم المشاركة في صد العثمانيين [٣٣]. كما حوى التاريخ السياسي لنيابة صفد، المشاركة في بعض حركات التمرُّد والعصيان، التي قام بها بعض نواب الشام، فيما أحياناً أُخرى شاركت السلطة في قمع هذه الحركات، ومنها: عندما قام نائب دمشق وحلب طشتمر بحركة عصيان احتجاجاً على استبداد أتابك العسكر في القاهرة اينبك، وفي تلك الأثناء صدر أمر بعزل نائب صفد تمر باي الدمرداشي، فرفض إطاعة الأمر وانضم إلى طشتمر، وانتهت الحركة بنجاح، وطرد اينبك من منصبه، وصار طشتمر أتابكاً للعسكر في القاهرة [٣٤].

" أما المملكة الغزاوية، بها مدينة غزة، وهي مدينة حسنة بأرض مستوية، وهي كثيرة الفواكه وفيها من الجوامع والمدارس والعمارات

الحسنة.. وتسمى دهليز الملك.. وأما مدينة الرملة فليست مملكة وإنما هي إقليم تشتمل على قرى عديدة.. [٣٥]. ومن أهم الأسباب التي دعت السلطة إلى جعل غزة نيابة مستقلة، ضخامة حجم القبائل البدوية، كثيرة الثورة فيها، ناهيك عن تطلُّع السلطة إلى إضعاف مكانة نائب دمشق، بتجريده من بعض أقاليم نيابته، نظراً لتكرار تمرده على السلطة، بالإضافة إلى أن غزة كانت محطة إنذار مبكر بالنسبة لمصر، واتخذها سلاطين المماليك، وقبلهم الأيوبيين، قاعدة أولى لحملاتهم في الشام ضد الغزاة، واعتبرت غزة نيابة مستقلة في عهد المنصور قلاوون، ولكن تأكدت استقلاليتها هذه في عهد ابنه الناصر محمد بن قلاوون، عام 711 هـ/ ١٣١١م [٣٦].

أما عن تاريخ النيابة، فقد تمحور حول زيارات السلاطين المماليك لها، ومشاركتها في حركات التمرد، أو قمعها.

اعتبر الظاهر بيبرس أول السلاطين الذين زاروا غزة، قبل سلطنته، أو بعدها، وهي كثيرة، فقد لجأ اليها عام 652 هـ/ 1254 م عندما قتل سيده الأمير فخر الدين أقطاي، وبعد سلطنته تردد عليها خلال قيامه بتثبيت أركان مُلكه في بلاد الشام، ومحاربته لبقايا الأيوبيين، والفرنجة، والمغول، وذلك خلال الأعوام التالية 659 هـ / 1261 م، و 661 هـ/ 1267 م، وغيرها. أما المنصور قلاوون فقد زارها قبل توليه الحكم، وبعده، وبالتحديد عام 685 هـ/ ١٢٨٦م، حينما هدد المغول بلاد الشام. فيما كانت أهم حركات التمرد، التي كان لغزة الدور المحوري فيها، عندما نازع نائب دمشق سنقر الأشقر، المنصور قلاوون، عرش السلطنة، فأرسل الأول عساكره إلى غزة لمنع قوات قلاوون من الزحف

إلى الشام، ودارت معركة في المدينة انتصرت فيها قوات قلاوون، بسبب عجز الأشقر عن الاحتفاظ بغزة[٣٧].

من أهم المنشآت في غزة، مسجد الأمير علم الدين سنجر الجاولي، ومسجد الصوفي أحمد بن عثمان بن عبد الله الحنبلي (ت 805 هـ/ 1402 م)، بالإضافة إلى بيمارستان الجاولي، الذي ظل حتى حملة نابليون بونابرت على الشام. وهناك زوايا ومدارس عدة، فضلاً عن عدد من الخانات أشهرها خان يونس، الذي بناه الأمير يونس النوروزي، أحد كبار المماليك في عهد السلطان برقوق، وكانت تجبى فيه الضرائب من الحجاج والمسافرين [٣٨].

في عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣م، جعل السلطان برقوق من القدس نيابة مستقلة، ولم يختلف الجهاز الإداري فيها عن باقي النيابات، باستثناء، بعض الوظائف الدينية، نظرًا لمكانة المدينة الدينية، كما أن نائب القدمس، جمع في الغالب بين وظيفته العسكرية، وأُخرى الدينية، وهي ناظر الحرمين الشريفين، القدس والخليل، والإشراف عليهما، وأوقافهما، فيما مشيخة المدرسة الصلاحية تأتي في المرتبة التالية، وهي مدرسة أنشأها صلاح الدين بعد تحرير المدينة في 583 هـ/ 1187 م، وشيخ الصلاحية أحد أهم ثلاث شخصيات حكمت القدس، وجمع أحيانًا مع المشيخة وظيفة قاضي القضاة، أو الخطابة، وكان يقيم يتيم أحيانًا في القاهرة، وينيب عنه أحد الشيوخ المقيمين في المدينة، فيما تمثلت باقي الوظائف الدينية في القضاء، والخطابة، والتدريس في المدرسة الصلاحية، والحسبة، وناظر البيمارستان.

مثل باقي نيابات الشام، شاركت نيابة القدس في قمع بعض حركات التمرد، ومنها، عام 842 هـ / 1478 م، عندها شاركت قوات النيابة، قوات نيابة صفد في قمع إينال الجكمي، نائب دمشق، وألقت القبض عليه، بعد هزيمته، كما لجأت إلى تجنيد الكثير من أهل الخليل ونابلس والقدس، وخاصة البدو، لصد هجمات العثمانيين، ومنها، حينما اشتدت الخلافات بين السلطان العثماني بايزيد، والمملوكي الأشرف قايتباي، عام 889 هـ / 1485 م، وهو ما تكرر في العام ٨٩٢ هـ / 1488 م [٣٩].

من الملاحظ أن أهل فلسطين، عملوا في الجهاز الإداري، واحتلوا أهم المناصب، من نظارة الحرمين، والحسبة، والقضاء، ففي عام 796هـ، كان نائب القدس وناظر الحرمين، شهاب الدين الأمير أحمد بن اليغموري، ولما زار السلطان الناصر فرج بن برقوق المدينة، جعل النيابة لليغموري، وعيَّن الأمير ناصر الدين النشاشيبي، نظارة الحرمين[٤٠].

الحياة الاجتماعية:

كان طبيعيًا أن يحتل المماليك قمة الهرم الاجتماعي، وتولوا أعلى المناصب في الدولة، فضلاً عن بعض الفئات التي ارتبطت بهم، خاصة أصحاب الوظائف الإدارية، والمالية، والقضائية، من كتبة، وإداريين، وفقهاء، وعلماء، جاء كبار التجار، في المرتبة التالية، حيث عاشوا في ترف، وسكنوا القصور، وإن لم يسلموا من نير الضرائب، وأقام البعض منهم في أحياء، مقسمة تبعًا لنوع تجارتهم. أتى في قاعدة الهرم الاجتماعي العمال والزراع، أما العمال فقد أقاموا في أحياء، وأسواق

خاصة بنوع عملهم، مثل حي القطانين في الرملة، وسوق الزياتين في الخليل، كما انتظم العمال وأرباب الحرف في ما يشبه النقابات، لتنظيم أحوالهم، ورعاية مصالحهم. بالإضافة إلى أنه لا يُستبعد أن المهنة وُرِّثت من جيل إلى جيل.

طبق المماليك نظام الإقطاع العسكري في أنحاء، بلاد الشام، وهو موروث من الدولة الأيوبية، وتمثل في منح الأمراء قطعة أرض زراعية، بمن عليها من فلاحين، فضلاً عن أن بعض الأمراه منح إقطاعات نقدية، نظير خدماتهم العسكرية، لذلك سُمي " بالإ قطاع العسكري "، وكان يتغير تبعاً لوظيفة المقطع، كما تفرَّق الإقطاع في جهات عدة، حتى لا يستقل الأمراء عن السلطة [٤١]. ولم يكن الإقطاع يورث، كما أنه لم يلغ الملكية الفردية الخاصة، أما عن علاقة الإقطاعي بالفلاحين، فلم تكن قائمة على تبادل الحقوق والواجبات، بل كان على الفلاحين أن يقدموا ثمار عملهم إلى صحاب الإقطاع، الذي رأي فيهم مصدرًا للدخل، حيث حدَّدت علاقات الإنتاج أن يدفع الفلاحون خراجًا عينيًا، سنويًا، ناهيك عن ضريبة سنوية، مقابل الإنفاق على مشروعات الصيانة، وإقامة الجسور، إلى جانب ما يدفع، مقابل البذور [٤٢]. صحيح أن الفلاح لم يعتبر قن (عبد)، لكنه عاش أحوالاً غاية في السوء، ما دفعه إلى الهرب من القرى والمزارع، والهجرة إلى المدن. فأثر ذلك على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، سلبيًا.

مع ظهور التصوُّف وانتشاره نشأ " الإقطاع الديني "، أو الأوقاف، التي تأسست في العصر المملوكي. وكانت إما بعض الأراضي الزراعية،

أو بعض الممتلكات في المدن، تؤدى خدمات خاصة، أو اجتماعية وخيرية عامة، كما أن السلطة اعتادت منح بعض مشايخ البدو إقطاعات لقاء خدمات محدَّدة، مثل الحفاظ على طرق المواصلات، والمساعدة في جلب الضرائب، وحفظ الأمن، والقضاء على حركات التمرُّد والعصيان، بالإضافة إلى المشاركة في بعض الحملات العسكرية ضد المغول، أو حكام آسيا الصغرى (٤٣).

أما أهم المنشآت الاجتماعية، فكانت الحمامات، التي كانت مقرًا لبعض الاحتفالات، ومركزًا اجتماعيًا نشطًا، كما اعُتبرت مكانًا للعلاج من بعض الأمراض. والقدس وحدها، حوت أكثر من عشرة حمامات، بعضها للنساء فحسب، ومن أشهر حمامات القدس، حمام العامود، وحمام دواد، والبطرك، وحمام الشفا، والعين.. وغيرها. ونظراً لقلة المياه في بعض المدن، فقد اهتمت السلطة بإنشاء الأسبلة (مفردها سبيل)، أي السقايات العامة، خاصة في الأماكن المزدحمة، مثل القدس، وكان السبيل يقام فوق بئر، أو نبع، ومن أهمها: سبيل قايتباي، وسبيل خان السلطان، وسبيل بركة خان في القدس (٤٤).

الحياة الثقافية:

شهد العصر المملوكي تطوراً علمياً ملحوظاً، خاصة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فقد انتشر بناء، المدارس، والمكتبات، وازداد عدد العلماء الفلسطينيين، وعُرفت كثير من المدن بأنها من مراكز العلم، مثل القدس، ونابلس، وصفد، والرملة، والخليل، كما كان ظهور بعض العائلات العلمية من أهم سمات ذلك العصر.

انقسمت مراحل التعليم إلى مرحلتين، أولاهما مرحلة التعليم العام، للأطفال وحتى المراهقة، وثانيهما اهتمت بسن الشباب، وهي تشبه إلى حد ما، مرحلة التعليم العالي، فعرفت فلسطين الكتاتيب أو المكاتب، ومهمتها تعليم الأطفال القراءة والكتابة، وتحفيظهم القرآن الكريم، ومن هذه الكتاتيب مكتب باب الناظر، الواقع بجوار أحد أبواب المسجد الأقصى، ومكتب المدرسة الجوهرية، التي أنشأها الأمير جوهر، عام ٨٤٤ هـ، في القدس [٤٥].

أما المدارس، فلم تكن معروفة في فلسطين، قبل العصر المملوكي، وهي أشبه بالمسجد الجامعي، والحلقات الفقهية، والمجامع الشرعية، وقد أنشأتها الدولة من أجل تثبيت ونشأة المذهب السني، وفيها يتناول الأساتذة والطلبة مرتباتهم من الأموال الموقوفة، كما كانوا يُقيمون في أماكن مخصصة لهم. أما المدرسون فكانوا من الفقهاء، والعلماء، والمحدثين[٤٦].

ومن أهم المدارس التي أُنشئت، خلال العصر المملوكي [٤٧]:

- المدرسة الدوادارية: أوقفها الأمير علم الدين سنجر، نائب دمشق، عام 695 هـ / 1295 م، على تدريس المذهب الشافعي، والحديث، وقراءة القرآن الكريم، وتقع خارج الحرم القدسي الشريف.

المدرسة الوجيهية: أنشأها وأوقفها الشيخ الإمام، وجيه الدين محمد بن عثمان التنوخي، عام ٧٠١ هـ / ١٣٠٢ م، وكان شيخ الحنابلة في دمشق، وتقع بالقرب من باب الغوانمة.

المدرسة الكريمية: أوقفها ناظر الخواص السلطانية، في عهد الناصر بن قلاوون، كريم الدين عبد الكريم بن المعلم، 718 هـ / 1318 م، وهي في الجهة الشرقية من الحرم.

المدرسة التنكزية: أوقفها نائب دمشق، سيف الدين تنكز، عام 729 هـ / 1328 م، وهي بالقرب من باب السلسلة.

وغيرها من المدارس، مثل المدرسة العثمانية، التي أسستها السيدة أصفهان خاتون، عام 840هـ / 1436 م، فضلاً عن المدرسة الجوهرية، التي أسسها الأمير جوهر القنقباي الخازندار، عام ٨٤٤ هـ / 1440 م، والمدرسة الأشرفية السلطانية، التي أسسها الملك الأشرف قايتباي، عام 887 هـ / 1482 م.

أما غزة، فقد تلت القدس في المكانة العلمية والثقافية، فقد حظيت برعاية سلاطين المماليك، وأسسوا فيها الكثير من المدارس، والمساجد، تمثلت في جامع السلطان لاجين (1296 - 1298 م)، ومدرسة سنجر الجاولي، الذي تولى نيابة غزة عام 711 هـ / 1311 م، والمدرسة الكجكية، التي أسسها شاهين بن عبد الله الكجكي، في أواخر القرن الثامن الهجري، والمدرسة البردبكية، التي تأسست عام 859هـ / 1455 م، على يد بردبك الدوادار، فيما حوت نابلس مدارس عدة، منها مدرسة بن بدران، التي أسسها الحافظ بن بدران المتوفى، عام 698 هـ / 1298 م، ومدرسة القاضي فخر الدين بن فضل الله، ناظر الجيوش المملوكية، فيما أسس الملك الناصر بن قلاوون، أربع مدارس، كل مدرسة منها لمذهب من المذاهب الأربعة، في حين تأخَّر ظهور النشاط العلمي في الرملة،

نظرًا لعدم استقرارها، سياسياً، حتى القرن الثامن الهجري، وبلغت أوج ازدهارها، في القرن التاسع، أما الخليل فقد شهدت نهضة علمية، من أهم مدارسها، مدرسة السلطان حسن، والمدرسة القيمرية عند باب المسجد الإبراهيمي، فضلاً عن المدرسة الفخرية بحارة الشعابنة، في حين تركّزت الحركة العلمية في صفد في الجامع الظاهري[٤٨].

توازى عدد المكتبات مع حجم المدارس، فلم تخلُ الأخيرة من وجود مكتبة فيها، ولكن بعض المساجد والزوايا والرباطات، أيضًا، وجد فيها مكتبات، ومن أشهرها مكتبة المدرسة الفخرية، بالقدس، التي أنشأها القاضي فخر الدين بن فضل الله، وزاد عدد مخطوطاتها الدينية والفلكية على عشرة آلاف مجلد، فيما تعد خزائن الكتب في المسجد الأقصى أهم مكتبات المساجد، فقد ضمت آلاف الكتب والمخطوطات في العلوم الدينية، وعلوم اللغة، والتاريخ، والفلك، وغيره، بالإضافة إلى مؤلفات المدرسين، الذين عملوا في المسجد الأقصى على مدى العصور، خاصة وأن الكثير من العلماء حرصوا على أن يرسلوا نسخًا من مؤلفاتهم إلى المسجد الأقصى، بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك المكتبات الخاصة، والتي امتلكها، في الغالب، العلماء والفقهاء، رغم ارتفاع ثمن الكتب، نوعًا ما، بل إن بعضهم أوقفها، ومنهم الشيخ برهان الدين بن إبراهيم بن جماعة، خطيب المسجد الأقصى، ومُدرس المدرسة الصلاحية (١٣٢٤ - ١٣٨٨)، وغيره[٤٩].

على مر العصور برع أبناء فلسطين في مختلف العلوم، وإن كان ما يهمنا هنا العصر المملوكي الذي شهد ازدياد عدد العلماء الفلسطينيين،

ومن أهمهم:

علم القراءات:

ظهر أهم علمائه في القرن الثامن الهجري، وهو شمس الدين الجزري، من أبناء القدس، وله مؤلفات عدة، منها كتاب النشر في القراءات العشر، والحصن الحصين في الأدعية والأذكار، وغيرها. ومن علماء القراءات، أيضًا، ابن القباقي، المتوفى عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥م، وصنَّف في القراءات أربعة عشر كتابًا [٥٠].

الأدب والنحو واللغة:

ومن علماء اللغة، في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، نجد عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي (١١٠٥ - ١١٨٦ م)، والذي عمل في ديوان الإنشاء، وأحمد بن محمد بن عبد المولى بن جبارة المقدسي (١٢٤٩ - ١٣٢٧م)، ومن مؤلفاته: " شرح الشاطبية "، و " شرح الرائية "، و " شرح ألفية بن معطي "، فيما كثر عدد العلماء، في القرن الثامن الهجري، ومنهم شباب الدين أحمد بن الحسين بن الرصاص (توفى في ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨)، وكان إمامًا، ونحويًا، ومن مؤلفاته " شرح الألفية " [٥١].

علم التاريخ:

وله نصيب بارز من اهتمام العلماء، التي تميَّزت كتاباتهم بتسجيل السير الذاتية، والتراجم والوفيات، فضلاً عن أهم الأحداث المحلية خاصة السياسية، وقد عمل أغلب المؤرخين، في دواوين الحكومة، كما كان بعضهم من أبناء المماليك، الذين لم يمسَّهم الرق.

ومن أهم المؤرخين الفلسطينيين (٥٢):

عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة المقدسي، المتوفى في ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م، وكان جده قد هاجر إلى دمشق، عند وقوع القدس في أيدي الفرنجة، عام ١٠٩٩م، وعاد أبو شامة إليها، عام ١٢٢٦م، وهو من أشهر المؤرخين. واهتمت مؤلفاته بتاريخ الدولة الأيوبية، ومنها كتاب: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية "، و " نزهة المقلتين "، و " مختصر تاريخ دمشق "؛ وهناك محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي (٦٩٩ هـ / ١٣٠٠م)، من قريد مردا، قرب نابلس، ومن أهم مؤلفاته " طبقات الحنابلة "، بالإضافة إلى صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (١٢٩٦ - ١٣٦٣)، أحد علماء التاريخ، والأدب، والشعر، والنثر، في عصره. ولد في صفد، وتولى ديوان الإنشاء، في القاهرة وحلب، وجاوزت مؤلفاته المائتين، ومنها كتاب " الوافي بالوفيات "، و " نكت الهيمان في نكت العميان "، فضلاً عن أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)، وأهم مؤلفاته " إنباء الغمر بأبناء العمر "، و " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة "، وغيره.

الرياضيات:

وهي تنقسم إلى ثلاثة فروع: علم الفرائض والحساب، وعلم الجبر والمقابلة والهندسة، ويُعد أحمد بن محمد أبو العباس المقدسي، المعروف بابن الهائم، الفلسطيني الأصل، والمصري المولد من أهم العلماء الذين أثروا تاريخ الفكر الإنساني، وهو كثير التأليف فله أكثر من خمسة وعشرين مؤلفًا، في الفقه، والفرائض، والحساب، حتى لُقب " بعيسوب

الزمان وفرض العصر والأوان ". ومن أهم مؤلفاته:

" الوسيلة في الحساب "، و " المعونة في الحساب الهوائي "، وغيره، مثل شمس الدين الصفدي (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩م) [٥٣] ونبغ في الفرائض والحساب، وعمل مفتي للشافعية.

الفلك:

ومن أهم علمائه شمس الدين بن محمد بن سليمان، الشهير بابن البرهان الخليلي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م)، ومن مؤلفاته، كتاب في الفلك، وكتاب " الدائر الآفاقي "، و " قبيلة البلدان " من حساب شمس الدين الخليلي، و " عروض منازل الحج "، فضلاً عن موسى بن محمد الخليلي (٨٠٥ هـ / ١٤٠٣م)، والذي كتب " رسالة في العمل بالاسطرلاب "، القصد منها تعيين أوقات الصلاة وتحديد القبلة [٥٤].

الطب:

ظهر في فلسطين عدد قليل من الأطباء المختصين، فقد كان أغلب الأطباء تنطبق عليهم صفة الممارس العام، منهم ابراهيم بن محمد بن بهادر، المعروف بابن زقاعة الغزي (ت ٨١٠ هـ / ١٤٠٧م)، ولد في غزة، واهتم بالعلاج بالأعشاب والنباتات، فيما محمد بن سعد الله بن جماعة (٨١٩ هـ / ١٤١٦م)، برع في كثير من العلوم، وتميَّز بكتاباته في الطب، ومنها " لمعة الأنوار في التشريح "، و " الجامع في الطب "، وهناك محمد بن أحمد المقدسي، المعروف بابن قدامة (٧٢٤ هـ / ١٣٢٣م)، الذي ألَّف كتاب " الرد على شفاء الأسقام " وهو في الصحة العامة [٥٥].

كما عرف الأطباء الفلسطينيون المرقد (النبج) واستعملوه في العمليات الجراحية، وبرعوا أيضًا، في علم التشريح، ومنهم أبو بكر بن جماعة الكنانة، (ت ٨١٩ هـ / ١٤١٦م)، الذي كان على دراية بالتشريح، حيث وصف تشريح الجمجمة، والغضروف، والدماغ، والرئة وغيرها، أما طب العيون فقد نبغ فيه علاء الدين بن طرخان الصفدي، (ت ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م)، الذي صنف كتاب " القانون في أمراض العيون "، كما اهتم، أيضًا، بالطب النبوي، فيما البعض قصر جهوده على معالجة الفقراء فحسب، مثل الطبيب يوسف أبو الفضائل الصفدي، (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م)، ويوسف بن عبد الهادي بن المبرد، (٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م)، وألّف كتابًا في طب الفقراء [٥٦].

شهد العصر المملوكي، أيضًا ظهور كثير من العائلات العلمية، التي تنافست فيما بينها على الزعامة العلمية، ليتسنى لهم الوصول إلى أعلى الوظائف الدينية مثل القضاء، والخطابة، ومن هذه الأسر، بني قدامة، والقلقشندي، والحنبلي، وغيرهم، كما أن المرأة لم تكن بعيدة عن الحياة العلمية، خاصة في علوم القرآن، وبالذات في رواية الحديث، ومنهم آمنة بنت العلامة تقي الدين إسماعيل القرقشندي، (٨٠٩ هـ)، وعائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن قدامة (٨١٦ هـ) وأخذ عنها الحديث الحافظ بن حجر [٥٧].

هنا، انتهى تاريخ فلسطين في العصر المملوكي، وبدأ عصر جديد، أسهمت فيه فلسطين اقتصاديًا وحضارياً، وتأثّرت هي بأحواله السياسية، وهذا يحتاج إلى دراسة أُخرى.

مراجع الفصل السابع عشر

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩١، ص ١٠٩.
(٢) **المصدر نفسه**، ص ١٢٩ - ١٣٢.
(٣) عبد العظيم رمضان، **الصراع بين العرب وأوروبا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٥٢٤ - ٥٢٥.
(٤) عاشور، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٢.
(٥) محمد حسين محاسنة وآخرون، **دراسات في التاريخ الإسلامي**، دار الأمل للنشر، إربد، ١٩٩٠، ص ١٢٧ - ١٣٧.
(٦) **المصدر نفسه**، ص ١٣٢ - ١٣٣.
(٧) عاشور، **مصدر سبق ذكره** ص ١٩٥.
(٨) **نظرات على انتصارات العسكرية الوطنية المصرية**، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٩٣، (انظر: محمد فيصل عبد المنعم، جيش مصر يحقق نصرًا خالدًا على التتار)، ص ٨٠ - ٨٤.
(٩) محمد بن إياس الحنفي، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الأول، الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣٠٦.
(١٠) محاسنة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٦.
(١١) رمضان، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢٦.
(١٢) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، (بيروت، ١٩٩٠، انظر: سهيل زكار، فلسطين في عهد المماليك، ص ٥٤٦ - ٥٤٧.
(١٣) جمال الدين الشيال، **تاريخ مصر الإسلامية**، ج٢، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٥٦.
(١٤) بيبرس المنصوري، **التحفية المملوكية في الدولة التركية**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية - اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٥٣.
(١٥) بن بطوطة، **تحفة النُظّار في غرائب الأمصار**، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٨١.
(١٦) علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٩٤.
(١٧) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٨ - ٥٥٩).

(١٨) فادي إياس توا، **المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك**، د. ن، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٠.
(١٩) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥.
(٢٠) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٩).
(٢١) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٦.
(٢٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥٩).
(٢٣) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٩ - ٢٠٠.
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.
(٢٥) الموسوعة **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٨٥ - ٥٩٠).
(٢٦) فيليب حتى، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة كمال اليازجي، ج٢، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٩، ص ٢٧٨.
(٢٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: ذكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٩٨ - ٥٩٩).
(٢٨) لمزيد من التفاصيل: السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٩٨ - ٥٩٩.
(٢٩) الياس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٦ - ٢٢٢.
(٣٠) السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢٣ - ٢٢٧.
(*) النيابة، في العرف المملوكي العام، تعني المملكة الصغيرة، وأتت كلمة " نيابة " من أن على رأس كل مملكة نائب عن السلطان المملوكي.
(٣١) غبرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، **زيدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بولس راويس، دار العرب البستاني، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٤٥.
(٣٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٦٠ - ٥٦٥.
(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٥٦٤ - ٥٦٥.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٥٦٦.
(٣٥) الظاهري، **مصدر سبق ذكره**، ٤٣.
(٣٦) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: ذكار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧٣).
(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ٥٧٤ - ٥٧٥.
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ٥٨٠ - ٥٨١.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ٥٨٤ - ٥٨٥.
(٤٠) عمر الصالح البرغوثي، **تاريخ فلسطين**، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٣، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.
(٤١) قاسم عبده قاسم، **دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٠.
(٤٢) محمود إسماعيل، الإقطاع في العالم الإسلامي من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجري بين الجدل النظري والواقع التاريخي، **حوليات كلية الآداب**

(الكويت)، جماعة الكويت، الحولية الحادية عشرة، ١٩٩٠، ص ٥٥.

(٤٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره،** ص ٥٧٠).

(٤٤) **المصدر نفسه،** ص ٦٠٣ - ٦٠٤.

(٤٥) السيد، **مصدر سبق ذكره،** ص ١٥٦ - ١٥٩.

(٤٦) فيليب، **مصدر سبق ذكره،** ص ٢٨٤.

(٤٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: زكار، **مصدر سبق ذكره،** ص ٦١٠ - ٦١١).

(٤٨) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: كامل العسلي، التعليم في فلسطين من الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث، ص ١٤ - ١٦.

(٤٩) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: كامل العسلي، المكتبات في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى عام ١٩٨٥، ص ٢٨٥).

(٥٠) السيد، **مصدر سبق ذكره،** ص ١٣٨.

(٥١) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: عفيف عبد الرحمن، علم اللغة في فلسطين، ص ٤٢٨).

(٥٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: محمد عيسى صالحية، التاريخ والمؤرخون في فلسطين، ص ٣٢٠ - ٣٢٩).

(٥٣) السيد، **مصدر سبق ذكره،** ص ١٤٨.

(٥٤) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: محمد عيسى صالحية، علم الفلك والميقات والعلوم الأخرى في فلسطين، ص ٣٨٠ - ٣٨١).

(٥٥) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره،** (انظر: محمد عيسى صالحية، الطب والأطباء في فلسطين، ص ٣٩٤ - ٣٩٥).

(٥٦) **المصدر نفسه،** ص ٣٩٤ - ٣٩٦.

(٥٧) السيد، **مصدر سبق ذكره،** ص ١٢٦ - ١٢٧.

* * *

الفصل الثامن عشر

العثمانيون وفلسطين

الفصل الثامن عشر:
العثمانيون وفلسطين

أسماء الغرباوي

عندما يتكلم السلطان؛ يصمت الجميع! ولكن ماذا يحدث عندما يصمت السلطان، في ظل ظروف تستوجب أن يتكلم؟

إذا كانت الدولة العثمانية قد جاءت؛ دولة إسلامية فاتحة؛ تحمل الامال والأحلام، في إعادة الأمجاد الغابرة للإسلام، والمسلمين. وإذا كانت تحمل، حقا، هدف رفع راية الإسلام، وكان شاغل السلطان الرئيسى أن يصبح حاميا لكلمة الإسلام؛ فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا كان عدم الترحيب رد فعل أهالى الشام تجاه الدولة العثمانية؟ أم أن الطابع العسكرى العنيف، والبطش بالثائرين بيد الدولة العثمانية؛ أضفى إليها صبغة المحتل الذي لابد أن يواجه بالمقاومة؟ وهل اتخذت الدولة العثمانية من الإسلام ستارًا لتحقيق أهدافها؛ في تكوين إمبراطورية عظيمة، تضمن لها النفوذ؟

ليس غرضنا إصدارأحكام على الدولة العثمانية؛ فهذه الدراسة ليست إلا محاولة لالقاء الضوء على فترة تاريخية مهمة من تاريخ فلسطين؛ استمرت أربعة قرون من الزمان؛ وهي فترة حكم الدولة العثمانية،

خاصة مع تزامن هذه الدولة لحدث مصيري في فلسطين؛ وهو ظهور أول نشاط صهيوني، وبدايات المشروع الصهيوني، وموقف الدولة العثمانية منه، والذي ترتب عليه ما آلت إليه الأمور في فلسطين.

نشأة الدولة العثمانية:

عرفت الدولة العثمانية في التاريخ بأسماء عدة؛ منها " دولت علية " (الدولة العلية)، " سلطنة سنية " (السلطنة السنية)، " امبراطور لق عثمانلى " (الإمبراطورية العثمانية)، " دولت ثمانلي " (الدولة العثمانية). أما كلمات؛ تركيا، وأتراك، وتركي، فهي مصطلحات وردت من أوروبا، وهي بعيدة عن الدقة في الصياغة اللفظية، حتى أوائل القرن العشرين. حتى كان الأوروبيون يطلقون هذين التعريفين (تركي، أتراك)، على الأجناس المختلفة في نظرهم، والتي كانت في أسيا، مثل السلاجقة، والتركمان؛ " فكانوا يطلقون تركي على الفلاح العثماني الجاهل، أو أحد سكان قرى الأناضول بمعنى واحد هو الجلف؛ تهكمًا عليه، أو تحقيرًا له، على الرغم من أن لغتهم كان يطلق عليها في جميع العصور التاريخية اللغة التركية " [1]. وهو ما يؤكد تعصب العثمانيين لعثمانيتهم؛ والتي تصل إلى حد الاستعلاء؛ والذي ينعكس على طبيعة العثماني. فلم تكن النزعة الحربية لديه طارئة، بل كانت نزعة أصيلة إستمدها من بيئته الأولى، في أوسط آسيا، قبل أن يتجه إلى آسيا الصغرى؛ مما طبع تصرفات الدولة العثمانية، بل سياستها العليا، أيضًا، بالطابع العسكرى العنيف.

نعود بنسب الدولة العثمانية إلى عثمان بن أرطغرل، من قبائل الغزو،

وتدعى قبيلة (قاي)، وكان يتزعمها سليمان؛ والد أرطغرل، الذي انضم إلى جيش السلاجقة؛ وعندما انتصر جيش علاء الدين السلجوقي على المغول عمل علاء الدين جميل على انضمام أرطغرل إليه، وأعطاه أرضًا حول مدينة (اسكى شهر)، في الجزء الغربي من الأناضول. ولم يكتف أرطغرل بتلك الأرض، بل أخذ يتوسع في الأراضى التي حوله حتى وافته المنية سنة ١٢٨٨، وتولى ابنه عثمان، حيث اعتنق الإسلام، وتبعه عدد كبير من أفراد قبيلته، وهذا بدوره ينفي الروايات التي تعود بنسب العثمانيين إلى العنصر الحضري من أهل السنة، أو إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) [٢].

قرنان من العنفوان:

تعد الدولة العثمانية دولة متوسطية، أي من دول البحر المتوسط، حيث كانت هذه الدولة تطل على معظم سواحل البحر، الساحل الشرقي بأكمله، والساحل الجنوبي بطوله، ابتداء من مصر حتى الحدود الشرقية لمراكش، والساحل الشمالي في ثلثه الشرقى، تقريبًا، حتى البحر الأدرياتي، الذي تطل على مدخله ألبانيا، كما يطل عليه إقليم الجبل الأسود. وعززت الدولة العثمانية وجودها العسكرى والسياسى والدينى في البحر المتوسط، بإستيلائها على عدد من الجزر المهمة، القائمة في حوضه الشرقى، مثل رودس (١٥٢٢)، وقبرص(١٥٧١)، وكريت، أو كريد (١٦٦٩)، وإن أخفقت الدولة العثمانية في الاستيلاء على جزيرة مالطة، عام ١٥٦٥، في أواخر حكم السلطان سليمان المشرع[٣].

تبدأ الفترة الأولى من تاريخ فلسطين تحت الحكم العثماني بعد

استيلاء سليم الأول على بلاد الشام، عام ١٥١٦ م. ويعد القرن السادس عشر العصر الذهبى للدولة العثمانية، فقد تولى الحكم فيه سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠)، وسليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، وسليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤)، ومراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)، ومحمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٣٠).

لم يكن سليم الأول يريد بفتحه بلاد الشام، ومصر، حماية الإسلام، والأماكن المقدسة، ففي السابق كانت الفتوح ضد أوروبا، فتوحًا إسلامية، أما في حالة استيلاء سليم الأول على بلاد الشام، ومصر، وقضائه على دولة المماليك، فإن الأمر يتبدل، حيث أن المماليك يعتبرون أنفسهم حماة للإسلام، والإسلام السنى خاصة، وبهذا يكون الأمر غير مبرر، بيد أنه " لم تعد الممتلكات العثمانية قادرة على الاتصال إحداهما بالأخرى إلا بالدوران حول النتوء المملوكى، المتمثل في بلاد الرافدين العليا... وكان ذلك عقبة استراتيجية، تثير قلقًا لدى السلطان " [٤]. ومن ثم فلابد، لإزالة تلك العقبة من الاستيلاء على الشام ومصر.

ولى سليم الأول وجهه شطر بلاد الشام، وكانت جزءًا من دولة المماليك الشراكسة، وانتصر في معركة " مرج دابق "، في أغسطس / آب ١٥١٦م، على السلطان قنصوة الغوري، وتساقطت في يدي سليمان الأول، تباعًا، المدن الرئيسية: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق. وانساب جنوبًا ليستولي على فلسطين، والتي كان ردود أفعال أهلها غير مرحِّبة بالحكام الجدد من العثمانيين، حيث حدث أثناء التوسع العثماني في فلسطين، أن انتشرت الشائعات في فلسطين وبلاد الشام عن هزيمة

العثمانيين. ورد العثمانيون بالبطش بالمتمردين، كما حدث، مثلاً، في غزة، حيث قتلوا ألفًا من أهلها، بعد أن ثار هؤلاء عند، سماعهم بشائعة هزيمة الغزالي للعثمانيين، في معركة خان يونس، وقتلوا أربعمائة من العثمانيين. وحدث مثل ذلك في الرملة. وفي دمشق تحركت العامة، الذين عرفوا بالزُعر، ضد العثمانيين، لدى سماعهم بهذه الشائعة، إلى أن وردت أخبار انتصار العثمانيين على المماليك في الموقعتين، وعندها خضع أهالى الشام للعثمانيين [٥]. ومن المفارقات أن الدولة العثمانية التي حاربت المماليك، استخدمت بعض زعماء لحكم الولايات المركزية، فيما أبقت على البنية الاقتصادية، والاجتماعية المملوكية (الإقطاعية). وعليه، فقد أقام العثمانيون في بلاد الشام ثلاث ولايات: حلب في الشمال، وطرابلس على الساحل، ودمشق، التي كانت الأوسع، وعين جان بردى الغزالى واليًا على الأخيرة، ثمنًا لخيانته قائده السلطان المملوكى، الأشرف الغوري، وقد أضاف الغزالي إلى ولايته: القدس، وصفد، والكرك.

جعلت سياسة العثمانيين على كل ولاية باشا، يستمد الرأي من باشا دمشق، الذي كان له التفوّق على بقية الباشوات، ووقع الحكم، في كثير من المناطق، في أيدى العصابات المحلية، وفي سبيل الإبقاء على هذه السيادة، لجأت الدولة العثمانية، إلى سياسة معينة، ذات طابعين، أولهما ضرب هذه العصبيات المحلية بعضها ببعض، أى أنها سعت لجعلها أداة من أدوات الحكم العثماني، تقطع أفرادها الأراضى، وتطلب منهم أن يدفعوا عنها الأموال، ثم تترك لها حكم هذه الإقطاعيات، كما يريدون،

دون أن يهمهـا اشـتداد الأمـراء فـي جبايـة الأمـوال مـن النـاس، أو فـي معاملتهم، حتى إذا رأت أن أحد هؤلاء الأمراء قد وصل إلى درجة تهدد سلطة الباشـا العثمـاني، تـدخلت، وغالبًـا مـا تجلـى هـذا التـدخل فـي إثـارة العصبيات بعضـها علـى بعض. ومـا أكثـر الأسباب التـي يمكن أن تخلق التشاحن بين أهالي الشام. أما الطابع الثـاني للسياسـة العثمانيـة، فقد تجلـى في الإكثار من تغير الباشوات. ففي خـلال المائـة والثمـانين سنة، الواقعـة بـين سـنتى ١٥١٧ - ١٦٩٧، تـولى دمشـق مائـة وثنـان وثلاثـون باشـا، استطاع ثلاثة وثلاثون منهم فقط، الاحتفاظ بمنصبهم، لمدة عـامين، وقد أصـبح الأهلـون فـي الشـام لا يـأبهون لتعيين الباشـا، أو لعزلـه، بـل اعتـاد أهالى الشام في العصر العثمـاني تغيير الحكام، كمـا اعتـادوا النظـر إلـيهم كأشـخاص اسـتغلاليين، يمـلأون مراكـزهم، ليعبـوا مـن خيـرات الـبلاد وثرواتها(٦).

لما كانت أن المناصب تباع وتشترى، فقد خشيت الدولة من أن يكوِّن الباشا لنفسـه، إذا طالـت مـدة ولايتـه، نفوذًا، يصبح خطـرًا علـى سيادتها، فشـكل هـذا أسـبابًا كافيـة لكثـرة تغييـر الباشـوات. وفـي فلسـطين، أبقـى العثمانيون عددًا من الأمـراء المحليين، الـذين اعترفـوا بالدولـة العثمانيـة، وتعهدوا بدفع الضرائب، وتحقيق الأمن. ومن هؤلاء طربـاي بن قراجـا، المعـروف بـأمير الـدربين، وكـان أحـد زعمـاء منطقـة نـابلس، الـذي أعلـن خضـوعه للسـلطان سـليم الأول، فـاعترف بـه الأخيـر أميـرًا فـي منطقـة اللجون. وبقيت أسرة طرباي تحكم سنجق اللجون، حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر (٧).

أما سياسة الدولة تجاه الأمراء المحليين في فلسطين فلم تختلف كثيرًا، حيث لم تنس أبدًا، الحملات التأديبية، بين فترة وأخرى، ضد أي أمير محلي في فلسطين تمرد على الدولة، أو لديه النية في ذلك، كما فعلت مثلا، حيث أرسلت إبان ولاية الغزالي على الشام، حملة ضد أحد أمراء نابلس، الذي ثار على العثمانيين، وحين بطشت بالغزالي نفسه، وقضت على ثورته، في ٥ شباط / فبراير ١٥٢١ م، واتبع العثمانيون تجاه هؤلاء سياسة القوة حينًا، عن طريق تشديد قبضتهم ببناء القلاع والحصون، وإقامة الحاميات العسكرية، وشن الحملات، وشراء دعمهم بالمناصب أو الأعطيات، أحيانًا أخرى [٨].

أما قافله الحج الشامي، فقد أخذت الاهتمام الأكبر من الدوله العثمانيه، لما تحمله من أهمية، حيث كانت إحدى قافلتين رئيسيتين في الدولة العثمانية. فخروج قوافل الحجاج، والتي كانت تجمع في دمشق، ثم تخرج منها بركب ضخم، ومحمل فخم، قد أفاد الشام، اقتصاديًا، ومعنويًا، حتى دعيت (شام شريف) [٩]. وقد قامت الدولة بتعيين زعماء فلسطين، الذين كانوا حكام سناجق فيها، أمراء لقافلة الحج الشامي، لضمان سلامة القافلة، حيث أن حكام السناجق أدرى الناس بالمنطقة، ولعلاقتهم الحسنة بالقبائل، التي تشكل الخطر الرئيسي على القافلة. كما يضمن هذا الإجراء تغطية بعض نفقات القافلة من الضرائب التي يقومون بجمعها من مناطق سناجقهم.

جدير بالذكر أن معاهدة السلطان سليم الأول مع البنادقة، عام

١٥١٧، قد جددت مع السلطان سليمان القانوني، ١٥٢١، وكان أهم ما تضمنته من امتيازات للبنادقة، حرية التجارة في الموانئ العثمانية، وسلامة التجار وسلعهم، وإعفاء التجار البنادقة من دفع الجزية. وكانت معاهدة ١٥٣٦ م بين السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) وفرنسوا الأول، ملك فرنسا؛ وأهم بنودها:

١- يسمح للتجار التابعين للملكين بالإتجار في أملاك الدولة العثمانية، ومملكة فرنسا، بحرية وأمان.

٢- يمكن لهم التنقل في البلدين، بحرية.

٣- يعيَّن سفير لفرنسا في اسطنبول، وقنصل في سوريا. وقد عُيِّن أول قنصل فرنسى في طرابلس، سنة ١٥٤٨.

٤- يسمح للرعايا الفرنسيين بحرية الإقامة في موانئ الدولة العثمانية.

مهدت معاهدة ١٥٣٦ م لعقد الكثير من المعاهدات مع الدول الأوروبية، كما أن بنود المعاهدة توسعت وتعمقت، بحيث أصبحت الأساس الذي بنيت عليه، فيما بعد، " الامتيازات الأجنبية " في الدولة العثمانية [١٠].

جاءت الفترة الثانية من تاريخ فلسطين في القرن السابع عشر بسيطرة الأمير فخر الدين المعني الثانى على أجزاء مهمة منها، وقضائه على عدد من زعمائها المحليين أو إضعافه لهم. كان تدخل فخر الدين في فلسطين، أول الأمر، جزءًا من الصراع على النفوذ في المنطقة مع العثمانيين. وقد حاول ولاة دمشق، الذين تزعموا المعارضة العثمانية

لفخر الدين معاداة زعماء فلسطين، المؤيدين لفخر الدين، وتشجيع منافسيهم. ففي عام ١٦١٢ م، مثلاً طرد أحمد باشا الحافظ، والي دمشق، الأمير حمدان بن أحمد قانصوه، حاكم عجلون، والكرك، والمؤيد لفخر الدين، وأيد العثمانيين من زعماء فلسطين الأمير فروخ، حاكم نابلس، والأمير أحمد طراباي، حاكم اللجون، وغيرهما، وخشي فخر الدين عاقبة ذلك، فهرب إلى إيطاليا، حيث أمضى خمس سنوات ميلادية (١٦١٣م - ١٦١٨م). وما إن عاد فخر الدين من إيطاليا، في العام ١٦١٨ م، بواسطة مؤيديه، حتى بدأ بالتوسع من جديد، فسيطر، في عام ١٦٢٣م، على سناجق صفد، ونابلس، وعلجون، وعين عليها أبناءه ومساعديه، ومما ساعد فخر الدين على ذلك انتصاره الحاسم على والي دمشق، مصطفى باشا، في عنجر، عام ١٦٢٣م[١١].

عنى الأمير فخر الدين بمنطقته عناية كبيرة، فانتعش اقتصادها، زراعيًا بحيث كانت تنتج كميات من الحرير، والقطن، وقصب السكر. وكان الحرير الذي تنتجه مناطق بيروت، وصيدا، مثل حرير طرابلس، مرغوبًا فيه في أوروبا. وقد قدر إيراد الحرير في هذه المنطقة بنحو ثمانين ألف قرش ذهبي، أى مايعادل ثلث غيراد المنطقة كلها. كما اخذ القطن مكانا مهما، ضمن التجارة الرائجة، في ذلك الوقت. وأدخل فخر الدين زراعة الكتان، الذي أصبح أحد موارد خزانته. ولم تكن صيدا تصدر الحرير، والقطن، والكتان فحسب، بل صدَّرت الحبوب، أيضًا، صور، وعكا، ويافا، مما أتاح الفرصة للتجار الفرنسيين بالإقامة في عكا، المنفذ الوحيد للقطن المزروع في مرج بن عامر، بشمال فلسطين [١٢].

أما يافا، نقطة هبوط الحجاج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، وكانت تجمع منتجات كل من القدس والرملة، ونابلس، خاصة في القرن السابع عشر.

لكن ربما أثر ذلك الرخاء على فخر الدين، فجعله يزهو بنفسه، وازداد اعتداده بنفسه، فاتخذ، بمبادرة منه، لقب " سلطان البر "، وبدأ بمعارضة المصالح العثمانية، والتي لم تنس، أبدًا، سياستها المعهودة. وخشي السلطان مراد الرابع من استفحال ضرره، وهو يقارع الصفويين، فعزم على البطش به أولاً. وهزمه، عسكريًا في ١٦٣٣م، وقتله، في ١٦٣٥م (١٣).

في بداية القرن الثامن عشر، كان انحطاط السلطة العثمانية، والذي أدى إلى ظهور أسر محلية حاكمة في عدد من الولايات العربية، وكان الزيادنة في فلسطين، حيث ظهرت إمارة الزيادنة في منطقة الجليل، وقد بلغت هذه الإمارة أوجها، وتحديها للسلطات العثمانية، في عهد ظاهر العمر، الذي حكم منذ ثلاثينيات القرن الثامن عشر، وحتى وفاته، في ١٧٧٥م، حيث امتد نفوذه السياسي في بلاد الشام الجنوبية بكاملها، وطغى على حكم ولاة الشام، وصيدا، وكذلك أمراء جبل لبنان.

مثل ظاهر العمر، ذروة النفوذ العربي في فلسطين، الذي كان مبعثرا في القرنين السابقين، بين عدد من الأمراء، الذين اشتهروا كل في منطقته (١٤). أخذ ظاهر في توطيد سلطته في منطقة صفد، وطبرية لحسابه، منذ

أوائل الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، وتوزعت فترة حكم ظاهر العمرعلى ثلاث مراحل: الأولى فترة توطيد سلطته، ومقاومة حملات والي دمشق ضده حتى عام ١٧٣٤ م، حين توفى والي دمشق، سليمان باشا العظم، وهو يحاصر ظاهر في طبرية، والمرحلة الثانية حين بلغت سلطة ظاهر الأوج، بين عامى ١٧٤٣ - ١٧٦٠ م، أما المرحلة الثالثة فوقعت بين عام ١٧٦٠ - ١٧٧٥ م (مقتله). وقد شهدت هذه الفترة اشتداد ثورات أبنائه عليه، ومحاولات والي الشام، عثمان باشا الكرجي، إخضاعه، ثم تحالف ظاهر مع علي بك الكبير (المصري)، واحتلال دمشق، عام ١٧٧١ م. ووصل أسطول عثمان، بقيادة القبطان حسن باشا إلى حيفا، في ٧ آب / اغسطس ١٧٧٥ م، فاستولى عليها، وتوجه في ٢١ آب / أغسطس إلى عكا، حيث تحصَّن ظاهر. وقد ذُكر أن مفاوضات جرت بين الطرفين حول تسليم ظاهر ما تأخر عليه من " الميري "، وأن مستشاره إبراهيم الصباغ، ورئيس دفاعه، أحمد دنكزلي قد ثنياه عن ذلك. كما ذكر، أيضًا، أن حسن باشا نفسه لم يكن حريصًا على نجاح المفاوضات، واضطر إلى الهرب، وقُتل، غير بعيد عن عكا [١٥].

هكذا انهارت إمارة الزيادنة العربية في فلسطين، بعد أن دامت قرابة ثلاثة أرباع القرن، كان لها خلالها دور مهم في جعل منطقة الجليل مركز الثقل السياسي، والاقتصادي، لا في فلسطين فحسب، بل في بلاد الشام الجنوبية ككل. حيث استفاد ظاهر العمر من نمو التجارة الفرنسية مع فلسطين، واستخدام العائدات المالية في غقامة جيش من الزيادنة، وفي تحصين قلاعه، خاصة في عكا، واشتهرت عكا، تجاريًا، بفضل جهود

ظاهر العمر، مثلما اشتهرت صيدا في حكم فخر الدين المعني لها. بل تفوقت عكا على صيدا، من حيث عدد السكان، الذي بلغ ستة عشر ألفًا، وللنشاط التجارى، وزاد عدد التجار الفرنسيين في عكا، وأصبحت المراكب تبحر مباشرة إليها، مما استحدث تنافسيًا واضحًا بين التجار الفرنسيين في كل من صيدا وعكا حول احتكار تجارة القطن في المنطقة. ولم تقبل مرسيليا بإلغاء مركزها التجاري في صيدا، لصالح عكا، حتى عام ١٧٨٥ م، حين وافقت، إرضاءً لوالي عكا، أحمد باشا الجزار. وبهذا يتضح الدور الرئيسي للتجار الفرنسيين، حيث كانوا أصحاب الكلمة العليا بين التجار الأجانب في المتاجرة مع فلسطين.

وعانت فلسطين، في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، كثيرًا من الاضطرابات السياسية، التي عمتها، والغزوات الخارجية التي دهمتها، بدءًا بثورات أبناء ظاهر، ثم بهجوم المماليك من مصر عليها، في عهد علي بك، ومحمد بك أبي الدهب، بين ١٧٧٠ - ١٧٧٥ م، ثم سيطرة أحمد باشا الجزار وتعسفه، وأخيرا حمله بونابرت، في ١٧٩٩ م، يضاف إلى ذلك حدوث نكبات طبيعية، كانتشار الجراد، والقحط، والطاعون.

تميز حكم أحمد باشا الجزار، المملوكي البشناقي الأصل (من البوسنة)، والذي ولى على ولاية صيدا، وعلى ولاية دمشق، بشكل متقطع، بين ١٧٧٥ - ١٨٠٤ م، بسيطرته على القوى المحلية في فلسطين، وجبل لبنان، وتحديه للعثمانيين، وإدخال ولاية دمشق ضمن دائرة نفوذه، والإثراء على حساب الشعب، والدولة، مازاد في الإساءة إلى اقتصاد المنطقة، ثم بمقاومته حملة بونابرت بدعم من الإنجليز. لم ينشب

الخلاف بين الجزار والفرنسيين، لأن الجزار كان طاغية، بل لأن الجزار حاول اتباع سياسة وطنية في التجارة[١٦]. ولأن تجارة منطقة سورية، وفلسطين مورد غني للفرنسيين، فإن الفرنسيين ضاقوا ذرعًا بالجزار، ولعل مازاد الطين بلة، إلغاء احتكار الفرنسيين على أسواق صيدا. أما عن الحالة الإقتصادية في فترة حكم الجزار، فقد هجر كثير من الفلاحين قراهم، بسبب ابتزازه المال منهم، وزاد هذا في نقص الموارد الاقتصادية، والتي انعكست عليها الحالة السياسية المضطربة، آنذاك. ومما أضر، أيضًا، بالزراعة، لجوء الجزار غلى أعمال السخرة في تحصين عكا، والذي تطلب تقديم الفلاحين لخدماتهم، مجانا، بالإضافة غلى فرض الضرائب التي أثقلت على الفلاحين، وبداهة ان تزداد الانفجارات الشعبية، في عهد الجزار، وأن يشارك فيها جميع فئات الشعب في المدينة، والقرية، ومن أبرز هذه الانفجارات ثورات الفلاحين في منطقة نابلس، وثورة الحرفيين، والتجار في مدينة دمشق (١٧٨٩)، وغزوات القبائل في الجليل، وسائر مناطق فلسطين. ماترتب عليه تدنى الحالة في فلسطين، وأصيبت بالجفاف بين فترة وأخرى، والوباء، الذي عم بلاد الشام بكاملها (١٧٨٠ - ١٧٨٧م).

وبقي الجزار على هذه السياسة من البطش، والاستغلال، والصراع الدائم على النفوذ بينه وبين كبار مماليكه، حتى هاجمته حملة بونابرت، في ربيع ١٧٩٩ م. بذلك اتفق أكثر المؤرخين بأن فترة حكم الجزار كانت أحلك صفحة في تاريخ فلسطين في العهد العثماني.

لم يكن نابليون بونابرت يهوديًا، ولا مواليًا لليهود، والعكس هو

الصحيح لكن ورقته اليهودية - المتمثلة في ندائه ليهود العالم من خارج أسوار القدس - لم تكن أكذوبة، كما هو الحال في ورقته الإسلامية. ذلك أن ورقته الإسلامية كانت موجهة إلى كتلة بشرية من سكان مصر، وعددهم، في ذلك الوقت، يفوق المليونين، وفي استطاعتهم، اذا ما قاوموا، أن يجعلوا مصر مصيدة لجيوشه، وليس رأس جسر، وهو لهذا مستعد لخديعتهم، بأن يكذب عليهم. وأما ورقته اليهودية فهي حالة مختلفة، لأن اليهود في فلسطين، ذلك الوقت، لم يزد عددهم على ألفين، وبالتحديد، وطبقًا لتقرير مرفوع إلى بونابرت نفسه، هو ١٨٠٠ (منهم ١٣٥ في مدينة القدس)، " وهؤلاء ليس في مقدورهم - مهما فعلوا لا أن ينصروه، ولا أن يخذلوه " [١٧].

كانت فكرة بونابرت العبقرية، اللعب على الوتر الديني اليهودي، وأساطيره، لتكون فلسطين - وهي وقتئذ من أملاك الخلافة العثمانية التي يتسابق الكل على إرثها - " وطن اليهود الموعود والمختار ". فإذا نشأت دولة يهودية، برعاية فرنسا في فلسطين، فتلك، إذن، نقطة بداية مهمة لخطط فرنسا الإمبراطورية في قلب أملاك الخلافة العثمانية. وبالطبع، وجدت تلك المخططات والأفكار في مناخ مناسب لكي تنمو، وتترعرع، حتى فوق ماتخيل صانعها، فضعف الدولة العثمانية ووهنها، ساعد على تفاقم المسألة، أكثر وأكثر. فمن جانب هناك فساد داخلي يتبناه الولاة "، ومن جانب آخر ثمة السياسات الأوروبية (الأنكليزية، والفرنسية، والروسية)، وتدخلاتها السافرة في الشؤون العثمانية، خاصة وأن تلك السياسات كانت تتمتع بمجالات عمل، واختراق، وفرتها لها الامتيازات

العثمانية، وصولاً إلى إغراق الدولة العثمانية بالمديونية الخارجية على عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦م - ١٩٠٩م) "[١٨]. وأدى الاستيراد المتزايد من البضائع الأوروبية إلى انهيار المراكز الصناعية القديمة، وتخريب الحرف، والبضائع المنزلية، كما أعاق تطور المعامل المصنعى الأوروبي[١٩].

إصلاحات نحو التدهور:

في تلك الفترة، التي امتدت بين عام ١٨٠٤، عام وفاة الجزار، وبدء الحملة المصرية في سوريا بقيادة إبراهيم باشا ١٨٣٢ - أبرز أبناء محمد علي - بدأت مرحلة الإصلاحات في بناء السلطنة العثمانية على مختلف الأصعدة وتتبين في إصلاح الجيش، وهو ما بادر إليه السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧). فقد أسس وحدات عسكرية حديثة، عرفت بالنظام الجديد، بمنطلقات برجوازية أيديولوجية، واقتصادية، وسياسية، واجتماعية، فأنشأ بعض الصناعات الحربية، والمدارس العسكرية، والبحرية[٢٠].

لكن استبدال السلطان لقوات الإنكشارية، بتجنيد السكان، أثار غضب الإنكشارية، والتي أصبحت، مع مرور الأيام، مراكز قوة، وعبروا عن ذلك بالتمرد على السلطان سليم الثالث، في عام ١٨٠٧، وأطاحوا به بمباركة قادة العلماء في الباب العالي بالآستانة. إلى أن استطاع السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) التخلص من الإنكشارية، وتطبيق الإصلاحات التي عرفت " بالتنظيمات الخيرية ". حيث تولى السلطان إصدار مرسوم أو " تنظيم خيري "، أبطل فيه سيطرة العلماء على

الأوقاف، ووضعها تحت إشراف الحكومة. بيد أن هذا الإجراء لم يحيِّد دور العلماء إزاء الصراعات السياسية، والاجتماعية، فكان من البديهي أن يتعثر هذا الإصلاح في وجه مقاومة القوى السياسية، والاجتماعية، النافذة، أصحاب الإقطاعيات، ورجال الدين الكبار الملتزمين، والمنتفعين عامة من نظام التفرقة الطائفية، والقومية، كما قام السلطان بضرب النظام الإقطاعي. فأقر حرمة الشخص، وممتلكاته، وتحريم مصادرتها، وتحديد الضرائب حسب ميزانية مقررة، تلغي التزام جباية الإتاوات، وسائر أشكال الابتزاز من الفلاحين، والمنتجين(٢١).

الواقع أن هذه الإصلاحات زادت من التذمر في المدن؛ لأن تنفيذها، وبخاصة إنشاء جيش حديث، تطلب نفقات كبيرة، وقع عبؤها على عاتق الحرفيين، وصغار التجار. وعلى ذلك فلم تجد العثمنة الإصلاحية، ومشروعات التنظيمات، أرضية مؤاتية لإحداث التحولات، والتغييرات، بفعل فوقيتها، ومركزيتها، فهي لم تتوالد، اجتماعياً، وفكرياً، بل انبثقت من خلال قرارات سياسية، وإدارية، أو تنفيذات بيروقراطية بحتة، فلم يجد الطرفان (الدولة، والمجتمع) أية فرصة جدلية من أجل التفاعل، والتغير التاريخي، سواء كان ذلك في البيئات الأناضولية، أو العربية(٢٢).

أما رجال الدين، الذين تضرروا من إحداها - نقل الأوقاف إلى السلطة - فقد حرَّضوا الأهالي، ومن بينهم الحرفيين، على السلطان، الذي يعيش في ترف، وبذلك أسهموا في تفجير التمردات، التي وقعت في مختلف أنحاء الأقاليم العربية العثمانية، وبينها فلسطين. ومن أبرز الانتفاضات، تلك التي وقعت في القدس، وبيت لحم، ونابلس، احتجاجاً

علـى الضـرائب، والتـي تحولـت إلـى ثـورة نـابلس (١٨٣٠)، ولـم تكـن ضغوط القوى الاجتماعية المعارضة في الداخل، فحسب، " بل ضـغوط القوى الدولية في الخارج، والتي عبر عنها (خط همـايون)، فـي ١٨شباط فبرايـر (١٨٥٦)، فـي أعقـاب حـرب (القـرم)، والـذي اعتبرتـه الـدول الكولونيالية، التزاماً عثمانياً، سجلته في معاهدة باريس، المعقودة فـي ٣٠ آذار مـارس ١٨٥٦، ومـن بنـود هـذا (الخـط) أو (البيـان السـامي) بنـود اقتصادية، وسعت حقوق الدول الكولونيالية، وامتيازاتها[٢٣].

هذا العامل فتح الباب إلى التدخل السـافر للدول الكولونياليـة الكبـرى، التـي اتفقـت علـى تصـفية الحكم المصـري، العربـي، فـي سوريا، مـا فـتح البــاب للــدول الاســتعمارية، فيمــا بعــد، وفــي أذيالهــا جــاء الاســتيطان الصـهيونـي، حيث تأسست أول مستوطنة صـهيونية فـي فلسطين ١٨٧٠، وكان قانون الأراضي، الذي صدر في ٢١ نيسان /إبريل ١٨٥٨، وعُدِّل في العام ١٨٦٩، من أخطر القوانين، حيث أنـه منح الأجانب حق تملك الأراضي، في مختلف أنحاء السلطنة.

بدأت الحركة الوطنية في ولاية سوريا في التبلور، خاصة بعد حملـة إبراهيم باشا العسكرية المصـرية علـى سوريا (١٨٣٢ - ١٨٤٠)، والتـي ضربت هيبة الدولة العثمانية فـي الصـميم، بعد هزيمتهـا السـاحقة. فكانـت حملـة إبـراهيم باشـا، بمثابـة تحـريض قـوى للسـوريين علـى مصـالحهم، خاصة، بعد أن أشركت تلك الحملـة السـوريين فـي حكم أنفسـهم بأنفسـهم. وتعززت ثقة السوريين، حين أسهموا فـي دحـر حملـة إبـراهيم نفسـها عن الأراضي السورية. وقد بدأت الحركة الوطنية بالتعبير عن نفسها، فكرياً،

ثم سياسياً، وجاءت أول جمعية عربية سرية لمناهضة الحكم العثماني، في بيروت، سنة ١٨٧٥، وتبعها انتشار الجمعيات المماثلة، في أرجاء شتى من الأراضي السورية، والتي كانت تضم، آنذاك، أقطار: سوريا، ولبنان وفلسطين، شرقي الأردن. فتشكلت جمعية " الإخاء العربي/ العثماني " على يد الوطنيين السوريين، بعد وصول " جماعة الاتحاد والترقي " إلى السلطة، في استانبول، صيف ١٩٠٨، ظانين أنها تفتح الباب لذاك الإخاء. لكن سرعان ما كشفت " الاتحاد والترقي " عن وجهها الشوفيني، مما دفع بالوطنيين السوريين إلى التخلي عن أوهامهم في " الاتحاد والترقي "، ولاذ السوريون بكفاحهم الاستقلالي، من جديد[٢٤].

تعددت أشكال مقاومة الفلسطينيين للاستيطان اليهودي في فلسطين؛ من شن الهجمات المسلحة على المستوطنات اليهودية، إلى تقديم مذكرات الاحتجاج للسلطات العثمانية، ونشر مقالات التحذير من خطر الاستيطان، إلى التنديد من فوق منصة " المبعوثان " (البرلمان العثماني) بهذا الاستيطان[٢٥].

بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يرى أن أبصار اليهود في أنحاء العالم قد ازدادت شخوصاً نحو بيت المقدس، فقرر إدخال تغيير جذري على الوضع الإداري لبيت المقدس، فجعلها، سنة ١٨٨٧م، " متصرفية " أي تتبع الباب العالي، رأساً. والهدف هو إحكام مراقبة الدوائر العليا في حكومة استانبول، للحد من حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأصدر السلطان عبد الحميد، قانوناً، حرّم بيع أراضي الحكومة إلى اليهود، بكافة جنسياتهم، حتى ولو كانون رعايا عثمانيين[٢٦]. لكن السؤال الذي يفرض

نفسه هنا، هو: رغم هذا القرار، والحماية المزعومة، عندما تنتقل أراضي شاسعة لأيدي اليهود، فمن هو المسؤول عن ذلك؟ هل، حقاً، لم يكن السلطان عبد الحميد يعلم بما يقترفه والي القدس، من خروج عن كل القرارات المفروضة؟

في العام ١٩٠٣، ألزم الوالي فلاحي اليهودية، وياسور، وبيت دفان، وجهات أخرى، بأن يبيعوا أراضيهم إلى المستعمرين السيونست (أى الصهانية)، ومع عمولة العملية الكبيرة جداً، فإن الخائنين لم يكتفوا بما فعلوه، فقد تعهد كاظم بك، والي القدس باستمالة عرب بير السبع إلى بيع أراضيهم لليهود المذكورين، بأقل من قيمتها، أضعافاً، ومساحتها تبلغ ألف دونم. فتأمل، كما تعهد

الوالي لممثل الحركة الصهوينة، بأن يقنعوا فلاحي غزة ببيع مائة ألف دونم إلى الشركات اليهودية، بالوعيد، والتهديد، والقوة الجبرية، حتى أصبحت تلك الشركات تمتلك، تقريباً، النصف من أحسن الأراضي في أقضية يافا، وثلاثة أرباع أراضي حيفا، صفد، وطبريا، ومرجعيون[٢٧].

حدث هذا كله خلال ٣٢ سنة من حكم عبد الحميد، ويبقى سؤال: ماذا كان يعنى صمت السلطان عبد الحميد؟

قال جمال الدين الأفغاني، عندما سئل عن رأيه في السلطان عبد الحميد: " إن السلطان عبد الحميد، لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر، لرجحهم: ذكاءً، ودهاءً، وسياسةً، خصوصاً في تسخير جليسه.. ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام في ملكه من الصعاب من دول الغرب،

ويخرج المناوئ له من حضرته، راضيًا عنه، وعن سيرته، مقتنعاً بحجته، سواء في ذلك الأمير، والوزير، والسفير" (٢٨).

إذن، كيف لرجل بهذا الذكاء، يفوته أن مجرد منح النيشان المجيدي لهرتزل، صاحب المشروع الصهيوني، فإنه يمكن في طياته الرضا عنه، وعن مشروعه المقدم. كما لا يمكن القول بأن السلطان عبد الحميد، لم يكن يتوقع أن موافقته على بيع أراضي محدودة في فلسطين، بموجب إصداره لبعض الفرمانات الجزئية لصالح اليهود، والتي بمقتضاها يأذن لهم في شراء بعض المساحات المحدودة من الأراضي الفلسطينية، تكون بمثابة بداية لتهويد فلسطين، فإن مثل هذا التفسير يعد تجريدًا للسلطان من صفات السياسي المحنك، بعيد النظر.

كان انتصار " الاتحاد والترقي "، الضربة القاصمة للدولة العثمانية، بيد أن التوافق في إطار " الاتحاد والترقي " بين ممثلي القومية التركية السائدة، وسائر القوميات المحكومة، كان توافقًا مرحليًا، في حين كان التناقض بين الطرفين جذريًا، من الصعب تسويته، لوجود تناقض بين مختلف برجوازيات مختلف القوميات (٢٩). فلم يفكر بعض العرب، جديًا، في مصير منفصل خاص بهم إلا بعدما ظهر أن أعضاء (تركيا الفتاة)، قد بدأوا بالتخلي عن الرؤية التعددية للإصلاحيين، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، مباشرة. وعلى الرغم من أن النهضة العربية، الأدبية، والثقافية، قد ظهرت بينهم، منذ أواسط التاسع عشر، إلا أن الحرب العالمية الأولى، جعلت إمكانية تحقيق الحلم العربي تبدو ممكنة. وساعد رعب تلك الحرب على ترسيخ الكتابة التاريخية القومية، بين

العرب، وكانت هذه المسألة، بشكل خاص، عند عرب الهلال الخصيب، الذين وجدوا أنفسهم مجزأين بين الدول الأوربية المنتدبة إلى سوريا، لبنان، العراق، الأردن، وفلسطين، فاستطاعوا، وبسهولة، أن " يوفقوا بين معاناتهم "، وفكرة أن العرب سيئوا الحظ، فهم لم يتحرروا، أخيرًا من إمبريالية متقهقرة (عثمانية) إلا ليقعوا ضحية لإمبريالية أُخرى (أوروبية). وكانت فكرة العروبة، ترجمة لحركة القومية العربية، التي تسعى إلى التحرر من الإمبريالية العثمانية، والانفصال النهائي كان، وبدرجة كبيرة، ردًا على المظاهر القومية التركية المتصاعدة في اسطنبول، مع قدوم حكم رجالات " تركيا الفتاة " (٣٠).

جاءت نقطة اللاعودة، بالتحديد باعتماد كمال أتاتورك، ١٩٢٣، لسياسة قومية تركية ناجحة، بديلاً للتركة الإمبراطورية، هذا ما استلزم استبعادًا لأي إمكانية بقيام كيان سياسي واحد يجمع الترك، والعرب، معًا(٣١).

أخيرًا، أيما كانت نظرة الشعوب العربية إلى ماضيها العثماني، سلبًا، أو إيجابًا، فلابد لنا أن نتوقف عند الطرق التي يمكن للماضي فيها أن يخدم أهداف الحاضر.

* * *

مراجع الفصل الثامن عشر

(١) د. عبد العزيز محمد الشناوي، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، الجزء الأول، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠، ص ٤٤.
(٢) لمزيد من المعلومات عن نسب آل عثمان:
- نادر العطار، **تاريخ سورية في العصور الحديثة - دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني (١٥١٦ - ١٩٠٨)**، دمشق، مطبعة الإنشاء، ص ١٧ - ٢٥.
- محمد فؤاد كوبريلي، **قيام الدولة العثمانية**، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٨١.
(٣) الشناوي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧.
(٤) روبير مانتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدارسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣، ص ٢١٣.
(٥) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: د. عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين، ص ٧٠٢.
(٦) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥ - ٤٦.
(٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٥ - ٤٦.
(٨) **المصدر نفسه**، ص ٧٠٢.
(٩) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٨.
(١٠) نقولا زيادة، الفتح العثماني لبلاد الشام وآثاره المباشرة، **الاجتهاد** (بيروت) العدد ٤٤، خريف ١٩٩٩، ص ٩ - ٣٧.
(١١) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٠٥.
(١٢) زيادة، **مصدر سبق ذكره**.
(١٣) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٠٥.
(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٧٠٧.
(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٧٠٩ - ٧١٧.
(١٦) ربيع فواز، والي عكا أحمد باشا الجزار (١٧٢٠ - ١٨٠٤) بعيدًا من رسائل القناصل الفرنسيين ومذكراتهم، **الحياة**، (بيروت)، ٢٠٠١/٦/٢٣.
(١٧) محمد حسنين هيكل، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**، المجلد الخامس، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٦، ص٣٣.
(١٨) د. عبد العزيز محمد الشناوي، **الدولة العثمانية دولة مفترى عليها**، الجزء الثاني،

القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٣، ص ٣٣.
(١٩) لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، ترجمة عفيفة البستاني، ط٨، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٥، ص ١٤٦.
(٢٠) د. أميل توما، **فلسطين في العهد العثماني**، عمان، الدار العربية للنشر والتوزيع، د. ت، ص ٧٦.
(٢١) **المصدر نفسه**، ص ٦٩.
(٢٢) د. سيار الجميل، **العرب والأتراك - الانبعاث والتحدث من العثمنة إلى العلمنة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٧، ص ٢٦.
(٢٣) د. توما، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٤.
(٢٤) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية المحطات الرئيسية / الدروس المستفادة**، القاهرة، دار الحكمة، ٢٠٠٠، ص ٧.
(٢٥) جان داية، تواطؤ والي القدس وصمت السلطان عبد الحميد وراء ضياع أراضي فلسطين، **العربي**، (الكويت)، العدد ٥٠٤ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٣٠ - ٣٤.
(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٠ - ٣٤.
(٢٧) **المصدر نفسه**.
(٢٨) د. الشناوي، الجزء الثاني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٨٩ - ٩٩٠.
(٢٩) كارل بربير، التركة العثمانية في العالم العربي، ترجمة عبد اللطيف الحارس، **الاجتهاد**، (بيروت)، العدد ٤٤، خريف ١٩٩٩، ص ١٧٧ - ١٩٨.
(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ١٧٧ - ١٩٨.
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ١٧٧ - ١٩٨.

* * *

الفصل التاسع عشر

هل كان ظاهر العمر استقلالياً؟

الفصل التاسع عشر:
هل كان ظاهر العمر استقلالياً؟

رضوى عبد القادر

بعد أن هلَّ القرن السادس عشر، بستة عشر عاماً، غدت جميع الأقطار العربية - ماعدا مراكش وأواسط الجزيرة العربية، وعُمان - خاضعة للسيطرة العثمانية، فاستطاعت الإمبراطورية العثمانية منذ ١٥١٦ - ١٦٣٨، أن تسيطر على هذة الأقطار مجتمعة، على نحو متصل، قبل أن تنقطع هذه السيطرة في الزمان.

العثمانيون:

استهوى العثمانيون في الأقطار العربية، موقعها الملائم لطرق التجارة العالمية؛ فسعى العثمانيون إلى إيجاد سندهم في البلاد العربية، باحتفاظهم بالنظام الاجتماعي، السائد في الأقطار الخاضعة، حين افتتاحها، وبقيت الأرض والسلطة، كالسابق، في أيدي الإقطاعيين المحليين. أما المدن العربية، فغدت مراكز إدارية، تربع فيها الباشوات، والبكوات الأتراك، أكثر من أن تكون مراكز اقتصادية. أما عن نظام الدولة، فكانت القومية التركية هي السائدة في الإمبراطورية العثمانية [١].

العثمانيون هم من جيل التتر " القبيلة الطورانية "، سكنوا حدود الصين، ثم زحفوا إلى تركستان، فتجنبهم الأكاسرة، فلما فتح العرب إقليمهم، احتك الأتراك بهم، ودانوا بدينهم الإسلامي، في القرن الحادي عشر. وفي عام ١٢٨٨م، بدأت نواة الدولة العثمانية تتشكل، في الأناضول، على أصل الدولة السلجوقية، وامتد جذرهم إلى البلقان، وفينا، عاصمه النمسا، وامتلكوا العراق، وسوريا، ومصر، وإيران، وشمال البحر الأبيض، وارتبط الأتراك بالعرب، عن طريق اللغة العربية، وزياراتهم للبلاد العربية، لأداء فريضة الحج [٢].

في أواسط القرن السادس عشر، وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى ذروة قوتها، داخلياً وخارجياً. وفي نهاية هذا القرن، وبداية القرن الثامن عشر، بدت علامات تراجع تلك الإمبراطورية؛ بسبب تورط الإمبراطورية العثمانية في مواجهة مع روسيا، العدو الخطِر، خاصة في عهد القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥م)، والقيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦م).

كان لهزائم الدولة العثمانية الخارجية أكبر الأثر في ظهور رأس محلية حاكمة، في عدد من الولايات العربية، مثل آل العظم في الشام، والزيادنة في فلسطين ومن ناحية أخرى، فقد كان التمزق السياسي الداخلي في لبنان، وانشغال ولاة دمشق بمرافقة قافلة الحج الشامي، من أكبر العوامل التي ساعدت على ظهور الزيادنة، خاصة ظاهر العمر.

الزيادنة:

ظهرت إمارة الزيادنة، أوئل القرن الثامن عشر، في منطقة الجليل بفلسطين، حيث وجود قبائل صغيرة دعمت الزيادنة، عن طريق التحالف والتزاوج، ونظرًا لأن إقامة إمارة الزيادنة، وتحصُّنها في القلاع، وتحديها العسكري للولاة العثمانيين تقتضى تطوير طاقتها العسكرية، واستخدام الجيوش المحلية المرتزقة للدفاع عنها، فإن الإمكانات الاقتصادية المتاحة لهذه الأمارة، تصبح ذات أهمية كبيرة. وقد أفادت فلسطين، وأميرها، آنذاك، ظاهر العمر، من اهتمام الفرنسيين بالمتاجرة معها، ومن شراء الفرنسيين للمنتجات الفلسطينية، بالسعر الذي يحدده العمر، حيث جمع ثروة كبيرة، مكَّنته من تحصين عكا، وبقية قلاعه، ومن استئجار جنود مرتزقة، للدفاع عن إمارته (٣).

اختلفت المراجع في أصل الزيادنة، لكن الغالبية تقول بأنهم بدو من الحجاز، جاءوا في الفتح الاسلامى الصلاحي، وكانت إقطاعاتهم، خمس قرى، هي بيت إكسا، والنبي صموئيل، والجيب، وبيت نبالا، وبيت حنينا. فسكنوا في الأولى ثم رحل زيدان الجد، ونزل في شفا عمرو، فأكرمه محافظ القلعة، وظل زيدان يتقدم، إلى أن تعين ولده، عمر، على عكا، ثم خلفه ابنه، ظاهر، فاتفق مع المتاولة، حكام صور، وبلاد بشارة، وخالف الدولة، فسيَّر إليه والي دمشق، كما سنرى (٤).

المُلاحِظ لحكم ظاهر، يجد بأن سنوات حكمه يمكن أن تقسم إلى ثلاث فترات: أولاها، فترة توطيد سلطته ومقاومته حملات والي دمشق، سليمان باشا العظم، ضده، حتى توفي العظم، وهى يحاصر ظاهر، في طبرية،

وبلغت في الفترة الثانية، سلطة ظاهر العُمر الأوج، بين عامى ١٧٤٣ - ١٧٦٠م، أما الفترة الثالثة، فامتدت إلى ١٧٧٥م، وشهدت اشتداد ثورات أبناء ظاهر عليه، ومحاولات والي الشام، عثمان باشا الكرجي، إخضاعه، وتحالف ظاهر مع قائم مقام مصر، علي بك الكبير، واحتلا سوياً دمشق، في عام ١٧٧١م.

الفترة الاولى:

عمد ظاهر، في الفترة الأولى من حكمه، إلى توسيع المناطق التي يستولي عليها، وتحالف مع الزعماء المحليين الرئيسيين، وضم هؤلاء عددًا من القبائل، مثل بني صخر، وبني صقر، والسردية، الذين تزوج ظاهر منهم، ليرسِّخ تحالفه معهم. وقد أفاد، بادئ الأمر، من هذا التحالف، بسبب دعم القبائل له، على أن هذا التحالف سرعان ما أصبح سلبيًا، حيث تنافس أولاد ظاهر، فيما بينهم، كما ثاروا على أبيهم، خاصة وأنهم ينحدرون من أمهات ينتسبن إلى القبائل المتنافسة [٥].

كان بدو بني صقر، الذين تحالف معهم ظاهر، يقيمون، آنذاك، في صنجقيْ اللجون، وصفد. لكن ظاهر، في محاولته إقامة الأمن - كما تعهد لوالي صيدا - اصطدم مع خلفائه الخارجين على القانون، وفي طليعتهم بني صقر، فتحول هؤلاء عن التحالف معه، إلى دعم أعدائه، آل ماضي، وآل جرَّار، زعماء منطقة نابلس، الموالين لوالي دمشق، المسؤول عن مناطقهم[٦].

احتاط ظاهر للأخطار المحيطة به، فقام بتحصين قلعة طبرية، وتقوية دفاعاته فيها، وقد قام، والي دمشق، سليمان باشا العظم، بحملة

ضد ظاهر، في عام ١٧٣٧م، بالتعاون مع بني صقر، بسبب اعتداء ظاهر على آل ماضي، وآل جرَّار، وأسر أحد اخوة ظاهر، صالح، وشنقه في دمشق [٧].

بين عامي ١٧٤١ - ١٧٤٢، حين عُين سليمان باشا العظم، للمرة الثانية، على ولاية الشام، استأنفت حملاته العسكرية على ظاهر، الذي كان يتحصن في قلعتي، طبرية، ودير حنا، حيث شن العظم حملته ضد ظاهر، في ٣ أيلول /سبتمبر ١٧٤٢، بمناسبة خروجه في الدورة، لجمع الضرائب من الملتزمين في ولايته، ومن أجل تمويل قافلة الحج. ودام حصار قلعة طبرية ثلاثة أشهر متصلة، لكن الفشل كان حليف سليمان باشا، وأمكن لظاهر أن يتلقى المؤن. وعندما حان موعد خروج قافلة الحج الشامي، رفع سليمان باشا الحصار، وعاد إلى دمشق لقيادة القافلة بنفسه[٨].

استغل ظاهر انسحاب سليمان باشا، حتى يقوي الأول نفسه، عسكرياً وسياسياً، إلى أن شن سليمان باشا حمله ثانية على ظاهر، في آب / أغسطس ١٧٤٣، بدعم من القوات العثمانية في المنطقة، بناء على أوامر السلطان، وتوجه للاستيلاء على قلعة دير حنا، بقصد تحقيق هدفين، أولهما إحراز كسب سهل على الزيادنة، لتحطيم معنوياتهم، وثاني الهدفين قطع الاتصال مع طبرية [٩]، لكن سليمان باشا توفي، في قرية لوبية، قرب طبرية، وبذلك فشلت الحملة.

الفترة الثانية:

أما عن أسعد باشا العظم - الذي خلف سليمان باشا في ولاية الشام،

على مدى أربعة عشر عاماً متصلة - فقد أخذ موقف اللامبالاة من ظاهر، مما أفاد الأخير في بناء قوته، وتوسيع تجارته.

فقد شهدت الفترة الثانية من حكم ظاهر نشاطاً كبيراً في التجارة، تجلى في تسويق المحاصيل، خاصة القطن. وأعطى والي صيدا، في عام ١٧٤٦، التزام عكا إلى ظاهر، فتضايق التجار الفرنسيون؛ لأن ظاهر أصبح يتحكم بأحد الموانئ الرئيسية في فلسطين، وبأهم مركز للتجارة الفرنسية فيها، وانفرد بتحديد سعر القطن بنفسه، حتى " اضطر الفرنسيون إلى مصالحته، ووقعوا معه، في عام ١٧٥٣، اتفاقية تنظيم التجارة بين الطرفين " [١٠].

مد ظاهر نفوذه، والتزامه، ليشمل مدينة يافا، التابعة لوالي دمشق، بالإضافة إلى مناطق أخرى، منها قرى عده في منطقة نابلس، وبلاد حارثه، وجبل عجلون [١١] لكن عكا كانت أهم كسب حصل عليه ظاهر، بالرغم من ان مسئولية الدفاع عنها كانت كبيرة، ولعل ما يدل على أهميتها بالنسبة لظاهر أنها برزت في الألقاب التي اتخذها، مثل " ضابط عكا وبلادها "، أو " ضابط عكا وبلاد الجليل "، واستخدم ظاهر هذه الألقاب، في مراسلاته، وبخاصة مع السلطات الفرنسية في باريس [١٢].

الفترة الثالثة:

تؤكد ارتفاع سلطة الفرد في مجال ما، في أي زمان ومكان، على ظهور أعداء له، يصارعونه على هذه السلطة، ويحاولون كسر شوكته، وأصبح هذا طبيعياً، ولكن من غير المنطقي أن يكون هذا العداء من قِبل الأبناء.

فقد أدى ازدياد سلطة ظاهر، واتساع المناطق التي يسيطر عليها، وتعيين أبنائه حكاماً فيها، إلى ظهور بوادر شقاق داخل أُسرته، سواء بين الأبناء، بعضهم البعض، أو بين ظاهر وأبنائه، وكان السبب الرئيسي في ذلك الخلاف، طمع الأبناء في الاستحواذ على مناطق أُخرى، لتصبح ضمن حكمهم، وساعد الأبناء على ذلك كونهم من أُمهات ينتسبن إلى قبائل معادية لبعضها البعض.

بقيت تلك الخلافات على نطاق ضيق، في خمسينيات القرن الثامن عشر، لعدة أسباب، منها حداثة عهد أبناء ظاهر بالحكم، وإعلان سليمان باشا العظم عدائه لظاهر، مما أسفر عن التفاف أبنائه حوله، يضاف إلى ذلك الذهول، والشعور بالمصيبة، اللذان أصابا السكان في أعقاب الكوارث الطبيعية المدمِّرة، المتمثلة في سلسلة من الزلازل، أصابت بلاد الشام، في عام ١٧٥٩، وأعقب ذلك الطاعون، الذي أفنى عشرات الآلاف من الأهالي[١٣] في الستينيات، استؤنفت حركات تمرد أبناء الظاهر ضده، بعد أن فشل والي الشام، عثمان باشا الكرجي، في إخضاع ظاهر لسلطته، في مطلع ولايته، وكان ظاهر قد عيَّن أبناءه حكاماً على المناطق الخاضعة لسيطرته، فأعطى طبرية إلى ابنه الأكبر صليبي، وصفد إلى عليّ، وشفا عمرو إلى عثمان، وصفورية إلى سعيد، وجبل عجلون إلى أحمد [١٤].

في عام ١٧٦٢، ثار عليّ على أبيه، الظاهر، ودعمه إخوته من أُمه، ووالي الشام، عثمان باشا الكرجي، والشيخ ناصيف النصار، زعيم أحد جناحيْ الشيعة المتصارعين. في حين وقف إلى جانب ظاهر الشيخ

قبلان، زعيم الجناح الشيعي الآخر، وانتهت هذه " الثورة " بالمصالحة. وفي عام ١٧٦٥، ثار عثمان، محتجاً على الامتيازات التي حصل عليها أُخوة عليّ، وتمكن ظاهر من القبض على عثمان، وسجنه ستة أشهر، ثم وضعه تحت الإقامة الجبرية، لكنه هرب إلى الشيعة، ودعمه الشيخ النصار، وشن هجمات عدة، لمدة سنة، تقريباً، على المناطق التي يحكمها ظاهر، وأثر ذلك المواصلات بين عكا، وصيدا، كما تضرر الريف. وتدخل الأمير منصور الشهابي، وعدد من أعيان جبل لبنان، وأصلحوا بين الفريقين المتخاصمين[١٥].

في عام ١٧٦٧، تمرد عليّ، مرة أُخرى، على أبيه، ومعه أخوه سعيد، مطالبين بإضافة مناطق أُخرى إلى حكمهما، وحرضهما الكرجي على الثورة، كما أيدهما الشيخ النصار، وطلب ظاهر دعم والي صيدا، محمد باشا العظم، عدو الكرجي. وهدف ظاهر من ذلك، كما يبدو، الحصول على دعم رسمي، وإسباغ الشرعية على موقفه، وتعميق العداء بين الواليين، وتكتيل القوى المؤيدة له. وكالعادة، تصالح ظاهر مع ابنيه، بعد شهر من تمردهما الجديد [١٦].

في أواخر عام ١٧٦٧، هدأت حدَّة العلاقات بين ظاهر وأبنائه، كما تصالح ظاهر مع الشيخ النصار، إلا أن الخلاف العدائي بين ظاهر والكرجي لم ينته. وكان أول اصطدام بين ظاهر والكرجي، حين قام الأخير، بعد شهرين من تعيين والياً على دمشق، بالدورة لجمع أموال الميري، فاحتل قلعة الطنطورة، التي استولى عليها ظاهر، وكانت تتبع دمشق، لكن ظاهر عاد إلى احتلالها، بعد انسحاب عثمان باشا منها [١٧].

حاول الكرجي استعادة حيفا، التي كان ظاهر يلتزم ضرائبها، ويحكمها، لكن الكرجي فشل في احتلال حيفا، أو عكا، حيث استفادت الأولى من النمو الاقتصادي للثانية، وفي محاوله ثانية، نجح الكرجي، أواخر ١٧٦١، في احتلال قلعة عكا، قرابة العام، فتنبه ظاهر إلى ضرورة تحصين عكا، وجعلها مركزه البحري الرئيسي. من جهة أُخرى، واجه الكرجي ثورات فلاحيه ضده، من المناطق الفلسطينية، بسبب اتباعه سياسة ابتزاز الأموال، وبطش عثمان باشا بالثائرين، ولجأ بعضهم إلى حليفهم، ظاهر العمر [١٨].

حكم عليّ بك الكبير (٧٦٠ - ١٧٧٣م)، في مصر، حيث كان الحاكم الفعلي لهما (شيخ البلد)، والنائب الرسمي (قائم مقام) للحاكم العثماني، المتغيب عنها، واستغل عليّ بك انشغال الدولة العثمانية بالحرب مع روسيا (١٧٦٨ - ١٧٧٤)، ليقوم بهجومه على بلاد الشام؛ بذريعة الإطاحة بعدوه، عثمان باشا الكرجي، وإن كانت حملة عليّ بك على بلاد الشام، في الواقع، محاولة مملوكية لإقامة السلطنة الملوكية، من جديد [١٩].

كان لظاهر وقواته، وكذلك لشعب فلسطين المعادي لعثمان باشا، دور مهم في انتصارات قوات عليّ بك، التي اندفعت إلى فلسطين، من البر والبحر. واستسلمت لها غزة، والرملة، في عام ١٧٧٠، دون مقاومة تذكر. كما استثار عليّ بك الكبير أهالي الشام، في بيان له إليهم، جاء فيه، بأن عثمان باشا " أذل الأماكن الشريفة... وتعدى حدود الدين، وفعل ما لا يليق بالمسلمين... وبلغكم ما فعله بعلماء غزة، وأذاقهم الذل بعد

العزة " [٢٠]. وأعلن علي بك " إلغاء ضريبة الميري، لأربع سنوات، في جميع أنحاء فلسطين، وهو ما شجع مناطق، ومدناً أُخرى على إعلان ولائها له " [٢١].

لم يؤيد الكرجي سوى آل جرار، وبدو بني صقر، وبني صخر، وجميعهم، كما سبق، من أعداء ظاهر. ودخلت قوات الكرجي مدينة يافا، في ١ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٧٠م، إلا أن الكرجي اضطر إلى التراجع، واخلاء المدينة، في التاسع من الشهر نفسه، عقب لقاء قوات ظاهر مع قوات علي بك، التي كان يقودها اسماعيل بك، كما انضمت إلى هذين الحليفين قوات شيعية، أيضاً، وقد احتلت القوات الحليفة يافا، وكان لذلك أهمية استراتيجية كبرى، لأن التعزيزات في العتاد والجنود، القادمة من دمياط، بحراً، كانت تصل إلى عكا ويافا [٢٢].

من ١٨ كانون الأول / ديسمبر ١٧٧٠ حتى أول شباط / فبراير، توقفت عمليات الحملة، بسبب مرض ظاهر. وظهر، في هذه الأثناء، تعارض وجهات النظر بينه وبين إسماعيل بك، حيث أصر ظاهر على مهاجمة الكرجي، الذي خرج من دمشق، على رأس قافلة الحج الشامي، في ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٧٧١، في حين عارضه إسماعيل بك، خشية على الحجيج، فتشكى ظاهر إلى علي بك من سلوك إسماعيل بك، فأرسل الثاني قوات إضافية، وقائداً جديداً للحملة، هو مملوكه المتميز، محمد بك أبو الذهب، الذي سبق أن قاد قوات عليّ بك في القضاء على خصومه، وفي الحملة على الحجاز[٢٣].

في ١٧ أيار / مايو ١٧٧١، وصل أبو الذهب، وقواته إلى الرملة، وطغى على ظاهر، بنفوذه، وقوته العسكرية، وقرَّبه من علي بك، ونجحت قوات ظاهر، إلى جانب قوات أبو الذهب، والشيعة، في إلحاق الهزيمة بطلائع القوات العثمانية، في سعسع، على مشارف دمشق، فلاذ المقاتلون العثمانيون بالفرار مثلما فعل والي الشام، عثمان باشا الكرجي (٢٤).

على غير انتظار، وقعت المفاجأة المحيَّرة، حيث انسحب أبو الذهب من دمشق، بعد احتلال دام عشرة أيام، فقط، فأدهش الأهالي المحليين، وحلفاءه، وأعداءه، على حد سواء، ومما لاشك فيه أن ذلك أحرج موقف ظاهر، عسكرياً، وسياسياً، وكشف جناحيه. ظهرت مؤشرات كثيرة على تواطؤ أبو الذهب مع العثمانيين، الذين وعدوه بولاية مصر، محل علي بك(٢٥).

إثر انسحاب أبو الذهب إلى مصر، حدث صراع على النفوذ في بلاد الشام الجنوبية، كما طلب ابن جرار، المحاصر في قلعة سانور، من قبل ظاهر، الدعم من عثمان باشا، الذي عاد إلى دمشق، فخف لنجدته، لكن ظاهر هزمه، قرب الحولة، في ٢ ايلول / سبتمبر ١٧٧١ (٢٦).

أعد ظاهر عدته وعدده، من أتباعه في فلسطين، والمتاولة، والشيعيين، الموالين له، ومن مماليك علي بك، وسار إلى لقاء العثمانيين، ودارت على الساحل، قرب صيدا، معارك عنيفة، أسهم فيها الأسطول الروسي، انتهت بانتصار ظاهر، في أيار / مايو ١٧٧٢ الذي بطلب منه ومن علي بك، قصف الأسطول الروسي، مدينة بيروت، في ١٨ حريزان

/ يونيو ١٧٧٢، لكن بضغط وإغراء مالي من الأمير يوسف الشهابي، الذي كان يحكم بيروت، آنذاك، انسحبت القوات الروسية من بيروت، في ٢٣ من الشهر نفسه، وكان ظاهر قد صد وحلفاؤه من المماليك والشيعة، في ١١حريزان/يونيو، حملة مشتركة من أتباع الأمير يوسف، والعثمانيون، قرب صيدا. لذا طلب الأمير يوسف إلى قائد القوات العثمانية، عثمان باشا الوكيل، أن يرسل قوة إلى بيروت، للدفاع عنها، وكان من بين أفراد هذه القوة، أحمد بك الجزار [٢٧].

أخذ الجزار يعمل لحسابه، في بيروت، بمعزل عن الأمير الشهابي، فاتجه الثاني نحو أعدائه السابقين، ظاهر والشيعة، وتحالف معهم، في ٩ حزرن / يونيو ١٧٧٣، وطلب هؤلاء الحلفاء من الأسطول الروسي إعادة مهاجمة بيروت، لإخراج الجزار منها. فمهاجمها، وهرب الجزار، ملتجئاً إلى ظاهر، ثم إلى دمشق [٢٨].

نعود إلى أبى الذهب، وعليّ بك الكبير، حيث هزم الأول والثاني، شرقي الدلتا (في الصالحية)، وأصيب عليّ بك بجُرح قاتل، (ردد بعض المؤرخين أنه مات مسموماً، في عام ١٧٧٣)، وتابع أبو الذهب السير بقواته إلى سورية، في عام ١٧٧٥؛ لمحاربة الشيخ ظاهر، حيث انضم عثمان بن ظاهر، مع بعض الزيادنة، إلى أبي الذهب، وحوصرت يافا، وقاوم أهلها الغزاة، حتى لانت نفوس المغاربة، فسهَّلوا دخولهم إلى المدينة، حيث عاث الجند فساداً، في النساء والأموال، وأهرقوا دماء الأبرياء، مما ادخل الهلع إلي قلب ظاهر، بعد أن أبى يوسف الشهابي مساعدته، وهدم أبو الذهب ديرين للنصارى، في يافا، وقتل رهبانهما، ثم

سار إلى عكا، واستقبل وفود يوسف الشهابي، ووالي صيدا، الدنكزلي، وطلب من الدولة توليته مصر والشام[٢٩].

لم ينقذ اهل الشام، من الغازي أبي الذهب، سوى الموت الذي داهمه، في ١٠ حزيران/ يونيو١٧٧٥، في مدينه عكا، ما أتاح الفرصة لظاهر، لكي يعود إلى عكا، بعد انسحاب القوات المملوكيه، ولكن صيدا خرجت من يده؛ بتعين والٍ عثماني عليهما.

في ٧ أب/ أغسطس١٧٧٥، وصل أسطول عثمان، بقيادة القبطان حسن باشا إلى حيفا، فاستولى عليها، وتوجه في ٢١ من الشهر نفسه، إلى عكا، حيث تحصَّن ظاهر. وقد دُكر بأن مفاوضات جرت بين الطرفين، حول تسليم ظاهر ما تأخر عليه من أموال الميري، وان مستشاره، إبراهيم الصباغ، ورئيس دفاعه أحمد دنكزلي، قد ثنيا حسن باشا عن ذلك، كما ذكر أيضاً، بأن حسن باشا نفسه، لم يكن حريصاً على نجاح المفاوضات، وقد رفض دنكزلي والقوات المرتزقة من المغاربة. التي كانت تدافع عن عكا، القتال، واضطر ظاهر إلى الهرب، وقُتل، غير بعيد عن عكا، بأيدي مغاربته، واعتقل إبراهيم الصباغ، وقتل دنكزلي في العام التالي [٣٠].

تشرذمت أسرة ظاهر، بعد وفاته، فمن أبنائه من قُتل، أو نُفي، وبرز بعض أحفاده في وظائف إدارية، في استانبول، وذُكر بأن بونابرت، إبان حملته على فلسطين، في عام ١٧٩٩ حاول، عبثاً، الاعتماد على أبناء ظاهر فيها [٣١].

هكذا، انهارت إمارة الزيادنة، في فلسطين، بعد أن دامت قُرابة ثلاثة أرباع القرن، استطاعت خلالها أن تجعل من منطقة الجليل مركز الثقل السياسي والاقتصادي، في بلاد الشام، ككل، واستطاع ظاهر ان يجعل مدينة عكا آهلة بالسكان، وميناء تجارياً نشطاً، بعد أن كانت مدينة صغيرة المساحة، وقليلة السكان، وذلك بتحصينه القلاع فيها.

الانهيار:

لقد أسهمت عوامل عدة، في انهيار إمارة ظاهر العمر، فكما رأينا أن زواجه من نساء ينتسبن إلى قبائل معادية لبعضها البعض، قد أفاده، في بادئ الأمر، في توسيع سُلطانه، إلا انه أدى لاحقاً، إلى حرب أهلية، تمثلت في تمردات أبنائه عليه، وكثرة أعدائه، ومنافسيه. وثمة عامل آخر متوارٍ، فقد طوَّر ظاهر اقتصاد المنطقة، التي وقعت تحت نفوذه، وذلك بتعامله مع التجار الفرنسيين، مما مكّنه من إقامة الحصون، واستئجار القوات العسكرية، إلا أن ذلك غدا عامل ضعف، بعد الحروب الداخلية، وما أدت إليه من تهديدات الموانىء، وقطع الطرق، فضلاً عن عامل قوي، وهو الحروب الخارجية، التي واجهها ظاهر، خاصةً مع ولاة الشام، وخيانة بعض العونة.

رغم ما وصلت إليه إمارة الزيادنة من تدهور، إلا أن كثرة المؤرخين أشادوا بالجانب الإيجابي لظاهر العمر، فقد اهتم بالزراعة، وأعفى الفلاحين من دفع الأموال، في السنوات المجدبة، ولطالما قدم لهم البذور والمساعدات، كما نشَّط التجارة بين الداخل والساحل، وشيَّد الأبنية، وطوَّر العمران، واتسم بالتسامح الديني، فكان من بين وزرائه نصارى،

كما حرص ظاهر على نشر الأمن والطمأنينة، في كل البلاد التي دانت له، وتميَّز بإحسانه على الفقراء [٣٢].

وبعد، فإن إمارة الزيادنة، كانت بدوية الطبيعة، استطاع ظاهر أن يرتقي بها إلى أعلى مستوى ممكن، طيلة الحكم العثماني، وكان ظاهر أول من قام بحركة استقلالية، في العهد العثماني، كرد فعل على ما وصل إليه العثمانيون من استبداد وتدهور، في آن. واستطاع أن يجذب إليه معظم فئات الشعب، كما نجح في تكوين علاقات صداقة، مع من كانوا، سابقاً، في صفوف الأعداء، إلا أنه، في الوقت نفسه، فشل في تكوين أُسره موحدة، تستطيع أن تواجه المصاعب والعقبات، التي أنهت حُكم ظاهر. لقد حاول نسج تحالف مع عشائر، من خلال الزواج منها، بدل أن يقيم تحالفاته على أساس سياسي، ومن منطلق المصالح الاقتصادية المشتركة. وبدلاً من اعتماده على أبناء الشعب، فإنه اعتمد على المرتزقة من المقاتلين، الذين انقلبوا عليه، في أول سانحة. أما تحالفاته الدولية، فحدِّث ولا حرج، حيث اعتمد على عدو الدولة العثمانية، ونعني بها روسيا، بينما ليس صحيحاً أن " عدو عدوي صديقي "، فقد يكون أشد عداوة، تماماً كما استجار العرب ببريطانيا، خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، فكانوا كمن استجار من الرمضاء بالنار، حيث تخلَّص العرب من حكم عثمانى كهل، خائر، ليحلوا محل استعمار بريطاني وفرنسي فتي، تمكَّن من زرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي. وإن كان من الظلم محاكمة ظاهر العمر بمعايير زماننا هذا.

* * *

مراجع الفصل التاسع عشر

(١) لمزيد من التفاصيل انظر:
لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية الحديثة**، أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي، معهد الاستشراق، موسكو، ترجمة: عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت ١٩٨٥، ص ٧ - ٩، ١٨، ٢٤.
(٢) عمر الصالح البرغوثي، خليل طوطح، **تاريخ فلسطين**، مكتبة فلسطين، القدس ١٩٢٣، ص ٢٨٨، ٢٣٠.
(٣) عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦**، دمشق مكتبة أطلس، ١٩٧٤، ص ٧٨.
(٤) البرغوثي، طوطح، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.
(٥) ميخائيل الصبَّاغ، **تاريخ ظاهر العمر الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد**، نشرة قسطنطين الباشا، حريصًا، مطبعة القديس بولس، ١٩٣٥، ص ٢٥، ٣١ - ٣٥.
(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٦ - ٥٢.
(٧) عبود الصبَّاغ، **الروض الزاهرة في أخبار ظاهر**، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس، رقم Arabe 4610، ورقة ٧ (أوردتها: **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: د. عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين (١)**، ص ٧٠٩).
(٨) أحمد البديري الحلاق، **حوادث دمشق اليومية**، نقحها محمد سعيد القاسم، ووقف على تحقيقها ونشرها أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٩، ص ٢١ - ٢٩.
(٩) **المصدر نفسه** ص ٤٢ - ٤٧.
(١٠) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني المجلد الثاني ط١، بيروت، ١٩٩٠، (انظر: د عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين** (١)، ص ٧١٠).
(١١) عبود الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٩ب - ١٠ أوردها (رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٠.
- ميخائيل الصباغ، مصدر سبق ذكره ص ٤٦.
(١٢) Rafeq, Abdul - Karim, the province of Damascus, 1723 - 1783, Beirut, Khayats 1970, pp. 197 - 198.
(أوردها: رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٠).

(١٣) محمد أحمد درهمان، **زلزال سنة ١١٧٣ هجرية، المشرق ٤٢ لسنة ١٩٤٨**، ص ٣٣٣ - ٣٤٧، (أوردها: رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١١).
(١٤) ميخائيل الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٢ - ٨٣، ٨٦ - ٨٧.
(١٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٣.
(١٦) ميخائيل الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٧ - ٨٩.
(١٧) الحلاق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٢.
(١٨) لمزيد من التفاصيل، انظر:
الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٣.
(١٩) انظر تفاصيل وصول علي بك إلى السلطة، والأسباب التي دفعت به إلى غزو بلاد الشام في:
عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦ - ١٧٩٨م**، ط٢ دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٦٨، ص ٤٠١ - ٤٠٨.
(٢٠) انظر: نص البيان (الفرمان) في:
حيدر أحمد شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزار، نشرة انطونيوس شبلي وأغناطيوس**، عبده خليفة، بيروت، مكتبة انطوان، ١٩٥٥، ص ٤٢ - ٤٤.
(٢١) حسن بن الصديق، **غرايب البدايع وعجائب الوقايع**، مخطوط في المكتبة الوطنية في برلين الغربية، رقم ٤١٧ we(II) و ٩٨٣٢ ورقة ١١ أ، ١١ ب، ١٧ أ، أورده (رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٥).
(٢٢) لمزيد من التفاصيل، انظر:
- **المصدر نفسه**، ورقة ١٠ ب، ١٢ أ.
- الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٥.
(٢٣) انظر تفاصيل ذلك في:
Rafeq، **مصدر سبق ذكره**. PP. 257 - 259.
أورده (رافق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٥.
(٢٤) لمزيد من التفاصيل، انظر:
الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٦.
(٢٥) انظر مناقشة الأسباب التي حملت أبا الذهب على الانسحاب في:
Rafeq، **مصدر سبق ذكره**. PP. 271 - 277.
أورده رافق فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٦.
(٢٦) انظر تفاصيل ذلك في:
- ابن الصديق، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٦٩ ب - ٧٤ ب.
- ميخائيل الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٠ - ١٠١.
(٢٧) لمزيد من التفاصيل انظر:

- نادر، **تاريخ سورية في العصور الحديثة، دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني (١٥١٦ - ١٩٠٨)**، دمشق، د. ن، د. ت، ص ٨١.
- حيدر أحمد شهاب، **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين**، ج١، د. ن، د. ت، ص ٩٣ - ٩٤.

(٢٨) انظر:
- عبود الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٢٦ ب - ٢٧ أ (أورده: رافق، فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٧).
- شهاب. تاريخ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣.

(٢٩) لمزيد من التفاصيل، انظر:
- العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٢.
- عبود الصباغ، **مصدر سبق ذكره**، ورقة ٣٠ أ، ٣٣ أ.

(٣٠) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١٧.

(٣١) توفيق معمّر، **ظاهر العمر**، الناصرة، مطبعة وأوفست الحكيم، ١٩٧٩، ص ٢٥٩ - ٢٦٢.

(٣٢) لمزيد من التفاصيل انظر:
- العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٤.
- قسطنطين خمار، **ظاهر العمر الزيداني، الثائر الوطني**، دمشق، دار المبتدأ، ١٩٩٢، ص ٢٤ - ٢٨.

* * *

الفصل العشرون

بونابرت والوعد الأول

الفصل العشرون:

بونابرت والوعد الأول

آمال الخزامى

عادى بونابرت اليهود، لكنه كان أول مسئول كبير غربى، في العصر الحديث، نادى بوطن قومى لليهود في فلسطين.

لقد مرت الفكرة الصهيونية بمرحلتين، أولاهما ما قبل عام ١٨٩٧، حيث كانت الصهيونية في طور التكوين الفكرى. ومرحلة ما بعد عام ١٨٩٧م، عندما أخذت الصهيونية شكلها التنظيمى، لتحقيق توصيات المؤتمر الصهيوني الأول، المنعقد في مدينة بال السويسرية، صيف عام ١٨٩٧. ومن هنا وجد بعض بناة الإمبراطوريات في الغرب الاستعانة باليهود، بإثارة الشعور الدينى لدى اليهود، والرغبة في " العودة إلى فلسطين "، لتدعيم مصالح الغرب في المنطقة العربية [١].

نوقشت " المسألة اليهودية "، إبان الثورة الفرنسية، هل اليهود فرنسيون أم أنهم أمة داخل أمة؟ وعزف أعداء اليهود على وتر " الخطر اليهودي "، وأن اليهود جسم غريب منبوذ، يجب التخلص منه. وطرح آخرون اندماج اليهود، وأعطائهم حقوقهم، بشرط التخلي عن خصوصيتهم اللغوية، والثقافية، والإثنية، في الحياة العامة. ليصبح

اليهودي مواطنًا في الشارع، يهوديًا في منزله، ومنعت الجامعة اليهودية من ممارسة بعض شعائرها، في عام ١٧٩٣ - ١٧٩٤، باعتبار هذه الشعائر لا تتفق مع العقل. (٢)

قادة الثورة الفرنسية يكرمون اليهود:

قامت الثورة البرجوازية الفرنسية، عام ١٧٩٢م، ضد تحالف الكنيسة مع الإقطاع، ومن شعاراتها " اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس "، نتيجة ظلم الكنيسة الكاثوليكية، المتعاونة مع الإقطاع، فقد تحالفت القوى التي تعرضت لهذا الظلم، من أجل القضاء عليه، ومن أبرز هذه القوى اليهود.

موَّل الرأسماليون اليهود الثورة الفرنسية، وساعدوا على نجاحها، من خلال محافلهم الماسونية، التي استطاعت أن تجعل شعاراتها هي نفسها شعارات الثورة الفرنسية؛ " الأخاء، والحرية، والمساواة "، لمقاومة الحصار العنصري الذي فرضته الكنيسة الكاثوليكية على اليهود، وشعار " دعه يعمل، دعه يمر "، لمقاومة منع تنقل اليهود، ووضعهم في مجتمعات مغلقة (الغيتو) (*).

نتيجة لذلك، أعطى قادة الثورة الفرنسية لليهود مكانة خاصة، ومحوا عنهم آثار الاضطهاد الكاثوليكي (٣).

بدأت الدبلوماسية الفرنسية، منذ عام ١٧٩٥، بإعادة الجسور مع الشرق، فواصلت الجمعية التأسيسية الجهود السابقة للنظام الملكى، بتزويد فرنسا بمترجمين أكفاء، عن طريق تأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، وفي

العام نفسه جاء اعتراف السلطان العثماني بالجمهورية الفرنسية، وقدم مشروعًا للتحالف من قبل القائم بالأعمال، فيرنينال، في عام ١٧٩٦، وخلفه، أُوبير - دوبيس، مصحوبًا ببعثته العسكرية والتقنية، وهكذا حظيت فرنسا بالصداقة العثمانية، وأصبحت الظروف مواتية لبونابرت، وحملته.[٤]

ولكن من هو بونابرت؟!؟ :

ولد بونابرت، في ١٥ أغسطس/آب ١٧٦٩، من أسرة تنحدر من أصل إيطالي، في مدينة اجاكسيو، عاصمة مدينة كورسيكا، التابعة لجمهورية جنوى، التي استولت عليها فرنسا، عام ١٧٦٨، أي قبل ولادة بونابرت بسنة، فهو إيطالى الأصل، فرنسى المولد.

تلقى بونابرت دروسه الأولى في مدرسة أجاكسيو، ثم التحق بمدرسة بريين الحربية بفرنسا، ثم مدرسة باريس الحربية، عام ١٧٨٤، وانتظم في سلك المدفعية، والتحق بالجيش، بعد تخرجه. وإبان الثورة الفرنسية، انضم بونابرت إليها، وبعد أن أعلنت فرنسا الحرب على النمسا، ثم على إنجلترا، وهولندا، وأسبانيا، أحاطها الأعداء من كل جانب، واحتل الإنجليز طولون، ميناء فرنسا البحري، على البحر الأبيض المتوسط، عام ١٧٩٣. وقد أظهر بونابرت نبوغه الحربي في حصار طولون، واسترجاعها، وعيَّنت الحكومة الفرنسية بونابرت قائدًا للجيش الفرنسى في حرب إيطاليا، ١٧٩٦ [٥].

عاد بونابرت منتصرًا من إيطاليا، في ديسمبر / كانون الأول ١٧٩٧، وكانت حكومته قد عيَّنته لقيادة الجيش المجمع على الساحل

الإنجليزي، تمهيدًا لغزو الجزر البريطانية، وبعد جولة تفتيشية سريعة في مناطق تنفيذ الغزو، في فبراير/ شباط ١٧٩٨، كتب بونابرت تقريرًا لحكومته، عن نقص الموارد العسكرية والمالية، نقصًا شديدًا، وشدد بأن على فرنسا الاختيار بين ثلاثة، عقد صلح مع إنجلترا، أو غزو هونوفا، بدلاً من الجزر البريطانية، أو الاستيلاء على مصر، فتقطع بذلك شريان الحياة بين بريطانيا وبين الهند، واستقر رأى حكومة باريس على الخيار الأخير [٦].

قدَّر بونابرت موقع مصر الفريد، فهو معبر مطل على البحر الأبيض، النفاذ من جبل طارق، إلى الأطلنطي فالولايات المتحدة، كما تطل مصر على البحر الأحمر، الذي يمكن وصله بالبحر الأبيض، الذي يتدفق بمياهه، جنوبًا، حتى يدخل إلى بحر العرب، عند عدن، ويمتد إلى المحيط الهندي، ثم إلى المحيط الهادي. وأيضًا، هو بلد على رأس أفريقيا، وكتف آسيا. أرضه تصلح بطبيعتها السهلة، ومواردها الزراعية، لأن تكون قاعدة لجيش كبير، بأقل، ويسكن، ويستعد في أمان. فالاستيلاء عليها مقدمة ضرورية للتوسع الإمبراطوري، إلى الهند، ويتصدى لبريطانيا، ويتحدى سيطرتها على التجارة، والبحار [٧]. فاحتلال مصر كان يؤمِّن لفرنسا إمكانية تهديد طريق الهند عن طريق البحر الأحمر، والخليج العربي، ويتيح لها أن تستعيد المواقع التجارية الراسخة في بلاد المشرق، وتعوِّض عن فقدان جزر الأنتيل، التي احتلتها بريطانيا [٨].

أيقن بونابرت أهمية سوريا، أيضًا، ورأى بأن اتصالها غير قابل للانفصال عن مصر، فهما يشكلان زاوية قائمة، ضلعها الجنوبي مصر،

الذي يتأثر به بالعرض الساحل الشمالى لأفريقيا، وبالطول إلى الجنوب، حتى منابع النيل، وسوريا ضلعها الجنوبي، على حدود بلاد العراق، وشبه الجزيرة العربية، والخليج، والطريق إلى بلاد فارس، والهند.

وعى بونابرت الدرس ممن سبقوه من الفاتحين، لأهمية مصر وسوريا، فضلا عن التكامل بينهما الذي لو تحقق، كما حدث من قبل خلال حروب الفرنجة، لأصبح قادر ا على صنع قوة ذاتية، تشجع على الانفلات من قبضته، وتواجهه بما لا يتحسب له، حيث أن كلا ضلعي الزاوية، في بحث مستمر عن الضلع الآخر، بصرف النظر عن متغيرات الظروف، والعصور. هكذا تبلورت الرؤية الاستراتيجية لبونابرت، فلكي يحقق أحلامه كان عليه أن يسيطر على الضلع الجنوبي لزاوية البحر الأبيض الشرقية، مصر، فأنزل جيوشه إليها. ويؤمن سوريا الضلع الثاني، وهو يزحف عليها. ولعدم التقاء الضلعين، عربيًا وإسلاميًا، فكان لابد أن يبحث بونابرت عن مركز الزاوية، وهى فلسطين، ويزرع فيه جسمًا آخر، ليس عربيًا، ولا إسلاميًا، فتفتق ذهن بونابرت عن إنشاء " وطن قومى " لليهود، يكون ضمانًا إضافيًا. وجاءت ورقتة اليهودية تصورا للمستقبل، ورؤية قابلة للتحقيق، حتى بعد أن أصبح إمبراطورا لفرنسا، كانت مصر، " وفكرة الوطن اليهودي " العازل، لا تزال تدور بخلده، فدعى، سنة ١٨٠٧، إلى عقد مجمع يهودي في سانهردين لكل يهود أوروبا، ممثلين في رؤساء طوائفهم، وكبار حاخامتهم، للم شمل اليهود، ونص أحد قرارات المجَّمع على " ضرورة إيقاظ وعى اليهود إلى حاجتهم للتدريب العسكري، لكى يتمكنوا من أداء واجبهم المقدس،

الذي يحتاج إليه دينهم " [٩].

يعد بونابرت أول من دعا لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، في العصر الحديث، وأول غاز غربي للشرق العربي في العصر الحديث.

الجدير بالذكر أن بونابرت كان معاديًا لليهود، كما يدل على ذلك سجله في فرنسا، كما لايمكن الحديث عن وجود لوبي يهودي، أو صهيوني في فرنسا، وحين أطلق بونابرت دعوته، بل كان ذلك نابعًا من إدراك بونابرت للمصالح الاقتصادية والاستراتيجية للبرجوازية الفرنسية [١٠]. حيث ورد في مذكرات بونابرت، التي أملاها في منفاه، سانت هيلين، أنه حين عزم على تنفيذ مشروع حملته على مصر كان يقصد إنشاء دولة مشرقية كبيرة، وينوي، بعد توطيد مركزه في مصر، غزو الهند، وقدر وصوله إليها، شهر مارس/آذار ١٨٠٠[١١].

تعتبر حملة بونابرت على مصر، التي أسماها " حملة النيل "، بداية لعملية وراثة الخلافة العثمانية، والزحف منها إلى فلسطين، والشام، نادى بونابرت أنه الصديق الصدوق لخليفة المسلمين العثماني، وأنه الحريص على تثبيت سلطانة المهدد من المماليك في الداخل، أو الملوك المسيحيين في الخارج، ووصل ببونابرت الأمر إلى حد ادعائه اعتناق الإسلام [١٢].

بونابرت في مصر:

في ١٩ مايو / آثار ١٧٩٨، أقلعت الحملة الفرنسية من ميناء " طولون "، واستولى بونابرت على مالطة، في ١ يونيو/ حزيران ١٧٩٨، ودخل الإسكندرية، في ٢ يوليو/ تموز ١٧٩٨ [١٣]. ومع أخذ بونابرت

بتحذير فولني، إذا أراد الاستقرار في مصر، فإن عليه شن ثلاث حروب، الأولى ضد إنجلترا، والثانية ضد الباب العالي، والثالثة - وهى أصعبهم - ضد المسلمين. إلا أن بونابرت قرر محاولة اجتذاب المسلمين، بدلاً من محاربتهم، وذلك قبل أن يقلع بونابرت بحملته، فجهر بونابرت بعقيدته الدينية، عندما أصدر بيانًا، وقت نزوله من السفينة في الإسكندرية، جاء فيه، بعد البسملة والتوحيد بالله! إنه من طرف أمير الجيوش الفرنسية، بونابرت، الذي جاء ليخلص حقهم من الظالمين، المماليك، وليس للقضاء على دولتهم ودينهم، وهو يحترم الدين الإسلامي والنبى ﷺ والقرآن الكريم.

توجة بونابرت إلى القاهرة، بحملته، التي حرص على إضفاء البعد العلمى والفنى عليها، فجاء مع الحملة بحوالى ١٦٧ مدنيا، علماء في الرياضيات، والفلك، والعلوم الطبيعية، وهندسة المناجم، والهندسة المدنية، والمعمارية، والإنشائية، والجغرافيا، والرسم والنحت، فضلا عن فنيين بارود ومتفجرات، وأدباء، وسكرتارية، ومترجمين، وشئون صحية، كما حمل الجيش معه مواد للطباعة بثلاث لغات، الفرنسية، والعربية، واليونانية، ومعملا كيميائيا، ومكتبة فيزياء، ومكتبة تاريخ طبيعى، ومرصد وتجهيزات كاملة لصناعة المناطيد، ولقيادتها.

بوصول بونابرت إلى القاهرة، في ٢٤ يوليو/ تموز ١٧٩٨، أصدر بيانًا رسميًا باللغة العربية، جاء فيه. " يا أيها المصريون، إننا حضرنا بقصد إزالة المماليك، الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار، وأخذ مال التجار، ومال السلطان. أما المشايخ، والعلماء، وأصحاب المرتبات،

والرعية، فيكونون مطمئنين، وفي مساكنهم مرتاحين " [١٤].

يتضح أن رسائل بونابرت الإسلامية هذه حيلة سهلة لخداع المصريين جميعًا، العامة، والعلماء من مشايخ الأزهر، وتم خداعهم، بالفعل، وصدَّقوه، ربما لضيقهم من حكام المماليك، أو لعجزهم عن حماية ديار الإسلام، وديارهم. فقد كتبت تلك الرسائل الإسلامية، وطبعت مع الرسالة الخاصة باليهود، وطبعت جميعها قبل أن تقلع الحملة الفرنسية من موانيها، وحرص بونابرت على عدم إعلانه عن الرسالة الموجهة لليهود، إلا عند دخوله فلسطين، لكى لا تؤثر على رسائله للمسلمين [١٥].

حملته على فلسطين:

ظلت فلسطين، منذ فجر التاريخ، مطمعًا لجميع الفاتحين، والمستعمرين، سواء كانوا آسيويين، أوغربيين، كالإسكندر، وبومبي، وغودفري، وقلب الأسد، وبونابرت [١٦].

تعتبر تلك الحملة بداية تنفيذ استراتيجية بونابرت، التي جاء من أجلها، حيث الوصول للهند، ودعم العناصر الثائرة على الحكم البريطانى هناك، وإنزال الهزيمة في أثمن جوهرة في إمبراطورية عدوته، بريطانيا، وأيضًا التوغل في أملاك الدولة العثمانية، والسيطرة عليها، ثم القسطنطينية، والبلقان، والنمسا، فيهزم الدول المتألبة ضد فرنسا، حتى يصل إلى باريس.

ثمة أسباب أخرى ظاهرة، أعاد إليها بونابرت حملته على فلسطين، عندما حاصره الأسطول الإنجليزي، وتحالف العثمانيون مع الإنجليز، واحتلت جيوش العثمانيين العريش، بقيادة أحمد باشا الجزار، هنا كانت الذريعة الفرنسية، " صد الجزار وجنوده عن الأراضي المصرية ".

جمع بونابرت زعماء البلاد المصريين، وأخبرهم بطريقته اللبقة، أنه ذاهب ليحارب إبراهيم بك وأتباعه في سوريا، دون السلطان، وحذَّرهم من أعمال الشغب، ملوِّحًا لهم بعقابه الشديد، لو حدث، ومكافأته لهم، إذا أخلدوا للسكينة، وأصدر بونابرت منشورًا باللغة العربية، قضى بالعفو عن المذنبين في ثورة القاهرة الأولى، وأمر بإعادة الديوان الخصوصي، لتسهيل مصالح الشعب [١٧].

توجه بونابرت بحملته إلى فلسطين، بعد انتصاره على المماليك، ودخوله القاهرة، في ٢١يوليو/تموز ١٧٩٨، والقضاء على ثورتها، في ٢١ أكتوبر/تشرين الأول ١٧٩٨. تألف الجيش الفرنسي المتجه إلى فلسطين، بقيادة بونابرت، من أربع فرق: فرقة الجنرال كليبر، وضمت ١٤٩٩ مقاتلاً، وفرقة الجنرال بون، وضمت ٢٤٤٩ مقاتلاً، وفرقة الجنرال لان، وضمت ٢٩٢٤ مقاتلاً، وفرقة الجنرال رينية، وضمت ٢١٦٠ مقاتلاً، أُضيف إليهم ٨٠٠ عنصر من الفرسان، بقيادة الجنرال مورا، و٣٢٠ من سلاح الهندسة، بقيادة الجنرال كافاريلي، ١٣٨٥ من سلاح المدفعية، بقيادة الجنرال دومارتان، فضلاً عن ٤٠٠ الإدلاء، الراجلين، وراكبي الخيول، و٨٨ من الهجانة، وبلغ مجموع رجال الحملة ١٢٩٤٥ مقاتلاً [١٨].

ادعى بونابرت إهانة الجزار لمبعوثه، الذي عرض عليه إقامة علاقات حسنة بين الطرفيين، وتحسين التجارة بينهما، فأرسل بونابرت فرقة استطلاعية، في ٣٠ يناير/كانون الثاني ١٧٩٩، بمهمة استطلاع. وأعدت قافلة من ١٥٠٠ جمل، لحمل المؤن من القاهرة، وأمر فرقة كليبر بمغادرة دمياط إلى قطية، وأعد أسطولا من السفن في الإسكندرية، لنقل مدفعية الحصار الثقيلة، التي استولى عليها الإنجليز، فيما بعد، قرب يافا. احتل بونابرت قطية، لتوفير المياه، ثم اتجه إلى العريش، التي تشكل نقطة الحدود بين مصر وبلاد الشام، التي أقام فيها الجزار، حامية من ١٥٠٠ مقاتل من المماليك والمصريين، والمغاربة [١٩].

كان كليبر وفرقته طليعة الجيش الفرنسى، تسللت كتيبة من فرقته إلى معسكر العريش، فقتلت خمسمائة من الأهالى والجنود، وهم نائمين في ليلة رمضانية بالسلاح الأبيض، وأخذو باقي الأهالى أسرى، بعد أن استيقظوا من نباح كلاب المعسكر. ولولا ذلك لذبحوا جميعًا. ويصف بونابرت هذا الهجوم بأنه أجمل العمليات الحربية التي يتصورها العقل! [٢٠].

احتل كليبر ورينيه العريش، عدا قلعة العريش، وفي ١٠ فبراير/شباط ١٧٩٩، استقل بونابرت بعض السفن، وضم إليها ٢٠٤٠٠ مقاتل، ودخل العريش، وأصدر منشورا، أعلن فيه صداقته للعثمانيين، وحرصه على بقاء المسلمين، ومساجدهم، بعيدة عن الاعتداء، وطلب مساعدة السوريين له، واتبعه بمنشور آخر للمصريين، أخبرهم بمثول العريش له، وأنه اغتنم منها أرز، وبقسماط، وشعير، وثلاثمائة رأس من الخيل، والجياد، والجمال [٢١].

بعد سبعة أيام من حصار العريش، وجرح وقتل مائتين وثلاثمائة من الفرنسيين، التحق ٤٠٠ من المغاربة الأسرى بجيش بونابرت، وجرد الباقي من السلاح، وأرسلوا إلى مصر. ثم تبدل ترتيب الفرق، فيما بعد العريش، فأصبحت فرقة كليبر في المقدمة، يرافقها الفرسان، بقيادة مورا، لاحتلال خان يونس، التي تبعد عن العريش نحو ستين كيلو مترًا، في ٢٢ فبراير/ شباط، وصلهم بونابرت، في اليوم التالى، وبقيت فرقة رينية في العريش، لحماية مؤخرة الحملة، بحيث تسير على مسافة يومين منها. والجدير بالذكر أن عددًا من الجنود توفوا، بسبب صعوبات اجتياز

الصحراء، وضل كليبر الطريق، فوصل بعد بونابرت، واستسلمت خان يونس، بدون قتال [٢٢].

سار بونابرت إلى غزه، مفتاح فلسطين الجنوبي، وكان الحر مخيفًا، والرياح العاتية تلفح الوجوه، وقلت المياه، وتعب الخيل والجنود، وبدأت روح التمرد والعصيان تبث في الجنود، حتى اجتازوا الصحراء، فتغير الجو، وهطلت الأمطار، فأصيب كثير من الجنود بالأمراض [٢٣].

دخل جنود بونابرت إلى غزه، ففر منها المماليك وجنود الجزار، بعد مقاومة قليلة، بعدها احتل كليبر بندر غزة، بدون معارضة له، واستولى على ما وجده من ذخائر، وبارود، وطعام. وأرسل الفرنسيون فرمانًا مكتوبًا من غزة إلى أهل مصر، لإخبارهم بذلك. وفي الوقت نفسه، وجه بونابرت إلى أهالي الشام فرمانًا، عند دخوله غزة، برر فيه حملته على فلسطين؛ " بقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم ". ومنح بونابرت للأهالي الأمان، وطالبهم بالعودة إلى أعمالهم، وحفل فرمان بونابرت هذا بالمفردات الإسلامية، حتى وصل إلى حد أن الله " يعطي النصر لمن يشاء " [٢٤]!.

أقام بونابرت إدارة محلية من الزعماء المحليين، إلى جانب الحامية الفرنسية في غزه، وذلك بعد أن تخلى حاكمها، عبد الله باشا، وفرسانه الـ (٢٠٠٠) عن الدفاع عن المدينة، وانسحاب مماليك إبراهيم بك إلى يافا.

في ١ مارس / آذار وصل كليبر وفرقته قرية اسدود، ثم قرية يبنا، قبل وصوله إلى الرملة، في ٢ مارس/آذار، ووجد الفرنسيون فيها مؤنًا

كثيرة، ومعدات، تركها المدافعون، الذين ارتدوا إلى يافا. وكان الهدف من احتلال الرملة حماية مؤخرة الفرنسيين، حين حصار يافا، والتحكم في طريق الرملة - القدس التجاري، الذي يربط بين القاهرة ودمشق، ولإحكام الحصار من تلك الجهة، لذلك ترك كليبر رينيه في الرملة (٢٥).

دخل جنود بونابرت مدينتي الرملة، واللد، بعد أن هرب منهما جنود الجزار، ووجد فيهما مخزون كبير من البقسماط، والشعير، ورأوا فيها ألفا وخمسمائة قربة مجهزة (٢٦).

في ٣ مارس/ آذار وصل بونابرت يافا، وهاجمها، بسرعة، ليؤمِّن الاتصال البحري عن طريقها، مع دمياط، والإسكندرية، فتوجهت فرقتي الجنرالين، لان، وبون، إلى الشرق، والجنوب من المدينة، ورابطت فرقة كليبر عن نهر العوجا شمالي يافا بثمانية كيلو متر، لقطع الاتصال مع عكا(٢٧).

تمت محاصرة يافا من جميع الجهات، وأرسل بونابرت إلى حاكمها بأن يسلِّم القلعة، قبل أن يحل بها الدمار، وفي اليوم التالي أمر بونابرت بحفر خنادق حول سور المدينة، وعمل متاريس أمنية، وحصارات متقنه حصينة، ونصب مدافعه بجانب البحر، لمنع الخارجين إليهم من مراكب الميناء. رأت حامية يافا المؤلفة من أربعة آلاف مقاتل تمترسوا بالقلعة، بأن جنود بونابرت قلائل، لاختبائهم في الخنادق، وخلف المتاريس، فخرجوا لهم جنوده، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا من تلك الواقعة. أرسل بعدها بونابرت خطابًا إلى حاكم يافا، أخبره فيه بأن حضوره إلى يافا إنما جاء لإخراج الجزار وجنوده منها، لتعدية على أرض مصر بإرسال قواته إلى

العريش، وأخبره، أيضًا بمحاصرة يافا من جميع الجهات بالمدافع، وإمكان الفرنسيين دخولها في خلال ساعتين، وخوفه على الأهالي من بطش الجنود، وسطوتهم [٢٨]. أرسل بونابرت إلى الجزار ضابطا تركيًا لتسليمه المدينة، فقتله الجزار، هو والدليل، ورفع رأسيهما على الحراب فوق السور، فهاج بونابرت لهذا التحدى، وكان قد ضاق ذرعًا بهجمات فرق المغاوير العرب من خلف الأسوار، فشن هجومًا كاسحًا، دخل على إثره المدينة، واحتلها، واستباح فيها كل شيء[٢٩]. برغم سقوط يافا، بعد عدة ساعات من الهجوم، فإن الفرنسيين استمروا يقتلون بوحشية الأهالي، والشيوخ، والنساء، والأطفال الرضَّع، والصبيان، المسلمون، والمسيحيون، وازدادت شراستهم، كلما سمعوا صرخات الاستغاثة، فعمدوا إلى اغتصاب الفتيات أمام أمهاتهم، وواصلوا الغدر بالجنود، حيث وعدوهم بأن يعامَلوا كأسرى حرب، فقام ثلاثة آلاف جندي بتسليم سلاحهم، ومنهم مغاربة، وسوريون، وفلسطينيون، وأتراك. وكان هؤلاء الأسرى يشكلون مشكلة لبونابرت في طعامهم، وحراستهم، فهل يطلق سراحهم، فينضموا إلى عكا! وسرعان ما انتهى تردده، وأصدر قراره بإعدامهم جميعًا (ثلاث آلاف عربي)، وصف أحد المواطنين الفرنسيين تلك المذبحة، في خطاب لأمه، قال فيه: " أخذ الجنود المغاربة لشاطئ البحر، وقتلوهم رميًا بالرصاص، وكان أملهم في النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم في البحر، والهرب بالسباحة، فضربوا بالرصاص على مهل، وسبحت جثثهم في بحر دمائهم، حتى القليل، الذين وصلوا بعض الصخور، صدرت الأوامر بالذهاب إليهم في قوارب، والإجهاز عليهم،

دون الإسراف في الذخيرة، فبلغت بهم الوحشية أن قاموا بطعنهم بالسونكي، وكان من ضمن الضحايا أطفال كثيرون، تشبثوا، وهم يموتون، بآبائهم، صف الأحياء من الأسرى متاريس من جثث رفاقهم، الذين استشهدوا، لتحميهم من طعنات السونكي "!.

بعد خمسة أسابيع من تلك المذبحة، طوَّق جيش والي دمشق قوات كليبر، في جبل طابور، جنوب بحيرة طبرية، واستمر يحاصره عشر ساعات، حتى كادت ذخيرته تنفذ، واستبد العطش بجنود الفرنسيين، لكن بونابرت أنقذ قوات كليبر، بفرقة، قادها بنفسه، وأطلق المدافع، فبدأ جيش والي دمشق بالانسحاب، ليتوقى المدفعية، فأصبح هدفًا سهلاً لجنود كليبر، الذي أمرهم بمطاردة ذاك الجيش، فخاضوا البحيرة، لا ليشربوا، ولكن لِيَقتُلوا. وكتب أحد الجنود الفرنسيين، في مذكراته: " كنا نموت ظمًأ. ولكن ظمأنا للانتقام، أطفأ ظمأنا للماء، وألهب ظمأنا للدماء، فخوضنا مياه البحيرة، ولم نعد نفكر في الشراب، بل في القتل، وصبغ البحيرة بدماء هؤلاء الهمج، حتى امتلأت بجثثهم "!.

في ذلك الوقت، طبع بونابرت منشورًا لأهل فلسطين، قال فيه: " وسيكون الدين، على الأخص، موضع الحماية، والاحترام، لأن جميع الطيبات من عند الله ... والنصر من عند الله "!. فيما أثمرت جثث أهل يافا المتعفنة في شوارعها، ومتاريس جثث الجنود الأسرى التي ظلت على الشاطئ، وأسفل جبل طابور، عن مرض الطاعون، الذي ما لبث أن كان من أهم أسباب هزيمة بونابرت وجنوده، تحت أسوار عكا [٣٠].

أعاد بونابرت المصريين، الذين كانوا في يافا، بعد أن فشل في ضمهم إلى الجيش الفرنسي، وكان بينهم السيد عمر مكرم، الذي هاجر إلى يافا، بعد معركة الأهرام [٣١].

بونابرت وفكرة الوطن القومي:

لم يهمل بونابرت القدس، بل كانت في حسبانه، وقد نظر إليها من الوجهة العسكرية، دون الدينية، فطلب من حامية القدس تسليمها، فأجابته بأن مدينه القدس تابعه لعكا، فمتى فتحها تسلم إليه [٣٢].

الجدير بالذكر أن بونابرت ربط بين الوطنية، السباق الاستعماري، المسألة الشرقية، المسألة اليهودية، إذ أن يهود العالم موزعين، والحديث عن " العودة إلى فلسطين " نداء يتردد على لسان الحاخامات، بين حقبة وأخرى، ربما مرة كل ثلاثين أو أربعين سنه، ولم يؤخذ هذا النداء مأخذ الجد؛ لأن العودة خلط متعسف للأسطورة بالتاريخ، لكن المسألة اليهودية، في القرن التاسع عشر، أخذت على محمل آخر، فهي ذلك الاضطهاد الواقع على اليهود في أوروبا، وكانت موجات الهجرة من الشرق هي النقطة الحرجة من " المسألة اليهودية "، فلا مسيحيو الغرب يريدونهم، لضيق صدورهم باليهود المقيمين في بلادهم، كما أن يهود الغرب أنفسهم يرفضون وجودهم أكثر من المسيحيين، فهم نجحوا بالكاد في صرف الأنظار عن وجودهم، وتلك الهجرة سوف تثير حساسية أوضاعهم مع المسيحيين، مرة أخرى. ومن هنا بدأ بونابرت يأخذ عدة خطوات، استغل فيها شغف اليهود، وتدهور حالهم في أوروبا، وربط بين ذلك وبين قضايا القرن،

لتنفيذ استراتيجيته وأطماعه الاستعمارية. مستعملاً ظاهرة " الوطنية " في إيقاظ الوعي لدى اليهود، في حق تقرير مصيرهم، ومطالبتهم " بوطن قومي "، ينقذهم من الشتات، ويريح أوروبا من عبء الهجرة المتدفقة اليها من يهود شرق أوروبا. كما عزف بونابرت على الوتر الديني اليهودي، وأساطيره، لتكون فلسطين وطن اليهود المختار، من أملاك الخلافة العثمانية الواهنة، ويتسابق الكل على إرثها. فإذا نشأت دولة يهودية برعاية فرنسا في فلسطين، تكون نقطة البداية، لتنفيذ خطة السيطرة على قلب الخلافة العثمانية، قبل أن تنتبه القوى الأخرى، وتتحرك إليها [٣٣].

بونابرت رائدا:

يعد بونابرت أول رجل دولة، في العصر الحديث، يقترح إقامة دولة يهودية في فلسطين، قبل " وعد بلفور " بـ ١١٨ سنة، بل إن الرمز الصهيوني حاييم وايزمان وصف بونابرت بأنه " أول الصهيونيين الحديثين غير اليهود ". اختار بونابرت الوقت المناسب للاعتراف بحقوق اليهود المزعومة، وذلك لخدمة مصالحه في حملة على الشرق. ففي ربيع عام ١٧٩٩، وبينما بونابرت على أبواب عكا، أصدر بيانًا طلب فيه من يهود أفريقيا وآسيا أن يقاتلوا تحت لوائه، لإعادة إنشاء مملكة القدس القديمة [٣٤]. ثم أظهر بونابرت ورقته اليهودية أمام أسوار القدس، نداء إلى يهود العالم، تم توزيعه في فرنسا، وإيطاليا، والأمارات الألمانية، وأسبانيا، مما يشير إلى أن القضية ليست ظرفًا محليًا واجهه بونابرت عند أسوار القدس. ورغم أن بونابرت لم يكن يهوديًا، ولا مواليًا لليهود، فلم

تكن ورقته اليهودية ونداءه ليهود العالم من خارج أسوار القدس أكذوبة، كحال ورقته الإسلامية، التي وجهها للمصريين، إبان دخوله بحملته إلى مصر، فعدد من وجه إليهم ورقته الإسلامية يفوق المليونين، في استطاعتهم أن يجعلوا مصر مصيدة لجيوشه، وليس رأس جسر، لذلك كانت ورقته خديعتهم.

أما ورقته اليهودية فتختلف؛ لأن اليهود في فلسطين لم يزد عددهم عن ١٨٠٠ شخصًا، طبقًا لتقرير مرفوع لبونابرت من ضباطه، منهم ١٣ في مدينه القدس، لم يكن في مقدورهم أن ينصروه، ولا أن يخذلوه، لذلك لم تكن ورقة بونابرت لليهود أكذوبة، أو خدعة سياسية، على غرار ورقته الإسلامية، بل هي رؤية لإمبراطور يملك حسًا استراتيجيًا نابهًا وبعيدًا [٣٥].

جاء نداء بونابرت ليهود العالم، على أنه من القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسيا، إلى " ورثة فلسطين الشرعيين "، وأنهم " الشعب الفريد " وحثهم على التمسك بوطنهم القومي، فهذا هو الوقت المناسب لذلك، وأن " العناية الإلهية ترعاهم وأرسلت إليهم بونابرت " لكي يحقق لهم حلم أجدادهم في استعادة أرضهم المغتصبة، من آلاف السنيين... إلخ [٣٦].

لم تكن هذه الورقة اليهودية هي أول نداء ليهود العالم من أجل أخذ " إرثهم الفلسطيني " المزعوم، بل سبقتها ورقة غير رسميه أخرى، عشية حملة بونابرت إلى الشرق، هيأت الساحة لتلك الورقة، انتشرت بين اليهود الإيطاليين، الذين اعتبروا بونابرت " محررهم العظيم "،

وتضمنت الورقة غير الرسمية خططًا مفصَّلة عن بعث اليهود كأمة. وظهرت الرسالة مطبوعة في فرنسا وإنجلترا، حيث كان ممثلو الرأسمالية الإنجليز يرقبون حملة بونابرت، والغيرة تملأ قلوبهم، ويلقون بالتبعية على الساسة الإنجليز، لإضاعة الفرصة من أيديهم. وفي إبريل/ نيسان عام ١٧٩٨، نشرت إحدى الصحف الفرنسية رسالة عبَّرت عن قناعتها بأن اليهود سيدعمون فرنسا في فلسطين، لتحمل نفقات الثورة في سوريا ومصر. ولعل من الأهمية بمكان أن مقدمة البيان خاطب اليهود، بشكل مباشر، على أنهم " الورثة الشرعيون لفلسطين ". ما أعاد إلى الأذهان نبوءات (أشعياء، ويوئيل) التوارتية، عن عودة اليهود إلى صهيون ". والأهم من ذلك أن الرسالة غير الرسمية تحدثت عن حدود دولة إسرائيل المقترحة، بعبارات تجارية أكثر منها توراتية: إن الدولة التي تنوي إقامتها ستشمل، بالاتفاق مع فرنسا؛ " مصر السفلى، بالإضافة إلى منطقة يحدها خط يمتد من عكا إلى البحر الميت، وهذا الموقع الذي يعد أكثر المواقع فائدة في العالم، سيجعلنا، عن طريق السيطرة على ملاحة البحر الأحمر، سادة تجارة الهند، والجزيرة العربية، وجنوب وشرق إفريقيا، والحبشة، وأثيوبيا " [٣٧].

أراد بونابرت كسب ولاء اليهود، لتمويل حملته المتجهة إلى الشرق، فهؤلاء اليهود قدموا قروضًا مالية للحكومة الفرنسية، وهناك، أيضًا، حاييم فارحي، اليهودي الذي يمثل العصب المالي والتمويني لمدينة عكا [٣٨].

لم يسع بونابرت لحل القضية اليهودية، بدافع من حبه للآخرين، ولم يكن يريد إنشاء " وطن قومي " لليهود، بل لأن مثل هذه الدولة تنسجم واهتمامه السياسي، وتعد من أهم الركائز الأساسية لتنفيذ استراتيجيته، وخططه الاستعمارية لدول الوطن العربي. لكن السؤال: هل اليهود يدركون ذلك، وهل حاولوا هم، أيضًا، استغلال احتياج بونابرت لهم؟.

حصار عكا:

بعد أن ألقى بونابرت بيانه التاريخي ليهود العالم، على أبواب القدس، توجه بجنوده إلى عكا، لمحاصرتها، فهي العاصمة، والقلعة، ورأس الجسر، الذي يعبر منه لتكملة مسيرته الاستعمارية، لكن هيهات أن يحقق حلمه، وهناك ذلك الجزار، الذي ولد سنة ١٧٣٥ في بلاد البوشناق، فهو نصراني، بالولادة، اقترف وهو صبي، جرمًا أخلاقيًا، فر، على أثره، إلى القسطنطينية، وباع نفسه إلى نخاس يهودي، وسمى نفسه أحمد، وانتهى به الأمر مملوكًا عند علي بك في القاهرة، الذي عيَّنه جلادًا. وقد أظهر أحمد من التفنن في إنفاذ مهمته، ما أكسبه لقب " الجزار "، وكان شديد التفاخر بهذا اللقب، حريصًا على أن يكون جديرًا به [٣٩]. وقد اتبع الجزار سياسة إلقاء الفتن بين المشايخ والأمراء، وكان طائش السيف، ظالمًا، فسخط عليه عامة الشعب، والحكام في مصر، ففر إلى الأمير يوسف الشهابى في سوريا.

في سنه ١٧٧٠ قام بتحصين مدينة بيروت، ومنع أهل جبل لبنان من دخولها، وعزم على العصيان، ففطن لذلك الأمير يوسف، وهم بأن يبطش به، إلا أن الجزار خضع له، وأطاعه، ثم جاهر بالكفران عليه، وغلبه،

كما أزال إمارة علي بن ظاهر العمر، بقتله، واستحوذ الجزار على ما كان يملك العمر وأهله من المقاطعات، واتخذ من عكا عاصمة له، وبنى عليها سورًا، وجامعًا كبيرًا (٤٠). أصبح الجزار صاحب النفوذ الأول في سوريا، عدا حلب، وتولى إمارة الحج. ولكن لقسوته تعرض لعدة ثورات، منها ثورة الأمير يوسف، الذي انضم إليه الدروز، والثوار، وانتصروا، في البداية، ثم سرعان ما هزمهم الجزار (٤١). وما فتئ الجزار يقْتل، ويذبَح، ويثير الفتن بين المشايخ، حتى زادت ثقة الدولة العثمانية به، واعتمدت عليه، فازداد بطشًا وإرهابًا للناس (٤٢).

استمر الجزار في القضاء على خصومه، ومنافسيه، بلا رحمة، ولا شفقة، ولا يزال اسمه مرادفًا للقسوة البالغة. فقد ذكر ميخائل شاقة (*)، أن جده، الذي كان موظفًا في الحكومة شاهد يومًا، أكثر من أربعين رجلاً يُصفون خارج أسوار المدينة، لينفذ فيهم حكم الإعدام، بالخازوق، أورد المؤرخ نفسه أن الجزار أرتاب يومًا، بعد رجوعه من الحج، بتصرف حريمه، وعددهم ٣٧ امرأة، فأمر بحرقهن جميعًا (٤٣).

يعد الجزار من أهم الزعماء، في تلك المرحلة، التي اتسمت باحتدام الصراع بين دول الغرب والدولة العثمانية. أثناء تولي الجزار على صيدا، تصدى للفرنسيين، حيث اتبع سياسة وطنية للتجارة، فقام بطرد الجالية الفرنسية، التي كانت تحتكر التجارة فيها، وتحيا حياة البذخ والتبذير، إذ كانت تجارة منطقة سوريا وفلسطين مورد غنى للفرنسيين، كسبوا منها ثروات طائلة، وعلاوة على احتكارهم التجارة، فإن ثمة أسباب أخرى، وسَّعت هوَّة الخلاف بين الجزار والفرنسيين، منها سوء

أخلاق هؤلاء التجار المقيمين في صيدا، وغيرها، وتعديهم المستمر على الآداب، وأيضًا تشجيع التجار الفرنسيين القراصنة المالطيين على مهاجمة السفن العثمانية، لمنع التجار العثمانيين من مزاحمتهم، ولكي يحتكر الفرنسيون الأسواق المحلية، والتحكم في الأسعار [٤٤].

استحوذ القلق على الجزار، بنزول بونابرت مصر، وبدأ باتخاذ الاحتياطات اللازمة، وحث المسلمين على " الجهاد "، وتحالفت الدولة العثمانية مع الإنجليز، ووصل الأسطول الإنجليزي، بقيادة سيدني سمث، إلى عكا. وبعد أن وصلت أخبار يافا للجزار، صمم على المقاومة، معتمدًا على أسوار عكا، وبراعة جنوده، وعزز ذلك بخبرة فيليبو الفنية، وهو أحد النبلاء، الذين أجبرتهم الثورة الفرنسية على مغادرة فرنسا، قدمه له سيدني سمث، كمهندس حربي مختص بفن التحصين، والدفاع في حالة الحصار، وأيده في توصياته الخاصة ببناء سور داخلى، للإيقاع بمن يخترق السور الأول، أثناء الحصار.

أرسل بونابرت برسالة إلى الجزار، قال فيها إنه أتى لحماية المسلمين، ومحامل الحج الشريف، وللإبقاء على الصلاة، و " سوف تكونوا آمنين، وتفتحوا البنادر والمتاجر ". لكن الجزار لم يستمع إليه. فهو يخشى بونابرت، وإن كان لا يصدقة [٤٥].

وصل بونابرت عكا، في ١٨ مارس/ آذار، وكانت محاطة بأسوار وأبراج، وخندق عميق وعريض، وينقل الماء إليها بقناة محكمة البناء، ويدافع عنها حوالي سته آلاف جندي، وفيها حوالي ٣٠ مدفعًا، في الوقت الذي لا تتعدى فيه المدافع الفرنسية الاثنى عشر، سلطها بونابرت على

البرج الرئيسي في الزاوية الشرقية لعكا [٤٦].

تولى الجزار الدفاع البري، والأميرال الإنجليزي، سيدني سمث، الدفاع البحري، وكان الجنود العثمانيون يفدون بكثرة، على الجزار، واستماتوا في الدفاع عن عكا، بعد أن اطلعوا على أنباء ما فعله بونابرت بحامية العريش، وغزه، ويافا. ولم يستطيع بونابرت استمالة أي من الأمراء، لخوفهم من بطش الجزار، وشدته. فأثناء حصار عكا أرسل بونابرت فرقًا إلى القاهرة، وصفد، ووقعت معركة بين الفرنسيين وجنود الأتراك، وحول جبل طابور، وهزم العثمانيين، وجاء بعضهم للتفاوض مع بونابرت [٤٧]. ووعد بونابرت إثنان من أبناء ظاهر العمر، الذي قام الجزار بقتله، ومعه خمسون شيخًا محليًا، منشقين على الجزار، أنه سيعيده إلى قصر أبيه، الذي اغتصبه الجزار، وتقديم المناصب والمؤن إليهم. واتصل بالأمير بشير الثانى الشهابى، أمير الدروز بجبل لبنان، لطلب المؤن، وحرص بونابرت على عدم مصادرة مؤن فلاحي فلسطين، لكي لا يثوروا ضده.

في ٢٧ مارس / آذار، تسلق جنود بونابرت أسوار عكا، ولكنهم صُدوا، بقوه، وتكبدوا خسائر جسيمة، إن جنود عكا ردوا بهجوم مضاد، كبدوهم خسائر كبيرة، عكس ما كان يعتقد بونابرت بأنه سوف يحتل عكا في الهجوم الأول، بدأ التذمر ينتتشر بين جنود بونابرت، بسبب عدم استطاعتهم احتلال عكا، بعد ردهم على هجوم الجزار، في ٢ إبريل / نيسان، وتكبدهم خسائر فادحة [٤٨].

حرص بونابرت على احتلال المناطق المجاورة لعكا، ترقبًا للهجوم العثماني، فأرسل الجنرال فيال، في ٤ إبريل / نيسان، أربعة آلاف جندي إلى صور، واحتلها، ونزل فيها بعض الجنود، ثم وجه قوات إلى طبرية، وأرسل الجنرال مورا، لاحتلال قلعة صفد، بهدف تأمين الطريق بين دمشق وفلسطين، والجنرال جينو إلى الناصرة، لمراقبة الطريق عبر نهر الأردن [٤٩].

في ١٦ إبريل/ نيسان، استولت قوتان عثمانيتان، قدمتا من دمشق، بقيادة عبد الله باشا، والى الشام، وجنود مماليك، بقيادة إبراهيم أغا، وجنود آخرين من سوريا، ومصر، والأتراك، وفلاحـي نابلس، والمغرب على طبرية، وقريه لوبية، وسيطروا على طريق طبرية - الناصرة.

اتجه كليبر من عكا إلى الناصرة، بناء على تعليمات بونابرت، في ٩ إبريل/ نيسان، لمساندة جينو في هجومه على العثمانيين الموجودين في طبرية، وكانت القوات العثمانية قد أخذت جبل طابور، وقرية الفولة، في مرج بن عامر، مركزًا لها، وكان عددهم ثلاثين ألفًا، وقوات كليبر ٥٠٠ جندى، وأربعة مدافع.

أمر بونابرت كليبر بمهاجمة القوات العثمانية، واندلع قتال بين الطرفين، وكاد كليبر أن يُهزم، لولا وصول بونابرت له، وهُزمت القوات العثمانية في جبل طابور. في ١٧ إبريل / نيسان استولى بونابرت على ذخائر ومؤن كثيرة، واستعاد صفد، واحتل طبرية، ونهب وأحرق قرى الفوله، ونورس، وجنين، وقدر خسائر العثمانيين بثلاثة آلاف، والفرنسيين بثلاثمائة، بين قتيل وجريح. وعاد بونابرت إلى عكا،

وحاصرها، وعهد إلى فرقة كليبر بحماية جسر بنات يعقوب، وحصني صفد، وطبرية من القوات العثمانية، ثم عاد، بعد ثلاثة أسابيع، إلى عكا، وبقي الجنرال جينو في الناصرة، للمحافظة على صفد، وطبرية، وفي هجوم فاشل من بونابرت على عكا، توفي على أثره قائد سلاح الهندسة الفرنسي، كافاريلي، ورد عليهم الجزار، بمساعدة الإنجليز، بهجوم مضاد، ووصلت نجدات عثمانية إلى عكا، بطريق البحر، ضمت أكثر من عشرة آلاف مقاتل، حاول بونابرت منع وصولها، ولكن، وصلت، بعد بعض الخسائر [٥٠].

بثبات الجزار، وشجاعته الفائقة، جعلت بونابرت يجمع جنوده، وخطب فيهم خارج أسوار عكا، فقال: " هذه المدينة هي مفتاح الشرق، فاعلموا حرج مركزكم، ووحدوا عزائمكم على امتلاكها؛ لأنكم بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق، فتدخل القسطنطينية، عاصمة قياصرة الروم، ونملك شرقي أوروبا وشماله، فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم ". ما ألهب حماس جنوده، فاقتحموا الخنادق، وفتحوا ثغرات في الأسوار، وهزموا الحامية، ودخلوا البلدة، حتى وصلوا الجامع الكبير، فخرج الجزار يقاتلهم بنفسه، ويحرض الجنود على الثبات، وكان يفتك بكل من يعمد إلى الفرار من مقاتليه، فاستبسلوا حتى ردوا بونابرت، وجنوده خائبين [٥١].

في ١١ مايو / آيار هاجم بونابرت عكا، لمدة ثلاثة أيام متصلة، انتهى بخسائر للجانبين. وفي ١٢ مايو / آيار شن الجزار هجومًا على الفرنسيين. وبانتشار الطاعون بين جنود بونابرت، وتعدد هجمات جنود

الجزار، باءت محاولات بونابرت بالاستيلاء على عكا بالفشل، فكتب لحكومته في باريس بقرار انسحابه إلى مصر، حيث رأى بأنه حتى لو استولى على عكا، فستكون مقبرة له، بسبب الطاعون، ونقص المؤن، وتصميم العثمانيين، والإنجليز، على المقاومة، حيث كان العثمانيون يعدون لإرسال جيش من أجل طرد الحملة من مصر، وحاول بونابرت التفاوض مع الجزار، وسيدني سمث، لوقف القتال، ورفضا، وتأكد بونابرت بأن عكا لن تسقط، فرفع الحصار عنها، وانسحب إلى مصر (٥٢).

لعل من أهم أسباب فشل بونابرت في احتلال عكا:

١-كان تحصين الإنجليز لعكا، ومساعدتهم الفعَّالة، التي جعلت من الحصار كأن لم يكن، بإيصال المؤن إلى عكا، وإمداد الجزار بالعتاد، كما أنزلوا إليه الأسطول العثماني، واستولوا على آلات، ومدافع الأسطول الفرنسي، وسلَّموها للجزار، كي يستخدمها.

٢-فيليمو، ذلك الفرنسى الذي حارب بونابرت، نكاية بالثورة الفرنسية، منظم الدفاع عن عكا، بشكل فني، حتى قال كليبر بأن الجزار يدافع بالطريقة الأوربية (٥٣).

٣- كان بونابرت قد بدأ في غزو فلسطين، معاصراً لتجدد التصميم من حركات المقاومة في مصر على الجهاد، ومنها واقعة مراد بك مع الفرنسيين في الصعيد، التي قتل فيها زهاء ثلاثمائة فرنسي، ما جعل موقف بونابرت في حرج، في محاولة لإخماد الانتفاضة الشعبية، في

الداخل، وصراعه مع الجزار في الخارج.

٤- كانت مشاركة أهل الحجاز، ومحمد المغربي الذي صار له جيش كبير، من ضمن العوامل، التي ساعدت في هزيمة بونابرت.

٥- موت الجنرال بون، متأثرًا بجراحه، وأيضًا، الجنرال كفرللي، الذي قام بإقامة المتاريس، والذي يصعب تولى غيره أمرها.

٦- نقض الصلح بين فرنسا والنمسا.

٧- كان مرض الطاعون، الذي فتك بالجنود، وكاد يقضى عليهم جميعًا، مع نقص المؤن، من أهم العوامل، أيضًا (٥٤).

للأسباب السابقة مجتمعة، لم يكن لبونابرت، أو كليبر مجد في عكا، فقد قال بونابرت: " لو استطعت الاستيلاء على عكا، للبست عمامة، ولجعلت جنودي يرتدون السراويل، ولجعلتهم فيلقًا مقدسًا، ولنصَّبت نفسي إمبراطورًا على الشرق، ولعدت إلى باريس، بطريق القسطنطينية ". لكن هذه الأحلام دفنت تحت أسوار عكا. المجد الذي تحقق في حملة الشام، حققته عكا، بصمودها ٦٢ يوما تحت الحصار، ونيران المدافع الفرنسية، ومع ما فتحته، من ثغرات من أسوارها، والهجوم عليها، والمذابح الوحشية التي ارتكبها جنوده (٥٥).

في ١٩ مايو/ آيار تم إجلاء ألف ومائتي جريح فرنسى بحرًا باتجاه دمياط، وأتلفت الحامية الفرنسية، بقيادة جينو، مستودعاتها في طبرية، قبل أن تنسحب إلى صفوريه. وفي عكا أتلف الفرنسيون مدفعيتهم الثقيلة، ولم يفتهم هدم الأقنية التي تزود عكا بالماء.

في ٢٠ مايو / آيار انسحب بونابرت من عكا، دون أن يحقق حلمه في الاستيلاء عليها، وقامت فرقة كليبر، والفرسان، بحماية المؤخرة، إلى أن يتم الانسحاب، فغادرتا عكا، وهدما الجسور على نهر كيسون.

خلّف بونابرت وراءه في حيفا حوالي مائة من الجرحى والمرضى الفرنسيين، وآخريين في خنطورة، وصادر جياد الجند، لنقل المرضى، وأتلف ذخائر، ومدفعية أخرى، تعذر نقلها لمصر.

في ٢٣ مايو/ آيار وصل بونابرت إلى قيادية، وأتلف جزءًا آخر من مدفعيته، وبطش بأهلها، عندما حاولوا مهاجمة الحملة.

في ٢٤ مايو/ آيار وصل بونابرت إلى يافا، وأقام فيها أربعة أيام، أتلف خلالها تحصين لهم، ومستودعاتهم، في الوقت الذي مات فيه نصف حامية يافا من الطاعون، علاوة على ألف جريح، ومصاب، نُقل منهم ثلاثمائة، عن طريق البحر، وقُتل بعضهم بالسم.

فرض بونابرت على أهالي يافا غرامة، قدرها ١٠٧ر١٧٤ليرات ذهبية، حصَّلوا على ٦٠٨ر٨٥، فورًا، وأخذوا الرهائن، حتى يدفع المبلغ الباقي. وأحرقوا المراكب في ميناء المدينة. وغادر بونابرت يافا، في ٢٨ مايو/ آيار، وتخلّف كليبر، يومًا، لحماية المؤخرة، وقام جنوده بسرقة القرى، وحرقها، إذا هاجمتهم، ووصل غزه، في ٣٠ مايو/ آيار، وتوقف فيها يومين، لفرض الضرائب على أهلها. وترك فيها عددًا من المرضى المصابين بالطاعون، بعهدة أعيان المدينة، وأخذوا منهم الرهائن، وصل

بونابرت خان يونس، في ١ يونيو/ حزيران، ومنها للعريش، ثم إلي قطبة.

وصل بونابرت القاهرة، في ١٤ يونيه / حزيران ١٧٩٩، بعد قرابة أربعة أشهر ونصف، قضى منها في فلسطين حوالى ثلاثة أشهر ونصف، أسفرت عن خسائر في جنوده، كالآتي: عدد القتلى والمتوفين ٤٤٠٠، منهم ٣٩٢٠ قتلى ومتوفون بسبب جروحهم، ٤٨٠ متوفى بسبب الطاعون، ٢١٥٠ جريح. فيكون مجموع الإصابات ٦٥٥٠، وكان مجموع أفراد الحملة، في بدايتها، ١٢٩٤٥ [٥٦].

هكذا عاد بونابرت إلى القاهرة، بعد أن نقص جيشه، بمقدار الثلث، لكنه قام بتنظيم استقبال ظافر. وأصدر بيانًا باللغة العربية، لإبلاغ سكان القاهرة بأنه لم يعد ثمة حجر فوق الآخر في عكا، " إلى حد أنه يمكن للمرء أن يتساءل، فيما إذا كانت توجد مدينة في هذا المكان من قبل ". وظهر بأن القائد العام الذي لم يفلح في استخدام ورقة العربية عاد، مرة أخرى، للإسلام. فقد أوضح بأنه " يحب المسلمين، ويحترم النبى ". ويعتزم " بناء جامع، لامثيل له في العالم ". بل حتى " سيعتنق الدين الإسلامي " [٥٧]!.

بيد أن القصة لم تكتمل فصولا.

كليبر يخلف بونابرت:

عاد بونابرت، سرًا، إلى فرنسا، في ١٨ أغسطس/ آب ١٧٩٩، وأشاع بأنه يقصد الذهاب إلى منوف، بحجة التفتيش على أحوال البلاد

.[٥٨]

إنه بونابرت نفسه، الذي جاء، قبل ذلك بثلاث سنوات، ليبني إمبراطورية فرنسية شرقية، تضرب إنجلترا في الصميم، وتقطع طريق تجارتها إلى الهند. ضاع كل هذا، ومعه نصف جيشه، تحت وطأة، الطاعون، والثورات، وأمام أسوار عكا.

خلفه كليبر في التركة المثقلة بالديون، حتى وصل العجز في خزانة الحملة الفرنسية، إلى عشرة ملايين من الفرنكات، وتدهورت معنويات قوات الحملة، فهل يستطيع كليبر الخـروج من المحنة؟ [٥٩].

لقد اختار كليبر لنفسه أسلوبًا آخر، يختلف عن بونابرت، فأحاط نفسه بمظاهر الأبهة والجبروت، متخيلاً بأنها تؤثر في العرب، وفرض على الشعب أن يؤدى له ما كان يؤديه للباشوات والولاة المماليك من مظاهر الإجلال والتكريم [٦٠].

بطش كليبر بالمصريين " قتلاً، وحرقًا، وسبيًا للنساء، والبنات، والغلمان ". وأفلس البلاد، بالغرامة الوحشية، كما زرع الأحقاد التي تهدد وجود الأمة، ووحدتها، وتحولها إلى نفاية، فإذا بالأمة تقذفه إلى الفناء، على يد سليمان الحلبى [٦١].

ولد سليمان محمد آمين الحلبى، في حلب، عام ١٦٩١هـ / ١٧٧٧م، لأب تاجر زبد بمدينة حلب السورية. وهو شاب كثير التجوال، عاش ثلاث سنوات في مكة، والمدينة، ودرس بالأزهر، ثلاث سنوات متصلة، على يد الشيخ مصطفى أفندي، وزار القدس، ونابلس، وغزه.

في بداية عام ١٨٠٠ رحل سليمان من حلب إلى فلسطين، مكدودًا وضائقًا لما فرضه والي حلب العثماني، إبراهيم باشا، على أبيه من غرامة كبيرة، وحاول سليمان البحث عن عمل، وقضى خمسة أشهر، بجوار المسجد الأقصى، وعلم سليمان بما فعله بونابرت بأهل يافا، وجنودها، وبحامية دمشق، ومعسكر العريش، وشاهد سليمان آثار التدمير بنفسه. ذهب سليمان إلى أحمد أغا، محافظ القدس، نهاية مارس/ آذار ١٨٠٠م، يشكو ما يلاقيه والده الحاج محمد أمين من اضطهاد، وضرائب، وغرامات، من محافظ حلب، وتعددت اللقاءات بينهما، وطرح مشروع اغتيال كليبر نفسه على لقاآتهما.

توجه سليمان إلى القاهرة، لتنفيذ مهمته، وطلب منه أحمد أغا السفر إلى غزه، ليلتقى شخصًا اسمه ياسين أغا، الذي سيقدم له المساعدات اللازمة لتنفيذ المهمة. غادر سليمان القدس إلى الخليل، ظل بها عشرين يومًا في انتظار قافلة يرافقها إلى غزه، ليكون في مأمن من قطّاع الطرق، ووصل إلى غزه، في نهاية إبريل / نيسان ١٨٠٠م، والتقى بياسين أغا، الذي كان على علم بمهمة سليمان، ورتب له إقامة مؤقتة في جامع غزة الكبير، وتردد عليه، عدة مرات، ليلاً، للتباحث، ووعده ياسين برفع الاضطهاد عن أبيه، وأن يشمله بحمايته، وأعطاه مصاريف سفره، وأوصاه بالحذر، والكتمان، وألا ينفذ المشروع، إلا بعد أن يتأكد من نجاحه. واشترى سليمان الخنجر، الذي قتل به كليبر، من غزه، والتحق بأول قافلة من غزه إلى القاهرة، محمَّلة بالصابون، والدخان، واصلت السير، لمدة ستة أيام، قضاها سليمان على ظهر هجين.

وصل سليمان القاهرة، في منتصف مايو/ آيار ١٨٠٠م، ولا تزال آثار الحريق موجودة في كل شوارعها، فحطَّت القافلة في قرية بجوار الجيزة، لمنعها من دخول القاهرة، لظروف المدينة [٦٢].

دخل سليمان القاهرة، في ١٤ مايو/ أيار ١٨٠٠ م، واستضافه، لمدة قصيرة، الشيخ مصطفى أفندي، أستاذه، الذي تعلم على يديه الخط، وحفظ القرآن، قبل ثلاث سنوات.

نقل سليمان إقامته إلى الجامع الأزهر، والتقى بأربعة من أصدقائه، جميعهم من غزه، طلاب فلسطينيين في الأزهر، وهم عبد الله الغزي، وأحمد الوالي، ومحمد الغزي، وعبد القادر الغزي، الذين سهَّلوا له إقامة في الأزهر، دون إخطار السلطات الفرنسية [٦٣].

مكث سليمان شهرًا بالأزهر، قبل قتله كليبر، لمس عن قرب اضطهاد، وإهانة، وتعذيب كليبر للشيخ السادات، الذي تزعم ثورة القاهرة الأولى، والمحرِّض على الثورة الثانية، من فرض غرامة، مالية كبيرة عليه، واعتقاله، وتعذيبه، وضربه أمام زوجته، التي حبسوها معه، ومصادرة أمواله، وبيع أملاكه، لدفع الغرامة التي فرضها كليبر عليه، ناسيًا مقامه، كرجل دين، ونسبه، ومولده، المستمد من السلالة النبوية، فعم السخط رجال الشارع، وعلماء الدين، والشعب، ناهيك عما تكبده الشعب، بكل طوائفه، من مهانة، ونهب لأموالهم، وفرض غرامات، واعتقال لأعيانهم، وقتل أبنائهم [٦٤].

هكذا وجد سليمان القاهرة في أسوأ أحوالها. ورغم الصعوبات التي انتصبت في وجه تنفيذ مهمته، فإنه ظل يبحث ويدرس أنسب مكان، ووقت، لاغتيال كليبر. حتى جاءت اللحظة الحاسمة، في يوم ١٤ يونيه/ حزيران ١٨٠٠م، أثناء تفقد كليبر بصحبة المسيو بروتان، المهندس المعماري، وعضو لجنة العلوم والفنون، أعمال الترميم في دار القيادة العامة، ومسكن القائد العام الخاص به، لإزالة آثار الإتلاف، الذي أصابها من جراء ثورة القاهرة الثانية، إذ خرج عليهما سليمان، واقترب من كليبر، كمن يريد أن يستجديه، أو يتوسل إليه، فلم يرتب فيه، ولم يلتفت إليه، فعاجله سليمان بطعنة خنجر مميت، أصابته في صدره، ثم تلتها عدة طعنات قاضية عليه، وعلى آماله في تخليد مركزه، وتحقيق مشروعاته السياسية، والحربية، في وادي النيل، ولاذ سليمان بالفرار، مختفيًا في حديقة السراي[٦٥].

اتجهت أنظار الفرنسيين، في بادئ الأمر، إلى اتهام العلماء، الذين قاموا بالتحريض على ثورة القاهرة الثانية، ففتشوا بيوتهم، ولم يجدو ما يدينهم[٦٦].

انتشر خبر مقتل كليبر، بسرعة البرق، وتلقاه الأهالي بالدهشة، والجزع الشديدين، لتوقعهم الانتقام، والنكال، وتلقاه الفرنسيون بالغضب، والسخط، والتحفُّز للإنتقام، فتجمع الجنود ينادون بالأخذ بالثأر، ويهددون بإحراق المدينة، ويضربون، ويقتلون من صادفهم من الرجال، والأطفال، فخلت الطرق من المارة، وأغلقت المحلات أبوابها، وأخذت دوريات الجنود تجوب الشوارع للبحث عن سليمان، وبعد ساعة عثروا على

سليمان، مختبئًا في الحديقة الملاصقة لدار القيادة، وأُرسل إلى دار أركان الحرب، مع اثنين من ضباط الحرس الملازمين للجنرال كليبر، حيث كان قواد الجيش مجتمعين، بعد ضربه، وتعذيبه [٦٧].

انتهى التحقيق، في اليوم نفسه، وتحدد اليوم التالي (١٥ يونيو/ حزيران ١٨٠٠) لبدء المحاكمة، وأصدر الجنرال مينو، خليفة كليبر، أمرًا بتشكيل المحكمة من تسعة من قادة الجيش الفرنسى، وأشرف مينو على التحقيق، بنفسه.

في الجلسة الأولى أجرى التحقيق، وجمعت أدلة الاتهام، وأسفر اتهام سته أشخاص، هم: سليمان الحلبى، والأزهريين الأربعة، محمد الوالي، عبد الله الغزي، عبد القادر الغزي، ومحمد الغزي، وأستاذه الشيخ مصطفى أفندي، الذي نزل عليه عند وصوله القاهرة.

انعقدت المحكمة، في ١٩ يونيو/ حزيران ١٨٠٠، وأدانت سليمان، الذي قال، بعد تعذيبه، إن اسمه سليمان، عمره ٢٤ عامًا، صناعته كاتب عربي، وسكنه حلب، واعترف بقتله كليبر، ومن أهم ما قاله، بعد أن رفعوا عنه الضرب، إنه جاء من غزه إلى مصر، ليغازي في سبيل الله.

لم يحلم البطل سليمان بمجد، فجاءت كلماته بسيطة، ومعبِّرة لهدفه الواضح، الجهاد في سبيل الله. ظل البطل صامتًا هادئًا، أثناء محاكمته، رجل فعل ما يريد، ولا يعنيه ما يجري حوله. ولو تكلم هذا البطل، لنقلت جثة كليبر إلى قفص الاتهام، ليعرف، حقًا من هو صاحب اليد الأثيمة المغتصب، ومن هو القائد الجليل؟! [٦٨].

حكمت المحكمة بحرق يد سليمان اليمنى، ثم يوضع على الخازوق، حتى يموت، ويترك لتنهش الطيور جسده، والحكم على الشيوخ الأربعة، بقطع رؤوسهم، لاشتراكهم في الجريمة، بعدم إبلاغهم، رغم علمهم مسبقًا بها، والإفراج عن الشيخ مصطفى أفندي.

تم تنفيذ حكم الإعدام في ثلاثة من الشيوخ، وإحراق جثثهم، أمام سليمان، وأنقذ عبد القادر الغزي، الذي لاذ بالفرار، بعد مقتل كليبر، وحكم عليه، غيابيًا.

في ١٧ يونيه / حزيران ١٨٠٠، أُنزل نعش كليبر على تل العقارب، مكان تنفيذ الحكم على سليمان الحلبي، فأطاح بارتلميى (*) برؤوس الشيوخ الثلاثة، ورفعها فوق عصا طويلة، وغرسوها الجنود الفرنسيون في أرض التل، وأشعلوا النار في جثثهم، أمام سليمان، ثم نُفّذ الحكم على سليمان، بوضع كفه الأيمن في الجمرة، ولم يتكلم البطل والنار تأكل لحمه الحي، ولكنه اعترض، عندما تعمد بارتليمي أن تطول النار مرفقه، منبهًا إياه بأن الحكم لم يذكر إلا اليد فحسب، وتشاجر معه، وأصر على حقه، وبعد ذلك بدأ في تنفيذ باقي الحكم، فقام بعملية الخزوقة، بمهارة، أحضر بارتليمي قضيبًا مدببًا من الحديد، ثم بدا في إد خالة في شرج البطل، بالدق بمطرقة خفيفة، حتى لا يحدث نزيفًا يؤدي إلى موته، قبل أن يتعذب، بما يكفي، ثم رفع الخازوق قائمًا، وعليه سليمان، ثم غرس في الأرض، لتأكله الطيور الجارحة.

عندما دفن جثمان كليبر، كان الشهيد سليمان الحلبي جالسًا على خازوقه، فوق تل العقارب، يصلي [٦٩].

استشهد البطل سليمان الحلبي، مرفوع الرأس، وشارك من قام بإصدار الحكم عليه وتنفيذه، في أن تظل رأس الشهيد مرفوعة، رغم أنفهم جميعًا، بدون أن يقصدوا ذلك.

احتفظ الفرنسيون بالهيكل العظمي للشهيد سليمان، ووضعوه في حديقة بباريس، كما احتفظوا بجمجمته في غرفة التشريح بمدرسه الطب بباريس، ثم وضعوها، بعد ذلك في متحف الإنسان، ولا يزال خنجره في مدينة كاركسون بفرنسا (٧٠).

يعد الشهيد سليمان الحلبى نموذجًا للمجاهد الإسلامي، والثوري الشرقى، الذي وهب حياته لتأكيد الوحدة العربية، من قبل قرنين.

ثمة عدة تساؤلات يثيرها هذا العمل البطولي للشهيد والبطل القومي سليمان الحلبى: هل هي حادثة فردية، انتقامًا لوالده، كما ادعى الفرنسيون، أم أثاره ما سمعه، وما شاهده من أفعال بونابرت، وجنوده، بأهل فلسطين، ومصر؟ أم كان تعذيب كليبر لأستاذه وشيخة الجليل، السادات، وراء سخطه، واندفاعه لقتل كليبر؟.

أم كانت تلك الأسباب مجتمعة، وراء تصميم الحلبي على قتل كليبر، اعتقادًا منه بأن قتل الرأس ينهي الجسد، وبالقضاء على كليبر ستنتهى الحملة الفرنسية.

أم كان البطل ضمن تشكيل وتنظيم قومي، خطط، ونفَّذ، باقتدار، عملية اغتيال القائد العام لقوات الاحتلال، التي تتميز بضخامة الهدف، مع ضآلة الخسائر، بالنسبة للتنظيم الثوري، الذي نفذها، حيث لم تسقط

سوى الخلية المنقّذة فحسب.

سواء كانت حادثة فردية، أم كانت مخططًا من تنظيم قومى، فإن الشهيد سليمان الحلبي، يعد نموذجًا للمجاهد الإسلامي، والثوري القومي، الذي وهب نفسه لتأكيد الوحدة العربية [٧١].

لقد أدى مقتل كليبر إلى ارتياب الفرنسيين بالأزهر، إذ كان يأوي إليه الشهيد سليمان الحلبي، ورفاقه، ولم يقتنع الفرنسيون بعدم علم علماء الأزهر بمقتل كليبر، فذهب الجنرال مينو، الذي تولى قيادة الحملة بعد كليبر، مع بعض أركان قيادته، وطافوا بالأزهر الشريف، وشرعوا في الحفر فيه، بحجة البحث على السلاح، فلما رأى العلماء أن الأزهر أصبح عرضه للريبة، عرضوا على الفرنسيين إغلاقه، مؤقتًا، وقد كان [٧٢].

في ١٨ أكتوبر / تشرين الأول ١٨٠١، أبحر الجنرال مينو من الإسكندرية، متجهًا إلى فرنسا، باعتباره آخر أفراد حملة بونابرت عل الشرق.

وبذا أسدل الستار على الحملة الفرنسية برمتها، سواء منها ما جعل مصر وجهته، أو ما حاول غزو فلسطين، من بعد.

* * *

مراجع الفصل العشرون

(١) عبد الوهاب كيالى، **المطامع الصهيونية التوسعية**، سلسة " دراسات فلسطينية " (٣)، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٦٦، ص ١١ - ١٢.

(٢) عبد الوهاب محمد المسيرى، **موسوعة اليهود والصهيونية**، الجزء الرابع، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(*) الغيتو: مفرد " غتوات "، وهى أحياء اليهود المسورة، والمغلقى، وقد عمت أقطار أوروبا كلها، قبل أن تنهار تحت ضربات الثورة البورجوازية، هنا وهناك.

(٣) م. محمد حسن، **موسوعة القدس**، (اسطوانة)، شركة سفير، القاهرة.

(٤) جاك فريمو، **فرنسا والإسلام**، ترجمة هاشم صالح، دار الأرض للنشر، نوقوسيا، ط ١، ١٩٩١، ص ٣٢.

(٥) عبد الرحمن الرافعى، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم**، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مكتبة الأسرة، ١٩٩٨، ص ٦٦.

(٦) ج. كرستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ترجمة فؤاد اندراوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٣ - ١٤.

(٧) محمد حسنين هيكل، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠، ط ٩، ص ٣٥ - ٣٦.

(٨) فريمو، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٢.

(٩) هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٦ - ٣٨.

(١٠) د. عبد الوهاب المسيرى، **اليد الخفية دراسة الحركات اليهودية الهدامة والسرية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠، ص ٢٥٨.

(١١) الرافعى، الجزء الأول، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٦.

(١٢) هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠ - ٣١.

(١٣) د. ليلى عنان، **الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟**، دار الهلال، القاهرة، العدد ٥٦٧، ١٩٩٨، ص ١٥٤.

(١٤) روبير سوليه، **مصر ولع فرنسى**، ترجمة لطفى فرج، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩، ص ٣٣ - ٣٧.

(١٥) هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١ - ٣٢.

(١٦) عمر الصالح البرغوثى وخليل طوطح، **تاريخ فلسطين**، مطبعة القدس، القدس، ١٩٢٣، ص ٢٤٠.

(١٧) نادر العطار، **تاريخ سورية في العصور الحديثة، دور حكم السلاطين الفعلى في العهد العثماني (١٥١٦ - ١٩٠٨)**، مطبعة الإنشاء، دمشق د. ت، ص ١٢٥ - ١٢٧.
(١٨) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثانى، الملجد الثانى، بيروت، ١٩٩٠ (د. عبدالكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (١) من مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس الميلادي إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى، ص ٧١٩ – ٧٢٠).
(١٩) **المصدر نفسه**، ص ٧٢١.
(٢٠) صلاح عيس، **حكايات من دفتر الوطن**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨، ص ٨٠ - ٨١.
(٢١) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٨.
(٢٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢١.
(٢٣) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٨، ١٢٩.
(٢٤) محمد قنديل النقلي، **المختار من تاريخ الجبرتى**، الجزء الثالث، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.
(٢٥) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢١.
(٢٦) النقلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٢.
(٢٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢١.
(٢٨) ا لنقلى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٣.
(٢٩) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٠ - ١٣١.
(٣٠) عيسى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨١ - ٨٣.
(٣١) عبد الرحمن الرافعى، **مصر في مواجهة الحملة الفرنسية**، الهيئة العامة للأستعلامات، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٤٣.
(٣٢) البرغوثى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٤.
(٣٣) هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨ - ٣٠.
(٣٤) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربى**، ترجمه أحمد عبدالعزيز، سلسلة " عالم المعرفة "، الكويت، ١٩٨٥، ص ١٠٧ - ١٠٨.
(٣٥) هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١ - ٣٤.
(٣٦) الشريف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٦ - ١٠٧.
(٣٧) **المصدر نفسه**، ص١٠٨ - ١٠٩.
(٣٨) كيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣.
(٣٩) د. فليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، الجزء الثانى، ترجمة د. كمال اليازجى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.
(٤٠) البرغوثى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.
(٤١) العطار، **مرجع سبق ذكره**، ص ١١٨.

(٤٢) البرغوثى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٩.
(*) ميخائيل شاقة أحد مؤرخي هذه الحقبة.
(٤٣) حتى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣٩.
(٤٤) ربيع فواز، والى عكا أحمد باشا الجزار (١٧٢٠ - ١٨٠٤) بعيدًا عن رسائل القناصل الفرنسيين ومذكراتهم، **الحياة** (لندن)، ٢٠٠١/٦/٢٣.
(٤٥) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٤ - ١٣٢.
(٤٦) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢٣.
(٤٧) البرغوثي، **مصدر سبق ذكره**، ٢٤٩.
(٤٨) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢٣.
(٤٩) **المصدر نفسه**، ص ٧٢٤.
(٥٠) **المصدر نفسه**، ص ٧٢٥.
(٥١) البرغوثى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.
(٥٢) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢٦.
(٥٣) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ١٣٥ - ١٥٤.
(٥٤) النقلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٨ - ٣١٩.
(٥٥) عيسى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٩.
(٥٦) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢٦ - ٧٢٧.
(٥٧) سوليه، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٦ - ٤٨.
(٥٨) عبد الرحمن الرافعى، **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر**، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ٨٠.
(٥٩) عيسى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤ - ٦٥.
(٦٠) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثانى، ص ٩٥.
(٦١) محمد جلال كشك، **ودخلت الخيل الأزهر**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٣٧٥.
(٦٢) عيسى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٤ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٧.
(٦٣) **المصدر نفسه**، ص ٧٨ - ٨٩ - ٩١ - ٩٢ - ٩٩.
(٦٤) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثانى، ص ١٥٦ - ١٥٧.
(٦٥) **المصدر نفسه**، ص ١٦١ - ١٦٢.
(٦٦) شوقى أبو خليل، **الإسلام وحركات التحرر العربية**، دار الفكر، دمشق، ط٥، ١٩٩١، ص ٣١ - ٣٣.
(٦٧) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثانى، ص ١٦٢ - ١٦٣.
(٦٨) عيسى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٦ - ٧٩.
(*) بارتليمي هو مسيحي بوناني مشرقي، انضم للفرنسيين، وقد كلف بالأعمال الخسيسة، وكان محافظ القاهرة، في ذلك الوقت.

(٦٩) **المصدر نفسه**، ص ٩٣ - ٩٩.
(٧٠) أبو خليل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣.
(٧١) كشك، **مصدر سبق ذكره**، ٣٧٥.
(٧٢) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، الجزء الثانى، ص ١٧٢.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

ابراهيم باشا في فلسطين

الفصل الحادى والعشرون:
ابراهيم باشا في فلسطين

عبد القادر ياسين

تركت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) مصر نهباً لصراعات محتدمة، بين قوى ثلاث: الانجليز، والمماليك، والقوات العثمانية، إلى أن حسم هذه الصراعات أعيان مصر، بالطلب إلى قائد القوات الألبانية، محمد على، أن يقود البلاد. لكن أعيان مصر أصروا على موقفهم، فكان لهم ما أرادوا، حين رضخ سليم لطلبهم. وهكذا غدت مصر تحت حكم من جمع بين عبقرية الزعيم السياسي، ورأى القائد العسكرى رغم أنه كان مجرد تاجر بيع أمي[١].

توالت الأحداث متسارعة، ونجحت المقاومة الشعبية في رشيد في إنزال الهزيمة بحملة فريزر الانجليزى، ١٨٠٧، فيما تخلَّص محمد على من خصومه المماليك في مذبحة القلعة (١٨١١/٣/١١) [*]، ما أفسح المجال أمام محمد على من أجل تحقيق أحلامه، مستخدماً السيف، قبل استقوائه بالتحديث، عبر البعثات التعليمية التي أوفدها إلى فرنسا، التي أرسلت خبراءها إلى مصر في شتى المجالات، دون أن ينسى محمد على مهمة تأسيس جيش قوي، قادر على تحقيق بناء دولة قوية، مترامية

الأطراف. مع اطراد ضعف الدولة العثمانية.

بعد طول إلحاح من السلطان العثماني، سير محمد على إبنه طوسون على رأس حملة عسكرية إلى الحجاز، ليخضع الوهابيين هناك سنة ١٨١١. وسرعان ما أخلى طوسون موقعه لشقيقه إبراهيم الذي مدّ نشاطه العسكري إلى نجد، فاستولى على عاصمة السعوديين الوهابيين، الدرعية، في أغسطس / آب ١٨١٨. وإن أعاد السعوديين تكوين دولتهم الثانية (١٨٢٤)، في نجد، و بقيت الحجاز في يد محمد على، الذي نجح في فرض الجزية على إمام اليمن [٢].

معروف بأن محمد علي أراد من حملته على الوهابيين (١٨١١ - ١٨١٩) تحقيق جملة من الأغراض، فأولاً ثمة التمكين لسلطته، ورفع شأنه وشأن مصر، و إعلاء مكانتها، بعد أن أخفقت كل الحملات العثمانية، وثانياً التخلص من طوائف الجنود الأرناؤوط والولاة، الذين استمرأوا التمرد، وثالثًا فإن هذه الحملة أطلقت يد حكومة محمد علي في فرض ما تشاء من الضرائب و الإتاوات [٣].

عمد السلطان العثماني، محمود، إلى ترقية ابراهيم باشا بثلاثة ذيول، ربما ليوغر صدر أبيه عليه، بعد أن غدا الابن أعلى رتبة من أبيه. فيما رفض محمود منح محمد علي حكماً دائماً في سوريا. حوَّل الأخير بصره جنوباً، حيث السودان الغني بخيراته، وأقام فيه المماليك، خصوم محمد علي، دولة لهم في دنقلة شاغبوا منها على التجارة النهرية. وعدا الدوافع السياسية والتجارية التي حفت بتطلع محمد على إلى السودان، ثمة دافع إرضاء ضباط قواته الألبانية بالمناصب هناك. وفي ١٨٢١ أرسل محمد

على حملة إلى السودان، بقيادة ابنه إسماعيل، أتبعها بعمليتين أُخريين، أولاهما بقيادة ابراهيم، و الثانية بقيادة محمد زوج ابنة محمد على، و إن خيَّب فتح السودان آمال محمد علي، أولاً لفقر مناجم الذهب هناك، وثانياً لقلة عدد السودانيين الذين التحقوا بجيشه [٤].

في سنة ١٨٢٥، طلب السلطان محمود من محمد علي الإجهاز على تمرد في اليونان، وتمكنت تلك القوات من سحق التمرد، بعد سنتين. إلا أن الدول الأوربية تكالبت على العثمانيين و المصريين، فدمرت أسطوليهما، في معركة نقارين البحرية (٢٠/١٠/١٨٢٧). وبعد خمس سنوات غدت اليونان دولة مستقلة [٥].

من التوجه إلى الفعل:

كافأ السلطان العثماني واليه على مصر، بمنحه جزيرة كريت، لكن محمد علي ظل يرنو إلى حكم سوريا. مادفعه إلى إرسال ابنه، ابراهيم باشا، على رأس حملة عسكرية، لانتزاع سوريا من أيدي العثمانيين. ويعتبر مؤرخ مصري معاصر حملة محمد على سوريا دفاعية و هجومية، في آن، لأن الأستانة ظلّت تسعى لاسترداد مركزها في مصر، كما يستحيل الاطمئنان إلى استقلال مصر بدون تأمين الحدود السورية، لأن حدود مصر " ليست في السويس، بل في طوروس "، على حد تعبير أحد أهم مستشاري محمد على الفرنسيين، كلوت بك. و الحملة على سوريا هجومية، أيضاً، لغرض التوسع في الفتح و السلطان، وصولاً إلى إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر، تضم إليها البلاد العربية في إفريقيا (السودان)، وفي آسيا (الجزيرة العربية، وسوريا). إلى ذلك ثمة أغراض

اقتصادية لمحمد علي من حملته على سوريا، لعلّ في مقدمتها استغلال مواردها من الخشب، والفحم، والنحاس، فضلاً عن تطلُّع محمد على إلى تجنيد السوريين في جيشه. فيما كانت تركيا قد خرجت مضعضعة من حربيها مع اليونان، وروسيا (١٨٢٩)، ناهيك عن كراهية السوريين للحكم العثماني. دون أن ينفي هذا كله وجود أسباب مباشرة، أقل أهمية، مثل تدفُّق الهاربين المصريين من السُخرة، و الضرائب و الجندية إلى سوريا، حتى قُدِّر عددهم بستة آلاف والذين امتنع والي صيدا عبد الله باشا عن إعادتهم إلى مصر [٦].

حملة الشام:

تحرَّك ابراهيم باشا على رأس حملته العسكرية، في اتجاه الشام يوم ٢٩ أكتوبر / تشرين الأول ١٨٣١، و اندحرت القوات العثمانية سريعاً أمام هذه الحملة إلى داخل الأناضول، واحتلت قوات ابراهيم باشا مدن غزة، ويافا، وحيفا، والقدس، ومنطقة الجليل بدون مقاومة. ووالى الزعماء المحليون ابراهيم باشا بإيعاز من حليفه حاكم جبل لبنان الأمير بشير الشهابي الثاني. فأبقى القائد المصري الشيخ حسين عبد الهادي حاكماً لمنطقة نابلس، وعيَّن أبناء الشيخ قاسم الأحمد الثلاثة حكاماً: يوسف (القدس)، محمد (نابلس)، وعثمان (يافا). أما عكا فامتنعت على قوات ابراهيم باشا بفعل تحصيناتها القوية. وقد قاد دفاعاتها عبد الله باشا، منذ ١٨٣١/١١/٢٦. وبعد حصار دام زهاء ستة أشهر، استسلمت عكا، في ١٨٣٢/٥/٢٨ وتبعتها دمشق (١٨٣٢/٦/١٤). واستسلمت مدن حماه، وحلب (٧/١٧) / وأنطاكية. وانتصر ابراهيم على العثمانيين في موقعه

بيلان (٧/٣٠)، ثم في قونية بالأناضول (١٢/٢١)، إلا أن الدول الأوربية تدخلت لوقف تقدُّم قوات ابراهيم، فكان صلح كوتاهية (١٨٣٣/٤/٨)، تاركاً لمحمد علي الاحتفاظ بحكم مصر، وراثياً وبلاد الشام و أضنة في حياته [٧].

الأصداء:

أثارت انتصارات الجيش المصرى قلق الدول الأوربية مخافة أن يتمكن محمد علي من إسقاط السلطنة العثمانية، وتأسيس دولة قوية، تُهدد أوربا نفسها. لذا عرضت روسيا على السلطان العثماني استعدادها للدفاع عن سلطنته، ما أثار مخاوف كل من فرنسا وانجلترا ودفعهما لوقف تقدُّم الجيش المصري حتى تفقد روسيا ذريعتها للتدخل العسكري. وتدخلت فرنسا لإقناع صديقها محمد علي بضرورة قبول تسوية مع السلطان العثماني، ولكن دون جدوى. ما دفع السلطان محمود إلى قبول حماية عسكرية روسية. إلى أن عقد صلح كوتاهية، على بعد خمسين فرسخًا من العاصمة العثمانية، استانبول. لكن السلطان ظل ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض على جيش محمد علي، واتفاق كوتاهية؛ فعقد معاهدة هنكار أسكله (١٨٣٣/٧/٨) للدفاع المشترك مع روسيا، وإطلاق يد قواتها وأسطولها في الأراضي والمياه التركية [٨].

الإنجازات:

استعصى على إبراهيم باشا إقامة حكومة مركزية في سوريا، في وجود طوائف ألفت الحكم الذاتي، وتجَّار، وكبار ملاَّك استاؤوا من التدخل المصري. مع هذا كله، فإن حقبة ابراهيم في سوريا (١٨٣١ -

١٨٤٠)، شهدت إنجازات لافتة. حيث أضفى ابراهيم باشا سمات عصرية على التنظيم الإدراى وأصلح نظام الضرائب والتعليم ووسَّع التجارة مع أوربا، وحسَّنها.

في مجال الإدارة، نصَّب محمد على صهره محمد شريف باشا حاكمًا عامًا مدنيًا، فيما مثَّل ابراهيم باشا والدة في الإشراف على حكم الشام، بصفته القائد العام للجيش. وقُسمت الشام إلى متسلميات عدة (حلب / طرابلس / أضنة وطرطوس / صيدا والقدس / نابلس / غزة / يافا)، على رأس كل منها متسلم، ينوب عن محمد شريف باشا في إدارة متسلمية. فيما ترك للأمير بشير حكم جبل لبنان. واستُحدِثت الدواوين، وشارك فيها الأهالي، ليُسهم في حكم بلادهم [٩].

عني إبراهيم بإقرار الأمن والنظام في ربوع سوريا، وأمَّن الطرق، ومنع اعتداء البدو على غلات الأهالي وأملاكهم وأرواحهم، متخذًا من أنطاكية مقرًا عامًا له بسبب موقعها الاستراتيجي وقربها من التخوم الشمالية، ولقب محمد شريف باشا " حكمدار عربستان ". وجعل سيف باشا الفرنساوي على إيالة صيدا وعكا. وعيَّن اسماعيل بك، سنة ١٨٣٨، حاكمًا لولاية حلب، ومحمود نامي بك، أحد خريجي البعثات المصرية، متسلمًا لبيروت. وجعل على إدارة الشؤون المالية حنابك بحري، أحد الأعيان السوريين، الأمر الذي لم يكن مألوفًا في العهد العثماني، علمًا بأن كل بلدة أو مدينة، يزيد عدد سكانها على عشرين ألفًا، كانت تنتخب " ديوان المشورة "، من بين نبلاء البلد، وتجارها. ويختص هذا الديوان في النظر في مصالح كل بلدة، ومطلوبات الميري، وإلى هذا الديوان تُرفع

بعض الدعاوي، للفصل فيها، وأبطلت وحدة الإدارة ومركزية الحكم سلطة الأمراء، والرؤساء والإقطاعيين، وأضعفت شوكتهم. وضرب ابراهيم باشا على أيدى الأشقياء، وقُطاع الطرق وبسط رواق الأمن في البلاد ونظم طرق الجبايه. ونشط ابراهيم التجارة والزراعه فعمم تربيه دودة القز (الحرير)، وأكثر من غرس أشجار التوت لهذا الغرض. فيما غرس في ضواحي أنطاكية أشجار الزيتون، وازدهرت زراعة العنب. وعني باستخراج بعض المعادن وراجت التجارة، وعهدت مصر إلى سد العجز في الميزان التجاري السوري من ماليتها، " غير أن جهل الحكام بكيفية تطبيق القوانين، وفطرتهم الاستبدادية، وعدم وجود مراقبة فعالة على أعمالهم، وعدم مراعاة تقاليد البلاد، وعاداتها وكثرة الإضطرابات في البلاد، حالت دون بلوغ الغاية التي وضعت تلك القوانين من أجلها... [رغم] إطلاق الحرية الدينية، ونشر روح الديمقراطية.. وتأليف مجالس مشورة تُمثل الشعب، بعض التمثيل، ولها حق النظر في الشؤون المحلية، بعد أن كان النظر في جميع الشؤون منوطًا بحكام مستبدين [١٠].

السنوات الحرجة:

ما أن حطّت القوات المصرية في سوريا، حتى بادر ابراهيم باشا في إعفاء السوريين من التجنيد وتخفيض الضرائب المفروضه عليهم. لكنه مالبث، بدايه سنه ١٨٣٤، أن نفّذ تعليمات والدة باحتكار الحرير وفرض ضريبة الرؤوس على الذكور من سن الرابعة عشر (مابين ١٥ - ٥٠٠ قرش) وتجنيد الأهالى لمده مفتوحة مع نزع سلاحهم، الذي كانوا يدفعون به غارات البدو، ما تسبب في تراكم سخط السوريين، فركب موجة هذا

السخط الزعماء المحليون، الذين أضرت الإصلاحات المصرية المبكرة بأطماعهم الذاتية الضيقة، ووضعت حدًا لامتيازاتهم، فيما استثمر الانجليز، والعثمانيون السخط الشعبي السوري [١١].

اندلعت الأعمال الثورية في وادي الأردن، في إبريل/ نيسان ١٨٣٤، وأعلن الثائرون مطالبهم في الكف عن تجنيدهم، ووقف سحب السلاح منهم، وامتدت الأعمال الثورية إلى نابلس. ففي القدس اندلعت الأعمال الثورية بدءًا من ١٨٣٤/٥/١٨ بنحو عشرين ألفًا من البدو والفلاحين، يتقدمهم مشايخ القيسية واليمنية [*]، على حد سواء، من مناطق نابلس والقدس والخليل. واندفع الثائرون إلى القدس، يتصدرهم شيخ قبيلة الفواغرة في منطقة بيت لحم، صبح شوكة. فيما تصدَّر الثائرين من منطقة نابلس، حاكمها، الشيخ قاسم الأحمد، وعلى طريق القدس - يافا، رأس عشيرة أبو غوش، مصطفى أبو غوش، حيث هاجموا الحاميات المصرية بين القدس ويافا، والخليل، وألحقوا الهزيمة بتلك الحاميات [١٢].

على أن ابراهيم باشا كسر على الثائرين، من يافا في يونيو/ حزيران ١٨٣٤، عند قرية العنب، وهزمهم لكنهم أعادوا الكرة عند بلدة بيت جالا، فانتصر ابراهيم عليهم، قبل أن يعمد إلى التفريق بين القبائل، ورضخ أولاد مصطفى أبو غوش، مقابل الإفراج عن والدهم السجين في عكا، وعيَّن ابراهيم أحد أبناء مصطفى متسلمًا للقدس. فيما أرهقت قوات ابراهيم باشا، وقاربت ذخيرتها على النفاذ، فقبل ابراهيم مطالب الثائرين في رفع الفِردة، وإلغاء التجنيد، مقابل دفع البدل، مع الاكتفاء بالضرائب القديمة، وقلَّد ابراهيم باشا الشيخ قاسم الأحمد حكم المنطقة، فيما عهد إلى

الأمير بشير بقمع انتفاضة أهالي صفد، ففعل [١٣].

أخطأ الثائرون إذ ظنوا ابراهيم وهناً، فاستمروا في مناوشته لكنه ارتد عليهم واشتبك معهم عند قريتي زيتا ودير الغصون أواخر يونيو/ حزيران، وأفلت الشيخ قاسم الأحمد، والشيخ عيسى البرقاوي إلى الخليل. ورفض ابراهيم باشا عرضًا من الشيخ قاسم بالموالاة، مقابل إعفاء أهالي نابلس من الجندية. وعند الخليل هُزمت قوات ابراهيم باشا الثائرين (١٨٣٤/٧/٢٤)، وأباح ابراهيم مدينة الخليل لجنوده. فيما أفلت شيخ الثائرين إلى الكرك، فلاحقهم، وحاصرها، إلى أن سقطت بين يديه في أغسطس / آب ١٨٣٤. وكان محمد علي قد أتى إلى يافا، على رأس نجدة عسكرية كبيرة، لتوفير شروط النصر لقواته. وأنذر ابراهيم باشا البدو إن هم آووا شيوخ الثائرين، ليسلموهم له، وقتلهم [**]. وأحلَّ إبراهيم أبناء الشيوخ المعزولين في مواقع آبائهم، وحمل كل منهم لقب " ناطور " على أن هذا اللقب سرعان ما أخلى مكانه للقب " المختار ". وأعاد ابراهيم الفِردة، وجمع السلاح من الأهالي [١٤].

كما قمع ابراهيم باشا ثورات أخرى في أنحاء متفرقة من الشام مثل جبل النصيرية، وحوران، وجبل الدروز، وبعدها تم فصل حلب عن دمشق وجعل ابراهيم حلب مقراً لحاكم آخر. فقد تراجع محمد شريف باشا عن تجنيد أهالي الشام بعد أن هاجت خواطرهم وأت جمع شريف السلاح من الأهالى. فتوالت الأعمال الثورية في طرابلس، وعكار، وصافيتا، والحصن، وحلب، وأنطاكية، وبعلبك، وبيروت، لكنها أُخمدت جميعًا بالقوة المسلحة. على أن أشد الأعمال الثورية كانت تلك التي نشبت في

النصيرية، شرقي اللاذقية، في أكتوبر / تشرين الأول ١٨٣٤. وأغرى ابراهيم الموازنة بأنه سيكتفي بتجريد الدروز من السلاح، لكنه ما أنهي مهمته هذه، حتى استدار إلى الموارنة، فخلّعهم سلاحهم، وعمم التجنيد. وأعفى ابراهيم دروز حوران، في نوفمبر / تشرين الثاني ١٨٣٧. وتمكن دروز حوران من إلحاق الهزيمة بحملتين عسكريتين مصريتين، قبل أن تهزمهم الحملة الثالثة، في أغسطس / آب ١٨٣٨، ولكن بعد أن كانت شرارة الثورة قد انتقلت إلى داري اليتيم، بقيادة شبلي العريان. على أن هيبة الجيش المصري قد اهتزت، فيما أوغرت القسوة في قمع تلك الثورات ضد السوريين على ابراهيم باشا، وحملته(١٥).

الهجوم العثماني المضاد:

أحس العثمانيون بأنهم استكملوا استعداداتهم العسكرية لمهاجمة ابراهيم باشا، فيما كانت هذة القوات قد ضعف موقفها، باطراد على النحو المبيَّن أعلاه، فأخذ العثمانيون لاسترداد هيبتهم ليس في سوريا فحسب، بل ينتزعوا مصر من محمد علي، أيضًا. فيما استمر السلطان العثماني، محمود، في مفاوضة محمد علي، لتسوية ما بينهما من خلافات، دون جدوى، بل إن محمد علي أبلغ وكلاء الدول الأجنبية في مصر (مايو / أيار ١٨٣٧) عزمه إعلان استقلاله عن الباب العالي. فحذرته هذه الدول من مغبة هذا الإعلان، على غرار ما فعلت الدول نفسها، قبل أربع سنوات. في الوقت الذي دأب فيه سفير انجلترا في استانبول، لورد نونسونبي، على تحريض السلطان ضد محمد علي. وعقد انجلترا معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية، تضمنت شرطًا يلغي الاحتكار في جميع

أنحاء السلطنة العثمانية، بما فيها مصر، بما يعني أن محمد علي هو المقصود بهذا الإلغاء. وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة [١٦].

هكذا أصبح ميدان المعركة مهيأ تماماً. فاحتشدت طلائع الجيش العثماني، في نصيبين وحولها على الحدود التركية - السورية، قبل أن تندفع مجتازة الحدود، لكن القوات المصرية هزمتهم، في موقعه نصيبين (١٨٣٩/٦/٢٤) [١٧].

أثار الانتصار المصري مخاوف أوربا، وتباينت مواقف الدول الأوروبية تبعاً لتباين أطماعها، فانتهزت روسيا الفرصة لبسط حمايتها الفعلية على تركيا، فيما ظلت فرنسا على تأييدها لمحمد علي، أما انجلترا فهاجمته بعداء، واستمرت في تأليب الدول الأخرى عليه، بهدف إضعاف الدولة المصرية حتى لا تعترض طريق انجلترا إلى الهند وحتى تُمهد انجلترا لاحتلال مصر لاحقًا وليس حباً في العثمانيين. لذا كانت انجلترا قوام المؤامرة على محمد على باشا. أما النمسا فحال وزيرها الأكبر الداهية مترنيج إلى تعزيز مكانة السلطنة العثمانية، أولاً، ليفقد روسيا ذريعة التدخل في شؤون السلطنة، وثانيًا لأن مترنيخ ضد الثورات القومية، من حيث المبدأ. فيما رمت روسيا إلى إتقاء شرقي أوربا، ناهيك عن كراهية ملكها لفرنسا، صديقة محمد علي. لذا بادر مترنيخ، فتقدمت الدول الخمس - عدا فرنسا - بمذكرة إلى الباب العالي، في ١٨٣٩/٧/٢٧، طالبت فيها بعدم البت في أي شأن مع محمد علي دون الرجوع إلى الدول الخمس، فيما رفضت فرنسا اقتراحًا انجليزيًا يقضي بأن يكتفي محمد علي بالولاية على مصر، وولاية عكا، دون مدينتها،

فبادرت الدول الخمس إلى إبرام " معاهدة لندن " الشهيرة، (١٨٤٠/٧/١٥)، وبموجبها خوِّل محمد علي على حكم مصر، وراثيًا، وولاية عكا مدى حياته. وإذا لم يوافق، خلال عشرة أيام، سيحرم من ولاية عكا، وبعد عشرة أيام أخرى يحرمه السلطان حتى من حكم مصر. أما إذا قبل فيدفع جزية سنوية للباب العالي، وتُلحق مصر وولاية عكا بالسلطنة العثمانية، وإذا رفض محمد علي، استخدم الحلفاء القوة لتنفيذ مذكرتهم، وحماية عرش السلطان العثماني! وفي مجال التحضير، أوفدت انجلترا أحد جواسيسها (ريتشارد وود) إلى لبنان، ليندس بين أهله، ويزرع الشقاق وهم المهيئين للثورة، ما جعلهم يبدأون هجماتهم المسلحة على قوات إبراهيم باشا، وامتدت الهجمات إلى سوريا، فازداد حرج موقف الجيش المصري. وفي أوائل أغسطس / آب ١٨٤٠، حاصر الأسطول الإنجليزي سواحل الشام ومصر، ووزع منشورات على أهالي سوريا ولبنان، تضمنت " حرص " انجلترا على طرد جيش إبراهيم باشا من هناك، فثار الأهالي ضد هذه القوات. فيما رفض محمد علي " معاهدة لندن "، يوم ١٨٤٠/٨/١٦، فطلب رفعت إلى مندوبي الدول الخمس القيام بهذه المهمة، ففعلوا، في اليوم التالي، لكن محمد علي كرر رفضه للمعاهدة، وإن عرض على رفعت إنهاء الخلاف بين محمد علي والسلطان العثماني، دون تدخل الدول الأجنبية، مقابل أن يحكم محمد علي سوريا، طوال حياته، بينما تُمنح له مصر، وراثيًا، لكن السلطان رد بإصدار فرمان، عزل بموجبه محمد علي من منصبه[١٨].

هجمه الخلفاء:

في سبتمبر/ أيلول ١٨٤٠ دك الاسطول الانجليزى، بقيادة الادميرال استوبفورد (stopford)، بالاشتراك مع الكومدور شارك نابييه (napier) بيروت بالمدافع، وشاركت سفن نمساوية وعثمانية في هذا القصف. مازاد في تحرج موقف الجيش المصرى، خاصة بعد أن وزع الانجليز نحو ثلاثين ألف بندقية، سراً على الأهالي. وتدنت معنويات الجيش المصري، وتقطعت مواصلاته، فتوالت هزائمه، وأخلى المدن السورية، على التوالي في قتال مرتبك، أو حتى بدون قتال (بيروت / صور / صيدا /، يافا / الناصرة / طبرية / وصفد)، وقصفت السفن الحربية الانجليزية، في ١٠/٢٢، عكا، وهدمت جزءاً من تحصيناتها، واحتلت المدينه. واستسلمت الحامية المصرية في القدس، التي دخلها العثمانيون، في ١٢/٢٢. ونصب البدو والفلاحين الكمائن للقوات المصرية، المنسحبة، في غير انتظام [١٩].

في هذه الأثناء عرض الأمير بشير على الحلفاء الانضمام إليهم، لكنهم رفضوا عرضه، وأسروه ونفوه إلى مالطه. فيما استدارت فرنسا مائة وثمانين درجة، بعد أن أسهمت بقسط وافر في توريط محمد علي في رفض مطالب الحلفاء، والدخول معهم في مواجهة، تخلت عنه فرنسا فيها [٢٠].

وصل أسطول انجليزي بقيادة نابييه إلى الاسكندرية، لابتزاز محمد على، فقبل محمد على الانسحاب من سوريا، مكتفيًا بحكم مصر، وراثياً.

وفي

١١/٢٧ وقَّع وزير خارجية مصر، بوغوص بك، ونابييه اتفاقًا في هذا الصدد، لكن استوبفرود، وسفير إنجلترا في استانبول، دورد بونسنبني والسلطان العثماني رفضوا هذا الاتفاق، وإن ضرب رئيس وزراء انجلترا آنذاك، بالمرستون بمعارضتهم عرض الحائط، وأرسلت انجلترا، والنمسا، وبروسيا، وروسيا إلى الباب العالي (١٨٤١/١/٣٠)، طالبة إلغاء قرار عزل محمد علي، وتخويله حكم مصر الوراثي، فرضخ السلطان لمطلب هذه الدول [٢١].

فيما بين أواسط ديسمبر / كانون الأول ١٨٤٠ و١٩ فبراير / شباط ١٨٤١، أخلت القوات المصرية كل الأراضي السورية، ولكن بثمن باهظ، بسبب الجوع، والعطش، والكمائن التي نصبها الأهالي لتلك القوات، التي فقدت زهاء ثلاثين ألفًا من جنودها، خلال انسحابها، فيما وصل أربعون ألفًا، فقط، إلى مصر، حيث غادر إبراهيم غزة، بحرًا، في أوائل يناير / كانون الثاني ١٨٤٠، فيما لحق به من تبقى من جنوده، برًا، إلى مصر [٢٢].

بعد الانسحاب المصري، عجز العثمانيون عن السيطرة على المناطق الفلسطينية التي شهدت أعمالاً ثورية، فيما استبدت الخلافات العشائرية، خاصة بين قيس ويمن، بالمنطقة الجنوبية، مع هذا كله سلَّم العثمانيون إليهم أمور المنطقة: الشيخ مصطفى أبو غوش (يمن) لمنطقة القدس، وعبد الرحمن عمرو (قيس) لمنطقة الخليل، وتوالت الصدامات المسلحة بين جماعتي الشيخين. وهكذا لعب العثمانيون على التناقضات بين

الشيوخ، وأخذوا يستميلون أحدهم، ويضربون به آخر. وهكذا وفق القاعدة العتيدة المعروفة " فرِّق تسد " [٢٣].

تقييم المؤرخين:

رجحت حسنات حمله ابراهيم على سيئاتها، باعتراف المؤرخين. ويعدد مؤرخ دمشقي معاصر تلك الحسنات، في وضع الحملة أصول الإدارة والجباية، ورفعها أيدى أرباب الإقطاعات وإعطائهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية، وبذلك رفعت سلطة المشايخ، والأمراء المستبدين[٢٤].

فيما رأى مؤرخ دمشقى آخر أن من فوائد حكم ابراهيم في سوريا تجفيفه المستنقعات، وتحديده الأسعار، والعدل بين الرعايا [٢٥]. أما مؤرخ مصري معاصر، فاستنتج بأن حكومة محمد على أثبت بأن " المصرى بل العربي، إذا تهيأ له زعيم عامل، لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته ". واستشهد المؤرخ نفسه بما ورد في رسالة قنصل انجلترا في دمشق إلى سفير دولته في الآستانة، حيث " عاد كثير إلى سكن المدن والقرى المهجورة، وإلى حراثة الأرض المهملة... [وأكره] العرب [يقصد البدو] على احترام سلطة الحكومة، وجعل السكان بمأمن من اعتدائهم ". وبحسن إدارة شريف باشا، تضاعف نجاح الأهلين، وحسنت المالية في هذه النواحي. كما أن نشاط ابراهيم، وحزمه وطَّد الأمن، ومد رواق الثقة، وقد عُدَّت الحكومة ظالمة... فأصحاب المقامات العالية، والأفندية، والأغوات (رؤساء الجند) امتعضوا كثيرًا من ذلك؛ لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة. والحرف، والطبقات العاملة.. وقد فرضت

الخدمة العسكرية على المسلمين، وهذا الأمر الجيد، كان ينبوع استياء عظيم. وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع، أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاح والنماء، ولم يكد المصريون يخرجون من سوريا، حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة. وخلفت الرشوة، والتبذير في إدارة المالية، والاقتصاد، ومنيت المداخيل بالنقص، واستأنف البدو غاراتهم على الأهالي، فخلت القرى، والمزارع المأهولة، بالتدريج [٢٦]. لذا كان طبيعياً أن يقرر المؤرخ الدمشقي المعاصر، في شبه يقين: " ولعل أبناء الشام أيقنوا بخطئهم في الانقضاض على الحكومة المصرية، التي هي مثلهم، عنصرًا ولغة، وعادات، وأنهم كانوا على ضلال في الحنين إلى حكم العثمانيين ". وامتدح المؤرخ نفسه " طريقة المصريين إلى المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة، والشدة في إنفاذ القوانين، وتقليد الغرب، في كل أمر جوهري " [٢٧]. ورأى مؤرخ لبناني معاصر أن قيام الحملة في سوريا " مهد السبيل لنهضة علمية أدبية: لأن تنظيماتها استوجبت اختيار المتنورين لإدارة الإفرنج من مرسلين دينيين، وغيرهم، فأنشئت بواسطتهم المدارس، كما أن إرسال بعض الشبان لدرس الطب في القطر المصري، واستخدام بعض السوريين في حكومة محمد علي، أنشأ صلة أدب دائمة بين القطرين.. وأدخلت حكومة محمد علي روحًا إلى البلاد في أعمالها " [٢٨].

استنتاجات:

ماكان لحمله ابراهيم باشا على سوريا، ونحو تسع سنوات متصلة من الحكم المصري إلا أن تترك بصماتها على سوريا، وأهاليها، اقتصاديًا،

واجتماعيًا، وسياسيًا، وثقافيًا.

- ذلك أن الانهيار السريع للدفاعات العثمانيه أمام الهجمات المصريه، التي حققت انتصارات سريعة ورخيصة، وسهلة على العثمانيين، أسقط هيبة الأخيرين في نظر أهالي سوريا.

- كما أن إشراك السوريين في حكم أنفسهم تحت الحكم المصرى، حال دون تمكن العثمانيين من مواصلة إقصاء السوريين عن المشاركة في حكم أنفسهم، عندما عاد العثمانيون إلى سوريا. فقد جرَّب السوريون حلاوة الحكم الذاتي.

- ماحال دون تمكن العثمانيين من إعادة الأمور في سوريا إلى ما كانت عليه، عشية الحملة المصرية.

- ربما كان الأهم من هذا كله، وأحد أهم نتائجه، أن دفعات قد تلقتها بذرة الحركة الوطنية السورية، وإن بدأت هذه الحركة بالتعبير عن نفسها عبر تجليات فكرية، أولاً بسبب العسف العثماني لكل ما هو سياسي مباشر، ومن باب أولى لكل مقاومة سياسية. وثانيًا لأن الذين تصدروا الحركة الوطنية السورية كانوا من المثقفين، فيما كانت البورجوازية المنتجة في طورها الجنيني، وهي المؤهلة لتأسيس أحزاب سياسية، أكثر من غيرها من الطبقات، وقبلها، في آن.

- أما " العروبة " التي حاول محمد على وابراهيم أسباغها على محاولتهما بناء دولة قوية فمفتعلة ومحاولة لمد تجربتهما بالمسوِّغات. وبعد فما هي إلا سنوات، حتى انتشرت الجمعيات العربية المناهضة

للحكم العثماني، في سائر أنحاء سوريا. وكانت المنشورات التي وزعتها جمعية سرية عربية، في بيروت، سنة ١٨٧٥، إشارة البدء في مسيرة الاستقلال، والحرية، ومحاولة اللحاق بالعصر.

* * *

مراجع الفصل الحادي والعشرون

(١) بيتر مانسرفيلد، **تاريخ مصر الحديث والشرق الاوسط**، ترجمه عبد الحميد فهمي الحجلي، سلسله، تاريخ المصريين(٩١)، القاهره، الهيئه المصريه العامه للكتاب، ١٩٩٥، ص ٨٧ - ٨٨.

(*) لمزيد من التفاصيل حول مذبحة القلعة هذه، يمكن الرجوع إلي:
عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ١١٢ - ١١٨.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٩٥ - ٩٧.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، القاهره، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ١٢٣ - ١٢٥.

(٤) مانسفيلد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢١ - ٢٦١.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٦) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٢١ - ٢٦١.

(٧) للاطلاع على وصف مقتضب للمعارك الحربيه، يمكن العودة إلى: **المصدر نفسه**، ص٢٢٧ - ٢٥٣.

- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: وعبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢)، ص ٨٥٨.

(٨) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٢ - ٢٦١.

(٩) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلي:

- أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد على باشا**، خمسه أجزاء، بيروت المطبعة الأمريكية، ١٩٣٠ - ١٩٣٤.

ميخائيل مشاقه، **مشهد العيان بحوادث سوريه ولبنان**، نشره محلم خليل عبده، وأندراوس حنا شخاشيرك، القاهرة، ١٩٠٨، ص١١٠ - ١١١.

(١٠) سليمان بك أبو عز الدين، **ابراهيم باشا في سوريا**، وبيروت المطبعة العلمية، ١٩٢٩، ص١٣٩.

(١١) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦٣ - ٢٦٧.

(*) من بقايا العصابات القبلية القديمة، التي وفدت من الجزيرة العربية، وقد كان ليمن راية بيضاء، مقابل راية حمراء لقيس. وقد حكمت الخصومة الشديدة علاقة الطرفين ببعضهما البعض.

(١٢) **المصدر نفسه**، الصفحه نفسها.
(١٣) **المصدر نفسه**، ص٢٦٩ - ٢٧٠.
(**) من بينهم الشيخ قاسم الأحمد، وولداه يوسف ومحمد، وشيخ دورا - الخليل، علي رباح، وشيخ بني زيد، عبد الجبار أبو صالح، وشيخ عشيرة المجالي في الكرك، اسماعيل المجالي.
الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت ١٩٩٠، ص ٨٦٠.
(١٤) **المصدر نفسه**، ص٨٦٠.
(١٥) **المصدر نفسه**، ص٢٧١ - ٢٧٣.
(١٦) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٧٤ - ٢٧٥.
(١٧) **المصدر نفسه**، ص٢٧٦ - ٢٨٧.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص٢٩٠ - ٣٠٠.
(١٩) الموسوعه الفلسطنيته، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٦٠.
(٢٠) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٠٣.
(٢١) **المصدر نفسه**، ص٣٠٤ - ٣٠٦.
(٢٢) **المصدر نفسه**، ص٣٠٧ - ٣٠٨.
(٢٣) الموسوعه الفلسطنيه، **مصدر سبق ذكره**، ص٨٦٠.
(٢٤) محمد كرد على، **خطط الشام**، جـ٣، دمشق، ١٩٢٥، ص٦٦.
(٢٥) مشاقه، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٣.
(٢٦) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٠٩ - ٣١٠.
(٢٧) علي، **مصدر سبق ذكره**، جـ٣، ص٧٠.
(٢٨) أبو عز الدين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣١٥.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

السلطان الثائر وفلسطين

الفصل الثاني والعشرون:
السلطان الثائر وفلسطين

انتصار خليل الشنطي

" أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية ".

أنور باشا (*)

ما من سلطان عثماني، أثار الجدل حول شخصيته، مثل السلطان عبد الحميد الثاني، الذي ولد في ٢١ أيلول / سبتمبر ١٨٤٢، ودرس العلوم السياسية، كما تعلّم اللغتين العربية، والفارسية، وأجادهما، و نظم الشعر، فيما تميَّز بالشخصية القوية، وتولى العرش، خلفاً لأخيه، مراد، في ٣١ آب / أغسطس ١٨٧٦، و استمر في الحكم، زهاء أربعة و ثلاثين عاماً، حيث انتهى حكمه، في ٢٧ نيسان / إبريل ١٩٠٩.

اختلفت آراء المؤرخين و الباحثين في تقييم حكم السلطان عبد الحميد، اختلافاً شاسعاً، فبينما تعرض لحملات عنيفة من بعض المؤرخين والسياسيين، تناولوا فيها حياته العامة و الخاصة، بكل نقيصة، أثنى عليه عشرات المؤرخين الآخرين.

فعلى الساحة الإسلامية، يشكل اسم عبد الحميد أساس فكرة " الوحدة

الإسلامية "، باعتباره خليفة المسلمين، وصاحب مشروع " الجامعة الإسلامية ". يصفه أحد المؤرخين بقوله: " لم يسرف عبد الحميد في اللهو، وكان رحيماً بالمعارضين، وقد رثاه المعارضون له، بعد وفاته "[١].

لكن دعاة القومية العربية، اعتبروا عبد الحميد رمزاً للقبضة الديكتاتورية ووصفوه بأنه يتظاهر بالتقوى و الصلاح، ويحيط نفسه بعلماء الدين من قبيل الدعاية، وفسَّر خصومه، كل مشروع إصلاحي تعهده عبد الحميد تفسيراً تعسفيًا، مثل مشروع إنشاء سكة حديد (دمشق - الحجاز)، " والجامعة الإسلامية "، ففي رأيهم كان هدف عبد الحميد الخفي والأوحد هو أن تشتد قبضته على الولايات العثمانية، ليحكمها، من جديد.

أما القوميون الأتراك، فأدانوا عبد الحميد، لأنه اهتم بالعرب، اهتماماً فاق اهتمامه بالأتراك.

أجهزة الإعلام الغربية قدمت السلطان عبد الحميد، على أنه ذلك السلطان السفاح، الدكتاتور، الجاهل. وبالرغم من ذلك الاحترام الذي أظهرته الدول الأوربية، في بداية تولى عبد الحميد للحكم، فإنها بدأت تخاف منه، باعتباره كان يسعى إلى معالجة (الرجل المريض)[*]، وشفائه، ومن ثم اعادته إلى سابق قوته مما جعل تلك الدول تتربص به للتخلص منه.

وَوُجِهَت إلى عبد الحميد تهمة التواطؤ والمشاركة في ضياع فلسطين، وأنه لم يكن ضد الاستيطان اليهودي في فسطين، في حين لا يخلو كتاب صهيوني من إدانة عبد الحميد لأنه عرقل تحقيق المشروع الصهيوني.

فما هو موقف السلطان عبد الحميد من المشروع الصهيوني؟ وما هي الإجراءات التي اتخذها في هذا المضمار؟ ثم هل تواطأ عبد الحميد، بالفعل، مع الصهاينة لإقامة دولتهم في فلسطين؟

أولاً: أوضاع فلسطين:

مفهوم " فلسطين " كوحدة إدارية مستقلة، لم يكن جلياً واضحاً في العهد العثماني، إذ كانت فلسطين جزءًا إدارياً، واقتصادياً من سوريا، وإن كانت لها خصوصية معينة، ترجع جذورها إلى أسباب دينية، مرتبطة بالأماكن المقدسة.

في بداية عهد عبد الحميد، انقسمت أرض فلسطين إلى المناطق الإدارية التالية [٢]:

١- سنجق عكا: وشمل أقضيه عكا؛ وحيفا؛ وصفد والناصرة وطبرية.

٢- سنجق نابلس [**]: وشمل أقضية نابلس؛ وجنين؛ وطولكرم.

٣- سنجق القدس: وشمل أقضيه القدس؛ ويافا، وغزة، والخليل، وبئر السبع.

اتبعت هذه السناجق؛ ولاية دمشق؛ حتى عام ١٨٨٧. وكانت أراضي فلسطين تتبع دائرة تسجيل الأراضي في دمشق، حتى عام ١٨٩١.

ساد البلاد العربية، ومنها فلسطين، عهد من التأخر والركود الثقافى والحضاري واستنفذ هذا التدهور عدداً من المفكرين العرب، للتنديد بالخلافة العثمانية، ومالبثت أن أطلعت الكراهية بين الترك والعرب برأسها، في غضون القرن التاسع، عشر نتيجة لأسباب مختلفة منها:

١- تفشي الفساد في أجهزة ومؤسسات الدولة العثمانية.

٢- تدهور و انهيار اقتصاد الدولة.

٣- تغلغل التأثيرات الفكرية الغربية في البلاد، في كلا الجانبين، العربي والتركي وتشجيع هذه التأيرات لنمو الأفكار القومية.

٤- انتشار المدارس التبشيرية، وارتباطها بالدول الغربية.

٥- على أن أهم الأسباب هو اتسام الدولة العثمانية بالصبغة المركزية، فبينما كانت سياسة الباب العالى، في الاستانة، يشير في اتجاه تشديد قبضة السلطان على أطراف السلطنة، كانت الأفكار المناهضة لمركزية الدولة، والمطالبة باستقلال العرب، آخذة في الانتشار، وذلك بعد أن اتسعت دائرة المتعلمين، بفعل كثرة المدارس، فتعددت المطابع، و انتشرت الكتب، والصحف.

نما تيار القومية العربية، في سوريا ولبنان، بوتيرة أسرع من سائر البلدان العربية، إلا أن ذلك لم يمنع انتشار التيار القومي العربي لدى المثقفين في فلسطين، بحيث شهدت فلسطين، في تلك الفترة نشاطًا فكرياً

و ثقافياً. وتسارعت وتيرة انتشار المدارس في فلسطين، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأصبح عدد المدارس في لواء القدس، وحده، على الأقل، سبعين مدرسة، وبلغ عدد التلاميذ ٣٠٠٠ تلميذ، ومن المؤكد أن عدد المدارس والتلاميذ في سائر الأقضية في فلسطين زاد عن هذا العدد، ولعل دار المعلمين (السيمينار) الروسى، في الناصرة كان من أهم المعاهد العلمية، التي قامت بدور بارز في اليقظة الفكرية القومية [٣].

أشارت كل الدلائل إلى اندماج بعض الفلسطينيين في النشاط السياسي العربي القومي، الذي سعى إلى استقلال العرب عن الترك، لكن عبد الحميد عمد إلى بسط حكمه الفردي، وسيطرة الدولة بصفتها العثمانية الإسلامية، واتبع سياسة قضت بالاعتماد على شتى العناصر العرقية والمذهبية، فجمعت مؤسسات الدولة أفراداً من الترك، والعرب، والأرمن، واليهود، و غيرهم. واتخذ السلطان مع معارضيه أساليب كثيرة متنوعة، جمعت بين الدهاء والشدة.

ثانياً: الحركة الصهيونية وعبد الحميد:

اتبع العثمانيون سياسة التسامح الدينى إزاء اليهود، منذ بداية الحكم العثماني، حيث سمحوا ليهود أوربا بالاستقرار في أراضي الدولة العثمانية، وبدأ اليهود الأوروبيون يعدون العدة للهجرة إلى فلسطين.

أصدر السلطان العثماني سليمان القانوني فرماناً بإسكان حوالي خمسة آلاف يهودي بالقرب من بحيرة طبرية، في عام ١٥٣٥ [٤].

مع الضعف المطرد للدولة العثمانية، بدأ التغلغل الأوروبي

الاستعماري في أراضى الدولة، وجر معه ازدياد الهجرة اليهودية، وتزايد عدد اليهود في القدس، تدريجياً، وبدأت طلائع البعثات الأثرية الأجنبية، والتي سيطر عليها اليهود، تفد إلى القدس، تحت ستار التنقيبات الأثرية.

فتحت معاهدة عام ١٨٥٦ التي عقدت بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية الباب لهجرة اليهود من روسيا إلى فلسطين، هرباً من الاضطهاد الروسي.

كما استغل اليهود قوانين إصلاح الأراضى العثمانية (١٨٥٦ - ١٨٥٨) وازدادت خطورة هذه القوانين، بعد تعديلها، عام ١٨٦٩، ومنحت الأجانب حق امتلاك الأراضي، وأدت زيادة الضرائب، وعجز الفلاحين عن تسديد ديونهم واستيلاء الدولة على أراضي الفلاحين، وعرضها في المزادات العلنية، لاستيفاء ديونهم، كل هذا أدى إلى وقوع مساحات كبيرة من الأراضي في أيدي المرابين، الذين كانوا أكثر استعداداً لنقل ملكياتهم إلى الأجانب [٥].

توالى إنشاء المستعمرات اليهودية في فلسطين، خاصة بعد أن نجح رئيس جمعية الأليانس [*] الإسرائيلية، أودلف كريميه، عام ١٨٦٨، في الحصول على ميثاق من السلطان العثماني، عبد العزيز، بمنح الأليانس أرضاً تبلغ مساحتها ٢٦٠٠ دونم، بالقرب من يافا، وأقيمت عدة مستوطنات، مثل صاروفه، (١٨٦٩) ومكفيه (١٨٧٠)، كما أقيمت مستوطنة بتاح تكفا (١٨٧١)، بعد أن اشترى أرضها قنصل ألمانيا في يافا [٦].

عامل السلطان عبد الحميد اليهود معاملة طيبة، وأعطاهم المساواة أمام القانون مع رعاياه المسلمين، و عامل حاخام تركيا الأكبر معاملة كبار موظفي الدولة ووزع آلاف الفرنكات على فقراء اليهود في العاصمة التركية. وتبوأ اليهود مراكز عالية في الدولة العثمانية، وتغلغوا في المرافق الاقتصادية كافة، بالإضافة إلى انضمامهم للجمعيات التركية المختلفة.

رحبت السلطات العثمانية، في بداية الأمر، بقدوم اليهود إلى السلطنة، لكن هذا الموقف تغير مع زيادة موجات الهجرة الصهيونية إلى فلسطين. إذ خشى عبد الحميد أن تؤدى زيادة أعداد أولئك المهاجرين إلى نشوء مشكلة قومية جديدة، في الإمبراطورية العثمانية، التي جابهت مشاكل عدة مماثلة، خلال القرن التاسع عشر، كما أسهمت احتجاجات العرب الفلسطينيين ضد هجرة اليهود إلى تغير موقف السلطات العثمانية منها. يقول عبد الحميد: " إنني أعرف مخططات اليهود ومشاعرهم القومية المتطرفة. إن قوة وسطوة اليهود على دول أوربا أكثر منها بكثير على الدولة الشرقية، وربما كانت تلك السطوة دافعاً للدول الغربية على تشجيعهم للهجرة إلى فلسطين، للتخلص منهم. ولكن عدد اليهود الموجودين في بلادنا هو ليس بالقليل لكي نسمح بهجرة أعداد أخرى منهم إلى فلسطين [٧].

تنبهت السلطات العثمانية، في وقت مبكر، إلى خطر موجات الهجرة اليهودية نحو فلسطين، مما دفعها إلى الإعلان، في أواخر سنة ١٨٨١، عن موقف واضح بهذا الشأن، مفاده السماح لهجرة اليهود إلى أي جزء

من أجزاء الإمبراطورية العثمانية، غير فلسطين، شرط أن يوافق المهاجرون على أن يستبدلوا جنسياتهم الأجنبية الجنسية العثمانية، وظلت هذه السياسة سارية المفعول، غير أنها لم ترق في أعين المهاجرين اليهود الذين رفضوا التنازل عن جنسيتهم الأصلية، ليتسنى لهم التمتع بحماية القناصل الأجانب من الدولة العثمانية.

في عام ١٨٨٢، تدخل بعض كبار اليهود لدى القنصل العثماني العام في ثغرة الأوديسا باليونان، كى يمنح اليهود تصريحاً بدخول فلسطين، والاستقرار فيها، واتصل القنصل بحكومته، فتلقى منها رداً، علقت صورة منه على شكل إعلان على دار القنصلية في ٢٨ نيسان / إبريل عام ١٨٨٢ جاء فيه " أن الحكومة العثمانية تبلغ جميع اليهود الراغبين في الهجرة إلى الدولة بأنه ممنوع عليهم الاستقرار في فلسطين، وأن الدولة تسمح له بالإقامة في أى إقليم آخر من أقاليم الدولة شريطة أن يكونوا رعايا عثمانيين ويخضعوا لقوانين الدولة " (٨).

لكى يحول عبد الحميد دون استقرار اليهود المهاجرين في فلسطين، أصدر قوانين، عام ١٨٨٢، لا تسمح لليهود بدخول فلسطين، إلا في حالة واحدة هي الحج وزيارة الأماكن المقدسة، ولمدة ثلاثة أشهر على أن يحجز جواز سفر الزائر، ويودع في مركز البوليس العثماني، حيث يستبدل به، مؤقتاً، بالجواز الأحمر، وهو بمثابة تصريح مؤقت لزيارة القدس لمدة ثلاثة أشهر وكان هذا القرار رداً صريحاً على موقف القناصل الأجانب، ومحاولتهم المستمرة تعطيل فاعلية القوانين العثمانية الخاصة بهجرة اليهود إلى فلسطين.

توجه عدد كبير من اليهود إلى الآستانة، ليغيروا قانون الهجرة، وكان في مقدمة من ذهب لهذه الغاية لورنس أوليفانت. لكن هذه الجهود لم تثن السلطات العثمانية عن التمسك بقانون منع اليهود من الإقامة في فلسطين. ونتيجة لازدياد شكوك السلطان بالتحرك الصهيوني ،أفهم عبد الحميد أوليفانت بأن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أية جهة من السلطنة، إلا في فلسطين، وأن الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين، ولكنها لا ترحب بإقامة مملكة لليهود في فلسطين، يكون أساسها الدين. صدم أولفانت من موقف عبد الحميد، وراح ينشر الدعاية السيئة ضده، فما كان من السلطان إلا أن طرده من استانبول. فذهب أوليفانت إلى وزير أمريكا المفوض في استانبول، شتراوس، الذي اجتمع بالسلطان لإقناعه بالهجرة اليهودية إلى فلسطين، لكن عبد الحميد أفهمه صراحة بأن لا أمل في بقاء اليهود في فلسطين (٩).

إمعاناً من الباب العالى في سياسة منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، أرسلت الاستانة في ٢٩ حذيران / يونيو ١٨٨٢ رسالة إلى متصرف القدس وإلى السلطات العثمانية، في بيروت، وحيفا، واللاذقية، يمنع أي يهودي روسي أن تطأ قدمه أرض فلسطين (١٠).

أبلغت الآستانة، في ٢٢ كانون الثانى / يناير ١٨٨٣، رؤساء البعثات الدبلوماسية لدى الباب العالي، رسمياً، قرار مجلس الوزراء العثماني، القاضي بمنع دخول اليهود الروس إلى فلسطين وكانت السلطات العثمانية تنظر إليهم نظرة مشوبة بالشكوك والريبة.

لكن أمام ضغط الدول الأوروبية، أصدر الباب العالى سنة ١٨٨٤، تعليمات جديدة قضت بالسماح لليهود الروس بزيارة الأماكن المقدسة شريطة ألا تزيد مدة إقامتهم عن ثلاثين يومًا إلا أن الدول الأوروبية بدأت بالضغط على الباب العالى بغية تمديد إقامة الحجاج اليهود إلى ثلاثة أشهر بدلاً من شهر واحد و قد وافقت الحكومة العثمانية على هذا الطلب، وذلك في عام ١٨٨٧[١١].

منذ عام ١٨٨٧، قرر عبد الحميد رفع الوضع الإداري لبيت المقدس من سنجقية إلى متصرفية [*] خاصة، تتبع الباب العالي، مباشرة، بهدف تأكيد سيطرة الحكومة على بيت المقدس، ومراقبة الهجرة اليهودية، بصفة مباشرة.

لم يكتف عبد الحميد بذلك، وإنما أصدر عدداً من الإيرادات السنية. حظر فيها على ولاته السماح لليهود بشراء أراضي من فلسطين. يقول عبد الحميد في إحدى هذه الفرمانات: " لا يسمح بإجراء ينتج عنه قبول اللاجئين اليهود المطرودين من كل بلد، يترتب عليه إنشاء حكومة لهم في القدس، مستقبلاً. وبما أنهم ليسوا من مواطني إمبراطرويتنا، فيتحتم عدم قبولهم في البلاد " ويتساءل عبد الحميد باستنكار: " لماذا نقبل في بلادنا من طردهم الأوروبيون المتمدينون، وأخرجوهم من ديارهم؟ ويجيب عبد الحميد بنفسه على سؤاله بأنه لا محل لقبولهم سيما وعندنا فتنة أرمينية [**]. وانتهى عبد الحميد في فرمانه هذا طالباً من مقام الصدارة اتخاذ قرار عام في هذا الموضوع، دون حاجة لعرضه على أحد " [١٢].

نتيجة لفرمانات عبد الحميد، قامت السلطات العثمانية بعدم منح تصريح دخول لليهود الروس إلى أراضي الدولة العثمانية وتطبيق تعليمات الدولة حول سد الأبواب أمام اليهود الأجانب من جميع الجنسيات، وأرسلت مذكرة شفاهية إلى البعثات الأجنبية، أكدت فيها الدولة العثمانية، بأنها لن تسمح باستقبال سفن المهاجرين اليهود، لكن هذه الجهود لم تنجح، بسبب حصة روسيا وألمانيا في قانون الامتيازات الأجنبية.

في أواخر القرن التاسع عشر، وعشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، في بال، بسويسرا، سنة ١٨٩٧، تبلورت " المنظمة الصهيونية العالمية " وطرحت برنامجها السياسي المحدد، الذي نص على قيام دولة يهودية مستقلة. ودار الحديث حول فلسطين. ولتحقيق ذلك كانت هناك خطوات عدة أمام الحركة الصهيونية، منها: الحصول على موافقة الدول الكبرى على استيطان اليهود في فلسطين، وإقناع القوى العظمى بممارسة الضغوط على الدول العثمانية، وإرسال وكلاء للحركة الصهيونية إلى فلسطين، لأجل غض النظر، وتقديم المبررات لهجرة اليهود إلى فلسطين.

لأن الحركة الصهيونية أدركت الأزمة الاقتصادية، التي كانت الدولة العثمانية، تعانى منها، لذا حاول الصهاينة، بشكل منتظم الاتصال بالسلطان عبد الحميد الثاني، لإقناعه لفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والسماح لهم بإقامة مستوطنات فيها، مقابل المساعدات والهبات المالية للدولة العثمانية، لا سيما وأنها كانت تعاني من مشاكل مالية معقدة، بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة بعثة مالية أوروبية في تركيا

للإشراف على أوضاعها الاقتصادية، ضماناً لتسديد ديون تركيا للدول الأوربية.

إن ثغرة الأزمة الاقتصادية للدولة العثمانية، كانت السبيل الوحيد أمام الزعيم الصهيوني، هرتزل، كي يحاول التأثير على سياسة عبد الحميد تجاه اليهود، وفي شباط / فبراير ١٨٩٦، أوحى هرتزل إلى صديقه، نيولنسكي(*) بأن يتوسط له عند السلطان، ويقدم له عرضاً مالياً من اليهود للسلطان. في هذا الصدد يقول هرتزل، في مذكراته: " علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا (١٣).

يقول هرتزل إن نيولينسكى أخبره، بعد حديثه مع عبد الحميد، بأن السلطان لن يتخلى، أبداً عن القدس، وكان نيولينسكى يعتقد بأن المال لا يعني للسلطان شيئاً، وثمة طريقة أخرى، يمكن التأير بها على السلطان، وهي مساندته في قضية الأرمن. هنا أخبر هرتزل السلطان، عن طريق الوسطاء، بأنه سينشر في جريدة " دي فيلت "، التي يعمل بها بسرور و حياد أكيدين، المراسلات و الأنباء التي قد تكون في صالح السلطان (١٤)، ليحوز على رضاه.

لكن رفض عبد الحميد للمطالب الصهيونية كان قاطعاً. يقول نيولنسكي، قال السلطان لي: " إذا كان هرتزل صديقك، بقدر ما أنت صديقي، فانصحه ألا يسير، أبداً، في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحدًا من البلاد؛ لأنها ليست لي، بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها، فيما بعد، بدمائهم. ليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا مزقت الإمبراطورية قد يحصل اليهود على

فلسطين، بدون مقابل. ولكن يجب أن يبدأ ذلك التمزيق، أولاً، في جثتنا، وأني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا، ونحن على قيد الحياة "[١٥].

لما رأى هرتزل عقم أساليبه، التي اتبعها، لإقناع السلطان بالهجرة اليهودية المنظمة إلى فلسطين، فضل السفر بنفسه إلى الآستانة ليقابل السلطان بنفسه، ولكن الفشل كان حليفه، فلم يحظ بمقابلة عبد الحميد، وغادر هرتزل الآستانة، في ١٨٩٦/٦/٢٨، غاضباً مخذولاً.

في ٢٨ آب / أغسطس ١٨٩٧، انعقد المؤتمر الصهيوني العالمي الأول، في بازل بسويسرا، وأكد على ان هدف الصهيونية إقامة وطن للشعب اليهودي في فلسطين، ولأن هرتزل لمس مدى رفض السلطان توطين اليهود في فلسطين، نصح هرتزل مندوبي المؤتمر، بقوله: " لست أنصحكم بأن تهاجروا إلى فلسطين، فذلك خطر عليكم، وعلى السكان الأصليين. ابتعدوا عن فلسطين، واجتنبوها، واختاروا لأنفسكم بلداً غيرها، ذلك خير لكم " [١٦]. لكن أعضاء المؤتمر الصهيوني أكدوا على ضرورة تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين دون غيرها.

بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، نشط هرتزل، واتصل بالأوساط البريطانية، والنمساوية، والايطالية، والروسية، والمجرية، لبذل وساطتهم، من أجل تحقيق المشروع الصهيوني، مقابل القروض المالية اليهودية للدولة العثمانية.

قابل عبد الحميد هذه العروض بمزيد من التشريعات والقوانين فأصدر في حزيران / يونيو ١٨٩٨، فرماناً بمنع اليهود من دخول القدس. ولم يقتصر تشدد السلطات العثمانية فيما يختص بالهجرة اليهودية، على القدس الشريف فحسب، بل حدث أن منع قائمقام يافا اليهود الإنجليزمن دخول البلاد وإعادتهم إلى السفينة، كما قام بطرد عائلتين يهوديتين، لانتهاء زيارتهما لفلسطين. وبلغ من تشدد السلطات العثمانية من تنفيذ هذه القوانين، أنها منعت نائب القنصل البريطانى في أنطاكية من الدخول إلى فلسطين، مالم يقدم التعهد المطلوب، لكونه يهودياً [١٧]. ذلك التعهد الذي قضى بخروج اليهودي من البلاد، بعد المدة المحددة لزيارته.

قبيل انعقاد المؤتمر الصهيوني الثانى بيومين، في ١٨٩٨/٨/١٣، أرسل هرتزل رسالة إلى السلطان، بمناسبة بدء جلسات المؤتمر، رفع إليه فيها تعهد الصهيونيين المجتمعيين بالاخلاص لجلالته، والتقدير للطفه نحو رعاياه اليهود، وأوضح هرتزل رغبتهم في إغاثة إخوانهم التعساء من دول أوروبا المختلفة، وفي الإسهام في ازدهار الإمبراطورية العثمانية، وأملهم في أن تحظى هذه الرغبات بتقدير السلطان، وتشجيعه [١٨]، وتجاهل السلطان رسالة هرتزل، ولم يرد عليها.

تجاوب عبد الحميد مع مساعى عرب فلسطين، وأرسل إلى كل من متصرفي القدس ويافا (١٨٩٩) لتنفيذ القوانين التي حددت إقامة اليهود في فلسطين، لمدة ٣١ يومًا، فقط.

في ١٣ آيار / مايو ١٩٠٠، توجه هرتزل إلى استانبول، في محاولة

ثالثة للاجتماع بالسلطان، بواسطة المستشرق الهنغاري، فامبري، الذي حذر هرتزل من عبد الحميد، قائلاً له: " إياك أن تحدثه عن الصهيونية، القدس مقدسة لهؤلاء الناس مثل مكة " (١٩). ولم يستطع هرتزل مقابلة السلطان.

في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٠، وزعت السلطات العثمانية على الهيئات القنصلية المختلفة، فرمانات بعنوان: " القوانين المتعلقة بالزوار العبرانيين للأرض المقدسة ". وألغت هذه القوانين تأمين الخمسين ليرة تركية، وتحديد الإقامة فيها بواحد وثلاين يوماً، وسمح لكل يهودي أجنبي، يزور فلسطين، بالإقامة فيها مدة ٣ أشهر. ونصَّت القوانين على وجوب حفظ سجل شهري لتواريخ وتفاصيل مثل هذه التصاريح المؤقتة، وتوزع على السلطات المحلية، والبوليس، من أجل إبعاد الذين تجاوزوا فترة الإقامة(٢٠).

نتيجة لاتصالاته المتعددة، استطاع هرتزل مقابلة السلطان، في ١٨ أيار / مايو ١٩٠١، وعرض هرتزل مرة أخرى، مساعدة تركيا على تسديد ديونها للممولين الأجانب، الذين كانوا يضغطون عليها، ويتدخلون في شؤونها الداخلية، بواسطة قرض طويل الأمد، يقدمه بعض الرأسماليين اليهود، ووقف حملات صحف جماعة " تركيا الفتاة "، مقترحاً، مقابل ذلك إصدار " بيان صداقة " من قبل السلطان تجاه اليهود، يرحب بقدومهم إلى الإمبراطورية العثمانية، والاستيطان فيها وإيجاد ملجأ لليهود في الأراضي المقدسة بفلسطين.

غضب عبد الحميد لما سمع، وتوجه بحديثه إلى مرافق هرتزل،

الحاخام ليفي موسى، قائلا: " إننا نظن بأن قومكم يعيشون بعدالة و أمن، و أنكم تعاملون نفس المعاملة الحسنة التي يعامل بها كافة أتباعنا، دون تفريق أو تمييز، فهل لكم شكاية؟ أو هناك معاملة غير عادلة، ولا نعرفها نحن؟ " فأجاب ليفي: " استغفر الله، سيدي، بفضل ظل شاهانتكم، نعيش بكمال ورفاه، حاشا، لاتوجد لنا شكاية ما ". فرد عليه السلطان: إنكم تستفيدون من خيرات بلادنا، كمواطنينا الآخرين، بل أنتم تنعمون أكثر من سواكم، أفأظنكم نسيتم الاضطرابات و العذاب الذي كنتم ترونه في أنحاء العالم؟ " . ثم وقف عبد الحميد، وأدار نظره إلى هرتزل قائلاً له: " إننا لن نفرط بشبر من بلادنا وإني أحب تطبيق العدالة و المساواة على جميع المواطنين، ولكن إقامة دولة يهودية في فلسطين، التي فتحناها بدماء أجدادنا المسلمين العظماء، فلا " [٢١].

لم يستطع هرتزل، الذي قابل السلطان، مرتين، أن يقنعه بالتخلي عن معارضته لإقامة دولة يهودية في فلسطين، بل إنه، كما ذكر وسيط هرتزل " مارلنغ " - " رفض كل مشاريع الهجرة غير المحددة لليهود إلى تركيا، ووضع كل عقبة في طريق إدخال جماعي لليهود " [٢٢].

يوضح السلطان عبد الحميد في مذكراته الأسباب التي دعته إلى الوقوف في وجه المشروع الصهيوني، بأن دولاً أوروبية كثيرة أرادت التخلص من اليهود، وأيدت هجرتهم إلى فلسطين، " ولكن في دولتنا عددًا كبيرًا من اليهود، فإذا كنا نريد أن يستمر العنصر العربي الإسلامي متفوقاً في فلسطين، فعلينا ألا نسمح بهجرة اليهود إليها، وإذا كان الأمر خلاف ذلك وسمحنا لهم بالهجرة، فإنهم في مدة قصيرة يسيطرون على

الحكم ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكيد " [(٢٣)].

لقد اتجهت سياسة عبد الحميد إلى تقوية العنصر المسلم، وتشجيع هجرة أبناء الدين الإسلامي نفسه إلى البلدان العربية. إما هجرة اليهود فهي، في نظره غير مناسبة، لأنها تزرع في أرض العثمانيين المسلمين سكناً لا ينتمون إلى نفس الدين و العادات وتمكنهم من السيطرة على الأمور، في المستقبل، أو خلق الفتن والقلاقل.

عن القدس يقول عبد الحميد: " لماذا نترك القدس؟ إنها أرضنا، وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة، و تقع في أرض إسلامية، لابد أن تظل القدس لنا " [(٢٤)].

بالرغم من ذلك تمكن الصهاينة من عقد مؤتمر صهيوني في فلسطين، عام ١٩٠١، فقرر الباب العالى وقف اى نشاط سياسى صهيونى في فلسطين، ولم ينعقد المؤتمر مرة أخرى في فلسطين.

كما وقف السلطان عبد الحميد في وجه مشروع صهيوني آخر، أضفت عليه الصهيونية ثوبًا ثقافيًا، هو إنشاء جامعة عبرية في القدس، استهدفت منه الصهيونية استقطاب عدد كبير من الاساتذة اليهود من جامعات العالم إلى فلسطين، لتكون تلك الجامعة دعامة علمية للدولة اليهودية المنتظرة في فلسطين، ووسيلة للتسلل الثقافي الصهيوني على أعلى المستويات إلى فلسطين.

تقدم هرتزل إلى عبد الحميد بمذكرة، مؤرخه في ٣ أيار / مايو

١٩٠٢، طلب فيها بأن يأذن له بإنشاء جامعة عبرية في بيت المقدس، للطلبة العثمانيين، بدلاً من إيفادهم إلى الجامعات الأوربية [٢٥].

صورَّ هرتزل لعبد الحميد دافعين شريفين، يكمنان وراء هذا المشروع. الدافع الأول سياسي: بذريعة حرص هرتزل الصهيوني على عدم تعريض الطلاب العثمانيين في أوروبا لأخطار الغوايات السياسية، فيعتنقون آراء ثورية، قد يطالبون بتطبيقها في الدول، بعد عودتهم من أوروبا، وتكون الدولة أمام أحد أمرين: إما تعريض الطلبة العثمانيين لأخطار هذه الاتجاهات السياسية الثورية، وإما أن تحول بينهم وبين مناهل العلم في أوروبا. أما الدافع الثاني فهو إسلامي؛ بذريعة أن الطلبة العثمانيين قد يبتعدون عن التقاليد الإسلامية، وقد قال هرتزل الصهيوني أنه يخشى أن تفتن الحياة الخلفية الماجنة التي تسود مدن أوروبا الطلاب المسلمين العثمانيين.

لم يكن هرتزل يهدف لفتح آفاق جديدة للتعليم الجامعى أمام الشباب العثماني، بقدر ما كان يطمع في استدراج السلطان كي يأذن له في إنشاء جامعه عبرية، تضفي عليها الدولة العثمانية صبغة شرعية، وتغذيها الحركة الصهيونية بأساتذه وأموال صهيونية. وتغدو مركز إشعاع سياسي ثقافى صهيونى في البلدان العربية، ولهذا رفض عبد الحميد المشروع الصهيوني، جملة وتفصيلاً، حيث رأى فيه تمكيناً لليهود في فلسطين، في حين أن عبد الحميد استهدف استقطاب الرأى العام الإسلامي، من خلال فكرة الجامعة الإسلامية.

عمل عبد الحميد، جاهدًا، على عدم إعطاء أي امتياز لليهود، من

شأنه أن يؤدي إلى تغلب العنصر اليهودي على العنصر العربي. وإلى جانب الإجراءات الإدارية التي قررها عبد الحميد، لمنع استيطان اليهود في فلسطين، قام بجهود مماثلة، لحماية سيناء، التي سعت الحركة الصهيونية، في عهد الخديوي عباس حلمى (١٨٩٢ - ١٩١٤)، إلى استيطان اليهود فيها، باعتبارها محطة أولى للوثوب إلى فلسطين [٢٦].

موقف عرب فلسطين:

لم يتخذ عرب فلسطين، في القرن السابع عشر، موقفًا عدائياً من اليهود، ولم يأخذ الصراع ضد الصهيونية، في أى مرحلة من مراحله، شكلاً دينياً، فقد فرق العرب، منذ وقت مبكر، بين الصهيونية كحركة سياسية، وبين اليهودية كمعتقد ديني. إذ نظر العرب الفلسطنيون إلى اليهود على أنهم شركاء في الوطن وقد لاحظ أول نصل بريطانى في القدس مدى التسامح الديني السائد بالنسبة لليهود [٢٧].

لم يتبدل الموقف العربي من اليهود إلا بعد أن أخذت طبيعة الوجود اليهودي في فلسطين، بل تحول من الطابع الديني والمعيشي إلى الطابع الاستعماري الاستيطاني. وعمل المهاجرون اليهود على امتلاك الأراضي وتجريد الفلاح العربي من أراضيه، وإقامة المستوطنات عليه، بالإضافة إلى مشاعر الخوف و الحذر على المقدسات الإسلامية في فلسطين.

من هنا تصدى عرب فلسطين للنشاط الصهيوني، نتيجة لوعي العرب لأهداف الفكرة الصهيونية، وخطرها المزدوج، الذي يهدد الطابع العربي الإسلامى للقدس، ومعيشة الشعب الفلسطيني. لقد شمل الوعي قطاعات الشعب كله، واتخذت ردود الفعل العربية أشكالاً متنوعة.

سعت حملات الصحافة في فلسطين ومنها " الكرمل "، و " فلسطين "، إلى إيقاظ الوعي القومي، والوقوف ضد الخطر الصهيوني الوشيك الذي يهدد أرض فلسطين، ووجهت الصحافة انتقادات عنيفة إلى الزعماء، والأعيان، والأثرياء، والمتنفذين من السلطات المحلية العثمانية، الذين تواطأوا لبيع الأراضي إلى المهاجرين اليهود.

أما رجال السياسة من أصحاب المناصب الإدارية و أعضاء الأحزاب والجمعيات العربية، أو المندوبين في " مجلس المبعوثان " (*)، فعبَّروا عن معارضتهم للهجرة اليهودية. ففي مرحلة مبكرة أدرك يوسف ضياء الخالدى (عضو المبعوثان، ١٨٧٦) بأن خطة الصهيونية تهدف إلى، اقامة دولة يهودية، ولا يمكن أن يتم ذلك دون وقوع صدام بين العرب واليهود.

تصدى مفتي القدس، محمد طاهر الحسيني، للاستيطان الصهيوني، وترأس عام ١٨٧٩، هيئة محلية ذات صلاحيات، دققت في طلبات نقل الملكية، في متصرفية القدس في حال دون حصل اليهود على أراضي زراعية جديدة، لعدة سنوات [٢٨].

قام وجهاء القدس بحملات احتجاج واسعة، تمثلت في سيل من العرائض الجماعية، ضد تملك اليهود المهاجرين الجدد للأراضي في فلسطين، وضد متصرف القدس، رشيد بك، الذي أبدى محاباة ملحوظة لليهود الأجانب، واتهمَ من قِبل الأهالي بنقل الأراضي لليهود، بطرق غير قانونية، مما أدى إلى إقصاء رشيد بك عن متصرفية القدس.

كما شاهدت فلسطين صدمات عنيفة بين الفلاحين الفلسطينيين ومستوطني بتاح تكفا، مما دفع السلطات العثمانية إلى تعزيز قوة الشرطة في ميناء يافا، وفرض حظر شبه كامل على إقامة المهاجرين اليهود في فلسطين. وعندما اشترى اليهود، عام ١٩٠٠، مساحة من الأرض قرب طبرية، بالتواطؤ مع السلطات المحلية العثمانية، هاجم الفلاحون الفلسطينيون الفنيين اليهود، الذين جاءوا لمسح الأرض، في محاولة من أولئك الفلاحين لمنع إتمام الصفقة، وبالفعل نجح العرب في إلغاء بعض الصفقات التي عقدها الصهاينة، وزادت حدة الاشتباكات بين العرب واليهود، بعد أن تزايدت المعارضة الفلاحين لقدوم اليهود الأجانب من فلسطين.

موقف الموظفين العثمانيين:

في محاولة لتقييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، أكدت السلطات العثمانية على تقوية الجهاز الإداري في فلسطين، لذلك نرى أن أشخاصًا ثلاثة تعاقبوا على إدارة متصرفيه القدس، وهم:

١- محمد شريف رؤوف باشا (*): أيد، تاييداً حازماً، سياسة عبد الحميد في منع اليهود من الإقامة في فلسطين، وكان يسارع لطرد الحجاج اليهود من فلسطين، بالقوة، بمجرد انقضاء المدة المسموح لها.

لذلك، التفت المنظمات اليهودية إلى الأراضى الواقعة شمالي البلاد، لأن المسؤليين الرسميين كانوا أقل صلابة من موظفي متصرفيه القدس. واكتشفت السلطات أن موظفي ميناء يافا المرتشين كانوا يرسلون كل شهر إلى الوالى بيانات كاذبة، تفيد بأن كل اليهود الذين دخلوا البلاد،

خلال الشهر السابق، قد عادوا من حيث أتوا واتهمت الحكومة العثمانية قائممقام يافا بأخذ رشوة من اليهود الممنوعين من الإقامة في فلسطين، وذلك للسماح لهم بدخول الميناء، دون تسجيل أسمائهم، وتم عزله، وشدد الوالي من إجراءاته، وعززت قوة الشرطة في ميناء يافا، واستبعدت منها العناصر الفاسدة (٢٩).

على الرغم من الإجراءات المشددة، التي اتبعها رؤوف باشا، فإنه لم يستطع ايقاف استيطان اليهود في متصرفية القدس، بصورة قاطعة، نظرًا لتلقي الموظفين العثمانيين رشاوى في هذا المجال، ثم قيام سفراء الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وروسيا بحماية رعاياها اليهود، إلى أن استطاع سفير الولايات المتحدة اليهودي، أوسكار شتراوس، أن يحمل السلطات العثمانية على استبدال برؤوف باشا، والٍ آخر للقدس، بعد تلفيق اتهامات لرؤوف باشا (٣٠).

٢- رشيد باشا: على خلاف رؤوف باشا، سمح لليهود بالاستيطان في فلسطين، وفي عهده استخدم اليهود مختلف الوسائل لشراء الأراضي، بما في ذلك رشوة الإداريين العثمانيين، الذين قاموا بتجريد الفلاحين، والمزارعين العرب من أراضيهم نظراً لعدم استطاعة الفلاحين سداد الديون. وحصلت جمعية التوطين الصهيونية على ١٩.٠٠٠ دونماً وبلغ عدد المستوطنيين ٤٠.٠٠٠ مستوطناً عام ١٩٠٤ (٣١).

نزولاً عند الضغوط العربية، والاحتجاجات التي قام بها عرب فلسطين، استبدل به، في عام ١٩٠٦، علي أكرم بك، كما استبدل بحاكم القدس العثماني حاكم آخر.

٣- علي أكرم بك: وضع القيود على الهجرة اليهودية موضوع التنفيذ بشدة وأثبت أثناء توليه المسئولية، كل الحرص على وقف الهجرة اليهودية، وقد تخلص منه الاتحاديون، بعد انقلابهم على السلطان عبد الحميد، لأن الحقبة القصيرة، الممتدة خلال عشرين شهراً من حكمه، طبقت فيها تعليمات الباب العالي، على أكمل وجه.

خلافاً للموقف العثماني الرسمي المتمثل في السلطان عبد الحميد وحكومته، فإن بعض المتنفذين في الإدارة العثمانية المحلية في فلسطين، تحايلوا على القوانين، وتعاملوا مع القناصل الاجانب والمهاجرين اليهود، لتسهيل دخول اليهود إلى فلسطين، وإقامتهم دون وجه حق. وهكذا، استمرت الهجرة اليهودية عن طريق رشوة الموظفين العثمانيين، إن الاعتماد على الرشوة شاع بين الموظفين العثمانيين في جميع تعاملاتهم.

في هذا الصدد، يقول الزعيم الصهيوني، حاييم وايزمان، في مذكراته: " كنا نعرف أن أبواب فلسطين كانت مغلقة، وأن اليهودي كان يمكن أن يُطرد، حالاً، من قبل السلطات، وأن القانون التركي يمنع الحصول على الأراضي، ولو أننا حاولنا أن نكون نظاميين لفزعنا، ولكننا عبرنا عن طريق ملتوٍ، فاليهود استقروا في فلسطين، ولم يطردوا، واشتروا أرضًا، أحيانًا عن طريق رجال صورة، أو بالرشوة، لأن الجهاز التركي كان فاسدًا " [٣٢].

موقف الدول الاجنبية:

غني عن القول بأن القيود التي فرضها السلطان على هجرة اليهود في فلسطين فشلت، إلى حد ما، في تقييد هجرة اليهود، واستيطانهم أرض

فلسطين. ففي عام ١٩٠٨ كان ٨٠.٠٠٠ من اليهود يسكنون فلسطين، وما يعني أن نسبة العنصر اليهودى قد انتقلت من ٥% إلى ١٠%، من إجمالى سكان فلسطين، وذلك في غضون ثلاثين سنة، وعلاوة على الإقامة في المدن المقدسة، فقد أقام اليهود في مناطق تمتد من يافا وحيفا، وأنشأوا ستاً وعشرين مستعمرة زراعية، ضمت ألف نسمة [٣٣].

يمثل ذلك بالنسبة للحكومة العثمانية فشلاً، يرجع بلا شك، إلى جوانب ضعف الإدارة العثمانية المحلية، وفسادها، لكنه يرجع، بدرجة أكبر، إلى سياسة الدول الأجنبية. فقد عمدت الدول الأوروبية، وروسيا، والولايات المتحده إلى تشجيع هجرة اليهود من هذه الدول إلى فلسطين، وسهّلت لهم تلك الدول الإقامة غير القانونية في فلسطين.

نظرًا لضعف الحكومة العثمانية من جهة، وازدياد تآمر الدول الاستعمارية، من جهة ثانية، فقد قوبلت القوانين والتشريعات العثمانية المقيِّدة لإقامة اليهود في فلسطين بالمعارضة، والمحاربة من الدول الأجنبية، التي كانت تعمل جاهدة على ترسيخ المشروع الصهيوني الاستعماري، وكثيرًا ما كانت تلك الدول تتحدى الباب العالي، في معارضتها لتلك السياسة العثمانية.

لعبت السياسة البريطانية والأمريكية دورًا فعالاً في إنجاح عملية تهريب اليهود، وشراء الأراضي، بأساليب ملتوية، وكان نشاط السفير الأمريكي الصهيوني في استانبول، أوسكار شتراوس، في هذا المجال ملحوظًا، حيث لم تكن الولايات المتحدة أقل تطلعًا إلى تنفيذ المشروع الصهيوني من الدول الأوروبية.

استمر تهجير اليهود إلى فلسطين، بازدياد النشاط الاستعماري، ونشاط قناصل الدول الأجنبية في هذا المجال. وجاءت وفود المهاجرين اليهود إلي فلسطين، دون أى سند اللهم الا نظام الامتيازات الأجنبية، الذي ساد في العهد العثماني والذي أباح للدول الأجنبية التدخل لصالح اليهود الأجانب، باسم حماية رعايا تلك الدول، إذ حصل كثير من اليهود على وضعية " المحمي " من جانب القنصليات الأوروبية، وباسم الدفاع عن حقوق الإنسان، وحماية الأقليات، ورعاية مصالح اليهود المضطهدين.

ثالثاً: اليهود والاطاحة بعبد الحميد:

بعد فشل المنظمات الصهيونية في إقناع عبد الحميد، بإعطائه امتياز الاستيطان في فلسطين، تركزت الجهود الصهيونية على التخلص من السلطان، وتنصيب بديل، له القدرة على إلغاء القيود التي فرضها عبد الحميد.

وقد عبَّر هرتزل عن ذلك، بقوله: " لقد فقدنا الأمل في تحقيق آمال اليهود في فلسطين، فإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض [الموعودة]، طالما ظل عبد الحميد قائمًا في الحكم، مستمرًا فيه " (٣٤).

أجمع الصهاينة على إدانة عبد الحميد، لأنه عرقل المشروع الصهيوني. يقول الصهيوني ليبرمان: " سوف نذهب إلى الأرض [الموعودة]، بعد إبعاد السلطان الظالم، عبد الحميد، واليوم يقوم سلطان ضعيف على إدارة فلسطين، لا يتدخل في شئون هجرتنا، كان يحكم فلسطين أصدق الأمم لتعاليم محمد، وهم العرب القساة الذين لا يرحمون. في حالة هجرة اليهود إلى فلسطين، في عهد الحكم العربي، والسلطان

التركي عبد الحميد، كان هؤلاء يمنعون اليهود من النزول في فلسطين و يبقون في البواخر، حتى يهلكوا جوعى. في هذه الفترة انتهى ذلك العهد الأسود وسوف نتخلص من الاستبداد و نجتمع هناك إن إخواننا اليهود أنفقوا أموالاً طائلة لإبعاد ذاك السلطان الظالم من الحكم " [٣٥].

تذكر المصادر الصهيونية أنه بسبب موقف السلطان عبد الحميد (المتصلب في المشروع الصهيوني)، عرض هرتزل على الصهاينة، في ٢٤ شباط / فبراير ١٩٠٤، اقتراحًا يقضي بأن يبحر هرتزل إلى البوسفور، في سفينتين، وينسف قصر يلدز، ويعمل على إتاحة الفرصة للسلطان بالهرب، أو القبض عليه، وتعيين سلطان آخر، بدلاً منه، وإقامة حكومة تعطي اليهود امتياز الاستيطان في فلسطين. ورغم غرابة الفكرة، فقد درسها هرتزل، وقدر تكاليفها، وفكر في عواقب فشلها، فتراجع عنها، بسبب خشيته من قيام مذبحة هائلة، يُمنى بها اليهود من الدولة العثمانية، إذا فشل المشروع [٣٦].

إن مواقف عبد الحميد المتصلبة أمام تحقيق المشروع الصهيوني باستيطان اليهود أرض فلسطين، جعلهم يوقنون باستحالة تحقيق مشروعهم، طالما بقى عبد الحميد في الحكم. لذلك تلاحمت جهود الصهاينة مع الدول الأوربية، التي سعت للانقضاض على الدولة العثمانية، وتقسيم ممتلكاتها فيما بين الدول الأوروبية.

تلاحمت جهود الصهاينة مع الدول الأوروبية، وقدمتا شتى وسائل الدعم للمعارضين لحكم السلطان عبد الحميد، داخل تركيا، مثل جمعية " الاتحاد والترقي " [*]، واستخدامها أداة بما يحقق مصالح الصهاينة

والغرب.

أكدت الجمعية الإسرائيلية في مصر على أن أهم وجابتها إدخال المطبوعات التي تهاجم عبد الحميد إلى داخل حدود الدولة العثانية، بأي شكل من الأشكال [٣٧]. وعمد عدد كبير من اليهود إلى التسرب في صفوف الحركات القومية التركية، وخاصة لجنة " الاتحاد والترقي ".

ثمة اتفاق بين المؤرخين على أن أقطاب " الاتحاد والترقي " كانوا من اليهود، أو من تلاميذهم، وحملة آرائهم، والمنفّذين لمخططاتهم.

يقول، في هذا الصدد، المؤرخ سيتون واتسون " إن أصحاب العقول لحركة " الاتحاد والترقي "، عام ١٩٠٨، كانوا يهودًا من الدونمة [**]، أما المساعدات المالية، فإنها كانت تصل إليهم عن طريق الدونمة، ويهود سلانيك " [٣٨].

النائب البريطانى، أوبري هربرت يقول: " إن يهود سلانيك، الذين يُعرفون بالدونمة كانوا مدبري الثورة الحقيقية و لم يكن احد يعلم عنهم الكثير، إلا العلماء، ولكن ما من أحد يتنبأ بأن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة بالدونمة ستطلب دوراً رئيسياً في ثورة، كان لها نتائج خطيرة في سير التاريخ [٣٩]. ويؤكد هذه الحقيقة الكاتب اليهودي إبراهام غلانانتى، في كتابه " الأتراك اليهود ".

بعد أن تحدث القنصل البريطانى في القدس، في عام ١٩٠٨، عن المصاعب والعراقيل التي وضعها عبد الحميد في مواجهة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، انتقل إلى القنصل الدور الفعال لليهود في حركة

" الاتحاد والترقي "، كما وصف المستشار السياسي للسفير البريطاني في القدس، جيرالد فيتسموس، ضباط " تركيا الفتاة " بأنهم عصابة، يقف وراءها اليهود والصهيونية العالمية، بتحالف مع الماسونية (*)، التي كان انتشارها في الشرق عظيماً (٤٠).

ضمت جماعه " الاتحاد والترقي " في صفوفها مجموعه من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة بتأييد المحافل الماسونية، والغرب، وقامت على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، تحت شعار علو " الطورانية " (**)، وكانت الغاية منها فصم عرى العلاقة بين العرب والأتراك، بعد الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد.

إن لليهود الأوربيين، واليهود المحليين في الدولة العثمانية، في القرنين التاسع عشر، والعشرين، دور ضخم في إرساء تيار القومية الطورانية، فالعلماء اليهود في الغرب، مثل لوملي دافيد، وليون كاهون، وأرمينيوس فامبري، تصدوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية، كما أن اليهود المحليين في الدولة العثمانية، مثل ايمانيول قرصوه، ومئيز كوهين، وابراهام غالانتي كان لهم ضلع في جمعية " الاتحاد والترقي "، ويقول موئيز كوهين: " من الإلزام أن يتخذ جميع الأتراك، كل الوسائل، في سبيل سمو الجنس التركي" (٤١).

أكدت الأحداث عظم نفوذ اليهود، وكثرتهم الغالبة في حركة " تركيا الفتاة "، فقد كان من زعمائهم المؤسسين نسيم رويسو و يشم ماذليخ، وانضم، لاحقاً، ابراهام غلاناتي، وموئيذ كوهين، وإيمانويل قراصوه، وجاويد، ومترسالم، وآخرون.

يعتبر إيمانويل قراصوه من أهم شخصيات التي لعبت دوراً مهماً في حركة " تركيا الفتاة "، وهو يهودي، أسباني الأصل، وعنصر مؤسس لأول محفل ماسوني في تركيا، ولعب دورًا مهمًا في احتلال إيطاليا لليبيا، نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا، وكان قراصوه أحد أعضاء الوفد الذي نقل إلى عبد الحميد نبأ خلعه، سنة ١٩٠٩، وقد أشار عبد الحميد إلى قراصوه، قائلاً: " ماهو عمل هذا اليهودى في مقام الخليفة؟ " [٤٢].

يورد البروفسور الأمريكي، أرنست. أ. رامزور، شواهد عدة عن علاقة جماعة " تركيا الفتاة " بالماسونية، والدول الأجنبية. يقول: " أما فيما يتعلق بأعضاء (تركيا الفتاة)، في أوروبا، فيبدو بأن عددًا منهم ارتبط بالمحافل الماسونية، لما كانوا في المنفى ". يردف رامزور: " إن أحد المحللين عن علاقة الثورة التركية بالماسونية قد أكد، أنه في حوالي سنة ١٩٠٠، قرر محفل الشرق الأعظم الفرنسي إزاحة السلطان عبد الحميد، وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة (تركيا الفتاة)، منذ بداية تكوينها، ثم إن محللاً آخر أكد بأن الثورة التركية كلها، تقريبًا، من عمل مؤامرة يهودية ماسونية، وأن الماسونية لقيت رواجًا في تركيا، لبعض الوقت، على أثر ثورة ١٩٠٨ [٤٣].

لقد أفاد أعضاء جمعية (الاتحاد والترقى)، التي أسقطت عبد الحميد، لانتسابهم من الماسونية، بحمايتها لهم، فقد ضمت الجمعيات الماسونية عدداً كبيرًا من الأجانب و هؤلاء كانوا يتمتعون بامتيازات من الحكومة، تجعلهم قادرين على حماية أعضاء الجمعية، ومساعدتهم في نقل مطبوعاتهم من مكان إلى آخر، وفتح مقار لاجتماعات أعضاء " الاتحاد

والترقي ".

وقد أدلى أحد أعضاء جمعية " الاتحاد والترقي "، رفيق مانياسي زادة، بتصريحات إلى صحيفة " تمبس " الفرنسية، في باريس، عقب نجاح انقلاب حركة " الاتحاد والترقي "، حيث جاء فيها " لقد كانت للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الأثر الكبير في حركتنا. ويجب أن لا نستغرب ذلك، لأننا ماسونيون، أيضًا، وأود أن أوجه شكري إلى الجمعية الماسونية الإيطالية، التي أمدتنا بالعون العظيم، نظرًا لارتباطنا الوثيق بها[٤٤].

يؤكد ما سبق أن السفير البريطاني في تركيا، السير جيرار لوثر، ذكر في رسالته إلى وزير خارجية بريطانيا، آنذاك، أن لجنة (الاتحاد والترقي)، تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفًا يهوديًا - تركيًا مزدوجًا، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية، ويمدها اليهود بالعقل المدبِّر، وبالمال، والنفوذ الصحفي القوي في أوروبا. إن اليهود الذين يبدون، الآن، في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة، يعملون على السيطرة الاقتصادية على (تركيا الفتاة)، ولكي يصل اليهود إلى مراكز النفوذ، فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية " [٤٥].

إن اليهود و الحركة الماسونية سعوا، بشدة، لعزل السلطان عبد الحميد، كما تعمَّد اليهود نقل عبد الحميد، بعد الإطاحة به إلى ولاية سلانيك، مركز يهود الدونمة، وتحديد إقامته في قصر يملكه صراف يهودي. وعبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها في الخلاص من " مضطهد إسرائيل " كما وصفته هذه الصحف، وأخذت تزف

البشائر بالخلاص من مضطهد اليهود، الذي رفض الاستجابة لطلب هرتزل أكثر من مرة واعتبروا يوم الإطاحة بعبد الحميد عيداً لهم (٤٦).

بعد الإطاحة بعبد الحميد، تسلم الحكم في الدولة، بصورة حقيقية، أعضاء " الاتحاد والترقي "، حيث أشرف على أمور الدولة أركان يهود الدونمة، وهم: جاويد، وقراصوه، وغيرهم، الذين أفسحوا المجال لتحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين.

اكتشف بعض أقطاب حركة " الاتحاد والترقي "، فيما بعد، أنهم وقعوا تحت تأثير الصهيونية. يقول أحد قادة الاتحاديين العسكريين، أيوب صبري: " لقد وقعنا في شرك اليهود، عندما نفذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين، لقاء صحيفتين من الليرات الذهبية، وفي الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا أنه لم يقبل بذلك " (٤٧).

من القرائن التاريخية السابق عرضها، نستطيع القول:

تزامنت جهود الصهاينة لإقامة دولتهم المزعومة في فلسطين، مع فترة الاضمحلال التي مرت بها الدولة العثمانية والتدهور الكبير الذي أصابها، في مواجهة السعى الأوربى لاقتسام ممتلكاتها. فلم يعد للدولة العمانية الوزن السياسي، أو الثقل العسكري، الذي تمتعت به في فترتها الأولى، ولذلك لم يكن في مقدور السلطات العثمانية أن تخوض بنجاح، صراعاً، سياسيًا، وعسكريًا رهيبًا ضد التحالف الصهيوني الغربي.

تملك اليهود لأراضي فلسطين بدأ في عهد السلطان سليمان القانوني، ومن بعده، واستمر، بصورة متقطعة، في عهد السلطان عبد الحميد، بالرغم من القوانين التي أصدرها للحد من هجرة اليهود إلى فلسطين.

لقد نجح اليهود في التسلل إلى أرض فلسطين عبر عده ثغرات، منها:

- قانون الأراضي العثماني، منذ عام ١٨٥٨، الذي يعد بمثابة ثغرة تسلل منها اليهود، إذ قاموا بشراء الأراضي بأسماء عربية، وتركية، فمن نقاط الضعف التي تسجلها هذه الدراسة على السلطان عبد الحميد أنه لم يلغ هذا القانون.

- عمد اليهود إلى استغلال النظام الفاسد في انحاء الدولى العثمانية وقدموا الرشاوى لبعض المسئولين العثمانيين، لتسهيل إقامة اليهود، بصورة غير قانونية في فلسطين.

- المساهمة الاجنبية في استيطان اليهود ارض فلسطين كانت فعالة، ودؤوبة، وتواصل تدخل القنصليات الأجنبية لحماية اليهود المقيمين في فسلسطين، بطرق غير شرعية، باعتبارهم رعايا هذه القنصليات.

بالرغم من أوجه القصور في سياسة عبد الحميد تجاه اليهود، والتي أدت إلى إخفاقه في منع التسلل اليهودي إلى فلسطين، فإنه نجح في الحد من هذه الهجرة، وفي الحفاظ على عروبة فلسطين.

إن سياسة السلطان عبد الحميد تجاه الصهيونية واضحة، ووقوفه ضد المشروع الصهيوني في فلسطين، كان أحد أهم الأسباب التي أدت إلى الإطاحة بحكمه.

لقد جاءت نهاية حكم عبد الحميد لتفتح المجال الواسع امام النشاط الصهيوني في فلسطين، فبعد زوال حكم عبد الحميد، تدفق اليهود بأعداد هائلة إلى فلسطين، و قدم حكم (الاتحاد والترقي) التسهيلات اللازمة لليهود، ومالبثت أن قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وتمت تصفية الدولة العثمانية، على أيادي الاتحاديين، وانفسح المجال أمام بريطانيا والصهيونية لابتلاع فلسطين.

العجيب أن توجه إلى السلطان عبد الحميد تهمة في واحد من أكثر مواقفه صلابة فإن موقف عبد الحميد الرافض للمشروع الصهيوني، على الرغم من الأموال الطائلة التي عرضت عليه، يؤيد هذا الموقف ويوثقه، قرائن قاطعة من مصادر تاريخية، لا تقتصر على مؤيديه، و إنما تتجاوز إلى خصومه.

* * *

مراجع الفصل الثاني والعشرون

(*) لعب أنور باشا، وجمال باشا دورًا رئيسيًا في انقلاب جماعة " الاتحاد والترقي "، ضد السلطان عبد الحمدي. رفيق شاكر النتشه، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٥، ص ١١٣.

(١) د. محمد حرب، **مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني**، القاهرة، دار الهلال، كتاب الهلال، العدد ٤١٨، تشرين الاول / اكتوبر ١٩٨٥، ص ١٤.

(*) اسم أطلقه الأوروبيون على الدولة العثمانية.

(٢) د. نادر العطار، **تاريخ سوريا في العصور الحديثة، دور حكام السلاطين الفعلى في العهد العثماني (١٥١٦ - ١٩٠٨)**، دمشق، ص ٤٩.

(**) السنجق وحدة إدارية، تلي المتصرفية في أهميتها، أما نابلس فكان اسمها البلقاء، وأطلق عليها اسم نابلس، بعد عام ١٨٨٨.

(٣) إميل توما، **فلسطين في العهد العثماني**، عمان، الدار العربية للنشر والتوزيع، د.ت، ص ١٣٤.

(٤) د. أحمد ناوي النعيمي، **أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين**، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٢، ص ٤٠.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر: -.

- **الموسوعه الفلسطينية**، القسم الثانى، دراسات القضيى الفلسطينية المجلد الخامس بيروت، ط ١، ١٩٩٠.

صابر موسى، نظام ملكية الاراضى في فلسطين في أواخر العهد العثماني، **شؤون فلسطينية** (بيروت)، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٩، العدد ٩٥، ص٨٣.

(*) تأسست جمعية الأليانس في فرنسا على يد ستة أشخاص، سنة ١٨٦٠.

(٦) حسان على الحلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٥٧ - ١٩٠٩)**، بيروت، الدار الجامعية، ط٢، ١٩٨٠، ص ٣٩.٠.

(٧) النعيمى، **مصدر سبق ذكره** ص ١٤٦.

(٨) د. محمود صالح منسى، **دراسات في تاريخ الشرق العربي الحديث**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٢، ص ٨٢.

(٩) النتشة، **مصدر سبق ذكره** ص ١٠١ - ١٠٢.

(١٠) د. جمال عهبد الهادى، **أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ - الطريق إلى بيت المقدس**،

المنصورة، دار الوفاء، ١٩٩٤، ص ٢٠.
(١١) د. عبد العزيز الشناوي، **الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٦، ص ٩٧٦.
(*) المتصرفية وحدة إدارية، تلي الولاية مباشرة في الأهمية والمساحة، وقد خُصَّت القدس بهذا المركز، نظراً لمنزلتها المقدسة، وقد التقت حدود متصرفية القدس الجنوبية بالحدود المصرية في سيناء، وتحددت المساحة الفلسطينية من ولاية بيروت ومتصرفية القدس.
ساطع الحصري، **البلاد العربية والدولة العثمانية**، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٦٠، ص ٢٤٤.
(**) المقصود الصدر الأعظم في استانبول، الموازي لمنصب رئيس الوزراء.
(١٢) محمد طه الجاسر، لكن السلطان لم يصمد، **العربي** (الكويت)، آذار / مارس ٢٠٠١، العدد ٥٠٨، ص ١٦٥.
(*) بولوني، عمل ملحقا في سفارة النمسا بالآستانة، وكان على علاقة طيبة بالسلطان عبد الحميد.
(١٣) توما، **مصدر سبق ذكره**، ص٨٣.
(١٤) أنيس صايغ (محررا)، **يوميات هرتزال**،منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ط٢، ١٩٧٣، ص ٧٦.
(١٥) عبد الهادي، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١.
(١٦) صايغ، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٤.
(١٧) النتشه، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٨.
(١٨) **الموسوعه الفلسطنيه**، القسم العام، المجلد الخامس، دمشق ط١، ١٩٨٤، ص ١٥٨.
(١٩) النتشة، **مصدر سبق ذكره**، ص١٣.
(٢٠) العطار، **مصدر سبق ذكره**، ص٥١.
(٢١) النتشه، **مصدر سبق ذكره**، ص٣١ - ١٤.
(٢٢) النعيمى **مصدر سبق ذكره** ص٤٣.
(٢٣) السلطان عبد الحميد الثانى، **مذكراتي السياسية (١٨٩١ - ١٩٠٨)**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ص ٣٤.
(٢٤) حرب، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢.
(٢٥) انظر نص هذة المذكرة:
وزارة الارشاد القومي، الهيئه العامه للاستعلامات، **ملف وثائق فلسطين**، القاهرة، ج١، ١٩٦٩، وثيقة رقم ٥١، ص ١٣٩.
(٢٦) لمزيد من التفصيل، انظر:
- الشناوى، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٦٩ - ٩٧٢.
(٢٧) قاسمية، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٣.

(*) البرلمان العثماني، ومقره استانبول.
(٢٨) النعيمى، **مصدر سبق ذكره**، ص٤٧.
(*) تركي، مكث في القدس اثنتي عشرة سنة (١٨٧٧ - ١٨٨٩)، وكان من الموالين للعرب، وعرف بعدائه للأوروبيين.
النعيمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥.
(٢٩) النتشة **مصدر سبق ذكره** ص١٧٢ - ١٧٣.
(٣٠) النعيمي، **مصدر سبق ذكره**، ص٥٦ - ٥٧.
(٣١) لمزيد من التفصيل أنظر:
- اميل توما، **مصدر سبق ذكره**، ص١٧٦ - ١٧٧.
- النعيمي، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٢.
- النتشة، **مصدر سبق ذكره**، ص٦٨٢.
(٣٢) حاييم وايزمان، **التجربة والخطأ**، ترجمة وديع البستاني، الناصرة، مطبعة الحكيم، ١٩٦٤، ص ١٩٦.
(٣٣) روبير مانتران، **تاريخ الدوله العثمانيه**، ترجمة بشير السباعي، الجزء ٢، القاهرة دار الفكر للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٢، ص ١٩٦.
(٣٤) حرب، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢.
(٣٥) أورده النعيمى، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥٠.
(٣٦) الشناوى، **مصدر سبق ذكره**، ص٩٧١.
(*) في عام ١٨٨٩، شكل جماعة من طلبة المدارس العسكرية، في استانبول، منظمة سرية هدفها الواضح، عزل السلطان عبد الحميد، وتلقت هذه المنظمة دعمًا من الدول الأوروبية.
(٣٧) النتشة، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨١.
(**) الدونمة: كلمة تركية، أطلقها الأتراك على اليهود الذين هاجروا من أسبانيا إلى تركيا، بعد اضطهادهم على أيدي محاكم التفتيش منذ القرن الخامس عشر، وهي كلمة تركية مركبة من جزئين: " دو " بمعنى اثنين، وهي فارسية الأصل، و " نمة "، بمعنى نوع. وكلمة " دونمة "، تعني الفرق القائمة على نوعين من الأصول: يهودي - إسلامي. والمقصود بها من تظاهروا بالإسلام، وأضمروا اليهودية، وعاشوا بوجهين. وصارت لقبًا شائعًا لتلك الجماعة.
لمزيد من التفاصيل، انظر:
محمد إبراهيم زغرورت، **دور يهود الدونمة في إسقاط الخلافة العثمانية**، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٩٩١.
(٣٨) أورده: النعميى، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٣.
(٣٩) لمزيد من التفيصيل، انظر:
- أنور الجيندي، **يقظة الفكر العربي في مواجهه الاستعمار**، القاهرة، الأنجلو مصرية،

١٩٧١، ص ٩٧ - ٩٩.

- سعيد الأفغاني، سبب خلع السلطان عبد الحميد، **العربي** (الكويت) مارس / آذار ٢٠٠١، العدد ٥٠٨، ص ٦٧ - ٦٩.

(*) جاءت تسمية الماسونية من كلمة " ماسون " وتعني بالإنجليزية والفرنسية البناء و " فرى " بمعنى حر، فتصبح، " فرى ماسون "، ولكن العرب أطلقوا اسم " ماسونية ".

(٤٠) النعيمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٩.

انظر: سيف الدين البستاني، **أوقفوا هذا السرطان/ حقيقة الماسونية وأهدافها**، دمشق، دار النهضة، ١٩٥٩، ص٢١.

(**) اتجاه الطورانية يؤكد أن الترك من أعرق الأمم، وشعارهم عدم التدين، وإهمال " الجامعة الإسلامية "، وعاد هذا الاتجاه إلى إحياء عقائد الترك الوثنية، السابقة لإسلامهم، كالوثن التركي القديم " بوزقورت "، الذي وضعوا له الأناشيد، وألزموا الجيش بأن يصطف لإنشادها، عند كل غروب، وقد سيطر هذا الاتجاه على جماعة " الاتحاد والترقي".

- لمزيد من التفاصيل، انظر:

محمد حرب، موئيز كوهين يهودي عثماني من قادة الطورانية، **العربي** (الكويت)، أيار / مايو ١٩٨٢، ص ٨٧ - ٨٩.

(٤١) **المصدر نفسه**.

(٤٢) فتحي رضوان، ملف كامل لقضية خطيرة، **الدوحة**، (الدوحة) العدد ٧٦، ١٩٩٨، ص ٢٧.

(٤٣) إرنست. آ. رامزور، **تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨**، ترجمة أحمد صالح العلي، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠، ص ٧٧ - ٧٩.

(٤٤) النتشة، **مصدر سبق ذكره** ص ١٧٠.

(٤٥) موسوعة القضية الفلسطينية، **ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية**، الجزء الأول، القاهرة، الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩، ص ١١٤.

(٤٦) جون هاسلب، **السلطان الأحمر عبد الحميد**، ترجمة فيليب عطا الله، بيروت، دار الروائع الجديدة، ١٩٧٤، ص ٣١٩ - ٣٢٧.

(٤٧) أورده: النعيمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٩.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

فلسطين تحت الانتداب البريطاني (١٩١٨ - ١٩٤٨)

الفصل الثالث والعشرون:
فلسطين تحت الانتداب البريطاني(١٩١٨ - ١٩٤٨)

عبد القادر ياسين

على مدى أربعة قرون رزحت فلسطين - ضمن ولاية سورية - تحت الحكم العثماني (١٥١٦ - ١٩١٨)، فتخلف اقتصادها، وتشوه تطورها الاجتماعي، وتجمدت ثقافتها [١].

لقد فجَّر الاستبداد العثماني انتفاضات فلاحية عدة في فلسطين، فيما سرَّعت حملة إبراهيم باشا المصرية على سورية (١٨٣٢ - ١٨٤٠) في تبلور الحركة الوطنية هناك، بضرب هيبة الدولة العثمانية، بعد هزيمتها السهلة السريعة أمام قوات إبراهيم، كما أن الحملة حرَّضت الجماهير السورية على مصالحها، بعد أن أشركت تلك الحملة السوريين في حكم أنفسهم بأنفسهم. فضلاً عن أن ثقة السوريين بأنفسهم تعززت، حين أسهموا في دحر حملة ابراهيم، التي انقلبوا عليها، بعد أن فرض ابراهيم عليهم التجنيد الإجباري، وسحب أسلحة منهم، وضاعف الضرائب التي كانوا يرزحون تحت وطأتها أصلاً.

بداية، عبَّرت الحركة الوطنية عن نفسها، فكريًا، ثم سياسيًا، حين تأسست، في بيروت، سنة ١٨٧٥، أول جمعية عربية سرية ضد العثمانيين، ومن بعدها توالى انتشار الجمعيات المماثلة في أرجاء ولاية سورية [٢].

توهم الوطنيون السوريون بأن عهدًا من " الأخاء العربي العثماني " قد بدأ، مع وصول جماعة " الاتحاد والترقي " إلى السلطة في استانبول، صيف ١٩٠٨، لكن التعصب القومي لتلك الجماعة سرعان ما تجلى، فتراجع الوطنيون السوريون إلى المطالبة بالحكم الذاتي، قبل أن يلحوا على طلب " الاستقلال التام " [٣].

فيما تصدى الفلسطينيون للاستيطان اليهودي، الذي بدأ منذ سنة ١٨٨٢، وهي السنة نفسها التي احتل البريطانيون فيها مصر. وتنوعت أشكال كفاح الفلسطينيين هنا، من الهجمات المسلحة، إلى مذكرات الاحتجاج، والقتال، والكراسات، والخطب من فوق منبر " المبعوثان " (البرلمان العثماني) [٤].

ما أن اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، حتى أعلنت الدولة العثمانية انحيازها إلى ألمانيا، ما وفر سانحة نادرة لفرنسا وبريطانيا، كي تنفّذ أطماعها في ولايات " الرجل المريض "، كما كان يحلو للغرب أن يسمي الدولة العثمانية، فاتفقت الدولتان الاستعماريتان على اقتسام الولايات العربية للدولة العثمانية، فكان " اتفاق سايكس - بيكو " (أوائل ١٩١٦) في هذا الصدد، فيما تبادل شريف مكة، الحسين بن علي، الرسائل مع المعتمد البريطاني بالقاهرة، هنري مكماهون

(صيف ١٩١٥ - شتاء ١٩١٦)، وفيها وعد الأخير ابن علي بمنح الولايات العربية الاستقلال. وفي ١٩١٧/١١/٢ منح وزير الخارجية البريطاني، آرثر بلفور، الحركة الصهيونية وعدًا، بمنح فلسطين وطنًا قوميًا لليهود. على أن الاستعماريين، البريطاني والفرنسي، لم يتنكرا إلا لوعودهما للشريف الحسين بن علي. وسرعان ما أكملت القوات البريطانية - بدعم من قوات " الثورة العربية الكبرى " - احتلال فلسطين، مع مطلع ١٩١٨، وعمدت بريطانيا إلى سلخ فلسطين عن الجسم السوري، فيما انتدب مؤتمر سان ريمو (إبريل / نيسان ١٩٢٠) بريطانيا على فلسطين، الأمر الذي اعتمدته " عصبة الأمم "، بعد سنتين وثلاثة أشهر.

هنا تفجَّرت صدامات طائفية في ظاهرها (عربية - يهودية)، سنوات ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٤. على أن هذه الصدامات كانت وطنية - طبقية، في جوهرها. وقادت " الجمعيات الإسلامية المسيحية " هذه الصدامات، وهي الجمعيات التي احتكر كبار الملاك قيادتها [٥].

أخذ الانتداب يعد فلسطين كي تتحول إلى " وطن قومي " لليهود، ففتح الانتداب أبواب فلسطين للهجرة اليهودية، وسهَّل انتقال الأراضي للصهاينة، ومؤسساتهم، وضيَّق على العمال، والرأسماليين، والمثقفين العرب، فيما حابى نظراءهم الصهاينة.

لقد حرصت الحركة الوطنية الفلسطينية على شعاراتها، على مدى ثلاثة عقود متصلة (١٩١٨ - ١٩٤٨)، وتمثلت هذه الشعارات في: (وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين / منع انتقال الأراضي لليهود / وإلغاء "

وعد بلفور ").

بيد أن الحركة الوطنية الفلسطينية وقعت في إسار الإحباط من غدر الإنجليز، مع عدم أهلية قيادة تلك الحركة، ففقدت الحركة الاتجاه، وارتبكت زهاء ست سنوات عجاف متصلة، إلى أن كانت سنة ١٩٢٨، حيث دخلت فلسطين في أزمة اقتصادية خانقة، واجتاحتها الجراد، والطاعون، والزلزال، في آن، ثم هتفت جموع يهودية (صيف ١٩٢٨): " الحائط حائطنا "، عند " حائط البراق "، الذي يزعمون بأنه الحائط المتبقي من هيكل سليمان. وحين كرر اليهود هتافاتهم تلك، بعد سنة واحدة، اندلعت هبَّة البراق، صيف ١٩٢٩، لمدة أسبوعين، وامتدت من القدس، إلى الخليل، وصفد [٦].

كشفت الهبَّة جملة من الحقائق، منها التحيُّز البريطاني للصهاينة، وعقم الأشكال الكفاحية التي فرضها كبار الملاك على الشعب الفلسطيني (مذكرات / مؤتمرات / وفود).

في وقت اشتد ساعد الرأسمالية العربية الفلسطينية، وهي الطبقة الثورية، حينذاك، أولاً بسبب أنها وليدة، وثانيًا لأنها كانت ترزح تحت نيريْ الاستعمار البريطاني والصهيونية، وثالثًا لطموحها إلى الاستقلال بسوقها المحلية، ناهيك، رابعًا، عن انقطاع صلة تلك الرأسمالية بالسوق الرأسمالية العالمية.

هنا أطلت ثلاثينيات القرن العشرين مع دخول تلك الرأسمالية شريكًا صغيرًا في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، مع كبار الملاك. ومع

استقواء الرأسمالية بالعمال والفلاحين، فضلاً عن استقوائها بالبرنامج السياسي السليم، الذي اعتبر الإنجليز " أُس البلاء "، والصهاينة مجرد ذيل لهم، وبالتالي لا مفر من أشكال كفاح هجومية ضد هذين العدوين. الأمر الذي تجلى في انتفاضتيْ ربيع وخريف ١٩٣٣، فحركة القسَّام، بعد سنتين، قبل أن تندلع ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩، بعد حركة القسَّام بخمسة أشهر.

حركة القسَّام:

من جبلة، شمال غربي سوريا، وفد الشيخ عز الدين القسام إلى فلسطين، سنة ١٩٢٢، مفلتًا من حكم بإعدامه من محكمة عسكرية انتدابية فرنسية، بسبب اشتراكه في ثورة صالح العلي.

بدأ القسام بتجنيد الأعضاء لتنظيمه السري، وحين انفرطت براميل يُفترض أنها محشَّوة بالأسمنت، في ميناء يافا العربي الفلسطيني، وكانت مرسلة إلى جهات صهيونية بفلسطين، اتضح بأنها محشوَّة بالأسلحة، والذخائر.

أضرب عمال ميناء يافا، وتعزز استعداد الشعب للثورة، والتقط القسام " اللحظة الثورية "، فخرج، في ١٩٣٥/١١/١٥ بكوكبة من رفاقه إلى أحراش جنين، حيث الطبيعة الوعرة، والأحراش الكثيفة، وسخط الفلاحين الأعلى، وقبضة الانتداب البريطاني الأضعف هناك. لكن أحد رفاق القسام خرج على التعليمات، وقتل شرطيًا صهيونيًا، فكشف موقع القسام ورفاقه، ما سهَّل للبريطانيين قتل معظمهم، وأسر آخرين، وإفلات من تبقى (١١/١٩) [٧].

ثورة ١٩٣٦:

وصل الاحتقان الشعبي ذروته، مع استشهاد القسام ورفاقه، خاصة مع الارتفاع الملحوظ في منسوب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بمجرد وصول النازي إلى الحكم في ألمانيا (يناير / كانون الثاني ١٩٣٣)، وما ترتب على تلك الهجرة من ارتفاع نسبة البطالة في صفوف العمال العرب الفلسطينيين، ومعها نسبة الفلاحين المطرودين من الأراضي الأميرية، التي أخذت تنتقل للصهاينة، ومؤسساتهم. كما ضاقت الفرص أمام المثقفين، والرأسماليين، ناهيك عن زيادة خطر المشروع الصهيوني.

جاءت الشرارة على يد مجموعة قسامية مسلحة، هاجمت (١٩٣٦/٤/١٥) قافة سيارات يهودية، قرب طولكرم، وقتلت بعض ركابها، وردت العصابات الصهيونية بقتل بعض أبناء يافا، فأعلنت المدينة الإضراب (٤/٢٠)، الذي امتدت شرارته إلى بقية أرجاء فلسطين، وامتد لنحو ستة أشهر، ولم يتوقف إلا بنداء وجهه الملوك والأمراء العرب (١٠/١١) إلى الشعب الفلسطيني، كي يوقف إضرابه، " اعتمادًا على حسن نوايا صديقتنا بريطانيا "!.

كانت الأحزاب العربية الفلسطينية الستة (*) قد حذَّرت المندوب السامي البريطاني - غداة استشهاد القسام - من خطر انتقال زمام أمور الحركة الوطنية الفلسطينية إلى " المتطرفين "، أمثال القسام! وبعد أن أُعلن الإضراب التأمت قيادات الأحزاب العربية الفلسطينية (٤/٢٥) وقررت تشكيل جبهة تضمها جميعًا، باسم " اللجنة العربية العليا "، التي دعت إلى الإضراب العام، الذي كان أُعلن، فعلاً، قبل خمسة أيام، في

تأكيد جديد على أن الشعب كان يسبق قياداته الحزبية.

بمجرد توقف الإضراب، أصدرت سلطات الانتداب ١٨٠٠ تصريح هجرة إلى فلسطين لليهود. فقررت " اللجنة العربية العليا " مقاطعة " لجنة بيل " الملكية البريطانية، التي كانت وصلت إلى فلسطين، لبحث أسباب الثورة، وكأن بريطانيا ليست من صنع هذه الأسباب.

على أن " اللجنة العربية العليا " عادت ورضخت لتعليمات الملوك والأمراء العرب، والتقى أعضاء اللجنة العربية " لجنة بيل "، التي انتهت إلى إصدار تقريرها (١٩٣٧/٧/٧)، الذي أوصى بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، مع بقاء منطقة القدس تحت الوصاية البريطانية.

رفض الشعب الفلسطيني " تقرير بيل "، فيما سبق صدوره بأربعة أيام انسحاب " حزب الدفاع " من " اللجنة العربية العليا "، بعد أن أبلغه أمير شرقي الأردن، عبد الله بن الحسين بأمر " تقرير بيل ".

اتجه القساميون لاغتيال كبار المسئولين البريطانيين، بمجرد العودة إلى الثورة، عند صدور " تقرير بيل "، فرد الانتداب باعتقال أعضاء " اللجنة العربية العليا "، ونسبة كبيرة من النشطاء السياسيين في الثورة، وإن أفلت رئيس " اللجنة العربية العليا "، الحاج أمين الحسيني، من الاعتقال إلى لبنان[٨].

مع ظهور سُحب الحرب العالمية الثانية في الأفق، طفقت لندن تحاول تخدير شعوب مستعمراتها، حتى تتفرغ هي للنازيين. وفي هذا السياق، دعت حكومة لندن العرب واليهود إلى مؤتمر في لندن، في فبراير /

شباط ١٩٣٩. وحين أخفق المؤتمر، عمدت حكومة لندن إلى إصدار " الكتاب الأبيض "، في مايو / أيار ١٩٣٩، وفيه وعدت بمنح فلسطين الاستقلال، بعد عشر سنوات، مع تقييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وانتقال الأراضي إلى الصهاينة، ولكن بعد خمس سنوات! ورفض كل من العرب " والوكالة اليهودية " هذا الكتاب (٩).

لقد خلّفت ثورة ٣٦ - ١٩٣٩ الوطنية الفلسطينية نحو خمسة آلاف شهيد، وخمسة عشر ألف جريح، وتسعة آلاف معتقل فلسطيني، وهدم نحو خمسة آلاف منزل، مقابل مقتل زهاء أربعمائة صهيوني.

على أنه ما كان لهذه الثورة أن تنتصر، وميزان القوى العسكري مختل لصالح معسكر العدو، والقيادة السياسية الفلسطينية على هذه الدرجة من التردد، والشعب الفلسطيني للسند الدولي، ناهيك عن وقوف معظم الدول العربية ضد الشعب الفلسطيني، وثورته الوطنية.

إخفاق فتقسيم:

نزف الجرح الفلسطيني، فيما اضطرت بريطانيا، تحت ضغط الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، إلى الاعتماد على الصناعة الفلسطينية، لسد احتياجات القوات البريطانية في فلسطين، فتطورت الرأسمالية العربية الفلسطينية، وإن بخطى جنائزية، وفي موازاتها اتسعت دائرة الطبقة العاملة العربية الفلسطينية، خاصة مع تضاعف معسكرات الجيش البريطاني في فلسطين.

فيما هرب قطاع من الرأسمالية العربية الفلسطينية في اتجاه اليمين،

رد فعل على تحول الاشتراكية إلى نظام عالمي، ضمن نتائج الحرب العالمية الثانية، خاصة مع توهم رأسماليين عرب فلسطينيين بعقم مجابهة الاستعمار بالقوة.

أما الفئات الوسطى العربية الفلسطينية، فناءت تحت نير الضرائب المتزايدة، والضائقة الاقتصادية، فالتحقت نسبة من أبناء هذه الفئات بالمنظمات شبه العسكرية (الفتوَّة، والنجَّادة)، في حين لاذت نسبة أقل بالقوى اليسارية (عصبة التحرر الوطني / مؤتمر العمال العرب / ورابطة المثقفين العرب).

في المعسكر الآخر، حثَّت الصهيونية خطاها لتنفيذ مشروعها، فنقلت مركز ثقلها، منذ مؤتمر بلتيمور (مايو / أيار ١٩٤٢) إلى الولايات المتحدة، بعد أن اندفعت الأخيرة لتحتل موقع بريطانيا، في صدارة المعسكر الاستعماري. ما دفع الاستعمار البريطاني إلى المماطلة في تحقيق المشروع الصهيوني، خشية تحوُّله إلى نقطة ارتكاز لخصم لندن الجديد (الولايات المتحدة) في مزاحمته لبريطانيا، والتطلع لوراثتها في مستعمراتها، وبضمنها فلسطين. ما جعل العصابات الصهيونية المسلحة (الهاجاناه / الأرجون / وشتيرن) تنصب الكمائن للجنود البريطانيين في فلسطين، وتقتلهم، وتشنق بعضهم على الأشجار، وتنسف قطاراتهم [١٠].

حين احتدمت الخلافات داخل الحركة الوطنية، بعد أن طلب رئيس الحزب العربي، جمال الحسيني رفع عدد مندوبي حزبه إلى خمسة مندوبين داخل " اللجنة العربية العليا "، مقابل مندوب واحد لكل حزب من الأحزاب الخمسة الأخرى، اندفعت الجامعة العربية، بكل ثقلها،

فأعادت إحياء " اللجنة "، ولكن بعد أن عزلت اليسار، وأعطت للمولود الجديد اسم " الهيئة العربية العليا " [١١].

رضخت لندن للضغوط الأمريكية، جزئيًا، فوافقت الأولى على استحداث " اللجنة الأنجلو - أمريكية "، أجرت اتصالاتها، ثم أصدرت تقريرها (٢٠/٤/١٩٤٦)، الذي أوصى بإدخال مئة ألف يهودي إلى فلسطين، وتسهيل انتقال الأراضي للصهاينة، لكن الانتداب البريطاني تجاهل التقرير، فتعرض جنوده لهجمات عسكرية صهيونية جديدة [١٢].

دعت لندن إلى مؤتمر عربي - يهودي جديد، انعقد، فعلاً، في العاصمة البريطانية، لندن مع نهايات ١٩٤٦ ومطلع ١٩٤٧، لكنه أخفق في التوصل إلى تسوية. وحين نصح خبراء الخارجية البريطانية وزيرها، إرنست بيفن، بتحويل قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة، التي ستعجز عن حسم المشكلة، بسبب الاستقطاب الحاد داخل ذاك المحفل الدولي، بين الولايات المتحدة ومن معها، وبين الاتحاد السوفييتي، ومن يناصره من الدول، هنا تعود القضية إلى حكومة لندن، وقد برّأت ساحتها، وعملت ما عليها!

بيد أن المفاجأة كانت حين اتفق الخصمان، السوفييتي والأمريكي، على تقسيم فلسطين، ونال مشروع التقسيم ٣٣ صوتًا، ضد ١٣، وامتناع ١٠ مندوبين عن التصويت، بمن فيهم المندوب البريطاني، الذي غادر قاعة الاجتماع، عند التصويت (٢٩/١١/١٩٤٧).

ليت الأمر اقتصر على إخفاق العرب في الأمم المتحدة، بل امتد إلى

ميدان القتال.

هزيمة فنكبة:

بصدور قرار تقسيم فلسطين، اندلعت الاشتباكات المسلحة بين المناضلين الفلسطينيين، والعصابات المسلحة الصهيونية. ورغم قلة السلاح، وتدني مستواه، وندرة الذخيرة، وتواضع التدريب، فإن المناضلين الفلسطينيين نجحوا في تحقيق نجاحات غير قليلة، ما دفع المندوب الأمريكي في الأمم المتحدة، أورن أوستن (١٥/٣/١٩٤٨) إلى طلب إلغاء التقسيم. الأمر الذي دفع القيادة الصهيونية إلى تنظيم مذابح الشعب الفلسطيني، بدءًا من قرية دير ياسين (٩/٤/١٩٤٨)، بعد يوم واحد من استشهاد قائد " قوات الجهاد المقدس "، عبد القادر الحسيني، وأدى الإعلام العربي دورًا في الاتجاه الخاطئ، ما زرع الرعب في نفوس العرب على أعراضهم وأبنائهم، ووضع حدًا لنجاحات المناضلين، وإن ظل ٨٢ في المئة من مجموع الأراضي الفلسطينية بأيدي العرب الفلسطينيين [(١٣)].

لكن الآية انقلبت، مع دخول الجيوش العربية فلسطين، في اليوم التالي لخروج القوات البريطاني منها (١٥/٥/١٩٤٨)، وبعد ساعات من إعلان ديفيد بن جوريون ميلاد دولة إسرائيل.

كان سحب أسلحة المناضلين الفلسطيني أول ما بادر الجيشان، المصري والأردني، إليه، بدل أن يستقويا بأولئك المناضلين، لخبرتهم الطويلة في مواجهة الصهاينة، ولمعرفتهم الراسخة بالأرض.

لقد تراجعت جيوش مصر، والأردن، وسوريا، ولبنان، والعراق، حتى أن الحرب انتهت، وقد استولى الإسرائيليون على نحو ٧٨ في المئة من مجموع أراضي فلسطين! وعادت تلك الهزيمة إلى ضعف البنى الاجتماعية في الدول العربية، وخضوع تلك الدول للاستعمار، وافتقارها للديمقراطية، ومعاناة جيوشها من القهر الطبقي، وتنافر بعضها عن البعض الآخر، مقابل جيش إسرائيلي موحد، بقيادة واحدة.

الأهم من هذا كله أن قرار الهزيمة اتخذته الجامعة العربية، حين التقى قادة الجيوش العربية، أواسط ديسمبر / كانون الأول ١٩٤٧، بالقاهرة، وقد قدروا بأن لدى الصهاينة ٦٤ ألف مقاتل (*)، ومع ذلك لم يدخل من جيوش العرب سوى أقل من ثلث هذا العدد، بينما بديهيات القتال تحتّم إرسال ثلاثة أضعاف المدافعين، المتفوقين عددًا وعدة، ومعرفة بالأرض، ووعي بما يقاتلون من أجله، بعكس الجيوش العربية، وقد أُفهم بعضها بأنه في نزهة، فيما تم إبلاغ بعض آخر بأنه في مجرد مناورة!

فيما بين فبراير / شباط ويوليو / تموز ١٩٤٩، عقدت " دول الطوق " اتفاقات هدنة مع إسرائيل، وتبخر الهدف الذي أعلنته هذه الدول، مع دخول جيوشها إلى فلسطين: " تحرير فلسطين من أيدي العصابات الصهيونية "!

* * *

مراجع الفصل الثالث والعشرون

(١) للمزيد حول هذا الأمر، يمكن الرجوع إلى:
الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: د. عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين، ص ٩٠٦ - ٩٦٨).
(٢) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية: المحطات الرئيسية والدروس المستفادة**، القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠، ص ٦.
(٣) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:
- د. سهيلة الريماوي، **جمعية العرب الفتاة السرية**، عمان، دار مجد لاوي، ١٩٨٨.
- د. على سلطان، **تاريخ سورية أواخر الحكم التركي (١٩٠٨ - ١٩١٨)**، دمشق، إصدار خاص، ١٩٩١.
(٤) للمزيد يمكن الاستعانة بكتاب:
- د. خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه (١٩٠٨ - ١٩١٨)**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٣، ص ٩ - ٨٨.
- د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠، ص ٤٨ - ٥١.
(٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:
- د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني (١٩٢٢ - ١٩٣٩)**، ط٢، طرابلس الغرب، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢، ص ٣٧ - ٦٢.
(٦) للمزيد يمكن الرجوع إلى:
- عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٧ - ١٩٣٦**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ١٨٩ - ٢٤٠.
(٧) للمزيد عن حركة القسام، يمكن الاستعانة بما يلي:
- **المصدر نفسه**، ص ٢٩٣ - ٣٠٠.
- خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧٨ - ٥٩٥.
- عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥، ص ١٤٨ - ١٥٩.
(*) العربي / الاستقلال / الدفاع / مؤتمر الشباب / الكتلة الوطنية / الإصحلاح.
(٨) خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩٧.
(٩) **المصدر نفسه**، ص ٧٣٣ - ٧٤٤.

(١٠) ياسين، كفاح..، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٢.
(١١) ياسين، الحركة..، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦.
(١٢) د. فلاح خالد علي، **فلسطين والانتداب البريطاني (١٩٣٩ - ١٩٤٨)**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ٢٢٣ - ٢٢٦.
(١٣) أحمد صادق سعد، وعبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨ - ١٩٧٠**، بيروت، الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٥، ص ١٤ - ٢٠.
(*) فيما كان لدى الصهاينة ٦٨ ألف مقاتل، ومثلهم من الاحتياط!.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

الحقبة المنسية

الفصل الرابع والعشرون:
الحقبة المنسية

رشا حسني

دمرت حرب ١٩٤٨ سائر بنى المجتمع الفلسطيني، بعد أن مزقت أوصال الوطن، باحتلال قسم كبير من الأرض، وتشريد نحو مليون فلسطيني، تحولوا، بين عشية وضحاها، إلى لاجئين في البلدان العربية المجاورة[١].

لعل الأفدح أثرًا، فقدان أهل الأرض الفلسطينية، التي ظلت بعيدة عن قبضة الصهيونية، بعد ١٩٤٨، هويتهم، بعد ضم شرقي فلسطين للأردن، وتسميتها بالضفة الغربية، فضلاً عن تسمية الساحل الجنوبي الفلسطيني " قطاع غزة "، مما كرس تمزق التراب الوطني الفلسطيني، وأسهم في إخفاق تجربة إعلان " حكومة عموم فلسطين " [٢].

إثر إعلان قيام إسرائيل، في ١٥/٥/ ١٩٤٨، سعت " الهيئة العربية العليا " إلى إبقاء الرمز، وحاولت التمسك بصفة كيانية مستقلة للأراضي العربية، التي لم يصلها الاحتلال الصهيوني، رغم رفض " الهيئة " للتقسيم، فطرحت إنشاء حكومة فلسطينية، في أوائل سبتمبر / أيلول ١٩٤٨، عندما بحثت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية مسألة تمثيل

فلسطين في الدورة المقبلة للجامعة، غير أن المشروع لم يحظ بالقبول، رغم إقرار اللجنة السياسية بمشروعية الفكرة. من هنا قررت " الهيئة العربية " اعتبار نفسها حكومة ممثلة للبلاد، تحت اسم " حكومة عموم فلسطين " (٣).

صحيح أن الصيغة التي طرحتها " الهيئة العربية العليا "، ممثلة في " حكومة عموم فلسطين "، كانت تشمل، نظريًا، الأراضي الفلسطينية كلها، إلا أن الأحداث والمواقف العربية حالت دون تحقيق ذلك، عمليًا. ففي الوقت الذي أعلن فيه قيام " حكومة عموم فلسطين " كانت الأراضي الفلسطينية قد أصبحت إما تحت سيطرة الكيان الصهيوني الناشئ، أو تحت سيطرة الجيوش العربية، لذا كان يجب أن تشمل سيادة الحكومة الفلسطينية كاملة، رغم عموميتها النظرية، الأراضي المحتلة، مؤقتًا، من قبل الجيوش العربية، وأن تستمر مطالبتها بالسيادة على الأراضي الفلسطينية كاملة، في وضع مشابه لمطالبة حكومة ألمانيا الاتحادية بالسيادة على عموم الأراضي الألمانية (٤).

غير أن الوقت، على مايبدو، كان قد فات، فقد رفع الكونت فولك برنادوت، الوسيط الدولي، الموفد من الأمم المتحدة، تقريرًا حول مقترحاته لحل القضية، في ١٩٤٨/٦/٢٧، بما يفيد عدم وجود بوادر تدل على رغبة في إنشاء حكومة عربية فلسطينية، أُسوة بالحكومة الإسرائيلية، واتخاذه من ذلك ذريعة، لاقتراح دمج القسم الغربي من فلسطين بشرق الأردن، رغم معارضة " الهيئة العربية العليا "، وبعض الحكومات العربية لهذا الاقتراح، الذي يرمي لإذابة الجغرافيا الوطنية

لأرض فلسطين، مبكرًا[٥].

لم يحل الجانب المعارض، دون إقدام " الهيئة العربية العليا " على مواصلة التمسك بفكرة بعض الكيان الفلسطيني، لذلك دعت " الهيئة "، في ١/١٠/١٩٤٨، إلى عقد المؤتمر الوطني في غزة، الذي أقر فيه تشكيل " حكومة عموم فلسطين "، تألفت من رئيس وعدد من الوزراء، وتشكيل مجلس وطني، ضم ممثلي الشعب الفلسطيني، ترأسه الحاج أمين الحسيني، كما أصبح أحمد حلمي عبد الباقي رئيسًا للحكومة، وأعلن المجلس استقلال فلسطين، وإقامة دولة حرة، ذات سيادة. اعترفت دول الجامعة العربية بهذه الحكومة، بإستثناء الأردن، إذ قام، في يوم انعقاد مؤتمرغزة، بعقد مؤتمر آخر في عمان، سعى إلى سحب الشرعية عن مؤتمر غزة، ومنح الملك عبد الله حق تمثيل الشعب الفلسطيني، والتحدث نيابة عنه. تبع هذا المؤتمر بآخر، أكثر أهمية وتأثيرًا، ففي ١/١٢/١٩٤٨، عقد " مؤتمر أريحا "، الذي قرر مبايعة الملك عبد الله ملكًا على فلسطين، وتوحيد الأرض الفلسطينية مع شرق الأردن، واعتبار ذلك مقدمة لوحدة عربية حقيقية[٦].

بهذا الإجراء دخلت المسألة الكيانية الفلسطينية في طور من الركود، نتيجة عدم الاحتفاظ بالأراضي التي لم تصلها الحركة الصهيونية، بمدلول التسمية الفلسطينية، وعدم احتفاظ الجزء الأكبر من الشعب الفلسطيني بهويته الذاتية[٧].

في ظروف النكبة الكبرى، ومعطياتها السياسية، والاجتماعية، والعسكرية، لم تصل المعارضة الفلسطينية بتلك الإجراءات إلى حد

المجابهة، واقتصر الأمر على اعتراضات جزئية محدودة، نتيجة لعدم تجذر الوعي والمفهوم الكياني لدى الفلسطينيين، الذين لم يمارسوا، في تاريخهم الحديث، حكمهم لأنفسهم، فقد كانت عروبة الأرض الفلسطينية تتقدم على غيرها من المعارك، ولم تكن " حكومة عموم فلسطين " ومن خلفها " الهيئة العربية العليا " في موقف يسمح لها بخلق شروط المجابهة. إذ كانت رموزها البارزة خارج فلسطين، فكانت " حكومة عموم فلسطين " بنتًا شرعية للوطن العربي، المحكوم بالعجز، والتمزق، في ظل علاقات دولية متشابكة، ضد مصلحة العرب [٨].

سرعان ما تلاشى الحماس، الذي أبدته جامعة الدول العربية تجاه " حكومة عموم فلسطين "، وامتنعت الجامعة عن دعوة هذه الحكومة لحضور اجتماعاتها، كما امتنعت الحكومة المصرية عن السماح لها بممارسة نشاطاتها في قطاع غزة[٩].

كانت " حكومة عموم فلسطين " آخر التجارب، التي اختتمت بها القيادة التقليدية للشعب الفلسطيني حياتها السياسية. وكان فشلها إنذارًا بانطواء التطور الكيانى الفلسطيني، لافتقاده المقومات المادية لهذا التطور؛ فالأرض الفلسطينية، التي لم تصلها يد الصهيونية، فقدت هويتها التاريخية، والشعب الفلسطيني اقتلع من أرضه، وتفرق شمله، وفرضت عليه قيود التنقل، والإقامة، والعمل، ومنع من حرية التعبير، والتنظيم، وفقد مؤسساته السياسية. على هذا تركزت تطلعات الشعب الفلسطيني على " العودة "، كهدف مركزي، دون أن يرتبط هذا الهدف بتصور كياني محدد لديهم، حافظوا على وعيهم بقضيتهم الوطنية، دون أن يتبلور

ذلك الوعي، في أشكال، سياسية، أو مؤسسية، تلائم واقع مابعد النكبة[١٠].

في تلك الأثناء انهارت الأحزاب التقليدية الستة (العربي، الدفاع، الإستقلال، الكتلة الوطنية، الإصلاح، ومؤتمر الشباب)، وقد شهدت الحقبة السابقة للنكبة انتشار المؤسسات السياسية العقائدية، على رأسها " عصبة التحرر الوطني "، التي أعلنت عن وجودها كمنظمة سياسية مستقلة، في عام ١٩٤٣، وسط ظروف سياسية معقَّدة على المستويين، الخارجي والداخلي، واستمرت في نشاطها، حتى النكبة، تعاونت مع قيادة الحركة الوطنية، فقد كانت العصبة حزبًا عربيًا وطنيًا وجزءًا من الحركة الوطنية العامة ومثلت الحزب العربي الحقيقى الوحيد، في تلك الحقبة [١١].

لا يعنى ذلك انفراد " عصبة التحرر الوطني " بالساحة السياسية في فلسطين، قبيل نكبة ١٩٤٨، فقد ضمت المؤسسات السياسية العقائدية كذلك، كل من كتلة " القوميين العرب "، و " الحزب السوري القومي الإجتماعي "، و " جماعة الإخوان المسلمين "، " وحزب البعث العربي "، فضلاً عن منظمات الشباب والعمال، التي ضمت منظماتها " النجادة " و " الفتوَّة " و " جمعية الكشاف العربي الفلسطيني "، و " التنظيمات العمالية "، والتنظيمات العسكرية، التي تمثلت في " جيش الإنقاذ "، و " قوات الجهاد المقدس " [١٢].

بوقوع نكبة ١٩٤٨، لم يبق من الأحزاب العربية الفلسطينية إلا " عصبة التحرر الوطني "، التي واصلت العمل في القسم الشرقي من فلسطين، الذي سرعان ما ضُم إلى شرق الأردن، وحمل إسم " الضفة

الغربية "، في مايو /أيار ١٩٥٠، كما واصل فرع " العصبة " نضاله في قطاع غزة، وإن تحول الفرعان إلى العمل السري، تحت القمع، ثم اندمجت " العصبة " مع الحلقات الماركسية في شرق الأردن، في مايو/أيار ١٩٥١، وشكلوا مجتمعين " الحزب الشيوعى الأردنى "، مقابل " الحزب الشيوعى الفلسطيني " في قطاع غزة، في أغسطس /آب ١٩٥٣ [١٣].

موقف المنظمات الدولية من القضية الفلسطينية:

بعد نكبة ١٩٤٨، وقف العالم الخارجى موقف اللامبالاة إزاء ما جرى للشعب الفلسطيني، بتجاهل الكيان الصهيوني لقرارات الأمم المتحدة، بشأن عودة اللاجئين، وأصدرت الجمعية العامة في ٨ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٩، قرارًا قضى بإنشاء " وكالة هيئة الأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى وتشغيلهم "، المعروفة باسم " أونروا "، وتركت الشئون السياسية المتعلقة بحل الصراع، أو حق العودة، خارج إطار مهمة وكالة الإغاثة، وكلفت بها " لجنة توفيق " شكلت في الشهر نفسه[١٤].

اتضح من خطة عمل وكالة الإغاثة أنها تسعى نحو ضمان استيعاب اللاجئين في الدول العربية، تمهيدًا للاستغناء عن المساعدات الدولية. إن الدول التي دعمت " وكالة الإغاثة " هي نفسها التي دعمت الكيان الصهيوني، مما أكد هدف " الوكالة " في إدماج الفلسطينيين في اقتصاديات الدول المضيفة، وقد أدى ارتباط مشاريع التشغيل والتوطين، التي طرحت على اللاجئين الفلسطينيين، بأهداف سياسية، تتناقض مع

حقوق الشعب الفلسطيني، إلى تخلى " وكالة الإغاثة "، منذ بداية الخمسينيات، عن تشغيل اللاجئين في مشاريع اقتصادية إنتاجية، وحصر مهمتها في تقديم بعض الخدمات المحدودة. أدى هذا الوضع إلى ترسيخ حالة من النقمة في صفوف اللاجئين، الذين اعتبروا مهمة " وكالة الإغاثة " تفريطًا في حقوقهم، وهويتهم كشعب. تأكد ذلك، بعد تخلي الأمم المتحدة، نهائيًا، عن كل قراراتها السابقة لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، الصادر في ١٩٤٩/١٢/٢٨، والذي ينص على رصد الأموال اللازمة لبرنامج الأشغال العامة الذي اقترحته " لجنة كلاب " (*)، وبعد أن كانت عودة اللاجئين إلى ديارهم هدف المنظمة الأول، أصبحت مهمة صعبة، بذريعة أن إسرائيل ترفضها. حتى الاستمرار في الإغاثة أصبح أمرًا شاقًا، حسب ادعاء منظمة الأمم المتحدة، التي أكدت ضرورة اعتماد اللاجئين على أنفسهم، ثم بحث قضيتهم، كجزء من " قضية بلدان الشرق الأوسط الاقتصادية " (١٥).

بين عامي ١٩٥٢ و١٩٦٠ تعددت مشاريع توطين اللاجئين، التي استهدفت تصفية القضية الفلسطينية بدمج اللاجئين الفلسطينيين، اقتصاديًا، وسياسيًا في الدول العربية، التي هاجروا إليها، إثر نكبة ١٩٤٨.

بعد فشل مهمة " لجنة التوفيق "، التابعة للأمم المتحدة، تقدم مندوب النرويج بمشروع قرار إلى هيئة الأمم المتحدة، في ١٩٥٢/١١/٢٦، لتسوية الصراع العربي - الإسرائيلي، وهو المشروع الذي لم يكن له أى صدى. تلا ذلك مشروع جونستون (١٩٥٣ - ١٩٥٥)، ثم " مشروع جاما "، فمشروع أنطواني إيدن(١٩٥٥)، الذي أعقبه مشروع دالس

(١٩٥٦). وفي العام نفسه تقدمت إسرائيل بمشروع آخر لتوطين اللاجئين خارجها، فالمشروع الكندي (١٩٥٧) والأسترالي في العام نفسه، أعقبها " مشروع أيزنهاور(١٩٥٧ - ١٩٥٨)، فمشروع همرشولد (١٩٥٩)، الذي تلاه مشروع جونسون (١٩٦١) وسبقه مشروع إشكول (١٩٦٠).

في ١٩٦٥ تقدم الرئيس الحبيب بورقيبة بمشروع تونسى للمصالحة بين العرب و إسرائيل، على أساس استعادة العرب لثلث المساحة التي احتلتها إسرائيل منذ إنشائها لتقوم عليها دولة عربية فلسطينية وعودة اللاجئين للعيش في هذه الدولة. وقد قوبل هذا المشروع باستنكار عربي جماعي[١٦].

تضمنت مشاريع التوطين خارج فلسطين، إقامة سكن للاجئين الفلسطينيين في الدول العربية، وإنهاء صفة اللجوء عنهم، كما كان الحال في مشروع توطين لاجئي قطاع غزة، في غربي سيناء، الذي جرت مشاورات فعلية حوله، بين وكالة الإغاثة والسلطات المصرية، ووضعت له البرامج، والمخططات، فضلاً عن منح القروض الفردية، والتشجيع على التهجير. فبعد عودة وزير الخارجية الأمريكي، جون فوستر دالاس، من الشرق الأوسط، صيف ١٩٥٣، تجددت المساعى الأمريكية لمعالجة قضية اللاجئين، من خلال تعاون عربي - إسرائيلي، لاستثمار مياه نهر الأردن، وروافده، وتوطين اللاجئين، نهائيًا، خارج فلسطين. وبين خريف١٩٥٣، وخريف ١٩٥٥، قام جونستون بأربع زيارات للمنطقة، لإقناع العرب بقبول المشروع. ورغم فشل هذه المحاولة، فإن الولايات المتحدة ظلت تصر على معالجة قضية اللاجئين في إطار " مشارع

التنمية الإقتصادية في الشرق الأوسط "، وهو ماطرحه " مشروع أيزنهاور " (١٩٥٧ - ١٩٥٨) الذي ربط بين مشارع التنمية الإقتصادية وبين محاربة الشيوعية، بينما كان الهدف الرئيسي لمشروع أيزنهاور القضاء على معارضة العرب لوجود إسرائيل، وإنهاء قضية اللاجئين. أما آخر المشاريع الدولية التي طرحت في الخمسينيات لتوطين اللاجئين، فقد كانت مشروع " همرشولد "، الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة، الذي تقدم في يونيو /حزيران ١٩٥٩، بوثيقة تحت عنوان " مقترحات بشأن استمرار الأمم المتحدة في مساعدة اللاجئين الفلسطينيين " [١٧].

مقاومة الشعب الفلسطيني حتى مارس١٩٥٥:

فشلت جميع مشاريع التوطين والإدماج، لعدة عوامل، أهمها موقف الشعب الفلسطيني الرافض للتشتت والذوبان، الذي أراده له الكيان الصهيوني، وأعوانه. وفضَّل اللاجئون العيش في خيام، في ظل ظروف قاسية، لمدة طويلة، على التنازل عن حقهم في العودة إلى فلسطين. لم تخف الأهداف السياسية لمشاريع التوطين على الشعب الفلسطيني، رغم اختبائها وراء دوافع " إنسانية ". من ناحية أخرى، لم تكن الدول العربية المجاورة مهيأة لاستيعاب اللاجئين، إذ يتطلب ذلك مستوى عال من التنمية الاقتصادية، وهو ما يتعارض مع المصالح السياسية الغربية، والهدف من وجود الكيان الصهيوني، ودورهما في الإبقاء على تخلف الوطن العربي [١٨].

اتخذ رفض مشاريع التوطين، الذي شمل التجمعات الفلسطينية كافة،

اتجاهين، تمثل الأول في محاولات التعويق، فقد خرج اللاجئون إلى الشوارع في مظاهرات، للاحتجاج على التوطين، وكان الرفض في قطاع غزة على صعيد الهيئات الشعبية الفلسطينية، وعلى مستوى الأفراد، ووصل الرفض إلى حد الانتفاضة، في مارس / آذار ١٩٥٥، ووجه الاتهام إلى وكالة الإغاثة، وبعض الدول العربية، بمحاولة تصفية القضية الفلسطينية، تحت ستار توطين اللاجئين وتشغيلهم. وفي عام ١٩٥٢، تشكلت عدة مجموعات سرية سعت نحو توجيه استياء اللاجئين في عمل سياسي وعسكري ملموس، لا يهدف إلى وضع حد لمشاريع التوطين فحسب، بل يضع أسس المقاومة، لتحقيق عودة الأرض، أيضًا. من بين هذه المجموعات " هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل "، وهي منظمة طليعية لحركة القوميين العرب، التي تأسست، عربيًا، عام ١٩٥١، وفضحت من خلال صحيفتها، " الثأر "، المحاولات التي تستهدف الصلح مع إسرائيل، وساعدت الشعب الفلسطيني على التمييز بين المشاريع الضرورية لتحسين الشروط المعيشية للاجئين، وبين تلك التي تستهدف تصفية القضية، تحت الشعار نفسه، ونجحت هذه المحاولات في وضع حد لمشاريع التوطين. تجلى ذلك في " المؤتمر العربي الفلسطيني "، الذي عقد في بيروت لرفض مشروع " همرشولد "، مما حمل الدول العربية على رفضه، وإجبار الأمم المتحدة على التخلي عنه، نهائيًا. كذلك أرغمت وكالة الإغاثة على التخلي عن خططها طويلة المدى، لتقصر نشاطها على الخدمات الأساسية فحسب[١٩].

لم يمنع وقوع النكبة، الشعب الفلسطيني من مواصلة الكفاح، بشكليه

السياسي والمسلح، وإن اتسم هذا الكفاح بالعفوية، والتقطع، وافتقر إلى التنظيم، والاستمرار. وطبقًا لإحصائيات وزارة الخارجية الإسرائيلية، لم يعترف الكيان الصهيوني بالأمن، فيما بين توقيع إتفاقيات الهدنة، عام ١٩٤٩، وحتى وقوع " العدوان الثلاثي "، عام ١٩٥٦، إذ سجلت الإحصائيات ٧٨٥٠ حادثة دخول سري، واشتباك لأبناء الشعب الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة (١٩٤٨) مع الجنود الإسرائيليين، وتوزعت كالآتي: ٨٥٠ من الضفة الغربية، و ٣ آلاف من قطاع غزة، و٦٠٠من سوريا، و٢٠٠من لبنان[٢٠].

كما أصدرت إحدى المحاكم العربية، خلال عاميْ ١٩٥٤و١٩٥٥ فحسب، أحكامًا مختلفة بالسجن، على ٩٩٧ فلسطينيًا، بتهمة " التسلل " إلى الوطن المحتل، فضلاً عن آخرين صدرت ضدهم أحكام مع وقف التنفيذ، بعد إدانتهم بالتهمة نفسها[٢١].

في محاولة لامتصاص نقمة الفلسطينيين، واحتواء طاقاتهم، وتجنيب الجيوش النظامية خوض معركة مع الكيان الصهيوني، تم تأسيس " الحرس الوطني " من أبناء قرى المواجهة في الضفة الغربية، زوُّدوا ببنادق تقليدية، حفظت ذخيرتها في مقار المجالس البلدية.

في ١٩٥٣/١٠/١٤، هاجم الجنود الإسرائيليون قرية قبية، بعد أن نسفوا مقر مجلسها البلدي، بما فيه من ذخيرة، ثم انفردوا بالحرس الوطني، ونفذوا مذبحتهم، دون أدنى مقاومة، بعد أن تجاهل القائد

البريطاني للمنطقة طلب النجدة، الذي أرسلته القرية، عند وقوع الهجوم عليها [٢٢].

أما في قطاع غزة، فقد صادرت القوات النظامية العربية أسلحة المقاتلين الفلسطينيين، بعد النكبة، وحدَّت من حريتهم في الحركة والعمل، مما أدى إلى لجوء كثير منهم للإنتظام في العمل السياسي السري، ومن بين تلك الأنشطة " عصبة التحرر الوطني " التي تعرضت لملاحقة أجهزة الأمن المصرية. وفي شتاء ١٩٥٣ برز " الحزب الشيوعي الفلسطيني "، الذي اعتبر امتدادًا سياسيًا وفكريًا للعصبة، وشغل مكانها في التنظيم السري، كذلك تأسس فرع لجماعة الإخوان المسلمين. وفي عام ١٩٥٥ تشكلت نواة " حزب البعث العربي الإشتراكي " في غزة. ولم تنجح تلك التنظيمات في تكوين أجنحة مقاتلة لها، حتى وقوع " العدوان الثلاثى "، وظلت عمليات الدخول، سرًا، للأراضي المحتلة، الشكل المسيطر على أعمال المقاومة، وكان لهذه العمليات آثارها الملموسة في رفع الروح المعنوية العربية، وزعزعة الأمن في المستعمرات الصهيونية الحدودية، وقد نجحت تلك العمليات في إسقاط ٢٦ إسرائيلياً، في عام١٩٥١، ارتفع هذا الرقم إلى ٥٠، في عام ١٩٥٤، ثم قفز، عام ١٩٥٥ إلى ٢٤١ إسرائيلياً إثر قيام أول تنظيم مسلح في القطاع (الكتيبة ١٤١ فدائيون)[٢٣].

حادثة ١٩٥٥/٢/٢٨ وتشكيل الوحدات الفدائية:

كان حادث الاعتداء الإسرائيلي على الحامية المصرية، في " بئر الصفا "، قرب محطة السكك الحديدية بمدينة غزة، في ١٩٥٥/٢/٢٨، نقطة فاصلة، غيَّرت مجرى التعاطي المصري مع القضية الفلسطينية، ففي تلك الليلة اجتازت قوة من الجيش الإسرائيلي، تقدر بكتيبتين، خط الهدنة، شرق غزة، وتوغلت ما يزيد عن ميلين في الأراضي الخاضعة للسيطرة المصرية، وهاجمت معسكرًا حربيًا مصريًا، وبيت ناظر محطة السكك الحديدية، ومضخَّة ماء، ومبنى عسكريًا، وأربعة أكواخ للمراقبة العسكرية، كما أوقعت شاحنة عسكرية، كانت تقل ملازمًا أول و٣٤ جنديًا أقبلوا من الجنوب، لنصرة الحامية المصرية فقضت عليهم جميعًا[٢٤].

كما وصل خبر الاعتداء الإسرائيلي للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، الذي سارع إلى عقد اجتماع طارئ لمجلس قيادة الثورة، كما دعا " مجلس الأمن القومي " لمناقشة تطورات الأوضاع على جبهة غزة، وكان من أهم القرارات التي اتخذت في هذا الشأن، الرد على العدوان الإسرائيلي، بضرب أهداف حيوية في العمق الإسرائيلي. كما تقرر تعزيز حامية غزة بعشر كتائب من " الحرس الوطني "، التي كانت تضم شبانًا متطوعين، يؤمنون بضرورة تحرير فلسطين، وحماية الحدود المصرية من الإعتداءات الإسرائيلية المتكررة[٢٥].

اعتمد تطوير عمل عناصر الاستطلاع والمعلومات الفلسطينية، في مرحلته الجديدة، على الارتقاء بمستوى التدريب واختيار عناصر من الفلسطينيين ذوي الخبرة، والدراية بطبيعة الأراضي الفلسطينية المحتلة، ومواقع المستعمرات الإسرائيلية، واعتمد لذلك ثلاثة أساليب لإنتقاء

العناصر المناسبة لهذه المهمة، فقد دعت قيادة مكتب المخابرات الحربية في غزة بعض الشخصيات الوطنية، ذات العلاقة المباشرة بالجماهير، وطلبت منهم تزكية عدد من الشبان، من مختلف أرجاء فلسطين المحتلة، يضاف إلى ذلك أهل قطاع غزة، كما طلب من المجموعة الأولى المنتظمة بمكتب غزة تزكية من تراهم للالتحاق بهذه القوة. في الإطار نفسه، قام اليوزباشى (النقيب) صفوت عبد الله، والصاغ (الرائد) مصطفى حافظ بزيارة سجن غزة، واستدعاء جميع المحجوزين بتهمة " اجتياز خط الهدنة "، وبعد عدد من الزيارات الخاطفة، تم انتقاء خمسين منهم، وإحاطتهم بالمهمة الوطنية المنوطة بهم، وقابلوا ذلك بالترحيب، وبدأوا، في التو، التدريب داخل معسكر خاص [٢٦].

لم يكن دعم كتائب " الحرس الوطني " كافيًا لصد العدوان الإسرائيلي، كما لم يكن مرضيًا للقيادات الوطنية الشابة، وهو ما عبر عنه اليوزباشي صفوت عبد الله، في لقائه مع اللواء عبد الحكيم عامر، القائد العام للقوات المسلحة المصرية، أثناء زيارته لقطاع غزة، إذ كشف سقوط ١٣ شهيدًا من قوات الحرس الوطني، خلال عشرة ايام فقط. جرى استعراض لطبيعة المهام، التي يمكن أن تقوم بها قوات الحرس الوطني، بالتعاون مع عناصر فلسطينية، في ردع القوات الإسرائيلية، أولاً، تم القيام بعمليات معينة خلف خطوط العدو، ردًا على عدوانه على قطاع غزة. في تلك الجلسة الخاصة، التي شهدها الصاغ (الرائد) مصطفي حافظ، قرر عامر تشكيل قوة فدائية فلسطينية، مذكرًا بقرار مجلس قيادة الثورة بهذا الشأن، طالبًا إلى حافظ ورفاقه الإسراع بتشكيل هذه القوة

.[٢٧]

بدأ مصطفى حافظ ورفاقه في تطوير أسلوب تشكيل قوة الفدائيين، فالتحق بها ضابطان من سلاح الهندسة، وفني بحري آخر، وأخذ عدد الملتحقين بالقوة يزداد، باطراد. أصبح للقوة الناشئة ميدان تدريب، معترف به، وفتحت أمام تلك القوة معسكرات التدريب الراقي، التابعة لقوات الحرس الوطني المصرية، وأنشئ في قيادة غزة فرع خاص بقوة الفدائيين، يُعنى بمختلف شؤونهم. ومع تزايد أعداد من التحقوا بالقوة من الفدائيين، ولسرعة التدريب، ودقة التنظيم، افتتحت مراكز جديدة، في مدينتي خان يونس، ورفح، إضافة إلى المركز الرئيسي في مدينة غزة، التي كان أهلها يرون في هذه القوة الأمل والرجاء، خاصة بعد أن عاشوا مأساة نزع سلاح المقاتلين منهم، في عام ١٩٤٨[٢٨].

وصل عدد أعضاء الوحدات الفدائية في مرحلة الذروة (١٩٥٥ - ١٩٥٦)، إلى ٧٠٠ عضو، وقد اعترفت إسرائيل بخطورة العمل الفدائى على أمنها [*]، وتعطيله للاستيطان، أهم أهداف المشروع الصهيوني، فضلاً عن الآثار الاقتصادية والبشرية المرهقة للعدو، فقد خسرت إسرائيل نتيجة للغارات الفدائية، حتى عام ١٩٥٦، قرابة ستة أضعاف خسائرها البشرية في حملتها على السويس (١٩٥٦)، وضعف ما خسرته في حرب أكتوبر (١٩٧٣)، وفقًا للمصادر الإحصائية الإسرائيلية[٢٩].

لم يكن تشكيل الوحدات الفدائية الفلسطينية ناتجًا عن إدراك القيادة السياسية المصرية لخطورة التهديد الإسرائيلي على الأمن المصري، أو ضرورة الاعتماد على القوة الذاتية فحسب، بل، أيضًا، تلبية لمطالب

أهالي غزة، الذين انتفضوا إثر الاعتداء الإسرائيلي (١٩٥٥/٢/٢٨)، مطالبين بتسليح القطاع، وانخرطوا في شتى الاتجاهات السياسية والعقائدية، في مظاهر عارمة، تعرضت خلالها رموز المنظمات الدولية لمهاجمة الجماهير، وفي ذلك دلالة على رفض الواقع الذي قام بعد النكبة.

والغريب أن الإدارة المصرية في القطاع عمدت إلى اعتقال المسؤولين عن انتفاضة مارس / آذار ١٩٥٥، كما حلت " نقابة معلمي مدارس اللاجئين "، التي أدت دورًا مهمًا في محاربة مشاريع التوطين، فضلاً عن قرارات حظرت التظاهر وقيام الأحزاب، ومنعت التجول، في أوقات محددة، في أنحاء القطاع[٣٠].

ربما عكس ذلك الموقف، وغيره من مواقف الأنظمة العربية، التناقض الذي اتسم برؤاها للقضية الفلسطينية، رغم أن الحركة الوطنية الفلسطينية ظلت تعلق آمالاً كبرى على الأنظمة العربية، التي سعت، على غير المتوقع منها، لمحو معالم هذه الحركة، وإجحاف حقوقها، واحتواء ما تبقى منها، بعد ذلك[٣١].

غير أن الحركة الوطنية في البلاد العربية حمت القضية الفلسطينية من التصفية، إذ نجحت في منع الالتحام بين بعض الأنظمة العربية وبين الاستعمار الأمريكى. وكان موقف مصر الحيادى من حرب التدخل الأمريكى في كوريا، عام ١٩٥٠، أول ضربة ضد المشاريع الاستعمارية في الوطن العربي، تلاه رفض الحكومة الوفدية المصرية الانضمام إلى " قيادة الشرق الأوسط " الاستعمارية، التي أسستها الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وتركيا، في أكتوبر / تشرين الأول ١٩٥٠. فضلاً

عن التصدي لحلف بغداد، الذي أعلن في ١٩٥٥/٢/٢٤. وغطت الدول العربية موجة وطنية عاتية، وحاصرت المشروع الاستعماري، وحالت دون ضم الأردن إليه[٣٢].

من العدوان الثلاثي وحتى ١٩٦٤:

اتخذت القوات الإسرائيلية من العمليات الفدائية المتوالية، التي ضربت العمق الإسرائيلي، بعد تشكيل الوحدات الفدائية الفلسطينية، ذريعة لاحتلال قطاع غزة، إثر اشتراكها في " العدوان الثلاثي " على مصر، في نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٥٦.

عمدت القوات الإسرائيلية، منذ وطئت أرض غزة، إلى ارتكاب مجازر عدة، في شتى الأراضي الفلسطينية، والاعتداء على الأعراض، وممارسة أبشع أنواع التعذيب، لإجبار الشعب الفلسطيني على إخلاء القطاع، والاستسلام لما يطرح من حلول لتسوية القضية. في تلك المرحلة، شهد القطاع قيام تنظيمات للمقاومة، بخلاف الوحدات الفدائية السابقة، التي غادر قسم كبير من أعضائها القطاع، متجهًا إلى الأردن، مدمرين في طريقهم عددًا من المنشآت العسكرية الإسرائيلية. أهم تلك التنظيمات تنظيم " الحركة الوطنية "، الذي استهدف تعبئة الشعور الوطني في وجه الدعاية الإسرائيلية، ومقاومة فكرة تدويل القطاع، وقد عمل التنظيم، لاحقًا، تحت اسم " الجبهة الوطنية "، ولجأ إلى أسلوب المقاومة المدنية. كما تشكلت " جبهة المقاومة الشعبية "، التي سارت على نهج " الجبهة الوطنية "، إلى أن تمكنت سلطات الإحتلال من توجيه ضربة قاصمة لهما. وخلال فترة الإحتلال الإسرائيلي لغزة، ظهرت

كذلك تنظيمات أخرى، مثل " شباب الثأر "، الذين كانوا يهتمون بشؤون الأهالى، ويتوعدون المتعاونين مع العدو، فضلاً عن مواقف كثيرة مع القيادات الشعبية، التي رفضت التعاون مع قوات الاحتلال، وتعرضت للاعتقال والتعذيب (٣٣).

استهدفت القوات الإسرائيلية التحطيم النفسى لأهل غزة، ولجأت إلى الإرهاب الدموي، متمثلاً في مجازرها البشعة ضد مئات الأبرياء، فضلاً عما يسمى " بحملات الاغتصاب "، التي تركزت على مخيمات اللاجئين، بالقرب من مدينة غزة، غير أن تلك الحملات توقفت، إثر تصدي الأهالي، وتضافر جهودهم، لمواجهتها، وبدا أن الشعب الفلسطيني قد تعلم من نكبة ١٩٤٨، ألا يفرط في الأرض، حرصًا على العرض (٣٤).

خلف الاحتلال الإسرائيلي لغزة، الذي استمر نحو أربعة أشهر ٩٣٠ شهيدًا، و٧١٦ جريحًا و٢١٥ مفقودًا، غير أن هذا الاحتلال، على خلاف ما قصد منه، شحذ الروح الوطنية، وليس أدل على ذلك من تصدي المقاومة الشعبية لمحاولة تدويل قطاع غزة، عقب مغادرة قوات الاحتلال، في مارس / آذار ١٩٥٧، وسقوط الشهداء، وهم يستبدلون الأعلام الفلسطينية والمصرية بعلم الأمم المتحدة، على المقر الرئيسي لإدارة الحاكم الإداري العام لقطاع غزة، توازى ذلك مع التظاهر، وتوزيع المنشورات المتمسكة بالهوية العربية الفلسطينية (٣٥).

شهد العمل الفدائي، المدعوم عربيًا، تعثرًا واضحًا، نتيجة ارتباطه بالعمل العربي الرسمي، فبعد أن حققت الوحدات الفدائية الفلسطينية، التي شكلتها القيادة المصرية في قطاع غزة، نجاحًا كبيرًا في ردع العدو، توقف هذا النشاط، بعد الانسحاب الإسرائيلي من غزة، إثر " العدوان الثلاثى "، وتغير الموقف الرسمي المصري الذي ارتبط بضمانات تكفل ذلك، مقابل الانسحاب الإسرائيلي من غزة، في مارس / آذار ١٩٥٧ (٣٦).

في سوريا عمدت المخابرات السورية إلى استحداث " شعبة فلسطين "، ١٩٥٥، التي كلفت بتنظيم الفدائيين الفلسطينيين المقيمين في سوريا ولبنان(*)، بهدف التغلغل في الأراضي المحتلة، وجمع معلومات عن العدو. وبعد سقوط دولة الوحدة، تم تحويل تلك الشعبة إلى كتيبة مقاتلة، ثم عادت، وتحولت، إثر تشكيل " منظمة التحرير الفلسطينية "، إلى جزء من " جيش التحرير الفلسطيني "، إذ شكلت نواة " لواء حطين " (٣٧).

في العراق، أسس عبد الكريم قاسم " فوج التحرير الفلسطيني "، إبان احتدام خلافه مع عبد الناصر، في مارس / آذار ١٩٦٠، برعاية الحاج أمين الحسيني، رئيس " الهيئة العربية العليا "، التي قامت بتنظيم التطوع والالتحاق بالفوج لمعظم ضباط المعاهد العسكرية العراقية. غير أن هذه التجربة فشلت، إثر انقلاب فبراير / شباط ١٩٦٣، على نظام قاسم وكانت الرعاية الرسمية للفوج، مع محدودية التجمع الفلسطيني في العراق، من أسباب فشله (٣٨).

على الصعيد الفلسطيني، غير الاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزة،

أواخر عام ١٩٥٦، مجرى الحركة الوطنية الفلسطينية إذ أخذت الطلائع الفلسطينية تتحرك، بهدف بلورة عمل فلسطيني منظَّم، منفصل، أو تعزيز الاتجاهات التي تنادي بتحرير فلسطين داخل الأحزاب، والتنظيمات السياسية العربية. وكان أبرز التنظيمات، والمؤسسات الفلسطينية، التي تبلورت، في تلك الفترة، " حركة التحرير الوطني الفلسطينية " (فتح)، وقد مثلت طليعة التنظيمات الفلسطينية الصرفة، منذ عام ١٩٤٨، وكانت البداية الجادة للحركة في الكويت، عام ١٩٥٧، مع قيام امتدادات لاحقة، في كل من مصر، وغزة، والأردن، وسوريا، والسعودية، ولبنان، والعراق، وقطر. تبنت " فتح " استراتيجية تنطلق من اعتبار الكفاح المسلح طريقًا وحيدًا لتحرير فلسطين، وتصادمت هذه التوجهات مع الظروف السياسية القمعية، التي سادت في الخمسينيات حتى منتصف الستينيات، كما تزامنت مع هيمنة المشاعر القومية الوحدوية لدى العرب و الفلسطينيين، لذا نمت " فتح "، ببطء، ولم تصل إلى قلب الشعب الفلسطيني. خلال سنوات التأسيس الأولى(٣٩).

في نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٥٩، تأسس " الاتحاد العام لطلبة فلسطين "، في القاهرة، بدعوة من الروابط الطلابية الفلسطينية، التي كانت منتشرة في بيروت، ودمشق، والاسكندرية، والقاهرة، ولم يقتصر دور الاتحاد على النضالات النقابية البحتة، بل تغلب الطابع السياسي على أنشطتهم، واستمد الاتحاد أهمية خاصة لإفرازه عددًا من القيادات الفلسطينية البارزة، التي تصدرت الحركة الوطنية الفلسطينية، فضلاً عن اعتباره أحد مقومات الشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة، وأحد

دعامات ثقلها. في وقت مبكر من عملية البناء الوطني، كان الاتحاد أولى المؤسسات الفلسطينية، التي تمتعت بحق الانتخاب المباشر، الذي طالما حرم منه الفلسطينيون في اختيار قادتهم وممثليهم. من هنا لم يفز الاتحاد باعتراف الجامعة العربية فحسب، بل فاز، أيضًا باعتراف منظمات قطرية، عربية، وأجنبية، وعالمية، كاتحاد الطلاب العالمي (I. U. S)[٤٠].

بعد عقد من النكبة، حدث تغير جذري في التفكير الفلسطيني، سياسيًا وعسكريًا، إذ أدرك الشعب الفلسطيني فشل العمل العسكري العربي، لارتباطه بأغراض وشروط الأنظمة المتغيرة. كما رسخ توقف العمل الفدائي الرسمي، المدعوم من السلطات المصرية (عام ١٩٥٧) الفكرة نفسها. من ناحية أخرى أسهم نجاح الثورة الجزائرية في الاعتقاد بحتمية حرب التحرير الشعبية لتحقيق الاستقلال الفلسطيني. على هذا برزت عدة أجنحة عسكرية فلسطينية، من بينها الخلية السرية الأولى في تنظيم حركة " فتح "، التي تشكلت عام ١٩٥٨، وإن لم تستطع ممارسة دورها العسكري، إلا في مطلع ١٩٦٥ [٤١].

أما " جبهة التحرير الفلسطينية "، فقد تأسست نتيجة التقاء ثلاث فرق فدائية فلسطينية، حملت أسماء الشهداء عز الدين القسام، عبد القادر الحسيني، وعبد اللطيف شرورو، في أواخر الخمسينيات، وقد نجح أعضاء " الجبهة " في دخول الأراضي المحتلة، في تلك الفترة، لكن " الجبهة " لم تعلن نشاطها المسلح إلا إثر حرب يونيو / حزيران ١٩٦٧ [٤٢].

في مطلع الستينيات ظهرت " منظمة شباب الثأر "، الجناح العسكري لحركة القوميين العرب، لكن عملياتها الفعلية بدأت خلال النصف الثاني من عام ١٩٦٤ (٤٣).

التحق كثير من الفلسطينيين، الذين تشتتوا في البلاد العربية، بالتنظيمات والأحزاب العربية، وبخاصة " حزب البعث العربي الاشتراكي "، و " حركة القوميين العرب "، وقد حرص " البعث " على إصدار بيانات، في المناسبات الوطنية الفلسطينية المختلفة، وإن بدأ، منذ عام ١٩٥٩، في تأكيد الخصوصية الفلسطينية، وتبلور ذلك من خلال قرار تنظيمي، قضى بفرز كوادر وعناصر الحزب العربية الفلسطينية، في جهاز خاص سمى " الفرع الفلسطيني " لحزب البعث، وتبنى الحزب حق الشعب الفلسطيني في حرية تنظيم نفسه، وإبراز الكيان الخاص به. أما " حركة القوميين العرب " فقد تبنت الأهداف العربية الشاملة، لكنها تميزت عن غيرها بجوهر فلسطيني، وملامح فلسطينية واضحة، من حيث نشأتها، والمساهمون في تأسيسها، وبرامجها. وبعد قيام دولة الوحدة بين مصر وسوريا، أوائل عام ١٩٥٨، تشكلت في الحركة " لجنة فلسطين "، وفي مطلع الستينيات شهدت الحركة بداية تنظيمية لتكوين جهاز خاص عن طريق تشكيل " إقليم فلسطين "، أسوة ببقية أقاليم الحركة (٤٤).

انتظم بعض الفلسطينيين في صفوف أحزاب أخرى، مثل " الاخوان المسلمين " و " حزب التحرير الإسلامى "، والأحزاب الشيوعية العربية، خاصة الأردني، و الحزب السوري القومي الإجتماعي "، الذي نجح في

اجتذاب عدد متميز من الفلسطينيين، في أعقاب حرب ١٩٤٨، لمواقفه الحاسمة من الصهيونية، واعتماده أساليب نضال عنيفة [٤٥].

منذ منتصف عام ١٩٤٩، وعلى مدى عقد من الزمان، كان الموقف العملى لمعظم الدول العربية هو طي القضية الفلسطينية، رغم المناوشات العسكرية المتقطعة، التي كانت تجري بين قوات الطرفين، فطوال هذا العقد، أبدت مختلف العواصم العربية استعدادًا للتسوية، المباشرة أو غير المباشرة، مع إسرائيل، والاعتراف بها، في الوقت نفسه لم تتخذ دولة عربية واحدة أية خطوة عملية تمكّن الفلسطينيين من ممارسة حق تقرير المصير، في المناطق التي خضعت للإدارة العربية. غير أن هذا الموقف بدأ يتغير، منذ أوائل عام ١٩٥٩، عندما أقرت لجنة من خبراء الجامعة العربية مشروع " الكيان الفلسطيني ". وفي أيلول/سبتمبر١٩٥٩ وافق مجلس الجامعة، في الدار البيضاء، على إنشاء " أجهزة فلسطين "، وهيئة تقوم بالتنسيق بينها، وعنى المشروع أن يعتبر التنظيم الجديد ممثلاً لفلسطين، في الجامعة وعلى النطاق الدولي، خشية أن يصل صوت الشعب الفلسطيني، عبر طريق آخر [٤٦].

في ١٩٦١/٢/٢٧، أعلنت " الهيئة العربية العليا " - بعد طول صمت - بأنها تنوي إنشاء جهاز رسمي مسؤول، يعالج الشؤون المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية، ويكرس نفسه لتعبئة الشعب الفلسطيني، سياسيًا وعسكريًا. و في ذكري " وعد بلفور " (١٩٦١/١١/٢)، أصدرت " الهيئة " بيانا، دعت فيه الدول العربية إلى تسليم القضية الفلسطينية لأصحابها، " الذين تمرسوا في النضال ضد الاستعمار والصهيونية [٤٧].

تراكمت شتى النضالات الشعبية الفلسطينية، ديمقراطية ومطلبية، منذ النكبة وحتى مطلع الستينيات، بما سمح للكيان الفلسطيني أن يتبلور، مرة أخرى، الأمر الذي عززه إحباط القوى الوطنية الفلسطينية لشتى مؤتمرات تصفية القضية الفلسطينية، لذا حين استعاد الاقتصاد الفلسطيني عافيته، أواخر الخمسينيات، وجد الأرضية التي يقف عليها، مما حقق مردودًا أساسيًا له من جهة، فضلاً عن تمكّنه من توظيف التطورات الإيجابية، الإقليمية والعالمية، من جهة أخرى (٤٨).

بحلول عام ١٩٦٣، تخطى عدد المنظمات الفدائية الفلسطينية الثلاثين، صحيح أن معظمها اقتصر على اللافتة فحسب، إلا أن ضخامة الرقم عكست مدى تعطش الشعب الفلسطيني لأخذ قضيته الوطنية بين يديه، بعد أن قلب فشل الوحدة المصرية - السورية، الشعار الوطني الفسطيني " الوحدة طريق التحرير " إلى " التحرير طريق الوحدة ". خاصة بعد أن حث عبد الناصر الشعب الفلسطيني على أخذ قضيته بين يديه، الأمر الذي كرره كل من ملك العربية السعودية، سعود بن عبد العزيز، والرئيس الجزائري، أحمد بن بيلا (١٩٦٢). لكن النظام العربي خشيَّ من مغبة العمل الفدائي الفلسطيني، مما عجَّل بظهور " منظمة التحرير الفلسطينية "، في صيف ١٩٦٤، وإن قبلتها الأنظمة العربية، على مضض (٤٩).

الكفاح الوطني الفلسطيني في الداخل:

توهمت الدوائر الإسرائيلية الحاكمة، بعد النكبة، بأن الفرصة مواتية

لها لاستيعاب العرب الذين بقوا فيها. لعب حزب " المابام " دورًا رئيسيًا في تنفيذ هذا المخطط، فشكل أكثر من قائمة عربية في الانتخابات النيابية، كما أنشأ حزب " الصهيونيين العموميين " حزبًا عربيًا "، هو " حزب الوسط "، وأشرف حزب " أحدوت هاعفودا " على تأسيس " حزب العمل الإسرائيلي العربي "، عام ١٩٥٨، الذي لم يكن له برنامج سوى الحيلولة دون التغلغل الشيوعي في الأوساط العربية. وقد استطاعت الأحزاب الموالية للصهيونية أن تحصد ما يقرب من ثلثي أصوات العرب، في انتخابات ١٩٥١، ١٩٥٥، لكن هذه النسبة هبطت، بوضوح، في انتخابات ١٩٥٩، لصالح الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي انضم إليه كثير من العرب الفلسطينيين، إذ كان الحزب الوحيد الذي لا يناصر الصهيونية، في ظل حظر سلطات الاحتلال لإنشاء أي تنظيم سياسي عربي قومي في إسرائيل. واستمر " الحزب الشيوعي " في فضح الصهيونية، واضطهاد العرب، من خلال صحيفته (الاتحاد)، في حين توقفت مجلة حزب المابام " الفجر " عن الصدور، عام ١٩٦٨، إذ لم يستطع جذب عرب ١٩٤٨ بسياساته المتذبذبة تجاه القضايا العربية[٥٠].

اقترن اشتداد ساعد التيار اليساري بين عرب ١٩٤٨، بازدياد النشاط الموجه ضد القمع الإسرائيلي. فمنذ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤٩، رفضت قبيلة العزازمة البدوية، التعهد بالولاء لإسرئيل، فطردتها الأخيرة خارج الحدود، عقابًا لها، وظل " مؤتمر العمال العرب " قائمًا في الناصرة، حتى ١٩٤٩، رغم اختفاء التنظيمات النقابية العربية الأخرى، وفي يونيو/ حزيران ١٩٥١اجتمع في عكا، ٧ آلاف عربي من ١٤ قرية

من قري الجليل وطالبوا بإعادة أراضيهم إليهم. وفي ١٩٥٢ اتحد عرب ١٩٤٨ في حركة احتجاج على قانون الجنسية، وما به من تمييز عنصري، وأعلن الإضراب العام في الناصرة، وعم الاحتجاج جميع المدن العربية [٥١].

برغم الظروف القاسية التي واجهها عرب ١٩٤٨ تحت نير سلطات احتلال غاشمة لاقتلاعهم من أرضهم، بشتى السبل وتقييد حريتهم بسن ١٧٠ قانونا تكبل العرب، وتهددهم بالطرد من العمل، والأرض، والبلاد، لدرجة أن أهالى كفر قاسم تخوفوا من ترميم قبور موتاهم، برغم ذلك كله، يسبقه غياب القيادة الوطنية، أصر عرب ١٩٤٨ على أهداف استراتيجية للمقاومة المدنية، تمثلت في الصمود والبقاء داخل حدود الكيان الجديد، والتشبث بملكية الأرض، واستعادة طقوس الحياة اليومية، وطالبوا في ذاك الإطار بتشكيل مجالس بلدية منتخبة. وخاضت مجموعات أخرى من عرب ١٩٤٨محاكمات مرهقة، لإثبات حقها في الأرض، مثل قضية قريتى " إقرت " و " كفر برعم " في الجليل، اللتين دام كفاح أهاليهما من ١٩٤٩ حتى ١٩٧٢، ورفضوا الحصول على تعويضات، وقاموا بالاعتصام، والتظاهر، كذلك قام أهالى قرية " الخصاص "، قرب الحدود السورية، بمحاولات قضائية مشابهة للعودة إلى قريتهم، بعد طردهم منها، عام ١٩٤٩ [٥٢].

تصدت القبائل البدوية كذلك لمحاولات توطينهم في مناطق أخرى، وكانت عشيرة " الصانع "، البالغ قوامها نحو ألف نسمة، من تعرض لهذه السياسة في النقيب، فأقام رئيسها، الشيخ الحاج إبراهيم الصانع

دعوى، ضد نقلهم الإجباري من أرضهم، ورفضت القبيلة الإنذار، الذي وجهته إليها سلطات الاحتلال، واستطاعت قبيلة الصانع أن تحصل على تسوية لصالحها، عبر لجنة الهدنة المشتركة، في سبتمبر/أيلول ١٩٥٢. وفي الشمال خاضت قبيلة عرب الواعر صراعًا طويلاً مع سلطات الاحتلال، فرفضت عام ١٩٥٦، مغادرة أراضيها في الجليل، وصمدت أمام العقوبات الجماعية، التي فرضتها سلطات الاحتلال عليها في مجالات: الصيد، والرعى، والتجارة، و تدميرها لآبار المياه، والبيوت، والأكواخ الخاصة بهم، دون أن يذعنوا، أو يلتمسوا مساعدة السلطة، بل نصبوا خيامهم إلى جانب بيوتهم المهدَّمة، وأكدوا بقاءهم في أرض آبائهم [٥٣].

استطاع عرب ١٩٤٨، في حالات محدودة، أن يفرضوا إرادتهم على سلطات الاحتلال، من حملات مكثفة ضد التشريعات الإسرائيلية المجحفة، وقد تجلى ذلك في التصدي لمشروع " قانون التقادم "، عام ١٩٥٨، الذي كان يلزم العربي تقديم ما يثبت حيازته لأرضه، خلال ٥٠ عامًا ماضية، إذ تم تخفيض تلك المدة إلى ١٥ عامًا، فقط، تلبية لمطالب المحتجين العرب، كما تم قبر مشروع " قانون تركيز الأراضي الزراعية "، الذي سنته الحكومة الإسرائيلية، عام ١٩٦٠، للاستيلاء على مزيد من الأراضي العربية، بذرائع واهية [٥٤].

في آيار /مايو ١٩٥٨، قررت بلدية الناصرة الاحتفال، أسوة بالمدن الأخرى، بذكرى قيام إسرائيل. لم يستطع العرب السكوت على ذلك، فعقدوا اجتماعًا حاشدًا، ونصبوا مكبرات صوت أذاعت الخطب

الحماسية، والأناشيد القومية، ونظَّموا أول مظاهرة كبيرة، بمناسبة " عيد العمال "، اجتذبت المظاهرة جماهير غفيرة من القرى العربية المجاورة. هنا ظهر الوجه الحقيقي لسلطات الاحتلال، التي سرعان ما نكَّلت بالمتظاهرين، واعتقلت ١٣٣ منهم، وهو ما أكد بأن " الأقلية العربية " داخل الكيان الصهيوني ليست مسالمة، أو متعاونة مع الاحتلال، كما يعتقد البعض. وقد فتحت تلك الواقعة الباب أمام مشاركة النشاط العربي، الذي تجلي في تأسيس " الجبهة الشعبية "، والتظاهر، سنويًا، في " عيد العمال "، للمطالبة بحقوق الشعب الفلسطيني، وحق تقرير المصير [٥٥].

معروف أنه في عنفوان المد القومي، تضامن عدد من القوميين، فأسسوا " الجبهة العربية "، لكن الحاكم العسكري رفض تسجيلها، فغيروا اسمها إلى " الجبهة الشعبية "، وتم من خلالها التحالف مع الشيوعيين. وقد نص دستورها على النضال من أجل إلغاء الحكم العسكري، ووقف مصادرة الأراضي، وإلغاء التمييز العنصري، وعودة اللاجئين، واستخدام اللغة العربية في جميع الدوائر. وأقامت " الجبهة " فروعًا لها، في عامها الأول (١٩٥٨)، في (٦) مدن عربية فلسطينية، ونظَّمت، عام ١٩٥٩، مؤتمرًا للأراضي واللاجئين في حيفا، تصدت له سلطات الاحتلال، واعتقلت عشرين من زعماء " الجبهة " [٥٦].

نتيجة للخلاف الذي احتل الساحة العربية، ربيع ١٩٥٩، بين التيارين القومي والشيوعي، دب الخلاف داخل " الجبهة الشعبية "، مما أدى إلى انشقاق التيار القومي عن الجبهة، مكونًا " حركة الأرض ".

تأسست " حركة الأرض ": عام ١٩٥٩، فكانت حركة سياسية رائدة،

اتخذت شكلاً نضاليًا صداميًا وسريًا، مختلفًا عن غيرها من الحركات، ومثلت الحركة رافدًا في الحركة السياسية الوطنية العامة للشعب العربي الفلسطيني، واستجابة موضوعية لحالة النهوض الوطني داخل الأراضي المحتلة، التي استمدت الكثير من زخمها من حالة النهوض العربي خارج حدود الاحتلال الإسرائيلي. غير أن " حركة الأرض " لم تصمد أمام العسف الإسرائيلي، إذ ألغيت بقرار رسمي إسرائيلي، أواسط عام ١٩٦٤، بعد أن خاضت نضالاً مطلبيًا، في معظمه[٥٧].

في ظل قلة المعلمين العرب، وندرة الكتب العربية، والانقطاع، والعزلة عن الوطن العربي، لعب المثقفون والطلاب دورًا أساسيًا في تثبيت هوية العرب القومية، ومقاومة ذوبانهم ثقافيًا. اضطر المعلمون إلى إعادة طبع بعض الكتب العربية، بأبسط الوسائل، وإلى استنساخها باليد أحيانا. في مارس/ آذار ١٩٦٠، عقد " مؤتمر المثقفين العرب " في حيفا، واتخذ قرارات مهمة، تؤكد ضرورة النضال من أجل الديمقراطية، وإلغاء الحكم العسكري، والاعتراف باللغة العربية [٥٨].

وبعد، فقد تأكد من خلال تتبع مسيرة الكفاح الوطني الفلسطيني، منذ النكبة وحتى إنشاء " منظمة التحرير الفلسطينية "، عام ١٩٦٤، بأن الشعب الفلسطيني لم يتوقف، يومًا، عن النضال من أجل تحرير الوطن واستقلاله، وأن تلك الحقبة لم تكن، كما يتصور البعض، فترة خمول، استسلم فيها الشعب الفلسطيني لواقعه الأليم بعد النكبة.

عكس قبر مشاريع التوطين، ومنع تصفية القضية الفلسطينية، برغم كل الظروف الداخلية والخارجية المحيطة بالشعب الفلسطيني، وافتقاده،

لفترة طويلة، قيادة وطنية توحد إرادته وتعبر عن حقوقه ومطالبه، وعيا وطنيا رفيع المستوى، استشعر قيمة الوطن، وحافظ على انتمائه إليه، حتى وهو سليب، رافضا مقايضته بأرض أخرى، حتى وإن كانت عربية.

كشفت الدراسة، كذلك، استخدام الدول الاستعمارية الإمبريالية للمنظمات الدولية، كأدوات طيعة في أيديها، للضغط على الدول والشعوب المستهدفة لتحقيق أغراض تلك القوى الاستعمارية، على حساب الشعوب، حتى وإن كانت قضاياها عادلة. الأمر الذي ينبغي أن نأخذه في الاعتبار، عند تعاطينا مع الأحداث، والقضايا الراهنة.

* * *

مراجع الفصل الرابع والعشرون

(١) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الخامس، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: أسعد عبد الرحمن، النضال الفلسطيني في إطار منظمة التحرير الفلسطينية ص ١٦٥ - ١٨١، ص ١٦٧.
(٢) **المصدر نفسه** ص ١٦٧ - ١٦٨.
(٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: خيرية قاسمية، الحركة الوطنية الفلسطينية في ثلثي القرن الحالي (١٩٠٠ - ١٩٦٤)، ص ٣٩ - ١٦٣).
(٤) عيسى الشعيبي، **الكيانية الفلسطينية، الوعى الذاتى والتطور المؤسساتى ١٩٤٧ - ١٩٧٧**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ط١، ١٩٧٩، ص ١٨.
(٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٠.
(٦) **المصدر نفسه**، ص ١٩ - ٢٥.
(٧) **المصدر نفسه** ص ٢٩ - ٣٠.
(٨) **المصدر نفسه** ص ٣١ - ٣٤.
(٩) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: عبد الرحمن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٨.
(١٠) الشعيبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٢ - ٤٣.
(١١) بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٨١، ص ٤٨٠ - ٤٩٠.
(١٢) **المصدر نفسه** ص ٤٩١ - ٦١٥.
(١٣) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية، المحطات الرئيسية - الدروس المستفادة**، القاهرة، دار الكلمة، ط١، ٢٠٠٠، ص ٣٥ - ٣٦.
(١٤) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: خيرية قاسمية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨ - ١٠٩).
(*) لجنة شُكلت للاستقصاء الاقتصادي للشرق الأوسط، بناء على اقتراح العضو الأمريكي في " لجنة التوفيق الدولية "، بهدف تسهيل توطين اللاجئين، ودمجهم، اقتصاديًا، اعتمادًا على أنفسهم.
(١٥) **المصدر نفسه**، ص ١١٣.
(١٦) منير الهور وطارق الموسى، **مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية منذ ١٩٤٧ - ١٩٨٢**، عمان، دار الجليل للنشر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣، ص ٤٨ - ٦٢.

(١٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره** (انظر: خيرية قاسمية، **مصدر سبق ذكره**، ص١١٣).
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ١١٣.
(١٩) **المصدر نفسه**، ص ١١٣ - ١١٤.
(٢٠) أحمد صادق سعد، وعبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨ - ١٩٧٠**، بيروت، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ط١، ١٩٧٥، ص ٦٩.
(٢١) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧.
(٢٢) سعد، وياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٠ - ٧١.
(٢٣) محمد خالد الأزعر، **المقاومة في قطاع غزة ١٩٦٧ - ١٩٨٥**، القاهرة، دار المستقبل العربي، ط١، ١٩٨٧، ص ٤٤ - ٤٥.
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٤٦ - ٤٧.
(٢٥) يونس الكترى، **حلقة مفقودة من كفاح الشعب الفلسطيني**، القاهرة، دار المستقبل العربي، ط١، ١٩٨٧، ص ٢٠ - ٢٢.
(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٢ - ٢٣.
(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٧ - ٢٩.
(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ٣٠ - ٣١.
(*) خسرت إسرائيل في بضعة أسابيع ٣١٨٧ قتيلاً إثر عمليات الوحدات الفدائية، بينما كانت خسائرها في حرب ١٩٥٦ تقدر بنحو ١٧٢ قتيلاً، وفي حرب ١٩٧٣ سقط نحو ٢٥٦٩ قتيلاً إسرائيليًا، انظر نشرة دار الجليل للدراسات الفلسطينية والنشر، عمان، ١٩٩٢/٥/١٨.
(٢٩) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٠ - ٥١.
(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ٤٧ - ٤٩.
(٣١) سعد، وياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦.
(٣٢) **المصدر نفسه**، ص ٧٤ - ٧٥.
(٣٣) الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣ - ٥٥.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٥٦.
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٧ - ٥٩.
(٣٦) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: أسعد عبد الرحمن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٤).
(*) كشفت التحقيقات التي أجريت عام ١٩٥٣ قيام الفدائيين العرب المقيمين في دمشق بالدخول سرًا إلى فلسطين المحتلة، وهي أولى العمليات من هذا النوع. وقد مثلت تلك العمليات نواة " شعبة فلسطين ". انظر: جون باجوت جلوب، جندي مع العرب، ترجمة عفيف حسن الصمدي، بيروت، دار النشر للجامعيين، د. ت.

(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ١٧٥.
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ١٧٤ - ١٧٥.
(٣٩) **المصدر نفسه**، ص١٧٠.
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص ١٧٠ - ١٧١.
(٤١) **المصدر نفسه**، ص ١٧٥ - ١٧٦.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ١٧٦.
(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ١٧٦ - ١٧٧.
(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٤٥) **المصدر نفسه**، ص ١٧٣.
(٤٦) سعد، وياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٨ - ٧٩.
(٤٧) **المصدر نفسه**، ص ٧٩.
(٤٨) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨.
(٤٩) **المصدر نفسه**، ص ٤٢ - ٤٣.
(٥٠) سعد، وياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٩ - ٨١.
(٥١) **المصدر نفسه**، ص ٨١.
(٥٢) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: خالد القشطيني، المقاومة الفلسطينية، ص ٢٨٣ - ٣٥٤، ص ٣٢٧ - ٣٢٩).
(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٣٠.
(٥٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٣٠.
(٥٥) **المصدر نفسه**، ص٣٣٢.
(٥٦) **المصدر نفسه**، ص٣٣٢.
(٥٧) الموسوعة، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: أسعد عبد الرحمن، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧١).
(٥٨) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: خالد القشطيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٣٣).

* * *

الفصل الخامس والعشرون

المحاولات المبكرة لإحياء الكيان الفلسطيني

الفصل الخامس والعشرون:
المحاولات المبكرة لإحياء الكيان الفلسطيني

منى عزت

بمجرد إعلان قرار تقسيم فلسطين، في (٢٩/١١/١٩٤٧)، قامت " الهيئة العربية العليا " [*] برفض القرار، مع تمسك " الهيئة " بحقها في إقامة كيان فلسطيني مستقل. وتقدمت بطلب إلى الجامعة العربية، من أجل تشكيل " حكومة عموم فلسطين ". ورفض هذا الطلب، واتخذت الأنظمة العربية إجراءات، عند دخول جيوشها فلسطين، تسببت في قطع سبل الاتصال بين المؤسسات الفلسطينية، والشعب الفلسطيني، فأدت إلى شيوع الفوضى، واضطراب الحياة العامة، مما دفع اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية في (١٠/٨/١٩٤٨)إلى إقامة إدارة فلسطينية مؤقتة، من أجل تسيير شؤون الأقسام التي تحتلها الجيوش العربية. ولم تخرج هذه الإدارة إلى حيِّز التنفيذ، بسبب تجدد القتال في فلسطين، وتكرر مطلب " الهيئة العربية " السابق، ولكن دون جدوى، إلى أن التقت عوامل عدة، دفعت الجامعة العربية إلى التفكير، جديًا، في إعلان استقلال فلسطين، وإنشاء حكومة ذات سيادة. ولعل أهم هذه العوامل [1]:

١. دأب " الهيئة العربية العليا " على المطالبة بتشكيل " حكومة

عموم فلسطين ".

٢. التقرير الذي أعده الوسيط الدولي، " الكونت فولك برنادوت "، وأرسله إلى السكرتير العام للأمم المتحدة، حول رفض الأنظمة العربية الاعتراف " بالدولة الإسرائيلية "، وعدم إنشاء حكومة عربية في فلسطين.

٣. ضرورة تقديم ممثلين رسميين للشعب الفلسطيني، أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، في دورتها بباريس، في أيلول / سبتمبر ١٩٤٨.

٤. رغبة الأغلبية العظمى من الأنظمة العربية، في قيام " حكومة عموم فلسطين "، لمواجهة الرأى العام العربي، الذي اتهم هذه الأنظمة بالعجز تجاه الدفاع عن فلسطين.

اصطدمت رغبة الدفاع عن فلسطين برفض بعض الأطراف العربية، ولم يثن هذا الرفض " الهيئة العربية العليا " عن مواصلة جهودها، من أجل إعلان الكيان الفلسطيني.

أجرت " الهيئة " اتصالات مع الجامعة العربية، من أجل الإعداد لمؤتمر وطني فلسطيني، يكون بمثابة جمعية تأسيسية، تمنح ثقتها للحكومة الفلسطينية المرتجاة.

عقد المؤتمر في (١٩٤٨/٩/٣٠)، بمدينة غزة، التي كانت تحت سيطرة الإدارة المصرية، وتم توجيه الدعوة لحضور المؤتمر إلى (١٥١) شخصية فلسطينية، ووقَّع على الدعوة أحمد حلمى باشا عبد الباقى، بصفته رئيس " حكومة عموم فلسطين "، وكان معظم الذين تغيبوا

عن حضور المؤتمر ممن يعيشون في مناطق خاضعة لسيطرة الجيش الأردني. وفي اليوم الأول للمؤتمر، تم منح الثقة " لحكومة عموم فلسطين "، بأغلبية (٦٤)صوتًا، مقابل ثمانية، رفضوا منحها الثقة. وطالب أحد عشر عضوًا التأجيل، لمناقشة " النظام المؤقت لحكومة عموم فلسطين ". وتألفت الحكومة من أحمد حلمي باشا عبد الباقي رئيسًا، وجمال الحسيني للخارجية، وميشيل ابيكاريوس للمالية، وعوني عبد الهادي للشؤون الاجتماعية، ورجائي الحسيني للدفاع، والدكتور حسين فخري الخالدي للصحة، وسليمان عبد الرزاق طوقان للمواصلات، والدكتور فوتي فريج للاقتصاد، وعلي حسن للعدل، ويوسف صهيون للدعاية، وأمين عقل للزراعة، وأنور نسيبة سكرتيرًا لمجلس الوزراء.

أقر المؤتمر، في اليوم التالى (١/١٠/١٩٤٨)، " النظام المؤقت لحكومة عموم فلسطين "، والذي ضم (١٨) مادة، وكان بمثابة دستور الحكومة الفلسطينية، واختتم المجلس أعماله بإعلان استقلال فلسطين، وأرسل برقيات شكر للملوك والرؤساء العرب.

إلى ذلك تشكل مجلس وطني، ضم من اعتبروا " ممثلي الشعب الفلسطيني ". وتولى الحاج أمين الحسينى رئيسة هذا المجلس واعترفت الجامعة العربية، ومعها الأنظمة العربية بهذه الحكومة، عدا الأردن [٢].

عقد في عمان مؤتمر مواز، دعا المشاركون فيه من الفلسطينيين إلى نزع الثقة عن " الهيئة العربية العليا "، وأعقبة " مؤتمر أريحا "، في

كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٨، تلته إجراءات ضم المنطقة التي دخلها الجيش الأردني في فلسطين، أثناء حرب ١٩٤٨، وعرفت فيما بعد باسم " الضفة الغربية ".

تأسست على ما سبق أوضاع قانونية وسياسية، أفرزت واقعًا جديدًا، أثـرَّ سلبًا على تطور الكيانية الفلسطينية، وغياب الحركة الوطنية الفلسطينية المستقلة، التي لم تكن قد شفيت، بعد، من نكبة ١٩٤٨.

توالت ردود الفعل العربية الرافضة للإجراءات الأردنية في فلسطين، أبرزها موقف السلطات المصرية، الذي جاء على خلفية التنافس بين القاهرة وعمان، على النفوذ داخل فلسطين، ورأت السلطات المصرية في بقاء " حكومة عموم فلسطين "، التي كانت خاضعة للإدارة المصرية، فرصة للاحتفاظ بموطيء قدم داخل فلسطين.

بعد مناقشات ووساطات عربية، لم تفلح في إقناع الأردن بتغيير موقفه، صدر قرار بفصله من الجامعة العربية (١٩٥٠/٥/١٥)، لكن القرار لم يستمر إلا أربعة أسابيع فقط، بعد أن أصدرت الحكومة الأردنية بيانا، في (١٩٥٠/٥/٢٨)، أشارت فيه إلى " أن مواقف الدول العربية مصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، بمعارضة خطوة ضم فلسطين الشرقية للأردن، يخالف ما تم الاتفاق عليه، سابقًا، وحكومات هذه الدول، وأن مصر اتفقت على دمج شرق فلسطين بشرق الأردن، وانتفاع الأردن من ميناء غزة، الذي كان تحت إدارة مصر، ووافقت على ذلك سوريا ولبنان، في أيلول / سبتمبر ١٩٤٩، ولم يعترض العراق ".

يفسر ما سبق، تحول الموقف المصري، حيث منعت السلطات المصرية " حكومة عموم فلسطين " من ممارسة مهامها، في قطاع غزة، الذي كان تحت سيطرة الجيش المصرى، آنذاك، فضلاً عن تعرض الحكومة المصرية لأزمة اقتصادية، وعجز في الموازنة، فشكل إلحاح " حكومة عموم فلسطين " في طلب الدعم المالي، والسياسي عبئًا من الحكومة المصرية، كما بدأت مصر، في التوقيت ذاته، إجراء مباحثات الهدنة مع إسرائيل، مما دفع برئيس الوزراء المصري، محمود فهمي النقراشي (*)، إلى إجبار رئيس المجلس الأعلى " لحكومة عموم فلسطين " (**) أمين الحسيني، على مغادرة غزة، تحت حراسة مشددة، فوجوده في غزة، في ذلك التوقيت، كان يمكن أن يؤثر، سلبًا، على هذه المباحثات. كما خمدت الحماسة العربية لفلسطين، حيث وجهت جامعة الدول العربية الدعوة، في (٣٠/١٠/١٩٤٨)، إلى أحمد حلمي باشا عبد الباقي، للمرة الأولى والأخيرة، من أجل حضور اجتماعات مجلس الجامعة العربية، بصفته رئيس " حكومة عموم فلسطين ".

وبعد ذلك أصبح عبد الباقي يحضر الاجتماعات، بصفته ممثل فلسطين لدى جامعة الدول العربية فحسب، كما جاء الموقف الدولي من " حكومة عموم فلسطين " سلبيًا خالصًا (٣)

لم يكن ثمة موقف فلسطيني واضح تجاه الإجراءات الأردنية، والسياسات العربية، بل تباينت الآراء بين مؤيد ومعارض لفكرة إقامة الكيان الفلسطيني.

يرجع ضعف الموقف الفلسطيني لأسباب، لعل أهمها [٤]:

١ - اتساع نطاق الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، فانشغل الفلسطينيون بالدفاع عن أرضهم.

٢ - ارتفاع عدد اللاجئين، وتدهور أوضاعهم الاقتصادية في قطاع غزة، وانشغل الفلسطينيون بتأمين لقمة العيش، والسكن.

٣ - عدم اكتمال الوعي تجاه الكيان الفلسطيني، بشكل عام، وتجلى هذا الأمر في البيان الصادر عن " الهيئة العربية العليا "، التي أدانت فيه الإجراءات الأردنية.

٤ - وجود غالبية اعضاء " الهيئة العبية العليا " خارج فلسطين، وتعدد ولاءاتهم للأنظمة العربية، وعدم اتصالهم بالجماهير الفلسطينية.

٥ - تدافع الخلافات بين الأحزاب الفلسطينية، جعلها تنصرف عن القضية الأساسية، فيما تعاملت الأنظمة مع الفلسطينيين بمنطق الوصي، وتجلى هذا في القرار الذي اتخذه مجلس الجامعة، في (١٩٤٦/٣/٣٠)، القاضى بأن " اختيار مندوبين عن فلسطين، هو من حق المجلس، وحده " وانسحب ذلك على طبيعة أداء الجامعة العربية، منذ إنشائها في العام ١٩٤٥، مع فلسطين.

بذا أسدل الستار على أول تجربة لإعلان كيان فلسطيني، بينما كانت القضية الفلسطينية في قلب نضال الأحزاب، والحركات القومية العربية، مما حفز الفلسطينيين على الانخراط في هذه الحركات، التي علق عليها الفلسطينيون آمالهم، ورفعوا شعار " الوحدة طريق العودة "، وقد ساعد

على ذلك غياب الحركة الوطنية الفلسطينية، تحت تأثير الاندحار العربي، بعد نكبة ١٩٤٨، فلم يكن ثمة قيادة فلسطينية موحدة، قادرة على تنظيم صفوف الجماهير، وصياغة برنامج سياسي واضح، ومحدد، يتلاءم مع طبيعة القضية الفلسطينية، وخصوصيتها.

لكن سرعان ما أدرك الفلسطينيون عدم جدوى الارتكان إلى الأنظمة العربية، التي تسيطر الإمبريالية على معظمها، وأيضًا من الخطأ الاكتفاء بالمراهنة على الأحزاب السياسية العربية فحسب، فقد تعمق هذا الاتجاه، عقب احتلال إسرائيل لقطاع غزة، خريف العام ١٩٥٦، مما وضع الفلسطينيين في مواجهة مباشرة مع المحتل الإسرائيلي، وبدأت تتحرك المياه الراكدة وتتبلور أفكار جديدة، تهدف إلى إقامة كيانات قادرة على قيادة عمل فلسطيني منظَّم، حيث أسهم قرار الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس، صيف العام ١٩٥٦، في إشعال نار الحماس لدى الفلسطينيين، حيث تأكدت لهم إمكانية التصدي للمحتل، والنضال من أجل المعارك التي خاضتها المقاومة الشعبية المصرية، من دحر " العدوان الثلاثي "، وخرجت، بالفعل، إلى النور مؤسسات ومنظمات فلسطينية في الداخل، وفي بعض الأقطار العربية، وأيضًا داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة.

على الرغم من أن هذه المؤسسات نشأت في ظروف سياسية مختلفة، فإنها اهتمت، اهتمامًا بالغًا، بمسألة الكيان الفلسطيني، وبضرورة دور فلسطيني خالص، في معركة تحرير الأرض[٥].

لم يكن " الكيان الفلسطيني " مطلبًا فلسطينيًا فحسب، بل كانت ثمة أحزاب وحركات وطنية عربية طالبت بضرورة إقامة مؤسسات فلسطينية، تقود مسيرة النضال الوطني الفلسطيني، وطرحت بعض هذه الأحزاب أفكارًا ومشروعات محددة لهذا الكيان.

نتوقف عند موقف " حزب البعث العربي الاشتراكي "، و " حركة القوميين العرب "، اللذان كانا أكثر التصاقًا وتأثرًا بالقضية الفلسطينية، عن غيرهما من الأحزاب والحركات السياسية العربية.

لعل موقف حزب البعث المبكر من الكيان الفلسطيني، تجلى في بيان أصدره " البعث "، في حزيران / يونيو ١٩٥٩، ندد فيه بمشروعات توطين اللاجئين، وإسكانهم في الدول العربية، وخص البيان المشروع الذي تقدم به " داج همر شولد "، الأمين العام للأمم المتحدة، في ذلك الوقت، حول قضية اللاجئين الفلسطينيين، فخاطب البيان الفلسطينيين، على وجه التحديد، قائلا: " لتكن فلسطين جزائرنا الثانية، وليكن إصرارنا على إعداد شعب فلسطين، في نطاق جيش تحرير شعبي، هو ردنا على مشروع " همر شولد ". كما دعا البيان، في ختامه، إلى خلق كيانية فلسطينية، قائلاً: " النازحون عن فلسطين، العائدون إليها، مدعوون لاختيار قيادة جديدة، تنظّم موقفهم، وتسهر على مشاكلهم، وتعبِّر عن صمودهم الاشتراكي، وإصرارهم على حل قضية فلسطين، بشكل ثوري، والعمل لأهداف الأمة العربية في الوحدة، والحرية، والاشتراكية " (٦).

في هذا التوقيت اتسع نطاق الحوار العربي، على المستويين، الرسمي، والشعبي، حول الكيان الفلسطيني. وفي هذا السياق انعقد، في

بغداد (١٩٦١/١/٣١)، مؤتمر لوزراء الخارجية العرب، من أجل مناقشة قضيتي فلسطين والجزائر، وتقدمت القيادة القومية لحزب البعث بمذكرة إلى المؤتمر، أشارت فيها إلى نقاط عدة، منها " أن الجماهير الفلسطينية قد عبرت، مرارًا، عن رغبتها الملحَّة في إنشاء كيان نضالي لجميع أبناء فلسطين، ينظِّم كفاحهم ". وحذرت المذكرة من خطورة استخدام واستغلال الكيان الفلسطيني في خدمة أغراض سياسية إقليمية ضيِّقة، وألحت المذكرة على ضرورة إطلاق الحرية لأبناء فلسطين، من أجل اقامة " جبهة شعبية لتحرير فلسطين "، توحد جميع عناصر القوى الثورية من عمال، ومهنيين، ومثقفين، في مختلف الأقطار العربية، وتكون هذه الجبهة أداة نضالية، حقيقية، لتحرير الأرض المغتصبة (٧).

أما " حركة القوميين العرب " فتميَّزت عن غيرها بسمات فلسطينية واضحة، حيث غلبت عليها النزعة الفلسطينية، في النشأة والتأسيس، فجورج حبش، مؤسس هذه الحركة لاجئ فلسطيني من مدينة اللد، وشاهد عيان على نكبة ١٩٤٨، وقد انعكس ذلك على انشغال الحركة بالقضية الفلسطينية، فمنذ وقت مبكر، طرح الفلسطينيون، الأعضاء في الحركة، سؤالاً حول دور الفلسطينيين الخاص بهم، بما لا يتعارض مع عروبة فلسطين، وقوميتها، وتمثلت إجابة هذا السؤال في تعبيرات سياسية فلسطينية، منها " لجنة فلسطين "، داخل " الحركة "، التي تأسست عام ١٩٥٨، وبعد مناقشات طويلة خلصت " اللجنة " إلى ضرورة تحرير فلسطين، عبر نضال أبنائها، واعتمادًا على دولة الوحدة (يقصد بها الوحدة بين مصر وسوريا " الجمهورية العربية المتحدة ")، حيث رأت

كوادر " الحركة " بأن الوحدة خطوة أولى نحو توحيد العالم العربي، بأسره، وأخذت (الحركة) تعمل لخدمة هذه الوحدة، ونقلت مقر عملياتها من عمان إلى دمشق، عام ١٩٥٨، بل اعتبرت " الحركة " أن الجمهورية العربية المتحدة هي نقطة انطلاق من أجل تحرير فلسطين. وقامت قيادة " الحركة " بالاتصال بدولة الوحدة، والتقت بالرئيس جمال عبد الناصر، أثناء إحدى زياراته لدمشق، في العام ١٩٥٩، وطالبته، بحضور نائبه السوري عبد الحميد السراج، بتدريب الفلسطينيين، وتوفير السلاح لهم، ووافق عبد الناصر على هذه الطلبات، التي قدمت باسم " النازحون الفلسطينيون في لبنان ". وبموافقة الأجهزة الرسمية، أرسل لهم، فيما بعد، ثلاثين قطعة سلاح، دفعة أولى للمتدربين، وصلت إلى الأراضي اللبنانية، قبل أيام قليلة من وقوع الانفصال، صيف العام ١٩٦١ (٨).

في العام ١٩٦٠ قامت " الحركة " بإنشاء جهاز فلسطيني خاص، عرف باسم " إقليم فلسطين "، أسوة ببقية أقاليم الحركة، وبعد عامين من تأسيس الإقليم ذاته، عقد أول مؤتمر قطري فلسطيني للأعضاء الفلسطينيين في " الحركة "، العام ١٩٦٢، حضر المؤتمر مندوبو الساحات المختلفة في إقليم فلسطين (لبنان، سوريا، مصر، الأردن، العراق، الكويت)، وأكد المؤتمر على ضرورة استمرار التدريبات العسكرية، من أجل الإعداد للعمل المسلح، والاتصال بالأهالي العرب في فلسطين المحتلة (٩).

مؤرخ فلسطيني كان ضمن القيادات الشيوعية في قطاع غزة، أشار إلى أن الحزب الشيوعي الفلسطيني في قطاع غزة لم يتخذ موقفًا محددًا،

من مسألة الكيان الفلسطيني، بسبب توقف الحزب، بعد ضربتين أمنيتين، وجهتا إليه العام ١٩٥٩، وطالتا (٣١) من قياداته، وكوادره.

أما الحزب الشيوعي الأردني، ومعظم قياداته من الفلسطينيين، فكان لا يزال يعاني من ضربات قاصمة، وجهتها إليه أجهزة الأمن الأردنية، منذ نيسان / أبريل ١٩٥٧، فضلاً عن أنه كان منغمسًا في قضايا المواجهة مع النظام الأردني [١٠].

نخلص مما سبق الي أن الفترة، منذ منتصف الخمسينات، شهدت تطورًا ملحوظًا في الوعي الفلسطيني بشأن إقامة كيان فلسطيني مستقل. وقد هيأت عوامل عدة المناخ لهذا التطور، لعل في مقدمتها[١١]:

١. التحسن النسبي للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للفلسطينيين، وتحديدا المقيمين في دول الخليج العربي.

٢. انهيار الوحدة المصرية - السورية (١٩٦١/٩/٢٨)، ما أعاد، مجددا، طرح السؤال حول دور فلسطيني خاص، لا ينعزل عن النضال العربي. وبالفعل انخرط الفلسطينيون في منظمات فدائية، من أجل تحرير الأرض.

٣. استلهام تجربة الثورة الجزائرية، وانتصارها، ربيع ١٩٦٢، اشعل الحماس بين الفلسطينيين، وعمَّق ثقتهم في إمكانية مقاومة المحتل، وإلحاق الهزيمة به.

في الوقت ذاته، برزت مشروعات عربية رسمية حول الكيان الفلسطيني، وإن تباينت الأهداف بين المشروعات الرسمية ومثيلتها

الشعبية. فمع تصعيد إسرائيل سياساتها العدوانية في المنطقة، طرح، مجددًا، في اجتماعات مجلس جامعة الدول العربية، في دوراته العادية الحادية والثلاثين، بالقاهرة (٣ - ١٩٦٠/٨/٤) والثانية والثلاثين، في الدار البيضاء (١ - ١٩٥٩/٩/٨)، والثالثة والثلاثين في القاهرة (١٩٦٠/٧/٢٥)، ضرورة إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني، وإبراز كيانه، شعبًا موحدًا. فالفلسطينيون ليسوا مجرد لاجئين، وعلى العالم أن يسمع صوتهم، بواسطة ممثلين، يختارهم الشعب الفلسطيني، فضلاً عن إنشاء جيش فلسطيني في الدول العربية المضيفة. إلا أن الرفض الصلب للأردن خصوصًا حال دون خروج هذه القرارت إلى حيِّز التنفيذ، فضلاً عن عدم جدية الأنظمة العربية في التعامل مع مسألة إظهار الكيان الفلسطيني. ووصل تباين المصالح إلى درجة استخدام، وتسخير القضية الفلسطينية، في خلافات الأنظمة العربية مع بعضها البعض [١٢].

غدا موضوع " الكيان " ضمن مناورات عبد الناصر، والرئيس العراقي عبد الكريم قاسم، كل منهما يحاول توظيفه في سياق تعزيز موقفه من قضية أخرى. وفي هذا الإطار دعا قاسم، في حزيران / يونيو ١٩٥٩، إلى تشكيل فوج عسكري من الفلسطينيين، المقيمين في العراق، وذلك عقب وقوع خلاف علني، وحاد، بين قاسم وعبد الناصر [*]، وصل إلى درجة تبادل الاتهامات عبر وسائل الإعلام، وقام قاسم باضطهاد التيار القومي في العراق، وأودعهم المعتقلات، على غرار ما فعل عبد الناصر بالشيوعيين في مصر وسوريا.

تشكل " فوج التحرير " على يد الحكومة العراقية، برعاية كاملة من " الهيئة العربية العليا "، والتي كان رئيسها، الحاج أمين الحسيني، على خلاف مع عبد الناصر، في تلك الفترة. وترك الحسيني القاهرة، احتجاجًا على السياسة المصرية تجاه إقامة كيان فلسطيني. رأى الحسيني أن " الهيئة " هي الممثل للشعب الفلسطيني، بينما كان قاسم والحسيني في واد، نجد الفلسطينيين الذين تدفقوا على العراق، للانضمام إلى " فوج التحرير "، في واد آخر، حيث ظن هؤلاء بأن " الفوج " سيكون نواة لحركة مسلحة فلسطينية، تأخذ دورًا طليعيًا في معركة التحرير "، وتستجيب لحالة اختمار الوعي الفلسطيني. وخلال الأشهر الأربعة الأولى من تشكيل " الفوج "، انضم إليه نحو (٣٠٠) جندى، و(٥٠) ضابط من الفلسطينيين، معظمهم من لبنان، ودول الخليج، وعدد قليل من الأردن. أما الجنود فجميعهم من فلسطينيي العراق، لكن سرعان ماتكشفت حقيقة نوايا النظام العراقي، من أن " الفوج " لا يخرج عن كونه محاولة عربية جزئية، هامشية [١٣].

أما وجود قطاع غزة تحت سيطرة السلطات المصرية، فأدى إلى انشغال مصر، منذ وقت مبكر، بمسألة الكيان الفلسطيني. فبانسحاب إسرائيل من قطاع غزة (١٩٥٧/٣/٧)، وقيام الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨/٢/٢٢)، تشكلت قوة دفع للفلسطينيين، حثتهم على التحرك لإيجاد صيغة سياسية فلسطينية فاعلة، ترجم ذلك في تشكيل أولى مجلس تشريعي، وآخر تنفيذي، وصدر دستور للقطاع، في العام ١٩٥٨، وتم تعيين أعضاء المجلسين، وغالبية التنفيذي من ضباط الإدارة المصرية،

فيما تركت بعض دوائر الخدمات للفلسطينيين، مع مستشار مصرى متنفذ في كل إدارة يترأسها فلسطيني!

في هذا العام، أيضًا، تمنى بعض وجهاء قطاع غزة على الحكومة المصرية إيجاد تعبير سياسي فلسطيني شامل. وفي هذا الإطار عقد لقاء بين عدد منهم مع كمال رفعت [*]، واتفق الطرفان على الدعوة إلى اجتماع موسع تبحث فيه مسألة إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني، وإبراز كيانه. ونتيجة لما سبق، عقد في القاهرة، العام ١٩٥٨، لقاء فلسطيني، ضم عددًا من الشخصيات الفلسطينية، حضره رفعت، وكل من الحاج أمين الحسيني، وأحمد حلمى باشا، وعدد من أبناء قطاع غزة، وغيرهم من الفلسطينيين المقيمين في كل من مصر، وسوريا، نجم عنه تشكيل لجنة تحضيرية، مهمتها الإعداد لقيام تنظيم فلسطيني، على غرار " الاتحاد القومي العربي " الذي شكل في كل من إقليمي الجمهورية العربية المتحدة، بعد حل الأحزاب السياسية، مما أثار غضب الحسيني، الذي اعترض على هذا التوجه، وغادر القاهرة، كما ذكر أعلاه. وتشكل الاتحاد القومي في قطاع غزة، وصدر له نظام أساسي، ولائحة داخلية، وقام بتعيين أعضاء لجان الاتحاد: لجنة غزية، موالية للإدارة المصرية، قوامها كل من منير الريس، وعبد الله أبو ستة، وجمال الصوراني. واعتبر " الاتحاد "، بعد قيامه، ممثلاً شعبيًا لأهالي قطاع غزة، وأصبح للاتحاد ميزانية خاصة، ومكاتب، وموظفون[١٤].

أثناء إحياء الذكرى الحادية عشرة لمأساة اغتصاب فلسطين، أقيم في غزة مهرجان بهذه المناسبة، في (١٩٥٩/٥/١٥)، حضره مائة ألف

فلسطيني، وشارك فيه وزير الشؤون الإجتماعية المصري حسين الشافعي، مندوبًا عن عبد الناصر. وفي هذا المهرجان تم الاعلان عن تأليف لجنة تحضيرية مؤقتة من الفلسطينيين، تحقيقًا لتوصيات اللجنة السياسية، التابعة لجامعة الدول العربية. وضمت اللجنة التحضيرية عشرين عضوًا، هم: منير الريس، وداود الصايغ، وقاسم الفرا، وشريف الجعبري، وأحمد محمد حلمي عبد الباقي، وفاضل زيدان، والشيخ محمد صبري عابدين، ومصطفى عبد الشافي، وجمال الصوراني، وأسامة النقيب، وعوني أبو رمضان، ومحمد أمين الحسيني، وزهدي أبو شعبان، وعبد الله موسى، وأبو سنة محمد، وإسحاق درويش، ومحمد منيف الحسيني، ومحمود مرعي [١٥].

منذ تلك الفترة، بدأت الحكومة المصرية تطرح مسألة تنظيم الشعب الفلسطيني، وإبراز كيانه على مجلس جامعة الدول العربية، الذي أصدر، في دورته غير العادية التي عقدت في بلدة شتورا اللبنانية (٢٢ - ٢٨ /٨/ ١٩٦٠)، جملة من القرارات المهمة، المتعلقة بالقضية الفلسطينية، منها:

١. إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني، وإبراز كيانه، شعبًا موحدًا.

٢. إنشاء جيش في الدول العربية المضيفة. كما أكدت لجنة السياسات بجامعة الدول العربية، في الاجتماع ذاته، على " أن الشعب الفلسطيني، هو صاحب الحق الشرعي في فلسطين، له أن يعمل لاسترداد وطنه، بمؤازرة ومشاركة الدول والشعوب العربية ". فضلاً عن المحافظة على الهوية والشخصية الفلسطينية.

وأشارت اللجنة إلى أن الظروف مواتية من أجل قيام الأمين العام لجامعة الدول العربية باتخاذ الإجراءات اللازمة، التي تهدف إلى وضع مخطط شامل لاسترداد فلسطين(١٦).

في العام ذاته (١٩٦٠)، تم إجراء انتخابات للاتحاد القومي في قطاع غزة، على غرار ما حدث للاتحادات المختلفة في كل من مصر وسوريا، وبذلك أصبح لدى الفلسطينيين في قطاع غزة هيئة سياسية منتخبة، ولأول مرة في التاريخ الحديث والمعاصر، منذ نكبة ١٩٤٨. على الرغم من ذلك، لم يكن للاتحاد القومي في غزة مهام محددة، وأصبح مجرد بناء خاو، دون مضامين، ولم يكن له أي دور سياسي، باستثناء سفر وفد عنه إلى الأمم المتحدة، أواخر عام ١٩٦١، لحضور اجتماعات اللجنة السياسية التابعة للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، كما شارك الاتحاد الغزي في المؤتمر التأسيسي لمنظمة التضامن الآسيوي - الأفريقي، في القاهرة، وغدت فلسطين عضوًا مشاركًا في منظمة التضامن، حتى قيام " منظمة التحرير الفلسطينية " (١٧).

على الرغم من المحاولات السابقة لإقامة كيان فلسطيني مستقل، فإن أحدًا منها لم يخرج عن كونه مجرد قرار على ورق، ظل حبيس أدراج جامعة الدول العربية، وحلما بالنسبة للفلسطينيين، يتطلعون إلى تنفيذه على أرض الواقع، إلا أن أسبابًا ذاتية، وأخرى موضوعية، كما أسلفنا، حالت دون تحقيق ذلك، إلى أن توفي أحمد حلمي عبد الباقي، ممثل فلسطين في جامعة الدول العربية، في (١٩٦٣/٦/٢٩)، لتبدأ مرحلة

حاسمة، ومهمة، التقت فيها المصالح العربية الرسمية مع الحلم الفلسطيني، مما دفع بخروج الكيان الفلسطيني إلى النور.

* * *

مراجع الفصل الخامس والعشرون

(*) المؤسسة الجبهوية التي أعطت لنفسها حق قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، تشكلت في صيف ١٩٤٦، تحت رعاية جامعة الدول العربية، بدلاً من " اللجنة العربية العليا "، وضمت " الهيئة " ائتلافًا من الأحزاب الفلسطينية (العربي، الدفاع، الكتلة، الوطنية، الإصلاح، مؤتمر الشباب، والاستقلال)، واستبعدت الجامعة العربية اليسار الفلسطيني، وتمثل آنذاك في " عصبة التحرير الوطني "، و " مؤتمر العمال العرب "، و " رابطة المثقفين العرب ".

(١) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:
- عيسى الشعيبي، **الكيانية الفلسطينية، الوعي الذاتي والتطور المؤسساتي ١٩٤٧ - ١٩٧٧**، بيروت، منظمة التحرير، الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٩، ص ١٧ - ١٩.
- محمد خالد الأزعر، **حكومة عموم فلسطين في ذكراها الخمسين**، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٨، ص ٢١ - ٣٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:
- الشعيبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩ - ٢٢.
- الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤١ - ٥٥.

(*) النقراشي: كان رئيس وزراء مصر، آنذاك، وعرف بولائه للقصر الملكي، وبمواقف السيئة تجاه القضية الفلسطينية، تم اغتياله بسبب هذه المواقف.

(**) ينص الدستور المؤقت " لحكومة عموم فلسطين " على حق الإدارة المصرية في السماح أو الرفض، لبقاء رئيس المجلس الأعلى لحكومة عموم فلسطين في غزة، وأيضًا طلبت الإدارة العسكرية المصرية من أعضاء هذه الحكومة مغادرة غزة، إلى القاهرة، عقب تدهور الأوضاع العسكرية في الفترة من أكتوبر / تشرين الأول ١٩٤٨ إلى يناير / كانون الثاني ١٩٤٩.

(٣) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:
- الشعيبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢ - ٤٢.
- الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٥ - ١٤٠.

(٤) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:
- صلاح خلف (أو اياد)، **فلسطيني بلا هوية**، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، د. ت، ص ٣٨.
- الشعيبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢ - ٤٠.

- الأزعر، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦ - ١٧.
(٥) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:
- الشعيبي **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧ - ٤٦.
- خلف، **مصدر سبق ذكره**، ٤٦ - ٥٢.
(٦) الشعيبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٧ - ٨٠.
(٧) **حول الكيان الفلسطيني**، حزب البعث العربي الاشتراكي القيادة القطرية للتنظيم الفلسطيني الموحد، دمشق، ١٩٧٦، ص ٨١ - ٨٢.
(٨) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:
- الشعيبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٣ - ٨٥.
- سامي يوسف عبد الحميد، **حركة القوميين العرب والقضية الفلسطينية من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٧**، رسالة ماجستير مقدمة لمعهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مخطوط، ٢٠٠٢، ص ٩٩ - ١٢١، ص ١٤١ - ١٥٢.
(٩) الشعيبي **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٥ - ٨٧.
(١٠) **جلسة مع عبد القادر ياسين**، بمنزله في القاهرة، ٢٠٠٣/١٢/٢١.
(١١) خلف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣ - ٧٢.
(١٢) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة بـ:
- موقع الرسمى لجانعة الدول العربية على شبكة الأنترنت www. arableagueonline. org.
- **الجمهورية** (القاهرة) ١٩٥٩/٦/٨.
- **الجمهورية** (القاهرة) ١٩٥٩/٦/٩.
- **الجمهورية** (القاهرة) ١٩٥٩/٦/١٧.
- **الجمهورية** (القاهرة) ١٩٥٩/٦/٢٦.
(*) ألح عبد الناصر على العراق للدخول في وحدة إندماجية فورية، مع الجمهورية العربية المتحدة، لكن قاسم أراد اتحادًا فيدرالياً تدريجيًا، وانحاز لرأي عبد الناصر كل من " البعث " و " القوميين العرب "، وبعض أعضاء حزب " الاستقلال "، وتصدر الجميع نائب رئيس مجلس الثورة العراقي عبد السلام عارف، ومع قطاع من " الضباط الأحرار "، فيما انحازت لرأي قاسم الأحزاب التالية: " الشيوعي، و " الوطني الديمقراطي "، و " قطاع من الاستقلال "، وقطاع آخر من " الضباط الأحرار ".
لعل ما يشكك في صدقية عارف و " العبث "، على الأقل، أن الأخيرين حين وصلوا إلى السلطة في العراق، ربيع ١٩٣٦، بانقلاب دعمته الإدارة الأمريكية، رفضوا الدخول مع مصر في وحدة، أو اتحاد، وأن عبد السلام عارف سلك نفس طريق البعث، في هذا الصدد حين أطاح بالبعثيين، وانفرد بالسلطة خريف ١٩٣٦.
(١٣) لمزيد من التفاصيل، يمكن الاستعانة ب:
- عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية المحطات الرئيسية، الدروس المستفادة،**

القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠٠، ص ٤٧.
- الشعيبي **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩ - ٧٢.
(*) أحد أهم كوادر المخابرات المصرية، آنذاك، مما له دلالته في هذا الصدد.
(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٧٢ - ٧٥.
(١٥) **الجمهورية** (القاهرة) ١٩٥٩/٥/١٥.
(١٦) الموقع الرسمي لجامعة الدول العربية على شبكة الأنترنت www. atableagueonline. org.
(١٧) الشعيبي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٥ - ٧٦.

* * *

الفصل السادس والعشرون

المنسيون وعودة الكيان

الفصل السادس والعشرون:

المنسيون وعودة الكيان

عبد القادر ياسين

ثمة ظاهرة استحدثت في المجال الفلسطيني، اسمها " عرب ٤٨ "، وليس " عرب إسرائيل "، لأن المصطلح الأخير يعني بأننا تنازلنا عنهم لعدونا الإسرائيلي. خلال حرب ٤٧ - ١٩٤٨ نظّمت العصابات الصهيونية المسلحة مذبحة في سبعة وثلاثين بلدة ومدينة وقرية عربية فلسطينية، ومع اللجو، بقي في المنطقة التي احتلتها العصابات الصهيوينة من فلسطين، نحو مئة وخمسين ألف نسمة، صمدوا في وجه شتى صنوف العسف الإسرائيلي، متشبثين بترابهم الوطني، وبهويتهم العربية الفلسطينية.

لذا تحول هؤلاء إلى أقلية مضطهدة في وطنهم، وغدا الحزب الشيوعي حرب هذه الأقلية، وليس حزب الطبقة العاملة، كما جرت العادة في شتى أنحاء العالم (١).

معروف بأن السلطات الإسرائيلية لم تسمح للعرب الفلسطينيين بالإعلان عن أحزاب لهم، أما " الشيوعي "، فتم الترخيص له، لأن عضويته عربية - يهودية مشتركة، وليست وقفًا على العرب.

نحو ربع من بقوا في فلسطين المحتلة غدوا لاجئين في وطنهم، إذ انتزعتهم السلطات الإسرائيلية من مسقط رأسهم، وصادرت أراضيهم، حتى بلغ مجموع ما صادرته السلطات الإسرائيلية قرابة ثلاثة أرباع

مجموع أراضي العرب الفلسطينيين الذين تشبثوا بأرضهم (٣٤٠.٠٠٠ دونم، من أصل ٤٥٠.٠٠٠ دونم[*])، ما شكل عامل طرد للفلاح والعامل الزارعي العربي نحو سوق العمل الإسرائيلية، بل إن غالبية العمال العرب الفلسطينيين اضطرت للعمل خارج مناطق سكناها، ما أسهم في خلخلة العلاقات التقليدية في الريف العربي الفلسطيني هناك، والأنكى أن العامل العربي الفلسطيني انحصر في العمل الأسود، في ظروف عمل قاسية، وبأجر أقل بنسبة الربع، ودون ضمانات معيشية أو صحية [٢].

لقد تجلى تشوه البنية الاجتماعية العربية الفلسطينية هناك، في التراجع المطرد للمنخرطين في العمل المنتج، فضلاً عن البطالة التي تفشت هناك، ما هبط بنحو نصب مجموع العرب الفلسطينيين في فلسطين المحتلة إلى ما تحت خط الفقر، وبالكاد وصل متوسط دخل الأسرة العربية إلى نصف نظيرتها الإسرائيلية. ومع غياب الأرض، غدا التعليم سلاحًا، ورأسمالاً، في آن. لكن التعليم دونه العديد من العقبات، ما رفع نسبة تسرب التلاميذ من المدارس إلى النصف، وحتى النصف الذي تبقى في الفصول ظل بلا استيعاب لما يتلقاه، ناهيك عن أن البطالة استبدت بثلث الجامعيين منهم [٣].

لقد عزز كل هذا القهر من صمود المتشبثين بأرضهم، وعمَّق انتماءهم الوطني والقومي، ووجههم إلى النضال في سبيل الديمقراطية والمساواة، كلما كان تحرير فلسطين غائبًا عن الأفق.

على أن الأمل في التحرير لطالما تعزز مع كل نهوض عربي، كما حدث في نهوض ٥٥ ـ ١٩٥٨، حيث ائتلف التياران، اليساري والقومي،

في الوسط العربي بإسرائيل، مشكلين " الجبهة الشعبية العربية "، سنة ١٩٥٨، ضد الجور الإسرائيلي، من حكم عسكري، ومصادرة لأراضي العرب الفلسطينيين، وفي سبيل عودة اللاجئين، وتعليم اللغة العربية [٤].

بيد أن عقد الجبهة انفرط (١٩٥٩) كانعكاس لاستعار الصدام بين رئيس الجمهورية العراقية، عبد الكريم قاسم، والجمهورية العربية المتحدة، جمال عبد الناصر [*]، وتحول إلى عداء مستفحل.

شكل التيار القومي في إسرائيل " حركة الأرض " التي اعتبرت الأقلية العربية الفلسطينية في فلسطين المحتلة جزءًا من الأمة العربية، وطالبت بحل عادل للقضية الفلسطينية، لكن الحكومة الإسرائيلية عاجلت " الأرض " بحظر نشاطها، ولاحقت قادتها، بالاعتقال، وتحديد الإقامة، وقطع العيش [٥].

بيد أن ظهور " منظمة التحرير الفلسطينية "، ومعها فصائل المقاومة الفلسطينية، أنعش، من جديد الأمل بتحرير فلسطين، ووجد الفدائيون الفلسطينيون المأوى، والدعم بين ظهراني أشقائهم في فلسطين المحتلة، بل إن بعض الفصائل الفلسطينية، وجيوش عربية، نجحت في بناء خلايا لها في الوسط العربي داخل إسرائيل، الذي عاد وأحس بالعار، من الهزيمة التي حاقت بالدول العربية، في حرب ١٩٦٧ [٦].

ولكن ما حيثيات ظهور " منظمة التحرير " والفصائل؟

المنظمة والفصائل:

غني عن القول بأن النكبة عصفت بالبنى العربية الفلسطينية كافة، من

اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وثقافية، ونقابية، مما حال دون ظهور مقاومة منظمة للاحتلال الإسرائيلي، الأمر الذي عززه العسف الرسمي العربي، الذي قمع كل بادرة مقاومة عربية فلسطينية [٧].

مع هذا كله لم تسلم إسرائيل من اشتباكات، حيث كان أبناء الشعب العربي الفلسطيني يتجاوزون خطوط الهدنة إلى داخل فلسطين المحتلة، لإحضار حاجياتهم التي تركوها هناك، وإذا ما صادفهم إسرائيليون، اشتبكوا معهم بالسلاح، وشيئًا فشيئًا، أخذ الفلسطينيون يدخلون إلى مسقط رأسهم في شكل جماعات. وفي هذا الصدد قالت وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة، جولدا مئير " إننا لم نعرف السلام على حدودنا مع الدول العربية، عدا مع لبنان ". وقد نشرت الخارجية الإسرائيلية جدولاً لما اعتبرته " اعتداءات " عربية فلسطينية، وفدت إليها من خطوط الهدنة، فيما بين توقيع اتفاقيات الهدنة (١٩٤٩) و " العدوان الثلاثي " (١٩٥٦) على النحو التالي[٨]:

- من الضفة الغربية ٨٥٠ حادثًا.
- من قطاع غزة ٣٠٠٠ حادثًا.
- من سوريا ٦٠٠ حادثًا.
- من لبنان ٢٠٠ حادثًا.

إذا كان الإسرائيليون يلاقون من يواجههم من أبناء الشعب الفلسطيني بالرصاص، فإن المحاكم العسكرية في القطر العربي المعني كانت تواجه

من يجرؤ على مواجهة إسرائيل بالأحكام الجائرة، بتهمة " التسلل " إلى الوطن المحتل! وقد نال المئات من الفلسطينيين الكثير من تلك الأحكام [٩].

لكن تدفق أبناء فلسطين إلى دول الخليج، أنعش الاقتصاد الفلسطيني، على نحو تدريجي. ومنذ سنة ١٩٥٨، غدا هذا الاقتصاد متعافيًا، مما وفر الأساس المتين للشرط الذاتي من أجل ظهور الكيان الفلسطيني، من جديد، وإن كان النهوض القومي الذي اجتاح الوطن العربي، منذ أواسط الخمسينيات، قد حال دون تجلي ذاك الكيان، ما تطلب انحناءة مؤقتة في ذاك النهوض، وخلخلة نسبية في صف النظام السياسي الرسمي العربي، لينفذ منها الكيان الفلسطيني المكبوح. وقد أتت تلك الانحناءة المؤقتة بوقوع انفصال سوريا عن مصر، في ١٩٦١/٩/٢٨، ثم كان انتصار ثورة الجزائر، ربيع العام التالي، ما دفع ملك العربية السعودية، آنذاك، سعود بن عبد العزيز إلى حث الشعب الفلسطيني على أخذ قضيته الوطنية بين يديه، والسير على خطى " جبهة التحرير الجزائرية ". وفي ١٩٦٢/٧/٢٦، أعلن الرئيس المصري، جمال عبد الناصر، أمام أعضاء من المجلس التشريعي الفلسطيني بقطاع غزة، بأنه لا يملك خطة لتحرير فلسطين، وأن أي حاكم عربي يزعم بأن لديه مثل هذه الخطة " بيضحك عليكم "! وفي الشهر نفسه، دعا الرئيس الجزائري، أحمد بن بيلا الشعب الفلسطيني على أن ينسج على منوال الثورة الجزائرية [١٠].

بذا أُضيء للشعب الفلسطيني النور الأخضر، من ثلاثة حكام عرب، يمثلون اتجاهات شتى. خاصة بعد أن قلب الانفصال (١٩٦١) الشعار

السائد من " الوحدة طريق التحرير " إلى " التحرير طريق الوحدة " [١١]

عربيًا، أيضًا، كانت الفئات الوسطى قد وصلت إلى السلطة في كل من مصر، وسوريا، والعراق، والجزائر، ما شجَّع الفئات الوسطى الفلسطينية، على أن تنزل بثقلها، وهي التي حققت نفوذًا اقتصاديًا ملموسًا في دول الخليج، وطفقت تفتش عما يوازي هذا النفوذ في المجال السياسي، خاصة وأن سدة القيادة السياسية الفلسطينية ظلت شبه شاغرة، منذ نكبة ١٩٤٨.

نظل في المجال العربي، حيث وجدت أنظمة عربية في احتضان فصيل فلسطيني بعينه - هو " فتح " - ما يحقق لتلك الأنظمة غرضها، في إحراج عبد الناصر، الذي يكثر من الحديث عن فلسطين.

نعود إلى المجال الفلسطيني، حيث أن قيام جبهة وطنية من " الإخوان " و " البعث " في قطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلي الأول (خريف ١٩٥٦ - ربيع ١٩٥٧) وفر إمكانية قيام تنظيم إئتلافي. كما أن تمكن " الكتيبة ١٤١ فدائيين " الفلسطينية من قتل ١٣٧٨ إسرائيليًا، في مدى بضعة أسابيع، أكد، مجددًا، إمكانية هز إسرائيل بحرب عصابات.

دوليًا، كان ارتفاع منسوب " المعسكر الاشتراكي " في صنع القرار العالمي، كما اتسعت دائرة حركات التحرر الوطني التي انتصرت في العالم، فيما تأكد مدى إمضاء سلاح " حرب الشعب "، مع الانتصارات التي حققتها تلك الحرب في كل من الصين، وكوريا، والجزائر وفيتنام، مقابل تراجع " المعسكر الاستعماري "، في مناطق عدة من العالم.

هكذا، ما أن انتصف العام ١٩٦٣، حتى كان نحو ثلاثين فصيلاً فدائيًا فلسطينيًا قد ظهر إلى الوجود، أغلبها في الكويت، القطر العربي الذي لم يكن ضمن أعضاء " نادي الدول العربية المنتفعة بالقضية الفلسطينية "، فضلاً عن تمتع الكويت بهامش واسع من الديمقراطية، ما سمح لأبناء الشعب الفلسطيني بحرية الحركة هناك.

هنا تحرك النظام السياسي العربي، فانعقد مؤتمر القمة العربي الأول، في القاهرة، في ١٩٦٤/١/١٣، وليمنح مندوب فلسطين في جامعة الدول العربية، آنذاك، أحمد الشقيري، حق استمزاج رأي مختلف التجمعات الفلسطينية: في الأردن، وقطاع غزة، ودول اللجوء حول الشكل الذي تفضِّله تلك التجمعات للكيان الفلسطيني المرتجى. وحين انعقد مؤتمر القمة العربي الثاني، بالإسكندرية، في سبتمبر / أيلول ١٩٦٤، كان الشقيري قد ذهب بعيدًا في تنفيذ التكليف، فنجح في عقد المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول، بالقدس (٥/٢٨ - ٦/٢/ ١٩٦٤)، وتمخض عن الإعلان عن ميلاد " منظمة التحرير الفلسطينية "، بلجنتها التنفيذية، ومركز أبحاثها، وجيش تحريرها، ولم يجد مؤتمر القمة الثاني مفرًا من الموافقة - على مضض - على ولادة منظمة التحرير، بعد أن وضع الشقيري القمة أمام الأمر المقضي [١٢].

لقد فوجئ النظام السياسي العربي بالكيان الفلسطيني الفدائي يطل برأسه، خارج الخيمة الرسمية العربية، فآثر ذلك النظام أن يخرج الكيان من معطف النظام الرسمي السياسي العربي، وأن يكون الأول تحت سيطرة النظام العربي، حتى لا يورِّط الكيان الفدائي ذاك النظام في حرب

مع إسرائيل، النظام ليس مستعدًا لها.

على مدى السنوات الثلاث، التي فصلت ولادة منظمة التحرير عن هزيمة ١٩٦٧، جاءت مسيرًا المنظمة وسط حقول ألغام، لكن المركب سارت وسط أمواج هائجة، وصخور كأداء [١٣].

إلى أن جاء إعلان عبد الناصر الطوارئ، والتعبئة العامة، في مايو / أيار ١٩٦٧، وطلب إلى القوات الدولية إخلاء مواقعها في قطاع غزة وسيناء. وتلاحقت الأحداث، حتى اندلعت حرب ١٩٧٦، وحاقت بجيوش مصر وسوريا والأردن هزيمة، لا نزال نعاني من آثارها حتى اليوم.

بيد أن الشقيري لم يلتقط التحولات الدراماتيكية التي أحدثتها هزيمة ١٩٦٧ المدوِّية، واضطرار عبد الناصر إلى مهادنة خصومه من حكام العرب، وخصومه المحليين في مصر. فقد استمر الشقيري محافظًا على الوتيرة، الثورية لتتسع الشقة بينه وبين عبد الناصر. وفي قمة الخرطوم (أغسطس / آب ١٩٦٧) اتفقت حكومات كل من الأردن، وتونس، ومصر، على ذهاب الشقيري، فيما كان عبد الناصر وعد قيادة " فتح " بنقل قيادة منظمة التحرير لتلك القيادة (أواسط يوليو / تموز ١٩٦٧). وضيَّقت القاهرة الخناق على الشقيري، حتى اضطرته إلى تقديم استقالته في ١٩٦٧/١٢/٢٤، إلى الشعب الفلسطيني، عبر إذاعة " صوت فلسطين " من القاهرة، خاصة بعد أن لاحقته يومية " الأهرام " - المعبرِّة عن عبد الناصر - بالانتقادات، وبعد أن تحولت النسبة الأكبر من أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ضد الشقيري [١٤].

على أنه من الظلم تحميل الشقيري، ومدير " صوت العرب " آنذاك، أحمد سعيد، مسئولية هزيمة الجيوش العربية، في حرب ١٩٦٧. فقد عكست هذه الهزيمة مدى عمق الخلل الاستراتيجي في شتى المجالات: العسكرية، والسياسية، والاقتصادية داخل الأقطار العربية، مع الفارق في الدرجة، ليس إلا.

احتلال واحد ومقاومتان:

باستعار التناقض غير الموضوعي بين التيارين العربيين - اليساري والقومي - وصعوده إلى مستوى التناقض الرئيسي، ثم التأسيس للظلمة، التي لا يزال الوطن العربي يعيشها حتى اليوم فيما لم يكن الخلاف على الوحدة مع حكم عبد الكريم قاسم، إلا قميص عثمان، فعندما أسقطه " البعث "، في فبراير / شباط ١٩٦٣، لم ينجز " البعث " الوحدة، أو حتى الاتحاد الفيدرالي مع مصر، بل دخل في اقتتال إعلامي مع نظامها الحاكم. والأنكى أن الناصري العراقي عبد السلام عارف، حين نحّى " البعث "، في أيلول / سبتمبر ١٩٦٣، لم يقدم على الوحدة، أو الاتحاد مع مصر. وحين أرسل عبد الناصر قواته، لدعم ثورة اليمن (١٩٦٢/٩/٢٦)، اتخذت الولايات المتحدة قرارها القاضي بضرب عبد الناصر، الذي اقترب من مصالحها البترولية في الجزيرة العربية.

الاحتلال:

نتيجة حرب ١٩٦٧ وقعت كل فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلي، ومعها سيناء المصرية، والجولان السوري، وتعجلت قيادة " فتح " ثورة مسلحة في الضفة الغربية، دون النظر لعدم نضج العامل الذاتي هناك، ما أنهى المحاولة في المهد، باعتقال النسبة الأكبر من كوادر " فتح "، التي دخلت سرًا إلى الضفة.

أما الإخفاق فيعود، أولاً، إلى وقوع أهالي الضفة أسرى الإحباط، بسبب الانتصار الإسرائيلي السريع، السهل، والرخيص. وثانيًا لأن أفق أي نضال ضد الاحتلال الإسرائيلي كان مسدودًا، ومحكومًا بعودة الحكم

الأردني إلى الضفة، ومعه قمعه الاستثنائي. وثالثًا، فإن الاحتلال لم يسرِّح أيًا من موظفي الضفة. ورابعًا فإن الاحتلال قد وصل إلى الضفة، بعد أن كان النظام الأردني قد أخلى الضفة من نشطاء الحركة الوطنية، بالاعتقالات التي شنها ذاك النظام، في إبريل / نيسان ١٩٦٦، وطالت النسبة الأكبر من قيادات وكواد كل من " البعث "، و " الشيوعي "، و " القوميين العرب " هناك [١٥].

فيما اندلعت مقاومة متصاعدة باطراد في وجه الاحتلال بقطاع غزة؛ أولاً لأن أفق هذه المقاومة محكوم بسلطة وطنية، أو بعودة الإدارة المصرية. وثانيًا لأن الاحتلال توسع في تسريح موظفي الحكومة بالقطاع، عدا إحراقه مراكب الصيد، وتسببه في كساد التجارة، وضرب الزراعة، وسد باب الرزق أمام العمال. وثالثًا فإن القوى الوطنية ظلت محتفظة بعافيتها، إلى حد بعيد. ورابعًا فإن ثمة التربية العسكرية التي تلقاها شباب القطاع، ناهيك أخيرًا، عن الكرامة الوطنية التي نزفت، بفعل الاحتلال، في حد ذاته. وفي القطاع تمت المزاوجة بين شتى أشكال الكفاح، وخاصة السياسي، والعسكري [١٦].

على أن المقاومة في الضفة والقطاع عادت وتوحدت، ما بعد صيف ١٩٧٣، حين بدت السلطة الوطنية الفلسطينية في نطاق إمكانية نظرية.

في الضفة الشرقية:

تراخت قبضة السلطة الأردنية، مع الهزيمة، فأمكن لفصائل فدائية فلسطينية أن تجد لها موطئ قدم في الضفة الشرقية للأردن. وتعزز وجود تلك الفصائل، بعد الانتصار الجزئي الذي حققته تلك الفصائل، بدعم من

الجيش الأردني، في معركة الكرامة (١٩٦٨/٣/٢١) وما أن أخذ النظام الأردني يسترد أنفاسه، حتى عمد إلى محاولة الإجهاز على تلك الفصائل، غير مرة (نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٦٨، وفبراير / شباط، ويونيو / حزيران، وسبتمبر / أيلول ١٩٧٠، ويوليو / تموز ١٩٧١). وقد استثمر ذاك النظام أخطاء الانزلاق إلى الإقليمية، على حساب عروبة القضية الفلسطينية، واللعب على خصم " الأردني " عن " الفلسطيني "، حتى وصل الأمر بالفصائل حد شق النقابات في الضفة على هذا الأساس. ثم كانت التحرشات غير المبررة من قبل فدائيين بعناصر وضباط من الجيش الأردني، الأمر الذي غذاه النظام، فأخذ يشحن الشعب ضد الفصائل، ويوسِّع الشقاق بين " الفلسطيني " و " الأردني ". فيما تجيشت الفصائل، وغرقت في الظاهرة الاستعراضية، والبيروقراطية، بعد أن ارتدت المقاومة إلى المدينة، فانتقلت من الخنادق إلى الفنادق، والمكاتب، بمجرد انتصار " الكرامة ". وجاءت الطامة الكبرى، حين عهد بعض فصائل المقاومة إلى التشهير بالزعيم المصري، جمال عبد الناصر، لموافقته على " مبادرة روجرز (*) " الأمريكية، حيث حاول الزعيم الراحل استثمار هذه المبادرة في إقامة حائط الصواريخ على الجبهة المصرية من قناة السويس، مستظلاً بوقف إطلاق النار.

هنا ضرب النظام الأردني الحديد وهو ساخن، فانتزع من عبد الناصر موافقة على مجرد " ضبط الأوضاع في الأردن "، وإن ذهب النظام الأردني إلى أبعد من هذه الموافقة بمراحل، إلى حد تنظيم مذابح سبتمبر / أيلول ١٩٧٠، الشهيرة ضد الفلسطينيين في الضفة الشرقية، بعد

أن كانت اللجنة المركزية للمقاومة قد جمَّدت، لتوها، عضوية " الجبهة الشعبية " فيها، حين خطفت ست طائرات أجنبية إلى " مطار الثورة " في الزرقاء، عشية المذابح إياها [١٧].

هكذا، من الشق المتسع، باطراد بين الفلسطينيين والأردنيين، إلى إفراغ المقاومة من قسط غير قليل من محتواها، إلى افتعال خصومة مع السند الرسمي العربي الأول للمقاومة (عبد الناصر)، إلى خلخلة الوحدة الوطنية الفلسطينية، ناهيك عن الخلاف غير المبرر مع " الحزب الشيوعي الأردني "، الذي ركز جهوده، غداة هزيمة ١٩٦٧، من أجل إقامة حكومة وحدة وطنية، في مواجهة شعار " الكفاح المسلح ". وبعد سنتين عدَّل الحزب شعاره إلى " كفاح مسلح تدعمه حكومة وطنية ". وشكل مع الأحزاب الشيوعية في كل من العراق، وسوريا ولبنان، فصيلاً فدائيًا، هو " قوات الأنصار "، لكن القيادة الفلسطينية المتنفذة حالت دون دخول هذا الفصيل إلى اللجنة المركزية للمقاومة!.

رغم شراسة مذابح سبتمبر / أيلول، فإن النظام الأردني أخفق في تحقيق هدفه الرئيسي منها، بفعل صمود الفدائيين الفلسطينيين، ودخول القوات السورية من الشمال إلى جانب المقاومة، ونزول عبد الناصر، بكل ثقله لوقف المذابح. وإن كان أداء قيادة المقاومة اللاحق قد يسر للنظام الأردني الوصول إلى غرضه، إذ وافقت تلك القيادة على نقل الفدائيين إلى خارج المدن والمخيمات، في مواقع محددة، تحت رحمة الجيش الأردني، مع وضع أسلحة الفدائيين في مخازن للسلطة الأردنية. الأمر الذي سهَّل لتلك السلطة التخلص، مرة وإلى الأبد، من المقاومة الفلسطينية، في

ضربة خاطفة، فيما عرف بمذابح جرش (يوليو / تموز ١٩٧١). وبعد أن كان عبد الناصر قد غاب (١٩٧٠/٩/٢٨)، وبعد شهرين سقط النظام السوري الذي دعم الفدائيين في مواجهة الجيش الأردني. فانتقل من تبقى من الفدائيين إلى لبنان، وأعادت قيادة المقاومة إنتاج أخطائها هنالك، وإن بتعديلات طفيفة [١٨].

في لبنان:

تعاملت القيادة الفلسطينية المتنفذة مع لبنان اعتباره رهينة، مقابل تحقيق الطموحات الوطنية الفلسطينية! الأمر الذي سخَّره الانعزاليون اللبنانيون، وسرعان ما استحدث تحالف انعزالي، ضم كلاً من " الكتائب "، وذراعها المسلح " القوات اللبنانية " مع " حزب الوطنيين الأحرار "، وذراعه المسلح " النمور "، في مواجهة تحالف أحزاب " الحركة الوطنية اللبنانية ". وسرعان ما اندلعت بين التحالفين اشتباكات مسلحة دامية، في مايو/ أيار ١٩٧٣، غداة اغتيال إسرائيل لقادة المقاومة الفلسطينية الثلاثة (كمال عدوان، كمال ناصر، ومحمد يوسف النجار)، وبعد جنازتهم الجماعية التي أثارت بضخامتها الانعزاليين [١٩].

هنا التقت رغبة الانعزاليين المحمومة مع تطلع إسرائيل للثأر مما حاق بها في حرب ١٩٧٣، عدا توق الإدارة الأمريكية، وفي أذيالها إسرائيل لشق الصف العربي، بتدشين حروب طائفية في الوطن العربي، تمزق أقطاره، ثم جاء " اتفاق فصل القوات الأول "، بين مصر وإسرائيل، في ١٩٧٤/١/٢٤، ما أوغر صدر السادات عليها.

هنا افتعلت حادثة الحافلة، التي كانت تقل فلسطينيين، في بيروت الشرقية، في ١٩٧٥/٤/١٣، وقتل من فيها، ما أشعل شرارة الحرب الأهلية اللبنانية، التي توقفت، مؤقتًا، بفعل " اتفاق الرياض "، بين رؤساء مصر، وسوريا، والسعودية، والأردن وليبيا، ومنظمة التحرير، في أكتوبر/ تشرن الأول ١٩٧٦، لتتجدد هذه الحرب بعد خمسة عشر شهرًا، بمجرد إشهار الفصائل الفلسطينية معارضتها لمبادرة السادات (*) (١٩٧٧/١١/١٩). فاجتاحت القوات الإسرائيلية الجنوب اللبناني، في مارس / آذار ١٩٧٨، في " بروفة " للاجتياح الإسرائيلي الأكبر، بعد أربع سنوات وثلاثة أشهر (١٩٨٢/٦/٤)، والذي صمد في مواجهته مقاتلو المقاومة الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية، والجيش السوري، في وجه حصار شرس، دام زهاء شهرين ونصف لعاصمة البهجة، بيروت [٢٠] خرجت بعدها القوات الفلسطينية من بيروت، بموجب اتفاق رعته الإدارة الأمريكية. فابتعدت تلك القوات عن خطوط المواجهة مع العدو الصهيوني، وتبعثرت تلك القوات إلى السودان، وتونس، والجزائر، واليمن، والعراق. لتركن تلك القوات إلى الخمول المديد، مع ما ترتب عليه من عفن، وفساد،، تجلى، لاحقًا، في مناطق الحكم الإداري الذاتي المحدود.

كامب ديفيد وتداعياته:

بغياب عبد الناصر، ونجاح السادات في إقصاء ما عرف باسم " مراكز القوى (**) " في انقلاب ١٥ مايو / آيار ١٩٧١، وبتوجيه ضربتين قاصمتين للحزب الشيوعي السوداني، وللمقاومة الفلسطينية، في شهر

واحد (يوليو / تموز ١٩٧١)، تدشن اتجاه النظام السياسي الرسمي العربي نحو المعسكر الاستعماري، أكثر فأكثر. ولما استعصت التسوية مع إسرائيل، كانت حرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، التي بدد السادات كل البطولات والتضحيات فيها، فكانت مبادرته إياها، التي تُوِّجت باتفاقيتي كمب ديفيد (١٩٧٨/٩/١٧) ومعاهدة الصلح مع إسرائيل (١٩٧٩/٣/٢٦). وهكذا عقد السادات تسوية منفردة مع الكيان الصهيوني، سبق أن رفضها عبد الناصر، بدون كل التضحيات الغالية في حرب ١٩٧٣.

رد النظامان القوميان، في دمشق وطرابلس، ومعها " منظمة التحرير الفلسطينية "، على " مبادرة السادات " بتأسيس " جبهة الصمود والتصدي "، أواخر ١٩٧٧، فيما اعتذر العراق - لسبب غير مفهوم - عن عدم الاشتراك في تلك الجبهة، التي لم تتعد الحبر على الورق!

فيما جاء رد الفعل الرسمي العربي على " كمب ديفيد " في مؤتمر القمة العربي التاسع " (بغداد ١٩٧٨/١١/٥)، فأجمعت أطراف القمة على إدانة خطوة السادات الانفرادية تلك. فيما رفض السادات عرضًا من القمة بمساعدات مالية سخَّية، لقاء تخليه عن " المبادرة " و " كمب ديفيد " [٢١].

مع المعارضة الخجولة التي أبدتها القيادة الفلسطينية المتنفذة لما أقدم عليه السادات، بل مضاعفة تلك القيادة قنوات الاتصال مع السادات، ورفعها من مجرد قناتين إلى خمس قنوات، تصور السادات بأن في إمكان هذه القيادة المشاركة في المفاوضات المصرية الإسرائيلية. لذا دعاها الرئيس المصري

لحضور جلسة مينا هاوس، بالقاهرة (١٩٧٧/١٢/٢٤)، فارتبكت، وتجاهلت الدعوة.

ثم كان خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، وأبحرت السفينة الأخيرة من ميناء بيروت، في ١٩٨٢/٩/١، ما فتح الباب على مصراعيه لمستجدات، دشنت مرحلة جديدة في حياة القضية الفلسطينية، وحركة المقاومة، ومنظمة التحرير، على حد سواء.

* * *

مراجع الفصل السادس والعشرون

(١) لمزيد من التفاصيل، يمكن العودة إلى:
- د. إمل توما، **طريق الجماهير العربية الكفاحي في إسرائيل**، الناصرة، دار أبو سلمى، ١٩٨٢. حبيب القهوجي، **العرب في ظل الاحتلال الإسرائيلي منذ ١٩٤٨**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٢، ص ٤٣٨.

(*) الدونم = ١٠٠٠ م٢، أي بما يوازي نحو ربع فدان.

(٢) توما، **مصدر سبق ذكره** ص ٣٥ - ٩٤، ١٤٩ - ١٨٨.
- قهوجي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦١ - ٨٤.

(٣) توما، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٩ - ٢٣٠.
- د. صالح عبد الله سرية، **تعليم العرب في إسرائيل**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٣.
- إيليا زريق، **الفلسطينيون في إسرائيل**، القاهرة، الهيئة العامة للاستعلامات، سلسلة كتب مترجمة، (٧٤٦)، د. ت. ص ٢٠٤ - ٢٢٤.

(٤) توما، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩١ - ٢٩٤.

(*) ألح عبد الناصر على ضرورة دخول العراق، بمجرد قيام ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨ فيها، إلى وحدة فورية اندماجية مع الجمهورية العربية المتحدة، التي كانت تضم سوريا ومصر، لكن قاسم ومعه الحزبان " الشيوعي " و " الوطني الديمقراطي " ردا بمشروع لاتحاد فيدرالي، وصولاً إلى وحدة اندماجية مدروسة ومتأنية، تراعي الفروقات، وخصوصيات كل قطر. وسرعان ما اضطهد عبد الناصر اليساريين في الجمهورية العربية المتحدة، فيما عمد قاسم إلى اضطهاد القوميين في العراق. وبذا تقوَّض النهوض القومي العربي مع بدايات ١٩٥٩.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٩ - ٢٩٨.
- زريق، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤١ - ٢٤٣.
- حبيب قهوجي، القصة الكاملة لحركة الأرض، **شؤون فلسطينية** (بيروت)، العدد الأول، آذار / مارس ١٩٧١، ص ١١٢ - ١٢٥.

(٦) قهوجي، العرب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤٦ - ٥٩٠.

(٧) أحمد صادق سعد؛ وعبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية** (١٩٤٨ - ١٩٧٠)، بيروت الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٥، ص ٢٠ - ٢٨.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٦٩ - ٧١.
(٩) **المصدر نفسه** ص ٦٩.
(١٠) عبد القادر ياسين، منظمة التحرير بعد أربعة عقود: ظروف النشأة، **السياسة الدولية** (القاهرة)، العدد السادس والخمسون، إبريل / نيسان ٢٠٠٤، ص ١٨ - ٢٣.
(١١) **المصدر نفسه**.
(١٢) عبد القادر ياسين (تحرير، **أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية**، دمشق، سلسلة "كتاب المل " (١)، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات، الدار الوطنية الجديدة، ٢٠٠٦، انظر: منى عزت، قصة ظهور المنظمة، ص ٤٧ - ٦٦).
(١٣) عن مسيرة منظمة التحرير، على مدى أربعة قرون، يمكن الرجوع إلى:
- أسعد عبد الرحمن (محررًا)، **منظمة التحرير الفلسطينية: جذورها، تأسيسها، مساراتها**، نيقوسيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٧.
- عبد القادر ياسين (محررًا)، **أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية**، دمشق، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات، سلسلة " كتاب ملف " (١)، ٢٠٠٦.
- عبد القادر ياسين وآخرون، **منظمة التحرير الفلسطينية: التاريخ / العلاقات / المستقبل**، بيروت باحث للدراسات، ٢٠٠٩.
(١٤) حول ملابسات استقالة الشقيرى، يمكن العودة إلى:
- ياسين (محررًا)، أربعون، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢١ - ٢٣٨.
- أنيس صايغ، إشراف وتحرير، **أوراق فلسطينية وعربية**، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨. (انظر: هارون هاشم سيد، تنحى المرحوم أحمد الشقيري عن رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية، ص ٩٧ - ١٠٦.
(١٥) ياسين، الحركة...، **مصدر سبق ذكره** ص ٥١.
(١٦) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(*) مبادرة روجرز: مع تصاعد المقاومة الفلسطينية، وحرب الاستنزاف على الجبهة المصرية الإسرائيلية، أعلن وزير الخارجية الأمريكي، وليم روجرز، في ١٩٧٠/٦/٢٥، عن مبادرة لوقف إطلاق النار، والبدء بمباحثات، تحت إشراف جونار يارنج، الممثل الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة، تهدف إلى تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢، وقد وافقت مصر والأردن على هذه المبادرة (١٩٧١/٧/٢٣)، فيما رفضتها منظمة التحرير (٧/٢٥).
(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٥٢ - ٥٣.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٥٣ - ٥٤.
(١٩) ياسين، منظمة...، **مصدر سبق ذكره** (انظر، لبنان ومنظمة التحرير، ص ١٨٢ - ١٨٣).
(*) وعد السادات بزيارة إسرائيل، طلبًا للسلام، ونفذ وعيده، فعلاً، في ١٩٧٧/١١/١٩.
(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(**) في ١٩٧١/٥/١٥ نفذت الثورة المضادة انقلابها ضد رموز اليسار الناصري، وسمى السادات هذا الانقلاب: " ثورة التصحيح ".

(٢١) **المصدر نفسه** (انظر: أشجان مسعود، لمنظمة التحرير والجامعة العربية، ص ١١).

الفصل السابع والعشرون

انتفاضتان بينهما أوسلو

الفصل السابع والعشرون:

انتفاضتان بينهما أوسلو

بمجرد خروج قوات المقاومة الفلسطينية من بيروت، أرخى رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، ياسر عرفات، قلوعه للمشاريع الأمريكية. ما وسع شقة الخلاف بينه وبين " يسار فتح "، فعمد الأخير إلى شق عصا الطاعة على عرفات، في ١٩٨٣/٥/٩، حين تحركت قوات من " فتح " في البقاع اللبناني وسوريا، محتجة على أداء عرفات فكانت " فتح الانتفاضة "، التي سرعان ما سقطت فيما أعلنت أنها ثارت عليه، من مظاهر الفساد، والاستبداد، وإهمال الكفاح المسلح، فأخفقت تلك الحركة الاحتجاجية، بعد أقل من سنة واحدة، خاصة بعد أن استدار قادتها إلى بعضهم البعض، في أعمال تصفية تستعصي على الفهم![١].

فيما أدى تشتيت النسبة الأكبر من قوات المقاومة الفلسطينية إلى ثلم نصل المقاومة، وتجميدها، مما أفسح في المجال لذهنية الاستسلام، التي استبدت بالقيادة الفلسطينية المستبدة. ومن جهة أخرى جرى التسريع لدخول الحركات الإسلامية ميدان المقاومة، بعد أن تراكمت شروط نهضة تلك الحركات، على انتفاضة مدى نحو عشرين عامًا من الاحتلال [*].

انتفاضة الحجارة:

دفع هذه كله الداخل الفلسطيني (الضفة والقطاع) إلى الكف عن تعليق الأمل على الخارج الفلسطيني، خاصة بعد " اتفاق عمان " (**).

كما أسقط الداخل الفلسطيني النظام السياسي العربي من حسابه، بعد أن هبط الأخير بمنزلة القضية الفلسطينية في سلم أولويات العمل العربي.

داخلياً، كان خطب السخط الشعب الفلسطيني يتراكم، شيئاً فشيئاً، حتى إذا واتته شرارة مقتل ثمانية عمال عرب فلسطنين، قرب حاجز إيريز، شمال قطاع غزة (١٩٨٧/١٢/٨)، حتى اندلعت النيران في الحطب الجاهز[٢].

عدا عن الكرامة الوطنية النازفة، بفعل استمرار الاحتلال، واشتداد فزع الشعب على مستقبله، ومصير وطنه، تحت عسف الاحتلال الفاشي في غير محال، وتسخير اقتصاد الضفة والقطاع المحتلين لخدمة الاقتصاد الإسرائيلي، واستباحة سوق الضفة والقطاع، مما زاد في تشويه اقتصادهما، وتهميش الحضور الوطني الفلسطيني، فالاقتصاد - كما هو معروف - أساس الاستقلال الوطني [٣].

إلى ذلك عمد الاحتلال إلى تجويع شعب الضفة والقطاع، وتعطيشه، وتجهيله، والعمل على تركيعه. كما دفع المحتل صناعة الضفة والقطاع، وزراعتهما، وتجارتهما خطوات واسعة إلى الخلف، الأمر الذي عزز مع تزايد ضعف البنية التحتية، وغياب البنوك العربية، مما زاد من تبعية اقتصاد الضفة والقطاع للاقتصاد الإسرائيلي، فأفلست مؤسسات صناعية،

وضمرت أخرى، ووقع ما تبقى تحت رحمة السوق الإسرائيلية، التي أضعفت قدرة الاقتصاد المتواضع في الضفة والقطاع على التطور [٤].

فضلاً عن اضطرار عمال الضفة والقطاع العمل في السوق الإسرائيلية، بشروطها الجائرة، سواء في العمل الأسود، أو بأجور متدنية (نصف أجر نظيره الإسرائيلي)، أو بضمانات أقل، مما حد من فرص العمال في الانخراط في النقابات، وأضعفت وعيهم الطبقي، ونضالهم المطلبي، ومن باب أولى كفاحهم السياسي [٥].

لقد كان يمكن لتزايد العمل المأجور، على حساب الزراعة، و " الموظفين لأنفسهم "، لو لم يكن القطاع الزراعي رازحًا تحت الاحتلال.

رغم هذا كله، عجز الاحتلال عن خلق قاعدة اجتماعية له، فيما افتقدت البرجوازية المحلية الروابط الاقتصادية فيما بينها، كما افتقرت إلى جهاز إنعاشها المصرفي وإن كانت فئات وسطى، بعد أن غدا التعليم أداة للحراك الاجتماعي. مما وسع القاعدة الاجتماعية " للخيار الفلسطيني "، على حساب قاعدتي " الخيار الأردني "، واستمرار الاحتلال، فاشتدت مقاومة المحتل، وسالت الدماء، وإن أدت سيادة النمط " المؤسساتي " إلى نمو اتجاهات بيروقراطية، ما أعاق عمل المؤسسات، لحساب حركة الجماهير، التي أبدعت " اللجان الشعبية "، منذ اللحظات الأولى لاندلاع الانتفاضة.

حدِّث ولا حرج، عن الأساليب الفاشية للمحتل الإسرائيلي، التي تمثلت في أشكال العقاب الجماعي؛ من نسف البيوت، إلى حملات

الاعتقال بالجملة، ناهيك عن قتل المواطنين، بالجملة وبدم بارد، من قبل المستوطنين، الذين استمرأوا، أيضًا، إحراق مزارع الفلسطينيين، وخطف أبنائهم، والاعتداءات المتكررة على المساجد، والكنائس، وأضرحة الأولياء، وقبور الشهداء.

لعل من فضلة القول بأن أولئك المستوطنين إفراز طبيعي لمجتمع فاشي، قام على اغتصاب حقوق الغير، ورضع الأفكار العنصرية، منذ عقود؛ أي أن أولئك المستوطنين ليسوا نتوءًا شاذاً، أو حفنة من المتطرفين في مجتمع " معتدل " أو " ديمقراطي ".

نأتي إلى الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، التي استمرأت سياسة، " العصا والجزرة "، تجاه أهالي الضفة والقطاع، ومؤداها تجميد الخدمات الأساسية، ومعها النشاط الاقتصادي، بالحد الأدنى من الكلفة والمستخدمين، مع تجنب المواجهة مع المواطنين، وضبط مقاومتهم المدنية عند الحد الأدنى، ناهيك عن قمع المقاومة المسلحة، ومحاولة عزلها عن المواطنين.

لقد مثلت " انتفاضة الحجارة " الانفجار الحتمي لصراع النقيضين، الذي استمر مشتعلاً، متصاعدًا، منذ اليوم الأول للاحتلال، رغم بعض الانحناءات المؤقتة، إن الانتفاضة هي الثمرة الناضجة للوعي الوطني العالي.

اندلعت الانتفاضة، أخيرًا، بعد مؤشرات يمكن للعين المجرَّدة أن تلتقطها، فخلال عام ١٩٨٧، تصاعدت الأعمال المسلحة، الفلسطينية، في

الضفة والقطاع، وقعت النسبة الأكبر منها خارج نفوذ الفصائل الفلسطينية، وفي ليلة ١٩٨٧/١١/٢٥ هاجمت طائرة شراعية للجبهة الشعبية - القيادة العامة معسكرًا للجيش الإسرائيلي، وأوقع الهجوم ستة قتلى من جنود المعسكر. فكان هذا الهجوم آخر لمسة تحضير للانتفاضة، جراء الجرعة المعنوية الكبيرة إلى شعب الضفة والقطاع، بسبب تمريغ الغطرسة الإسرائيلية في الوحل.

كان طبيعيًا أن تتسم الانتفاضة بزخم جماهيري ضخم، جراء تمتعها بإجماع طبقي لافت. لكن الانتفاضة أخذت في التراجع المطرد، بعد اندلاعها بأشهر عدة تحت ضغط جملة من الأسباب، لعل في مقدمتها تورط القيادة الفلسطينية المتنفذة في مساومة مبتذلة مع إسرائيل والولايات المتحدة، وظهور رأسين للمقاومة (حماس، والقيادة الوطنية الموحدة) عدا الرأس الثالث في الخارج، إفقاد " اللجان الشعبية " مضمونها، وانفلات الاغتيال السياسي، ووهن العامل العربي، التداعيات الكارثية لحرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ١٩٩١)، وانهيار " المعسكر الاشتراكي " صديق العرب، وانفراط عقد الاتحاد السوفييتي (١٩٩١)، وأخيرًا ارتفاع الكلفة البشرية للانتفاضة، وتأخر مردودها، لأكثر من ثلاث سنوات متصلة، دفع خلالها قرابة ١٥٠٠ شهيد، وثمانية آلاف جريح، بينهم نحو خمسة آلاف معاق، عدا ثلاثة آلاف معتقل وسجين.

قطرت الانتفاضة مجتمع الضفة والقطاع وراءها، ومع هذا المجتمع قيمه، وعلاقاته، بتفاوت في الدرجة، مع اختلاف الموقع الجغرافي، والطبقي، والعربي، والنوعي (الجنس). حيث لم يكن ثمة مفر من تطور

المجتمع، والإنسان، والصور الاجتماعية؛ استجابة للتنظيم الذاتي، الذي ارتقى إليه الشعب هناك، من خلال لجانه الشعبية، التي أشرفت على الشؤون العامة للناس، وسيرَّت أمور تنظيم الانتفاضة، ومقاومة الاحتلال، عدا عن معالجتها المشاكل التي أخذت تنشأ بين الناس.

لقد أفرزت متغيرات الانتفاضة قيمًا، وعادات، وتقاليد جديدة، إيجابية، في مجملها. ونما وعي الصغار على نار الانتفاضة.

إلى ذلك وفرت الانتفاضة بنية تحتية عريضة، لحياة مستقلة عن إسرائيل، عبر أجهزة طبية، وزراعية، وتربوية، فضلاً عن بدائل محلية لقسم كبير من المنتجات الإسرائيلية، بالاقتصاد المنزلي، الذي استحدث بتوسع، وهذا الكاتب الإسرائيلي، ديفيد جروسمان يلاحظ بأن " الفلسطينيين يتجددون، يعيدون إحياء أنفسهم " (٦).

أما التغير الأكبر، فتجلى في مجال الأسرة، التي غدت تقدم شتى الخدمات، فيما تحول البيت إلى مدرسة، مع تمرد الأطفال، والفتيان، على النظام، والأوامر الصحيحة. وقد توطدت الروابط الصحيحة، وقد توطدت الروابط الأسرية، وروح الفريق، والمساواة الاجتماعية، وسادت مظاهر التضامن والتكامل، وتراجعت كثيرًا معدلات الطلاق، وبدا وكان عصر التوزيع الجائر للعمل داخل الأسرة قد ولىَّ. وأكسبت الانتفاضة الجميع العزة والتشبث بالحق، والتحدي البنَّاء، وتخلت الأسرة عن الكثير من مظاهر الاستهلاك في حفلات الزفاف. فأخذت المادة والمنفعة في التراجع، كمعيار، لحساب المشاعر الوطنية، والقضية العامة. كما اجتاحت الانتفاضة كل القيم الفاسدة التي زرعها الاحتلال، باختصار،

استحدثت الانتفاضة قيمًا جديدة، وطوَّرت قيمًا أخرى قديمة. وبهذا كله توفر لمجتمع الضفة والقطاع سانحة ذهبية للتطور [٧].

في السياق نفسه، تعززت حميمية العلاقات الأسرية، بتوفر فرص أطول للحوار، بفعل ساعات الفراغ الطويلة، وحظر التجوال، وثانيًا تحت الضغط النفسي العام، وثالثًا فإن تردي الأحوال المعيشية رتَّب على الزوجين مسئوليات أكبر. فاستجدت نظرة أكثر جدية للحياة الزوجية، وتم رفع مرتبة المرأة، وتفهم موضوعي للمرأة العاملة، وفخر بالنشيطات النقابيات، والسياسيات، فقد شاركت المرأة في كل الأنشطة، على نحو يفوق الرجل، أحيانًا [٨].

مع هذا الكنز الكفاحي، عجز المتنفذون في الخارج عن تثمير الانتفاضة، أساسًا بسبب ترددهم، ومن ثم أخفقوا في بلورة ذرائعهم لقبول " اتفاق أوسلو "؛ فمن تدهور الوضع العربي، إلى افتقاد " المعسكر الاشتراكي "، ناهيك عن الأزمة المالية التي أخذت بخناق منظمة التحرير.

فيما كان عرفات رفع منسوب التنازلات المجانية، التي دأب على تقديمها للعدو، منذ خريف ١٩٨٨، حين أعلن في جنيف نبذ منظمة التحرير الكفاح المسلح، باعتباره " إرهابًا "! لمجرد أن تجلس الإدارة الأمريكية على مائدة مباحثات مع منظمة التحرير.

فيما كان وراء اندفاع عرفات في اتجاه مهاودة الأعداء أربعة دوافع رئيسية؛ أولها فزعه من الصعود المطرد لحماس، وثانيها تخوف عرفات

من احتمال توصل الوفد الفلسطيني في واشنطن إلى تسوية ما مع الوفد الإسرائيلي، مما يسدل الستار عليه وعلى منظمة التحرير، أما ثالث الدوافع فتمثل في خشية عرفات من عودة الملك حسين إلى الضفة الغربية. ويبقى الدافع الرابع، المتمثل في رعب عرفات من الرغبة المحمومة لدول الخليج من أجل إقصاء عرفات عن رئاسة كل من " فتح " ومنظمة التحرير، على حد سواء، عقابًا له على تأييده لصدام حسين في حرب الخليج الثانية.

لهذا كله تقدم عرفات إلى العدو الإسرائيلي بأقل سعر في مناقصة التسوية، فرست عليه المناقصة في أُوسلو على النحو المعروف.

أما إسرائيل فتمثلت دوافعها في:

- فتح الباب لتصفية القضية الفلسطينية.
- إزاحة العائق الفلسطيني من طريق الأنظمة العربية، المتلهفة لإقامة علاقات مع إسرائيل.
- محاولة تجميل الوجه الإسرائيلي البشع.

سارعت الإدارة الأمريكية إلى حث أصدقائها من العرب على دعم " اتفاق أوسلو "، وإنهاء المقاطعة العربية لإسرائيل، وإسقاط القرارات التي أصدرتها الأمم المتحدة ضد إسرائيل.

ما مكَّن إسرائيل من أن تعيد صياغة علاقاتها مع العالم، على حساب المصالح العربية. وانفتح الباب لتحويل فلسطينيين من طليعة وطنية قومية مناضلة إلى مجرد أداة لحماية أمن إسرائيل والإسرائيليين. وغدت مناطق

الحكم الذاتي الفلسطيني شريط حدودي جديد. ولم يعد الحوار مع إسرائيل ضمن المحرمات، واهتزت منظومة القيم القومية العربية، وتهددت الطموحات الوطنية الفلسطينية، في الصميم، وتبعثر الصف الوطني الفلسطيني، وقطع الطريق على عودة اللاجئين، وحرم الشعب الفلسطيني من حق تقرير المصير، ومن إقامة دولته المستقلة، فيما أطلقت يد إسرائيل في الاستيطان، وابتلاع المزيد من الأراضي، والسطو على النسبة الأكبر من مياه الضفة والقطاع.

هكذا، ابتعد اتفاق الإذعان (أوسلو) كثيرًا عن الحد الأدنى من طموحات الشعب الفلسطيني، وقد كشف قياديون من " فتح " أن نص الاتفاق أعدته حكومة إسرائيل بنفسها، دون أن يعد له الطرف الفلسطيني، لذا كان طبيعيًا أن يترك " اتفاق أوسلو " آثاراً سلبية عدة، في غير مجال فلسطيني.

فلسطينيًا، حوَّل الاتفاق الأراضي المحتلة إلى مجرد أراضٍ متنازع عليها، كما مزق الشعب الفلسطيني، جغرافيًا، (لاجئي ٤٨، نازحي ١٩٦٧، عرب ٤٨، أهالي الضفة، أهالي القطاع، فلسطينيي دول اللجوء). فضلاً عن تحويل الاتفاق بعض فدائيي الأمس إلى احتلال بالوكالة، متدني الكلفة، وملقاط جمر المقاومة، ناهيك عن رهن القرار السياسي الفلسطيني لدى إسرائيل.

عربيًا، سلخ الاتفاق القضية الفلسطينية عن عمقها الاستراتيجي العربي، بعد أن أظهر الاتفاق من يُفترض أنه صاحب القضية وقد تخلى عن أشقائه، الذين سبق أن خفوا لنجدته. كما سهَّل الاتفاق لحكام عرب

مهمة الصلح مع العدو، ناهيك عن أن الاتفاق أسقط برقع الحياء عن وجه " المطبِّعين "!.

دوليًا، هبط الاتفاق بالقضية الفلسطينية عن المكانة التي سبق للأمم المتحدة أن رفعتها إليها، وقد أخلت الأمم المتحدة موقعها كمرجعية دولية لحساب الإدارة الأمريكية، عدونا الأول.

عدا عن أن التوقيع على الاتفاق وتوابعه في أراضٍ محتلة، فيما لم يتم تبادل وثائق التصديق بين الطرفين. وقد زاد الطين بلة أن المفاوض الفلسطيني افتقر إلى التفويض، والخبرة، في آن.

فجأة لاح الأمل في الخروج من نفق أوسلو، بمجرد أن فتحت الحكومة الإسرائيلية، يوم ١٩٩٦/٩/٢٥، نفقًا تحت المسجد الأقصى أمام السيَّاح، فانفجرت " هبَّة النفق "، على مدى ثلاثة أيام متصلة، سقط خلالها ٨٤ شهيدًا فلسطينيًا، عدا مئات الجرحى.

لقد حرفت هذه الهبَّة سخط الأهالي من السلطة إلى العدو الإسرائيلي. وجاءت الفائدة الثانية للسلطة، إذ لوَّحت بتلك الهبَّة على إمكانية خلق متاعب للإسرائيليين، إذا ما تلاعبوا بالاتفاق.

حين حل تاريخ منح السلطة الفلسطينية حق إقامة دولتها المستقلة (١٩٩٩/٥/٤)، ماطلت إسرائيل، وتلكأت، وتململ عرفات. فدعا الرئيس الأمريكي، بيل كلنتون، في ٢٠٠٠/٧/١١، عرفات وباراك، إلى كمب ديفيد، في الولايات المتحدة، في محاولة لبلورة اتفاق تسوية بينهما، لكن قضية القدس حالت دون التوصل إلى اتفاق. فيما كان " حزب الله " قد

أحرز نصرًا باهرًا في الجنوب اللبناني، حين أجبر جنود الاحتلال إلى الانسحاب من طرف واحد (٢٠٠٠/٥/٢٥)، ما زاد في حرج عرفات، فدفع إلى إشعال الانتفاضة. وحانت الفرصة حين دنس آريل شارون باحة المسجد الأقصى (٢٠٠٠/٩/٢٨)، فانفجرت " انتفاضة الأقصى والاستقلال "، في تأكيد جديد على أن القدس خط أحمر، وأن الشعب الفلسطيني يمتلك خزانًا ثورياً ضخمًا، واستعدادًا غير محدود للتضحية، وعودة الروح إلى الفصائل الفلسطينية، وعروبة القضية الفلسطينية، واضطرار الأنظمة العربية إلى مسايرة شارعها، والتأكيد، مجددًا، على مدى التحيُّز الأمريكي لإسرائيل، واستلام الأمم المتحدة للبلطجي الأمريكي، وعجز أوروبا الغربية عن التفلت التام من التبعة للولايات المتحدة.

لكن الظروف لم تكن مواتية لانتصار هذه الانتفاضة، ومع ذلك أقحم عرفات الشعب فيها، حتى يحرف سخط الشعب عن خطايا السلطة إلى العدو الإسرائيلي من جهة، وحتى يستخدمها في مساومة ذلك العدو من موقع قوة، توهم عرفات بأن الانتفاضة ستوفره للمفاوض الفلسطيني، دون أن يراعي عرفات البدهية الثورية التي لطالما حذرتنا من التلاعب بالانتفاضة!.

* * *

مراجع الفصل السابع والعشرون

(١) لمزيد من التفاصيل عن أسباب خروج " فتح الانتفاضة "، وسيرتها الأولى، يمكن الرجوع إلى:

عبد القادر ياسين، **أزمة فتح / جذورها، أبعادها، مستقبلها**، ط٤، دمشق، دار الجرمق، ١٩٨٥.

(*) منذ أواخر سبعينيات القرن العشرين شاع مصطلح " الصحوة الإسلامية "، التي أعيدت إلى عوامل عدة. في فلسطين كانت المنارات الإسلامية، والمكانة الرفيعة لرجال الدين الإسلامي، واتساع دائرة التعليم الديني، وقوة حضور التيار الإسلامي في محيط فلسطين (مصر، والأردن)، والتحاق مئات الآلاف من أبناء فلسطين، بالأقطار الآخذة بالمظاهر الإسلامية، وانتصار الثورة الإسلامية في إيران (١٩٧٩)، والتحام الدين بالوطنية في بعض الأداء في الوطن العربي، واستفحال الضائقة الاقتصادية، والتراجع الملحوظ للحركة الوطنية الفلسطينية العلمانية، وتوالي الإحباطات على رأس الشعب الفلسطيني، ما جعل قطاعات منه تتجه إلى الله، طلبًا للحماية، واتساع نفوذ المتدينيين اليهود في إسرائيل، وتوالي هجمات اليهود على أماكن العبادة الإسلامية والمسيحية، ونمو الدور السياسي للمؤسسة الدينية الإسلامية في الضفة والقطاع، وإحساس قطاعات من الفلسطينيين بالاغتراب، أمام التقدم التكنولوجي الإسرائيلي، فضلاً عن رغبة نسبة غير قليلة من أبناء الشعب الفلسطيني في اختبار الجديد، ناهيك عما أحدثته انتصارات " حزب الله " في هذا المجال.

(**) <u>اتفاق عمان:</u> تم توقيعه بين الملك حسين وياسر عرفات، في عمان، في ١٩٨٥/٢/١١، للسير معًا نحو تحقيق تسوية، ولإنهاء الاحتلال، على أساس " الأرض مقابل السلام "، ودولة فلسطينية ضمن اتحاد كونفدرالي، أردني - فلسطيني. لكن المعارضة اشتدت في وجه عرفات، ما اضطره إلى إلغاء الاتفاق المذكور، بعد سنة واحدة من عقده.

(٢) عبد القادر ياسين، **مجتمع الانتفاضة الفلسطينية**، القاهرة، سلسلة " كتاب الأهالي " (٤١)، ١٩٩٢، ص ١٤ - ١٦.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ١٦ - ١٧.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٧ - ١٨.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ١٨ - ٢٤، ٤٥ - ٤٨.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ١٧ - ٩٤.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٥٠ - ٥٦.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٩٢ - ١١٥.

الفهرس

الفهرس

* * *